د. منى المرشود

أَنْتَ لي

رواية

الجزء

2





الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

الطبعة الرابعة

أَنْتَ لي

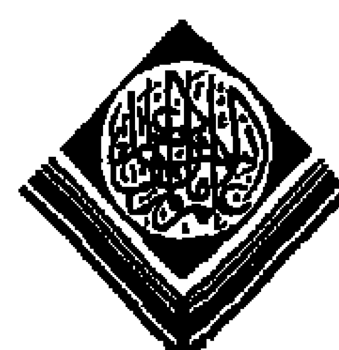
أَنْتَ لي

رواية

الجزء الثاني

منى المرشود





الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى: 2007 م - 1428 هـ
الطبعة الثالثة: 2014 م - 1436 هـ
الطبعة الرابعة: 2015 م - 1436 هـ

ردمك 978-614-01-1249-0



أطياف للنشر والتوزيع
هاتف/فاكس: ٨٥٤٩٥٤٥ (٣) ٩٦٦+
جوال: ٠٥٠٥٨٦٨٧٧١ - ٩٦٦+
القطيف - شارع القدس
ص.ب. ٦١٢١٥ القطيف ٣١٩١١
المملكة العربية السعودية
E-mail: atyaf-pd@hotmail.com

توزيع



الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
ص.ب: 5574-13 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

تصميم الغلاف: **علي القهوجي**

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (1-961+)
الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (1-961+)

المحتويات

الحلقة السادسة والثلاثون

انفتح أيّها الصندوق

- وليد -

وقفتُ غير مصدّق لما أرى... متوهماً أنّه الحلم الذي لطالما راودني منذ سنين...

لكن... بالتأكيد فإنّ الشيء الذي يقف أمامي هذه اللحظة... يضمُّ ذراعيه إلى بعضهما البعض... ويقشعر بدنه إنْ خوفاً أو برداً... هذا الشيء الملفوف في السواد... هو بالتأكيد كائنٌ بشري...

وليس أي كائن...

تحديداً هي رغد!

«وليد... أنا خائفة! دعني أبقى قربكَ!».

لا أعرف مَنْ الذي حرّك يدي، نحو مكبس المصباح، وأناره... هل يمكن أنْ أكون قد فعلتُ ذلك بلا وعي؟؟

الإنارة القوية المفاجئة أزعجتْ بؤبؤي عيني، فأغمضتُ جفوني بسرعة، ومِنْ ثمَّ فتحتها ببطء...

رأيتُ وجه رغد بجفونها الوارمة الحمراء، وتعبيرات الهلع على وجهها...

«رغد... أأنتِ على ما يرام صغيرتي؟؟».

«أنا أشعر بالخوف... وليد... المكان موحش و... ويثير الذكريات... المؤلمة! أخاف البقاء وحدي».

أنا أفهم ذلك وأتفهّمه. قلتُ:

«حسناً... تعالي اجلسي هنا».

وأشرتُ إلى مقعد بالجوار، فجلستْ رغد عليه... وبقيتُ واقفاً برهة... ثمَّ جلستُ على طرف سريري...

كنتُ في منتهى التعب والإرهاق وأشعر برغبة ملحّة جداً في النوم... لا بد أنَّ رأسي سيهوي على السرير فجأة وأغط في النوم دون شعور!

نظرتُ إلى الفتاة الجالسة على مقربة جاهلاً ما يتوجّب عليّ فعله الآن!

سألتُها:

«ألا تشعرين بالنعاس؟ ألستِ متعبة؟».

«بلى... لكن... لا أشعر بالطمأنينة! لا أستطيع النوم...».

ورفعتْ يدها إلى صدرها كمن يريد تهدئة أنفاسه المرعوبة.

قلتُ:

«لا تخشي شيئاً صغيرتي... ما دمتُ معكِ».

ولا أدري مِنْ أين ولا كيف خرجتْ هذه الجملة في مثل هذا الوقت والحال! وهل كنتُ أعنيها أم لا... وهل كنتُ جديراً بها أمْ لا!

لكن فتاتي استرختْ تعبيرات وجهها وتلاشى القلق عنها، ثمَّ تنهَّدت تنهيدةً عميقةً جداً...

ثمَّ أسندتْ رأسها إلى المقعد وأرختْ ذراعيها إلى جانبيها... وأغمضتْ عينيها!و أظن... والله الأعلم... أنها نامتْ!

«رغد!... رغد؟».

فتحتْ رغد عينيها ببطء ونظرتْ إليّ...

«إنكِ بحاجة للنوم!».

ردتْ، بشيء لا يتوافق وكلمتي البسيطة:

«غرفتكَ لمْ تتغيّر أبداً وليد! كم أنا سعيدة بالعودة إليها!».

وأخذتْ تدور بعينيها في الغرفة...

كان الهدوء الشديد يسيطر على الأجواء... فالوقت متأخّر... والعالم يغطُّ في الظلام والسبات...

قالتْ وهي تشير إلى موضع في الغرفة:

«كان سريري هنا سابقاً! هل تذكر يا وليد؟».

ثم وقفتْ وسارتْ نحو الموضع الذي كان سرير رغد الصغير يستلقي فيه لسنين... قبل زمن...

قالتْ:

«وأنتَ كنتُ تقرأ القصص الجميلة لي! كم كنتُ أحبُّ قصصكَ كثيراً جداً يا وليد! ليتَ الزمن يعود للوراء... ولو لليلة!».

عندها وقفتُ أنا... وقد استفقتُ فجأة مِنْ نعاسي الثقيل... وقفزتُ إلى قمة اليقظة والصحوة... وكأنَّ نهراً مِنَ الماء البارد قد صُبَّ فوق رأسي...

التفتتْ إليَّ صغيرتي وقالتْ:

«كنتُ... كنتُ أحتفظ بالقصص التي اشتريتَها لي في بيتنا الثاني... لكن... أحرقتها النيران!».

رجعتْ بي الذكرى إلى البيت المحترق... فإذا بالنار تشتعل في معدتي... أضافتْ رغد بصوت أخف وأشجى:

«تماماً كما احترقتْ الصورة...».

«رغد...».

إنه ليس بالوقت المناسب لاسترجاع ذكريات كهذه... أرجوك... كفى! نظرتْ مِنْ حولها

ثمّ قالتْ:

«لا تزال كتبك منثورة! أتذكر...؟ كنتُ تستعد للذهاب إلى الجامعة لإجراء امتحانٍ ما! أليس كذلك؟؟ أليس هذا ما أخبرتني به؟؟ أتذكر؟؟».

لا أريد أنْ أتذكّر!

أرجوكِ أيتها الذكرى... توقفي عند هذا الحد... أرجوكِ...

لا تعودي إلى ذلك اليوم المشؤوم... لو كان باستطاعتي حذفه نهائياً... لو كنتُ...؟؟؟

كنتُ أريد الهروب السريع مِنْ تلك الذكرى اللعينة... لكنها كانتْ تقترب... وتقترب أكثر فأكثر... حتى صارتْ أمامي مباشرة...

عينان تحدّقان بعيني بقوة... تقيّدان أنظاري رغم عني... عينان أستطيع اختراقهما إلى ما بعدهما...

خلف تينك العينين، تختبئ أمرُّ الذكريات وأبشعها...

أرجوك يا رغد...

لا تنظري إلي هكذا... لا ترمني بهذه السهام الموجعة...

لِمَ لا تعودين للنوم؟؟

«وليد...».

«إه... نعم... صــ... غيرتي؟؟».

«لماذا... لمْ تخبرني بالحقيقة؟».

قلتُ بصوت متهدرج:

«أي... أي حقيقة؟».

«إنك... قتلته!».

آه... آه...

إنه فأس يقع على هامتي...

لقد فلقتِها يا رغد... ما عدتُ قادراً على الوقوف... نصفاي سينهاران...

«وليد... لماذا لمْ تخبرني؟؟ أنا يا وليد... أنا... لمْ أدرك شيئاً... كنتُ صغيرة... وخائفة حدَّ الموت... لا أذكر ما فعلتَ به... ولا... ولا أذكر... ما فعله بي!».

عند هذه اللحظة... وفجأة... ودون شعور مني ولا إدراك... مددتُ يدي باندفاع نحو رغد وانقضضتُ على ذراعيها بقوّة...

انتفضتْ فتاتي بين يدي هلعاً... وحملقتْ بي بفزع... لا بد أنَّ قبضتي كانتا مؤلمتين آنذاك...

خرجتْ هذه الجملة مِنْ لساني كالصاروخ في قوّة اندفاعها... مخلِّفةً خلفها سحابة غبار هائلة تسدُّ الأنوف وتكتم الأنفاس... وتخنق الأفئدة...

«ماذا فعل بكِ؟».

وكررتُ بجنون:

«ماذا فعل بكِ يا رغد؟؟... أخبريني؟؟ حتى... حتى لو كان قد... لامس طرف حزامك فقط... بأطراف أظافره القذرة... كنتُ سأقتله بكل تأكيد... بكل تأكيد...».

فجأة رفعتْ رغد يديها وغطّت وجهها... وهي تطلق صيحة قصيرة...

كانتْ قبضتا يديّ لا تزالان تطبقان على ذراعيها... ثمَّ انقضتا على يديها... وأبعدتُهما بسرعة عن وجهها، فيما عيناي تحملقان بعينيها بقوة...

هتفتُ:

«ماذا فعل بكِ؟؟».

كانتْ رغد تنظر إليّ بذعر...

نعم إنه الذعر...

أشبه بالذعر الذي قرأته في عينيها ذلك اليوم...

تملّصتْ رغد مِنْ بين يدي وابتعدتْ بسرعة، واتجهتْ نحو المقعد الذي كانتْ تجلس عليه قبل قليل... وارتمتْ عليه... وهتفتْ:

«لا أريد أنْ أذكر ذلك... لا أريد...».

وعادتْ لإخفاء وجهها خلف كفيّها.

دارتْ بي الدنيا آنذاك وشعرتُ برغبة شديدة في تمزيق أي شيء... أي أي شيء!

التفتُ يمنة ويسرة في اضطراب باحثاً عن ضحية تمزيقي... وبعض زخّات العرق تنحدر مِنْ جبيني بينما أشعر باختناق... وكأنَّ تجويف حنجرتي لمْ يعد يكفي لتلقّي كميّة الهواء المهولة والممزوجة بذلك الغبار والتي يرغمها صدري الشاهق على الاندفاع إليه...

تحركتُ خطوة في كل اتجاه... وبلا اتجاه... بعثرتُ نظراتي في كل صوب... وبلا هدف...

وأخيراً وقع بصري على شيء مختبئ عند إحدى زوايا الغرفة...

يصلح للتمزيق!

توجّهتُ إلى ذلك الشيء، والتقطتُه عن الأرض... تأمّلته برهة... واستدرتُ نحو رغد...

إنه صندوق الأماني القديم... الذي جمع أمنيات صغرنا منذ ثلاثة عشر عاماً أو أكثر...!

ها قد آنَ أخيراً... أوان استخراج الأماني...

ولِمَ علينا الاحتفاظ بها مخبّأة أطول ما دامتْ الأقدار... أبتْ تحقيقها؟

على الأقل... أمنياتي أنا...

يجب أنْ يتمزّق أخيراً...

والآن يا رغد... جاء دوركِ!

«رغد».

ناديتُها فلمْ تستجب مباشرة. اقتربتُ منها أكثر حتى صرتُ أمامها مباشرة. هي جالسةٌ على المقعد مطأطئة الرأس... وأنا واقفٌ كشجرة بلا جذور في انتظار اللحظة التي تهب فيها

الرياح، فتقلعها...

«رغد... أتذكرين هذا؟».

وازدردتُ ريقي...

إنها اللحظة التي لطالما انتظرتها... سنين وسنين وسنين، وأنا أتوق شوقاً وأحترق لهفةً لمعرفة أمنيتكِ يا رغد...

رفعتْ رغد رأسها وأخذتْ تنظر إلى الشيء المحمول بين يدي...

نظرتْ إليه نظرة مطوّلة... ثمَّ اتسعتْ حدقتا عينيها وانفغر فاها وشهقتْ شهقة مذهولة!

إذن، فأنتِ تذكرينه؟؟

إنه صندوق أمانيكِ يا رغد... أيتها الطفلة العزيزة... أنا صنعته لك منذ 13 عاماً... في ذلك اليوم الجميل... حين قدمتِ إليَّ منفعلةً وأنتِ تحملين كتابك الصغير وتهتفين:

(«وليد... وليد اصنع لي صندوقاً»).

تحرّكتْ عينا رغد مِنْ على الصندوق إلى عينيَّ... شفتاها الآن تحرّكتا ورسمتا ما يشبه الابتسامة المترددة...

وأخيرا نطق لسانها:

«صندوقي!!».

ثم هتفتْ متفاجئة:

«صندوقي! أوه... إنه صندوقي!».

وهبّتْ واقفة والتقطتْه مِنْ بين يدي!

«يا إلهي!».

قلتُ:

«أتذكرينه؟».

رفعتْ عينيها عن الصندوق مجدّداً وقالتْ بانفعال:

«نعم! أذكره! إنه صندوق الأماني».

قالتْ ذلك وهي تؤشر بإصبعها على كلمة (صندوق الأماني) المكتوبة على الصندوق الورقي...

ثم أخذتْ تقلّبه، ومِنْ ثمَّ عبس وجهها ونظرتْ إليَّ بحدّة وسألتْ:

«هل... فتحتَه؟؟».

«ماذا؟».

«فتحتَه؟؟».

إنه سؤال بسيط! وعادي جداً! أليس كذلك؟؟

ولكن... لِمَ لَمْ أستوعبه؟؟ ولِمَ تطلّب مني الأمر كل هذا التركيز والجهد البليغين حتى أفهمه؟؟

هل فتحته؟؟ أَوَ تسألين؟؟
رغد!
ألَمْ أقطع لكِ العهد بألا أفتحه دون علمك؟؟
أتشكّين في أنني... قد أخون عهدي معكِ ذات يوم؟
ألا تعرفين ما سبّبه لي وما زال يسبّبه لي صندوق أمانيك هذا مُذ صنعته وحتّى اليوم؟؟
هل تعتقدين إنّه اختفى مِنْ حياتي بمجرّد أنْ علّقته هناك فوق رف المكتبة؟؟
إنه لمْ يكن في الحياة... صندوق أهمُّ مِنْ صندوقكِ!
قلتُ:
«لا... مستحيل!».
أخذتْ تقلّبه في يدها ثمّ نظرتْ إليَّ بتساؤل:
«ماذا حدث له إذن؟».
إن كنتم قد نسيتم فأذكِّركم بأنني ذات مرّة ومِنْ فرط يأسي وحزني جعّدتُ الصندوق في قبضتي...
قلتُ:
«إنه الزمن!».
مِنَ الصندوق، إلى عينيَّ إلى أنفي، ثمَّ إلى عيني، انتقلتْ نظرات الصغيرة قبل أنْ تقول:
«إذن الزمن... لا يحب أنْ تبقى الأشياء مستقيمة!».
«عفواً؟؟».
«أليس هو أيضاً مَنْ عقف أنفكَ؟».
رفعتُ سبابتي اليمنى ولامستُ أنفي المعقوف... وعندها تذكّرتُ أنني عندما التقيتُ برغد أوّل مرّة بعد خروجي مِنَ السجن، سألتْني عمّا حدث لأنفي فأجبتها:
(«إنه الزمن!»).
«نعم! إنه الزمن...».
وصمتُّ قليلاً ثمَّ واصلتُ:
«ألنْ تفتحيه؟».
وكنتُ في قمّة الشوق لأنْ أستخرج سرَّ رغد الدفين وأعرف... مَنْ هو ذلك (الصبي) الذي كانتْ تتمنّى الزواج منه عندما تكبر؟؟
نظرتُ إليها بنفاذ صبر... هيّا يا رغد! افتحيه أرجوكِ! أو اسمحي لي وأنا سأمزقه فوراً... وافضح مكنونه!
لكن رغد أومأتْ برأسها سلباً...
كررتُ السؤال:
«ألن تفتحيه؟».

«لن أفعل!».
«لِمَ؟ ألا تتوقين لمعرفة ما بالداخل؟ بعد كل هذه السنين؟؟».
«لا!».
وطأطأتْ برأسها... وقد علتْ خديها حمرةٌ مفاجئة... ما زادني فضولاً فوق فضول لمعرفة ما تحويه!
قلتُ:
«هل... تذكرين... أمنيتكِ؟».
لمْ ترفع رأسها بل أجابتْ بإيماءة بسيطة موجبة.
«ما دام الأمر كذلك... فما الجدوى في إبقائها داخل الصندوق؟».
رفعتْ رغد أخيرا نظرها إليّ وقالتْ:
«لأنها لمْ تتحقّق بعد».
شعرتُ بنبضات قلبي تتوقّف برهة، ثمّ تندفع بسرعة جنونية... وتتخلخل قدميّ وتصطدم بالأرض!
واستطردتْ، وقد بدا الجدُّ والإصرار على ملامح وجهها:
«وسأعمل على تحقيقها مِنْ كل بد... وبأي وسيلة... ومهما كان الثمن!!».
وأضافتْ وهي تلوّح بسبابتها نحوي وتحدُّ صوتها أكثر:
«... ولن أسمح لأي شيء باعتراض طريقي!!».
الكلمات التي خرجتْ بحدّة مِنْ لسان رغد، مقرونةً بالنظرة القوية واللهجة الجدية والمليئة بمعاني التحدّي، جعلتْ تلك النبضات تقفز مِنْ باطن الأرض، وتعود أدراجها متخللة قدميّ المرتجفتين، وتضرب قلبي بعنف... محدِثةً تصدّعاً خطيراً...
اعتقد... أنني أنا (الشيء) الذي لنْ تسمح له باعتراض طريقها... وأعتقد أنّ اسم (حسام) مكتوب على قصاصة قديمة مختبئة داخل هذا الصندوق... واعتقد أنني أتلقّى الآن تهديداً مِنْ حبيبة قلبي... بألا أعترض طريق زواجها مِنَ الرجل الذي تمنّتْ الارتباط به منذ الصغر...
غضبي ثار... حسنا يا رغد... قبلتُ التحدي...
قلتُ:
«وأنا أيضاً لمْ أحقق أمنيتي بعد».
وبحدّة أضفتُ:
«وسأعمل على تحقيقها مهما كلّفني ذلك... وأي شيء يعترض طريقي...».
وصمتُّ برهة، ثمّ أضفتُ:
«سأقتله!».
وسحبتُ الصندوق مِنْ يدها، وأكّدتُ:
«إنه حلمي... والموت وحده ما قد يحول دون نيله... عدا عن هذا يا رغد... عدا عن

الموت... فإنني لن أسمح لأي شيء بأنْ يبعده عنّي... لن أتخلّى عن حلمي أبداً... إنه دائماً أمامي... وقريباً... سيصبح بين يديّ... ولي وحدي...».

لم أشعر بمدى قوة الضغط الذي كنتُ أمارسه على ذلك الصندوق الورقي المخنوق في قبضتي، حتى أطلقتْ رغد صيحة اعتراض.

كانتْ تنظر إلى الصندوق برثاء... ومدّتْ يدها لتخلّصه منّي... إلا أنني سحبتُ يدي بعيداً عنها... ثمّ سرتُ مبتعداً... واتجهتُ إلى مكتبتي ووضعتُ الصندوق المخنوق في نفس الموضع الذي كان يقف فيه قبل سنين...

وحين استدرتُ إلى رغد رأيتها تراقبني بنظرات اعتراض غاضبة.

قلتُ:

«سنرى مَنْ منّا سينجح في تحقيق أمنيته!».

- رغد -

لمْ أفهم معنى تلك النظرة القوية التي رمقني بها وليد! كانتْ أشبه بنظرة تحد وتهديد... وكانتْ مرعبة!

و... في الحقيقة... جذّابة!

أكاد أجنُّ مِنْ هذا الـ وليد! إنّ به مغناطيساً قوياً جداً يجعل أيَّ شيءٍ يصدر منه... نظرة، إشارة، إيماءة، حركة... ضحكة أو حتى صرخة، أو ربما ركلة أو صفعة، أي شيء يصدر منه يجذبني!

لا تسخروا منّي!

يُعجبني ويجذبني سواءً شدَّ معي أو أرخى...

إنه وسط الليل وأنا شديدة التعب أكثر مما تعتقدون، لكن الخوف جعلني أطرق باب وليد...

كان واقفاً قرب المكتبة، استدار إليَّ وقال:

«بعد إذنكِ».

وذهب إلى دورة المياه.

جلستُ على المقعد الذي كنتُ أقف أمامه، وأسندتُ رأسي إليه وشعرتُ بموجة قوية مِنَ النعاس تجتاحني... انتظرتُ وليد... لكنه تأخّر...

في المرّة التالية التي فتحتُ فيها عينيّ... كانتْ أشعة الشمس تتسلّل عبر النافذة والستار وجفوني!

شعرتُ بانزعاج شديد فأنا لا زلتُ راغبة في النوم... لكنني تذكرتُ فجأة أنني في غرفة وليد في بيتنا القديم...

فتحتُ عينيَّ أوسعهما سامحةً للضوء باختراق بؤبؤي واستثارة دماغي وإيقاظه بعنف!

مباشرة جلستُ ونظرتُ مِنْ حولي... وليد كان نائماً في فراشه!

باب الغرفة كان مفتوحاً كما تركتُه ليلة الأمس...

نهضتُ عن مقعدي وشعرتُ بإعياء في مفاصلي... ألقيتُ نظرة على وليد، وكان يغلف جسده الضخم باللحاف وبالكاد تظهر إحدى يديه!

عندما خرجتُ مِنَ الغرفة، توجّهتُ لإلقاء نظرةً سريعة على الصالة، حيث كانتْ الشقراء وأمها تنامان...

ما إنْ ظهرتُ في الصورة حتى رأيتُ أعين أربع تحدّق بي! لقد كانتا هناك تجلسان قرب بعضهما البعض... وتنظران إليَّ!

«ص... صباح الخير!».

قلتُ ذلك ثمَّ ألقيتُ نظرة على ساعة يدي، وعدّلت الجملة:

«أو... مساء الخير».

لمْ تجب أي منهما مباشرة... لكن الخالة قالتْ بعدها:

«مساء الخير. نوم الهناء».

لمْ أرتح للطريقة التي ردّت بها عليَّ، وشعرت أنَّ في الأمر شيء. قالتْ أروى بنبرة مستهجنة:

«صح النوم! هل نهض ابن عمّك؟؟».

تعجّبت مِنَ الطريقة التي كلّمتني بها، ومِنْ كلمة (ابن عمّك) هذه! ولمْ تبدُ لي نظرتها طبيعية...

أجبتُ:

«لا! إنه... لا يزال نائماً!».

تبادلت الاثنتان النظرات... وعادتا للصمت...

ذهبتُ بعدها إلى غرفتي الملاصقة لغرفة وليد... وعندما خرجتُ للصالة بعد قرابة الساعة، رأيتُ الثلاثة، وليد والشقراء وأمها يجلسون سوية في الصالة...

لا أعرف في أي شيء كانوا يتحدّثون... وبمجرّد أنْ لمحوني لاذوا بالصمت! ألا يشعركم ذلك بأنني أنا موضوع حديثهم؟؟؟

إلى وليد وجّهت نظراتي وكلماتي، بل وحتى خطواتي:

«مساء الخير».

«مساء النور...».

وجلستُ على مقربة. نظرتُ إلى الأشياء مِنْ حولي، فأنا لمْ أتأملها البارحة... الصالة كما تركناها قبل عشر سنين... حسبما أذكر، والغبار يغطي أجزاءها! قلتُ:

«سنحتاج وقتاً طويلاً وجهداً مكثّفاً لتنظيف كل هذا!».

أروى قالتْ معترضةً:

«وهل سيكون علينا تنظيف هذا؟ إننا لن نسكن هنا على أية حال».

استغربتُ، ونظرتُ إلى وليد متسائلةً... وهذا الأخير لم يعقّب! قلتُ:
«وليد... ألن نسكن هنا؟».
أجاب:
«سنبقى هنا في الوقت الراهن. لا نعرف كم مِنَ الوقت ستستغرق مسألة استلام الإرث. سأستعين بوالد صديقي سيف. آمل أنْ تسير الأمور بسرعة».
قلتُ:
«أتعني... أننا بعد إتمام هذه المهمّة سنعود إلى المزرعة؟؟».
تولّتْ الشقراء الرد بسرعة:
«بالطبع! ماذا كنتُ تعتقدين إذن؟؟ سنعود للمزرعة ولاحقاً نجري بعض التعديلات في المنزل... ثمَّ...».
ونظرت إلى وليد وقالتْ مبتسمة:
«نتزوّج!».
تخيلوا كيف يكون شعور فتاة تسمع أي امرأة أخرى تقول لها:
(«سأتزوج حبيبكِ»)؟؟
رميتُ سهام نظراتي الحارقة نحو الشقراء البغيضة، ثمَّ نحو وليد... واجتاحتني رغبة عارمة في تمزيقهما سوية!
أهذا ما يخططان له؟؟
يستلمان الإرث الضخم، ويذهبان للمزرعة ليعدّا عشهما ويتزوجان!
ماذا عنّي أنا؟؟
مجرّد هامش زائد لا أهمية له ولا معنى لوجوده؟
كنت أريد أن أسمع من وليد أي تعليق، لكنه ظل صامتاً شارداً... ما أثار جنوني...
ما زالتْ الابتسامة معلّقة على شفتي الحسناء الدخيلة، وها هي تحرّكهما مِنْ جديد وتقول بصوت شديد النعومة:
«فيمَ شردتَ... عزيزي؟».
مخاطبةً بذلك الرجل الوحيد معنا في الصالة، والذي يجلس على مقربة منّي، والذي يجري حبّه في عروقي تماماً كما تجري دماء قرابتنا...
وليد قال:
«كنتُ أفكّر في أنْ ذهب إلى أحَد المطاعم. لا بد أننا جائعون الآن!».

- وليد -

في الحقيقة كان الطعام هو آخر ما أفكّر به، ولكنه أوّل ما قفز إلى ذهني عندما تلقيتُ سؤال أروى وأنا شاردٌ ذلك الوقت...

وما حدث هو أننا ذهبنا إلى المطعم ثمَّ إلى السوق واشترينا بعض الحاجيات ومِنْ ثمَّ عدنا إلى المنزل...

كما واتصلنا بالعم إلياس وكذلك بأمِّ حسام - تحت إصرار مِنْ رغد - وطمأنا الجميع على وصولنا سالمين.

بعدها اتصلت بصديقي القديم ورفيق دراستي ومحنتي... سيف واتفقتُ معه على أنْ يحضر إلى منزلي ليلاً.

تعاونا نحن الأربعةِ في تنظيف غرفة الضيوف قدر الإمكان مِنْ أجل استقبال سيف.

حاولتُ جاهداً أنْ أتجاهل أي ذكرى تحاول التسلل إلى مخيلتي مِن جراء رؤيتي لأجزاء المنزل مِنْ حولي... إلا إنَّ هذه الذكرى الأليمة اخترقتني بكل إصرار!

كان ذلك عندما قمنا بنقل بعض قطع السجاد إلى الخارج... إلى مؤخرة المنزل، حيث تقع الحديقة الميتة والتي أصبحتْ مقبرة للحشائش الجافة ومأوى للرمال الصفراء...

عند إحدى الزوايا... كانتْ عدّة الشواء القديمة تجلس بكل صمود... متحدية الزمن!

لا أعرف لماذا يقشعر بدني كلما رأيتُ هذه بالذات!

ولمْ أكن أعرف أنَّ لها نفس التأثير على أي مخلوق إلى أنْ رأيت رغد... والتي كانتْ تحمل السجادة معي تقف فجأة، وتسند طرف السجادة إلى الأرض... وتمدُّ يدها اليمنى لتلامس ذراعها الأيسر!

صحيح أنها كانتْ صغيرة آنذاك، ولكن حادثة السقوط على الجمر المتّقد هي حادثة أقسى على قلب الطفل مِنْ أنْ ينسى آثارها...

إنَّ أثر الحرق ظل محفوراً في ذراعها الأيسر... وكنتُ أراه كل يوم فيما مضى!

تُرى... ألا يزال كما هو؟؟

وضعنا السجادة الملفوفة قرب أدوات الشواء تلك، ثمَّ جلسنا فوقها نلتقط أنفاسنا!

«ثقيلة جدا! أراهن أنهما لنْ تتمكّنا مِنْ حمل الأخرى!».

قالتْ رغد ذلك... وكانتْ أروى والخالة تحملان سجادةً أخرى ملفوفة وفي طريقهما إلينا قلتُ:

«بل ستفعلان! لا تعرفين كم هما قويتان!».

وأنا أعرف كيف كانتا تعملان الأعمال الشاقة في المزرعة!

قالتْ:

«إنهما متشابهتان جداً».

«نعم... صحيح».

«وجميلتان جداً!».

استغربت... لكنني قلتُ:

«نعم! صحيح!».

واصلتْ رغد:

«وأنتَ محظوظ جداً!».

صمتُّ، وعلتني الريبة! ما الذي تعنيه صغيرتي؟؟ رمقتُها بنظرة استفسار فتطوّعتْ هي بالإيضاح مباشرة:

«لديكَ خطيبةٌ جميلةٌ جداً.. قوية... وثريةٌ جداً!... سوف تعيشان هانئين وسعيدين جداً».

وصمتتْ ثوان ثمَّ استطردتْ:

«أمَّا أنا...».

ظهرتْ أروى والخالة في مرآنا فالتفتنا إليهما. كانتا تجران السجادة بتثاقل... وسرعان ما هببتُ لمساعدتهما.

في الليل حضر صديقي العزيز سيف وكان لقاؤنا حميماً جداً.. تبادلنا الأخبار... فعلمتُ منه أنّه رُزِقَ طفلاً مؤخراً!

«دوركَ يا رجل! وبما أنَّ أموركَ قد استقرَّتْ والحمد لله... فهيا عجّل بالزواج!».

ابتسمتُ لتعليقه المتفائل... إنَّ أموري لمْ تستقر ولمْ تُحل... بل هي آخذة في التعقُّد مرّة تلو أخرى... والآن أنا في حيرةٍ شديدة... ماذا عليَّ أنْ أفعل؟؟

شرحتُ له تفاصيل إرث (عاطف وجيه)... والد (عمّار)... وعمُّ (أروى) التي هي خطيبتي، وابنة صاحبي (نديم وجيه) الذي تعرّفتُ عليه في السجن، بعد قتلي لعمّار... فبدا الأمر أشبه بخرافة مِنْ خرافات الجدّات العجائز!!

«لا إلهَ إلا الله ويا سبحان الله!!! أي قدرةٍ إلهيةٍ عجيبة أودتْ بكَ إلى هذا الوادي يا وليد؟!».

«إنها الأقدار والحِكم الإلهية يا صديقي!».

«إذنْ... ستصبح زوج سيّدة مِنْ أثرى سيّدات المنطقة! سبحان الله! ها قد ابتسمتْ، بل ضحكتْ لكَ الدنيا أخيراً يا وليد!».

ولأنَّ أياً مِنْ علامات السرور لمْ تظهر عليَّ، فإنَّ سيف لاذ بالصمت المفاجئ المتعجّب...

كانتْ في صدري عشرات الهموم إلا أنني لمْ أشأ أنْ أنفثها في وجه صديقي مذ أوّل لقاء يجمعنا بعد طول فراق...

بعد ذلك، اتّفقتُ مع سيف على ترتيب زيارةٍ رسمية لمكتب المحاماة الذي يملكه والده غداً باكراً، واتخاذه محامياً قانونياً لتولّي الإجراءات اللازمة بشأن الإرث.

بعد انصرافه، ذهبتُ إلى الصالة العلوية حيث يفترض أنْ يكون الجميع، فوجدتُ أروى تتصفّح مجلةً كانتْ قد اشترتها عصر اليوم أثناء تسوّقنا، وقد نفشتْ شعرها الذهبي الطويل على كتفيها بحريّة... بينما الخالة ليندا نائمة على المقعد، ورغد غير موجودة...

بادرتني أروى بالسؤال:

«كيف كان اللقاء؟».

«حميماً ومثمراً! سأذهب غداً مع سيف إلى مكتب أبيه وهو محامٍ معروف وماهر، وسننطلق مِنْ هناك!».

«آمل ألا يطول الأمر...».

«إنها أمور تطول في العادة يا أروى! علينا بالصبر».

قالتْ وهي تضع يدها على صدرها:

«أشعر بالحنين إلى المزرعة... وإلى خالي! الجو هنا مغبّر وكاتم... وكئيبٌ جداً يا وليد».

تحرّكتْ الخالة ليندا قليلاً... فالتفتنا إليها ثمَّ قالتْ أروى:

«دعنا نذهب إلى غرفتكَ كي لا نزعجها».

وهناك، في غرفتي واصلنا الحديث... أخبرتُها بتفاصيل لقائي بسيف وما خطّطنا له. وتشعّبتْ أحاديثنا إلى أمورٍ كثيرة ومرَّ الوقت سريعاً دون أنْ نشعر به!

فجأة، سمعتُ طرقاً على الباب.

استنتاجكم صحيح!

العينان الواسعتان ذاتا النظرات الشجية، حلّقتا بعيداً عن عينيّ وحطّتا على الفتاة الجالسة على السرير داخل الغرفة تعبث بخصلات شعرها الذهبية...

ابتسمتُ لصغيرتي... وقلتُ:

«مرحباً رغد!».

رغد لمْ تنظر إليّ، كما لمْ ترد عليّ... ورأيتُ وجهها يحمرُّ! قلتُ:

«تفضّلي».

رفعتْ بصرها إليّ ورمتني بسهم ثاقب! قلتُ:

«أهناك شيء؟؟».

ردّتْ رغد بجملة مضطربة:

«كنتُ... أريد... أريد الهاتف!».

وكرّرت بنبرة أكثر ثقة:

«أريد هاتفكَ لبعض الوقت! هل تعيرني إيّاه؟».

كنتُ متشككاً، لكنني قلتُ:

«بكل تأكيد».

وأحضرتُ لها هاتفي المحمول... وهو وسيلتنا الوحيدة للاتصال... وكنتُ قد اقتنيتُه منذ فترة،

كما استرددتُ هاتفي السابق مِنْ بيتنا المحروق، سليماً ولكن بلا رصيد. تناولتْ رغد هاتفي وشكرتني وانصرفتْ بسرعة...

عندما استدرتُ للخلف، وجدتُ أروى وقد مدّتْ رجليها على السرير واستندتْ على إحدى ذراعيها بينما استخدمتْ الأخرى في العبث بخصلات شعرها الطويل الأملس!

«حان وقت النوم! سأنهض غداً باكراً وأريد أنْ آخذ قسطاً كافياً مِنَ الراحة».
قلتُ ذلك معلنا نهاية الجلسة... فاسحاً المجال لأروى للعودة مِنْ حيث أتتْ.
ساعتان مِنَ التقلّب على السرير... دونْ أنْ يجد النوم طريقه إلى إي مِنْ جفوني الأربعة...
ليس ما يقلقني هو إجراءات الإرث تلك... ولا خططي المستقبليةً... ولا المفاجآت التي يمكن أنْ يخبئها القدر لي...

بل هو مخلوقٌ بشري عزيز على نفسي... يحتلُّ حجرات قلبي الأربع... ويتدفّق منها مع تدفُّق الدم... ويسري في عروقي مع سريانها وينتشر في خلايا جسدي أجمع... ثمّ يعود ليقطن الحجرات الأربع مِنْ جديد...

كائنٌ صغيرٌ جداً... وضعيفٌ جداً... وخوّافٌ جداً!
وهو لا يشعر بالطمأنينة إذا ما ابتعد عنّي... وجاء طلباً لبعض الأمان بقربي...
لكنه اكتفى بأخذ هاتفي المحمول... واختفى خلف هذا الجدار المشترك بين غرفتي وغرفته...

إنني لو اخترقتُ الجدار... سأجده إمّاً نائماً على السرير بأمان... أو باكياً في خوف... أو جاثياً على الأرض في حزن...

أو ربمّا ذارعاً الغرفة جيئةً وذهاباً... في أرق...
إنني لا أستطيع أنْ أنام دونْ أن أطمئن عليها! وستبوء كل محاولاتي بالفشل حتماً!
استسلم! لا تكابر يا وليد!

تسلّلتُ مِنْ غرفتي بهدوء وأنا أتلفّت ذات اليمين وذات الشمال... مخافة أنْ يشعر بي أحد... ووقفتُ عند باب غرفة صغيرتي وأمسكتُ بالمقبض!

كنتُ على وشك أنْ أفتحه لو أنَّ عقلي لمْ يستيقظ ويزجرني بعنف! أي جنون هذا؟؟ مَنْ تظنُّ نفسكَ يا وليد؟؟ كيف تجرؤ؟؟

عدتُ مسرعاً... أجرُّ أذيال الخيبة والعار... ورميتُ بجسدي المثقل على مرارة الواقع... واستسلمتُ لحدود الله...

* * *

لمْ يكن الأمر بالصعوبة التي توقّعتُها لكنه لمْ يكن بسيطاً! الكثير مِنَ الأوراق والوثائق والتواقيع استغرقتْ منا ساعات طويلة. وكان يتوجب عليَّ أخذ أروى إلى المحكمة.

منتصف الظهيرة، هو الوقت الذي عدتُ فيه إلى المنزل بعد جهودي السابقة وأنا أحمل وثائق في غاية الأهمية في يدٍ، وطعام الغذاء في اليد الأخرى!

كيف وجدتُ أروى والخالة؟ وجدتهما منهمكتين في تنظيف المطبخ!
«أوه! لِمَ تتعبان نفسيكما! إنّه مليءٌ بالغبار!».
ردّت الخالة:
«ونحن لا نحتمل الغبار ولا نحبّه يا ولدي. اعتدنا الجو النقي في المزرعة. على الأقل

هكذا سيغدو أفضل».

وضعتُ كيس الطعام على المائدة المحتلة قلب المطبخ. ونظرتُ مِنْ حولي. كل شيءٍ نظيفٌ ومرتّب! كما كانتْ والدتي رحمها الله تفعل. شعرتُ بامتنان شديد لأروى والخالة وقلتُ:

«جزاكما الله خيراً. أحسنتما. أنتما بارعتان!».

أقبلت أروى نحوي وهي تبتسم وتقول:

«هذا لتعرف أيَّ نوعٍ مِنَ النساء قد تزوّجت!».

فضحكت الخالة وضحكنا معها. في هذه اللحظة دخلتْ رغد إلى المطبخ. كان وجهها مكفهراً حزيناً... وبعض الشرر يتطاير مِنْ بؤبؤيها! وجّهتْ حديثها إليَّ، وكان صوتها حانقاً حاداً:

«هل عدتَ أخيراً؟ تفضّل. نسيتَ أنْ تأخذ هذا».

ودفعتْ إليَّ بهاتفي المحمول والذي كنتُ قد أعطيتُها إيّاه ليلة الأمس... وتركته معها فيما رافقتُ سيف إلى حيث ذهبنا صباحاً. ومِنْ ثمَّ غادرتْ مسرعةً وغاضبة...

أنا والسيدتان الأخريان تبادلنا النظرات... ثمَّ سألتُ:

«ما بها؟».

فردَّتْ أروى بلا مبالاة:

«كالعادة! غضبتْ حين علمتْ أنك خرجتَ ولمْ تخبرها! كانتْ تنتظر أنْ توقظها مِنَ النوم لتستأذنها قبل الخروج!».

ولمْ تعجبني لا الطريقة التي تحدّثت أروى بها، ولا الحديث الذي قالته. استدرتُ قاصداً الخروج واللحاق برغد... فنادتْني أروى:

«إلى أين؟».

التفت إليها مجيباً:

«سأتحدَّث معها».

بدا استياءٌ غريبٌ وغير معهود على ملامح أروى... ثمَّ قالتْ:

«حسناً... أسرع إلى مدلَّلتكَ! لا بد أنها الآن واقفةً على أطراف أصابعها في انتظارك!!».

- رغد -

عندما أتى إليَّ كنتُ أشتعل غضباً. كنتُ واقفة في الصالة العلوية أضرب أخماساً بأسداس. وليد بدأ الحديث بـ:

«كيف أنتِ؟».

رددتُ بعنف:

«كيف تراني؟».

صمتَ وليد قليلا ثمَّ قال:

«بخير... ألستِ كذلك؟».

قلتُ بعصبية:

«وهل يهمّك ذلك؟».

«بالطبع رغد! أي سؤال هذا؟؟».

لمْ أتمالك نفسي وهتفت بقوّة:

«كذّاب».

تفاجأ وليد مِنْ كلمتي القاسية وامتقع وجهه، ثمّ إنه قال:

«رغد!... هل لا أخبرتني... ما بكِ؟؟».

اندفعتُ قائلةً:

«لو كان يهمُّك أمري ما خرجتَ وتركتني وحيدة في مكانٍ موحش!».

«وحيدة؟ بالله عليكِ! لقد كانتْ أروى والخالة معكِ!».

«لا شأن لي بأيٍ منهما. كيف تجرؤ على الخروج دون إعلامي! كيف تتركني وحيدةً هنا؟».

«وأين يمكنني ترككِ يا رغد إذن؟؟».

اشتططتُ غضباً وقلتُ:

«إنْ كان عليكَ تركي في مكانٍ ما، فكان أجدر بك تركي في بيت خالتي، مع مَنْ أحبُّهم ويحبونني ويهتمون لأمري... لماذا أحضرتَني معكَ إلى هنا؟؟ ما دمتَ غير قادر على رعايتي كما يجب؟؟».

تنهّد وليد بنفاذ صبر، ثمّ قال:

«حسناً... أنا آسف... لمْ أشأ أن أوقظكِ لأخبركِ بأني سأخرج. لكن يا رغد... هذا سيتكرّر كثيراً... ففي كل يوم سأذهب لمتابعة إجراءات استلام إرث أروى».

أروى... أروى... أروى... إنني بتُّ أكره حتى حروف اسمها...

حينما رأيتُها البارحة في غرفة وليد... وجالسةً بذلك الوضع الحر... على سريره... ونافشة شعرها بكل أحقية... وربما كان وليد يجلس قربها مباشرة قبل أنْ أفسد عليهما خلوتهما... حينما أتذكر ذلك... أتعرفون كيف أشعر؟؟

نفس شعور الليمونة الصغيرة حينما تعصر قهرا بين الأصابع!

أشحتُ بوجهي عن وليد... وأوليتُه ظهري... أردتُه أنْ ينصرف... فأنا حانقةٌ عليه جداً وسأنفجر فيما لو بقي معي دقيقةً أخرى بعد...

وليد للأسف لمْ ينصرف... بل اقترب أكثر وقال مغيّراً الحديث:

«لقد أحضرتُ طعام الغداء مِنْ أحد المطاعم. هلمّي بنا لنتناوله».

قلتُ بعصبية:

«لا أريد! اذهب واستمتع بوجبتكَ مع خطيبتكَ الغالية وأمُّها».

«رغد!».

التفتُّ إليه وصرختُ:

«حل عنّي يا وليد الآن... أرجوك!».

وهنا شاهدتُ أروى مقبلةً نحونا... عندما لمح وليد نظراتي تبتعد إلى ما ورائه، استدار فشاهد أروى مقبلة...

وأروى، طبعا بكل بساطة تتجوّل في المنزل بحريّة وبلا قيود... أو حجابٍ مثلي! قالتْ:

«رتّبنا المائدة! هيا للغداء».

التفتَ إليَّ وليد وقال:

«هيا صغيرتي... أعدكِ بألا يتكرّر ذلك ثانيةً...».

صرختُ بغضب:

«كذّاب!!».

حقيقة... كنتُ منزعجة حد الجنون...! على غير توقّع، فوجئنا بأروى تقول:

«كيف تجرُئين! ألا تحترمين ولي أمركِ؟ كيف تصرخين بوجهه وتشتمينه هكذا؟ تصرّفكِ أرعن وغير مهذّب».

صُعِقتُ للجملة التي تفوّهت بها أروى، بل إنَّ وليد نفسه كان مصعوقاً...

نطق بدهشة:

«أروى!!».

أروى نظرت إلى وليد بانزعاج وضيق صدر وقالتْ:

«ألا ترى كيف تخاطبكَ؟ إنها لا تحترمكَ رغم كل ما تفعل لأجلها! ولا تحترم أحداً...

أنا لا أسمح لأحد بأنْ يهين خطيبي العزيز مهما كان».

قالتْ هذا... ثمَّ التفتتْ إليَّ وتابعتْ:

«يجب أنْ تقفي عند حدّكِ يا رغد... وتتخلّي عن أفعالكِ المراهقة السخيفة هذه... وتعرفي كيف تعاملين رجلاً مسؤولاً يكرّس جهوده ليكون أباً حنوناً لفتاة متدلّلة لا تقدّر جهود الآخرين!».

«أروى!».

هتف وليد بانفعال... وهو يحدّق بها... فردّتْ:

«الحقيقة يا عزيزي... كما ندركها جميعاً...».

التفتَ وليد نحوي... ربّما ليقرأ ملامح وجهي بعد هذه الصدمة... أو ربّما... ليظهر أمام عيني هاتفه المحمول في يده... وأنقضُّ عليه بدون شعور... وأرفعه في يدي لأقصى حد... وأرميه بكل قوّتي وعنفي... نحو ذلك الوجه الجميل الأشقر...!

الحلقة السابعة والثلاثون

ثروةٌ منَ السماءِ

- أروى -

لمْ يكن للضربة التي تلقيتها بيدي في آخر لحظة أي أثر على وجهي أو يدي... لكن أثرها كان غزيراً غائراً في قلبي ومشاعري. ليس فقط لأنني اكتشفتُ مدى الكُره الذي تكنّه رغد لي، بل ولأنني اكتشفتُ أنّ وليد متساهلٌ معها لأقصى حد... بل وبلا حدود...

وفوق كونها فتاة مراهقة شديدة التدلل والغنج، وقليلة التفكير في مشاعر الآخرين وظروفهم، وفوق فرضها لوجودها واحتلالها مساحة كبيرة جداً منْ اهتمام وليد ومسؤوليته، وفوق كرهها لي وغيرتها الواضحة منّي، فوق كل هذا وهذا، رغد تحبُّ خطيبي!!

إنني ومذ سمعتُها تلك الليلة... تهمس له - وهو نائم في السيارة -: (وليد قلبي) وأنا في حالة عصيبة ورغماً عني بدأتُ أراقب كل تصرفاتها وأترجم كل أفعالها على أنها ولعٌ بوليد!

فكيف أصحو ذات صباح، وأذهب إلى غرفة خطيبي فأراها نائمةً على المقعدَ في غرفته؟؟ يومها أخبرتُ أمّي بكل ما جدّ... وأطلعتُها على اكتشافي... وبكيتُ بمرارة.

إنها ومنذ أنْ ظهرت في حياتي... قبل عدّة أشهر... منذ تلك الليلة التي حضرتْ مع وليد ودانة هاربين منَ القصف... وهي تشغل اهتمام وليد وتفكيره!

وبالرغم منْ أنني تعاطفتُ معها كثيراً... للظروف المفجعة التي مرّت بها خلال أشهر... وبالرغم منْ أنني أحسنتُ معاملتها وآويتها وأُسرتي إلى منزلنا... وأسكنتُها غرفتي كذلك... وعاملتُها وأهلي كفردٍ منّا وحاولنا توفير كل ما احتاجتْ إليه... بالرغم منْ كل ذلك، ها أنا أشعر الآن برغبةٍ قوية في إخراجها منْ حياتي أنا ووليد.

وليد خذلني في الموقف الأخير... فعوضاً عنْ زجرها أو تأنيبها وردعها... ما إنْ هربتْ إلى غرفتها بعد رميي بهاتفه المحمول حتّى حثّ الخطى سيراً خلفها هي!

هتف:

«رغد».

ولمْ تكترث له فتوقّف في منتصف الطريق وضرب راحته اليسرى بقبضته اليمنى غضباً... ثمّ التفت إليّ وقال:

«لماذا فعلتِ ذلك؟؟ أروى! ماذا أصابكِ؟؟».

تفاجأتُ منْ سؤاله، فبدلاً مِنْ أنْ يقف إلى جانبي ويواسيني أراه غاضباً منّي أنا! إنني أنا مَنْ تلقّيتُ تلك الضربة مِنْ رغد... ألمْ ترَ ذلك جلياً يا وليد؟؟

قلتُ:

«ماذا فعلتُ أنا؟؟ وليد هل رأيتَ ماذا فعلتْ هي؟؟!! ألَمْ ترَ كيف ضربتني ابنة عمّك؟؟ أليسَ لديكَ شيءٌ تقوله مِنْ أجلي؟؟».

بدا على وليد العصبية أكثر... وظهر كالمستاء مِنْ كلامي أكثر مِنْ استيائه مِنْ فعلة رغد.

قلتُ:

«وليد... تحدّث!».

التقط وليد نفساً أو اثنين عميقين، ثمّ قال وهو يعود أدراجه نحو قلب الصالة:

«كلماتكِ كانتْ قاسيةً وجارحة».

وأذهلني موقفه أكثر وأكثر... قلتُ بانزعاج:

«أليستْ هذه هي الحقيقة يا وليد؟؟ ألا ترى أنها لا تحترمك؟؟ ألا تدرك أنّكَ تبالغ جداً في تدليل ابنة عمّك وكأنها اليتيمة الوحيدة على وجه الأرض؟؟ أنا أيضاً يتيمة يا وليد... ولو كان ابن عمّي عمّار حياً ويرعاني كما ترعى أنتَ ابنة عمّك، لألصقتُ جبيني في الأرض سجوداً وشكراً لله مدى الحياة!».

ولا أدري لِمَ استفزّت هذه الجملة وليد بشكل مبالغ به فصرخ بوجهي:

«اسكتي!!».

اعترتْني رغبةٌ في البكاء لحظتها فآثرتُ الانسحاب وهرعتُ إلى المطبخ، حيث كانتْ أمّي ترتّب الملاعق على مائدة الغذاء.

خاصمتُ وليد للساعات التالية ورفضتُ الذهاب معه إلى المحكمة كما كان يخطط... يحقُّ لي أنْ أغضب حين أرى هذا الموقف البارد مِنْ خطيبي...

ويحقُّ لي أنْ أطالب رغد باعتذار علني أمام وليد... وسوف لن أتخلى عن هذين الحقين هذه المرّة. وسأجعل رغد تفهم أنني المرأة الأولى في حياة وليد... رغماً عن قرابتهما وذكرياتهما السابقة... ورغماً عن أي شعور تحمله هي تجاه خطيبي... أياً كان!

- وليد -

لمْ أكن أدرك أنَّ الشحنات المتضادة بين رغد وأروى قد كبرتْ بسرعة ووصلتْ إلى هذا الحد...

أروى كانتْ قد أخبرتني سابقاً بأن رغد لا تبدي أي مودّة تجاهها وأنها تغار منها!

أتذكرون العدستين الزرقاوين اللتين وضعتهما رغد على عينيها ذلك اليوم؟؟

هل تغار جميع النساء مِنْ بعضهن البعض...؟؟

ألاّ تحب رغد أروى هو أمرٌ مُتحمل لا استبعده، فهي حسبما اكتشفتُ لا تتأقلم مع الآخرين بسهولة...

أمّا أنْ تظهر مِنْ أروى إشارات تدل على عدم حبّها لرغد أو استيائها منها، فهو أمر جديد

لمْ ألحظ أهميته قبل الآن...
وبسبب الخلاف، اضطررتُ لتأجيل زيارتنا للمحكمة حتى اليوم التالي.
الصغيرة الغاضبة ظلَّتْ حبيسة غرفتها طوال الساعات التالية... ورفضتْ الاستجابة لنا حين حاولنا التحدث معها...
أما أروى فقضيتُ فترةً لا بأس بها معها أحاول استرضاءها حتى رضتْ عنّي! حتى وإنْ بذلتُ الجهود القصوى لإخفاته فإنَّ قلقي بشأن رغد كان مصرّاً على الظهور!
كان ذلك صباح اليوم التالي حين كنا أنا وأروى هامين بالخروج قاصدين المحكمة لإتمام بعض الإجراءات اللازمة. كنتُ مشغول البال على الصغيرة التي لمْ أرها منذ الأمس ولا أعرف كيف قضتْ ليلتها... لمْ أكن لأستطيع المغادرة قبل الاطمئنان عليها وإبلاغها بأنني سأخرج. وقفتُ عند أعلى درجات السلم بينما أروى هبطتْ درجات ثلاث قبل أنْ تستدير إليَّ مستغربةً:
«لِمَ وقفتَ؟».
كان القلق مرسوماً على وجهي بشكل لا أظنُّ أروى قد أخطأته! أعتقد إنَّ أحداً لا يحتاج كمية كبيرة مِنَ الذكاء ليعرف السبب!
ضيّقتْ أروى حدقتيها وقالتْ:
«رغد مجدَّداً؟؟».
وبدا الضيق عليها... فقلتُ مسرعاً:
«لا أريد أنْ أخرج دون إعلامها وأسبب لها الإزعاج كالأمس...».
قاطعتْني أروى:
«بربّك وليد! أوه كم تبالغ! ألا تدرك أنها تفعل ذلك لمجرّد الدلال لا أكثر؟؟ ألا تعرف هي سبب مجيئنا إلى هنا؟ هيّا يا وليد دعنا نمضي وننجز المهمة في أقصر مدة ممكنة ونعود للمزرعة».
علّقت قدمي بين أعلى درجة والدرجة التي تليها مِنَ السلم... وبقيتُ برهة متردِّداً...
«وليد! هيا!».
وعوضاً عن الهبوط بقدمي للأسفل رفعتُها للأعلى وأنا أتراجع وأهز رأسي استسلاماً وأقول:
«يجب أنْ أطمئن على الصغيرة أولاً».
سرتُ نحو غرفة رغد... ووقفتُ عند الباب... تبعتْني أروى في صبر نافذ وأخذتْ تراقبني وقد كتّفت ذراعيها ورمتْ برأسها نحو اليمين!
قلتُ:
«أدخلي واطمئني عليها».
فتحتْ أروى ذراعيها ورفعتْ رأسها مندهشة:
«أنا؟؟».
«طبعاً! أمْ هل يُعقل أنْ أدخل أنا؟؟».

وكانتْ جملة اعتراض تكاد تنطلق مِنْ لسان أروى استنكاراً ورفضاً ولكن نظرة رجاء مِنْ عيني جعلتها تتراجع!

«أفعل ذلكَ مِنْ أجلكَ أنتَ وليد».

أروى تقدّمتْ نحو الباب وطرقته طرقاً خفيفاً ثمّ فتحتْه وولجتْ الغرفة... وبقيتُ أنا في الخارج مولياً ظهري لفتحة الباب...

إنه الصباح الجميل!

يكون المرء في قمة النشاط والحيوية والإقبال على الحياة... بأعصاب مسترخية ونفسية مترابطة ومزاجٍ عال!

آخر شيءٍ يتمنى المرء سماعه مِنْ مطلع الصباح هو الصراخ!

«أخرجي مِنْ غرفتي فوراً».

كانتْ هذه الصيحة التي خلخلتْ صفو الصباح منطلقةً مِنْ حنجرة رغد. أجبرني صوت رغد على الالتفات للوراء... وأبصرتُ أروى وهي تقدِم مسرعةً خارجة مِنَ الغرفة في ثوان...

كان وجه أروى الأبيض الناصع شديد الاحمرار كحبّة طماطم شديدة النضج... أما التعبيرات المرسومة عليه فكانتْ مزيجاً مِنَ الغضب والحرج والندم واللوم!

حين التقتْ نظراتنا اندفعتْ قائلة:

«أيعجبكَ هذا؟؟ لمْ يهنّي أحدٌ بهذا الشكل!».

تملّكني الغضب آنذاك... الغضب مِنْ رغد... فتصرفها كان مشيناً... وكنتُ على وشك أنْ أدخل الغرفة لكنني انتبهتُ لنفسي فتوقّفت... وقلتُ بحدّة:

«أنتِ لا تطاقين يا رغد! تخلّي عن تصرفاتكِ هذه خيرٌ لكِ».

والتفتُّ إلى أروى وقلتُ:

«هيا بنا».

الساعات التالية قضيتُها وأروى بين المحكمة ومكتب المحاماة ومكاتب أخرى... نوقع الوثائق الرسمية ونسجّل العقود وخلافها... وبفضلٍ مِنَ الله تذللت المصاعب لنا كثيراً... وأنهينا المهمة...

وبالرغم مِنْ ذلك قضينا ساعات النهار حتى زالتْ الشمس ونحن خارج المنزل. بعد ذلك عدنا للمنزل وتناولنا وجبة غذائنا، أنا وأروى والخالة ليندا.

لا!

لا تعتقدوا أنني نسيتُ رغد!

إنني غاضبٌ مِنْ تصرّفها لكنني قلقٌ بشأنها... وانتهزتُ أوّل فرصة سانحة حين غابتْ أروى بضع دقائق وسألتُ الخالة ليندا:

«ماذا عن رغد؟ هل رأيتِها؟».

«لا أظنّها غادرتْ غرفتها يا بني».

«هل مررتِ بها؟».
«فعلتُ ذلك ولكن... لمْ تتجاوب معي فتراجعتُ».
غيّرتُ نبرة صوتي حتّى صارتْ أقرب إلى الرجاء وقلتُ:
«هل لا فعلتِ ذلك الآن يا خالتي؟ لا بد أنها جائعة... خذي لها بعض الطعام مِنْ فضلكِ».
وابتسمت الخالة وشرعتْ في تنفيذ الأمر وعادتْ بعد قليل تحمل الطعام وتقول:
«تقول أنها ستأكل حينما ترغب بذلك».
هممتُ بالنهوض للذهاب إليها إلا أنَّ الخالة أومأتْ إليّ بألا أفعل... ثمّ قالتْ:
«ليس الآن...».
وركزت نظراتها عليَّ وأضافتْ:
«بني يا وليد... الفتاة بحاجة إلى خالتها... أعدها إليها يرحمكَ الله».
تعجّبتُ... وقلتُ مسائلاً:
«لم تقولين ذلك يا خالتي؟».
أجابتْ:
«أرحها يا بنيّ... إنها صغيرة وقد عانتْ الكثير... افهمْ يا وليد أنها بحاجة إلى أم... وهو شيءٌ... لا يمكنكَ أنتَ مهما فعلتَ... تقديمه».
وأومأتْ برأسها تأكيداً... ثمّ انصرفتْ... أما أنا فبقيتُ أفكّر في كلماتها لوقتٍ طويل...
ألَمْ أعد أصلح... أماً لكِ يا رغد؟؟
الساعة الواحدة بعد منتصف الليل...
كنا أنا وأروى ساهرين نخطّط لمستقبلنا ونناقش مستجدّات حياتنا ونرسم خطوط الغد...
«ستتولى أنتَ كل شيء يا وليد! كل ما هو لي سيكون بين يديكَ وتحت إشرافكَ!».
«لا أعرف يا أروى ما أقول... الثروة كبيرةٌ جداً... وعلينا أنْ نكون حذرين! أمامنا الكثير لنفعله».
كنتُ أشعر بالقلق... فثروة أروى ضخمةٌ جداً... وليس مِنَ السهل أنْ ينتقل أحدهم مِنْ حياة الفلاحة البسيطة فجأةً إلى حياة الثراء الفاحش!
لا أعرف ما الذي يتوجّب علينا فعله بكل تلك المبالغ المهولة التي تركها (أبو عمّار)...
لدى ذكر اسم (عمّار)... قفز إلى بالي شيءٌ كنتُ متقاضٍ عنه حتى الآن...
أروى... لا تعرف حتى الآن أنَّ خطيبها هو الشخص الذي قتل ابن عمّها... عمّها الذي ستتمتع بثروته...!
لا أعلم لِمَ لمْ يأتِ ذكرٌ لهذه الحقيقة حتى الآن... لَمْ أتخيّل نفسي أخبرها بأنَّ الـ (حيوان) الذي قتله ذات مرّة، وبسببه قضيتُ الـ (تسع) سنوات مِنْ عمري في السجن وأضعتُ مستقبلي... هو ابن عمّها (عمّار)!
شردتُ في هذه الفكرة الطارئة... فلحظتْ أروى شرودي... رفعتْ يدها إلى رأسي وأخذتْ

تطرق بسبابتها على صدغي بخفة وتبتسم وهي تقول:
«ما الذي يدور في رأس حبيبي الآن؟؟».
أدركتُ أنها لم تكن باللحظة المناسبة لأفجّر مفاجأة مِنْ هذا النوع، في وجه أروى... كانتْ... فرِحةً جداً وتحلم بالمستقبل المشرق وتفكّر بما سنفعله في المزرعة...
وكم هي طيبة وعفوية... إنها وضعتْ ثروتها كلها بين يديَّ!
ابتسمتُ وقلتُ:
«علينا أنْ نتوقّف عن التفكير ونأوي للنوم! لقد أرهقنا دماغينا بما يكفي لهذا اليوم!».
ابتسمتْ وهي تحرّك يدها هبوطا مِنْ رأسي إلى كتفي إلى يدي فتشدُّ عليها وتقول:
«لَمْ أكن لأعرف كيف أتصرَّف لو لَمْ تكن معي يا وليد... الله بعثكَ لي حتّى تقود أموري إلى الطريق الصحيح... حمداً لكَ يا رب».
وزادتْ ضغطها على يدي وخففتْ صوتها وأضافتْ:
«وشكراً لكَ... حبيبي».
كانتْ تسير بدلال وهي تبتعد عنِّي مقتربةً مِنَ الباب... فتحتْهُ واستدارتْ تلقي عليَّ نظرة أخيرة باسمة، فلوّحتُ لها بيدي والبسمة لا تفارق شفتيَّ...
واستدارتْ لتخرج... وقفتْ برهة... ثمّ عادتْ واستدارت نحوي! لكنْ... هذه النظرة لَمْ تكن باسمة! بل كانتْ متفاجئة!
بعثرتُ الابتسامة التي كانتْ معلّقة على شفتي وعلتْني الحيرة... كنتُ سأسألها (ماذا هناك) إلا أنها عادتْ واستدارت نحو الخارج...
حثثتُ الخطى نحوها ومِنْ خلال فتحة الباب أمكنني رؤية ما أجفل أروى.
كتاب الله المقدّس... مصحف شريف... مضمومٌ إلى صدر شاهق لفتاة ملفوفة بالسواد... تقف على مقربة مِنَ الباب... في حال يخبر الناظر إلى عينيها بمدى الرعب الذي يكتسحها...
ما إنْ ظهرتُ أنا في الصورة حتى استقبلتْني عينا رغد استقبالاً حارقا... شعرتُ بقلبي يهوي تحت قدميَّ... همستُ بصوت مخنوق:
«رغد...!!».
تبادلنا أنا وأروى النظرات المستغربة... تخطّيتُ أروى مقترباً مِنْ رغد وأنا شديد القلق... قلتُ:
«ما بكِ؟؟».
ولو تعلمون... كم عضضتُ على أسناني ندماًو غضباً مِنْ نفسي آنذاك...
لو تعلمون... كم كرهتُ نفسي... وتمنّيتُ لو أنَّ زلزالاً قد شقَّ الأرض وابتلعني فوراً...
صغيرتي... قالتْ... بصوت متهدرج وبكلمات متقطّعة مبعثرة... وبنبرة يأسٍ وقنوط شديدين... كالنبرة التي يطلقها الجاني وهو يستشعر حبل المشنقة يلف حول عنقه... قبل الموت:

«أنا مذعورة...».

وازدردتْ ريقها وتابعتْ:

«ألَمْ... تخبركِ... أمّي... أمكَ... بأنَّ لديَّ... خوفٌ... رهبةٌ مَرَضيَّةٌ... مِنَ الغرباء ومِنَ الوحدة؟ يمكنكَ أنْ تغضب منّي... تتشاجر معي... تخاصمني... لكن... لا تدعني وحدي... المكان موحشٌ جداً... أنا لا أتحمَّل... لا تفعل هذا بي يا وليد...».

إنه حبل الوريد...

ذاك الذي شعرتُ به يتقطّع بخنجر حادٍ مسنن... تألّمتُ ألماً كدتُ معه أنْ ألطم خدّيَّ وأجدع أنفي... وأقتلع عينَيَّ... لولا أنَّ شللاً ما قد ألمَّ بعضلاتي وأعاق حركاتي...

وقفتُ متسمِّراً في مكاني... كالباب الذي أقف جواره... طويلاً عريضاً جامداً... أتأرجح في الهواء... فيما لو أنَّ دفعةً بسيطةً مِنْ طرف إصبعٍ ما قد سُدّدت إليَّ...

لـمَّا لاحظتْ أروى صمتي وسكوني الغير متناسبين والحال، نظرتْ إليَّ باستغراب.

أحسستُ بيدي تمتد باتجاه رغد... وبأصابعي تنثني... وبشبه كلمة يائسة واهنة تتدحرج مِنْ لساني...

«تعالي...».

رغد نظرتْ إلى يدي المشيرة إليها... ثمَّ إلى أروى الواقفة جواري... ثمَّ إليَّ... أومأتُ رأسي مشجِّعاً إياها... وأخيراً تقدّمت نحوي...

تنحّتْ أروى جانباً فاسحةً المجال للصغيرة لدخول الغرفة... كانتْ رغد تسير ببطء وهي محتضنة المصحف الشريف إلى صدرها المرعوب... ورأسها مطأطئ إلى الأرض...

عندما دخلتْ الغرفة، أشرتُ إليها أنْ تجلس على المقعد المجاور للباب، ذاك الذي نامتْ فوقه أول ليلة...

كعصفورٍ جريحٍ ضعيفٍ ومرعوب... جلستْ صغيرتي على المقعد وعيناها تدوران في المكان تفتّشان عن الطمأنينة...

«هل أنتِ على ما يرام؟».

سألتُها وأنا شديد القلق عليها والغضب مِنْ نفسي... كيف كنتُ قاسياً على صغيرتي لهذا الحد؟؟ كيف تركتُها دون رعاية... ودون حتى طمأنة وحيدة منذ الأمس؟؟ كيف قوي قلبي على ذلك؟؟

«رغد صغيرتي أأنتِ بخير؟؟».

عندما رفعتْ رغد بصرها ونظرتْ إليَّ... قتلتْني!

«وليد لا تفعلْ هذا بي! إنْ لَمْ تكن تطِقني... فأعدني إلى خالتي... ولا تدعني أموتُ ذعراً وحيدةً في هذا المكان... أنا لَمْ أُجبركَ على إحضاري إلى هنا... أنتَ مَنْ أرغمني...».

صحتُ بسرعة:

«كلا يا رغد! ليس الأمر هكذا... أنا... أنا آسف عزيزتي لَمْ أقصد شيئاً».

استرسلتْ رغد:

«أعرف أنني لا أُطاق... أنا هكذا صعبة المراس متقلّبة المزاج... لكن أمّي كانتْ تتقبّلني وتعتني بي جيّداً... تحبّني كثيراً... وتتحمّلني بصدر رحب... لَمْ أشعر بالذعر وأنا قريبةٌ منها... لَمْ تكن لتسمح للذعر بمداهمتي... كم كنتُ آمنةً ومرتاحةً في حضنها!».

جثوتُ قربها وقلتُ:

«رغد... سامحيني... لَمْ أقصد ترككِ وحيدة... أنا آسف...».

نظرتْ إليّ نظرةً ملؤها الذعر... ملؤها العتاب... ملؤها الضعف... ملؤها الحاجة للأمان... ملؤها سهام ثقبتْ بؤبؤي عينيّ وأعمتني عن الرؤية...

«أريد أُمّي!».

نطقتْ رغد بهذه الجملة التي جعلتْ ذراعيّ تخرّان أرضاً...

«أريد أُمّي... لا أحد... سيفهمني ويتقبّلني ويهتم بي مثلها!... الله يعلم ذلك... اسأله أن... يأخذني إليها...».

صحتُ:

«كفى!!».

«أريد أُمّي... ألا تفهم؟؟ أريد أُمّي... أريد أُمّي... أريد أُمّي...».

لا إراديا مددتُ يديَّ فأمسكت بيديها بقوّة وأنا أقول:

«كفى يا رغد... قلتُ كفى...».

انفجرتْ رغد قائلة بانفعال شديد:

«كأنّكَ لا تعرف ما حدث لي؟ أنتَ السبب! بقيتُ أكتم السر في صدري كل هذه السنين... ويعصف الذعر بقلبي الصغير... ولا أجرؤ على البوح بما حصل أو حتّى تذكُّره... وأنتَ بعيدٌ لا تعرف ماذا أصابني وما حلَّ بي! ألا تعرف أنني مريضةٌ يا وليد؟ ألا تعرف ذلك؟ ألا تعرف ذلك؟».

اعتصرني الألم وقلتُ متوسلاً:

«يكفي يا رغد... توقّفي... لا تزيدي مِنْ عذابي الآن...».

كنتُ أستطيع الإحساس بالرجفة تسري بيدي رغد. التفتُّ صوب أورى التي كانتْ قابعةً مكانها عند الباب وقلتُ:

«هل لا أحضرتِ بعض الماء؟».

تأمّلتنا أروى لبرهة، ثمّ امتثلت للطلب. كنتُ لا أزال مُمسِكاً بيدي رغد حينما عادتْ أروى بقارورة الماء الصغيرة... تناولتُها منها... وأخذتُ المصحف وقرأتُ بضع آيات... ثمّ دفعتُ بالقارورة نحو رغد:

«اشربي بسم الله».

بنفس الرجفة تناولتْ رغد القارورة الصغيرة مِنْ يدي وقرّبتْ عنقها إلى شفتيها... وعدتُ

بأنظاري نحو كتاب الله وواصلتُ تلاوة الآيات وأنا لا أزال جاثياً على الأرض أمام رغد مباشرة...

كنتُ أستمع إلى أنفاسها القوية... والتي بدأتْ تهدأ شيئاً فشيئاً... حتى إذا ما اختفتْ عن مسمعي رفعتُ بصري نحو الصغيرة فرأيتُها تنظر إليَّ.

«هل أنتِ أفضل الآن؟».

أومأتْ برأسها إيجاباً... فتنهّدتُ بارتياح... وقبّلتُ كتاب الله ووضعتُه جانباً...

«الحمد لله».

قلتُها مبتسماً في وجه المذعورة... فتنهّدت هي بدورها...

«أنا آسفٌ يا صغيرتي... أرجوكِ اغفري لي هذه المرّة... وأعدكِ... بل أقسم لكِ بربِّ هذا الكتاب المقدّس... بألا أسمح لنوبة الذعر باجتياحكِ ثانيةً ما مكّنني الله... طيلة حياتي».

رغد رفعتْ يدها وقالتْ:

«لا... لا داع لأن تقسم على شيءٍ ليس بيدك السيطرة عليه... وعِش حياتك...».

والتفتت نحو أروى ثمَّ إليَّ وأضافتْ:

«بعيداً عمّا لا يمكن، وعمّن لا يطاقون...».

«عفواً؟؟».

«فقط... أعدني إلى خالتي... وسوف لن... أزعجكَ بعد ذلك!».

تنهّدتُ وقلتُ:

«اهدئي أنتِ الآن فقط... ولا تفكّري في أي شيء...».

ربّما الموقف كان غريباً... ربّما يحق لأروى نظرات الاستنكار التي رمقتْني بها في صمت... لكن... كيف كنتم تنتظرون منّي أنْ أتصرّف وأنا أرى صغيرتي تُصاب بنوبة ذعر... بهذا الشكل وهي تحت جناحي؟؟

إنْ لَمْ أكن لأقدّم مجرّد الشعور بالأمان لهذه اليتيمة المذعورة... في هذا البيت الموحش المليء بالذكريات المؤلمة... إنْ لِمْ أستطع تقديم الطمأنينة على الأقل... فما الجدوى مِنْ وجودي حياً على وجه الأرض؟؟

وكطفلة صغيرة... أعدتُ صغيرتي إلى سريرها وبقيتُ جالسا بالقرب منها أتلو المزيد مِنْ كلام الله... حتى نامتْ...

تركتُ باب غرفتها نصف مغلق وعدتُ إلى غرفتي وتهالكتُ على السرير... كانتْ أروى آنذاك جالسةً على ذات المقعد المجاور للباب... وحينما رأتْني أمدِّد أطرافي الأربعة نحو زوايا السرير بتأوّه أقبلتْ نحوي...

«وليد».

كنتُ التفتُ إليها فترى التعب ينبع مِنْ مقلتي...

«إذن... فهي مريضةٌ بالفعل... كما توقّعتُ!».

أغمضتُ عيني متألّماً لهذه الحقيقة... قالتْ أروى:

«لقد... لاحظتُ عليها بعض التصرّفات الغريبة في المزرعة! سبق وأنْ أخبرتكَ بذلك. لكنك لمْ تعلمني بأنها مريضة نفسياً بالفعل».

قلتُ:

«لديها نوعٌ مِنَ الرهبة المرَضيّة... تنتابها حالات مِنَ الذعر إذا شعرتْ بالوحدة أو واجهتْ الغرباء بمفردها... إنه مرضٌ أصابها منذ الطفولة... لكني لَمْ أعلم به إلا العام الماضي».

«يؤسفني ذلك يا وليد».

واستطردتْ:

«هل تتلقى علاجاً أو تراجع طبيباً؟».

«لا، رفضتْ ذلك».

نظرتُ إلى عينَي أروى فوجدتُ فيهما العطف والتعاطف... فبادلتُها بنظرةٍ ملؤها الرجاء والأمل:

«أروى... أرجوكِ... أوقفي دائرة الخلاف بينكما عن الاتساع».

لَمْ تجب أروى مباشرة... ثمّ قالتْ:

«أنا لا أتعمّد فعل شيء لكنها... إنها...».

قاطعتُها قائلاً:

«إنها وحيدةٌ بيننا يا أروى... أرجوكِ اكسبي صداقتها».

وأيضا صمتتْ برهة وكأنها تفكّر في أمرٍ عالق بذهنها ثمّ قالتْ:

«ألا ترى... أنَّ عودتها إلى خالتها ستريحها يا وليد؟».

تنهّدتُ وفكّرتُ قليلاً ثمّ قلتُ:

«سآخذها إلى خالتها... لبضع الوقت».

«لبعض الوقت فقط؟؟

لِمَ لا تتركها مع خالتها فهي ستحتاج إليها أكثر مِنْ حاجتها إليكَ».

ضغطتُ على صدغَيّ ثمّ قلتُ:

«أريد أنْ أنام الآن يا أروى... تصبحين على خير».

انسحبتْ أروى مِنَ الغرفة وعند الباب وقفتْ لإطفاء المصباح ولما همّتْ بإغلاق الباب مِنْ بعدها قلتُ:

«اتركيه مفتوحاً...».

في صباح اليوم التالي وجدتُ رغد مستيقظة وبادية على وجهها الصغير أمارات التعب...

«هل نمتِ جيداً؟».

سألتها فأومأتْ نفياً. أخبرتها بعد ذلك بأنني ذاهبٌ إلى مكتب المحامي وللعجب... قالتْ:

«خذني معك».

ومِنْ أجل عينَي رغد كان عليَّ أنا وأُمّي كذلك الذهاب مع وليد حيثما ذهب!. شعرتُ بالحماقة، ولكنني لمْ أستطع إلا مجاراة هذه الصغيرة المدللة.

في البداية ذهبنا إلى مكتب المحامي (أبي سيف) الذي سار بسيارته إلى جوارنا، ثمَّ إلى مكتبين آخرين. كان وليد يبقينا في السيارة ويرافق المحامي، ثمَّ يعود إلينا ويذكر المكان التالي وينطلق نحوه.

في وقت انتظارنا كنا أنا وأمي نتبادل الأحاديث، بينما رغد لائذة بالصمت المغدق! لم أتعمّد مخاطبتها فأنا لمْ أنسَ بعد كيف رمتْ بالهاتف صوب وجهي ولا كيف طردتْني مِنْ غرفتها ذاك الصباح... إلا إنني أشعر الآن بشفقةٍ عليها لا أدرك ما مصدرها!

عاد وليد وقال:

«سنذهب إلى مكتب إدارة المصنع الآن! قد يطول مكوثنا هناك... أأعيدكنَّ إلى البيت؟».

واستدار إلى الوراء موجهاً نظراته وكذا سؤاله إلى رغد!

رغد قالتْ:

«سنبقى معكَ».

لا أدري أي متعةٍ تجدها هذه الفتاة في البقاء حبيسة السيارة في انتظار عودة وليد. وددتُ أنْ أعترض إلا أنَّ مبادرة وليد بتشغيل السيارة ومِنْ ثمَّ اللحاق بسيارة المحامي جعلتْني ألتزم الصمت.

حين وصلنا إلى المكان المنشود أصابتْني الدهشة!

كان مبنى كبيراً مؤلف مِنْ عدّة طوابق... حديث الطراز ويبدو فاخراً. قال وليد وهو يركن السيارة في أحد المواقف ويبتسم:

«هنا إدارة مصنعكِ يا أروى! هذا المبنى كلّه ملككِ!».

دُهِشتُ، وابتسمتُ في آنٍ واحد، وراودتني رغبةٌ في إلقاء نظرة شاملة. قلتُ - وأنا أمدُّ يدي إلى مقبض باب السيارة وافتحه -:

«سألقي نظرة».

وخارج السيارة وقفتُ وتبعني وليد وجعلتُ أتأمّل المبنى الضخم الذي يُفترض أنْ يكون ملكي!

قلتُ:

«كل هذا... لي!؟».

ابتسم وليد وقال:

«هذا لا شيء! حين ترين المصنع ستفاجئين!... هنيئاً لكِ!».

شعرتُ ببهجةٍ كبيرة اجتاحت قلبي... قلتُ:

«أتمنّى أنْ أراه مِنَ الداخل!».

فكّر وليد قليلاً فقلتُ:

«ألستُ أنا المالكة؟ ألا يمكنني إلقاء نظرة سريعة على ممتلكاتي؟ أرجوك وليد!».

ابتسم وليد وقال:

«لا أعرف إنْ كان هناك سيدات في الداخل، لم يسبق لي الدخول ولكن... لا بأس إنْ كانتْ هذه رغبتك!».

فرحتُ كثيراً وأمسكتُ بيد خطيبي في امتنان...

ما الذي سيجعلني أشعر بسعادةٍ أكثر مِنْ هذه؟؟ لديَّ زوجٌ رائع يقف إلى جواري... وأمامي مبنىً ضخم هو ملكي وجزءٌ منْ ثروتي... لا شكَّ أنني هذه اللحظة أسعد الناس. الحمد لله...

وليد أشار على أمي ورغد أنْ تنزلا... ثمَّ لحقنا نحن الأربعة بالمحامي ووجدنا في استقبالنا أناسٌ آخرون، رافقونا داخل المبنى إلى المكان المنشود!

والمكان المنشود كان المكتب الرئيسي للمبنى... مكتب المدير!

ما إنْ دخلنا حتى وجدنا أناساً آخرين في استقبالنا... أظنهم دُهِشوا لدى رؤيتنا نحن الثلاث - أنا وأمي ورغد - نسير خلف الموكب! لكن ذلك لمْ يمنعهم مِنَ الترحيب بنا عامّة. دُعينا للجلوس في مكانٍ جانبي بعيداً عن الآخرين.

فيما كنّا نعبر الغرفة شاقّات طريقنا نحو المقاعد، كانتْ عيناي لا تتوقّفان عن التجوّل وتأمّل كل ما حولي... في دهشةٍ وإعجاب!

كم كان مكتباً فخماً وراقياً! كل أثاثه يشير إلى مدى البذخ الذي كان عمّي رحمه الله يعيش فيه! استقرّت عيناي أخيراً على الحائط خلف المكتب مباشرة. هناك عُلِّقتْ صورتان كبيرتان جداً لرجلٍ كهلٍ وشابٍ صغير... في إطارين أسودين!

إنهما عمّي وابنه الراحلين، رحمهما الله!

توقّفتْ برهةً أتأمّل الصورتين لهذين الشخصين اللذين ما عرفتهما يوماً في حياتي... وها هي ثروتهما الضخمة تتحوّل بقدرة قادر إلى رصيدي!

«سبحان الله... أتصدّق يا وليد؟ كل هذا لي؟!».

قلتُ ذلك والتفتُّ إلى وليد متوقعةً منه أنْ يكرّر التسبيح... ويمنحني ابتسامةً عذبةً ومطمئنةً مِنْ شفتيه... لكن... لمْ يبدُ على وليد أنّه سمع شيئاً مما قلتُ...

وليد كان يحدّق تجاه الصورتين بحدّة وتعبيرات وجهه غاضبة ومكفهرّة.

عجباً!! لماذا ينظر وليد إلى هاتين الصورتين بهذا الشكل؟؟

«وليد...؟؟».

ناديتُه فرمقني بنظرة غريبة ومخيفة... وعاد يدقق النظر تجاه الصورتين. أليس هذا غريباً؟؟

انتظروا... هذا لا شيء أمام ما حصل بعد ذلك!

«عمّار!!!».

تصوَّروا ممَّنْ خرجتْ هذه الكلمة أشبه بالصيحة المباغتة؟؟

مِنْ رغد!

التفتُّ إلى رغد لأتأكَّد مِنْ أنَّ أذني لمْ تكن تتخيَّل... فرأيتُ رغد تحدّق هي الأخرى تجاه الصورتين وقد علا وجهها الذعر!

والآن ماذا؟؟

رغد تلتفتُ إلى وليد بسرعة... ثمَّ إلى الصورة... وتشير بإصبعها نحو صورة عمّار ابن عمّي... وتعود للهتاف:

«عمّار!!».

ثمَّ تلتفتُ إلى وليد وتقول بذعر:

«إنه هو! أليس كذلك؟ هو... هو!!».

وليد يحدّق برغد الآن... ومزيجٌ مِنَ الغضب والتوتر والقلق وتعبيرات أخرى أجهل تفسيرها بادية على وجهه جاعلة منه جمرة ملتهبة!

رغد ألقتْ عليَّ نظرةً سريعة، ثمَّ على الصورتين، ثمَّ على وليد الذي كان لا يزال يحدّق بها... وهتفتْ:

«وليد!».

وليد اقترب مِنْ رغد وقال:

«أجل... إنهما عمُّ أروى وابنه».

بدا الذهول الفظيع على وجه رغد... وكأنها اكتشفتْ أمراً خطيراً لَمْ تكن تعرفه! أمَّا الذهول الذي علا وجهي أنا فهو لأنني لمْ أكتشف بعد ماذا يدور مِنْ حولي؟!

رغد أمسكتْ بذراع وليد وهتفتْ:

«أخرجني مِنْ هنا!».

تحوّلت نظرات وليد إلى القلق والخوف الفاضحين وفتح فمه ولكن ما خرج منه كان النفَس خالٍ مِنْ أي كلام!

«أخرجني مِنْ هنا بسرعة... أخرجني فوراً».

قالتْ ذلك رغد وضعتْ يدها الأخرى على صدغيها كمن يعاني مِنْ صداعٍ شديد...!

«رغد».

ناداها وليد بصوتٍ حنون قلق فلما رفعتْ بصرها إليه... مالتْ بنظراتها نحو الحائط فأغمضتْ عينيها بسرعة وأخفتْهما خلف يدها وصاحتْ:

«أرجوك...».

مِنْ فوره وليد حثّها على السير متراجعين نحو الباب... وكانتْ لا تزال متشبّثة بذراعه...

وخاطبنا قائلاً:

«هيا بنا».

أنا وأُمِّي ولأننا لمْ نفهم أي شيء... تبادلنا النظرات المستغربة... ولحقنا بوليد ورغد على عجل... وسط أنظار الاستغراب مِنَ الأشخاص الآخرين!

إنَّ في الأمر سرٌ ما!... ما عساه يكون؟؟؟

- وليد -

رغد بين يدي منهارةٌ ومرتبكة...

وأنا معقود اللسان بالدهشة... إنْ منْ رؤية صورة وجه (عمَّار) الخسيس يبتسم تلك الابتسامة الحقيرة... والتي تستفزُّ حتى أتفه ذرَّات النفور في جسدي... أو مِنْ تأثُّر رغد بالصورة... والذعر الذي علاها... والذي يؤكِّد أنها لا تزال تذكر وجه عمَّار... بعد كل تلك السنين...

وكيف لوجه مجرمٍ كهذا أنْ يُنسى؟؟

طفلتي الصغيرة لَا تزال تحتفظ في ذكرياتها بصورةٍ للشاب الحقير الذي تجرَّأ على اختطافها ذات يوم...

ذلك اليوم الذي غيَّر مجرى حياتي... وحياتها كذلك... للأبد...

فتحتُ باب السيارة الأمامي الأيمن وجعلتُها تدخل وتجلس عليه... وجلستُ مِنْ ثمَّ إلى جوارها... كانتْ لا تزال في نوبة المفاجأة والنفور...

وصلني صوت أروى - والتي جلستْ خلفي - تقول:

«ماذا هناك؟؟».

لمْ أجبْ.

«وليد ما الأمر؟».

قلتُ:

«الزمي الصمت يا أروى رجاءً».

قالتْ الخالة ليندا:

«أخبرانا ما الخطب».

قلتُ:

«الصمت رجاءً... مِنْ فضلكما».

وأدرتُ مفتاح السيارة في ذات اللحظة التي ظهر فيها (أبو سيف) وهو يقول:

«ما المشكلة؟».

أطللتُ برأسي عبر النافذة وأجبتُه:

«لنؤجِّل الأمر للغد».

وانطلقتُ بالسيارة عائداً إلى المنزل...

كنتُ أرى رغد وهي تضع يدها على صدغيها ويعبّر وجهها عن الألم بين الفينة والأخرى... فأدرك أنها الذكريات تعود إلى رأسها وتعصرها ألما... فأدوس على مكابح السيارة غيظاً...

عندما وصلنا إلى المنزل أوتْ رغد إلى غرفتها مباشرة... هممتُ باللحاق بها فاستوقفني سؤال أروى:

«ماذا هناك يا وليد؟ هل لا شرحتَ لي؟».

قلتُ بسرعة:

«فيما بعد».

وتابعت طريقي إلى غرفة رغد. كان الباب مغلقاً، طرقته وناديتُ رغد فأجابتْ:

«نعم؟».

وكان صوتها متحشرجا مخنوقا. قلتُ:

«أيمكنني الدخول؟».

أجابتْ:

«ماذا تريد؟».

«أنْ نتحدّث معاً».

«دعني وشأني».

«أريد أنْ أحدّثكِ للأهميّة يا رغد... أيمكنني الدخول؟».

ولمْ تجب. عدت أسأل:

«أأستطيع أنْ أدخل يا رغد؟ أرجوكِ؟».

ولكنها أيضاً لمْ تجب. أرجوكِ يا رغد لا تزيدي عذاباً فوق عذابي. أخذت أطرق الباب وأناديها حتى ردّتْ:

«دعني بمفردي يا وليد».

استدرتُ للخلف في يأس... فوجدتُ أروى تراقبني عن بعد... ولا بد أنَّ عشرات الأسئلة تدور في رأسها... كما تدور عشرات بل مئات الذكريات المريرة في رأسي وتفقده القدرة على التفكير السليم.

استدرتُ نحو الباب مجدّداً وقلتُ مخاطباً رغد:

«لا... لن أدعكِ بمفردكِ يا رغد! سأدخل».

وحرّكتُ مقبض الباب ببطء... ودفعتُ الباب قليلاً للأمام. قلتُ:

«سأدخل رغد!».

ولما لمْ تجب... واصلتُ فتح الباب ببطء وسمحتُ لصريره أنْ يتذبذب في أذنيَّ طويلاً. على سريرها كانتْ صغيرتي تجلس وعيناها موجّهتان نحوي. تقدّمتُ خطىً نحوها وأنا أقول:

«أيمكنني أنْ أدخل؟».

وأعرف أنني في الداخل وأنني كنتُ سأدخل مِنْ كل بدا!. قلتُ:

«أنا آسف!».

طأطأتْ رغد رأسها هاربةً مِنْ نظراتي... اقتربتُ منها أكثر وأكثر وقلتُ:

«أأنتِ بخير؟».

اقتربتُ أكثر وأكثر حتّى صرتُ جوارها مباشرة وقلتُ بصوتٍ حنونٍ:

«لمْ أجد داعٍ يدفعني لأنْ... أخبرك... بأنَّ أروى هي ابنة عم عمّار... وأنَّ الثروة التي حصلتْ عليها كانتْ... لعمّار وأبيه».

رغد رفعتْ نظرها إليَّ وصرختْ:

«لا تذكر اسمه أمامي».

جفلتُ... وابتلعتُ لساني... رغد رمقتْني بنظرة عميقةٍ غصتُ في جوفها فغرقتُ... ولاطمتْني أمواج الأفكار والهواجس... ولمْ أدرِ أين كنتُ ومتى كنتُ... وعلى أية حالٍ قد كنتُ...

تعود للإمساك برأسها كمن يحاول جاهداً منع الذكريات مِنَ الظهور فيه... تتلاعب بي الأفكار والتخيلات حتّى تثير جنوني...

ماذا حصل؟ ماذا لمْ يحصل؟

أجيبيني يا رغد...؟؟

ولمْ تزد حيرتي إلا حيرة...

بعد صمتٍ قصيرٍ طويلٍ في آنٍ واحد... قلتُ:

«حسنا يا رغد... بعد دخولي إلى السجن، تعرّفتُ إلى (نديم)، والد أروى رحمه الله... وقد كان خير رفيقٍ لي وقد ساعدني كثيراً... أحببتُه محبةً خالصة في الله... وقبل موته أوصاني بعائلته خيراً... ولمْ يكن يعرف... أنني...».

ولمْ أكمل، استدرتُ للخلف لأتأكّد مِنْ أنَّ أروى على مبعدة ولا تسمعنا... ثمَّ اقتربتُ مِنْ رغد أكثر وأضفتُ هامساً:

«أنني أنا مَنْ قتل... ذلك الوغد».

بدا التفهُّم على تعبيرات وجه رغد فقلتُ مُخفِضاً صوتي حد الهمس بل حد السكون:

«وهذا... ما لا تعرفه أروى أيضاً».

وتنهّدتُ بمرارة وحيرة وأضفتُ:

«وما أخشى عواقبه...».

شعرتُ بشيء يسيطر على فكري... تبدّلتْ تعبيرات وجهي إلى الجدية والحزم... وتطايرتْ سهام شريرة مِنْ عيني... وشعرتُ بشياطين رأسي تتعارك في داخله...

كانتْ رغد تراقبني بقلق... وبالتأكيد سمعتْني وأنا أعضُّ على أسناني فيما أضيّق فتحتَي عيني وأشدُّ على قبضتي بإصرار وأقول:

«والآن... أصبحتْ ثروة ذلك الحقير... بين يدي...».

الحلقة الثامنة والثلاثون

الوصي المتسلّط

- وليد -

وجّهتْ إليّ سؤالاً مباشراً ولكنني تهرّبتُ منه ثمّ وعدتُ أروى بأنْ أخبرها بالأمر فيما بعد...

ورغم الحيرة والشكّ اللذّين طغيا عليها طيلة الفترة التالية، لمْ تصر على معرفة ما علاقة رغد بعمّار...

في صبيحة اليوم التالي عدتُ إلى مكتب إدارة المصنع الرئيسي... لإتمام المهام المتبقية دون مرافقةٍ مِنْ أحد...

يومها وقفتُ أتأمّل صورتَي (عاطف) و(عمّار)... وابتسمتُ ابتسامة النصر...

ها هي يا عمّار ثروتك الضخمة... تصبح بين يدي... والمصنع الذي كنتَ تتباهى به وتطلب منّي العمل فيه ساخراً... أصبحتُ أنا سيّده...

يا للأقدار...

بعدها أمرتُ بنزع الصورتين وعلّقتُ عوضاً عنهما لوحات لمناظر طبيعية... وأخذتُ أتصرّف وكأنني سيّد المكان ومالكه...

ومنَ الخزانة الرئيسية للأموال المتداولة، وما أكثرها، أخذتُ مبلغاً كبيراً كنا أنا وأروى قد اتفقنا على سحبه لتغطية بعض المصاريف...

أما عن أوّل شيءٍ خطر ببالي آنذاك، فهو إعادة المبلغ الذي استلفتُه مِنْ صديقي سيف قبل عام...

وانطلاقاً مِنْ هذا اليوم بدأتُ أتصرّف في النقود بتصريح مِنْ أروى وأدوّن وأراجع الحسابات واحتفظ بسجلات المصاريف وأُطلعها عليها...

كان لا يزال أمامي الوقت الطويل والجهد الكبير حتى أتمكّن مِنْ وظيفتي الجديدة، ورتّبت الأمور بحيث يظلُّ المصنع تحت إدارة المشرف العام ذاته- السيد (أسامة المنذر) شقيق المحامي (يونس المنذر)- إلى أنْ أستلم المنصب بعد بضعة أسابيع...

والسيد أسامة بشهادة مِنْ سيف ووالده والمحامي يونس هو رجلٌ أمين نزيه الذمّة... وكان هو الساعي وراء تسليم الثروة للوريثة الوحيدة...

كانت خطّتنا تقتضي العودة بأهلي إلى المزرعة أولاً... أما فكرة أروى فكانت الزواج ثانياً... أما عن نفسي فكنتُ أريد تأجيل هذا الأمر... حتى إشعار آخر...

عندما عدتُ إلى المنزل وقت الزوال... ودخلتُ مِنْ ثمَّ إلى غرفة نومي، دهشتُ! فقد كانتْ نظيفةً ومرتَّبة ومنظَّمة تماماً كما كانتْ أيام الصبا... حين غادرتها ذاهباً إلى السجن...

نظرتُ مِنْ حولي مبتهجاً... ثمَّ سمعتُ صوت أروى مقبلاً مِنْ ناحية الباب:

«هل أعجبتكَ؟».

التفتُّ إليها فإذا بي أراها مبتسمةً مسرورة بما أنجزتْ...

قلتُ:

«عظيم! أشكركِ كثيراً... لكن، لا بد أنّك أجهدتِ نفسكِ كثيرا لإزالة أكوام الغبار!».

«ساعدتني أمّي ولمْ تكن مهمّةً شاقّة!».

أعدتُ النظر مِنْ حولي مسروراً... كل شيء غدا ومنظماً متألّقاً... أخذتُ أشمُّ رائحة الماضي... واستعيد الذكريات...

هذا سريري الوثير... وهذا مكتبي القديم... وهذه مكتبتي الكبيرة... وهذه كتبي الدراسية والثقافية... مرصوصة إلى جانب بعضها البعض بكل شموخ... وكأنَّ عشر سنين أو أكثر لمْ تمضِ على هجرها وإهمالها... ها هي تقف في أرففها معزّزة مكرّمة مِنْ جديد!

فجأة... انتبهتُ إلى شيء أثار اهتمامي...

اقتربت مِنَ المكتبة ووزّعتُ نظراتي على جميع أجزائها... ثمَّ التفتُّ إلى أروى وسألتُ بقلق:

«أين الصندوق؟».

نظرتْ أروى إليَّ بعدم فهم وسألتْ:

«أي صندوق؟؟».

قلتُ موضحاً:

«صندوق الأماني... اسطوانة ورقية مغطاة بالطوابع... كانتْ هنا».

وأشرتُ إلى الموضع الذي كنتُ قد تركته فيه ليلة أنْ أبت رغد فتحه. بدا على أروى الفهم فقالتْ:

«آه... تقصد ذاك الشيء الورقي المجعّد البالي؟».

«نعم. أين هو؟؟».

كانتْ أروى تنظر إليَّ باستغراب ثمَّ قالتْ:

«رميتُه!».

دهشتُ... هتفتُ:

«رميتِه!!».

«نعم... ظننتُه قمامة و...».

لمْ أتم جملتي... إذ أنَّ وليد هتف غاضباً:

«أي قمامة؟ لِمَ فعلتِ ذلك؟؟».

ثمَّ خرج مِنَ الغرفة باحثاً عنه واستخرجه مِنْ سلّة المهملات. كان الموقف سخيفاً غريباً لكنه أثار فضولي ودهشتي... سألتُه مستغربة:

«لِمَ تحتفظ بشيءٍ كهذا؟؟».

أجاب بحنق:

«إياك ولمسه ثانية يا أروى...».

ولما رأى منّي نظرات الاستنكار عاد يقول بحدّة:

«إياكِ... أتفهمين؟».

واقعاً لَمْ أفهم شيئاً... لكن فضولي قد تفاقم خصوصاً وأنا أراه ينفعل بهذا الشكل... ثمَّ يعيد ذلك الشيء المجعد إلى المكان الذي كان فيه.

استغرب... ما أهمية عُلبة ورقية مجعّدة مغطّاة بطوابع طفولية قديمة... لرجلٍ في الثامنة والعشرين مِنْ عمره... على وشك إدارة أكبر مصنع في هذه المنطقة؟؟

لا بد أنْ أعرف...

في وقتٍ لاحق، تسلّلتُ إلى غرفة وليد خلسةً وتناولتُ تلك العلبة وتفحّصتُها. اكتشفتُ وجود هذه الجملة مكتوبة عليها: (صندوق الأماني)، واكتشفتُ أنها تحوي فتحةً صغيرة في أحد طرفيها وبأنَّ في داخلها أوراقاً ما!

تملّكني الفضول لفتح العلبة ومعرفة محتواها... وليتّني فعلتُ!

تذكّرتُ تحذير وليد واحتراماً وطاعة لأوامره... تراجعتُ وأعدتُ العلبة إلى مكانها. لكن... ألا يتملّككم الفضول مثلي لمعرفة... قصّة هذه العلبة؟؟

ولو كنتُ عرفتُ قصّتها آنذاك... لتغيّرتْ أمورٌ كثيرةٌ لمْ أدركها... إلا بعد زمن طويل...

– وليد –

«متى ستتزوّج؟».

سألني صديقي سيف هذا السؤال بعد تناولنا العشاء في منزله. كان قد دعانا جميعاً هو وزوجته للعشاء معهما تلك الليلة.

كنتُ أداعب ابنه الصغير (فادي) بين يدي... وأشعر ببهجة لا توصف! ما أجمل الأطفال وما أمتع اللهو معهم...!

أضاف معقباً:

«ونفرح بأطفالكَ يا وليد؟؟».

ابتسمتُ ابتسامة واهية... وأنا أرى الفكرة أشبه بالحلم البعيد... قلتُ:

«لا يزال الوقت مبكّراً!».

استنكر سيف وقال:

«خير البر عاجله يا رجل... ها قد مضتْ فترةٌ لا بأس بها على...».

وغضَّ بصره وأضاف بصوتٍ خافت:

«وفاة والديكَ... رحمهما الله».

انتفضتُ... وكأنني أسمع نبأ وفاة والديَّ للمرَّة الأولى... ونظرتُ إلى سيف الذي عاد ببصره إليَّ... تكسوني علامات الحزن المرير...

تنهّدتُ تنهيدة عميقة... فالذكرى التي لا يمكن أنْ تمحى... لا تزال تثير في صدري آلاماً قاتلة...

الصوت المبهم البريء الذي انطلق مِنْ حنجرة الطفل الصغير بين يدي، كان هو ما جعلني أبعثر الذكرى الماضية وأعود للحاضر.

«لمْ يئن الأوان بعد يا سيف... يجب أنْ أرتِّب أوضاعي وأوضاع عملي الجديد وحياتي الجديدة... وأوضاع أروى... ورغد».

التزم سيف الصمت لكني كنتُ أرى التساؤل يكاد ينسكب مِنْ عينيه. قلتُ:

«تعرف... أصبحتْ المسؤولية الملقاة على عاتقي... كبيرة...».

قال:

«ماذا عن شقيقك؟».

أجبتُ ببعض الأسى:

«لا يزال يقيم في الشمال... وبعد موت والديَّ وانفصاله عن رغد... أصبحتْ هي ضمن مسؤولياتي... أمّا هو... فقد طلب منّي ألا آتي بها لزيارته ثانية...».

واستطردتُ:

«وأنا... لا يمكن أنْ أتزوّج ورغد الصغيرة... تحت وصايتي».

ثم مسحتُ على رأس الطفل الصغير وابتسمتُ بعذوبة وهمستُ:

«وحينما تكبر وتصبح امرأة... سوف أتزوّجها!».

علتْ الدهشة وجه سيف وقال فاغراً فاه:

«ماذا؟؟!!».

ضحكتُ ضحكةً خفيفة وأنا أضمُّ فادي إلى صدري وأقول بمرح:

«إنها قدري يا سيف! ومهما ابتعدتْ ستعود إليَّ!».

لمْ يعلّق سيف ولكنّه ظل في حيرة مِنْ أمري... وأنا واثقٌ مِنْ أنَّ عشرات الأسئلة المبهمة كانتْ تدور في رأسه آنذاك...

وربما تدور في رؤوسكم أنتم أيضاً!

أما أنا فسأستمر في مداعبة الطفل الرائع... وأتمنّى مِنَ الله أنْ يرزقني طفلاً مثله ذات يوم!

سدّدتُ لصديقي الديون التي لحقتْ بي منذ خروجي مِنَ السجن... وشكرتُه كثيراً على الدعوة الممتعة وودّعتُه على أمل اللقاء به بعد عودتي مِنَ المزرعة ذات يوم.

استعنا بالله وانطلقنا باسمه متوكّلين عليه عائدين إلى المزرعة. كان ذلك بعد أسبوعين من مجيئنا. وقد كان مشوار العودة أكثر ابتهاجاً ومرحاً وراحة مِنْ مشوار الحضور. بالطبع، فقد أنجزنا بحمد الله كل شيء وحملنا معنا جزءاً قيِّماً مِنَ النقود...

كان في رؤوسنا خططٌ كثيرة وأفكار عدّة وقطعنا الطريق ونحن نتداولها. أعني بالرؤوس رأسي ورأس أروى والخالة. أما رأس الصغيرة الجالسة خلفي في صمتٍ مُغدق، فالله وحده الأعلم أي أفكار وخطط كانتْ تدور فيه!

دعوني أخبركم بأنّ رغد وأروى لا تزالان متخاصمتين منذ رمتْ الأولى الثانية بهاتفي المحمول ذلك اليوم... ولمْ تزد حقيقةُ علاقة أروى بعمّار... رغدَ إلا نفوراً منها...

ويبدو أنَّ وضع الخصام ناسبهما جداً وأراحهما مِنَ التصادم، وأراح رأسي أنا بالتالي مِنَ الصداع!

لكن إلى متى...؟؟

كما وإنَّ رغد على ما بدا منها قد تنازلتْ عن جزء مِنْ دلالها وأحسنتْ التصرّف طوال رحلة العودة... ألا يريبكم تصرفها هذا؟؟

بقيتْ هادئةً لأنها كانتْ مطمئنّة إلى أنني سأعيدها إلى خالتها... كما وعدتها... وكما نصحتني خالتي ليندا... مِنْ أجلها هي...

كانتْ الأمور تسير بشكل هادئ جداً... والسعادة تغمر قلب أروى... أما أنا فبالرغم مِنْ سعادتي شعرتُ بقلق قهري...

فالأقدار علّمتْني ألا أفرط في الفرح بما بين يدي... خشية مصائب المستقبل...

«دعنا نقيم حفلةً كبيرة فور وصولنا يا وليد... أريد أنْ يشاركني الجميع فرحتي هذه».

قالتْ أروى... فردّت أمها:

«زادكِ الله فرحاً ونعيماً بنيّتي».

ثمّ أضافتْ:

«وبلّغني رؤية أبنائك قريباً... يا رب».

أروى طأطأت رأسها ببعض الخجل ثمّ قالتْ:

«قولي لوليد! فهو مَنْ يؤجّل الأمر!».

كنتُ أراقب الشارع... ولمْ أعلّق... فقالتْ الخالة ليندا:

«خيراً تفعلان إنْ تتزوّجا مباشرةً يا عزيزي... خير البر عاجله يا وليد... دعنا نتمُّ الفرحة ونحتفل بالزواج!».

تضايقتُ مِنْ حديثها... فموعد زواجي مؤجّل إلى أجلٍ غير مسمى... كما وإنَّ ذكرى وفاة والديَّ لم تخمد نارها في صدري بعد...

قلتُ مجارياً:

«سأفكِّر في الأمر لاحقاً».

لماذا يلحُّ عليَّ الجميع بالزواج!؟؟ ألا يوجد رجلٌ خاطب غيري في هذه البلاد؟؟ وظلَّ الحديث عن زواجنا هو المسيطر على الأجواء لفترة مِنَ الزمن... أمّا رغد الصامتة، فكلّما ألقيتُ عليها نظرة رأيتُها تسبح في بحرٍ مِنَ الشرود...

لقينا بعض العقبات في طريقنا خصوصاً مع الشرطة... وكان التفتيش مشدَّداً جداً على بعض الطرق والمداخل... والوضع الأمني في تدهور مضطرد... وكثيراً ما تحظر الرحلات إلى ومِنْ بعض المدن، جواً أو براً...

وأخيراً... وصلنا إلى المدينة الصناعية المدمّرة...

وأخيراً بدأ وجه رغد يتهلّل والابتسامة ترتسم على شفتيها... وإنْ اقترنتْ بوجوم عام للمرأى المحزن...

تعمّدتُ أنْ أسلك طريقاً بعيداً عن بيتنا المحروق، خشية أنْ تقفز الذكريات المؤلمة مِنْ جديد إلى قلبينا فتدميهما...

عندما وصلتُ إلى بيت أبي حسام، أوقفتُ السيارة وبقيتُ ساكناً لبعض الوقت. استدرتُ إلى رغد فوجدتها تنظر إليَّ ربما بنفاذ صبر... قالتْ:

«هل أنزل؟».

قلتُ:

«تفضلي...».

وسرعان ما خرجتْ مِنَ السيارة واتجهتْ إلى بوابة المنزل تقرع الجرس...

«كم سنبقى؟».

التفتُّ إلى أروى التي طرحتْ السؤال وقلتُ:

«بعض الوقت... نلقي التحية ونسأل عن الأخبار».

قالتْ:

«أرجوك وليد لا تطِل المكوث... نحن متعبون ونريد الوصول إلى المزرعة والنوم...».

كان الوقت آنذاك أوّل الليل ولا يزال أمامنا مشوارٌ حتى نصل إلى المزرعة. عندما خرجنا مِنَ السيارة كانت البوابة قد فُتِحتْ وظهر منها أبو حسام وابنه مرحِّبَين...

ورغم ذلك لمْ تخلُ نظراتهما إليَّ مِنَ الريبة والاتهام... ولا بد أنكم تذكرون الطريقة التي غادرنا بها هذا المنزل قبل ذهابنا إلى لمدينة الساحلية...

اعتذرنا عن دعوة العشاء التي ألحّت علينا عائلة أبي حسام لقبولها... متحجِّجين بالتعب...

رغد بدتْ مرتاحةً وسعيدةً بلقاء أهلها كثيراً... منذ الطفولة وهي تحبُّ خالتها وعائلتها وكانتْ ستربى في حضنها لولا أنَّ ظروفهم المادية والعائلية لمْ تكن تسمح آنذاك...

وأخيراً حانتْ لحظة الفراق...

كنتُ أدرك... أنني لمْ أكن لأتحمّل ذلك ولكنني أردتُ أنْ أحقّق لرغد رغبتها وأنجز وعدي بتركها مع خالتها لبضعة أيام...

قبيل انصرافي طلبتُ منها مرافقتي لجلب أغراضها مِنَ السيارة وكان قصدي أنْ أتحدّث معها منفردين...

حملتُ حقيبتـي سفرها الصغيرتين إلى داخل السور الخارجي لحديقة المنزل ووضعتُهما على مقربة وتوقّفتُ... والتفتُّ إليها...

كانتْ تسير إلى جواري... تسبقني بخطوتين أو ثلاث... حاملةً كيساً...

ناديتُها:

«رغد».

التفتتْ نحوي وتوقّفت عن السير. فكّرتُ قليلاً ثمّ قلتُ:

«رغد... تعلمين أنّه... أنني... ما كنتُ لأتركَكِ لولا إلحاحكِ الشديد بالبقاء هنا ولو تـُرك الأمر لي... لأخذتكِ وعدنا جميعاً إلى المزرعة...».

رغد نظرتْ إلى الأرض. قلتُ متعلقاً بأمل أخير:

«هل هذه رغبتكِ فعلاً يا رغد؟؟».

وأومأتْ برأسها إيجاباً... لمْ يكن باستطاعتي إلا أنْ أنفّذ هذه الرغبة مِنْ أجلها هي. قلتُ:

«حسناً... لكن... في أي لحظة تبدّلين فيها رأيكِ ومهما كان أعلميني فوراً...».

نظرتْ إليّ نظرةً شبه مشكّكة فقلتُ:

«وسآتي لأخذكِ في الحال... أتعدين بذلك؟».

كأنها تردّدتْ لكنها قالتْ:

«سأفعل».

«اتصلي بي في أي وقت... ومتى ما احتجتِ لأي شيء... سأترك هاتفي المحمول مفتوحاً على مدار الساعة... لا تتردّدي لحظة... أتعدين بذلك يا رغد؟؟».

ارتسمت علامة غريبة المعنى على وجهها... أهي إبتسامة؟ أمْ هو حزن؟... أهو رضا... أمْ غضب؟؟ أهي راحة أمْ ندم؟؟ لستُ أدري...

«عديني يا رغد؟».

«أعدكَ...».

شعرتُ بالطمأنينة لوعدها... ثمّ قلتُ:

«سأجلب شيئاً... انتظري...».

وحثثتُ الخطى خارجاً إلى السيارة، حيث استخرجت ظرفاً يحوي أوراقا مالية كنتُ قد أعددتُه مِنْ أجل رغد...

عدتُ إليها فوجدتها لا تزال عند نفس الموضع وعلى نفس الوضع... اقتربتُ منها ومددتُ إليها بالظرف قائلاً:

«احتفظي بهذا لكِ».

سألتني:

«ما هذا؟».

«إنها بعض النقود... انفقي منها كيفما شئتِ وإذا ما نفذتْ فابلغيني».

رغد طأطأت برأسها ونظراتها ربَّما حرجاً... فهي المرة الأولى التي أقدّم فيها إليها ظرفاً مالياً...

«تفضّلي يا رغد».

ولكنها لمْ تبادر بأخذه! واحمرّتْ وجنتاها... قلتُ مازحاً:

«هيا صغيرتي! لا يجب أنْ تشعر الفتاة بالخجل مِنْ أبيها!».

هنا نظرتْ إليَّ بسرعة والمزيج المرتسم على وجهها حاوٍ على الدهشة والضحك والاستنكار معاً.

تشجّعتْ ومدّتْ يدها أخيراً وأخذتْ الظرف!

ابتسمتُ مشجعاً وقلتُ:

«اتصلي بي إذا احتجتِ المزيد... ولا تطلبي شيئاً مِنَ الآخرين أو تعتمدي عليهم... أتعدين بذلك يا رغد؟».

أومأتْ إيجاباً... ووضعتْ الظرف داخل الكيس... واستدارتْ متابعةً طريقها نحو المنزل...

وهي تبتعد... وأنا أشعر بأشياء تتمزّق في داخلي... أشعر بأنَّ حزمة كبيرة مِنَ الأعصاب الحسية كانتْ تربط فيما بيننا... ومع ابتعادها أخذتْ تتقطّع عصباً عصباً... وتُحدِث في قلبي ألماً فظيعاً مهلكاً...

كيف أطاعني قلبي...

مددتُ يدي محاولاً الإمساك بذرات الهواء التي تبعتها... وعادت إلي يدي خالية الوفاض... هتفتُ:

«رغد...».

توقفتْ واستدارتْ نحوي... فحال الظلام دون رؤية عينيها...أو ربما حال دون ذلك... عبرة وُلِدتْ للتو... مِنْ أعماق عيني...

حملتُ الحقيبتين وأقبلتُ نحوها فلما صرتُ قربها قلتُ:

«اعتني بنفسكِ جيداً... يا صغيرتي...».

رغد... ربما تفهَّمتْ قلقي ورأتْ في وجهي ما لمْ نستطع لا أنا ولا الظلام إنْ نخفيه... ابتسمتْ وقالتْ مطمئِنة:

«اطمئن... سأكون بخير... وسط أهلي».

وهبطتْ ببصرها للأسفل ونظرتْ إلى الكيس الذي كانتْ تحمله مشيرةً إلى ظرف النقود وأضافتْ بصوت خافتٍ كالهمس:

«شكرا... بابا وليد!!».

- أروى -

لمْ يظهر على وليد أنّه عازمٌ أصلاً على الرحيل! ولو تُرك الأمر له وحده لجعلنا نبات في ذلك المنزل أو نقضي بضعة أيام في المدينة قرب رغد!

أخذ يوصي أفراد العائلة بها خيراً حتّى أثقلهم بوصاياه وشعرتُ بانزعاجهم منه.

اهتمامه الزائد برغد يثير انزعاجي... وقد أصبحتُ أشعر بها وكأنّها شريكةٌ لي في وليد... وهو أمرٌ لا أتحمّل التفكير به فضلاً عن حدوثه.

أخبرني بعد ذلك بأنّه قد دفع إليها بجزء مِنَ النقود التي أخذها مِنَ الخزانة، وبدا وأنّ رغد ستشاركني أيضاً في ثروتي.

بالنسبة لي فقد أعطيتُ وليد مطلق الحرية في التصرف بالنقود والممتلكات. وليد كان قد أخبرني مسبقاً بأنه كان في الماضي يحلم بأنْ يصبح رجل أعمال مثل والده - رحمه الله - وأنّ دخوله السجن قد غيّر مجرى حياته، والآن وبقدرة قادر... تحقّق الحلم.

لمستُ تغيراً كبيراً ورائعاً على وليد ونفسيته وصحّته. أصبح أكثر حيويّةً وسعادةً وإقبالاً على الحياة بروح متفائلة مرحة. ورغم أنّ الساعات التي صار يقضيها في العمل والدراسة قد تضاعفتْ، وجدنا الوقت الكافي والمناسب جداً لنعيش حياتنا ونستمتع بخطوبتنا التي ما كندنا نهنأ بها... في وجود ورغد!

وبالرغم مِنْ أنها ابتعدتْ أخيراً، ظلّ اسم رغد وذكرها يتردّد على لسان وليد يومياً في المزرعة. وكانتْ هي مَنْ يكدِّر صفو مزاجه ويثير قلقه. وما فتئ يهاتفها هي وأهلها مِنْ حينٍ لآخر ويمطرهم بالوصايا حتى بدأتُ أشعر بالضيق.

لكني مع ذلك أحسستُ بالفخر بأنْ يكون لي زوجٌ يعرف معنى المسؤولية ويقدّرها جل تقدير. بعد شقائي وعنائي الكبير وحرماني مِنْ أبي وقسوة الحياة عليّ كل تلك السنين، وهبني الله نعمتين عظيمتين يستحيل أنْ أفرّط بأيٍ مهما كان السبب...

وليد الحبيب... والثروة الضخمة...

ولمْ يبق أمامنا إلا أنْ نتم زواجنا ونبهج قلوب أهلنا ونواصل سويّةً مشوار الحياة الزوجية السعيدة... بإذن الله.

- وليد -

مرّتْ أيام مذ وصلنا إلى المدينة الزراعية الشمالية، وبدأتُ بتنفيذ الخطط التي رسمتُها خلال الأيام الماضية. وظّفتُ المزيد مِنَ العمّال مِنْ أجل العناية بالمزرعة ومحصولها ونظّمتُ برنامجاً خاصاً للإشراف عليها.

في كل صباح تقريباً كنتُ أتصل بمنزل أبي حسام وأتحدّث إلى رغد وأطمئن على أحوالها، ومِنْ خلال نبرة صوتها استنتج أنها مرتاحة وبخير. وبالرغم مِنْ ذلك، كنتُ لا أتوقّف عن التفكير فيها ساعة واحدة.

أجرينا بعض الإصلاحات في المنزل الصغير وجدّدنا بعض قطع الأثاث. انشغلتُ كثيراً بأعمال متعدِّدة، ما جعل الأيام تمضي والفراق يطول... والشوق يزداد.

وبدأتُ أشعر بالحرج مِنْ اتصالي المتكرّر لمنزل أبي حسام وطالبتُ رغد بأنْ تهاتفني كل يومين على الأقل، لكنها لمْ تكن تفعل إلا قليلاً.

أما عن أروى فقد كانتْ مهووسةً بفكرة الزواج التي ما فتئتْ هي والخالة ليندا تلاحقاني بها حتى ضقتُ ذرعاً.

ولمرّة أخرى أصيبتْ الخالة بانتكاسة صحية ونقلناها للمستشفى، الأمر الذي أجّل سفري لفترة أطول.

ذات يوم، اتّصلتُ بمنزل أبي حسام بعد أنْ تملّكتْني الهواجس للحديث مع صغيرتي البعيدة. إنَّ شمساً تشرق وتغرب دون أنْ تريني إياها هي ليستْ شمساً... وإنَّ قمراً يسهر في كبد السماء دون أنْ يعكس صورتها... هو ليس قمراً...

وإنَّ يوماً يمرُّ... دون أنْ اطمئن عليها... هو ليس محسوباً مِنْ أيام حياتي...

«مرحبا...أنا وليد».

«نعم عرفتك... مرحباً... لكن رغد ليست هنا الآن».

كان هذا حسام، وكان يتحدّث بضيق أشعرني بالخجل مِنْ نفسي...

«إلى أين ذهبتْ؟».

«لزيارة بعض المعارف فهل تريد أنْ أبلغها شيئاً؟».

«أبلغها أنني انتظر اتصالها لو سمحتَ... وعذراً على الإزعاج».

وانتظرتُ طويلاً حتى انتصف الليل، ولمْ تتصل... فبتُّ أبثُّ للقمر همّي... وأصبحتُ أعرب للشمس عن نيّتي للذهاب إليها اليوم مهما كان...

نهضتُ عن فراشي باكراً وخرجتُ إلى المزرعة راغباً في استنشاق بعض الهواء المنعش... ذاك الذي يطرد مِنَ الصدر الهموم المكبوتة...

هناك... وجدتُ العمَّ إلياس وأروى يحرثان الأرض... وكان الجو جميلاً جداً وأنسام الهواء باردة تنذر باقتراب الشتاء. اقتربتُ مِنَ الاثنين وهتفتُ محيياً:

«صباح الخير».

التفتا إليَّ باسمين وردّا التحية... قلتُ مستنكراً:

«ما الذي تفعلانه! انتظرا حضور العمّال».

العمُّ إلياس قال:

«في الحركة بركة يا بني».

«الوقت باكر... دعا مهمة حرث الأرض الشاقة عليهم».

واقتربت مِنْ أروى أكثر. ابتسمتْ لي وقالتْ:

«لا تظن يا وليد أنني سأتخلّى عن هذه المزرعة يوماً! لقد وُلدتُ مُزارعةً وسأعيش مزارعةً وإنْ ملكتُ كنوز الأرض...».

ومدّتْ ذراعيها إلى جانبيها مشيرةً إلى ما حولها قائلة:

«هذه المزرعة هي... حياتي!».

العمُّ إلياس فرح بقولها وراح يدعو:

«بارك الله فيك يا بنيّتي... وفي ذريتك».

ثمَّ وجَّه حديثه إليَّ قائلاً:

«هذه الأرض عليها عشنا ومِنْ خيراتها كبرنا ولنْ نترك العمل فيها حتى يحول الموت دون ذلك».

لمْ أتعجّب مِنْ كلام العم، فتعلّقه بالمزرعة أشبه بتعلّق السمكة بمياه البحر... أما أروى فعارض كلامها خططي المستقبلية...

قلتُ:

«أطال الله في عمركَ يا عمّي».

قال متمّاً:

«حتى أحمل أطفالكما فوق ذراعيَّ... تزوّجا وأفرحا قلوبنا عاجلاً يا عزيزاي».

أروى ابتسمتْ بخجل، أما أنا فنظرتُ إلى السماء أراقب سرب عصافير يدور فوق رؤوسنا! آه لو كنتُ أستطيع الطيران!

أروى كانتْ تريد العيش في المزرعة مع والدتها وخالها بقية العمر... أما أنا فقد كنتُ أخطِّط للعودة إلى المدينة الساحلية وتجديد منزلنا القديم والعيش فيه... قريباً مِنْ مصنع أروى وممتلكاتها... حتى يتسنّى لنا إدارة ومراقبة كل شيء...

فلاحة الأرض لمْ تكنْ يوماً حلمي، وإليها لنْ يصير مستقبلي.

وبدا أنَّ الموضوع سيثير صداعاً أنا في غنى تامٍ عنه خصوصاً وأنني لمْ أنمْ جيداً ليلة أمس لكثر ما فكّرتُ في رغد...

قلتُ مخاطباً أروى ومغيِّراً منحى الحديث:

«سوف أذهب إلى المدينة الصناعية هذا اليوم...».

ولا أدري لِمَ شعرتُ بأنَّ جملتي أصابتْ أروى بخيبة الأمل!

- رغد -

ذات يوم، اصطحبنا حسام بسيارته الصغيرة الضيّقة إلى السوق، أنا وابنة خالتي نهلة، وظلَّ مرافقاً لنا طوال الوقت. قضينا فترة لا بأس بها هناك ومع ذلك لمْ يبدِ تذمراً! بل كان غاية

في اللطف والتعاون، والسرور كذلك...!

اشتريتُ العديد مِنَ الأشياء...

تعرفون أنَّه لمْ يعدْ عندي ما يكفي مِنَ الملابس والحاجيات... وأنَّ أشيائي قد احترقتْ في بيتنا الحزين... وأنَّ القليل الذي اقتنيتُه لاحقاً تركتُه في المزرعة. كنتُ أنفق بلا حساب! فالمبلغ الذي تركه وليد معي... كبيرٌ ومغرٍ...

حقيقةً شعرتُ بالخجل وأنا آخذ ظرف النقود منه، ولكنني بالفعل بحاجة إليها... وحتى النقود التي تركها لي أبي رحمه الله قبل سفره إلى الحج، والتي لمْ أنفق منها ما يذكر، احترقتْ في مكانها في البيت...

وحتى بقايا رماد البيت المحروق... لم يكن لي نصيب في ورثها...

أمّا إرث والديَّ الحقيقيين فلا أستطيع استلامه قبل بلوغي السن القانوني.

بعد أنْ فرغنا مِنْ مهمَّة التسوُّق اللذيذة عُدنا إلى المنزل وارتديتُ بعضاً مِنْ أشيائي الجديدة شاعرةً بسعادة لا توصف...

فقد قضيتُ الشهور الماضية ملفوفةً في السواد، مقيّدة الحرية، في مزرعة الغرباء.

فيما بعد... قرَّرنا أنا وخالتي وأبناؤها قضاء بعض الوقت في حديقة منزلهم.

أبو حسام كان يحبُّ حديقة منزله ويعتني بها جيداً، وبعد أنْ احترقتْ شجيراتها في القصف الجوِّي آنفاً، أعاد ترميم المنزل وزراعة وتنظيم الأشجار والعشب... ودبّت الحياة في تلك الحديقة مجدَّداً.

كنتُ قد اخترتُ مِنْ بين ملابسي الجديدة جلابية زرقاء فضفاضة طويلة الكمَّين، ووشاحاً طويلاً داكن اللون، وخاتماً فيروزياً برَّاقا لأقضي بهم نزهتي داخل حديقة المنزل.

الجو كان لطيفاً وأنسام الهواء عليلة ونشطة... الشمس قد احمرَّ ذيلها في الأفق... وتسابقتْ غيوم خفيفة على حجب حمرتها الأخَّاذة عن أعين الناظرين... بينما امتدَّتْ الظلال الطويلة على العشب... مُضفيَةً عليه خضرةً نضرة...

المنظر مِنْ حولي خلابٌ ومبهج للغاية... إنها بدايات الشتاء...

فرشنا بساطاً كبيراً على العشب الرطب، وجلسنا نحن الخمسة فوقه نتناول المكسّرات ونتبادل الأحاديث... ونتسلّى بلعبة الألغاز الورقية!

لقد كنتُ آنذاك مسرورةً ومرتاحة... وغاية في الحيويَّة والمرح!

- وليد -

عندما فُتِحَتْ البوابة، وجدتُ حسام في استقبالي...

تبادلنا التحية ولمْ يحاول إخفاء علامات التعجُّب والاستنكار الجلية على وجهه وهو يستقبلني زائراً دون سابق إعلام.

دعاني للدخول، فسرتُ إلى جانبه وأنا أشعر ببعض الحرج مِنْ زيارتي المفاجئة هذه. هنا

وصلتْني أصوات ضحكات جعلتْني التفتُ تلقائياً نحو المصدر...

على بساطٍ مفروشٍ فوق العشب في قلب الحديقة كانتْ أربع نسوة يجلسنَ في شبه حلقه مستديرة...

جميعهنَّ التفتن إليَّ لدى ظهوري في الصورة وجميعهنَّ أخرسنَ ألسنتهنَّ وبدينْ مندهشات! غضضتُ بصري وتنحنحتُ ثمَّ ألقيتُ التحية... وسمعتُ الرد مِنْ أمِّ حسام مرحبةً بي.

«تفضّل يا وليد... أهلاً بكَ...».

قال حسام:

«تعال شاركنا».

وهو يحثّني على السير نحو البساط... وأضاف:

«كنا نتسلّى بالألغاز! الجو منعشٌ جداً».

وقفتْ شقيقة حسام الكبرى ثمَّ الصغرى هامتين بالانصراف فقلتُ:

«كلاً... معذرةً على إزعاجكم كنتُ فقط أودُّ إلقاء التحية والاطمئنان على ابنة عمّي».

أمُّ حسام قالتْ مباشرة:

«أي إزعاج يا وليد؟ البيتُ بيتُك ونحن أهلك... تفضّل».

«شكراً لكِ خالتي... أدام الله عزَّكِ».

كل هذا وعيني تحدّق في العشب في خجل. وتمكّنتُ مِنْ رفعهما أخيراً بحثاً عن رغد... ورأيتُها جالسةً بين ابنتَي خالتها... وهي الأخرى تبعثر نظراتها على العشب!

يا إلهي... كم اشتقتُ إليها!... لا أصدِّق أنها أمامي الآن...

اعتدتُ رؤيتها كل يوم خلال الأشهر الماضية، منذ التحقتْ برعايتي... ومنذ أسابيع وهي بعيدةٌ عن عيني... مستحوذة على تفكيري...

«كيف حالكِ يا رغد؟».

التفتتْ رغد يمنةً ويسرةً كأنها تبحث عن مصدر الصوت! هذا أنا يا رغد! هل نسيتِ صوتي؟؟

ثمَّ رأيتُها تبتسم ويتورّد خداها وتجيب بصوتٍ خافت:

«بخير».

لمْ يكن جواباً شافياً! أنا أريد أنْ أعرف تفاصيل كل ما حصل مذ تركتكِ هنا تلك الليلة وحتى هذه اللحظة! ألا تعلمين كم كنتُ مشغول البال بكِ؟؟

«كيف تسير أموركِ صغيرتي؟».

وابتسمتْ ابتسامة أكبر... وقالتْ:

«بخير!».

بخير... بخير!

كل هذا وهي لا ترفع نظرها عن العشب الرطب... قلتُ:

«الحمد لله...».

قالتْ أمُّ حسام:

«تفضّل بالجلوس».

قال حسام:

«سأصطحبه إلى المجلس...».

وخاطبني:

«تفضّل وليد».

لمْ أجد بُدّاً مِنْ مرافقته... فذهبتُ تاركاً عقلي مرمياً ومبعثراً هو الآخر فوق ذات العشب!

في ذلك المجلس كان أبو حسام يشاهد الأخبار... وبعد الترحيب بي فتحنا موضوع المظاهرات والعمليات الانتحارية النشطة وعمليات الاعتقال والاغتيالات العشوائية التي تعيشها البلدة بشكل مكثّف في الآونة الأخيرة...

وكذلك المنظّمات السريّة المعادية التي يتمُّ الإيقاع بعملائها وزجّهم إلى السجون أو قتلهم يوماً بعد يوم...

أبو حسام يعمل في الدائرة الأمنية، عملاً مكتبياً، على فكرة.

الأنباء أثارتْ في نفسي كآبةً شديدة ومخاوف متفاقمة خصوصاً بعد أنْ علمتُ مِنه عن تورّط بعض معارفه في إحدى المنظمات المهدّدة بالخطر...

وحكيتُ له الصعوبات التي واجهناها مع السلطات أثناء رحلتَي ذهابنا وعودتنا إلى ومِنَ المدينة الساحلية...

وتعرفون كم أكره الشرطة وأرعب منهم...

فيما بعد... خرجنا نحنُ الثلاثة مِنَ المنزل قاصدين الذهاب إلى المسجد. ونحن نعبر الحديقة رأيتُ رغد مع ابنتَي خالتها وهنَّ لا يزلنْ يجلسنَ على ذلك البساط ويلهون بأوراق الألغاز.

حسام هتف سائلاً:

«مَنْ فاقتْكنَّ ذكاءً؟».

أجابتْ شقيقته الصغرى:

«رغد! إنها ذكيةٌ جداً».

ضحك حسام وقال:

«استعيري شيئاً مِنْ ذكائها!».

وانطلقت ضحكة عفوية مِنْ رغد... حسام قال بمرح:

«... سأغلبكِ في الجولة المقبلة يا رغد! استعدّي!».

قالتْ رغد وهي تنظر إله بتحدٍ:

«قبلتُ التحدّي!».

حسام ضحك وقال بإصرار:

«سترين أنا عبقريتي... انتظري فقط!».

وضحكتْ رغد بمرح... كل هذا وأنا... واقفٌ أسمع وأتفرّج وأخرس لساني وأكتم في صدري غضباً شديداً...

- رغد -

«فيمَ تحدّقين؟».

سألتْني نهلة وهي تراني أحملق في البوابة... التي أغلقها حسام بعد خروجه وأبيه ووليد قبل قليل. قلتُ:

«هل رأيتِ كيف يبدو حسام إلى جانبه؟ كواحد مِنَ الأقزام السبعة!».

تعجّبتْ نهلة وبدا أنها لمْ تفهم شيئاً!. قلتُ:

«أراهن أنَّه سيلحق بهما بسيارته... يستحيل على هذا الشيء أنْ ينحشر داخل سيارة شقيقك تلك! إلا إذا أخرج رأسه مِنْ فتحة السقف!».

وأخذت سارة تضحك بشدّة! لا أدري إنْ لشيءٍ فهمتْه أو لشيءٍ لمْ تفهمه!. وقفتُ بعد ذلك وأخذتُ أمدِّد أطرافي واستنشق الهواء العليل... شاعرةً بسعادة تغمر قلبي... وبرغبة هوسيَّة في معانقة الهواء!

أخذتُ أدندن بمرح... وأمشي حافية على العشب بخفّة... كعصفور على وشك الطيران...

نهلة أصدرتْ أصواتاً خشنة مِنْ حنجرتها للفت انتباهي فاستدرتُ إليها ووجدتُها تراقبني باهتمام...

إنني أشعر بالدماء تتحرّك بغزارة في شعيرات وجهي... ومتأكِّدة مِنْ أنني في هذه اللحظة حمراء اللون!

«(رغد يا صغيرتي كيف تسير أمورك؟)».

قالتْ ذلك نهلة وهي تهبُّ واقفةً على أطراف أصابعها وتنفخ صدرها وترفع كتفيها وتضغط على حبالها الصوتية ليظهر صوتها خشناً، فيما تقطب حاجبيها لتقلّد وليد!

ومرَّة أخرى تنفجر سارة ضحكاً... وتثير عجبي! إنها غبية في أحيانٍ كثيرة ولكن يبدو أنَّ ذكاءها محتدٌ هذا الساعة!

قلتُ موضِّحةً:

«إنه يناديني بالصغيرة منذ طفولتي ما الجديد في ذلك؟».

ونهلة لا تزال قاطبة حاجبيها وتردِّد:

«رغد يا صغيرتي! رغد يا صغيرتي! رغد يا صغيرتي».

وسارة لا تزال تضحك! قلتُ:

«ولأني يتيمة... فهو يعاملني كابنته! وطلب منِّي اعتباره أبي!».
ونظرتْ الفتاتان إلى بعضهما وضحكتا بشدَّة!. قلتُ وأنا أولي هاربةً:
«أوه... خيرٌ لي أنْ أذهب لتأدية الصلاة! أنتما لا تطاقان!».
لمْ يكن لحضور وليد قلبي أي هدف غير الاطمئنان علي، لذا فإنه همَّ بالمغادرة بعد ذلك مباشرةً لولا أنَّ العائلة ألحَّتْ عليه لتناول العشاء معنا...
أنا أيضاً كنتُ أريد منه أنْ يبقى. فمجرَّد وجوده على مقربة... يمنحني شعوراً لا يمكن لأي إنسان منحي شعوراً مماثلاً له...
آه لو تعلمون...
كم في البعد مِنْ شوق وكم في القرب مِنْ لهفة...
كيف سارتْ حياتي بدونك يا وليد؟؟
كيف استطعتُ العيش طوال هذه الأيام بعيدةً عنكَ؟؟
وكيف سأتحمّل رحيلكَ... وكيف سأطيق الذهاب معكَ؟؟
بعد العشاء، وليد وحسام وأبوه خرجوا وجلسوا في الحديقة على نفس البساط الذي كنا نجلس عليه...
كان الجو رائعاً تلك الليلة، لا يُقاوم... ومِنْ داخل المنزل فتحتُ النافذة المطلّة على الحديقة سامحةً لنسمات الليل وضوء القمر، والأصوات كذلك، بالتسلُّل إلى الداخل... بينما أنا أراقب عن كثب... تحرُّكات وليد!
كان وليد غاية في الأدب واللباقة... كان قليل الحديث أو الضحك... مغايراً لحسام المزوح الانفعالي...
وبدا فارق السن بينهما جلياً في طريقة حديثهما وتحرّكهما بل وحتى في الطريقة التي يشربان بها القهوة!
بإدراكٍ أو بدونه... كنتُ أسترق السمع إلى أيِّ كلمةٍ تخرج مِنْ لسان وليد وأراقب حتى أتفه حركة تصدر منه... بل وحتى مِنْ خصلات شعره الكثيف والهواء يعبث بها...
«ما الذي تراقبه الصغيرة الولهى؟».
قالتْ نهلة وهي تنظر إليَّ بمكر... فهي تعرف جيداً ما الذي يثير اهتمامي في قلب الحديقة!
قلتُ متحدّية:
«بابا وليد!».
كادتْ تُطلِق ضحكةً كبيرة لولا أنني وضعتُ كفِّي فوق فمها وكتمتُ ضحكتها.
«اخفضي صوتكِ! سيسمعونكِ!».
أزاحتْ نهلة يدي بعيداً ومثّلتْ الضحك بصوتٍ منخفض ومِنْ ثمَّ قالتْ:
«مسكين وليد! عليه أنْ يرعى طفلةً بهذا الحجم!».

وفتحتْ ذراعيها أقصاهما. كنتُ أعرف أنها لن تدعني وشأني... هممتُ بإغلاق النافذة فأصدرتْ صوتاً... فرأيتُ حسام ينتبه إلينا ثمَّ يلوّح بيده نحونا ويهتف:

«رغد... تعالي».

تبادلتُ ونهلة النظرات وبقيت مكاني. قال حسام:

«وليد يرغب في الحديث معكِ».

عندها ابتعدتُ عن النافذة ووضعتُ يدي على صدري أتحسَّس ضربات قلبي التي تدفَّقتْ بسرعة فجأة. نهلة نظرتْ إليَّ مِنْ طرف عينيها وقالتْ مازحة ساخرة:

«هيا يا صغيرتي المطيعة... اذهبي لأبيكِ».

ولمّا لمْ تظهر على وجهي التعبيرات التي توقعتْها بدا الجد في نظراتها وسألتني:

«ما الأمر؟؟».

قلتُ وأنا مكفهرّة الوجه ويدي لا تزال على صدري:

«لا بد أنه سيغادر الآن...».

نظرتْ إليَّ نهلة باستغراب... بالطبع سيغادر... وجميعنا نعلم أنه سيغادر!... ما الجديد في الأمر...؟؟

قلتُ:

«لا أريده أنْ يبتعد عنّي يا نهلة... لا أطيق فراقه... أريده أنْ يبقى معي... ولي وحدي... أتفهمين؟؟».

في وسط الحديقة... على العشب المبلَّل برذاذ الماء... وبين نسمات الهواء الرائعة المدغدغة لكل ما تلامسه... وتحت نورٍ باهتٍ منبعثٍ مِنَ القمر المتربِّع بغرورٍ على عرش السماء... وقفنا وجهاً لوجه أنا ووليد قلبي...

لأصف لكم مدى لهفتي إليه... سأحتاج وقتاً طويلاً... ولكن الفرصة ضئيلة أمامي... والعد التنازلي قد بدأ...

حسام وأبوه دخلا المنزل تاركَين لنا حرية الحديث بمفردنا... وإنْ كنتُ لا أعرف أيَّ حديث سيدور في لحظةٍ كهذه...؟

نسمات الهواء أخذتْ تشتدُّ وتحوّلتْ دغدغاتها إلى لكمات خفيفة لكل ما تصادفه. وليد بدأ الحديث مِنْ هذه النقطة:

«يبدو أنَّ الريح ستشتدُّ... إنه إنذار باقتراب الشتاء!».

«نعم...».

«المكان هنا رائع...».

وهو يشير إلى الحديقة مِنْ حوله...

«أجل...».

ونظر إليَّ وقال:

«ويبدو أنّكِ تستمتعين بوقتكِ هنا...».
أومأتُ برأسي إيجاباً. قال بصوتٍ دافئ حنون:
«هل أنتِ... مرتاحة؟».
أجبتُ بسرعة:
«بالطبع...».
ابتسم برضا... ثمّ قال:
«يسرُّني سماع ذلك... الحمد لله».
هربتُ مِنْ نظراته وسلّطتُ بصري على العشب... ثمّ سمعتُه يقول:
«ألا... تريدين... العودة إلى المزرعة؟».
رفعتُ رأسي بسرعة وقد اضطربتْ ملامح وجهي... وليد قال بصوتٍ خافت:
«لا تقلقي... فأنا لنْ أجبركِ على الذهاب معي...».
ثمّ أضاف:
«أريد راحتكِ وسعادتكِ يا رغد... وسأنفّذ ما ترغبين به أنتِ».
قلتُ موضّحةً:
«أنا مرتاحةٌ هنا بين أهلي...».
وكأنّ الجملة جرحتْه... فتكلّم بألم:
«أنا أيضاً مِنْ أهلكِ يا رغد...».
تداركتُ مصحّحةً:
«نعم يا وليد ولكن... ولكن...».
وظهرتْ صورة الشقراء مشوّهةً جمال لهذه اللحظة الرائعة... أتممتُ:
«ولكنني... سأظلُّ أشعر بالغربة والتطفُّل هناك... لنْ يحبّني أحدٌ كما تحبُّني خالتي وعائلتها... ولن أحبَّ أحداً لا تربطني به دماء واحدة...».
نظر إليَّ وليد بأسى ثمّ قال:
«تعنين أروى...؟».
فلمْ أجب، فقال:
«إنها تحبُّكِ وكذلك الخالة... وهما تبعثان إليكِ بالتحيات».
قلتُ:
«سلّمهما الله... أنا لا أنكر جميلهما والعجوز عليَّ... ولو كان لدي ما أكافئهم به لفعلت... لكن كما تعلم أنا فتاة يتيمةٌ ومعدومة... وبعد رحيلهما لمْ يترك والداك لي شيئاً...».
وهنا توتّر وليد وقال مستنكراً:
«كيف تقولين ذلك يا رغد؟؟».
«هذه هي الحقيقة التي لا يجدي تحريفها... أنا في الحقيقة مجرّد فتاةٍ يتيمةٍ عالة على

الآخرين... ولنْ أجدَ مَنْ يطيقني وبصدرٍ رحب غير خالتي».

وربَّما أثَّرتْ جملتي به كثيراً... فهو قد لاذ بالصمت الحزين لبعض الوقت... ثمَّ نطق:

«على كلٍ... لا داعي لأنْ نفسد جمال هذه الليلة بأمورٍ مزعجة...».

ثمَّ ابتسم ابتسامة شقّتْ طريقها بين جبال الأسى وقال:

«المهم أنْ تكون صغيرتي مرتاحةً وراضية...».

ابتسمتُ ممتنة. قال:

«حسناً... يجب أنْ أذهب الآن قبل أنْ يتأخَّر الوقت أكثر...».

تسارعت ضربات قلبي... لمْ أكنْ أريده أنْ يرحل... ليتَه يبقى معنا ليلةً واحدة...أرجوكَ لا تذهبْ يا وليد...

قال:

«أتأمرين بأي شيء؟».

ليتَني أستطيع أمرك بألا ترحل!

قلتُ:

«شكراً لكَ».

«ألا تحتاجين لأي شيء؟ أخبريني، أينقصكِ أي شيء؟؟».

«كلا...».

«لا تتردَّدي في طلب ما تحتاجينه منّي... أرجوكِ رغد...».

ابتسمتُ وقلتُ:

«شكراً لكِ... لا شيء ينقصني».

وليد أدخل يده في جيبه!... أوه كلا! هل يظنُّ أنني أنفقتُ تلك الكومة مِنَ النقود بهذه السرعة؟ لستُ مبذِّرة لهذا الحد!

كدتُ أقول («كلا! لا أحتاج نقوداً») لكنني حين رأيتُ هاتفه المحمول يخرج مِنْ جيبه حمدتُ الله أنْ ألجم لساني عن التهور!

وللعجب... وليد قدّم هاتفه إليَّ!

«ابقي هذا معكِ... اتصلي بي في المزرعة متى احتجتِ لأي شيء...».

اندهشتُ فقال:

«هكذا أستطيع الاتصال بكِ والاطمئنان على أوضاعكِ كلَّما لزم الأمر دون حرج».

«و... لكن...!!».

صدر التلكين منِّي فقال وليد:

«لا تقلقي... يمكنني الاستغناء عنه... أبقيه معكِ».

فمددتُ يدي اليمنى وأخذتُ الهاتف فيما وليد يراقب حركة يدي بتمعن!... قال:

«لا تنسَي... اتصلي بي في أي وقت...».

«حسناً... وشكراً».

وليد ابتسم بارتياح... ثمَّ بدا عليه بعض الانزعاج وقال:

«سأنصرف الآن ولكن...».

ولمْ يتم تلكينه، كان متردِّداً وكأنه يخشى قول ما ودَّ قوله... تكلَّمتُ مشجِّعةً:

«لكن ماذا وليد؟؟».

أظن أنَّ وجه وليد قد احمرَّ! أو هكذا تخيّلتُه تحت ضوء القمر والمصابيح الليلية الباهتة...

وليد نظر إلى عيني ثمَّ إلى يدي الممسكة بالهاتف ثمَّ إلى العشب... وقال:

«فلتعتادي ارتداء عباءتكِ حينما يكون حسام أو أبوه حاضرين».

دهِشتُ... كاد قلبي يتوقف... حملقتُ في وليد. وليد تراجع ببصره مِنَ العشب، إلى يدي، إلى عيني وواصل:

«ولا داعي لوضع الخواتم في حال وجودهما...».

الدماء تفجّرتْ في وجهي... طأطأتُ برأسي نحو الأرض في حرج شديد... توقَّفتْ أنفاسي عن التحرُّك مِنْ وإلى صدري وإنْ ظلّت الريح تعبث بوجهي ووشاحي الطويل... في الحين الذي حاولتْ فيه يدي اليسرى تغطية خاتمي الفيروزي الجديد في يدي اليمنى...

وليد حاول تلطيف الموقف فقال مداعباً:

«ولكن افعلي ما يحلو لكِ في غيابنا... هل لا فعلتِ؟؟».

- وليد -

توالتْ الأيام، والأسابيع... وأنا منغمسٌ في العمل. واقتضىٰ منِّي الأمر السفر إلى المدينة الساحلية مِنْ جديد... ولأنَّ أروى لمْ تشأ مرافقتي، لمْ أستطع أخذ رغد معي والسفر بمفردنا. ورغم أنَّ الأمر كان غايةً في الصعوبة إلا أنني دستُ على مشاعري وقلقي وتركتُ رغد دون رعايتي وسافرتُ بعيداً.

قبل سفري اتّصلتُ بشقيقي سامر وطلبتُ منه أنْ يبقى على مقربةٍ مِنْ واتصال دائم برغد، وقد تعذّر بانشغاله في عمله ولكنه وعد بفعل ما يمكن.

اقتنيتُ هاتفاً محمولاً جديداً لرغد سلّمتُها إيّاه حين مررتُ منها قبل سفري واستعدتُ هاتفي، وطلبتُ منها أنْ تبقى على اتصال بي شبه يومي.

وأنا أعيش في المنزل الكبير هناك في المدينة الساحلية، شعرتُ بوحدةٍ قاتلة وتقلّبتْ عليَّ الكثير مِنَ المواجع... وصمّمتُ على أنْ أعيد لهذا البيت الحياة والنشاط عما قريب.

حصلتُ على الإذن مِنْ شقيقيَّ للتصرُّف المطلق بالمنزل، والذي أصبح ملكاً مشتركا لنا نحن الثلاثة، بعد وفاة والدي رحمه الله.

وكّلتُ عمّال شركة متخصّصة لتنظيفه كلياً، ومِنْ ثمَّ أعدتُ صبغه وجدّدتُ أثاثه وأجريتُ الكثير مِنَ التعديلات فيه... غير أنّني تركتُ غرف النوم وكذلك الحديقة الخلفية كما هي...

وركنتُ في الحديقة بعض الأشياء القديمة إلى جوار أدوات الشواء... التي تعرفون.

كنتُ معتزماً على الانتقال للعيش الدائم في المنزل، وإليه سأضمُّ رغد وسامر... وأروى مستقبلاً.

وحين تعود دانة مِنَ الخارج، فلا أجمل مِنْ أنْ تنضم إلينا...

كنتُ أريد أنْ ألملم شمل العائلة المشتتة... وأنْ نعود للحياة معاً كما كنا قبل أنْ تفرّقنا الحرب وظروفها التعيسة...

ولأنني أصبحتُ أدير أحد أكبر وأهم مصانع المدينة، فإنَّ نفوذي قد اتسع كثيراً وسلطتي قد ارتفعتْ لحدٍ كبير...

ومع ذلك... لمْ تخلُ المسألة مِنَ الهمز واللمز... والنظرات الماكرة والهمسات الغادرة ممَّنْ عرفوا بأنني قاتل عمّار... واستقال السيد أسامة المنذر مِنْ منصبة للأسف... إثر هذا الخبر... ولاءً لصديقه الراحل عاطف... وانتشرتْ شائعات مختلفة حولي وحول زواجي مِنْ أروى... ووجدتُ نفسي أكثر وحدةً وحاجة للدعم المعنوي والفعلي ممَّن أثق بهم...

ألححتُ على سامر لترك عمله في تلك المدينة وعرضتُ عليه العمل معي في المصنع، ودبّرتُ له منصباً مرموقاً مغرياً، ولكن سامر رفض العودة للجنوب.

أعربتُ له عن رغبتي في لمِّ شمل العائلة، شرحتُ له بتفصيل دقيق ظروف عملي الحالي وكيف أنَّ الحياة تبدّلتْ معي كثيراً، وأنني الآن محتاجٌ إليه أكثر... غير أنَّ سامر على ما بدا منه كان لا يزال في حدادٍ على والديَّ لمْ يفق منه...

وبالنسبة لرغد فقد خطّطتُ لإلحاقها بإحدى الجامعات وخصّصتُ جزءاً مِنْ دخلي الخاص مِنْ إدارة المصنع لتغطية تكاليف الدراسة...

أما المنزل المحترق، فقد أبقيناه على حاله حتى إشعار آخر... وتنازلتُ عن نصيبي فيه لصالح رغد.

أما عن أوضاع البلاد... فلا تزال الفوضى تعمُّ العديد مِنَ المدن وتقتحم المزيد... والسجون قد امتلأتْ وفاضتْ بالمعتقلين عدلاً أو ظلماً.

عندما عدتُ إلى المدينة الصناعية في الزيارة التالية، كانتْ رغد خارج المنزل واستقبلتْني أمُّ حسام استقبالاً كريماً.

رغد كانتْ قد أعلمتْني عن رغبتها في قضاء بعض المشاوير الضرورية ذلك اليوم - وهي تعلمني عن تحركاتها دائماً، وقد لاحظتُ تكرُّر ذلك مؤخراً - ورغم انزعاجي مِنَ الأمر تركتُها تخرج مع ابن خالتها مطمئناً إلى وجود ابنتي خالتها معها.

وعندما علمتُ بعد ذلك أنهما لمْ ترافقاها أُصبتُ بنوبة غضب...

«وهل هي معتادةٌ على أنْ يوصلها حسام إلى حيث تريد، بمفردهما؟».

وجّهتُ سؤالي المستنكر إلى أمِّ حسام ففهمتْ استهجاني وأجابتْ:

«في مرّات قليلة...».

قلتُ حانقاً:

«ولكن لماذا لِمْ ترافقها إحدى ابنتيك يا خالتي؟».

«نهلة منهمكةٌ في تعليم سارة دروسها الصعبة... ولكن لِمَ كل هذا الانزعاج؟ إنه ابن خالتها وأقرب الناس إليها».

ولمْ تعجبني هذه الكلمة... فالتزمتُ الصمت. يبدو أنَّ أمَّ حسام وجدتها فرصة ملائمة لطرح موضوع ما فتئ يشغل تفكيرها.

«وليد... ألا ترى أنَّ الأوان قد حان... حتى... نفتح موضوع حسام ورغد؟».

تظاهرتُ بعدم الفهم وسألتُها:

«أي موضوع؟».

«أعني... أنَّ ابني... كما أخبركَ سابقاً... يرغب في الارتباط بابنة خالته».

كنتُ أعرف ما تود قوله. لكنّني لستُ بمزاج صافٍ ما يكفي لأسمح بمرور الفكرة هذه الساعة مجرّد المرور.

قلتُ مباشرة:

«إنه ليس بالوقت المناسب».

قالتْ مباشرة هي أيضاً:

«لماذا؟ يهديك الله... ما المانع مِنْ طرحه الآن؟ نريد تعجيل الأمر. ذلك أفضل لنا جميعاً. ها هما يعيشان في بيتٍ واحد وتعرف كيف هي الأمور...».

عقّبتُ بغضب:

«كلا يا خالتي. يستحيل أنْ أزوّج رغد بالطريقة التي زوّجها والدي بها... لنْ أجعلها ضحيةً للأمر المفروض ثانيةً...».

أمُّ حسام قالتْ معترضة:

«أي ضحية؟ إنه زواج مقدّس... وحسام يلحُّ عليَّ وعلى أبيه يومياً للتحدّث معك».

نفذ صبري فقلتُ بفظاظة:

«أرجوك يا أمّ حسام... أرجوكِ... أجِّلي الموضوع لما بعد».

«لأي وقت؟؟».

«على الأقل... إلى أنْ تحصل رغد على شهادةٍ جامعية».

تعجّبتْ أمُّ حسام... لكنني تابعتُ:

«ويكبر حسام ويصبح رجلاً راشداً مسؤولاً».

وكان قصدي إعطاء أي إجابة لإنهاء الموضوع فوراً.

«وهل تراه صبياً الآن!؟».

لمْ أتردَّد في جوابي:

«نعم!».

ولأنها استاءتْ وأظهرتْ تعابير الاستنكار قلتُ:

«يا خالتي... أنا اعتبر الاثنين مجرّد مراهقين... فالفرق بينهما لا يبلغ العامين... وإذا كان في وجودها هنا حرجٌ على أحد فأنا سآخذها معي وأدبِّر أمورها بشكلٍ أو بآخر...».

عند هذه النقطة انتهى حوارنا إذْ أنَّ البوابة قد فُتِحتْ وأقبل الاثنان يسيران جنباً إلى جنب...

الناظر إليهما يفكِّر في أنهما بالفعل خطيبان منسجمان متلائمان مع بعضهما البعض... وكان يبدو عليهما المرح والبسمة لمْ تفارق شفاههما منذ أطلاَّ مِنَ البوابة...

هذا المنظر أوجعني كثيراً... لو تعلمون...

أقبل الاثنان يرحِّبان بي بمرح... وكان جلياً عليهما السرور... ولا أظنّ أنَّ السرور كان بسبب قدومي... بل بسببٍ آخر أجهله...

رغد كانتْ مبتهجة... وكانتْ فترة طويلة قد مضتْ مذ قابلتها آخر مرة... وفيما أنا هناك أتحرَّق شوقاً إليها وقلقاً عليها، تقضي هي الوقت في المرح مع ابن خالتها هذا...

وشتّان بين البهجة التي أراها منفتحةً على وجهها الآن وبين الكآبة والضيق اللذين لطالما رافقاها وهي تحت رعايتي... الشهور الماضية...

«تبدين في حالةٍ ممتازة... واضح أنَّ خالتكِ وعائلتها يعتنون بكِ جيداً».

قلتُ متظاهراً بالبرود وعدم الاكتراث. ابتسمتْ هي وقالتْ:

«بالطبع».

أما حسام فضحك وقال:

«وندلّلها كثيرا ونضع رغباتها نصب أعيننا! إنها سيدة هذا المنزل!».

رغد نظرت إليه وقالتْ بمرح:

«لا تبالغ!».

قال مؤكداً:

«بل أنتِ كذلك وستظلين دائماً كذلك!».

فيما بعد... تناولتُ القهوة مع حسام في المجلس... ورأيتها فرصةً متاحة أمامي فسألتُه عن خططه المستقبلية وتطلّعاته للغد... فوجدتُه للحق شاباً طموحاً متحمساً متفائلاً بالرغم مِنْ طبعه المرح...

كنتُ حريصاً على أنْ أعرف... إلى أي مدى كانتْ فكرة الزواج مِنْ رغد... لا تزال تسكن رأسه...

سألتُه:

«و... ماذا بشأن الزواج؟».

حسام ابتسم وقال:

«إنه أوّل ما أطمح إليه... وآمل تحقيقه».

«و... هل أنتَ مستعدٌ له؟».

تهلّلتْ أسارير حسام وكأنّه فهم منّي إشارةً إلى موضوعه القديم... فقال فرِحاً:

«للخطوبة على الأقل... لا شيء يمنع ذلك».

وانتظر منّي التأييد أو حتّى الاعتراض، غير أنّني بقيتُ صامتاً دون أيّ تعليق... ممّا أثار فضوله الملح ودفعه للسؤال المباشر:

«ألديكَ مانع؟».

قلتُ متظاهراً بعدم الاكتراث:

«عن أي شيء؟».

«عن... الخطوبة... في الوقت الراهن...؟».

إذنْ... فأنتَ متلهّفٌ للزواج مِنْ ابنة عمّي؟؟

تجاهلتُ سؤاله وأنا أحترق في داخلي... وأفكّر في الرسالة الهامّة التي يجب أنْ تصل إلى هذا الشاب المندفع حتى يتوقّف عن التفكير برغد...

حسام لمّا رأى صمتي قد طال عاد يسأل:

«هل توافق على خطوبتنا الآن؟».

نظرتُ إليه بحدقتين ضيّقتين ضيق صدري المثقل بشتى الهموم... ثمّ حرّكتُ اعتراضاً... شيءٌ مِنَ الحيرة والضيق علا وجه حسام الذي قال:

«لماذا؟».

الجِدُّ طغى على وجهي وأنا أقول ختاماً:

«اسمعني يا حسام... فكرة الزواج التي تدور في رأسكَ هذه استبعدها نهائياً خلال السنوات المقبلة... لأنني مُطلقاً لنْ أوافق على تزويج ابنة عمي قبل أنْ ألحقها بإحدى الجامعات... وتحصل على شهادةٍ جامعية... لا تطرح الموضوع ثانيةً... قبل ذلك... هل هذا واضح؟؟».

– رغد –

«ستذهب بهذه السرعة؟».

سألتُه ونحن نسير باتجاه البوابة وهو في طريقه للمغادرة بعد زيارته القصيرة لنا... بالرغم مِنْ طول الزمن الذي قضاه بعيداً عني...

وليد كان مُنزعِجاً جداً أو متعباً مِنَ السفر... لمْ يكن على سجيته هذا اليوم...

«إنني مرهقٌ وبحاجة للراحة الآن... لكني سأعود قريباً يا رغد».

قلتُ بشيء مِنَ التردد:

«لِمَ لا تقضي الليلة هنا؟ سيرحِّب أقاربي بذلك».

«لا شك عندي في كرم أقاربكِ ولكني لا أريد أنْ أثقل عليهم... ألا يكفي أنهم يعتنون بكِ

منذ زمن؟؟».

«لا تظن أنَّ العناية بي تضايقهم يا وليد... إنهم يحبونني كثيراً».

«أعر ف ذلك».

وليد ألقى عليَّ نظرة مبهمة المعنى ثمَّ أضاف:

«وأنتِ مرتاحةٌ لوجودكِ بينهم... أقصى راحة».

قلتُ متأكدة:

«أقصى أقصى راحة».

وليد تنهّد بضيق وقال:

«لكن الفترة طالتْ يا رغد... أما اكتفيتِ؟؟».

نظرتُ إليه بتعجُّب... جاهلةً المقصود مِنْ كلامه... فأوضح:

«تعرفين أنني أبقيتُكِ هنا بناءً على رغبتكِ وإصراركِ... مِنْ أجل راحتكِ أنتِ... لكنني غير مرتاحٍ لهذا الوضع...».

وبدا عليه الأسى وقلّة الحيلة...

«لماذا؟».

«أنا لا أشعر بالراحة عندما لا تكونين تحت رعايتي مباشرةً... إنني المسؤول عنكِ وأريد أنْ أتحمّل مسؤوليتي كاملةً... يجب أنْ تكوني معي أنا... أنا ولي أمركِ».

«لكنني لا أريد العودة إلى المزرعة... أرجوكَ يا وليد لا ترغمني على ذلك».

ويظهر أنَّ جملتي هذه أزعجتْه بالقدر الذي جعله يتوقّف بعصبية ويزداد ضيقاً ويقول:

«أنا أرغمكِ؟ رغد ماذا تظنينني؟ عندما أخذتكِ للمزرعة لمْ يكن لديَّ المال لأوفر لكِ سكناً آخر يناسبكِ... وعندما أخذتكِ للمدينة الساحلية لمْ أكن أعلم كمْ مِنَ الوقت سأمضي هناك ولمْ أشأ ترككِ بعيدةً عنّي... وها أنا قد تركتُك بعيدةً كل هذا الوقت نزولاً عند رغبتكِ أنتِ... وتقديراً لشعوركِ أنتِ... فهل لا قدّرتِ شعوري أنا بالمسؤولية ولو لبعض الوقت؟؟».

الطريقة التي كان يخاطبني بها دقّتْ في رأسي أجراس التنبيه... وليد لمْ يتحدّث معي كهذا مُسبقاً... بقيتْ كلماته ترنُّ في رأسي لفترة. بعدها قلتُ برجاء:

«لا أريد العودة إلى المزرعة... أرجوك... افهمني».

تنهّد وليد تنهيدة تعب وقال:

«لن آخذك إليها ما لمْ ترغبي في ذلك... ولكن... عندما أعود إلى المدينة الساحلية... يجب أنْ تأتي معي».

نظرتُ إلى الأرض مذعنةً... دون أنْ أتحدّث...

«اتفقنا؟».

قلتُ باستسلام:

«نعم».

تنهّد وليد بارتياح هذه المرة... وقال:

«هذا جيّد».

ألقيتُ نظرة عليه فرأيتُ في عينيه بعض الامتنان... لكن التعب كان طاغٍ على قسمات وجهه... ومزيجٌ مِنَ الضيق والقلق كان يتسلل مِنْ بؤبؤيه... تنفس بعمقٍ ثمّ قال:

«ومرّة أخرى يا رغد... إذا احتجتِ لأي شيءٍ فأبلغيني أنا... و... رجاءً يا رغد... رجاءً... لا تخرجي ثانيةً مع حسام بمفردكما».

أثارتْني الجملة وتعلّقتْ عيناي بعينيه في استغراب... ما الذي يظنه وليد وما الذي يفكر به؟؟ قلتُ مبرِّرةً:

«لقد أوصلني إلى الصالون و...».

بترتُ جملتي ثمّ قلتُ:

«لماذا؟».

وليد قال بضيق:

«أرجوكِ يا رغد... حتى وإنْ كان ابن خالتكِ المقرّب... يبقى غير محرمٍ لكِ... وفتىً مراهقاً غير راشد. لا أريدكِ أنْ تتحدّثي أو تضحكي أو تخرجي معه بهذه الحريةٍ...».

- وليد -

كنتُ مُتعباً لذا فإني فور وصولي إلى المزرعة أويتُ للفراش. وحقيقةً منعتْني صورة رغد وحسام وهما يقفان جنباً إلى جنب مبتسمين... مِنَ النوم المريح.

لمْ يعد باستطاعتي أنْ أتحمّل فكرة بقائها معه في بيتٍ واحد... أكثر مِنْ هذا...

في الصباح التالي أخبرتُ أروى عن تفاصيل سفري وما أنجزتُه في العمل والمنزل وطرحتُ عليها فكرة الانتقال للعيش في منزلنا الكبير لنبقى على مقربة مِنْ أملاكها... خصوصاً بعد استقالة السيد أسامة المنذر...

«لا أحبِّذ ذلك يا وليد... أحبُّ هذه المزرعة وأريد العيش فيها للأبد».

«ولكن يا أروى... سيشقُّ عليَّ أمر رعاية وإدارة أملاكِ هكذا... لا أجد مَنْ يمكنني الاعتماد عليه الآن».

أروى فكّرتْ قليلاً ثمّ قالتْ:

«نسافر أنا وأنتَ؟».

قلتُ:

«ورغد والخالة أيضاً».

ردّتْ بسرعة:

«أمي لنْ تأتي معنا... لنْ توافق على ذلك... لا تريد ترك لا المزرعة ولا خالي».

تنهّدتُ في حيرة مِنْ أمري... كيف لي أنْ ألملم شمل العائلة وأضمُّ أهلي جميعاً في

منزلٍ واحد؟؟

قالتْ أروى بعد تفكيرٍ قصير:

«لكن إذا تزوَّجنا يا وليد... فسيسهُل الأمر».

نظرتُ إليها فرأيتُ الفكرة تنبعث مِنْ عينيها بقوة... وقد كان الجميع مِنْ حولي يلحُّ عليَّ بالزواج ويراه الوقت المناسب... قد يكون بالفعل الوقت الناسب عند كل شيء... إلا قلبي...

قلتُ:

«لا يمكننا أنْ نتزوَّج الآن يا أروى».

«لماذا يا وليد؟ عُد... كمْ مِنَ الشهور مضتْ...».

«أعرف... لكنني سبق وأنْ أخبرتك بأنّني لنْ أتزوَّج قبل أنْ أزوِّج رغد».

«ماذا يمنعكَ مِنْ تزويجها الآن؟ أليسَ ابن خالتها يرغب بذلك؟».

وكأنها كانتْ الشرارة التي أشعلتْ البنزين! لا أنقصكِ أنتِ أيضاً يا أروى... قلتُ بعصبية:

«أروى أرجوكِ... لا تناقشي هذا الأمر معي مجدداً... فهو لا يعنيكِ».

ويبدو أنني كنتُ قاسياً إذ أنَّ أروى أشاحتْ بوجهها في حزن... شعرتُ بالندم فقلتُ مسترضياً:

«دعيني أدبّر أمور الصغيرة بنفسي... إنها تحت وصايتي أنا ولا يمكنني أنْ أولي مسؤوليتها لأيٍ كان قبل أنْ تكبر بضع سنين...».

أروى استدارتْ إلي وقالتْ:

«بضع سنين؟؟ أنتَ تبالغ يا وليد! إنها امرأةٌ بالغة كما ترى وليستْ طفلة... فلماذا تصرُّ على اعتبارها صغيرة لهذا الحد؟».

نظرتُ إليها بعمق ولا أدري إنْ كنتُ أخاطبها أم أخاطب نفسي... أم أخاطب رغد... أم أخاطب حسام...

أمام مرآي صورة رغد وهي تسير جوار ابن خالتها وكأنها أصبحتْ شيئاً يخصّه... هل أتنازل عنها بهذه السهولة؟؟

هل تتجرئين علي خيانتي للمرّة الثانية يا رغد؟؟

قلتُ:

«أنتِ لا تعرفين شيئاً يا أروى... حاولي أنْ تفهميني...».

وأطلقت زفرة أسى وتابعتُ:

«رغد هذه... كانتْ طفلتي منذ سنين... لقد ربّيتُها على ذراعيَّ...».

رفعت ذراعي في الهواء قليلاً...

«حملتُها بيدي هاتين وهي طفلة صغيرة...».

وضممتُ ذراعي إلى صدري...

«ونوّمتُها في حضني هاهنا...».

وأغمضتُ عينيّ...

«لست سنين متواصلة... هنا في حضني... أقرب إليَّ مِنْ أيِّ شيءٍ آخر...».

وأحسستُ بحرارة في جفوني... أظنُّ أنَّ دموعاً حزينة مكبوتة كانتْ تنذر بالانهمار... إنه ذلك المنظر... يصهر دموعي...

كم جرحتِني يا رغد... وأصبتِني بخيبة الأمل...

كيف تميلين يا رغد إلى رجلٍ غيري؟ كيف تفسحين المجال لحسام لأنْ يفكِّر بالزواج منكِ؟ كيف تسمحين له بأنْ يقترب منكِ؟ وكيف تريدين منّي تركَكِ معه وأنا أراه يوشِك على الاستحواذ عليكِ؟ ألا تشعرين بي يا رغد؟؟ أنا وليد الذي... الذي... آه... كلا... لن أسمح لكِ... بأنْ تكوني لغيري... حتّى وإنْ رغبتِ أنتِ بذلك... أنتِ تخصّينني أنا يا رغد... أتفهمين؟؟

فتحتُ عينيَّ وأنا أحدِّق في اللاشيء... مِنْ ذكريات الماضي المدفونة في أعماق صدري...

«وليد!».

انتبهتُ لصوت أروى فنظرتُ إليها بألم...

«ماذا دهاكَ؟؟».

فلا بد أنها لحظتْ شرودي وحزني... ولو أنها قلبتْ جفوني لرأتْ ذلك المنظر مطبوعاً على باطنها...

«لا يمكنني التخلّي عن رغد بهذه البساطة يا أروى... ولتعلمي... أنها ستظلُّ أمانةً مربوطةً حول عنقي... وصغيرةً أظللها تحت جناحيّ... وتابعةً مقترنة بوليد... حتى الموت...».

- رغد -

«هذه أوامر بابا وليد!».

قلتُ ذلك وأنا أعتذر عن الذهاب معها إلى الصالة ومشاركة بقية أفراد العائلة الجلسة والحديث.

نهلة تأملتْني باستنكار:

«وهل طلب منكِ ألا تخرجي مِنَ الغرفة؟».

«لا. لكنه نهاني عن الحديث أو الضحك مع أو أمام والدكِ وشقيقكِ!».

نهلة ضحكتْ بسخرية ثمّ قالتْ:

«وهل يخشى عليكِ مِنْ أبي؟؟ بربّكِ إنّه في عمر والدكِ! أمّا حسام فهو حسام! ما الذي جدَّ في الأمر؟؟».

قلتُ بإصرار:

«لنْ آتي معكِ يعني لنْ آتي معكِ!».

وضعتْ نهلة يديها على خصريها وتأفّفتْ!

«ممنوع لبس الحلي... ممنوع لبس الأوشحة الملونة... ممنوع خلع العباءة... ممنوع

الخروج مع حسام... ممنوع الضحك... ممنوع الكلام! ثمَّ ماذا يا رغد؟ هل سيمنعكِ مِنَ التنفس أيضاً؟».

نظرتُ إلى السقف متجاهلةً تعليقها... فعادتْ تقول:

«لماذا يفعل ذلك؟».

لمْ تفارق عيناي السقف... قالتْ بمكر:

«يغار عليكِ؟».

نظرت إليها بسرعة ثمَّ قلتُ:

«أي غيرة؟ إنه مسألة آداب وحدود شرعية! ابن عمّي ملتزمٌ جداً».

ابتسمتْ بمكرٍ وكأنَّ كلامي يناقض بعضه البعض... وقالتْ:

«ألمْ يكن هو بنفسه يتحدَّث معكِ ويضحك ويصطحبكِ وحدكما إلى أي مكان؟ أنتِ مَنْ كان يخبرني بذلك!».

علتْني حمرةٌ بسيطة فقالتْ نهلة:

«إنه يغار عليكِ!».

قلتُ معترضةً - وإنْ كنتُ في داخلي أتمنّى لو كانِ كلامها صحيحاً:

«أوه أنتِ لا تفهمين شيئاً! إنه يعاملني كابنته! لا يرى فيَّ إلا طفلة صغيرة بحاجة للرعاية والنصح... والتوجيه. أما حسام... فتعرفين!».

رمتْني نهلة بنظرةٍ خبيثة ذات مغزى مِنْ طرف عينيها ثمَّ غادرتْ الغرفة تاركةً إيّاي في حمرتي وأمنيتي الوهمية...

حتى ولو شعر بالغيرة عليَّ فهذا مِنْ ضمن شعوره بالمسؤولية نحوي، وليس بالحب...

وراودتْني آنذاك فكرة بأنْ أتّصل به! لمْ يكن لديَّ أي حاجة لذلك غير أنني رغبتُ في الحديث معه والإحساس بقربه... والاطمئنان عليه...

تناولتُ الهاتف المحمول الذي أهداني إياه قبل فترة واتصلت بهاتفه...

«مرحباً».

أتعرفون صوت مَنْ كان؟؟ إنها أروى!

للوهلة الأولى كدتُ أنهي المكالمة غير أنني سيطرتُ على نفسي وتكلّمتُ:

«مرحباً أروى».

«أهذه أنتِ رغد؟ كيف حالكِ؟».

«أنا بخير».

«مضتْ فترةٌ طويلة...!».

قلتُ في نفسي: («لا أظنكِ اشتقتِ إليَّ!»).

«نعم... كيف الخالة؟».

«بخير والحمد لله».

«أيمكنني التحدُّث إلى وليد؟».

سألتُها مباشرة دون المماطلة في الحديث معها... فأجابتْ:

«إنه نائمٌ الآن...».

«نائم؟ في هذا الوقت؟».

وقد كانتْ السادسة مساءً.

«نعم. شعر بالتعب ثمَّ خلد للنوم... هل تريدينه في أمرٍ ضروري الآن؟».

«كلا كلاً... لكن هل هو بخير؟».

فقد أقلقتني جملتها الأخيرة...

«نعم، كل ما هنالك أنَّه مجهدٌ مِنَ العمل والسفر وكثرة المسؤوليات الملقاة على عاتقه... المزرعة... المعهد... المصنع... المنزل... وأنا وأنتِ!».

أنا وأنتِ؟؟ ما الذي قصدتْه أروى؟ هل تريد القول... أنني أشكِّل عبئاً إضافياً على وليد؟؟

إنني اخترتُ البقاء في بيت خالتي لأخلِّصه مِنْ مشاكلي وأتخلَّص مِنْ مشاحناتي مع أروى...

«هل اشتكى مِنْ شيء؟».

«وليد لا يشتكي... إنه يحمل الهمَّ على صدره دون الشكوى... يريد أنْ نستقر في حياتنا لولا أنَّ الظروف تحول دون ذلك».

قلتُ بتخوف:

«تستقران يعني... تتزوجان؟».

أجابتْ أروى:

«نعم... نخطِّط للزواج ومِنْ ثمَّ السفر للاستقرار في المدينة الساحلية حيث أملاكي... لكن... سيشقُّ على وليد رعايتكِ عن كل ذلك البعد».

وصمتتْ قليلاً ثمَّ تابعتْ:

«إنه لا يريد أنْ نتزوّج قبل أنْ تتزوجي أنتِ يا رغد... حتى ينقل ولاية أمركِ ومسؤوليتكِ لرجلٍ آخر...».

ربما لمْ أدرك أنَّ الرسالة التي كانتْ أروى تودُّ إيصالها إليَّ هي: («زولي عن عاتق وليد») إلا بعد تفكير عميق أسود...

كنتُ أعرف أنني أشكِّل عبئاً إضافياً على أكتاف الجميع... وأنَّ رحيل والدي عني تركني عالةً على الغير... لكنني لمْ أدرك إلى أي حدٍ قد أثقلتُ كاهل ابن عمّي حتى هذا اليوم... ولمْ أدرك أنني كنتُ العقبة في سبيل زواجه واستقراره مع الحسناء بهذا الشكل...

إنّه كان دائماً يُظهِر لي اهتمامه واستعداده التام لرعايتي للأبد.

شعرتُ بالذلِّ والهوان بعد مكالمتي القصيرة مع أروى... وشعرتُ بألمٍ شديد في صدري... وبالندم على كل ما سبَّبته لوليد مِنْ تعاسة بسبب وجودي في حياته وتحت مسؤوليته.

وتذكَّرت الضيق الذي كان يعيشه أيام سفر والدي إلى الحج... حينما اضطرَّ لرعايتنا أنا ودانة... ونفاذ صبره في انتظار عودتهما... وهما للأسف لمْ يعودا... ولأشد الأسف... لن يعودا...

وتذكَّرتُ لقائي الأخير به وكيف بدا مرهقاً ضجِراً... وكأنَّ جبلاً حديدياً يقف على كتفيه... وكيف أنّه غادر عاجلاً... ناشداً الراحة...

تريد أنْ تتزوَّج يا وليد؟ تريد أنْ تتخلّص منّي؟؟

حسناً... سأريحكَ مِنْ همّي...

افعل ما تريد... وأنا أيضاً... سأفعل ما أريد.

بعد ذلك انضممتُ إلى أفراد عائلة خالتي وأخذتُ أشاركهم الأحاديث والضحك ضاربةً بعرض الحائط توصيات وليد...!

مرّتْ بضعة أيام قاطعتُ فيها وليد وأبقيتُ هاتفي المحمول مُغلقاً وتهرّبتُ مِنْ اتصالاته... ولمْ ألتزم بلبس العباءة داخل المنزل كما طلب منّي، بل اكتفيتُ بالأوشحة الطويلة الساترة، كما وأوصلني حسام مرتين أو ثلاث بمفردنا إلى أماكن متفرّقة... وعمدتُ مؤخراً إلى التلميح له عن تقبّلي فكرة الزواج منه... مبدئياً.

حسام غدا مسروراً جداً ويكاد يطير فرحاً... وغمرني بلطفٍ مضاعف واهتمامٍ مكثَّف بعد ذلك...

كنتُ أعرف أنه يحبني منذ سنين... ومندفعٌ بعواطفه تجاهي بكل صدق وإخلاص... وأنه ينتظر مني الإشارة...

علمتُ منه أنه جسَّ النبض أمام وليد في زيارته الأخيرة... وأنَّ وليد استاء وأغلق الموضوع قبل فتحه...

ذات يوم، وكان يوماً ماطراً مِنْ فصل الشتاء... وكنّا نجلس حول مدفئةٍ كهربائية نستمدُّ منها الحرارة والحيوية... وكنتُ ألبس ملابس شتوية ثقيلة وألف شعري بلحاف صوفي ملوَّن... أتانا زائرٌ على غير موعد.

لمْ يكن ذلك الزائر غير وليد!

كانتْ ثلاثة أسابيع قد مضتْ على زيارته الأخيرة لي... سمعنا أبو حسام يقول وهو يقف عند المدخل بصوت عالٍ:

«هذا وليد...».

فقامتْ خالتي وابنتاها منصرفات، ثمَّ عادتْ خالتي بالحِجاب، ثمَّ فتح الباب سامحاً لوليد بالدخول ومرحِّباً به...

رافقتْ وليد رياح قوية اندفعتْ متسلِّلة إلى المنزل جعلتْ أطرافي ترتجف رغم أنني كنتُ أجلس قرب المدفئة...

«تفضَّل يا بني... أهلاً بكَ».

قالتْ ذلك خالتي مرحبةً به وقام حسام ليصافحه وهو يبتسم ويقول:

«كيف استطعتَ السير في هذا الجو؟؟».

«ببعض الصعوبات».

مِنْ خلال صوته المخشوشن أدركتُ أنَّ وليد مصاب بالزكام. وليد يلبس معطفاً شتوياً طويلاً يظهر أنه تبلّل بقطرات المطر...

التفتَ وليد صوبي، وإذا به يقطب حاجبيه ثمَّ يشيح بوجهه عنّي.

«اقترب مِنَ المدفئة! وأنتِ يا رغد حضّري بعض الشاي لابن عمّك».

قالتْ ذلك خالتي فأذعنتُ للأمر. عندما عدتُ بقدح الشاي إلى وليد وجدتُه يجلس قرب المدفئة ماداً يديه إليها... ناولتُه القدح فأخذه ولمْ يشكرني... بل إنَّه لمْ ينظر إليَّ!

أمَّا أنا فقد تأمّلتُ وجهه ورأيتُ أنفه المعقوف شديد الاحمرار وعينيه متورِّمتين بعض الشيء. تحدَّث وليد وكان صوته مبحوحاً جداً أثار شفقتي... وكان يسعل بين الفينة والأخرى...

مسكين وليد! هل تتمكّن الجراثيم منكَ أنتَ أيضاً؟؟

والآن وجّه خطابه إليَّ أنا دون أنْ ينظر نحوي:

«رغد... لماذا لمْ تردِّي على اتصالاتي؟ ماذا حدث للهاتف؟».

تأمّلتُه برهةً، وفكّرتُ قليلاً... ولمْ أجد مهرباً... فقلتُ:

«لا شيء!».

ساد صمتٌ قصيرٌ... ثمَّ قال وليد:

«كنتُ أودُّ إبلاغكِ عن قدومي وعن أمر السفر إلى المدينة الساحلية كي تستعدي».

ورفع بصره إليَّ أخيراً. نظرتُ إليه ثمَّ إلى خالتي وحسام، وعدتُ إليه قائلةً:

«استعد؟».

«نعم، سترافقينني هذه المرّة».

لمْ أتجاوب أوّل وهلة... ثمَّ حرّكتُ رأسي وأنا أقول:

«لكن... لكنني... لا أريد السفر».

وتدخَّلتْ خالتي قائلةً:

«ولماذا ترافقكَ يا وليد؟؟».

قال وليد:

«لأنني سأطيل البقاء عدّة أشهر... مِنْ أجل العمل».

قالتْ خالتي:

«وماذا في ذلك؟؟ لماذا تريد أخذها معكَ؟؟».

التفتَ وليد نحو خالتي وقال:

«ليتسنّى لي رعاية أمورها بنفسي كل هذه الشهور».

ساد الصمت القصير مرّة أخرى ثمَّ قالتْ خالتي:

«اطمئِن مِنْ هذه الناحية».

وأضاف حسام:

«سافر مطمئناً فكل شيءٍ يسير على ما يرام هنا».

وليد التفتَ إلى حسام وقد بدتْ عليه علامات الغضب. ثمَّ قال محاولاً تقوية صوته المبحوح قدر الإمكان:

«سآخذها معي والأمر مفروغٌ منه».

واستدار إليَّ وتابع:

«استعدِّي».

هذه المرّة يبدو وليد خشناً فظّاً... هل للزكام علاقة بذلك؟؟

قلتُ:

«هل ستذهب الشقراء معكَ؟».

«نعم».

قلتُ مباشرة وبانفعال:

«لا أريد أنْ أذهب».

وامتلأ الجو بالشحنات المتضادَّة... وتولَّدتْ في الغرفة حرارة ليس مصدرها المدفئة فقط. وليد قال بصبرٍ نافذ:

«ستأتين يا رغد... كما اتَّفقنا سابقاً.. قضيتِ هنا ما يكفي ويزيد. أنا لنْ أترككِ بعيداً كل تلك الشهور... قد يمتدُّ الأمر إلى سبعة أو حتَّى عشرة أشهر... لنْ أتمكَّن مِنَ المجيء إلى هنا بين الفينة والأخرى... الأمر شاقٌّ عليَّ».

قلتُ بعناد:

«ولماذا تكلّف نفسكَ هذا العناء؟ أنا بخيرٍ هنا فسافر مطمئناً جداً...».

والتفتُّ مشيرةً إلى خالتي وحسام ومضيفةً:

«الجميع هنا يهتمُّ بأموري فلا تشغل بالاً».

لمْ يُعجب وليد حديثي وازداد احمرار أنفه... ثمَّ تحدّث إلى أبي حسام قائلاً:

«هل لي بالحديث معها وحدها... إنْ سمحتم؟».

حسام وخالتي تبادلا النظرات المتشكِّكة ثمَّ انصرفا برفقة أبي حسام... وبقينا أنا ووليد والحرارة المنبعثة مِنَ المدفئة والشرر المتطاير مِنْ عينيه... والجو المشحون المضطرب... سوياً في غرفة واحدة.

كنتُ أجلس على طرف أحد المقاعد، بينما وليد يجلس على مقعدٍ بعيد بعض الشيء. بمجرد أنْ خرج الثلاثة... وقف وليد منتفضاً... وأقبل نحوي...

وجهه كان مخيفاً... يتنفَّس مِنْ فمه... ربمَّا بسبب الزكام أو ربَّما بسبب الحالة المنفعلة التي كان عليها...

نظرت إليه بتخوُّف وازدردتْ ريقي. قال فجأة:

«هل لي أنْ أعرف أوّلاً... يا ابنة عمّي... لماذا لا ترتدين عباءتكِ؟».

فاجأني سؤاله الذي جاء في غير موقعه... ودون توقّعه... تلعثمتُ ولمْ أعرف بِمَ أجيب!

لقد كنتُ أرتدي ملابس شتوية ثقيلة ومحتشمة وفضفاضة، وداكنة الألوان... وحتّى وشاحي الصوفي الطويل كان معتماً... اعتقد أنّ مظهري كان محتشماً للغاية... فهل يجب أنْ أرتدي فوق كل هذه الأكوام عباءة سوداء؟!

لمّا وجد وليد منّي التردُّد وقلّة الحيلة قال:

«ألمْ أطلب منكِ... أنْ تضعي عباءتكِ كلّما تواجد حسام أو أبوه معكِ؟».

نطقتُ متحجّجةً:

«لكنهما متواجدان معي دوماً».

قال بغضب:

«إذن ارتدي العباءة دوماً...».

لمْ أعلّق لأنّ طريقته كانتْ فظّة... ألجمتْ لساني...

«وشيءٌ آخر... إلى أين كنتِ تذهبين؟ كلّما اتصلتُ أخبروني بأنكِ غير موجودة... وهل كنتِ تخرجين مع حسام وحدكما؟».

قلتُ مستغربةً ومنزعجةً:

«وليد... ماذا دهاكَ؟».

قال بحدّة:

«أجيبيني يا رغد؟؟».

وقفتُ بعصبية واستياء واستدرتُ هامّة بالمغادرة... كيف يجرؤ!؟... إلا أنّ وليد أمسكَ بذراعي وحال دون هروبي...

قلتُ:

«دعني وشأني».

قال وهو يعضّ على أسنانه:

«لنْ أدعكِ تفعلين ما يحلو لكِ... يجب أنْ تدركي أنكِ لستِ طفلةً بل امرأة وأنّ ابن خالتكِ الشاب التحمّس هذا يتطلّع إليكِ».

جذبتُ ذراعي مِنْ قبضته وأنا في دهشة فائقة... وليد قال:

«أنا لا اسمح له بأنْ ينظر إليكِ وأنتِ هكذا...».

ازددتُ دهشةً... ما الذي يجول بخاطر وليد؟؟ وكيف يفكّر؟؟ قلتُ:

«وليد!! ماذا أصابكَ؟؟ أهي الحُمّى؟؟ ابن خالتي شابٌ مهذّبٌ ومتّزن، هو يرغب في الزواج منّي... والجميع يعرف ذلك بما فيهم أنتَ».

ولمْ تزده جملتي إلا ثورة! قال بغضب:

«وأنا قلتُ لكِ... وله... وللجميع... بأنّني لنْ أوافق على مثل هذا الزواج ولنْ أسمح بأنْ

يتمّ قبل سنين... أسمعتِ يا رغد؟».

هتفتُ:

«لماذا؟».

«لأنني لا أريد ذلك... أنا الوصيُّ عليكِ وأنا مَنْ يقرِّر متى وممَّنْ أزوّجكِ... وإنْ ألحَّ أحدٌ عليَّ بهذه الفكرة مجدداً فسأحذفها مِنْ رأسي نهائياً».

دُهِشتُ لكلامه... حملقتُ به ولمْ يقوَ لساني على النطق.

التفتَ وليد يمنةً ويسرةً في تشتُّت كأنَّه يبحث عن الكلمات الضائعة... وأخذ يضرب راحته اليسرى بقبضته اليمنى... ثمَّ حدّق بي فرأيتُ عضلات فكِّه تنقبض وهو يضغط على أسنانه بانفعال كمَنْ يمزّق لقمةً صلبة بين فكّيه...

وليد هتف بصوته المبحوح وهو في قمّة التهيّج:

«وتريدين منّي أنْ أتركِكِ هنا؟ كيف أكون مطمئناً إلى ما يدور بعيداً عن ناظري؟ لماذا لا تلتزمين بما طلبتُه منكِ؟ حتى وإنْ كان أقرب الناس إليكِ، لا أسمح لكِ بالظهور أمامه بلا عباءة... إنْ حدث وتزوجتِه يوماً فاعلي ما يحلو لكِ، ولكن وأنتِ تحت وصايتي أنا فعليكِ التقيّد بما أطلبه منكِ أنا يا رغد... أنا وأنا فقط... وأنا أحذِّركِ مِنْ تكرارها ثانيةً... هل هذا مفهوم؟».

يكاد قلبي يتوقّف مِنَ الخوف... ووليد يتحرَّك شعرتُ وكأنَّ قبضته اليمنى على وشك أنْ تضربني الآن!... لمْ أتوقَّع أنْ يثور لهذا الحدِّ لذاكَ السبب...

أحملق فيه بخشية وذعر، فيردُّ عليَّ بصرخة تصفع وجهي قبل أنْ تثقب طبلَتي أذنَيّ:

«هل هذا مفهومٌ أمْ أعيد كلامي؟ أجيبي؟؟».

ينتفض بدني وتصدر منه رعشة، وأومئ إيجاباً...

وليد هدأ بعض الشيء وأخذ يمرُّ بأصابعه على شعره الكثيف ويزفر بضجر... ويبتعد عنّي...

شعرتُ بالغيظ... بالقهر... بالذل...

كيف يجرؤ وليد على التحكُّم بي بهذا الشكل؟؟ وكيف يصرخ بوجهي بهذه الطريقة الفظّة؟

بل كيف يخاطبني بهذا الأسلوب الخشن؟

إنَّ أحداً لمْ يصرخ بوجهي هكذا مِنْ قبل...

تملكتْني رغبةٌ في الهجوم... في الدفاع... أو حتّى في التوسل! قلتُ وأنا متعلقةٌ بأمل أنْ يكون ما سمعتُ وهماً:

«وليد... هل... تعني...».

وقبل أنْ أتمَّ كلامي كان قد صرخ مجدَّداً:

«أنا أعني ما أقول يا رغد... وما دمتِ تحت مسؤوليتي فنفِّذي ما أقوله ولا تزيديني همّاً أكثر مما أنا فيه».

كالخنجر طعنتْني كلماته الحادة القاسية فقلتُ وأنا على وشك الانهيار:

«لماذا تفعل هذا بي؟؟ إنْ كنتَ تراني هماً على صدركَ... وعقبةً في طريقك، لِمَ لا تزوِّجني منه الآن وتتخلَّص منِّي وترتاح وتريحني منكَ؟؟ ألستَ أنتَ مَنْ يصرُّ على بقائي معكَ؟! أنا لا أفهم ما تريد... لا تصرخ في وجهي ثانيةً إنّكَ لستَ أبي!».

وانفجرتُ باكيةً...

جلستُ على المقعد وأسندتُ مرفقَيَّ إلى رجلَيَّ، ووجهي إلى راحتَي يديَّ وسكبتُ العبر...

حلَّ الصمت المرعب على الأجواء...

فجأةً... تخلخلتْ الرياح الباردة ملابسي ودقَّتْ عظامي... رفعتُ رأسي فإذا بها تصفعني وتطير بدموعي بعيداً... نظرتُ إلى الباب فرأيتُه مفتوحاً ووليد يستقبل الأعاصير...

وقفتُ وناديتُه بسرعة:

«وليد...».

التفت إليَّ وخصلات شعره تتطاير في كل اتجاه مِنْ شدَّة الريح...

«إلى أين ستذهب؟».

قلتُ وأنا في خوفٍ منه وعليه... فالجو كان مُرعباً ولا يصلح للمشاوير... خصوصاً وهو مريض...

«موعدنا غداً... اجمعي أشياءَكِ».

واستدار منصرفاً مغلقاً الباب مِنْ بعده...

أسرعتُ إلى الباب وفتحتُه وتلقّيتُ الريح بوجهي... هتفتُ:

«وليد... وليد انتظر».

كان مولياً ظهره إليَّ... رأيتُ الريح تعبث بشعره ومعطفه بعنف... أعدتُ مناداته لكنه تابع شقَّ طريقه مبتعداً...

عندما عدتُ... وجدتُ أقاربي يقفون في الداخل ينظرون إليَّ... شعرتُ وكأنَّ نظراتهم تخترقني... أملتُ رأسي إلى الأسفل وهممتُ بالانصراف...

استوقفني صوت حسام وهو يقول:

«هل يخاطبكِ دائماً بهذا الشكل؟».

رفعتُ بصري إليه فوجدته غاضباً مقطب الحاجبين... وأعين البقيّة تنتظر جوابي...

«لا... كلاَّ...».

ولمْ أكن أتوقَّع أنْ يكون صراخ وليد بصوته المبحوح قد أصاب آذانهم. خالتي قالتْ:

«سأتحدّث معه حينما يعود».

قال حسام منفعلاً:

«وأنا سأوقفه عند حدّه».

أبو حسام قال:

«لا تتدخّل أنتَ... سأحدّثه أنا بنفسي».
صاح حسام:
«يا له مِنْ متعجرف فظ... مَنْ يرى نفسه؟؟ ليتكِ بقيتِ تحت وصاية سامر... فعلى الأقل ذلك المشوّه ليّن ومتفهّم ومتحضِّر ولا يستخدم يده في التعامل مع الآخرين».
قالتْ خالتي:
«لا أعرف مِنْ أين أتى بكل هذه الغلظة... إنّه يختلف عن سامر وشاكر تماماً».
ثمّ أضافتْ:
«لن أسكت على هذا... لسوف أطلب مِنْ سامر ودانة التدخُّل وإيجاد حلٍ لنا مع هذا الوليد!».

- وليد -

أشعر بالدوار...
أتنفس بصعوبةٍ بالغة... ورغم برودة الجو يتصبّب مني العرق...
إنني مصابٌ بنزلة بردية شديدة أرهقتْ قواي منذ أيام... والقرحة التي عالجتُها منذ زمن، عادتْ آلامها تنغِص عليّ حياتي مِنْ جديد...
بصعوبة نهضتُ عن السرير الدافئ... آه... ما أسوأها مِنْ ليلة...
إنني لمْ أنمْ... ولمْ يهدأ دماغي عن التفكير ساعةً واحدة... لا راحة جسدية ولا نفسية...
لماذا يا رغد...؟ لماذا...؟
ولماذا أيها القدر القاسي...
أتركها أمانة بين أيديهم... فيخططون لسرقتها منّي؟؟
أبداً... يستحيل أنْ أدعها معهم يوماً واحداً بعد... هيا انهض... يا وليد...
كان لا يزال أمامي عدّة مسافات عليّ قطعها... وأنا غاية في التعب... والمرض...
لملمتُ حاجياتي بعناء... وغادرتُ الغرفة قاصداً بيت أبي حسام...
حتى وإنْ كنتِ يا رغد ترغبين في الزواج منه أو كانتْ هذه أمنيتكِ الأولى... فأنا لنْ أنفذها لكِ... ويجب عليكِ خلال السنين المقبلة... أنْ تنسيه...
أنا لنْ أتقبّل منكِ الخيانة مرّتين... لنْ أسمح لكِ!... يجب أنْ تفهمي أنَّ مصيركِ لي... وأنَّ مشاعركِ يجب أنْ تتوجّه إليّ أنا... إمّا أنا... وإمّا لا أحد.
عندما وصلتُ إلى بيت أبي حسام، هو وزوجته وقاداني إلى المجلس...
هناك بدءا يحدّثاني بهدوء عن وضع رغد... ومِنْ ثمّ تطرّقا إلى موضوع الزواج ثانيةً...
لا أدري إنْ كنتُ أسمعهما أم لا... أو أعي ما يقولان... كنتُ مجهداً حد العمى والصمم... حد الخرس والشلل...
اعتقد أنهما كانا يخاطباني بعقلانية وكلامهما كان سيبدو منطقيا جداً لأي مستمعٍ... أمّا

أنا فلمْ أركّز في حديثهما الطويل... وربّما لمْ تظهر عليَّ إلاَّ أمارات البلادة والبرود... حتّى أنني لو فكّرت في الغضب... لمْ أكن لأجد عصباً واحداً فيَّ قادراً على الاشتعال...

أنا مرهقٌ... أنا مريض... أرجوكما اعتقاني الآن...

ورغم كل ما قالاه... رفضتُ ترك رغد معهم وألححتُ عليهما لاستدعائها... وشرحتُ لهما خطّتي في إلحاقها بإحدى الجامعات...

بعد ذلك أتتْ رغد... وكنا أنا وهي نتحاشى النظر إلى بعضنا البعض... فلقاؤنا يوم أمس كان سيئاً...

هدرتْ هي المزيد مِنَ الوقت والجهد غير أنّني لمْ أغيّر رأيي... وكلّما ألحّتْ ازددتُ إصراراً...

أمُّ حسام قالتْ ختاماً:

«لنْ ينتهي الموضوع هنا يا وليد... سنعرف كيف ندبّر حلاً».

وكان في كلامها شيءٌ مِنَ التهديد... لمْ أجبها بل التفتُّ نحو رغد وقلتُ:

«هيا بنا يا رغد».

لمْ تكن رغد قد حزمتْ حقيبتها لكن الوقت كان يداهمنا والصداع يتفاقم في رأسي... أعطيتُها فرصةً قصيرةً لجمع أهم أشيائها ومِنْ ثمّ لتودِّع أقاربها وأحسستُ بآلامها وهي ترتمي في حضن خالتها...

بدوتُ فظاً قاسياً في نظر الجميع... ولكنني لنْ أتراجع...

حملتْ رغد حقيبة يدها فيما حملتُ أنا حقيبة أغراضها وسرتُ وهي تسير خلفي مُكرهةً... مستسلمة...

ونحن نخرج مِنَ البوابة ألقتْ رغد النظرة الأخيرة على أفراد عائلة خالتها وقالتْ بأسى:

«مع السلامة».

تمزّق قلبي معها... وعذّبني ضميري أيما عذاب... لكنّني لمْ أملك إلا المضي قُدُماً...

سامحيني يا رغد... أعدكِ بأنْ أعوّضكِ عن كل هذا... سامحيني...

أمُّ حسام قالتْ وهي تغلق البوابة بعد خروجنا أنا ورغد... وحسام وأبيه:

«الله الله... في اليتيمة يا وليد... أمامكَ حسابٌ لا يخطئ...».

ما أشعرني بأنّني... أرتكب كبيرةً مِنْ كبائر الذنوب...

نظرتُ إلى رغد... ثمّ أغمضتُ عينيَّ ووضعتُ يدي على جبيني وضغطتُ بشدّة... علَّ الألم يرحم رأسي قليلاً...

ما الذي تظنُّونه عنّي؟؟ أي فكرة قد جعلتِهم يعتقدون بها يا رغد؟؟

هل أنا وحشيٌ وقاسٍ لهذا الحد؟؟

حينما ركبنا السيارة وقف حسام بجوارنا وقال:

«إذا أساء أحد معاملتكِ فابلغيني يا رغد».

ووجَّه خطابه إليَّ مهدِّداً:

«حذار أنْ تقسوَ على ابنة خالتي يا وليد... ستدفع الثمن غالياً...».

وابتلعتُ جملته ولمْ أعقِّب... وسرنا تشيِّعنا أعين حسام وأبيه وتتبعنا أفئدة العائلة أجمع...

وكلما ابتعدنا أحسستُ بالألم يزداد... بينما لا تزال كلماتهم الأخيرة ترنُّ في رأسي...

ولما نظرتُ إلى رغد... رأيتها غارقة في حزن يتفطَّر منه قبل الحجر...

فكيف بقلبي؟

هل كنتُ قاسياً لهذا الحد؟؟

هل أنا مخطئ في تصرفي؟

هل كان عليَّ تركها بعيدةً عن ناظري... قريبةً مِنْ ناظر حسام؟؟

ألا يحقُّ لي أنْ أخاف عليها مِنْ كل عينٍ وكل شر...؟

أليستْ هذه صغيرتي أغلى ما لديَّ في هذا الكون؟؟

ألستُ أنا ولي أمرها والمسؤول عنها كلياً... أمام الله؟؟

اللهمَّ وأنتَ الشاهد العالم بالنوايا... تعرف أنني ما أردتُ لها ومذ أدخلتّها في حياتي قبل سنين طويلة... إلا خيراً...

اللهمَّ وأنتَ المطّلع على الأفئدة والمقلِّب للقلوب... ارحم قلبي واعفُ عن خطاياه...

مرَّ زمنٌ ونحن في صمت أصم أخرسٍ... وشرودٍ كبيرٍ متشتِّت... وزادنا الطريق البرّي وحشةً وغربة... ولمْ يكن يسلك دربنا إلا القليل مِنَ السيارات... في مثل هذا الجو المضطرب...

الأفكار ظلَّتْ تعبث برأسي المتصدّع وضاعفتْ مرضي وحرارة جسدي...

الصداع والدوار... والأفكار الحائرة المتناثرة... وكلمات حسام وأمّه الأخيرة... وقطرات المطر الكثيفة الهاجمة على زجاج السيارة... ودموع رغد التي أراها مِنْ حينٍ لآخر عبر المرآة... وآلام صدري ومعِدتي وأطرافي... كلها تآمرتْ سويَّةً وأغشتْ عينيَّ وأفقدتْني القدرة على التركيز...

وفيما أنا منطلقٌ بالسيارة، فجأة انحرفتُ عن مساري واصطدمتُ بأحد أعمدة النور...

وأظلمتْ الدنيا في عيني...

الحلقة التاسعة والثلاثون

أرجوكَ احفظهُ لي!

- رغد -

صرختُ فجأةً ونحن ننحرف عن مسارنا ونصطدم بقوّة بعمود إنارة... ارتطم جسمي بمقعد وليد ولكني لمْ أصب بأذى...

توقّفتْ السيارة عن الحركة ورفعتُ رأسي فرأيتُ رأس وليد على المقود...

شعرت بالفزع وصرختُ:

«وليد...!!».

ولكنه لمْ يتحرّك...

مددتُ يدي نحو كتفه وأخذتُ أضربه وأنا مستمرةٌ في نداءاتي لكنه لمْ يستجب...

حرّكتُ يدي نحو رأسه وضربتُ بقوة أكبر...

«وليد... أجبني أرجوكَ... وليد...».

صدرتْ أنةٌ مِنْ حنجرته وتحرّك قليلاً...

«وليد أأنتَ بخير؟؟ أجبني... أتسمعني؟؟ أرجوك رد عليَّ».

أصابني الهلع الشديد... خرجتُ مِنَ السيارة مسرعةً فتدفّق الهواء بعنف إلى الداخل... كان الجو عاصفاً بارداً ماطراً... أقبلتُ إلى الباب الأمامي الأيمن وأردتُ فتحه فوجدتُه موصداً...

عدتُ إلى الداخل عبر الباب الذي خرجتُ منه وفتحتُ قفل الباب الأمامي، ثمَّ خرجتُ ودخلتُ عبر الباب الأمامي... وجلستُ جوار وليد... مبلّلة... بردى... مرعوبة... مفزوعة... أرتجف...

مددتُ يدي ورفعتُ رأسه عن المقود فرأيتُ سيل مِنَ الدماء يتدفق مِنْ أنفه المعقوف فارتعتُ... وأطلقتُ صيحةً شاهقة... أسندتُ رأسه إلى الوراء ثمَّ رحتُ أضرب خديه في ذعر... وما بي ذرة واحدة مِنَ القوة...

وبصوت أشكُّ أنه خرج مِنْ حنجرتي أصلاً هتفتُ:

«وليد... وليد أجبني... أرجوكَ وليد... أجبني».

وليد فتح عينيه أخيراً وتأوّه... ثمَّ رفع يده اليسرى ووضعها على جبينه وقطب حاجبيه بألم...

قلتُ بلهفة:

«وليد... هل أنتَ بخير؟؟».

ولا أعرف إنْ كان سمعني أم لا...

تلفَّتَ يمُنةً ويُسرةً ببطء وناداني بصوتٍ متحشرج:

«رغد...».

قلتُ بسرعة:

«أنا هنا...».

وحرّكتُ يدي لأمسك بيده اليمنى... لأُشعِره بوجودي... فشدَّ ضغطه على يدي وأغمض عينيه يعصرهما عصراً... ويئن...

«وليد... وليد... كلِّمني...».

فتح عينيه ونظر إليَّ وأخذ يسعل ويلتقط بعض الأنفاس المخنوقة ثمَّ قال:

«أأنتِ بخير؟».

لمْ أستطع الردَّ مِنْ شدَّة الفزع. وليد شدَّ الضغط على يدي وتأوَّه ثمَّ قال:

«أنا مرهقٌ جداً... سأرتاح قليلاً...».

وحرَّر يدي وحرَّك يده نحو المقود وأوقف محرِّك السيارة فيما رأسه لا يزال ملتصقا بمسند المقعد دون حراك... ثمَّ أغمض عينيه وهوتْ يده مرتطمةً بأي شيء... واستقرّتْ قرب يدي... تحرّكت أصابعه وأمسكتْ بيدي... ثمَّ سكن عن الحركة وبدا لي وكأنه... فقد وعيه...

قلتُ بهلع:

«وليد... أأنتَ بخير؟».

لمْ يستجِب... هززتُ يده وكرّرتُ:

«وليد... رُدْ عليَّ!».

فأطلق أنَّةً خفيفةً ضعيفة... أحسستُ بها تخرج مِنْ أعماق صدره...

«وليد... كلِّمني أرجوك...».

تكلَّم وليد مِنْ طرف لسانه دون حتَّى أنْ يحرِّك شفتيه:

«لا تخافي... رغد».

وشدَّ على يدي... ثمَّ سكن عن الكلام والحركة...

راقبتُه فرأيتُ صدره يلهث بأنفاس قويَّة تتحرَّك عبر فمه... يكاد بخارها يغشي زجاج السيارة... أما أنفه فقد كان لا يزال ينزف... وقطرات الدم تقطر مِنْ أسفل فكّه لتتلقاها ملابسه وتشربها بشراهة...

منظرٌ أفزعني حد الموت...

هتفتُ بما كان قد تبقَّى لحبالي الصوتية مِنْ قدرة على النطق:

«وليد... أنفكَ... ينزف...».

لمْ يجب...

«وليد...».

ولمْ يرد

«وليد... رُد عليَّ... أرجوكَ».

وأحسستُ بيده تضغط عليَّ قليلاً... ثمّ تسترخي... كانتْ دافئةً جداً... ورطبة...

تناولتُ بعض المناديل وقرّبتها مِنْ وجهه... وتوقّفتُ بُرهةً متردّدةً... أنظر إلى مجرى الدماء ينسكب مِنْ أنفه... إلى شفتيه المفتوحتين... إلى ذقنه... تكاد قطرات منها تتسلل إلى فمه ممتزجة مع الأنفاس الساخنة... دون أنْ يشعر بها أو ينتبه إليها...

قرّبتُ المناديل مِنْ سيل الدم ومسحتُه بخفة... ووليد لمْ يشعر بشيء... ولمْ يفعل أيَّ شيء...

لمْ أعد أسمع غير صوت الرياح الماطرة تصفع زجاج السيارة مثيرةً في نفسي رعباً منقطع النظير...

الغيوم السوداء الكثيفة تلبّدتْ في السماء وحجبتْ أشعة الشمس...

قطرات المطر تزاحمتْ على نوافذ السيارة... وأوهمتْني بالشعور بالغرق حتّى أصبحتُ التقط أنفاسي التقاطاً... وأعصر يدي عصراً...

أخذتُ أراقب كل شيء مِنْ حولي... أنفاس وليد القوية... أرواق الأشجار المتراقصة في مهبِّ الريح... سيول المطر المنزلقة على النوافذ... وعقارب ساعة يدي تدور ببطء وسكون... والسيارات المعدودة التي مرّتْ بطريقنا الموحش وربّما لسوء الطقس تجاهلتْنا...

شعرتُ برجفة تسري في جسدي... اقتربتُ أكثر نحو وليد وحرّكتُ يدي وأمسكتُ بذراعه ناشدة الأمان... وجفلتُ لحرارتها...

لمْ يحس وليد بي... لقد كان غارقاً في النوم...

تأمّلتُ وجهه... كان شاحباً كالعشب الجاف... جلياً عليه المرض... عيناه وارمتان وتحيط بهما هالتان مِنَ السواد... وبعض زخّات العرق تبرق على جبينه العريض... رغم الشتاء... وآثار الدم الممسوح تظهر على أنفه المعقوف وذقنه الملتحي... والهواء الساخن يتدفق مِنْ فمه مندفعاً بقوة...

وليد قلبي... مريض...

نعم مريض!

ومريضٌ جداً...

آنذاك... تمنّيتُ... وما للأماني جدوى... لو كان باستطاعتي... أنْ أمسح على رأسه أو أطبطب على كتفيه...

لو أستطيع أنْ أبلسم جرحه الدامي أو أنشّف جبينه المتعرق...

لو كنتُ هواءً يمتزج بأنفاسه ويقتحم صدره... ويلامس دفأه...

لو أعود طفلةً وأرتمي بحضه... وأبكي على صدره...

لطالما كان يعتني بي حين أمرض... لطالما عالج جروحي... وسكّن آلامي... وهدّأ روعي...

لطالما ربّتَ على كتفي ومسح دموعي... ورسم الابتسامة بين خديّ...

لطالما حمل همومي الصغيرة... وحملني ضئيلة على ذراعيه...

تشبَّثتُ بذراعه بلا شعور مني... ولا شعور منه...

إنْ حنيناً إلى الماضي... أو خوفاً مِنَ الحاضر... أو أملاً في الغد...

تعلَّقتُ بتلك الذراع تعلُّق الغريق بطوق النجاة... وكأنها آخر ما تبقّى لي... مِنْ وليد قلبي...

بعد قليل... رأيتُ سيارةً تتوقَّف أمامنا... فزعتُ... اشتدَّ قبضي على ذراع وليد... هززتها وهتفتُ بانفعال:

«وليد انهض».

لمْ يفق... تسارعتْ ضربات قلبي واصطدمتْ ببعضها البعض... غرستُ أظافري في ذراع وليد وأنا أرى باب تلك السيارة ينفتح وهتفتُ:

«وليد... انهض أرجوكَ... أرجوكَ».

أحسَّ وليد بشيء يعصر ذراعه... وأصدر صوت أنين مخنوق... ثمَّ بدأ يتحرَّك وأخيراً فتح عينيه...

التفتَ إليَّ بجهدٍ بالغ... دون أنْ يبعد رأسه عن المسند... ولمّا التقتْ نظراتنا رأيتُ المرض مستحوذاً عليه... أيما استحواذ... رأيتُ القلق والألم ينبعان مِنْ أعماق عينيه...

قلتُ والفزع يصرخ في حنجرتي:

«وليد... أفقْ أرجوكَ... إنهم قادمون».

مشيرةً نحو تلك السيارة...

وليد نظر إلى السيارة وقطب جبينه ثمَّ قال بصوتٍ شديد البحّة بالكاد يُسمع ويُفهم:

«اتصلي بسامر».

حملقتُ به غير مستوعبة للجملة... وكرَّرتُ لأتأكَّد:

«سامر؟؟».

وليد أغمض عينيه في ألم وقال:

«سامر... هيا يا رغد...».

هاتف وليد كان موضوعاً على أحد الأرفف أمامي مباشرة، وبسرعة تناولتُه واتصلتُ بسامر...

– سامر –

فور وصولي إليهما، تفاقم الذعر الذي كان قد أصابني مذ سمعتُ رغد تقول:

«سامر اِلحقْ بنا... اصطدمنا بعمود الإنارة... وليد متعبٌ جداً».

المشوار استغرق منِّي حوالي العشرين دقيقة وأنا طائرٌ بالسيارة على الطريق البرِّي...

والطقس سيءٌ والريح عاتيةٌ والأمطار غزيرةٌ. صادفتُ أكثر مِنْ حادثٍ مروري أثناء سيري...

سيارة وليد كانتْ مصطدمةٌ بأحد المصابيح الضوئية ومِنَ الضرر الظاهر عليها يتَّضِح أنَّ وليد لمْ يكن مسرعاً جداً في قيادتها...

أوقفت سيارتي على مقربة وخرجتُ مباشرةً مهرولاً... الجو كان عاصفاً بارداً... والشارع خالٍ مِنَ السيارات فضلاً عن المارّة...

رأيتُ رأس وليد مُسنداً إلى المقعد... وعينيه مغمضتين... وكان ساكناً عن الحراك...

أما رغد فقد كانتْ جالسةً على المقعد المجاور له ومتشبِّثة بذراعه... في وضع يوحي للناظر إليها أنها مفزوعة جداً.

اقتربتُ مِنْ باب وليد ولما هممتُ بفتحه وجدتُه مغلقاً... طرقتُ على النافذة وأنا أقول:

«افتح الباب».

وشقيقي لمْ يحرّك ساكناً. هتفتُ مخاطباً رغد والتي كانتْ آنذاك تراقبني في وجل:

«افتحي الباب يا رغد».

ولمْ تفعل ذلك مباشرة... بل استغرقتْ بعض الوقت تحملق بي. ألمْ تستوعب بعد أنني سامر؟؟

بمجرّد أنْ فتحَتْ هي القفل فتحتُ أنا الباب وأطللتُ برأسي إلى الداخل:

«وليد... أأنتَ بخير؟».

وهالني أنْ أرى بعض الدماء تلوِّث أنفه وشفتيه وفكه السفلي... وحتّى ملابسه...

وليد التفتَ نحوي ببطء وحذر وفتح عينيه ثمَّ قال:

«أنا مُتعب...».

ثمَّ رفع يده اليسرى ووضعها على رأسه إشارةً منه إلى مصدر التعب... لا بد أنَّ رأسه أصيب في الحادث...

لطفك يا رب...

قلتُ وأنا أمدُّ يدي إليه لمساعدته على النهوض:

«أتستطيع النهوض؟ قمْ معي...».

وليد أزاح يده عن رأسه وأشار إلى رغد وهو يخاطبها دون أنْ يلتفتَ إليها:

«تعالي رغد».

حينما نظرتُ إليها رأيتُ الذعر يملأ قسمات وجهها والرجفة تسري في جسدها ربَّما مِنَ الخوف أو مِنْ برودة الهواء المندفع بقوة عبر الباب، حاملاً معه قطرات المطر...

وكانتْ تمسك بذراع وليد تكاد تعانقها...

إنَّ شهوراً طويلة قد مضتْ على لقائنا الأخير... وهذه ليستْ باللحظة المناسبة لأسرد لكم كيف أشعر... ولا حتّى لأسمح لنفسي بأنْ أشعر...

ساعدتُ شقيقي على النهوض، وبمجرّد أنْ وقف استند إليَّ كليّاً، ثمَّ فجأة تركتي وجثا

أرضاً ومال برأسه وجعل يتقيأ.

وأيضاً رأيتُ الدماء تنسكب مِنْ جوفه على الأرض... ما جعلني أزداد فزعاً... وما جعل رغد تقبل نحونا مسرعةً وتشهق بقوّة...

شقيقي بدا مريضاً جداً... والواضح أنّه مصاب بدوارٍ شديد لا يستطيع معه تحريك رأسه... لا شكَّ أنَّ الإصابة قد شملتْ دماغه...

يا رب... خيِّب شكوكي...

بعد ذلك، أسندتُه إليَّ وسرنا مترنِّحَين نحو سيارتي... تلفحنا الرياح ويغسلنا المطر... ويقرصنا البرد... وكان وليد رغم حالته الفظيعة تلك وصوته المبحوح ذاك لا يفتأ ينادي:

«تعالي يا رغد».

أما هذه الأخيرة فقد كانتْ تسير إلى جانبنا ضامّة ذراعيها إلى صدرها يعلوها الذعر... وتنساب قطرات لامعة على وجهها لا أستطيع الجزم ما إذا كانتْ مِنْ ماء السماء أو ماء العين...

جعلتُ أخي يضطجع على طول المقاعد الخلفية مثنياً ركبتيه، وقلتُ مخاطباً رغد:

«اركبي».

وقد كانتْ لا تزال واقفة إلى جواري عند الباب الخلفي تنظر إلى وليد والذي قال مؤكِّداً:

«اركبي رغد».

عدتُ إلى سيارة شقيقي لإغلاقها وجلب المفاتيح وأقبلتُ مسرعاً... وفور جلوسي على المقعد نزعتُ نظارتي المبللة وفركتُ يديّ الباردتين ببعضهما البعض ثمّ التفتُ نحو رغد الجالسة إلى جانبي وسألتُها للمرة الأولى:

«هل أنتِ على ما يُرام؟؟».

ولكم أنْ تتصوروا مدى الدهشة التي تملّكتْها وهي تنظر إليَّ...!

سألتني:

«ماذا فعلتَ بعينكَ؟؟».

«لا يهمّ... ماذا حصل معكما؟؟».

أخبرتْني رغد بأنَّ وليد كان مريضاً ولكنه قدم إلى المدينة الصناعية ليصطحبها إلى مزرعة أروى ومِنْ ثمَّ ينطلقون إلى المدينة الساحلية مِنْ أجل العمل... وأنه كان يقود بسرعة معتدلة وبدا متعباً ثمَّ انحرف في سيره واصطدم بعمود المصباح الضوئي... وفقد وعيه...

وأنَّ إحدى السيارات قد توقّفتْ للمساعدة لكن وليد صرف راكبيها ولمْ يسمح له بتقديم العون...

وهي تتحدّث كانتْ تتوقف لالتقاط أنفاسها أو لإلقاء نظرة على وليد... ولمْ يخفَ عليَّ مدى القلق والهلع الذين كانتْ تعانيهما آنذاك...

ذهبنا مباشرة إلى إحدى المستشفيات وحضر فريقٌ طبي وحمل وليد إلى غرفة الطوارئ وبدؤوا بفحصه وعلاجه...

والطبيب يفتح قميصه ليفحصه هالني منظر رهيب...

الكثير مِنَ الندب وآثار جروحٍ قديمة مختلفة مبعثرة على جدعه... لمْ يسبق لي ملاحظتها قبل اليوم...

أما الطبيب فقد تبادل هو مَنْ معه النظرات ذات المغزى... وعلامات التساؤل...

بعد الفحص المبدئي أخبرنا الطبيب بأنَّ حرارة وليد مرتفعة جداً وأنّه مصابٌ بالتهاب شديد في حنجرته وأنفه. وأمر بعدها بإجراء فحوصات ضرورية ليتأكد مِنْ أنَّ الحادث لمْ يؤثّر على رأسه... وجعلتْنا شكوكه ندور في دوامة الجحيم... إلى أنْ ظهرتْ النتائج مطمئنةً والحمد لله...

ثمَّ أمر بإبقائه في غرفة الملاحظة ليتلقّى العلاج، إلى أنْ يعيد تقييم حالته، ورجّح أنْ يستلزم الأمر إدخاله للمستشفى...

غرفة الملاحظة تلك كانتْ تحوي مجموعة مِنَ الأسرَّة لا تفصل بينها أي ستائر... وهي خاصةٌ بالرجال فقط...

«يمكنكِ الانتظار هناك».

قال الممرِّض مخاطباً رغد ومشيراً إلى غرفة الانتظار الخاصة بالسيدات لكن رغد لمْ تتزحزح قيد أنملة وبقيتْ واقفةً معي إلى جوار وليد.

ولأنَّ الغرفة كانتْ تخصُّ الرجال وممتلئةً بهم فقد شعرتُ بحرج الموقف وقلتُ مخاطباً وليد الممدَّد على السرير بين اليقظة والنوم:

«سننتظر في الخارج... سآتي لتفقُّدكَ بعد قليل».

وليد فتح عينيه وخاطبني:

«انتبه لها».

ثمَّ وجه نظره إلى رغد... رغد سألتْه بلهفة:

«هل أنتَ بخير؟».

وليد قال وهو يغمض عينيه:

«سأنام قليلاً...».

ويبدو أنه نام فوراً...

لمْ يكن بحاجة لتوصيتي على رغد... هل نسى أنها قبل شهور وإنْ طالتْ... كانتْ خطيبتي؟

أمْ هل نسى أنها... ومنذ وُلدتْ كانتْ ولا تزال ابنة عمّي؟ وأنها ومنذ الطفولة... رفيقة عمري؟؟؟

خرجنا مِنْ غرفة الملاحظة تلك... ووقفنا في الممر لبعض الوقت...

رغد سألتني آنذاك:

«هل سيكون بخير؟».

كنتُ حينها أنظر إلى أرضية الممر الملساء... وأستمع إلى خطوات المارة حين تدوس عليها...

وأضرب أخماساً بأسداس... في مخاوفي وتوجساتي...

رفعتُ رأسي ونظرتُ إليها... لمْ يزل الهلع مرسوماً لا بل محفوراً على قسمات وجهها...

كانتْ تضمُّ يديها إلى بعضهما البعض وتعبث بأصابعها بتوتر شديد... والله الأعلم... مَنْ منّا أكثر قلقاً وأحوج إلى المواساة...

قلتُ مجيبا عن سؤالها:

«نعم، إنْ شاء الله».

«وماذا عن الدماء التي خرجتْ مِنْ جوفه؟».

«تعرفين أنّه مصابٌ بقرحة في معدته منذ العام الماضي... ربما عاودتْ النزيف».

امتقع وجه رغد واحتقنتْ الدماء فيه فغدا أشبه ببركان على وشك الانفجار... وقالتْ:

«وهل رأسه سليم حقاً؟؟ هل الطبيب واثق مِنْ ذلك؟؟ لماذا نزف أنفه إذن؟؟ لماذا لا يسترد وعيه كاملاً؟؟».

وهو السؤال الذي يدور في رأسي ويضاعف مخاوفي... وما مِنْ جواب...

رغد لمّا رأتْ صمتي تفاقم هلعها وهتفتْ وهي بالكاد تزفر أنفاسها:

«إنْ أصابه شيءٌ فأنا سأموت».

وجاءتْ كلماتها وكأنها تهديداً أكثر مِنْ كونها قلقاً... كأنها تهدّدني أنا بأنْ تموت هي لو أصاب وليد شيء لا قدّر الله... وكأنني المسؤول عمّا أصابه... وكأنني أملك تغيير القدر...

وكأنني جدار مصنوعٌ مِنَ الفولاذ... يمكنه تلقي أقسى الطعنات مِنْ أعزّ الأحباب... دون حتّى أنْ يُخدش.

رفعتْ رغد يدها إلى وجهها تداري ما لا تجدي مداراته أمام مرآي...

«يا رب... أرجوكَ... أبقِه لي... يكفي مَنْ أخذتَ... أرجوكَ... أرجوكَ...».

تفطّر قلبي بسببها ولأجلها... وأوشكتُ على النحيب معها... وتذكّرتُ الحالة التي اعترتْها بعد وفاة والديَّ... والتي بسببها خشينا أنْ تلحق بهما لولا لطف الله ورحمته...

تركتها تبكي لبعض الوقت... فقد كانتْ بحاجة لذلك... ثمّ قلتُ مشجّعاً وأنا المنهار المكسور:

«اطمئني يا رغد... سيتعافى بإذن الله».

بعد هذا ذهبنا إلى السيارة وبقينا في داخلها نعد الثواني والدقائق والساعات... وقلبانا لهِجان بالدعاء والتضرُّع إلى الله...

وكنتُ أمرُّ لتفقّد شقيقي بين فترة وأخرى وأراه لا يزال نائماً... وأرى كيساً يحوي مجروش الثلج يوضع على رأسه مِنْ حين لآخر...

في آخر مرة... وأنا أتأمّل شقيقي عن كثب، وهو بهذه الحال السيئة... ووجهه شديد

الشحوب وشعره قد طال وتبعثر فوق جبينه والجليد ينصهر في الكيس الموضوع عليه... والدماء متخثرة في أنفه المعقوف... وبعض آثارها تختبئ بين شعيرات ذقنه النابتة عشوائياً...

والأنفاس الشاهقة الساخنة تنطلق عبر فمه والندب القديمة تغطي جسده فيما السائل الوريدي يتدفّق إلى عروقه بسرعة... وأنا أتأمل كل هذا وذاك... شعرتُ بأسىً شديد عليه...

كم بدا لي... مريضاً ضعيفاً عاجزاً... وهو ذلك الجبل القوي الذي لمْ يتزعزع لدخوله السجن أو لكارثة تدمير مدينتنا أو لوداع شقيقتنا... أو لفاجعة موت والديَّ...

حقيقة كان هو الأقوى والأصلب مِنْ بيننا... وكان الجدار الذي استندنا عليه للنهوض مِنْ جديد...

لمْ أكن قد قابلتُه منذ مدّة... كان يحرص على الاتصال بي مِنْ حين لآخر... ويخبرني بتطورات ما حصل معه... ويلحُّ عليَّ للانتقال إلى المدينة الساحلية والعمل والعيش معه في رغبة كبيرة منه للم شمل العائلة المشتَّت...

ولكن... هل بإمكاني العيش في مكان تعيش فيه رغد... أو تحت ظل سقفٍ ضمَّ والديَّ إليه ذات يوم...؟

آه يا والداي... وآه لما حلَّ بنا... بعد رحيلكما...

أمسكتُ بيد شقيقي وقد اعتصرني الألم... وكلما اعتصرني أكثر ضغطتُ عليها أكثر... حتّى انتبه وليد وأفاق مِنَ النوم...

نظر وليد إليَّ ولمح بقايا اعتصار قلبي باديةً على وجهي... ثمَّ نظر مِنْ حولي ثمَّ قال:

«أين رغد؟».

وليتُه سأل عن أي شي آخر سواها...

ليته سأل... عن جثَّتَي والدَينا وعن الجروح التي كانتْ تغطيهما كلية...

ليته سأل عن الهول الذي أصابني وأنا أدقِّق النظر في جثمانيهما وبملء إرادتي... لا أكاد أميّزهما...

ما حييتُ... لن أنسى تلك الصورة البشعة... أبداً...

ربَّما كانتْ رؤية الندب على جسد شقيقي والدماء المتخثرة في أنفه هي ما أثار في نفسي هذه اللحظة تلك الذكرى الفظيعة المفجعة...

«أين رغد يا سامر؟».

عاد شقيقي يسأل وقد علاه القلق، أجبتُ مطمئِناً:

«في السيارة».

قال معترضاً:

«تركتَها وحدها؟».

قلتُ:

«كنتُ معها، أتيتُ لأتفقدكَ منذ دقيقة».

«أهي بخير؟».
«نعم، الحمد لله لمْ تُصب بأي أذى... أنتَ فقط جرحتَ أنفكَ».
وتبادلنا النظرات الدافئة... قلتُ:
«سلامتكَ يا شقيقي».
وأنا أشدِّد الضغط على يده، وليد تنهّد وردَّ بصوته الخافت:
«سلّمك الله».
«كيف تشعر الآن؟».
«الحمد لله.. أظنني تحسّنتُ».
نقل وليد نظره مِنْ عيني إلى الساعة المعلّقة على الجدار والتي كانتْ تشير إلى الرابعة عصرا ثمَّ قال:
«هل كنتُ نائماً كل هذا الوقت؟!».
«نعم... كنتُ متعباً جداً».
قال وهو يزيح كيس الثلج بعيداً:
«أنا أفضل الآن».
وحاول النهوض قائلاً:
«دعنا نغادر».
اعترضتُ وطلبتُ منه أنْ يبقى حتَّى يأذن الطبيب بانصرافه لكن وليد أصرَّ على مغادرة المستشفى تلك الساعة ولمْ أجدْ بُداً مِنْ تنفيذ رغبته...
عندما لمحتْنا رغد نقترب مِنَ السيارة خرجتْ منها مسرعةً وعلى وجهها مزيج متناقض مِنَ الراحة والقلق... ثمَّ سألتْ موجِّهة الخطاب نحو وليد:
«هل أنتَ بخير؟ هل تعافيتَ؟».
وليد أومأ إيجاباً... وإنْ كان جلياً عليه التعب والإعياء. ركبنا أنا وهو في مقدّمة السيارة وجلستْ رغد خلفنا.
لمح وليد مفاتيح سيارته موضوعة على رفٍ أمامي فسأل:
«أين هاتفي؟».
أجابتْ رغد الجالسة خلفنا:
«ها هو معي».
قال وليد:
«اتصلي بالمزرعة... لا بد أنهم قلقون الآن... أخبريهم بأننا بخير وسنقضي الليلة عند سامر».
ولمّا لمْ يصدر مِنْ رغد أي شيء يدلُّ على أنها سمعتْ أو فهمتْ ما قال، ناداها وليد:
«رغد؟؟».

فقالتْ مباشرة:

«حاضر».

وبادرتْ بالاتصال. قال وليد:

«لا تأتي بذكر الحادث».

قالتْ رغد:

«حاضر».

وبعد جملٍ قصيرة دفعتْ رغد بالهاتف إلى وليد الذي راح يكرِّر أنهما بخير وأنهما سيأتيان لاحقاً وأنهما سيقضيان هذه الليلة... في شقتي أنا!

- رغد -

الشقة التي أخذنا سامر إليها كانتْ جديدة... يبدو أنَّ سامر قد انتقل إليها قبل بضعة أشهر... وهي شقةٌ صغيرة لا تحوي غير غرفة نومٍ واحدة وغرفة معيشة صغيرة وحمَّام واحد!

فور وصولنا قاد سامر وليد إلى السرير الوَحيد في ذلك المكان فاضطجع وليد عليه والتقط بعض الأنفاس ثمَّ قال:

«أنا آسف... لكنني متعبٌ للغاية».

سامر قال مباشرة:

«لا عليكَ... عُدْ للنوم يا عزيزي».

وليد نظر إليَّ وكأنَّه يطلب الإذن مني! قلتُ:

«ارتح وليد... خُذ كفايتكَ».

وليد نظر إلى سامر ثمَّ قال:

«اعتنيا بنفسيكما».

ثمَّ أغمض عينيه واستسلم للنوم!

أجلسُ أنا وسامر في غرفة المعيشة نشاهد التلفاز ولا يجرؤ أحدنا على النبس ببنت شفة!

لكم أنْ تتخيّلوا حرج الموقف... فالرجل الذي يجلس معي هنا كان قبل فترة خطيبي... خطيبي الذي عشتُ وربيتُ معه... ووعيتُ لهذه الدنيا وأنا في صحبته...

وهو ومنذ أنْ أبلغني بأنه سيطلق سراحي... ذلك اليوم... ونحن في المزرعة... لمْ يعد له وجود في حياتي...

الشهور توالتْ بسرعة وتوقّفنا عن تبادل الزيارات وحتّى المكالمات...

لا أعرف تحديداً أي أفكار تدور برأس سامر هذه الساعة إلا إنني متأكّدة مِنْ أنّه أبعد ما يكون عن التركيز في البرنامج المعروض على الشاشة...

عندما حان موعد الصلاة أخيراً تكلّم...

«سوف أذهب لأداء الصلاة ومِنْ ثمَّ سأمرُّ بأحد المطاعم».

قال ذلك وهو ينظر إلى ساعة يده، ثمَّ تابع:

«لن أتأخَّر... تصرفي في الشقة بحريَّة».

ونهض وسار نحو الباب...

لمْ أجرؤ على قول شيء... ماذا عساي أنْ أقول وأنا في موقفٍ كهذا؟؟ وكيف يخرج ويتركنا وحدنا ووليد مريضٌ جداً؟؟

قبل أنْ يغلق الباب وهو في الخارج سمعتُه يقول:

«أتأمرين بأي شيء؟».

رفعتُ بصري إليه... كنتُ أريده أنْ يستشف مِنْ نظراتي اعتراضي على ذهابه... لكنَّه غضَّ بصره مباشرة وأشاح بوجهه جانباً...

شعرتُ بألم...

ليتكم تشعرون بما أشعر... بل لا أذاقكم الله شعوراً مماثلاً...

سامر... كان رفيق طفولتي وصباي وشبابي... كان أقرب الناس إليَّ... كان مُسخِّراً وقته وكل ما باستطاعته مِنْ أجلي أنا... كان يحبُّني حباً جماً... كثيراً جداً... ولمْ يكن أبداً... أبداً... يشيح بوجهه عنّي أو يتحاشى النظر إليَّ... لقد كنتُ خطيبته ولمْ يكن شيءٌ أحبّ إليه مِنَ النظر إليَّ والجلوس بقربي...

والآن...؟؟

طأطأتُ رأسي في أسىً وحسرة... وكيف لا أتحسّر وآسف على فقد إنسان عنى لي مثل ما عناه سامر طوال تلك السنين...؟؟

إنَّه... لمْ يفقد أحد ذويه مثلما فقدتُ أنا... ومثل مَنْ فقدتُ أنا...

لمَّا لمْ يجد سامر مني الجواب، انصرف مغلِقاً الباب بالمفتاح. حينها لم أتمالك نفسي وجعلتُ أبكي...

بعد ما يقرب مِنَ النصف ساعة توهَّمتُ سماع صوت يصدر مِنْ غرفة النوم... وبدأ الوهم يتَّضح أكثر فأكثر... حتَّى تيقَّنتُ مِنْ أنَّه وليد...

ذهبتُ إلى الغرفة وأنا أسير بحذر... وناديتُ بصوت خافت:

«أهذا أنتَ... وليد؟».

كانتْ الغرفة مظلمةً إذ أنَّ سامر كان قد أطفأ المصابيح عندما غادرناها...

وليد قال بصوته الشبه معدوم:

«رغد؟...».

«نعم... هل أنت بخير؟».

وليد بدأ يسعل بشدَّة سعالاً استمر لفترة... أفزعني سعاله... فتّشتُ عن مكابس الإنارة وأضأتُ الغرفة...

كان لا يزال في نوبة سعال لمْ تنهِ...

«هل أنتِ بخير؟؟».

لمْ يكن يستطيع التوقف... تفاقم قلقي ونظرتُ مِنْ حولي ثمَّ خرجتُ إلى غرفة المعيشة بحثاً عن بعض الماء...

عدتُ إليه مسرعةً وقدَّمتُه إليه... وبعدما شربه انتهتْ النوبة وارتمى على السرير مجدَّداً...

وأخذ يتنفَّس بعمق مِنْ فمه ويسعل أحياناً...

هدأ قليلاً ثمَّ سألني:

«أين سامر؟».

قلتُ:

«ذهب ليصلي...».

«اتصلي به».

وقفتُ مأخوذة بالهلع... وسألتُ:

«اتصِّل به؟؟».

«نعم... أنا مرهق».

وشعرتُ بأعصابي تنهار... وما عادتْ ساقاي بقادرتين على حملي... كنتُ أقف بجوار وليد وأرى علامات الإرهاق والمرض ثائرة على وجهه. قلتُ بصوت متبعثر متفكِّك:

«ما بكَ يا وليد؟ طمئِنّي أرجوك...».

واجتاحتني رغبة عارمة في البكاء...

وليد نظر إليَّ ومدَّ يده وأمسكَ بأصابعي... وشعرتُ بحرارته الشديدة تنتقل إليَّ... ثمَّ قال:

«لا تقلقي... أنا بخير».

قلتُ بانفعال:

«لا لستَ بخير! أنتَ مريضٌ جداً... أرجوكَ أخبرني... هل قال الطبيب شيئاً؟».

وليد أطال النظر في عيني... وكأنَّه يبحث عن شيء مختبئ خلف بؤبؤيهما... ثمَّ قال بحنان:

«هل... تخافين عليَّ؟».

أخاف عليك؟ بل أكاد أموت مِنَ الفزع عليكَ... ألا ترى أنَّ ساقيَّ... ترتجفان؟ ألا تشعر بأنني... سأهوي أرضاً؟ ألمْ تحس برعشة يدي وبرودتها؟ لقد جفَّت دمائي فزعاً عليكَ يا وليد... والقلب الذي ينبض بداخلي... يضخُ فراغاً...

وليد... ألمْ تفهم؟؟

قلتُ بصوت متقطِّع واهن:

«وليد... أنا... إنني...».

وهنا عادتْ نوبة السعال إليه مجدَّداً... أقوى وأعنف...

لم أتحمَّل ذلك... كادتْ روحي تخرج مع سعلاته... أسرعتُ أجرُّ ساقيَّ جراً... إلى هاتفي واتصلتُ بهاتف سامر...

«مَنْ معي؟».

«أنا رغد...».

«رغد؟؟».

«نعم... سامر عُد بسرعة أرجوكَ».

«ماذا حدث؟».

«وليد مريضٌ جداً... أنا سأنتهي...».

وانهارتْ ساقاي أخيراً وهويتُ أرضاً... وأخذتُ أبكي بل أصرخ... لا أعرف ما قال سامر... لمْ أسمع أو لمْ أعِ شيئاً... ولمْ أقوَ بعدها على النهوض...

ربما كان سامر على بعد أمتار مِنَ الشقة لأنه حضر بسرعة وما إنْ دخل الشقة حتَّى هتفتُ:

«أرجوكَ افعل شيئاً... لا تدعه يموت...».

كنتُ جاثيةً على الأرض في عجز تام... سامر لمْ يطل النظر إليَّ... بل ألقى بالأكياس التي كان يحملها جانباً وأسرع نحو الغرفة...

- سامر -

وليد كان يسعل بشدَّة وبالكاد يجذب أنفاسه ويوشك على الاختناق. كان العرق يتصبَّب مِنْ جبينه وشامل جسده بينما يشتعل حرارة... لدى رؤيته بهذا الشكل، أُصِبتُ بالروع... وقرَّرتُ إعادته إلى المستشفى فوراً...

رغد الأخرى كانتْ بحالة سيئة وبصعوبة تمكنتُ مِنَ النهوض ومرافقتنا...

هناك شخَّص الطبيب حالته على أنها التهاب رئوي حاد... وأمر بإدخاله إلى المستشفى مباشرة... لكن وليد رفض ذلك تماماً واكتفى بقضاء بضع ساعات تحت العلاج...

أمر الطبيب بحقنه بعدَّة أدوية... وأبقى قناع الأوكسجين على أنفه طوال الوقت... وظلَّ يتلقى العلاج حتَّى انخفضتْ حرارته وتحسَّن وضعه العام بعض الشيء...

أما رغد فقد كانتْ منهارة ومشتتة للغاية... وما فتئت تطلب مني أن:

«لا تدعه يموت... أرجوك».

وكأنَّ الموت بيدي أو أملك لمنعه سبيلاً. أعتقد أنَّ وفاة والديَّ اللذين كانتْ هي متعلقةً بهما كثيراً... وبحاجة إلى رعايتهما... جعلها تتصوَّر الموت يحيط بها وتخشى حدوثه...

وقد يكون أيضاً للمأساة التي عاشتْها ليلة القصف على المدينة... أثرها العظيم.

وبالتأكيد... فإنَّ حبّها لوليد جعلها في هوسٍ على صحّته... وحياته.

لا زلتُ أذكر كيف استقبلتْه في ليلة زواج دانة... وكيف تدهورتْ صحّتها ونفسيتها بعدما علمتْ بأمر ارتباطه بأروى... وكيف كانتْ تراقبهما بغيظ في المزرعة... فيما أنا أتفرّج عليها... وأقف كالشجرة... بلا حولٍ ولا قوّة.

وها أنا الآن أقف كالشجرة... أمام شقيقي وخطيبتي السابقة... بلا حولٍ... ولا قوّة...

تمرُّ الساعات بطيئةً ثقيلةً داكنة... خرساء عن إنْ كلمة أو إشارة... وكلّما أنَّ وليد اخترق خنجرٌ صدري... وكلّما تأوّه مزّقت سكين أحشائي... وكلّما أفاق استقبلتْه أنظارنا بلهفة... فيقول:

«أنا بخير».

وكلما أغمض عينيه رفعتُ عيني إلى السماء داعياً الله أنْ يجعله بخير...

كان وقتاً عصيباً... اكتشفتُ فيه أنني أحبُّ شقيقي هذا أكثر ممّا كنتُ أعتقد... وبالرغم مِنْ كل شيء أو أي شيء...

مع مرور الوقت تحسّنت حالته واستردَّ بعضاً مِنْ قوّته وطلب منّي إعادته إلى الشقة...

«ولكن يا عزيزي... الطبيب ينصح ببقائِك».

«أنا بخير الآن... لنعدْ يا سامر... لا بد أنّكما متعبين... وخصوصاً رغد».

وفهمتُ ما يرمي إليه. رغد قالتْ معترضةً:

«أنا بخير».

فقال وليد:

«وأنا كذلك».

وأومأ إليَّ بنظرة... فقلتُ:

«حسناً... هيا بنا».

وفي الواقع لمْ يكن هناك حلٌ أفضل مِنَ العودة في تلك الساعة المتأخرة مِنَ الليل، ومعنا فتاة لن تتحمّل المزيد.

في الشقة بدا شقيقي أفضل حالاً لحدٍ ما، ولكنه لمْ يستطع مشاركتنا الطعام لشعوره بألمٍ في معدته. الطعام كان مجموعة مِنَ الشطائر والعصائر... كنتُ قد جلبتُها مِنْ أحد المطاعمَ أوّل الليل.. تناولناها أنا ورغد ونحن نراقب وليد... في غرفة النوم.

السكون الذي ساد وليد جعلنا نستنتج أنه نام.

خاطبتني رغد سائلة:

«إنّه أفضل... سيتحسّن... أليس كذلك؟».

«إن شاء الله...».

رغد قالتْ برجاء شديد:

«أرجوك... اعتنِ به جيداً... افعل أي شيء لعلاجه».

أجبرتني جملتها على النظر إليها ثوان ثمَّ بعثرتُ نظراتي بعيداً. وهل تظنين يا رغد... أنني سأقف متفرِّجاً على شقيقي وهو مريض بهذا الشكل؟؟

أم تظنين أنني سأقصّر في العناية به انتقاماً لما فعله بي في السابق؟؟

أم تعتقدين أنَّ هروبكِ منِّي إليه سينسيني دماء الأخوَّة التي تجري في عروقي وعروقه؟؟

قالتْ رغد:

«في الصباح... سأتصل بِخالتي وأطلب مِنها الحضور لأخذي معها... وبالتالي يتسنَّى لكَ نقله للمستشفى ومعالجته».

وكلنا يدرك أنَّ وليد رفض دخول المستشفى بسبب وجود رغد... إذْ لمْ يكن مِنَ اللائق إدخاله إلى المستشفى وعودتنا وحيدين إلى الشقة.

تابعتْ رغد:

«سأهاتفها باكراً لتأتي سريعاً... لا يجب أنْ نتأخَّر أكثر مِنْ ذلك...».

ولمْ أعقِّبْ على حديثها بل كنتُ ألهي نفسي بشرب بقايا عصير الفراولة مِنْ كأسي الورقي... علّها تطفئ شيئاً مِنْ لهيب صدري. واصلتْ رغد:

«أنا آسفة لأنني عطّلتُ الأمر...».

جملتها هذه أثارت اهتمامي... لكني تظاهرتُ باللامبالاة... فاسترسلتْ:

«لطالما كنتُ... وسأظلُّ عقبةً في طريقكم جميعاً... لطالما سبَّب وسيسبِّب وجودي لكم التعطيل والضيق... أنا آسفة... لقد طلبتُ مِنْه مراراً أنْ يتركني في بيت خالتي لكنَّه هو مَنْ أصرَّ على أخذي معه... سأبقى عبئاً وعالةً عليكم رغماً عنِّي... لكن... ماذا أفعل وأنا بلا والدين ولا مأوى؟؟...».

وكصفعةٍ قوية تلقَّيتُ كلمات رغد... صفعة لمْ تدرْ وجهي نحوها فقط بل جعلتني أحملق فيها مندهشاً...

رغد مِنْ فورها خرجتْ مسرعة مِنَ الغرفة... لتخبِّئ دموعها خلف الجدران...

لمْ أستطع أنْ أحرِّك ساكناً... أحسستُ بالمرارة في داخلي وفي عصير الفراولة على لساني... وتركتها تبكي وأنا في عجز تام عن تقديم شيءٍ مِنَ المواساة والدعم... لحبيبة قلبي...

- رغد -

الساعة تشير إلى الواحدة والربع بعد منتصف الليل...

أنا متعبةٌ وفي صدري ضيق شديد... على وليد وعلى حالي التعسة. وهل لمثل حالتي شبيه؟؟

في شقّة صغيرة لساكن أعزب، أبقى على المقعد ساهرةً حتَّى ينتصف الليل... وابنا عمّي موجودان في داخل غرفة النوم... أحدهما يغطُّ في سباتٍ عميق... والآخر في عزلة وحظر...!

ألا ترون أنَّه لا مكان لي هنا وأنَّ وجودي أصلاً في هذه الشقة ومع ابنَي عمِّي... هو أمرٌ

مستهجن؟

ما كان ضرَّ وليد لو تركني أقيم وأبات في بيت خالتي معزَّزةً مكرَّمة... محبوبةً مرغوباً بها مِنْ جميع أفراد العائلة؟؟

رفعتُ يدي إلى السماء وشكوتُ إلى الله حالي وبثثته همّي... وتضرّعتُ إليه... ورجوتُه مراراً وتكراراً... أنْ يشفي وليد عاجلاً... وأنْ يجد لي مِنْ هذه الكربة العظيمة مخرجاً.

كنتُ لا أزال أرتدي عباءتي وحجابي منذ الصباح... وكنتُ وبالرغم مِنْ ملابسي الثقيلة أشعر بالبرد... إضافةً إلى الشعور بالعتب والنعاس... وبحاجة للنوم والراحة... ولكن أين أنام وكيف أنام؟؟ وهل يجوز لي أنْ أنام؟؟

لماذا لمْ يظهر سامر حتَّى الآن؟؟ هل نام وتركني هكذا... أمْ هل نسي وجودي؟؟

لمْ أعرف كيف أتصرّف ولمْ أكن لأجرؤ على العودة إلى غرفة النوم بطبيعة الحال. ذهبتُ بعد ذلك إلى دورة المياه الوحيدة في تلك الشقة... وكمْ شعرت بالحرج مِنْ ذلك... خصوصاً حينما ألقيتُ نظرةً على نفسي عبر المرآة فوقع بصري على أدوات الحلاقة ومستحضراتها مبعثرةً على الرف!

يا إلهي!

ما الذي أفعله أنا هنا!!؟؟

عندما خرجتُ، وجدتُ وسادةً وبطانيةً قد وُضِعَتا على المقعد. إذن فسامر لا يزال مستيقظاً... ولا بد أنه التقط موجات أفكاري أخيراً!

المقعد كان صغيراً ولا يكفي لمد رجليّ، لكنني على الأقل أستطيع أنْ أريح جسدي فوقه. أنا متعبة وأريد أنْ أنام بأي شكل...

وببساطة نزعتُ عباءتي وحجابي واستلقيتُ على المقعد والتحفتُ البطانية وسرعان ما نمتُ مِنْ فرط التعب...!

عندما نهضتُ كانتْ الساعة قد تجاوزتْ العاشرة بقليل... نهضتُ عن المقعد بسرعة شاعرةً بالألم في ظهري أثر الانكماش!

كنتُ أتوقّع النهوض في وقتٍ أبكر وكنتُ أنوي الاتصال بخالتي مباشرة. تلفّتُ يمنةً ويُسرة... ودقّقتُ السمع فوصلني صوت محادثة.

لا بد أنَّ ابنا عمّي قد نهضا. ارتديتُ عباءتي وحجابي بسرعة وفركتُ عينيَّ لأزيل عنهما أثر النوم... ثمَّ سرتُ نحو الغرفة المفتوحة الباب وأنا أقول:

«وليد... سامر... هل نهضتما؟».

وصلني صوت سامر:

«نعم تفضلي».

دخلتُ الغرفة وأنا ألقي التحية... ووجَّهت بصري نحو وليد:

«وليد كيف أنتَ اليوم؟ هل أنتَ بخير؟».

وليد كان جالساً على السرير ومسنداً ظهره إليه... وكان يبدو أفضل حالاً مِنْ يوم أمس، بالرغم مِنْ شحوب الوجه.

ابتسم وليد ابتسامة مطمئنةً وقال بصوته المريض:

«نعم. الحمد لله».

قلتُ وأنا أتنهّد بارتياح:

«الحمد لله».

ثمّ أضفت:

«هل نمتَ جيداً؟ هل تشعر بتحسُّن؟ وهل زالتْ الحرارة؟».

«نعم. فهذه الأدوية سحرية!».

قال ذلك وهو يشير إلى الأدوية المصفوفة إلى جوار السرير على المنضدة والتي كانتْ الطبيب قد وصفها له يوم أمس...

قلتُ:

«لكن يجب أنْ تستكمل علاجكَ في المستشفى كما أمر الطبيب... سأتصل بخالتي».

واستدرتُ وخرجتُ مِنَ الغرفة عائدةً إلى حيث تركتُ حقيبتي وهاتفي. وأنا أمسك بالهاتف لمحتُ سامر مقبلاً...

قال:

«انتظري».

نظرتُ إليه باستفسار، ودون أنْ ينظر إليّ قال:

«وليد يريد التحدُّث معكِ...».

حملتُ هاتفي معي وذهبتُ إلى وليد... أما سامر فأظنُّ أنّه خرج. وقفتُ قرب الباب... منتظرةً ما يودُّ وليد قوله. وليد لمْ يبدأ الحديث مباشرة... لا أعرف إنْ كان السبب بحّة صوته أو تهيُّج حلقه، أو تردّده في قول ما سيقول...

تناول وليد كأس الماء الموضوع مع الأدوية ورشف رشفة ثمّ قال:

«أنا آسف يا رغد...».

حقيقة أنني توقّعتُ أنْ يقول أي شيءٍ آخر... عدا الأسف!

«لِمَ الأسف؟؟».

قال وهو يحاول جعل جمله قصير لئلا يتعب حباله الصوتية:

«كنتُ متعباً... اعذريني... هل نمتِ جيّداً؟».

ابتسمتُ وقلتُ بمرح:

«نعم... عدا عن وجع في الظهر وبرودة في الأطراف!».

وليد قال:

«لم يكن أمامي حل أفضل... أنا آسف».

قلتُ مباشرة:

«لا عليكَ... الأمر ليس سيئاً لهذا الحد».

أناقض بذلك الحقيقة التي عشتُها ليلة أمس وأنا نائمةٌ دون حجاب على مقعد صغير في شقّة صغيرة مع ابنَي عمّي الشابين... لا يفصلني عنهما غير جدار واحد يتوسطه باب مفتوح على مصراعيه طوال الليل!

هل يبدو الأمر سيئاً إلى ذلك الحد!؟

وليد قال:

«على كل... كان ظرفاً طارئاً لن يتكرّر بإذن الله».

خفضتُ بصري خجلاً... ولمْ أجد تعليقاً مناسباً. وليد قال:

«سنغادر عصراً إنْ شاء الله».

قفزتُ ببصري إليه وكلي استنكار واعتراض... قلتُ:

«اليوم؟ عصراً؟».

«نعم».

«وماذا عن... المستشفى؟».

«لا ضرورة لها فأنا في تحسُّن».

لمْ يعجبني ذلك فقلتُ:

«لكن الطبيب ليلة أمس شدَّد على ضرورة تلقيك العلاج في المستشفى. لديك التهاب رئوي وليد!».

«سأتعافى مع هذه الأدوية بإذن الله».

صمتُّ في حيرة مِنْ أمري... بعدها سألتُ:

«لكن... ألا يجدر بكِ ملازمة الفراش؟ كيف ستقود السيارة؟».

«سامر سيصطحبنا إلى المزرعة... كما وأنَّ سيارتي... كما تعلمين!».

وتذكّرتُ أننا تركنا السيارة في الشارع في وجه الريح والمطر... ربما قرأ وليد التردد المكتوب على وجهي... لذا سألني:

«أهناك ما يقلقكِ؟».

نعم يا وليد! هناك الكثير الكثير... لأقلق بشأنه... وأوّله أنتَ!

قلتُ:

«لِمَ لا تنتظر إلى أنْ تسترد عافيتك يا وليد؟ إنْ كان الأمر بشأني أنا... فأنا سأطلب مِنْ خالتي الحضور الآن لأخذي معها... و...».

وأخذا وليد يهزُ رأسه اعتراضاً...

قلتُ:

«هكذا ستتمكن مِنْ...».

لكن وليد قاطعني:

«كلا يا رغد...».

حاولتُ المجادلة لكنه قال بصرامة لا تتفق وحالته المريضة:

«كلا».

لذتُ بالصمت بضع ثوان... وأنا في حيرة مِنْ أمر هذا الـ وليد!

ما دام يجدني عائقاً في سبيل تحركاته، لِمَ لا يتركني مع خالتي؟؟ لِمَ يزيد عبء مسؤولياته بينما أنا على استعداد بل وراغبة بشدّة في إعتاقه مِنْ مسؤوليته تجاهي؟؟

قلتُ بصوت ضعيف مغلوب على أمره:

«وليد... أنا لا أريد العودة إلى المزرعة...».

نظرتُ إليه بتوسُّل... وأنا واثقة مِنْ أنه فهم نظراتي... قال:

«لن نطيل البقاء هناك... يومين أو ثلاثة... ريثمًا استرد عافيتي وسيارتي».

وسعل... ثمَّ تابع:

«نسافر بعدها جواً إلى الجنوب».

قلتُ:

«ومعنا أروى... وأمُّها؟».

أومأ برأسه إيجاباً... فهززتُ رأسي رفضاً. أنا أرفض العودة لنفس الدوامة مِنْ جديد...

خاطبته بنبرة شديدة التوسُّل والضعف...

«أرجوكَ... أرجوك وليد... دعني أعود إلى خالتي...».

وليد ركز النظر في عيني برهة...

«أرجوك...».

أغمض وليد عينيه وهز رأسه ببطء

«لا يمكن يا رغد... لا تتعبيني أكثر».

حين فتح عينيه كان نظرات التوسّل تتبادل بين أعيننا...

قال:

«أنا المسؤول عنكِ يا رغد...».

قلتُ بسرعة وتهوّر:

«أعفيكَ مِنْ هذه المسؤولية».

واكتشفتُ خطورة جملتي مِنْ خلال تبدّل تعبيرات وجهه. حاولتُ أنْ أخفِّف تركيز الجملة فقلتُ:

«أعني... أنني لا أريدكَ أنْ... تزيد عبئي فوق أعبائكَ... مسؤولياتكَ كثيرة... أريدكَ أنْ ترتاح... وخالتي وعائلتها... مستعدون لأن...».

زمجر وليد:

«كفى يا رغد».

فابتلعتُ بقية الجملة بسرعة كدتُ أغصُّ معها! بدا وليد عصبيا الآن... ولكنه عجز عن الصراخ لبحة صوته. خشيتُ أنْ أتسبب في توتّره وغضبه وهو بهذه الحال، فقلتُ:

«فهمتُ... آسفة...».

ثمَّ خرجتُ بهدوء مِنَ الغرفة.

بعد فترة حضر سامر جالباً بعض الأطعمة... ووجدتُ نفسي منقادة لما تفرضه الظروف عليَّ... وجلستُ مع ابنَي عمّي أشاركهما الطعام بكل بساطة!

إنَّ لديَّ ابنَي عم اثنين... هما أهلي وأحبّتي وكل مِنْ لي... ويساويان في حياتي الناس أجمعين... وإنْ احتل أحدهما الماضي مِنْ حياتي... فإنَّ الآخر... يحتلُّ منبع الماضي والحاضر والمستقبل...

ابنا عم... لا يوجد مثلهما ابنا عم على وجه الأرض!

ونحن نتناول الطعام كنتُ أراقبهما خلسةً... وأصغي جيِّداً لكل كلامهما...

كم كانا لطيفين حنونين وهادئين... بصراحة، الله وحده الأعلم مَنْ منّا نحن الثلاثة كان الأكثر قلقاً والأشد اهتماماً بشأن الآخرين!

فيما بعد تركتُ أكبرهما يقيل وقت الظهيرة... وجلستُ مع الأصغر في غرفة المعيشة نشاهد التلفاز...

- سامر -

لم أكن لأُقدِم على الحديث معها لو أنَّ رغد لم تبادر هي بالكلام.

وبالرغم مِنْ أنني كنتُ أتحاشى النظر باتجاهها إلاَّ أنَّه كان مِنْ غير الممكن تحاشي التعقيب على حديثها...

«ألا يجب... أخذه للمستشفى كما أوصى الطبيب؟».

«لا أظنه سيرحب بالفكرة مطلقاً».

«حاول أنْ تقنعه...!».

نظرتُ إلى السقف وقلتُ:

«ما مِنْ جدوى... وليد عنيد...!».

رغد صمتتْ قليلاً ثمَّ قالتْ:

«لكن السفر قد يُتعبه... وهو مصرٌ على الذهاب للمدينة الساحلية...».

وأتمّتْ بأسى:

«وعلى أخذي معه».

شعرتُ مِنْ نبرة صوتها بعدم ارتياحها فقلتُ:

«ألا تريدين الذهاب؟».

ردّتْ مباشرة:

«لا أريد... لكن... وليد مصرٌ على اصطحابي معهم... لن يفيده ذهابي في شيء بل سيسبّب له التعطيل والعقبات...».

«لِمَ تقولين ذلك؟».

رغد بدأتْ تتكلّم... وكأنها تشكو إليّ... كأنها... كتمتْ في صدرها آهات عدّة وجمعتها سوية... لتطلقها أمامي... كأنها ما كادتْ تصدّق أنها وجدتْ مَنْ تبوح إليه بما يختلج بواطنها... وكأنها... نسيتْ... أنَّ الرجل الذي تتحدّث إليه وتبثه همومها هو خطيبها السابق الذي كان ولا يزال يعشقها بجنون...

وحين تتألم رغد... ينتشر صدى آلامها في صدري، ويهزُّ كياني.

«أعرف أنني مصدر إزعاج له... وهمٌّ مرميٌّ فوق صدره... وجودي يعرقل تحركاته، ولكنه لا يريد إزاحتي بعيداً... ربما يستمتع بفرض وصايته عليَّ! إنّه لا يريد أنْ أعيش في بيت خالتي ولا يريد أنْ أتحدّث مع ابنها... ويفرض عليَّ ما ألبس ومتى أخرج وإلى أين أذهب... في المزرعة وحتّى في بيت خالتي».

لمْ أستطع التعقيب على حديثها هذه المرة...

ولكن أليستْ رغد مرتاحة للعيش معه؟ ألمْ تكن هذه رغبتها هي؟؟

تابعتْ:

«وأنا لا أتحمّل العيش مع الشقراء... وهي أيضاً لا تطيقني... لماذا لا يريد وليد فهم ذلك؟».

وأيضاً لمْ أعلّق. رأتْ رغد صمتي فشعرتْ بخيبة الأمل. إذ لمْ تجد منّي أي مواساة أو تفاعل... لذا لاذتْ بالصمت هي الأخرى.

هناك سؤالٌ ظلَّ يكتم أنفاسي ويخنقني... لمْ أستطع تحاشيه ولا أدري أي جنون جعلني أطلقه مِنْ لساني بعد كل هذا الصمت والجمود...؟؟

«رغد...».

رغد نظرتْ إليَّ وهذه المرة لمْ أهرب بعيني بعيداً... بل غصتُ في أعماق عينيها باحثاً عن الجواب... وليتني لمْ أجده...

«ألا زلتِ... تحبّينه؟».

بالتأكيد كان هذا آخر سؤال تتوقّع منّي رغد طرحه... خصوصاً بعد أنْ التزمتُ والاختصار الشديد في الحديث معها وتحاشيها قدر الإمكان...

ولمْ يكن مِنَ الصعب عليَّ أنْ يستنبط الجواب مِنْ هاتين العينين...

تصاعدت الدماء إلى وجنتيها بينما هبطتْ عيناها إلى الأرض. هل كان عليَّ أنْ أطرح بجنون سؤالاً كهذا؟؟

يا لي مِنْ أحمق وفاشل.

مِنْ حينها لمْ أتحدّث معها بأي كلمة... حتّى وقفتُ مودِّعاً إياهما في المزرعة.

- رغد -

وصلنا إلى المزرعة قرب الغروب... واستقبلتْ أورى وليد استقبالاً حميماً لنْ يسرّني وصفه لكم... فيما أنا أحترق مِنْ شدّة الغيظ...

وأحسنتْ هي وأمُّها وخالها الترحيب بي وبسامر. وبعدما خرج سامر مغادراً المنزل بثوان، تذكّر وليد مفاتيح سيارته فقال:

«المفاتيح مع سامر».

قلتُ مباشرة:

«سأحضرها».

وانطلقتُ مسرعةً نحو الخارج. كان سامر على وشك صعود السيارة فهتفتُ:

«سامر انتظر».

وأقبلتُ مهرولةً إليه... التفتَ سامر نحوي مستغرباً ورفع نظارته الشمسية ونظر إلى عينيَّ مباشرةً

قلتُ:

«مفاتيح سيارة وليد».

«آه... نعم».

والتقط المفاتيح مِنْ داخل السيارة - حيث كانتْ موضوعة على الرفِّ - عبر الباب المفتوح وقدّمها إليَّ...

المفاتيح كانتْ ضمن عدّة مفاتيح أخرى مضمومةً إلى بعضها البعض بالسلسلة التي كنتُ قد أهديتُها لوليد في عيد الحجِّ الماضي... إنْ كنتُم تذكرون...

وأنا أمدُّ يدي لأستلم المفاتيح منه... تبعثرتْ نظراتنا ثمَّ التقتْ مِنْ جديد...

قلتُ:

«تبدو مختلفاً...».

وأنا أدقّق النظر في الجهة اليمنى مِنْ وجه سامر وتحديداً عينه وما حولها... الموضع الذي كانتْ تغطيه ندبة قديمة قبيحة... شوّهتْ وجهه مُذ سقط على الجمر المتّقد ونحن نركب درّاجته الهوائية أيام الطفولة...

الندبة تقريباً اختفتْ... وبدا سامر مختلفاً... وهذا أوّل ما أثار انتباهي حين خلع نظارته السوداء المبللة بالمطر ونحن نركبُ السيارة يوم أمس.

سامر أمال إحدى زاويتي فمه بابتسامة أقرب إلى السخرية وقال:

«هناك أشياءٌ... لا بد مِنَ التخلّص منها ومِنْ آثارها... ذات يوم».

ثمَّ استدار وركب السيارة وابتعد... تاركاً الجملة ترنُّ في أذنيَّ...

عندما عدتُ إلى الداخل... وقع بصري على منظر آثار ثورتي وجعلني أرمي بالسلسلة رمياً على المنضدة تجاه وليد...

أروى... كانتْ تجلس ملتصقةً بوليد وتحيطه بذراعيها بكل حنان بينما يُسند رأسه إلى كتفها ويغمض عينيه...

لقد وجدتْها الشقراء فرصةً ممتازة لكي تقترب مِنْ ابن عمّي... وتُبدي له اللطف والعطف... وهو مريضٌ ومُرهق... بينما أنا لا أستطيع تقديم شيء.

حسناً يا أروى... المعركة ابتدأت إذن!!

- وليد -

مستلقٍ على سريري وشاعر بإعياءٍ شديد في جميع عضلاتي... أجاهد مِنْ أجل إرغام الهواء على المرور عبر أنفي شبه المسدود... تنتابني نوبات فظيعةٌ مِنَ السعال إنْ تجرّأتُ وفتحتُ فمي... أنا وليد... الصامد في وجه النواكب العظمى... مستسلمٌ تماماً أمام المرض!

أقبلت أروى تحمل طبق الحساء الدافئ وشراباً مِنْ خلاصة الأعشاب... وجلستْ قربي...

استويتُ جالساً وقرّبتُ كأس الشراب مِنْ أنفي استنشق البخار المتصاعد منه... علّه يساعد على توسيع مجرى الهواء... ولمْ أكنْ أحس برائحته... ولمْ أحس بطعمه...

«الحمد لله».

قلتُ بعدما أنهيتُ وجبتي فعقّبت أروى:

«بالهناء والعافية... حبيبي».

نظرتُ إليها فابتسمتْ بحنان... ساهم في رفع معنوياتي المحبطة... مِنْ جرّاء المرض ومِنْ حالي مع رغد وأقاربها...

رددتُ إليها ابتسامةً مُمتنة... وقبضتُ على يدها، ثمّ عدتُ مضطجعاً على الوسادة... شاعراً بالارتياح...

الساعة كانتْ العاشرة مساءً وأنا ألازم فراشي منذ حضوري عصراً... ومنذ حضوري لمْ أرَ رغد...

أروى حرّرتْ يدها مِنْ قبضتي، وجعلتْ تمرّر أصابعها في شعري، فأغمضتُ عيني وأرخيتُ شامل عضلاتي واستسلمتُ للهدوء.

كنتُ على وشك النوم باسترخاء، إلا أنّ شاغلاً وتّر هدوئي وأرغمني على فتح عينيّ...

نظرتُ إلى أروى فوجدتُها مبتسمةً لي... سألتُها:

«ماذا عن رغد؟».

تلاشتْ الابتسامة عن وجه أروى وظهر الانزعاج وردّت:

«ربّما نامتْ في غرفتها... حبيبي... لا تفكّر في شيءٍ الآن... اغمضْ عينيك وابق ومسترخياً أرجوك».

وكأنها تؤكِّد لي أنَّ رغد هي أحد أسباب قلقي وتعبي... وهي حقيقةٌ غنيةٌ عن التأكيد!

عادتْ أروى تبتسم، ثمَّ مرّرتْ يدها على عيني فأغمضت جفوني... وسرعان ما استسلمتُ للنوم العميق.

كانتْ حالتي أفضل بكثير حينما نهضتُ صباح اليوم التالي... وتمكّنتُ مِنْ مغادرة الفراش...

أخذتُ حمّاماً مُنعِشاً زاد مِنْ حيويّتي... وفيما كنتُ أرتِّب فراشي أقبل كلٌّ مِنْ أروى والخالة والعم إلياس يطمئنُّون عليَّ ويحمدون الله على تحسُّن صحّتي...

جلسنا نتبادل بعض الأحاديث بشيءٍ مِنَ المرح والسرور... والضحك أيضاً... وقُدِّم لي الفطور على فراشي... وغمرني الثلاثة بعطفهم وحبّهم... الأمر الذي أبهج صدري ورفع معنوياتي أكثر فأكثر...

إنني أنتمي إلى هذه الأسرة... وإنَّ الله كان غاية في اللطف والكرم سبحانه... وهو يضعها في طريقي... تعويضاً عمَّا فقدتُ... وعمَّنْ فقدتُ...

مع ذلك... لمْ يكن حبُّهم لي وعطفهم عليَّ... ليغني عن حاجتي للشعور بالمحبة والعطف مِنْ قِبَل شقيقي الوحيد سامر... أو شقيقتي الوحيدة دانة... أو... صغيرتي الحبيبة... رغد... الذين تسري في عروقي دماؤهم...

ما أحوجني إليهم جميعاً...

لمْ أكن قد رأيتُ صغيرتي منذ قدمنا إلى المزرعة يوم أمس... لا أعرف كيف أمستْ أو كيف أصبحتْ... وأين تجلس وماذا تفعل...

وصدّقوني... إنَّه مِنَ المستحيل عليَّ أنْ أتجاهل التفكير بها... مهما أردتُ!

قلتُ وأنا افتقدها بينما الجميع مِنْ حولي:

«أين رغد؟».

هناك نظرةٌ كانتْ خاطفة تبادلتها أروى وأمُّها، لمْ تغب عن انتباهي... بل كنتُ أرصدها... ثمَّ قالتْ خالتي:

«لمْ تغادر غرفتها منذ دخلتْها يوم أمس».

وهو جوابٌ لا يصلح لرفع معنوياتي أو التخفيف عن آلامي... البتة! وجّهتُ خطابي إلى خالتي:

«مِنْ فضلكِ... اذهبي وتفقّديها يا خالة... رجاءً».

ابتسمتْ خالتي وقالتْ:

«بكل سرور يا بنيَّ... سأستدعيها...».

وغادرت يتبعها العم إلياس... ثمَّ عادتْ قائلة:

«يظهر أنها لا تزال نائمةً».

وقالتْ أروى:

«لا تشغل بالكَ. ستأتيكَ حالما تنهض حتماً».

ولمْ تكن جملتها ودّيةً، غير أنّني جاريتُها ولمْ أُكرّر السؤال عن رغد في الساعات التالية.

في وقت الظهيرة، انشغلتْ أورى والخالة في المطبخ، والعمُّ في المزرعة... وأنا في القلق المتزايد على رغد!

ويحكِ يا رغد! ألنْ تأتيَ للاطمئنان عليَّ؟؟

لمْ أطق صبراً بعد... فذهبتُ بنفسي للاطمئنان عليها.

طرقتُ باب غرفتها وقلتُ مصرِّحاً:

«أنا وليد».

ولمّا أذنتْ لي بالدخول... دخلتُ فرأيتها تقف عند المكتبة ممسكةً بقلم وترسم...

«كيف حالكِ يا رغد؟».

رغد ابتهجتْ وابتسمتْ وقالتْ بصوتٍ خافت:

«بخير...».

ثمّ بصوت أقوى:

«المهمُّ كيف حالكَ أنتَ؟ تبدو أفضل».

ولمحتُ الاهتمام الحقيقي على وجهها... وشعرتُ بسعادة! قلتُ مبتسماً:

«نعم، الحمد لله... أفضل بكثير».

فاتّسعتْ ابتسامتها وازدادتْ بهجتها وكرّرتْ:

«الحمد لله... يريحني سماع ذلك».

قلتُ:

«هل قلقتِ عليَّ؟».

وأنا متلهّف لأنْ أسمع منها كلمةً تبدي فيها ولو بعض العطف عليَّ...

أجابتْ:

«بالطبع! كنتَ مريضاً جداً. كيف لا أقلق عليكَ! أنتَ...».

وصمتتْ قليلاً لتفكّر فيمَا ستقول، ثمّ أكملتْ:

«أبي بالوصاية!».

كنتُ آمل أنْ تصفني بشيء آخر... لكنّني قبلتُ بهذا الوصف على الأقل، وابتسمتُ. قلتُ بعدها:

«لمْ أركِ منذ الأمس... أقلقتِني... لِمَ لَمْ تأتي لزيارتي؟».

طأطأتْ رغد رأسها ثمّ قالتْ:

«تعرف... لا أستطيع أنْ... أتجوّل في المنزل...».

صمتُّ قليلاً ثمّ قلتُ:

«هذا... بيتي يا رغد... وبيتي هو بيتكِ...».

لكن رغد حرّكتْ رأسها مخالفةً لكلامي... أردتُ أنْ استنبط منها رأيها فقلتُ:

«أليسَ كذلك يا رغد؟ يا... ابنتي بالوصاية؟؟».

رفعتْ بصرها وتأملتْني برهةً ثمّ وقالتْ:

«لنْ أعتبر... هذا المكان... بيتي أبداً يا وليد... سأظلُّ أشعر بالغربة بينكم... طالما أنا هنا».

لمْ أكنْ أريد لصغيرتي أنْ تشعر بالغربة وهي معي أنا...

قلتُ:

«على كلٍ... سنغادر بعد الغد... إلى بيتنا في الجنوب».

شيءٌ مِنَ الاعتراض أيضاً ارتسم على وجهها وقالتْ:

«بعد الغد؟؟ لكن... أنتَ... لا تزال مريضاً».

قلتُ مطمئِناً:

«أنا بخير... سبق وأنْ حجزتُ التذاكر ولا داعي لتأجيل الأمر...».

صمتتْ رغد فسألتُها:

«هل سيُشعركِ ذلك... بالانتماء والألفة؟».

انتقلتْ أنظار رغد مِنْ عيني إلى الأرض... ولمْ تجب. كنتُ أعرف بأنها لا ترغب في السفر بل في العودة إلى خالتها...

خطوتُ خطوات نحوها حتّى صرتُ جوارها تماماً... وأمكنني رؤية الرسم الذي كانتْ ترسمه على الورقة... كان رسماً لفتاةٍ صغيرة تحضن ذراعاً بشريَّة كبيرة... تخرج مِنْ حوتٍ مغمض العينين مفتوح الفكين تقطر الدماء مِنْ أنيابه!!

ما المقصود مِنْ هذا الرسم الغريب؟؟!

ناديتُها:

«رغد».

فرفعتْ بصرها إليّ...

«عندما نذهب إلى المدينة الساحلية... فسألحقكِ بالجامعة...».

ظلّتْ رغد تحدّق بي... بشيء مِنَ التشكك أو عدم التصديق. قلتُ مؤكدا:

«لقد رتّبتُ للأمر... ودبّرتُ لكِ مقعداً في كليّة الفنون الأهلية... لتتابعي دراستكِ... ألمْ يكن هذا حلمك؟».

«... أحقاً؟».

«نعم يا رغد... أنتِ موهوبةٌ والمستقبل المشرق ينتظركِ...».

رأيتُ تباشير ابتسامة تتسلّل إلى وجهها... إذن... فقد استحسنتْ الفكرة... هذا جيّد.

«وفي وقت الإجازات سآخذكِ إلى خالتكِ... أعدكِ بذلك... صدّقيني يا رغد... أنا أعمل لمصلحتكِ... ولمْ يكنْ قصدي إجباركِ على شيء... وإنْ فعلتُ... أو تصرّفتُ معكِ بصرامة...

فأرجوكِ... سامحيني».

عادتْ رغد ببصرها نحو الأرض...

«هل تسامحيني يا رغد؟».

رغد ابتسمتْ وأومأتْ إيجاباً فتنفّستُ الصعداء عبر فمي بارتياح. تصادم الهواء البارد مع حلقي المتهيّج فأثار نوبةً خفيفةً مِنَ السعال جعلتْ رغد ترفع رأسها بقلق وتمسك بذراعي تلقائياً وتهتف:

«وليد...».

انتهتْ نوبة السعال... وركّزتُ نظري نحو رغد... ورأيتُها تشدُّ ذراعي بقوّة... فيما تتجلى تعبيرات القلق والخوف على قسمات وجهها...

ابتسمتُ! لا بل تحوّل سعالي إلى قهقهة!

أطلقتُ ضحكةً قويّة وأنا أقول:

«آه... لا تخافي يا صغيرتي... حتّى الحيتان تمرض أحياناً!».

الحلقة التاسعة والثلاثون

الجزء الثاني

تحسَّنتْ صحَّتي كثيراً وسافرنا جواً إلى العاصمة ومِنْ ثمَّ إلى المدينة الساحلية، أنا ورغد وأروى والخالة ليندا، والتي لمْ تكن راغبةً في السفر ولكنّها رافقتنا بعد إلحاحٍ شديدٍ منّي.

اشتريتُ سيارة جديدة، أقبلتُ على العمل بجدٍ وشغلتُ معظم أوقاتي فيه وقسَّمتُ الباقي بين شؤون المنزل، وأروى ورغد. وآه مِنْ هاتين الفتاتين!

إنهما تغاران مِنْ بعضهما البعض كثيراً وباءتْ كل محاولاتي للتأليف فيما بينهما وتقريب قلبيهما لبعضهما البعض بالفشل والخذلان...

المشاحنات تضاءلتْ بعض الشيء مع بداية الموسم الدراسي... إذ أنَّ رغد أصبحتْ تغيب عن المنزل فترات طويلة...

الأمر كان صعباً في البداية إلا أنَّ رغد تأقلمتْ مع زميلاتها ومِنْ محاسن الصدف أنْ كانتْ إحدى بنات السيد أسامة المنذر - المشرف السابق على إدارة مصنع أروى- زميلةً لها وقد تصاحبتْ الفتاتان وتوطَّدتْ العلاقة بينهما... تماماً كما توطَّدتْ فيما بيني وبين السيّد أسامة عبر الشهور... وقبل العودة إلى العمل معي...

والدراسة شغلتْ فراغ رغد السابق ونظَّمتْ حياتها وزادتْ مِنْ ثقتها بنفسها وبأهميَّتها ومكانتْها في هذا الكون بعد أنْ فقدتْ كل ذلك بموت والديَّ رحمهما الله...

ولأنَّ الله أنعم عليَّ بالكثير وله الحمد والشكر دائماً وأبداً... فقد أغدقتُ العطاء على صغيرتي وعيّشتُها حياةً مرفَّهةً كالتي كانتْ تعيشها في كنف والديَّ أو أفضل، وفتحتُ لها حساباً خاصاً في أحد المصارف، ووظَّفتُ خادمةً ترعى شؤونها وشؤون المنزل.

ابتسمتْ لي الدنيا كثيراً وانتعشتْ نفسيَّتي... ولمْ يعد يعكِّر صفو حياتي غير الحرب.

إضافةً إلى... المعارك الداخلية المستمرة بين الفتاتين!

«يجب أنْ تتحدَّث إلى ابنة عمّك يا وليد فهي مصرّةٌ على المذاكرة في المطبخ!».

تقوّس حاجباي استغراباً وسألتُ:

«المطبخ!؟».

قالتْ أروى:

«نعم المطبخ! وها قد نشرتْ كتبها وأوراقها في كل أرجائه بعدما سمعتْني أقول لأمّي أنني سأعدُّ عشاءً مميَّزاً جداً لهذه الليلة!».

ضحكتُ بخفَّة وقلتُ:

«دعيها تذاكر حيثما تريد!».

بدا الاستهجان على وجه أروى وقالتْ:

«ولكن يا وليد الزمن يداهمنا ولنْ أتمكن مِنْ إعداد العشاء للضيوف في الوقت المناسب!».

كنتُ آنذاك مستلقٍ على أحد المقاعد في غرفة المعيشة الرئيسية... أرخي عضلاتي بعد عناء يوم عملٍ طويل... والساعة تقترب مِنَ الخامسة مساءً...

أغمضتُ عينيَّ وقلتُ بلا مبالاة:

«لا تقلقي... إنه سيف ليس إلا!».

وكنتُ قد دعوتُ سيف وزوجته وطفلهما طبعاً لمشاركتنا العشاء هذه الليلة.

«وليد!».

فتحتُ عينيَّ فرأيتُ أروى تنظر إليَّ بغضب واضعةً يديها على خصريها. ابتسمتُ وقلتُ:

«حسناً سأتحدَّث إليها... لا تغضبي!».

ونهضتُ بكسل وأنا أمدِّد أطرافي وأتثاءب!

توجَّهتُ نحو المطبخ ووجدتُ الباب مُغلقاً فطرقتُه وناديتُ رغد... بعد ثوان فتحتْ رغد الباب ووقفتْ وسط الفتحة!

«مرحباً رغد... كيف كان يومكِ؟».

ابتسمتْ وقالتْ:

«جيِّد...».

«الحمد لله... وكيف دروسكِ؟».

قلتُ ذلك وأنا أخطو نحو الأمام بهدف دخول المطبخ غير أنَّ رغد ظلَّتْ واقفةً مُعترضةً طريقي كأنها تمنعني مِنَ الدخول!

قالتْ متلعثمةً:

«جيِّدة... ممتازة».

إذنْ في الأمر سرٌّ!

تقدَّمتُ خطوةً بعد ولمْ تتحرَّك... بل ظهر التوتُّر على وجهها واحمرَّ خداها!

قلتُ:

«بعد إذنكِ!».

وتظاهرتُ بالعفوية فتنحَّتْ عن طريقي مستسلمة. شعرتُ بالفضول! لماذا لا تريد رغد منِّي دخول المطبخ...؟؟

نظرتُ مِنْ حولي فرأيتُ مجموعة مِنَ الكتب والدفاتر والأوراق... والكراسات أيضاً مبعثرة هنا وهناك. وكان كأس شاي موضوعاً على الطاولة ومنه يتصاعد البخار... وإلى جانبه كرّاسة وبعض أقلام التلوين...

استنتجت أنَّ رغد كانتْ تشرب الشاي هناك. اقتربتُ من الموضع فأسرعتْ رغد نحو

الكراسة وأغلقتْها وحملتْها في يدها...

إذن هنا مكمن السر!

ابتسمتُ وقلتُ بمكر:

«أريني ما كنتِ ترسمين؟».

ارتبكتْ رغد وقالتْ:

«مجرد خربشات».

اقتربتُ منها قائلاً:

«دعيني أرى».

«إنها لا تستحق الرؤية... دعكَ منها».

وسّعتُ ابتسامتي وقلتُ بإصرار أكبر وبفضول أشد:

«أريد رؤيتها... هاتيها».

ومددتُ يدي نحوها... ولمّا لمْ تتحرّك قلتُ:

«هيا رغد».

وتحركت يدها بتردُّد وأخيراً سلّمتْ الكراسة إليّ. تعرفون كم تحب صغيرتي الرسم وكم هي ماهرةٌ فيه... وكنتُ دائماً أطّلع على رسماتها وأتابع جديدها مِنْ حينٍ لآخر... ويزداد إعجابي...

أخذتُ أتصفّح الكراسة صفحةً صفحة وأتأمّل الرسمات... رسمات جميلة لأشياءٍ مختلفة... مِنْ يدٍ فنّانة! ورغد كانتْ تراقبني باضطراب ملحوظ... شيءٌ يثير فضولي... تُرى... ماذا تخبئين؟؟!

وأخيراً وصلتُ إلى آخر رسمة... وهي الصفحة التي كانتْ رغد ترسم عليها قبل وصولي إلى المطبخ بالتأكيد... نظرتُ إلى الرسمة وفوجئتُ!

ثمّ نظرتُ إلى رغد... وتلقائياً أطلقتُ آهةً استنكارية!

أتدرون ما كان مرسوماً؟؟

صورة كاريكاتيرية لأروى... وهي ترتدي مريلة المطبخ، وقد امتدّ شعرها الأشقر الحريري الطويل حتّى لامس الأرض وكنسها!

رغد سحبتْ الكراسة بسرعة وأخفتْها خلف ظهرها... أمّا أنا فهززتُ رأسي اعتراضاً واستنكاراً... رغد أحسّتْ بالخجل مِنْ رسمها هذا ونزعتْ الورقة مِنَ الكراسة وجعّدتْها وألقتْ بها في سلّة المهملات... ثمّ قالتْ دون أنْ تنظر إليّ:

«آسفة».

قلتُ رغبة منّي في تخفيف الحرج:

«أنتِ موهبةٌ خطيرة!».

ولمْ تعلّق، بل شرعتْ في جمع كتبها وأشياءها المبعثرة ومِنْ ثمّ هربتْ نحو الباب...

قلتُ:

«الشاي!».

مشيراً إلى كأس الشاي الذي تركتْه على الطاولة... فالتفتتْ إليَّ وقالتْ:

«تركتُ لها كل شيء...».

وولَّتْ مسرعة!

جلستُ على نفس المقعد الذي رجّحتُ أنَّ رغد كانتْ تجلس عليه وفي داخلي مزيجٌ غير متجانس مِنَ الراحة والانزعاج... والضحك والغضب!

بعد قليل أقبلتْ أروى تحمل وعاء يحوي بعض الخضار المقشرة وكيساً يحوي قشورها... والظاهر أنها عملتْ في تقشير الخضار في مكانٍ ما خارج المطبخ قبل أنْ تأتي إليَّ في غرفة المعيشة...

وضعتْ أروى الوعاء على الطاولة وابتسمتْ وهي تقول:

«أخيراً! ألمْ تطبْ لها الدراسة هذا اليوم إلا هنا؟؟».

ابتسمتُ... ولمْ أعلّق. وتوجهتْ أروى حاملةً كيس القشور نحو سلّة المهملات...

كنتُ أراقب الدخان المتصاعد مِنْ كأس شاي رغد... ولا أعرف لِمَ تملّكتْني رغبةٌ عجيبة في احتسائه! كان يبدو شهياً ومُنعِشاً...

وضعتُ يدي عليه وحالما أوشكتُ على تحريكه نحوي أوقفني صوت أروى:

«ما هذا؟».

تراجعتُ بسرعة... وفي اعتقادي أنها تستنكر رغبتي العجيبة هذه! ما الذي يدعوني لشرب شاي تركتْه رغد!؟؟

التفتُّ نحوها ببعض الخجل... لكنها لمْ تكن تراقب كأس الشاي...

كانتْ تمسك بورقةٍ مجعّدة مفتوحة بين يديها... وتحملق فيها بغضب. وقفتُ واقتربتُ منها... فأخذتْ تحدّق بي... ثمّ مدّتْ الورقة إليَّ وقالتْ محتدّة:

«انظر... مذاكرة ابنة عمّك!».

لمْ أعرف كيف أتصرَّف حيال الموقف... حاولتُ التظاهر بالمرح وجعل الأمر يبدو دعابةً بسيطةً لكن أروى كانتْ جادّة وغاضبة حقاً...

«هذه إهانةٌ متعمّدة يا وليد... لنْ أسكت عنها».

«لا أعتقد أنَّ رغد تقصد شيئاً... إنها دعابةٌ لا أكثر!».

قالتْ بغضب:

«ليست دعابة يا وليد... منذ متى وابنة عمّكَ تهوى مداعبتي؟؟ إنها تقصد إهانتي بهذا الرسم... لكنّي لنْ أسكت!».

ومِنْ فورها خرجتْ مِنَ الغرفة متّجهة إلى رغد، ولمْ تفلح محاولتي ثنيها عن إثارة مشكلة وخصوصاً في هذا الوقت...!

- رغد -

أقبلتْ أروى إلى غرفتي وكنتُ أرتّب كتبي ودفاتري على مكتبي الجديد والذي اشتراه وليد لي مؤخراً...

وليد اشترى لي أشياء كثيرة... وغيَّر طقم غرفة نومي كاملاً... وكان يود نقل أشيائي إلى غرفة دانة سابقاً... فهي أكبر حجماً... ولكنني أصررتُ على البقاء في غرفتي الصغيرة الملاصقة لغرفته...

ومنعتُ أروى وأمَّها مِنْ استخدام أيٍ مِنْ غرف النوم التي كنّا نستخدمها سابقاً... فأقامتا في غرفتين مِنْ الناحية الأخرى لمنزلنا الكبير...

ولأنّني أعرف أنها ماهرةٌ في أعمال المنزل وخصوصاً الطبخ، وأنها تتباهى بذلك أمام وليد وأمامي... وأنها تريد أنْ تستعرض مهاراتها الليلة على العشاء... فقد اخترتُ المطبخ بالذات كي أذاكر فيه محاضراتي هذا اليوم!

يجب أنْ تعرف هذه الدخيلة أنَّ هذا بيتي أنا... ومطبخي أنا... وأنا حرّة في فعل ما أريد وقتما أريد!

«ماذا تعنين بهذا يا رغد؟».

كانتْ أروى تقول وهي ترمي بالورقة التي نزعتُها مِنْ كرّاستي قبل قليل... وفيها صورةٌ كاريكاتيرية لأروى الحسناء تنظِّف الأرض بشعرها الطويل!

أوه! كيف وصلتْ إليها...؟ مستحيل أنْ يكون وليد!

كنتُ غاضبةً مِنْ تباهيها بمهاراتها... ووعدها وليد بتقديم وجبةٍ لذيذة تبهر ضيوفنا... ومِنْ شدَّة غيظي احتللتُ المطبخ ورسمتُها بهذا الشكل!

لكنِّي خجلةٌ مِنْ وليد والفكرة التي أخذها عنّي... وأريد أنْ أعتذر!

«أجيبي؟؟».

صرختْ أروى وهي شديدة الغيظ... كنتُ بالفعل سأعتذر لولا أنها أضافتْ:

«أنا لستُ خادمة هذا المنزل بل سيّدته، وإنْ كنتِ ستسخرين مِنْ شيءٍ فالأولى أنْ تسخري مِنْ نكرانكِ للجميل وعيشكِ مرفَّهة مدلَّلة مِنْ نقودٍ لمْ ترثيها ولمْ تتعبي لجنيها يا ابنة العزِّ والثراء!!».

شعرتُ بطعنةٍ قوية في صدري أوشكتْ أنْ أرمي بالكتاب الذي بين يدي نحو وجهها لكنني لمْ أملك إلا الألم...

وهل أملك رداً؟؟ بِمَ أردُّ وهي الحقيقة...؟؟ ألستُ أنا العالة على الغير... أليستْ النقود التي يجلبها لي وليد... هي مِنْ ثروتها؟

بعد أنْ انصرفتْ بفترة حضر وليد. وكعادته يأتي بعد انتهاء أي مشادَّة بيننا حتّى لا يزيد تدخُّله الأمر سوءاً...

ولا بد أنّه قضى الدقائق السابقة في استرضائها وجاء الآن ليواسني... أو ليوبّخني!

«هل أدخل؟».

وهو يقف عند الباب... وينظر إلى الورقة المرمية على الأرض... ثمّ يلتقطها ويتأمّلها برهةً، ويمزّقها ويرمي بأشلائها في سلّة المهملات...

قال:

«انتهى الأمر».

مسكين وليد! أتظن أنه بتمزيقك للورقة تُحَلُّ المشكلة؟ لا أظنها تُحلُّ إلا إذا مُزّقتْ الفتاة المرسومة عليها في الواقع!

قال:

«لا تكرّري ذلك ثانيةً يا رغد».

نظرت إليه بحنق... أهذا كل ما لديكِ؟؟

قال:

«انظري أي مشاكل تقع بسببٍ تافهٍ كهذا... نحن في غنى عن المزيد... دعينا نعيش في سلام».

واستفزتني جملته فقلتُ بغضب:

«وهل ترى أنّني شارون أم بوش لتخاطبني عن السلام؟».

أثارتْ جملتي اندهاشه أو ربّما لمْ يستوعبها إذْ أنّه حملق فيّ باستغراب. نطقتُ بعصبية:

«هل أنا سبب المشاكل؟».

«لا... لكن أروى لا تتعمّد مضايقتكِ يا رغد... إنها طيبةٌ ومسالمةٌ جداً».

وثار غضبي أكثر... رميتُ بالكتاب أرضاً وصرختُ:

«طبعاً ستدافع عنها... أليستْ خطيبتكَ العزيزة الغالية... الثرية الحسناء... السيدة المدبّرة لشؤون هذا المنزل؟؟».

«... ليس الأمر هكذا...».

قلتُ بانفعال:

«بل هو كذلك... وأنتَ بالتأكيد ستقفُ في صفّها وتنحاز إليها».

تنهّد وليد بانزعاج... وضرب كفه الأيسر بقبضته اليمنى وقال بضيق:

«لقد حرتُ ما أفعل معكما؟ أنتما تثيران الصداع المستمر في رأسي... أنا لا أعرف لماذا لا تطيق إحداكما الأخرى بهذا الشكل!؟».

صمتَ برهة ثمّ قال:

«على الأقل... أروى يا رغد... لا تتربّص بكِ ولا تقتنص الفُرص لإزعاجكِ... لكنكِ يا رغد...».

وتوقّف لانتقاء كلماته ثمّ قال:

«أنتِ يا رغد تتصيّدين الفرص لمضايقتها... بشكلٍ أو بآخر... وعن عمد. لا أعرف لماذا؟؟

لماذا أنتِ متحاملةٌ عليها لهذا الحدِّ يا رغد؟؟».

وأخذ يترقّب جوابي...

«لماذا يا رغد؟؟».

أما زلتَ تسأل؟؟ ألا تعرف؟

ألا يمكن لعقلكَ المحشور داخل جمجمتكَ الكبيرة هذه أنْ يستنتج السبب؟؟

لأنني أحبُّكَ يا وليد!

أحبُّك وأكره أيَّ امرأةٍ تقترب منكَ... ألا تفهم ذلك؟؟

ألا تكفي كمية الذكاء المحشوة في دماغك لاستنباط هذا؟؟

ولا يبدو أنَّ هذه الفكرة كانتْ لتخطر على بال وليد... البتة!

ولأنه كان لا يزال ينظر إليَّ منتظراً جوابا قرَّرتُ أنْ أجيب!

«أتريد أنْ تعرف لماذا؟».

قال بلهفة:

«يا ليت... فلربَّما استطعتُ تغيير شيء وحلَّ المشكلة».

ابتسمتُ بسخرية مِنْ مناه... ثمَّ ضيَّقتُ فتحتي عينيَّ وضغطتُ على أسناني وقلتُ:

«لأنها... أجمل منِّي!!».

دُهِشَ وليد... وبدوره اتَّسعتْ فتحتا عينيه وفمه أيضاً... قلتُ:

«هل عرفتَ الآن؟».

ارتبك وليد وقال:

«هل هذا هو السبب حقاً؟».

قلتُ بمكر:

«نعم... فهل تستطيع تغيير شيء؟».

وقع وليد في الشرك... وحار ماذا يقول... ثمَّ قال بتردُّد وارتباك:

«و... لكن... يا رغد... أيعقل أنْ تجعلي مِنْ هذا سبباً كي... أعني لأنْ... تنصبي لها العداء وتُثيري تلك المشاكل؟».

«هذا أمرٌ لن تفهمه أنتَ...!».

ثمَّ أضفتُ:

«إنها أجمل منِّي بكثير... أليستْ كذلك؟».

وترقَّبتُ بلهفة ما سيقول...!

إن قال (بلى) فسأمزقه بأظافري... وإنْ قال (كلا) فسأفقع عينيه!

انتظرتُ وانتظرتُ... ولكنَّ وليد لم يجبْ! بل تنحنح قليلاً ثمَّ أراد الانصراف. وليد! أجبني فوراً... إياك أنْ تهرب...

«بعد إذنكِ».

واستدار منصرفاً... لن تهرب يا وليد!... قلتُ باندفاع وعصبية:

«لمْ تُجبني!».

وليد استدار إليَّ في ضيق... وكان وجهه شديد الاحمرار... والحنق...

«قل أنها كذلك... فحتَّى الأعمى يستطيع أنْ يرى هذا».

«رغد بربِّك... ما الذي تهذين به؟».

وأولاني ظهره وولَّى مُنصرفاً بسرعة... تبعه صوتي وأنا أقول بغضب:

«لا تحلم بأنْ أنسجم معها ذات يوم... لا تحلم أبداً!».

- وليد -

وكالعادة كان العشاء فاخراً ولذيذاً جداً، أرضى الضيوف ونال إعجابهم...

«سلمتْ يداها... أكلتُ كثيراً هذه الليلة».

قال سيف وهو يحتسي الشاي عقب انتهائنا مِنْ وجبة العشاء... قلتُ بسرور:

«سلَّمكَ الله... بالهناء والعافية يا عزيزي».

قال مازحاً:

«وأنا مَنْ كان يتساءل ما سرُّ هذه العضلات التي نبتتْ وتضخَّمتْ بشكلٍ سريع وعلى ذراعيكَ! تبدو أكثر ضخامةً كلَّما التقينا!».

ضحكتُ لتعليق سيف المرح. أنني خلال العام المنصرم ربحتُ عدَّة كيلوجرامات! قلتُ:

«لكني كنتُ أكثر قوةً وأنا أعمل في المزرعة... وأبذل مجهوداً عضلياً كبيراً كل يوم».

ولاحت في مخيلتي صورة المزرعة وأشجارها وثمَّارها... والعم إلياس... وشعرتُ بالحنين إليهم... قال سيف:

«ماذا بشأن المزرعة؟ ماذا ستفعلون بها؟».

«كما هي يا سيف... فالعائلة متعلِّقةٌ بها جداً ولا يمكنهم التفريط فيها... وها أنا أتنقَّل بينها وبين المصنع في عناء».

«ولكن... يجب أنْ تستقرَّ يا وليد! ماذا ستفعل بعد زواجكَ؟ ألنْ تقيم هنا؟».

أخذتُ أحكُّ شعري في حيرة...

«خطيبتي تريد العودة إلى المزرعة والاستقرار فيها... وابنة عمِّي ترفض العيش فيها تماماً... وملتحقةٌ بالجامعة هنا... وأنا في حيرة مِنْ أمري... تفكيري مشلول!!».

وجذبتُ نفساً وتابعتُ:

«وليتَ الخلاف اقتصر على السكن فقط! بل في كل شيء يا سيف... كل شيء وأي شيء! إنني أعود مِنَ العمل مشحوناً بالصداع فتستلماني وتشقَّان رأسي نصفين!».

ووضعتُ طرف يدي على هامتي كما السيف. سيف ابتسم... وقال:

«إنهنَّ النساء!».

قلتُ:

«الجمع بينهما في بيتٍ واحد هو ضربٌ مِنَ الجنون... والصغيرة صعبة الإرضاء ومتقلِّبة المزاج... وأخشى أنْ أتحدّث معها فتظنُّ أنني ضقتُ ذرعاً برعايتها... ويُجرَح شعورها...».

لمْ يعلق سيف... فتابعتُ:

«أنا حائرٌ يا سيف... لا أريد لأي شيءٍ عظيماً كان أمْ تافهاً أنْ يعكّر صفو حياتها... ووجود أروى يثير توتُّرها... ولا يمكنني إرسال أروى وأمّها إلى المزرعة والعيش مع رغد هنا وحدنا!».

قال سيف مباشرة:

«صعب!».

«بل مستحيل!».

قال مقترحاً:

«ولماذا لا تدعها مع خالتها كما فعلتَ سابقاً؟».

«أبداً يا سيف... لا يمكنها الاستغناء عن وجودي وقربي...».

سيف نظر متشكِّكاً ثمَّ قال:

«أو... ربَّما العكس!».

حملقنا في بعضنا البعض قليلاً... وشعرتُ بابتسامة حمراء تشقُّ طريقها بين شفتي!

سيف قال مازحاً:

«وليد الضخم... بطوله وعرضه وعضلاته المفتولة... تشلُّ تفكيره فتاةٌ صغيرة؟!».

«ليستْ أي فتاة!».

وبدا الجدُّ على وجه سيف وقال:

«فكّر في الأمر ملياً يا وليد... الشرارة والبنزين لا يجتمعان في مكانٍ واحد!».

- رغد -

احتراماً لضيفتنا، تظاهرتُ بالسرور وأخفيتُ كل الغضب في داخلي... وشاركتُ الجميع طعام العشاء الذي أعدَّته الشقراء وأمها... وكانتْا المسؤولتين عن الطهي وشؤون المطبخ... تساعدهما خادمةٌ وظَّفها وليد منذ فترة...

كانتْ الشقراء ترتدي بلوزة جميلة عارية الكمين والكتفين... وتتزيَّن بعقدٍ ثَمين مِنَ اللؤلؤ اشترتْه مؤخراً... وتلوِّن وجهها الأبيض ببعض المساحيق... وتبدو في غاية الجمال والأناقة... ولا بدَّ أنها أثارتْ إعجاب ضيفتنا وأبهرتْها في كل شيء...

وبعد خروج الضيوف ذهبتْ هي وبكامل زينتها إلى حيث كان وليد. أما أنا فصعدتُ إلى غرفتي لاستبدل ملابسي.

نظرت إلى نفسي عبر المرآة وتخيَّلتُ صورتها إلى جواري فشعرتُ بالحنق والغيظ... ورغبتُ في تمزيقها.

لمْ أستطع تجاهل صورتها وهي تعيّرني بأنني أعيش عالةً على ثروتها... ولمْ أتحمّل تخيُّلها وهي تجلس بزينتها الكاملة قرب وليد...

تملّكتْني رغبةٌ مُلحّةٌ في الذهاب إليهما وإفساد اختلائهما، وإخبار وليد عمّا قالتْ لي عصر اليوم.

فتحتُ خزانتي واستخرجتُ جميع المجوهرات التي أنقذتُها مِنْ حطام بيتنا المحروق... مجوهراتنا أنا ودانة وأمّي رحمها الله... وأخذتُ أتأمّلها وأشعر بالألم... فهي كل ما تبقّى لي... ولمْ أتصوّر أنني سأفرّط فيها ذات يوم...

جمعتُها كلها في علبتين كبيرتين ووضعتُهما في كيس، بالإضافة إلى البطاقة المصرفية التي منحني إياها وليد وكذلك الهاتف المحمول.

حملتُ الكيس وخرجتُ مِنْ غرفتي سعياً إلى وليد فوصلني صوت ضحكاته هو والشقراء... ترنُّ في أنحاء المنزل!!

كدتُ أصفع الكيس بأحد الجدران وأحطم محتوياته غيظاً...

تباً... تباً... تباً!!

ذهبتُ إلى غرفة الجلوس... مصدر الضحكات... وكان الباب نصف مفتوح، ومِنْ خلاله رأيتُ ما زلزني...

كان وليد شبه مستلقٍ على المقعد الكبير، وأروى الحسناء تجلس ملتصقةً به... تمدُّ إحدى يديها فوق كتفه وتطعمه المكسّرات بيدها الأخرى...

كانا يشاهدان التلفاز ويبدو على وليد المرح والبهجة الشديدين... وهو يمضغ المكسّرات...

حينما رأياني ابتسم وليد وجلس معتدلاً بينما أشاحتْ أروى بوجهها عنّي...

«... تعالي رغد».

قال مرحِّباً... والدماء الحمراء تتدفّق إلى وجهه.

«هذه المسرحية مضحكةٌ جداً!».

وقفتُ كالتمثال غير مستوعبةٍ بعد لِلقطة الحميمةَ التي رأيتُها تجمعهما سويةً... أما النار فكانتْ تتأجّج في صدري حتّى أحرقتْه وفحّمتْه...

لمْ أتحرّك ولمْ أتكلّم... وحتّى لمْ أتنفس... فأنا لا أشعر بأي هواء يدخل صدري...

تبادل وليد وأروى النظرات ومِنْ ثمّ نظرا إلى الكيس...

قال وليد:

«أهناك شيء؟».

أردتُ أنْ أخنق صوته... أقتل ضحكاته... أكسر فكّه الذي يمضغ المكسرات... أنْ أصفعه... أنْ أضربه... أنْ أمزّقه بأظافري...

تباً لكَ يا وليدا. تفوّهتُ باقتضاب:

«أريد التحدُّث معكَ».

قال وقد زال المرح وحلَّتْ أمارات الجد على وجهه العريض:

«خير؟ تفضلي؟».

والدخيلة لمْ تتحرَّك! لا تزال جالسةً ملتصقةً بوليد تقضم المكسرات... إنني أوشك على ركلها بقدمي غيظاً...

قال وليد:

«ما الأمر؟».

تقدّمتُ نحوه... والغضب يغلي في داخلي ورميتُ إليه بالكيس بعنف... ولو لمْ أتمالك نفسي لربَّما رميتُ به على أنفه وهشَّمته...

الكيس استقرَّ تحت قدميه... فنظر إليه بتعجُّب وسأل:

«ما هذا؟».

تفوّهتُ منفعلة:

«مجوهراتي».

ازداد تعجُّب وليد فقلتُ موضحة:

«أعرف أنها لنْ تغطّي كل ما أنفقتَه عليَّ منذ رحيل والدينا... لكن... هذا كل ما أملك».

قبل ثوان كان وليد مسترخٍ على المقعد والآن أصبح على أهبَّة النهوض!

«ماذا تعنين يا رغد؟».

قلتُ بعصبية:

«خُذها... حتَّى لا يعيّرني الآخرون بأنني عالةً على ثرواتهم».

ورميت أروى بقنبلة شرر مِنْ عيني... وولّيتُ هاربةً...

قد أكون قد ارتطمتُ بجدار... أو تعثَّرت بعتبة... أو انزلقتُ أرضاً... لمْ أكن أرى الطريق أمامي... لمْ أكنْ أرى غير اللقطة الحميمة تجمع بين الحبيبين...

وليد لحق بي واستوقفني وأنا عند أصعد عتبات الدرج وهو يقول بحدة:

«انتظري يا رغد... افهميني ما الذي تعنينه؟».

استدرتُ إليه فرأيتُ أروى مقبلةً خلفه. نظرتُ إليهما بحدَّة ثمَّ حملقتُ في أروى وقلتُ بعصبية:

«اسألها».

وليد استدار إلى أروى ثمَّ إليَّ ثمَّ إليها وسأل بحيرة:

«ما الذي حدث؟ افهماني؟».

قلتُ:

«بقي ثمن التذكرة... وسأطلب مِنْ خالتي دفعها إليكَ حالما توصلني إليها... والآن هل لا أعدتَني إلى خالتي؟».

زمجر وليد بانزعاج:

«ما الذي تقصدينه يا رغد؟؟ أنا لمْ أفهم شيئاً... هل لا شرح لي أحدٌ ماذا يحدث؟».

والتفتَ نحو أروى. أروى قالتْ:

«أنا لمْ أعنِ ما فَهِمَتْ».

تقصدني بذلك، فأفلتُّ أعصابي وصرختُ:

«بل تعنين يا أروى... إنكِ تعيِّريني لعيشي عالةً متطفلةً على ابن عمِّي... لكن اعلمي أنَّه هو مَنْ أجبرني على الحضور معه... ولو كان لديَّ أبوان أو أهل أو حتَّى بيت يؤويني، ما اضطرَّني القدر للمكوث معكِ أنتِ تحت سقفٍ واحد».

بدا الذهول طاغياً على الأعين الأربع التي كانتْ تحدِّق بي... ذهول ألجم لسانيهما عن النطق مباشرةً...

«لكنهما ماتا... وبيتي احترق... ولمْ يتبقَّ لي شيءٌ غير هذه الحلي... خذاها ودعاني أرحل بكرامتي...».

هنا هتف وليد:

«ماذا أصابكِ يا رغد؟ هل جننتِ؟ أم ماذا؟؟».

قلتُ بعصبيَّة أكبر:

«أرجوكَ... أعدني إلى خالتي... إنْ كانتْ كرامتي تهمُّكَ في شيء».

«أي كرامة وأي جنون...؟؟».

والتفتَ إلى أروى بغضب:

«ماذا قلتِ لها؟».

أروى نطقتْ مدافعةً مهاجمةً في آنٍ واحد:

«لاشيء... طلبتُ منها أنْ تحترمني... عوضاً عن رسمي بتلك الصورة المهينة...».

وليد كرَّر بغضب:

«ماذا قلتِ لها يا أروى؟؟ تكلَّمي بصراحة؟».

قالتْ أروى:

«الحقيقة يا وليد... فهي تعيش على ثروتي وعنائك... ولا تقدِّر ولا تحترم أياً منَّا».

دار وليد دورة حول نفسه مِنْ فرط الغضب ولمْ يعرف ما يقول... رأيتُ وجهه يتَّقد احمراراً وأوداجه تنتفخ وصدره يزفر الهواء بعنف...

ضرب سياج الدرج بقبضته بقوة وصرخ بغضب:

«كيف تقولين هذا يا أروى؟».

قالتْ أروى بانفلات أعصاب:

«إنْ كان يرضيكَ ذلك فأنا لا يرضيني... وإنْ كنتَ تتحمَّلها لكونها ابنة عمِّكَ، فما ذنبي أنا لأتحمَّل الإحسان إلى والإهانة مِنْ فتاةٍ ناكرةٍ للجميل؟».

هيَّجتْني جملتها أكثر وأكثر وأثارتْ جنون جنوني... وصرختُ بتهوّر:

«أنا لا انتظر الإحسان مِنْ أحد... وليد ينفق عليَّ لأنه الوصي عليَّ والمسؤول عن مصروفاتي... وهو مَنْ أراد كفالتي بعد عمِّي... ألا ترين أنني يتيمة وبلا معيل؟ أنا أهلي لمْ يتركوا لي ثروةً ضخمةً عندما ماتوا جميعاً... مثلما ترك لكِ عمّك... وهذه الثروة التي تعيِّرينني بها... وليد هو الأحقُّ بها منكِ أنتِ ومِنْ أي إنسانٍ آخر في هذا الكون».

وتوقّفتُ لألتقط بعض أنفاسي... ثمَّ قلتُ موجهةً خطابي لوليد:

«أخبرها بأنها مِنْ حقِّكَ أنتَ».

وليد هتف باعتراض:

«رغد! كفى».

قلتُ بإصرار:

«بل أخبرها».

صرخ وليد:

«يكفي يا رغد اصمتي».

التفتُّ أنا إلى أروى المذهولة بكلامي وأعلنتُ دون تردُّد:

«إنها لنْ تعوّض ثمن السنوات التسع التي قضاها في السجن حبيساً مع الأوغاد... بسبب ابن عمِّك الحقير الجبان... القذر».

«رغد».

انطلقت صرخةٌ مِنْ وليد... ربَّما كانتْ هي المعول الذي كسر السد...

انجرف كلامي كالسيل العارم يأبى الوقوف عند أي حد...

«وبعد كل الذي سبَّبه... ولابن عمّي... تأتين أنتِ لتُفسدي ما تبقّى مِنْ حياتي... ألا يكفي ما ضاع منها حتّى الآن؟؟ ألا يكفي ما عانيتُه وأعانيه حتّى اليوم؟؟ أنا أكرهكِ يا أروى... أكرهكِ وأتمنّى أنْ تختفي مِنْ حياتي... أكرهكِ... أكرهكِ... ألا تفهمين؟؟».

رميتُ الاثنين بنظرة أخيرةً ملؤها الغضب... أروى مستندة إلى الحائط في ذهولٍ رهيب... أشبه بلوحة مذعورة... ووليد عند أسفل عتبات الدرج تتملّكه الدهشة والمفاجأة...

«لماذا تُجبرني على العيش معها يا وليد؟؟ لماذا؟؟... إنْ كنتُ تحبّها فأنا أكرهُها... وأكرهُكَ أنتَ أيضاً... ولا أريد العيش معكما... أنتما تتعِسان حياتي... وتصيباني بالغثيان... أكرهكما سويةً... أعدني لخالتي... أعدني لخالتي... أنا أكرهُكَ يا بليـــــد».

فجّرتُ هذه الجملة وانطلقتُ مسرعةً نحو غرفتي...

الحلقة الأربعون

مفترق الطرق

- وليد -

وقفتُ عند أسفل عتبات السلّم... مأخوذاً بهول ما سمعتُ... مشلول الإرادة...

اختفتْ رغد بعدما صرختْ في وجهي («أكرهكَ يا بليد»).

إنّ أذنيَّ لمْ تسمعا... إنمّا هو قلبي الذي اهتزَّ بعنف بعد الصدمة...

التفتُّ إلى الوراء بجهد فرأيتُ أروى تقف ملتصقةً بالجدار محملقةً بي تكاد بنظراتها تثقبُ عينيَّ فيما تعبيرات الذهول مكتسحةً وجهها الملوّن...

كانتْ أمسيةً جميلةً وقد استمتعتُ فيها مع سيف وطفله... ثمَّ سهرتُ مع أروى نشاهد مسرحيةً فكاهية رائعة... كان كل شيءٍ رائعاً قبل قليل...

لماذا يا رغد؟

لماذا؟؟

«وليد».

الحروف خرجتْ متقطّعة منْ فمِ أروى المصعوقة بما سمعتْ... وبالتأكيد تريد الآن أنْ تسمع منْ جديد...

«وليد... وليد... ماذا قالتْ رغد؟؟».

ركّزتُ نظري في أروى... ولمْ أرد...

أروى اقتربتْ منّي خطوةً بعد خطوة ببطء... كأنَّ قدميها قد ثقلتا فجأةً وما عادتْ بقادرةٍ على رفعهما.

ولمّا صارتْ أمامي أبعدتُ نظري عن عينيها... فقد كانتْ نظراتها قويةً جداً... ومركّزة جداً، إلا أنها سرعان ما مدّتْ يدها إلي وسألتْ:

«وليد... أنتَ... أنتَ... قتلتَ... عمّار!!؟؟».

سماع اسمه أجبر عينيَّ على العودة فوراً إلى عينيها المذهولتين.

«وليد...؟؟ أنتَ...؟؟!!».

أجبتُ أخيراً:

«... نعم... أنا قتلتُ عمّار القذر... ابن عمّكِ».

أروى رفعتْ يدها بعيداً ثمَّ وضعتْها على فمها وشهقتْ بقوة... وتجمّدتْ اللحظة ساعةً أو عاماً أو حتّى قرناً مِنَ الزمان...

لمْ أحس إلا بقطرات العرق تسيل على جسمي... وبالحرارة تنبعثُ منه... ولمْ أستطع تحرير بصري مِنْ قيد عينيها...

بدأتْ الآن تهزّ رأسها في عدم تصديق ودهشة ما مثلها دهشة...

«لا... لا أصدّق! وليد! لا...!!».

والتقطتْ بعض أنفاسها وتابعتْ:

«كل... هذا الوقت... وأنتَ... تخفي عنّي؟؟ لا أصدّق!».

ومرّة أخرى حرّكتْ يدها نحوي وأمسكتْ بكتفي.

«غير صحيح! وليد أنتَ... تمزح!».

قلتُ بحزم:

«صدّقي... قتلتُه ودخلتُ السجن... ولستُ نادماً... هذه هي الحقيقة... هل عرفتِ الآن؟».

ابتعدتْ أروى عنّي وهي تهتفُ:

«لا... لا...».

ثمّ توقفتْ فجأةً واستدارتْ إليَّ وقالتْ:

«لماذا؟؟ لماذا قتلتَه؟».

قلتُ مباشرة:

«لأنّه يستحق الموت... الحيوان... القذر... الحقير...».

عادتْ تسأل مندهشةً مبحوحة الصوت:

«لماذا؟».

جوابي كان بضربة سددتُها إلى سياج السلم الخشبي كدتُ معها أحطّمُه... أروى كرّرتْ:

«لماذا؟ أخبرني».

ولمّا لمْ أجبها أقبلتْ نحوي وأمسكتْ بذراعيّ الاثنتين وهتفتْ:

«أخبرني لماذا؟؟ لماذا؟؟؟».

صرختُ بانفعال:

«لأنه حيوان... ألا تعرفين معنى حيوان؟؟؟».

أروى تهزُّ رأسها وتقول:

«ماذا تخفي عنّي يا وليد؟؟ قلْ لي؟؟ لماذا أخفيتَ هذا عنّي؟؟ لماذا لمْ تخبرني لماذا؟».

وبدأتْ دموعها بالانهمار...

شعرتُ بأني أختنق... الهواء مِنْ حولي لمْ يكن كافياً لملء رئتيّ... أبعدتُ يديها عنّي وأوليتُها ظهري وسرتُ متّجهاً نحو مدخل المنزل...

نادتني أروى:

«إلى أين تذهب؟؟ لا تدعني هكذا يا وليد... قلْ لي ما الذي تخفيه عنّي؟؟».

لمْ أجبها فقد كنتُ مِنَ الضيق والغضب ما يكفي لأنْ أدمّر مدينةً بكاملها...

«وليد إلى أين؟».

صرختُ:

«دعيني وشأني يا أروى».

وأسرعتُ نحو الباب وغادرتُ المنزل...

الساعة آنذاك كانتْ منتصف الليل... ولمْ أكن لأغادر المنزل في مثل هذا الوقت لو أنَّ الضيق لمْ يصل بي إلى حد الاختناق...

كنتُ أريد أنْ أهدأ بعيداً...

أعيد عرض الشريط وأركِّز فيما حصل...

استوعب الحدث وأفكِّر فيه...

توجَّهتُ نحو البحر...أرفس رماله وأرجم أمواجه إلى أنْ أفرغتُ ما في صدري مِنْ ثورة في قلبِه... ولو كان يتكلَّم لصرخ صرخةً تصدَّعتْ لها كواكب المجرَّة مِنْ فرط الألم...

وكإنسانٍ مجرَّدٍ مِنْ أي اعتبارات... على سجيَّته وفطرته... أطلقتُ العنان لدموعي... وبكيتُ بألم...

تفقَّدتُ ساعتي فلمْ أجدها وتحسَّستُ جيوبي بحثاً عن هاتفي فلمْ أعثر سوى على سلسلة مفاتيحي... السلسلة التي أهدتْني إيَّاها رغد ليلة العيد...

لا أدري كمْ مِنَ الوقت مضى ولكنِّي لمحتُ أوَّل خيوط الفجر يتسلَّل عبر عباءة السماء...

عندما وصلتُ إلى المنزل... وجدتُه يغطُّ في سكونٍ مخيف...

أردتُ أنْ أتفقَّد الفتاتين... وجدتُ أروى نائمةً في غرفتها وقد تركتْ الباب مفتوحاً والمصابيح مضاءةً فاستنتجتُ أنها نامتْ بينما كانتْ تنتظر عودتي...

توجهْتُ نحو غرفتي وتوقَّفتُ عند الجدار الفاصل بين بابها وباب غرفة رغد... واستعدتُ ذكرى الليلة الماضية واشتعل الألم في معدتي...

أدَّيتُ صلاتي ثمَّ ارتميتُ على سريري وعبثاً حاولتُ النوم... لمْ أنمْ ولا لحظةٍ واحدة. وعاصرتُ بزوغ الشمس ومراحل سباحتها في كبد السماء ساعةً ساعة، وحمدتُ الله أنَّه كان يوم إجازة وإلا لتغيَّبتُ عن العمل مِنْ شدة التعب...

لمْ أفعلْ شيئاً سوى التفكير والتفكير...

وعند نحو العاشرة والنصف سمعتُ طرقاً على الباب...

«تفضَّل».

لقد كانتْ أروى...

وعلى غير العادة لمْ نبدأ حديثنا بالتحية...

«هل استيقظتَ؟».

سألتْني ووجهها يسبح في الحزن...

«بل قولي: هل نمتَ؟».

لمْ تعلِّق أروى، ثمَّ قالتْ:

«أيمكننا التحدُّث الآن؟».

«تفضَّلي».

وبالطبع تعرفون عمَّ سنتحدث...

«أريد أنْ أعرف... تفاصيل مقتل عمار... ولِمَ أخفيتَ الحقيقة عنِّي... وما علاقة كل هذا برغد؟».

تنهَّدتُ ثمَّ قلتُ:

«هل... سيغيِّر ذلك شيئاً؟».

أروى قالتْ بسرعة:

«بالطبع... سيغيِّر الكثير...».

ولا أدري ما قصدتْ بذلك... ولمْ يعدْ يهمُّني ما قد يحدث... في نظري الآن... لا شيءَ يستحقُّ الاهتمام...

«حسنا يا أروى... لقد سبق وأنْ أخبرتُكِ بأنَّني انتظر الوقت المناسب لأطلعكِ على أمرٍ مهمٍ... ولمْ يعدْ هناك معنىً للصمتِ بعد الآن».

«إذنْ... اخبرني بكل شيء...».

تنهَّدتُ تنهيدةً مريرةً... خرجتْ مِنْ صدري عجوزاً واهِنةً لمْ تجدْ ما تتَّكئ عليه... وسرعان ما هوتْ في أعماق الذكريات...

«قبل عشر سنوات... قتلتُ عمَّار... ودخلتُ السجن... وهناك تعرَّفتُ إلى والدكِ... بمحض الصدفة... وقبل وفاته أوصاني بكِ وبأمِّكِ خيراً... وماتَ وهو لا يعرف أنني... مَنْ قتل ابن أخيه أو ربَّما على الأرجح، لا يعرف حتَّى... أنَّ ابن أخيه قد قُتِل».

كانتْ أروى تصغي إليَّ باهتمام... وعندما توقَّفتُ نظرتْ إليَّ بتعجب وقالتْ:

«هذا كل شيء؟».

قلتُ بضيق بادٍ:

«نعم».

هزَّتْ رأسها استنكاراً وقالتْ:

«لا تخفي عنِّي شيئاً يا وليد... اخبرني بالحقيقة كاملة».

«ماذا تريدين أنْ تعرفي؟».

«لماذا قتلتَ عمّار».

التزمتُ الصمت.

«لماذا يا وليد؟».

أجبتُ:

«فيمَ يهمُّك ذلك؟».

«بالتأكيد يهمني أنْ أعرف».

«لمْ يكن ذلك يهمُّك... سابقاً».

صمِتُّ قليلاً ثمَّ قلتُ:

«أتذكرين؟؟ ارتبطتِ بي ولمْ تسأليني لِمَ دخلتَ السجن... ولا مَنْ قتلتَ... ولا لماذا...».

أروى قالتْ:

«لكن... ذلك كان قبل أنْ أكتشف أنَّ الضحية كان ابن عمّي».

هيَّجتني الكلمة فهتفتُ منفعلاً:

«الضحية؟؟ تقولين عن ذلك الحقير الضحية؟؟».

حملقتْ أروى بي ثمَّ انطلق لسانها مندفعاً:

«هذا ما يثير جنوني... لماذا تنعته بالحقير والقذر؟ ماذا فعل؟ ماذا حصل؟ ما الذي كان بينكما؟ ولماذا قتلته؟».

لمْ أجبْ...

«وليد أجبني؟».

أشحتُ بوجهي بعيداً... لكنَّها حاصرتني مِنْ كل الجوانب.

«لماذا لا تريد أنْ تجيبَ يا وليد؟؟ بدايةً... أنا لا أصدِّق أنَّكَ يمكن أنْ تقتل رجلاً مهما حصل... فلماذا قتلتَ ابن عمّي؟».

قلتُ مُتهيّجاً:

«لا تشيري إليه بـ (ابن عمّي) فهذا يثير التقزُّز يا أروى».

«وليد!».

قلتُ بصبرٍ نافذ:

«اسمعي يا أروى... لا أستطيع أنْ أفصحَ عن السبب... لقد قتلتُه وانتهى الأمر... ولستُ نادماً... ولنْ أندم يوماً على ذلك...».

ثمَّ استطردتُ:

«أرجوكِ يا أروى... أنا متعبٌ للغاية... هذا يكفي الآن».

الحيرة تملَّكتْ أروى ممزوجةً بالفضول الشديد... وأصرَّتْ على معرفة المزيد لكنني امتنعتُ عن البوح بالحقيقة...

فجأة سألتْ:

«هل... تعرف رغدُ السبب؟».

وللانفعال الذي ظهر على وجهي استنبطتْ هي الجواب دون أنْ أنطق... ثمَّ بدا عليها بعض التردُّد وقالتْ أخيراً:

«و... هل... لثروتي علاقةٌ بالأمر؟».

نظرتُ إليها مستغرباً وسألتُ:

«ثروتكِ؟؟ ماذا تعنين؟».

قالتْ:

«أعني... هل كنتَ تعرف... عن ثروة عمِّي قبل زواجنا؟».

صُعقتُ مِنْ سؤالها... وقفتُ فجأةً مذهولاً كمَنْ لدغتْه أفعى...

قلتُ:

«ما الذي تقولينه؟؟».

أروى وقفتْ بدورها وأفلتتْ أعصابها منطلقةً:

«أنا لا أعرف ما الذي أقوله... لا أعرف كيف أفكِّر... قبل ساعات اكتشفتُ أنَّ خطيبي هو قاتل ابن عمِّي... وأنتَ تخفي عني الحقيقة... وترفض البوح بشيء... كيف تريدني أنْ أفكِّر يا وليد أنا أكاد أجنُّ...».

حقيقةً لمْ أرَ أروى بهذه الحالة مِنْ قبل... قلتُ بعصبية:

«لا علاقة لهذا بزواجنا يا أروى... لا تذهبي بأفكاركِ إلى الجحيم».

صرختْ:

«إذنْ قلْ لي الحقيقة».

«أي حقيقة يا أروى بعد؟؟».

«لماذا قتلتَ عمَّار ولماذا أخفيتَ الأمر عنّي؟؟ ولماذا لا تريدني أنْ أعرف السبب؟».

وضعتُ يدي على جبيني وضغطتُ على صدغيَّ حائلاً دون انفجارهما...

«لماذا يا وليد؟».

صرختُ:

«أرجوكِ يا أروى... لا تضغطي عليّ... لا أستطيع إخباركِ عن الأسباب...».

احمرّ وجه أروى الأبيض غضباً وقالتْ وهي تهمّ بالمغادرة:

«... سأعرفُ الأسباب... مِنْ رغد إذنْ».

وانطلقتْ نحو الباب. أبعدتُ يدي عن رأسي بسرعة وتركتُه ينفجر صداعاً قاتلاً... وهتفتُ:

«أروى انتظري».

لكن أروى كانتْ قد غادرتْ الغرفة ولالتصاق غرفتي بغرفة رغد سرعان ما مدَّتْ ذراعها وطرقتْ باب رغد ونادتْها. أسرعتُ خلفها محاولاً منعها:

«توقفي يا أروى إيّاكِ».

قلتُ ذلك وأنا أبعدُ يدها عن الباب...

«دعني يا وليد... أريد أنْ أعرف ما تخفيانه عنِّي...».

جذبتُ أروى بقوّة حتّى آلمتُها وصرختُ بوجهها:

«قلتُ توقَّفي يا أروى ألا يكفي ما فعلتِه بالأمس؟؟ يكفي».

«أنا؟ ما الذي فعلتُه؟».

«ما قلتِه لرغد عن ثروتكِ وعمّا ننفقه مِنْ ثروتكِ... وأنتِ تعلمين يا أروى أنّني احتفظ بسجلٍ لكل المصروفات... وأنَّ ما أعطيها إيّاه هو مِنْ راتبي أنا ومجهودي أنا...».

هنا فُتِح الباب وأطلّتْ منه رغد...

أوّل ما اصطدمتْ نظراتنا تولّد شررٌ أعشى عينيّ...

هل رأيتموه؟؟

حملقنا ببعضنا قليلاً... والطيور على رؤوسنا نحن الثلاثة... أوّل ما تكلمتْ رغد قالتْ بحدة:

«نعم؟ ماذا تريدان؟».

ونقلتْ بصرها بيننا... ولمْ ننطقْ لا أنا ولا أروى...

قالتْ رغد:

«مَنْ طرق بابي؟».

هنا أجابتْ أروى:

«أنا».

سألتْ رغد بغضب:

«ماذا تريدين؟».

أروى تردّدتْ ثوانٍ لكنها قالتْ:

«سأسألكِ سؤالاً واحداً».

هنا هتفتُ رادِعاً بغضب:

«أروى... قلتُ كلاّ».

التفتتْ إليّ أروى محتجّة:

«ولكن يا وليد...».

فصرختُ مباشرة وبعنف:

«قلتُ كلاّ... ألا تسمعين؟».

ابتلعتْ أروى سؤالها وغيظها وأشاحتْ بوجهها وانصرفتْ مِنْ فورها...

لمْ يبقَ إلا أنا ورغد... وبضع بوصات تفصل فيما بيننا... وشريط البارحة يُعرض في مخيلتنا... عيوننا متعانقة وأنفاسنا مكتومة...

تراجعتْ رغد للخلف وهمّتْ بإغلاق الباب...

«انتظري».

استوقفتُها... لمْ أكنْ أريدها أنْ تبتعد قبل أنْ أرتاح ولو بقدرٍ يسير...

«ماذا تريد؟».

سألتْني فقلتُ بلطفٍ ورجاء:

«أنْ نتحدّث لحظة».

فردَّتْ بحدَّة وجفاء:

«لا أريد التحدُّث معكَ... دعني وشأني».

ودخلتْ الغرفة وأغلقتْ الباب بهدوء... لكنني شعرتُ به يُصفَع على وجهي وأكاد أجزم بأنَّ الدماء تغرِق أنفي...

جلستُ في الصالة مستسلماً لتلاعب الأفكار برأسي تلاعبَ المضرب بكرة التنس... بعد ذلك رغبتُ في بعض الشاي علّه يخفِّف شيئاً مِنْ صداع رأسي...

هبطتُ إلى الطابق السفلي وإلى المطبخ حيث وجدتُ أروى وخالتي تجلسان بوجوم حول المائدة...

حيَّيتُ خالتي وشرعتُ بغلي بعض الماء...

«وليد».

التفتُ إلى أروى... التي نادتْني ورأيتُ في وجهها تعبيرات الجدِّ والغضب...

«أريدُ العود إلى المزرعة».

حملقتُ في أروى غير مستوعبٍ لجملتها الأخيرة هذه... سألتُ:

«ماذا؟!».

أجابتْ بحزم:

«أريد العودة إلى المزرعة... وفوراً».

التفتُ إلى خالتي فهربتْ بعينيها إلى الأرض... عدتُ إلى أروى فوجدتُها تنتظر جوابي. قلت:

«ماذا تقولين؟».

«ما سمعتَ يا وليد... فهل لا دبَّرت أمر عودتنا أنا وأمِّي الآن؟؟ وإذا لمْ تستطع مرافقتنا فلا تقلق. نستطيع تدبير أمورنا في المطار والطائرة».

عدتُ أنظر إلى خالتي فرأيتُها لا تزال محملقةً في الأرض...

«خالتي...».

التفتتْ إليَّ فسألتُ:

«هل تسمعين ما أسمع؟».

الخالة تنهَّدتْ ثمَّ نطقتْ:

«نعم يا بنيَّ. دعنا نعود لأرضنا فقد طال بعدنا وأضنانا الحنين».

أدركتُ أنَّ الأمر قد تمَّتْ مناقشتُه والاتفاق عليه مِنْ قِبلهما مسبقاً... عدتُ أكلِّم أروى:

«ما هذا القرار المفاجئ يا أروى... غير ممكن... تعرفين ذلك».

أروى قالتْ محتدَّة:

«أرجوكَ يا وليد... لستُ أناقش معك تأييدكَ مِنْ عدمه... أنا فقط أعلمكَ عن قراري وأريد مِنْكَ شراء التذاكر...».

«أروى!!».

«وهذا قرارٌ نهائي ولا تحاول ثنيي عنه... رجاءً يا وليد احترم رغبتي...».

وعبثاً حاولتُ ثنيها عن قرارها... وباءتْ محاولاتي بالفشل... وأصرَّتْ أروى وأمُّها على العودة إلى المزرعة وبأسرع ما يمكن...

تركتُ الماء يغلي ويتبخَّر وربَّما الإبريق يحترق... وخرجتُ مِنَ المنزل...

لمْ يكن لديَّ هدفٌ ولكنني أردتُ الابتعاد قبل إثارة شجارٍ جديد...

حاولتُ إعادة تنظيم أفكاري وحلولي فأصابني الإعياء مِنْ كثرة التفكير...

عندما عدتُ وقت زوال الشمس... كانتْ أروى وخالتي قد حزمتا أغراضهما في الحقائب...

«بالله عليكِ يا أروى... تعلمين أنَّه لا يمكنكما السفر...».

قالتْ:

«لماذا؟».

قلتُ:

«تعرفين لماذا... لا يمكن أنْ... نبقى أنا ورغد بمفردنا».

وكأنَّ كلامي هذا أشعل الجمر في وجهها... إني لمْ أرَ أروى غاضبةً بهذا الشكل مِنْ ذي قبل...

«مِنْ أجل رغد؟ لقد انتهينا يا وليد... أنا لمْ يعد يهمُّني ما تفعله وما لا تفعله مِنْ أجل رغد... دبِّر أمورها بعيداً عني... لا علاقةَ لي بهذه الفتاة مِنَ الآن فصاعداً».

وتركتْني وغادرتْ المكان. وقفتُ حائراً غير قادر على التصرُّف... خاطبتْني خالتي آنذاك:

«دعنا نذهب يا بنيَّ فهذا خيرٌ لنا».

قلتُ معترضاً:

«كيف تقولين ذلك يا خالتي؟؟ تعرفين أنَّ رغد تدرس في الجامعة ولا يمكنني العودة بها إلى المزرعة ولا البقاء معها هنا وحيدين... أرجوكِ يا خالتي قدِّري وضعي... أرجوكِ... اقنعي أروى بالتخلِّي عنْ قرارها المفاجئ هذا».

لكن خالتي هزَّتْ رأسها سلباً... وقالتْ:

«ابنتي متعبةٌ يا وليد... لقد لقِيَتْ منكَ ومِنْ ابنة عمِّكَ الكثير... رغم كل ما تفعله مِنْ أجلكَ... أنتَ صدمتْها بقوَّة... وصدمتَني كذلك... دعنا نعود إلى مزرعتنا نتنفَّس الصعداء... يرحمكَ الله».

لمْ أجرؤ على إطالة النظر في عينيها أكثر مِنْ ذلك... ولمْ أجسر على قول شيء... شعرتُ بالخجل مِنْ نفسي وأنا أقف حاملاً ذنبي الكبير... أمام كل ما فعلتْه عائلةُ نديم لي عبر كل تلك الشهور...

كمْ أشعر بأنني خذلتُهم... وصدمتُهم...

لكن...

ألمْ يكونوا يعرفون بأنَّني قاتلٌ مجرمٌ خرِّيجُ سجون؟؟

هل يفرق الأمر فيما لو قتلتُ عمار عمًّا لو قتلتُ غيره؟؟

هل كان عليَّ أنْ... أبوح بسرِّي إلى أروى منذ البداية؟؟

كان يوماً مِنْ أسوأ أيام حياتي... حاولتُ النوم مِنْ جديد بلا جدوى... وحاولتُ الذهاب إلى رغد ولمْ أجرؤ... وحاولتُ التحدُّث مع أروى فصدَّتْني...

قبل غروب الشمس، ذهبتُ إلى أحد مكاتب شركة الطيران وحجزتُ أربعة تذاكر سفر إلى الشمال...

عدتُ بعد صلاة العشاء حاملاً معي طعاماً جلبتُه مِنْ أحد المطاعم...

كنتُ أشعر بالجوع والتعب وآخر ما أكلتُه كان بعض المكسرات ليلة أمس... كما وأنَّ أروى لمْ تعد أيَّ وجبة هذا اليوم...

«أحضرتُ أقراص البيتزا لنا... دعونا نتناولها فلا بد أنكما جائعتان مثلي».

قلتُ ذلك وأنا أضع العلب الأربع على المنضدة في غرفة المعيشة، حيث كانتْ أروى والخالة تجلسان وتشاهدان التلفاز...

الخالة ابتسمتْ ابتسامةً سطحيّةً أمّا أروى فلمْ تحرِّكْ ساكناً...

فتحتُ علبتِي واقتطعتُ قطعةً مِنَ البيتزا الساخنة وقضمتُها بشهيّة...

«لذيذة... تعالي يا أروى خذي حصَّتكِ».

ومددتُ باتجاهها إحدى العلب... أروى لمْ تتحرَّك... فقلتُ مشجِّعاً:

«إنها لذيذة بالفعل».

أتدرون بِمَ ردَّتْ؟ وبنبرة ساخرة؟؟

«خُذها لابنة عمِّكَ... لا بد أنّها الآن تتضوَّر جوعاً وهي حبيسةُ غرفتها منذ البارحة».

تفاجأتُ واستأتُ كثيراً مِنْ ردّها... وما كان منِّي إلاَّ أنْ وضعتُ العلبة على المنضدة مجدَّداً وأعدتُ قطعتي إلى علبتها كذلك...

الجو غدا مشحوناً... وحاولتْ خالتي تلطيفه فأقبلتْ نحوي وأخذتْ إحدى العلب... ووضعتْها بينها وبين أروى وبدأتْ بالأكل... أمّا أروى فلمْ تلمسها...

حملتُ العلبة الثالثة وقلتُ وأنا أغادر الغرفة:

«نعم... سآخذها إليها».

ولا أدري بِمَ تحدَّثتا بعد انصرافي...

حالما طرقتُ باب رغد وتحدَّثتُ إليها:

«أحضرتُ لكِ قرص بيتزا... تفضَّلي».

ردَّتْ علي:

«لا أريد منكَ شيئاً...».

امتصصتُ ردَّها المر رغماً عنِّي، وأجبرتُ لساني على الكلام:

«لماذا يا رغد؟ إلى متى ستصومين؟ هل تريدين الموت جوعاً؟».

وردّتْ عليَّ:

«أكرم لي مِنَ الأكل مِنْ ثروة الغرباء».

استفزّني ردُّها فطرقتُ الباب بانفعال وأنا أقول:

«ما الذي تقولينه يا رغد؟ افتحي الباب ودعينا نتحدّث».

لكنّها صاحتْ:

«دعني وشأني».

فما كان منّي إلا الانسحاب... مكسور الخاطر...

استلقيتُ على أريكةٍ في الصالة العلوية... وسط الظلام... لا أرى إلا السواد يلوّن طريقي وعيني وأفكاري...

ومرَّتْ الساعة بعد الساعة... والأرق يأكل رأسي... والإجهاد يمزِّق بدني والجوع يعصر معدتي... ولمْ يغمضْ لي جفنٌ أو يهدأ لي بال...

بعد سكونٍ طويل سمعتُ صوت أحد الأبواب ينفتح...

لا بد أنَّها رغد... إذْ أنَّ أروى والخالة ليندا تنامان في غرفتين مِنَ الناحية الأخرى مِنَ المنزل، بعيدتين عن الصالة وعن غرفتينا أنا ورغد...

أصغيتُ جيداً... شعرتُ بحركةٍ... فقمتُ وحثثتُ الخطى نحو غرفة رغد...

رأيتُ الباب مفتوحاً ويبدو أنها قد غادرتْ قبل ثوان...

وقفتُ عند الباب منتظراً عودتها... وأنا بالكاد أحملُ جسدي على رجلي... واستندُ إلى الجدار الفاصل فيما بين غرفتينا ليمنحني بعض الدعم...

كنتُ بحاجة لأنْ أراها وأكلِّمها ولو كلمة واحدة... علَّ عيناي تأذنان بإسدال جفونهما...

بعد قليل أقبلتْ رغد... وانتفضتْ حالما رأتْني... وكذلك أنا... تشابكتْ نظراتنا بسرعة... وانفكّت بسرعة!

رغد كانتْ تحمل قارورة مياه معدنية... وكانتْ ترتدي ملابس النوم... وبدون حجاب...

أبعدتُ نظري عنها بتوتُّر وأنا أتنحنح وأستديرُ نحو باب غرفتي وافتحه وأخطو إلى الداخل... على عجل... ومِنْ ثمَّ أغلق الباب... بل وأوصده بالمفتاح!

وقفتُ خلف الباب لبعض الوقت... أتصبَّب عرقاً واضطرب نفساً وأتزايد نبضاً... وأشدُّ وأرخي عضلات فكِّي... حتّى سمعتُ باب غرفة رغد ينغلق...

ونظرتُ إلى الجدار الفاصل بين غرفتينا... واعتقد... إنْ لمْ يكن السهر قد أودى بعقلي... بأنني رأيتُ رغد مِنْ خلاله!

إنني أراها وأشعر بحركاتها... وأحسُّ بالحرارة المنبعثة منها!

مرّتْ دقائق أخرى وأنا لا أزال أشعر بها موجودةً حولي... أكادُ أجنُّ... مِنْ أجل التحدُّث معها والاطمئنان عليها... ولو لدقيقة واحدة...

ولمْ أقوَ على تجاهل هذا الشعور...
فتحتُ بابي وخطوتُ نحو بابها وقبل أنْ يتغلّب عليَّ ترددي طرقتُه بخفّة...
«رغد...».
لمْ أسمع الجواب... لكني متأكّد مِنْ أنها لمْ تنم... عدتُ أطرقه:
«رغد...».
وسمعتُ صوتها يجيبني على مقربة... بل إنني كدتُ ألمسه! أظنها كانتْ تهمسُ في الباب مباشرة!
«نعم؟».
ارتبكتُ وتعثّرتْ الكلمات على لساني...
«أأأ... إممم... هل أنتِ نائمة؟ أعني مستيقظة؟».
«نعم».
«هل... أستطيع التحدُّث معكِ؟».
لمْ تجب رغد... فحدّقتُ النظر إلى الموضع الذي يصدر منه صوتها عبر الباب مفتّشاً عن كلامها!
أعرف... لن تصدقوني!
لكنني رأيتُه أيضاً...
قالتْ:
«ماذا تريد؟؟».
أجبتُ بصوتٍ أجش:
«أنْ أتحدّث معكِ... قليلاً فقط».
ولمْ ترد... قلتُ:
«أرجوكِ رغد... قليلاً فقط».
ولمْ تجبْ... فكرّرتُ بنبرةٍ شديدة الرجاء واللطف:
«أرجوكِ...».
بعد ثوان انفتح الباب ببطء...
كانتْ صغيرتي تنظرُ إلى الأرض وتتحاشى عينيَّ.. أمّا أنا فكنتُ أفتّشُ عن أشياءٍ كثيرة في عينيها... عن أجوبة لعشرات الأسئلة التي تنخُر دماغي منذ الأمس...
عن شيءٍ يطمئنني ويسكّن التهيّج في صدري... ويمحو كلماتها القاسية («أكرهكَ يا بليد») مِنْ أذنيَّ...
«أنا آسفٌ صغيرتي ولكن... أودُّ الاطمئنان عليكِ».
ألقتْ رغد عليَّ نظرةً خاطفةً وعادتْ تخبّئ بصرها تحت الأرض...
«هل أنتِ على ما يُرام؟».

أومأتْ إيجاباً... فشعرتُ ببعضٍ مَنْ راحةٍ... ما كان أحوجني إليها...

«هل... يمكننا الجلوس والتحدُّث لدقيقة؟».

رفعتْ نظرها إليَّ مستغربةً، فهو ليس بالوقت المناسب للحديث... وكنتُ أدرك ذلك، لكنني كنتُ غايةً في الأرق وانشغال البال ولنْ يجدَ النوم لعينيَّ سبيلاً قبل أنْ أتحدَّث معها...

«أرجوكِ... فأنا متعبٌ... وأريد أنْ أرتاح... أرجوكِ».

ربَّما خرج رجائي عميقاً أقرب إلى التوسل... كما خرج صوتي ضعيفاً أقرب إلى الهمس... وتفهَّمتْ رغد ذلك وفسحتْ لي المجال للدخول...

توجَّهتُ مباشرةً إلى الكرسي عند المكتب وجلستُ عليه... وأشرتُ إليها:

«اجلسي رغد».

فجلستْ هي على طرف السرير...

حاولتُ تنظيم أفكاري وانتقاء الكلمات والجمل المناسبة ولكن حالتي تلك الساعة لمْ تكن كأي حالة...

لمحتُ قارورة الماء نصف فارغة موضوعة على المكتب إلى جواري...

«رغد... ألا تشعرين بالجوع؟».

سرعان ما نظرتْ إليَّ تعلوها الدهشة! فهو ليس بالموضوع الذي يتوقَّع المرء أنْ يدور نقاشٌ طارئٌ في منتصف الليل حوله!

قلتُ بحنان:

«يجب أنْ تأكلي شيئاً قبل أنْ تنامي...».

عقَّبتْ هي باندهاش:

«أهذا كل شيء؟؟».

تأوهتُ وقلتُ:

«لا، ولكن... أنتِ لمْ تأكلي شيئاً منذ ليلتين وأخشى أنْ تمرضي يا رغد».

لمْ تتجاوب معي... فأدرتُ الحديث إلى جهةٍ أخرى...

«رغد... مهما كان ما قالته أروى... أو مهما كان شعوركِ نحوها... أو حتَّى نحوي... لا تجعلي ذلك يزعزع مِنْ ثقتك... بأنَّ... بأنَّ...».

وعلقتْ الكلمات على طرف لساني برهة شعرتُ فيها بالشلل... ثمَّ أتممتُ جملتي بصوتٍ أجش...

«بأنكِ... كما كنتِ... وكما ستظلين دائماً... صغيرتي التي... التي...».

وتنهدتُ بمرارة...

«التي... أحبُّ أنْ أرعاها وأهتم بجميع شؤونها مهما كانتْ...».

نظرتْ إليَّ بتمعنٍ واهتمام... ولكنها لمْ تعلِّق... أضفتُ:

«وكل ما أملكُ يا رغد... قلَّ أمْ كثُر... هو ملككِ أنتِ أيضاً وتحت تصرّفكِ... يا رغد... أنا

لا آخذ شيئاً مِنْ ثروة أروى... إنما استلم راتباً كأي موظف... إنني احتلُّ منصب المدير كما تعلمين... ودخلي كبير... فلا تظنِّي بأنني أحصل على المال دون عناء أو دون عمل...».

رغد قالتْ فجأة:

«بل أنا مَنْ... يحصل عليه دون عناءٍ ودون عملٍ... ودون حقٍ ولا مقابل».

ازداد ضيق صدري ولمْ يعد قادراً حتَّى على التنهُّد. سألتُها بمرارة وأنا أحسُّ بعصارة معدتي تكاد تحرق حبالي الصوتية:

«لماذا يا رغد؟؟ لماذا دائماً... تقولين مثل هذا الكلام؟؟ ألا تدركين أنَّكِ... تجرحين شعوري؟».

تعبيرات رغد نمَّتْ عن الندم والرغبة في الإيضاح... ولكن لا أعرف لِمَ انعقد لسانها... قلتُ:

«رغد... أنا... لطالما اعتنيتُ بكِ... ليس لأنَّ مِنْ واجبي ذلك... حتَّى في وجود والديَّ رحمهما الله... وحتَّى وأنتِ مرتبطةٌ بسامر... وأنتِ طفلةٌ وأنتِ بالغةٌ وأنتِ في كل الأحوال ومهما كانتْ الأحوال... دائماً يا رغد... أنتِ صغيرتي التي أريد ولا شيء يبهجني في حياتي أكثر مِنْ... أنْ اعتنيَ بها... كجزءٍ لا يتجزَّأ منِّي...».

أجهل مصدر الجرأة التي ألهمتْني البوح بهذه الكلمات الشجية القويّة وسط هذا الظلام الساكن...

تلعثمتْ التعبيرات على وجه رغد... أهي سعيدةٌ أَمْ حزينة؟ أهي مصدِّقة أَمْ مكذبة؟ لا يمكنني الجزم...

سألتْني وكأنها تريد أنْ تستوثق مِنْ حقيقةٍ تدركها... ليطمئن قلبها:

«صحيح... وليد؟».

لمْ أشعر بأنَّ إجابتي مِنْ كل هذا البعد ستكون قويةً ما يكفي لطمأنتها... وقفتُ... سرتُ نحوها... أراها أيضاً بعيدةً... أجثو على ركبتيَّ... تصبح عيناي أقرب إلى عينيها... تمتدُّ يداي وتمسكان بيديها... ينطق لساني مؤكِّداً:

«صحيح يا رغد... وربِّ الكعبة... الذي سيحاسبني عنْ كلِّ آهةٍ تنفثينَها مِنْ صدركِ بألم... وعنْ كل لحظةٍ تشعرين فيها باليُتم أو الحاجة لشيءٍ وأنا حيٌّ على وجه الأرض...

لا تزيدي مِنْ عذابي يا رغد... أنا لا أستطيع أنْ أنامَ وأنا أعرفُ أنَّ في صدركِ ضيقٌ ولا أنْ أهدأَ وفي بالكِ شاغلٌ... ولا حتَّى أنْ آكلَ وأنتِ جائعة... أرجوكِ... أريحيني مِنْ هذا العذاب...».

لم أشعر إلا ويدا رغد تتحرران منْ بين يدي وتمسكان بكتفيّ

«وليد...».

امتزجتْ نظراتنا ببعضها البعض... ولمْ يعد بالإمكان الفصل فيما بينها... عينا رغد بدأتا تبرقان باللآلئ المائية...

قلتُ بسرعة:

«لا تبكي أرجوكِ».

رغد ابتلعتْ عبراتها في عينيها وسحبتْ يديها وشبكتْ أصابعها ببعضها البعض... ثمَّ طأطأتْ رأسها هاربة مِنْ نظراتي...

ناديتُها مرّة ومرّتين... لكنها لمْ ترفع عينيها إليَّ... ولمْ تجبني...

«رغد... أرجوكِ... فقط... قولي لي أنكِ بخير حتَّى أذهب مرتاحاً... أنا بحاجة للنوم... كي أستطيع أنْ أفكِّر... لا أستطيع التفكير بشيءٍ آخر وأنا... قلقٌ عليكِ».

أخيراً رغد رفعتْ عينيها ونظرتْ إليَّ...

«هل... أنتِ بخير؟؟».

أومأتْ برأسها إيجاباً:

«نعم... بخير».

تنهَّدتُ بارتياح... ثمَّ قلتُ:

«جيِّد... يريحني سماع ذلك... لكنْ... يجب أنْ تتناولي بعض الطعام قبل أنْ تنامي... هل أعيد تسخين البيتزا؟؟».

«لا... لا...».

«إذن... تناولي أيَّ شيءٍ آخر قبل أنْ تنامي... رجاءً».

نظرتْ إلى الأرض وأومأتْ إيجاباً...

تأمّلتُها برهةً عن قرب... ثمّ وقفتُ وأعدتُ تأمُّلها مِنْ زاوية أبعد... ومهما تبعد المسافات... إنها إلى قلبي وكياني أقرب... وأقرب...

أقرب مِنْ أنْ أقوى على تجاهل وجودها ولو لبرهة واحدة...

أقرب مِنْ أنْ أستطيع أنْ أغفوَ دون أنْ أحسَّ بحرارة قربها... في جفوني...

وأقرب مِنْ أنْ أسمح لصدى («أكرهكَ يا بليد») بأنْ... يُبعدها عنّي...

قلتُ:

«حسناً صغيرتي... سأترككِ تأكلين وتنامين...».

وخطوتُ نحو الباب... ثمّ عدتُ مجدداً أتأملها... راغباً في جرعة أخرى مِنَ الاطمئنان عليها... متمسِّكاً بآخر طيف لها... يبرق في عينيّ...

«أتأمرين بشيء؟».

رغد رفعتْ نظرها إليَّ... ثمَّ قالتْ:

«كلا... شكراً».

«بل... شكراً لكِ أنتِ صغيرتي... واعذريني... تصبحين على خير».

وغادرتُ عائداً إلى غرفتي...

بعثرتُ أطرافي على سريري ناشداً الراحة... لكني لمْ أحصل عليها... لمْ تكن جرعة رغد كافية لتخدير وعيي... ولليلة الثانية على التوالي أعاصر بزوغ الفجر وأشهد مسيرة قرص

الشمس اليومية تشقُّ طريقها ساعةً ساعة... عبر ساحة السماء...

- رغد -

صحوتُ مِنْ نومي القصير وأنا أشعر بدوارٍ شديد ورجفةٍ في أطرافي... وإجهادٍ وضعفٍ عام في عضلاتي... لمْ أقوَ على التحرُّك عن موضعي في السرير... لا بد أنَّ السبب هو الجوع، فأنا لمْ آكلْ شيئاً منذ ليلة شجاري مع الشقراء... وبالرغم مِنْ أنَّ وليد نصحني بالطعام البارحة إلا أنّني لمْ أكنْ أشعر بشهية له.

هذا إضافة إلى تأثير السهر والأرق... اللذَين لمْ يبرحاني مُذ حينها...

كلّما حاولتُ الحركة ازداد الدوار... وتسارعتْ خفقات قلبي... وصَعُب تنفسي... إنَّه ذات الشعور الذي داهمني يوم فرارنا حفاةً مِنَ المدينة الصناعية... وتشرُّدنا جياع عطشى في البرِّ...

أمِنْ أحدٌ ليساعدني؟ أريد بعض الماء... أريد قطعة خبز... أكاد أفقد وعيي...!

أغمضتُ عيني وتنفَّستُ بعمق وحبستُ الهواء في صدري كي أمنعَ عصارة معدتي مِنَ الخروج... وزفرتُ أنّة طويلة تمنَّيتُ أنْ تصلَ إلى مسامع وليد... لكنَّ الجدارَ الفاصل بيننا بالتأكيد امتصَّ أنيني...

بعد قليل سمعتُ طرقاً على الباب... معقول أنه وليد قد سمعني؟ الحمد لله...!

استجمعتُ بقايا قوّتي وقلتُ مباشرةً:

«ادخل».

لمْ أكنْ ارتدي غير ملابس النوم ولكن أيِّ قوّة أملك حتّى أنهض وأضع حجابي؟؟ لففتُ لحافي حولي عشوائياً وكرّرتُ:

«ادخل».

انفتح الباب ببطء وحذر... قلتُ بسرعة مؤكِّدةً:

«تفضَّل وليد».

بسرعة... أنقذني... وأنا أنظر نحو الباب... بلهفة...

أتدرون مَنْ ظهر؟

إنها أروى...!!

فوجئتُ بها هي تدخل الغرفة... قالتْ وهي تقفُ قرب الباب:

«... أريد أنْ أتحدّث معكِ».

أغمضتُ عيني... إشارةً إلى أنّني لا أريدها... إلى أنّني متعبة... إلى أنّني لمْ أكنْ أنتظرها هي... ولمْ أكنْ لأطلب العون منها...

قالتْ:

«هو سؤالٌ واحدٌ أجيبيه وسأخرج مِنْ غرفتكَ».

قلتُ وأنا أزفر بتعب:

«أُخرجي!».

لكن أروى لمْ تخرجْ... فتحتُ عينيّ فوجدتُها تقتربُ منّي أكثر... أردتُ أنْ أنهضَ فغلبني الدوار... أشحتُ بوجهي بعيداً عنها... لا أريد أنْ أراها ولا أريد أنْ تراني بهذه الحالة...

أروى قالتْ:

«فقط أجيبيني عن هذا السؤال يا رغد... يجب أنْ تجيبيني عليه الآن...».

لمْ أتجاوب معها. حلّي عنّي يا أروى! ألا يكفي ما أنا فيه الآن؟؟ إنني إنْ استدرتُ إليكِ فسأتقيّأ على وجهكِ الجميل هذا...

«رغد».

نادتْني فأجبتُ بحنق:

«ماذا تريدين منّي؟».

«أتعرفين... لماذا... قتل وليد عمّار؟؟».

انتفض جسمي كلّه فجأةً... والخفقات التي كانتْ تهرول في قلبي صارتْ تركض بسرعة... بأقصى سرعة...

التفتُ إلى أروى... أو ربَّما الغرفة هي التي دارتْ وجعلتْ وجهها مقابل وجهي... لستُ أكيدة...

حملقتْ أروى بي ثمّ قالتْ:

«تعرفين السبب... أليسَ كذلك؟ أنا واثقةٌ...».

هززتُ رأسي نفياً... أريد محو السؤال ومحو صورتها ومحو الذكريات التي كسرتْ الباب واقتحمتْ مخيّلتي فجأة... هذه اللحظة...

سمعتُها تقول:

«بل تعرفين... تصرفاتكِ وانفعالكِ يؤكّد ذلك يا رغد... أنا واثقةٌ مِنْ هذا... لا أعرف لِمَ أنتما مصرّان على إخفاء الأمر عنّي... لكن...».

هتفتُ:

«كفى...».

أروى قالتْ بإصرار:

«للأمر... علاقة بكِ أنتِ... أليسَ كذلك؟؟».

صرختُ وأنا أحاول صمَّ أذنيّ عن سماع المزيد... وإعماء عيني عن رؤية شريط الماضي...

«يكفي».

لكن أروى تابعتْ:

«أخبريني... ما علاقتكِ أنتِ بهذا... لماذا صرختِ حين رأيتِ صورته معلّقةً على جدار المكتب؟؟ ولماذا تنعتانه أنتما الاثنان بالحقير؟؟ ما الذي ارتكبه وجعل وليد... يقتله انتقاماً؟؟».

«كفى... كفى... كفى...».

صرختُ وأنا أضغطُ بيدي كلتيهما بقوّة على صدغيّ محاولةً منع الذكرى المريرة مِنَ الانفجار في رأسي...

آنذاك... ظهر لي وجه عمار في الصورة... نعم... لقد رأيتُه يقترب منّي... رأيتُ يديه تمتدان نحوي... قفزتُ عن سريري مفزوعةً... صرختُ... رأيتُ الجدران تتصدَّع إثر صراخي... رأيتُ السقف ينهار... والأرض تهتزُّ... أحسَستُ بعيني تدور... والغرفة تدور... وشعرتُ بيدٍ ما تمتدُّ نحوي... تحاول الإمساك بي...

إنها... يد عمّار!

«لا... لا... لاااااااااا».

- وليد -

على هذه الصرخات انتفضتُ ورميتُ بفرشاة أسناني جانباً وخرجتُ مِنَ الحمّام مسرعاً مبتلعاً بقايا المعجون دفعةً واحدةً ومُطلقاً ساقيّ للريح... نحو غرفة رغد...

كان الباب مفتوحاً والصراخ ينطلق عبره... مفزِعاً...

اقتحمتُ الغرفة فوراً ورأيتُ رغد واقفةً عند سريرها ممسكةً برأسها بكلتا يديها وتصرخ مذعورةً... فيما أروى واقفة مذهولة جوارها معلّقة يديها في الهواء...

«رغد؟؟».

هرولتُ باتجاهها مفزوعاً طائر العقل... ورأيتُ يديها تبتعدان فجأةً عن رأسها وتمتدّان نحوي... وفي ثوانٍ... تخطو إليّ... وتهوي على صدري... وتطبق عليّ...

انزلق قلبي الراكض وهوى أرضاً... جرّاء الموقف... كنتُ مذهولاً... لا أعرف ولا أدرك ما يحصل مِنْ حولي...

«رغد؟؟».

هتفتُ مفزوعاً... وأنا ألتقطُها بين ذراعيّ فجأةً وأضمُّها إليّ... وأشعر بصراخها يخترق أضلاع قفصي الصدري...

شهِقتُ وانتفضتُ مروعاً:

«بسم الله... ماذا حصل رغد...؟».

حاولتُ إبعاد رأسها كَي أنظرَ إلى عينيها لكنها غاصتْ بداخلي بعمق... وهي تصرخ:

«أبعده عنّي... أبعده عنّي... أبعده عنّي».

ألقيتُ نظرة خاطفةً على أروى فرأيتُها مجفلةً فزعةً محملقةً بعينيها... صرختُ:

«ماذا حصل؟».

لمْ تقوَ على الكلام... صرختُ ثانيةً:

«ماذا حصل؟؟ يا أروى؟؟».

تأتأتْ أروى:

«لا... أدري...».

أبعدتُ رأس رغد عن صدري فلمْ تقاوم... نظرتُ إلى عينيها أريد أنْ أسألها عمّا حصل... فإذا بهما تحملقان في الفراغ... وإذا بذراعيها تهويان فجأة على جانبيها... وإذا بها تنزلق مِنْ بين يديَّ...

بسرعة أمسكتُ بها وأنا أصرخ:

«رغد... رغد».

رفعتُها إلى السرير وجعلتُ أخاطبها وأهزُّها... لكن عينيها كانتا تبحلقان في اللاشيء... وفجأةً دارتا للأعلى وانسدل جفناها مِنْ فوقهما...

«رغد... رغد... ما بكِ... رغد أجيبيني...».

لكنها لمْ تجبْ... صرختُ بانفعال:

«أجيبيني يا رغد... رغد... رغــد».

وأنا أهزُّها بعنفٍ محاولاً إيقاظها... لكنها... بدتْ فجأةً كالميتة...

تزلزل قلبي تحت قدميَّ فزعاً وصرختُ مذهولاً:

«يا إلهي... ماتتْ صغيرتي ماتتْ...».

وأنا مستمرٌ في هزّها بعنف دون جدوى...

التفتُّ إلى أروى وصرختُ بقوة:

«طبيب... إسعاف... ماء... افعلي شيئاً... أحضري شيئاً... تحرّكي بسرعة».

وأروى واقفة كالتمثال... متجمّدة مفزوعة... صرختُ:

«هيّا بسرعة».

تحرّكتْ أروى باعتباط... يميناً يساراً حتّى إذا ما لمحتْ قارورة الماء تلك على المكتب... أسرعتْ إليها وجلبتها لي.

رشثتُ الماء على وجه رغد... بل إنني أغرقتُه وأنا لا أزال أهزُّها وأضربُ خدّيها بقوّة... حتّى ورّمتهما...

رغد فتحتْ عينيها فناديتُها مراراً لكنَّها لمْ تكن تنظر إليَّ أو حتّى تسمعني... بدتْ وكأنها تسبح في عالم آخر...

«رغد... أتسمعينني؟؟ ردي عليَّ... ردي عليَّ يا رغد أرجوكِ...».

ولمْ تتجاوب معي...

بسرعة قربتُ مِنْ فمها قارورة الماء وطلبتُ منها أنْ تفتحه وتشرب... رغد لمْ تحرّك شفتيها... بل عادتْ وأغمضتْ عينيها... لكنها لا تزال تتنفّس... ولا يزال الشريان ينبض في عنقها...

أبعدتُ القارورة ورحتُ أحرّك رأسها يميناً وشمالاً بقوّة... محاولاً إيقاظها... والتفت إلى أروى آمراً:

«أحضري بعض السكّر».

أروى حدّقت بي ببلاهة... غير مستوعبة لشيء فهتفتُ:

«السكر يا أروى... بسرعة».

وانطلقتْ أخيراً خارج الغرفة وعادتْ بعد ثوان تحمل علبة السكّر...

كانتْ رغد لا تزال شبه غائبة عن الوعي على ذراعيَّ...

تناولتُ علبة السكر بسرعة وسكبتُ كمية منه داخل القارورة ورججتُها بعنف... ثمَّ قرّبتُها مِنْ فم رغد مجدّداً:

«رغد... أتسمعينني؟؟ افتحي فمكِ...».

لكنها فتحتْ عينيها ونظرت إليّ...

رأس رغد كان على ذراعي اليسرى والقارورة في يدي اليمنى... ألصقتُها بشفتيها وقلتُ:

«اشربي... هيّا... افتحي فمكِ».

لمْ تعِ رغد كلامي... رفعتُ رأسها وفتحتُ فمها بيدي... ودلقتُ شيئاً مِنَ الشراب فيه...

«اشربي...».

عينا رغد أوشكتا على الإغماض... فهززتُها بقوّة:

«أوه لا... لا تغيبي الآن... أفيقي... اشربي هيا...».

ورفعتُ رأسها للأعلى أكثر... حينها وصل الشراب إلى بلعومها فسعلتْ... وارتدَّ الشراب إلى الخارج...

فتحتْ رغد عينيها وبدا وكأنَّها استردَّتْ شيئاً مِنْ وعيها إثر ذلك... قرّبتُ القارورة مِنْ فمها مجدّداً وقلتُ:

«أتسمعينني يا رغد؟؟ اشربي... أرجوك...».

سكبتُ كميةً أخرى في فمها فابتلعتْها رغد فجأةً... ثمَّ فجأةً رأيتُ المزيج يخرج مِنْ فمها وأنفها... وينسكب مبلِّلاً وجهها وملابسها...

«أوه... يا رغد... كلاَّ... كلاَّ...!!».

ضممتُها إلى صدري بهلع... بفزع... بعشوائية... وبانهيار...

كانتْ طرية كالورقة المبللة...

غمستُ يدي في علبة السكّر وأخذتُ حفنة منه... ورفعتُها نحو فمها المفغور ونثرتُها فيه... مبعثراً ذرّات السكر على وجهها المبلّل وعلى عنقها وملابسها وفي كل مكانٍ مِنْ شدّة اضطرابي...

«ابلعيه... أرجوكِ... أرجوكِ يا رغد...».

عدتُ وأخذتُ كميّة أخرى وحشوتُ فمها بها... وأغلقتُه بيدي... وهي مستسلمةٌ لا تقاوم... ولا تظهر على قسمات وجهها أية تعبيرات...

كأنها تمثالٌ مِنَ الورق الذابل...

كانتْ... كالميتة على ذراعي...

عدتُ أخاطبها فخرج صوتي مبحوحاً ممزّقاً... وكأنّ حفنة السكر تلك قد انحشرتْ في حنجرتي أنا... وأعطبتْ حبالي الصوتية...

«ابلعيه يا رغد... أرجوكِ... يجب أنْ تبلعيه... يا إلهي ماذا جرى لصغيرتي؟؟».

أبعدتُ رأس رغد عنْ صدري... فرأيتُ عينيها نصف مفتوحتين تحملقان في اللاشيء... وفمها مفتوح تنساب مِنْ زاويتيه قطراتُ اللعاب ممزوجةً بحبيبات السكّر...

لمْ تكن تشعر بشيء ولا تعي شيئاً ولا تحرّك... في شبه غيبوبة وشبه شلل...

ثمّ صدرتْ حركةٌ طفيفةٌ مِنْ جفنها وأخرى مِنْ زاوية فمها... وشيئاً فشيئاً بدأتْ تحرّك عينيها وفمها...

«رغد...».

صحتُ بلهفة... وأنا أرى عينيها تدوران في الغرفة ومِنْ ثمّ تنظران إليّ...

«رغد... رغد... هل تسمعينني؟؟».

رغد تنظر إليّ... إذنْ فهي تراني... وتسمعني... فمها أراه يتحرّك ويبتلع السكر...

بسرعة تناولتُ قارورة المزيج تلك وألصقتُها بفمها مباشرةً وقلتُ:

«اشربي... أرجوكِ...».

شربتْ رغد جرعةً... وابتلعتْها... تلتْها جرعةٌ أخرى...

أبعدتُ القارورة وأعدتُ رجها بقوّة... ثمّ قربتُها مِنْ شفتيها وطلبتُ منها أنْ تشرب المزيد... وهي مستسلمةٌ لي متجاوبةٌ معي... منقادةٌ على ذراعيّ...

«اشربي... المزيد بعد يا رغد... هيا...».

حتّى أرغمتُها على شرب المزيج كاملاً...

وهي على ذراعي... استردّتْ وعيها تدريجياً...

وهي على ذراعي... كانتْ تتنفس بقوّة... وترتعش كعصفور يحتضر...

وهي على ذراعي... انحدرتْ مِنْ عيني دمعةٌ كبيرة... بحجم السنين التي فرّقتْ فيما بيننا...

وهي على ذراعي... وأنا ممسكٌ بها بكل قوّتي وكل ضعفي... مخافة أنْ تنزلقَ مِنْ بين يديّ... مخافةَ أنْ يُبعِدَها القدر عنّي... مخافةَ أنْ أفقدها هذه المرّة... للأبد...

لقد كانتْ شبه ميتة بين يديّ...

رغد الحبيبة... طفلتي الغالية... منبع عواطفي ومصبُّها... شبه ميتةٍ... على ذراعي؟؟

«هل تسمعينَني يا رغد؟ أتسمعينَني؟».

سألتُها عندما رأيتُها تحدّق بي... بدتْ وكأنّها مشوَّشةٌ وغير قادرة على التركيز... أخذتْ تدور بعينيها على ما حولها... توقّفتْ برهةً تحملق في أروى... وأخيراً عادتْ إليّ...

«أخبريني... هل أنتِ بخير؟؟ ماذا جرى لكِ؟ أتسمعينني؟؟ أتستطيعين التحدُّث؟ ردّي

عليّ يا رغد أرجوكِ...».

«وليد...».

أخيراً نطقتْ... قلتُ بلهفة:

«نعم رغد... أأنتِ بخير؟؟ كيف تشعرين؟».

رغد أغمضتْ عينيها بقوّة... كأنها تعتصر ألماً... ثمّ غمرتْ وجهها في صدري... وشعرتُ بأنفاسها الدافئة تتخلخل ملابسي... كما أحسستُ بالبلل يمتصه قميصي... مِنْ وجهها...

حرّكتُ يدي نحو كتفها وربّتُّ بخفّة:

«رغد...؟؟».

تجاوبتْ رغد معي... أحسستُ بهمسها يصطدم بصدري... لمْ أميّز ما قالتْ أوِلاً... لكنها حين كرّرتْ الجملة استطاعتْ أذناي التقاطها...

«أبعِدْهُ عنّي...».

توقفتُ برهةً أفتّشُ عن تفسيرٍ لما سمعتُ... سألتُها بعدم استيعاب:

«أُبعِدُهُ عنكِ؟؟».

ردّدتْ رغد... وهي تغمرُ وجهها أكثر في ثنايا قميصي:

«أَبعِدْهُ عنّي...».

«مَنْ؟؟!!».

سرتْ رعشةٌ في جسد رغد انتقلتْ إليّ... نظرتُ إلى يدها الممدودة جانباً فرأيتُها ترتجفُ... ورأيتُها تتحرّك نحوي وتتشبّثُ بي... كانتْ باردةً كالثلج... وأيضاً أحسستُ برأسها ينغمسُ في داخلي أكثر فأكثر... ثمّ سمعتُها تقول بصوتٍ مرتجفٍ واهن:

«عمّار».

آن ذاك... جفلتُ وتصلّبتْ عضلاتي فجأةً... وتفجّرتْ الدهشة كقنبلةٍ على وجهي...

حرّكتُ يدي إلى رأسها وأدرتُه إليّ... لأرى عينيها... فتحتْ هي عينيها ونظرتْ إليّ...

قلتُ:

«مَنْ؟؟».

فردّتْ:

«عمّار... أبعِدْه عنّي... أرجوكَ».

اختنقَ صوتي في حنجرتي بينما ارتجّتْ الأفكار في رأسي... قلتُ:

«عمـــ ـــمار؟؟!! لكن...».

ولمْ أقوَ على التتمة...

ماذا جرى لصغيرتي؟ ما الذي تهذي به؟؟

«أبعده... أرجوكَ».

ازدردتُ ريقي بفزع وأنا أقول:

«... أين... هو؟».

رغد حرّكتْ عينيها ونظرتْ نحو أروى... ثمَّ هزّتْ رأسها وأغمضتْ عينيها وعادتْ وغمرتْ وجهها في صدري وهي تصيح:

«أبعِده عنّي... أبعِده عنّي... وليد أرجوكِ...».

آنذاك... شعرتُ بأنَّ خلايا جسمي كلها انفصمتْ عن بعضها البعض وتبعثرتْ على الأرض... وفشلتُ في جمعها...

البقايا المتبقية لي مِنْ قوّة استخدمتُها في الطبطبة على رغد وأنا أردِّد:

«بسم الله عليكِ... اهدئي يا رغد... ماذا حلَّ بكِ؟... هل رأيتِ كابوساً؟؟».

رغد ردّدتْ مجدَّداً وهذه المرّة وهي تبكي وتشدُّ الضغط عليَّ متوسِّلةً:

«أبعده يا وليد... أرجوكَ... لا تتركني وحدي... لا تذهبْ...».

«أنا هنا يا رغد... بسم الله عليكِ... يا إلهي ماذا حصل لكِ؟ هل تعين ما تقولين؟».

أبعدتْ رغد رأسها قليلاً ووجَّهتْ نظرها إلى أروى وصاحتْ:

«أبعده أرجوكَ... أنا خائفة...».

جُنَّ جنوني وأنا أرى صغيرتي بهذه الحالة المهولة ترتجف ذعراً بين يدي... هتفتُ في وجه أروى:

«ماذا فعلتِ بالصغيرة يا أروى؟».

أروى واقفة مذهولة متجمِّدة في مكانها تنظر إلينا بارتباك وهلع... صرختُ:

«ماذا فعلتِ يا أروى تكلّمي؟».

ردَّتْ أروى باضطراب:

«أنا؟؟ لا شيء... لمْ أفعل شيئاً».

قلتُ آمراً بصرامة:

«انصرفي الآن...».

حملقتْ أروى بي مذهولةً فأعدتُ بغضب:

«انصرفي هيا...».

حينها خرجتْ أروى مِنَ الغرفة... وبقينا أنا ورغد منفردين... يمتصُّ كل منّا طاقته مِنَ الآخر...

كانتْ الصغيرة لا تزال تبكي مرعوبةً في حضني... حاولتُ أنْ أبعدها عنّي إلا أنها قاومتْني وتشبّثتْ بي أكثر...

لمْ أستطع فعل أو قول شيء حيال ذلك... وتركتُها كما هي...

هدأتْ نوبة البكاء أخيراً... بعدها رفعتْ رغد رأسها إليَّ وتعانقتْ نظراتنا طويلاً...

سألتُها:

«أأنتِ بخير؟».

فأومأتْ بطرفة عين...

«كيف تشعرين؟».

«برد...».

قالتْ ذلك والرعشة تسري في جسمها النحيل...

جعلتُها تضطجع على الوسادة وغطيتُها باللحاف والبطانية... ودرتُ ببصري مِنْ حولي فوجدتُ أحد أوشحتها معلّقاً بالجوار فجلبتُه...

وأنا ألفّه حول وجهها انتبهتُ لحبيبات السكر المبعثرة على وجهها وشعرها... وببساطة رحتُ أنفضها بأصابعي...

كان وجهها متورِّماً مُحمراً مِنْ كثرة ما ضربتُه! أرى آثار أصابعي مطبوعةً عليه!...

آه كم بدا ذلك مؤلماً... لقد شقَّ في قلبي أخدوداً عميقاً...

أنا آسف يا صغيرتي... سامحيني...

لففتُ الوشاح على رأسها بإحكام مانِعاً خصلات شعرها القصير الحريري مِنَ التسلل عبر طرفه...

«ستشعرين بالدفء الآن...».

سحبتُ الكرسي إلى جوار السرير وجلستُ قرب رغد أراقبها... إنها بخير... أليس كذلك؟

ها هي تتنفَّس... وهاهما عيناها تجولان في الغرفة... وها هو رأسها يتحرَّك وينغمر أكثر وأكثر في الوسادة...

لكنها ظلّتْ صامتة...

هل كان كابوسا أفزعها؟؟ هل قالتْ لها أروى شيئاً أثار ذعرها؟؟

ماذا حصل؟؟... لا بد أنْ أعرفَ...

انتظرتُ حتّى استرددتُ أنفاسي المخطوفة... واسترجعتُ شيئاً مِنْ قواي الخائرة... وازدردتُ ريقي الجاف إلا عن طعم المعجون الذي لا يزال عالقاً به... ثمّ خاطبتُ رغد:

«رغد».

نظرتْ رغد إليَّ فسألتُها:

«ماذا... حصل؟».

رغد نظرتْ إليَّ نظرةً بائسة... ثمّ قالتْ وصوتها هامسٌ خفيف:

«شعرتُ بالجوع والدوخة منذ استيقاظي... وعندما وقفتُ أظلمتْ الصورة في عينيَّ وفقدتُ توازني...».

«و... كيف تشعرين الآن؟».

«أفضل... لكنّي مرهقة...».

«ألمْ تأكلي شيئاً البارحة؟؟».

ولَمْ أرَ على وجهها علامات الإنكار... قلتُ مُعاتِباً ولكن بلطف:

«لماذا يا رغد؟ لمْ تسمعي كلامي... أتريدين إيذاء نفسكِ؟؟ انظري إلى النتيجة... لقد جعلتِ الدماء تجفُّ في عروقي فزعاً...».

حملقتْ رغد بي لبرهة أو يزيد... ثمَّ نقلتْ بصرها إلى اللحاف بعيداً عنّي... اعتذاراً...

لمْ يكن الوقت بالمناسب للعتاب... لكن خوفي عليها كاد يقتلني... وأريد أنْ أعرف ما حصل معها...

قلتُ:

«أهذا كل ما في الأمر؟».

عادتْ رغد تنظر إليَّ قائلة:

«نعم... لا تقلقْ... أنا أفضل الآن».

سألتُ:

«وأروى... ماذا كانتْ تفعل هنا؟».

أجهل معنى النظرات التي وجَّهتها رغد نحوي... لكنني رجَّحتُ أنها لا تودُّ الإجابة... أردتُ أنْ أسألها عمَّا جعلها تشير إليها كـ عمار... ولمْ أجرؤ...

قلتُ أخيراً... وأنا أهبُّ واقفاً:

«حسناً... دعيني أُحضِر لكِ شيئاً تأكلينه».

وهممتُ بالانصراف غير أنَّ رغد نادتني:

«وليد...».

التفتُّ إليها ورأيتُ الكلام مبعثراً في عينيها... لا أعرف ماذا كانتْ تودُّ القول... غير أنها غيّرتْ كلامها وقالتْ:

«شكراً لكَ...».

ابتسمتُ ابتسامة سطحية وغادرتُ الغرفة... متَّجهاً إلى المطبخ...

هناك حضَّرتُ الشاي وفتَّشتُ عن بعض الطعام فوجدتُ علب البيتزا التي كنتُ قد اشتريتُها بالأمس.

وعدا عن العلبة التي تناولتْها خالتي ليندا، فإنَّ البقية كانتْ كما هي. قمتُ بتسخين أحد الأقراص على عجل... وانطلقتُ حاملاً الطعام إلى رغد...

كانتْ على نفس الوضع الذي تركتُها عليه... جلستُ على المقعد إلى جوارها وقدَّمتُ لها الوجبة:

«تفضَّلي... اشربي بعض الشاي لتدفئي».

جلستْ رغد وأخذتْ تحتسي الشاي جرعةً جرعة... وهي مُمسكةٌ بالكوب بكلتا يديها...

«هل تشعرين بتحسُّن؟».

أومأتْ إيجاباً. قلتُ:

«جيّد... الحمد لله... تناولي بعضاً مِنْ هذه... لتمنحكِ الطاقة».

وقربتُ إليها إحدى قطع البيتزا... فأخذتْها وقضمتْ شيئاً مِنْها...
سألتُها:
«أهي جيّدة؟ لا أعتقد أنَّ طعمها قد تغيّر؟».
أتعرفون كيف ردّت رغد؟؟
لا لنْ تحزروا...!
فوجئتُ بها وقد قرَّبتْ قطعة البيتزا ذاتها إلى فمي... تريدُ منّي أنْ أتذوقها!
اضطربتُ، ورفعتُ يدي لأمسك بالقطعة فأبعدتْ رغد القطعة عن يدي... وعادتْ وقرّبتْها إلى فمي مباشرة!
الصغيرة تريد أنْ تُطعِمني بيدها!
نظرتُ إليها وقد علا التوتُّر قسمات وجهي كما لوّنته حمرة الحرج... ورغد لا تزال معلّقة البيتزا أمام فمي...
أخيراً قلتُ:
«إإإ... شكراً... كـ... كليها أنتِ رغد».
ولو تعلمون مدى الامتقاع والتعبيرات المتعسة التي ظهرتْ على وجهها بعد هذا الرد...!
وإذا بها تقول:
«لا تريد أنْ تأكل مِنْ يدي؟».
فاجأني سؤالها في وقت لمْ أصحُ فيه بعد مِنْ مفاجأة تصرفها... ولا مفاجآت حالتها هذا الصباح...
رفعتُ حاجباي دهشةً... وتلعثمتْ الحروف على لساني...
«أأأ... رغد... إنَّه... أنا...».
رغد... ماذا جرى لكِ اليوم؟؟ ماذا أصابكِ...؟
أنتِ تثيرين جنوني... تثيرين فزعي... تثيرين مخاوفي... تثيرين شجوني وآلامي وذكريات الماضي...
ماذا دهاكِ يا رغد؟؟
بربّك... أخبريني؟؟
كنتُ على وشك أنْ أنطق بأي جملة... تمتُّ أو لا تمتُّ للموقف بصلةٍ، إلاّ أنَّ رغد سبقتني وقالتْ منفعلة:
«لكنكَ تأكل مِنْ يدها... أليسَ كذلك؟».
ذهلتُ لجملتها هذه... أقصى ذهول...!!
رغد لمْ تُبعِد يدها بل قرَّبتْها منّي أكثر... لا بل ألصقتْ البيتزا بشفتي ونظراتها تهدِّدني...
حملقتُ بها بدهشة... شيءٌ ما قد حلَّ بصغيرتي هذا الصباح... ماذا جرى لها؟ يا رب...

لمَّا رأتْ رغد استنكاري... أبعدتْ البيتزا عني، ووجهها شديد الحزن تنذر عيناه بالمطر... وفمها قد تقوَّس للأسفل وأخذ يرتعش... ورأسها مال إلى الأسفل بأسى وخيبةٍ ما سبق لي أنْ رأيتُ على وجه رغد شبيهاً لهما... وبصوتٍ نافذ الطاقة هزيل متقطِّع أقر ب إلى الأنين قالتْ:

«أنتَ... لا تريد... أنْ... تأكل مِنْ يدي... أليس... كذلك؟».

وهطلتْ القطرة الأولى... مِنْ سحابة الدموع التي سرعان ما تكثَّفتْ بين جفنيها...

إنها ليستْ باللحظة المناسبة لأي شرح أو تفسير... أو تعليل أو تبرير... أو رفض أو اعتراض!

قلتُ مستسلماً مشتَّتاً مأخوذاً بأهوال ما يجري مِنْ حولي:

«لا... لا ليس كذلك...».

انعكس اتجاه قوس شفتيها... وارتسمتْ بينهما ابتسامة متردِّدة واهية... وتسلَّلتْ مِنْ بينهما الدمعة الوحيدة مسافرةً عبر فيها إلى مثواها الأخير...

نحو فمي ساقتْ رغد قطعة البيتزا ثانيةً... وبين أسناني قطعتُ جزءاً منها مضغتُه دون أنْ أحسَّ له طعماً ولا رائحة...

اتَّسعتْ الابتسامة على وجه الصغيرة وسألتني:

«لذيذة؟».

قلتُ بسرعة:

«نعم...».

ابتسمتْ رغد برضا... وكأنها حقَّقتْ إنجازا عظيماً...

ثمَّ واصلتْ التهام قرص البيتزا وطلبتْ مني مشاركتها ففعلتُ مُستسلماً... وأنا في حيرة ما مثلها حيرة مِنْ أمر هذه الصغيرة...

كم بدا القرص كبيراً... لا ينتهي...

كنتُ أراقب كل حركةٍ تصدر عن صغيرتي... الرعشة في يديها اختفت... الارتخاء على وجهها بان... الاحمرار على وجنتيها تفاقم... والأنفاس مِنْ أنفها انتظمتْ...

وأخيرا فرغتْ العلبة... لقد التهمنا القرص عن آخرها لكن... لمْ أشعر بأنني أكلتُ شيئاً...

في هذه اللحظة أقبلتْ أروى ووقفتْ عند الباب مخاطبةً إيَّاي:

«... هاتف مكتبكَ وليد... رنَّ مراراً...».

نقلتُ بصري بين أروى ورغد... الفتاتان حدَّقتا ببعضهما البعض... ثمَّ مدَّتْ رغد يديها وأمسكتْ بذراعي كأنها تطلب الأمان...

كان الذعر جلياً على وجهها ما أثار فوق جنوني الحالي... ألف جنونٍ وجنون...

«رغد!!».

رغد كانتْ تنظر إلى أروى مذعورةً... لا أعرف ما حصل بينهما. قلتُ مخاطباً أروى:

«انصرفي الآن يا أروى رجاءً».

رمقتْني أروى بنظرة استهجان قوية... ثمّ غادرتْ. التفتُّ إلى رغد وسألتُها والقلق يكاد يقتلني:

«ماذا حلَّ بكِ يا رغد؟ أجيبيني؟؟ هل فعلتْ بكِ أروى شيئاً؟؟».

رغد أطلقتْ كلماتها المبعثرة بانفعال ممزوج بالذعر:

«لا أريد أنْ أراها... أبعِدها عنّي... أنا أكرهها... ألا تفهم ذلك؟؟... أبعدها عنّي... نهائياً».

لنْ يفلح أي وصفٍ لإيصال شعوري آنذاك إليكم... مهما كان دقيقاً. أخذتُ أطبطب عليها أحاول تهدئتها وأنا المحتاج لمَنْ يهدِّئني...

«حسنا رغد... يكفي... اهدئي... لا تضطربي هكذا... اسم الله يحفظكِ...».

بعد أنْ هدأتْ واستقرتْ حالتها العجيبة تلك... لمْ أجرؤ على سؤالها عن أيِّ شيء... طلبتُ منها أنْ تسترخي في فراشها لبعض الوقت وسرعان ما اضطجعتْ وغطّتْ وجهها بالبطانية... ليس لشيء إلا.. لأنّها أرادتْ أنْ تبكي بعيداً عنْ مرآي...

كنتُ أسمع صوت البكاء المكتوم... ولو دفنتِه يا رغد تحت ألف طبقةٍ مِنَ الجبال... كنتُ سأسمعه!

لكنني لمْ أشأ أنْ أحرجها... وأردتُ التسلُّل خارجاً مِنَ الغرفة...

وقفتُ وأنا أزيح المقعد بعيداً عنها بهدوء... وسرتُ بخفّة نحو الباب. وفيما أنا على وشك الخروج إذا بي أسمعها تقول مِنْ تحت البطانية:

«وليد... أرجوكَ... لا تخبرها... عمّا حصل معي في الماضي... أرجوكَ».

تسمَّرتُ في موضعي إثر سماعي لها... استدرتُ نحوها فرأيتُها لا تزال مختبئةً تحت البطانية... هروباً مِنْ مرآي...

بقيتُ واقفاً كشجرةٍ قديمة فقدتْ كل أوراقها الصفراء الجافّة في مهبِّ رياح الخريف...

لكن المياه سرعان ما جرتْ في جذوري... دماءً حمراء مشتعلة تدفّقتْ مسرعةً نحو رأسي وتفجّرتْ كبركانٍ شيطاني... مِنْ عينيَّ...

تباً لكِ يا أروى...!!

خرجتُ مِنْ غرفة رغد غاضباً متهيّجاً وبحثتُ عن أروى ووجدتُها في الردهة قرب السلّم... ما أنْ رأتْني حتّى وقفتْ وأمارات القلق على وجهها صارخة...

قالتْ مباشرة:

«كيف هي؟».

وقبل أنْ تسترد نفسها مِنَ الكلام انفجرتُ في وجهها كالقنبلة:

«ماذا فعلتِ بها؟».

الوجوم والدهشة عليا تعبيراتها وقالتْ مضطربة:

«أنا!!؟؟».

قلتُ بصوتٍ قوي مخيف:

«نعم أنتِ... ما الذي فعلتِه بها؟؟ أخبريني؟».

أروى لا تزال مأخوذة بالدهشة تنمُّ تعبيرات وجهها عن السذاجة أو التظاهر بالسذاجة... وهو أمرٌ أطلق المدافع في رأسي غضباً... فزمجرتُ:

«تكلَّمي يا أروى ما الذي كنتِ تفعلينه في غرفتها؟؟ ماذا قلتِ لها تكلَّمي».

أروى توتَّرتْ وقالتْ مستهجنة:

«وما الذي سأفعله بها؟؟ لمْ أفعل شيئاً... ذهبتُ لأسألها عن شيء... إنها هيَ مَنْ كان غير طبيعي... بدتْ وكأنها ترى كابوساً أو فلماً مرعباً... ثمَّ أخذتْ تصرخ. لا علاقة لي بالأمر».

قلتُ بغضب:

«عن أي شيءٍ سألتِها؟».

ظهر التردُّد على أروى فأعدتُ سؤالي ولكن بلكنة مهدِّدة:

«عن أي شيءٍ سألتِها يا أروى تكلَّمي؟؟ اخبرني بالتفصيل... ماذا قلتِ لها وجعلتِها تضطرب بهذا الشكل؟؟ عمَّ سألتِها أخبريني؟».

«وليد!».

هتفتُ بعنف:

«تكلَّمي!».

شيءٌ منْ الذعر ارتسم على وجه أروى... مِنْ جراء صراخي. أجابتْ متلعثمة:

«فقط... ســ... سألتُها عن... سبب قتلكَ عمَّار... وإخفائِكَ الحقيقة عنّي... وعنْ... علاقتها هي بالأمر...».

انطلقتْ الشياطين مِنْ بركان رأسي... كنتُ في حالة غضب شديد... لمْ أستطع كتمانه أو التغلُّب عليه...

صرختُ في وجه أروى بعنف:

«أهذا كل شيء؟».

أجابتْ أروى مذعورة:

«نعم... لا تصرخ بوجهي...».

لكنني خطوتُ نحوها... ومددتُ يدي وأمسكتُ بذراعها بقوة وضججتُ صوتي:

«ولماذا فعلتِ ذلك؟ ألمْ أحذِّركِ مِنْ هذا؟ ألمْ أطلب منكِ ألا تتحدَّثي معها؟ لماذا فعلتِ هذا يا أروى لماذا؟».

أطلقتْ أروى صيحة ألم... وحاولتْ تحرير ذراعها منّي... لكنني ضغطتُ بشدَّة أكبر وأكبر... وهتفتُ بوجهها منفعلاً:

«كيف تجرَّأتِ على مخالفتي؟؟ انظري ماذا فعلتِ بالصغيرة... إنها مريضة... ألَمْ أُطلِعكِ على ذلك؟؟ إنْ أصابها شيءٌ... فستدفعين الثمن غالياً».

صاحتْ أروى:

«اتركني يا وليد... أنتَ تؤلمني...».

«لن أكتفي بالألم... إنْ حلَّ بالصغيرة شيءٌ بسببكِ يا أروى... أنا لا أسمح لأحدٍ بإيذائها بأيِّ شكل... كائناً مَنْ كان... ولا أسامح مَنْ يسبِّب لها الأذى أبداً يا أروى... أتسمعين؟؟ إلاَّ صغيرتي يا أروى... إلا رغد... لا أسامح فيها مسَّ شعرة... أبداً يا أروى أبداً هل فهمتِ؟؟».

وأفلتُّ ذراعها بعنف مبعداً إياها عنّي...

الحلقة الواحدة والأربعون

الحادث

- أروى -

لا يمكنْ أنْ يكون هذا هو الرجل الذي ارتبطتُ به! مستحيل أنَّه هو وليد ذاته... الرجل الطيِّب الخلوق المهذَّب... اللطيف الهادئ... الصبور الحليم... ينقضُّ على ذراعي بهذه الوحشيَّة ويصرخ في وجهي بهذه القسوة؟؟

ولأجل ماذا؟؟

لا أعرف! ما هو الذنب الخطير الذي ارتكبتُه وجعلتُه يثور لهذا الحدّ؟؟

فقط لأنني سألتُ مدلَّلته الغالية عن سبب قتله لعمار؟؟

ألا يجعلني تصرُّفه أصرُّ أكثر وأكثر على معرفة السبب؟ إذا كان خطيراً لهذا الحد... للحدِّ الذي يوشك معه أنْ يقطع ذراعي ويحرق وجهي بنار صراخه... فهل أُلامُ إنْ ألححتُ على معرفة الحقيقة؟؟

مضتْ بضع ساعات والهدوء يخيّم على المنزل رغم الشحنات المتصادمة التي تنبعث منْ رؤوسنا. وكنتُ قد لمحتُ وليد يدخل غرفة مكتبه الخاص، ولمْ أره بعد ذلك... أمَّا المدلَّلة العزيزة فهي لمْ تغادر غرفة نومها على الأرجح، ولمْ نجرؤ لا أنا ولا والدتي على الاقتراب منها، وإن كانتْ والدتي تردَّد بين الفينة والأخرى:

«ألا يجب أنْ نطمئنَّ على رغد؟؟».

استدرتُ إلى أمي بحنق وقلتُ:

«لا تقلقي يا أمِّي... إنها بخير... لا شيء يصيب تلك المدلَّلة... إنها فقط تمثِّل دور المتعبة حتَّى تسرق اهتمام وليد».

وعضضتُ على شفتيَّ غيظاً. أمّا والدتي فلمْ تعجبها النبرة غير المعتادة في صوتي وكلامي وقالتْ:

«لا يا أروى هداكِ الله... لا يجب أنْ يصدر منكِ أنتِ العاقلة الناضجة كلامٌ كهذا... كما أنَّكِ قلتِ بنفسكِ أنَّها أُصيبتْ بالإغماء لبعض الوقت...».

رددتُ غاضبة:

«تمثيل!».

والدتي هزَّتْ رأسها استنكاراً... فقلتُ منفعلة:

«نعم تمثيل يا أمِّي. ما عدتُ أصدِّق شيئاً ممَّا حولي. إنها تؤدِّي دورها بشكلٍ مُذهل.

ليستْ أوّل مرّة. تتظاهر بالانهيار وتستميتُ في البكاء حتى يسرع وليد إليها. تريد الاستحواذ على اهتمامه والسيطرة عليه. إنها تحبُّه يا أمِّي. ألا تفهمين معنى ذلك؟؟ تحبُّ خطيبي وتريد سرقته منِّي!».

ولحظتها لمْ أتمالك نفسي وأخذتُ أبكي. فأقبلتْ أُمِّي وضمَّتْني إلى صدرها الحنون وأخذتْ تربِّتُ عليَّ وتواسيني.

وأنا في حضن أمّي لمحتُ كيس المجوهرات الذي جلبتْه رغد إليَّ تلك الليلة تريد دفع ما فيه تعويضاً عما صرفته منْ الأموال، والذي وضعناه كما هو على منضدةٍ مجاورة لإعادته إليها لاحقا. ولا أدري لِمَ تذكَّرتُ حينها يوم مررنا منْ منزل عائلة وليد المحروق وأخذتْ رغد تجمع التذكارات منه، ومنْ بينها هذه المجوهرات، وكيف كانتْ تضمُّها إلى صدرها بحرقة وتبكي بألم. أذكر أنها آنذاك كانتْ منهارةً جداً ووسط الدموع التفتَتْ إلى وليد وطلبتْ مِنْه أنْ يضمَّها!

ضغطتُ ذراعيَّ حول أمِّي وأنا أتذكَّر كيف ارتمتْ في حضنه هذا الصباح وكأنَّ صدر وليد شيءٌ يخصُّها هي ويمكنها الاستلقاء عليه كلَّما شاءتْ!

إنّه لمْ يحضنني بطريقة مشابهة، أنا خطيبته.

في وقتٍ لاحق منْ ذلك اليوم المزعج كنتُ مع أمِّي نشاهد التلفاز علَّ الوقت يمضي والجو يتلطَّف. ولأنَّ وليد لمْ يظهر مِنْذ الصباح فقد شعرتُ بالقلق. تركتُ والدتي في الغرفة وذهبتُ أتفقَّده. كنتُ قد رأيتُه آخر مرَّة وهو يلج غرفة مكتبه. أمعقولٌ أنَّه لا يزال هناك؟؟

توجَّهتُ إلى غرفة المكتب وطرقتُ الباب بهدوء ولمْ أسمع رداً. فتحتُ الباب بهدوء وأطللتُ برأسي على الداخل. وجدتُ وليد نائماً على أحد المقاعد. ناديتُ ولكن بهدوء:

«وليد!».

ولمْ يسمعني، لذا غادرتُ الغرفة وسرتُ عائدةً إلى أمِّي. هناك وجدتُ رغد! كانتْ واقفةً قرب الباب ويبدو أنها كانتْ على وشك الانصراف. التقتْ نظراتنا فأشاحتْ بوجهها عنّي.

تذكَّرتُ صورتها وهي تشير بنظراتها إليَّ وتقول لوليد: («أبعدها عنّي») بينما كانتْ متربِّعةً في حضنه بكل جرأة، فأحسستُ بالغيظ. عندما همّتْ بالخروج استوقفتُها:

«انتظري».

التفتتْ إليَّ ببرود وقالتْ:

«نعم؟».

قلتُ وأنا أشير إلى كيس المجوهرات الموضوع على المنضدة:

«إنْ كنتِ تبحثين عن هذا فها هو هنا. خذيه».

رغد نظرتْ إلى الكيس ثمَّ إليَّ وردتْ:

«لا. لمْ أتِ منْ أجل هذا. يمكنكِ الاحتفاظ به».

«لماذا أنتِ هنا إذن؟».

أمّي أومأتْ لي بأنْ أسحب سؤالي، لكنّي أكّدتُ نظرات الاستجواب على عينَي رغد منتظرةً ردّها. رغد خطتْ خطوة مُبتعِدةً لكنني قلتُ:

«لمْ تُجيبي على سؤالي؟».

وبدا أنّ الجملة قد استفزّتْها فقالتْ:

«وهل عليَّ أنْ استأذنكِ للتجوّل في منزلي؟».

أجبتُ منفعلة ومطلقة العنان لغيظي:

«لا! إنّه منزل وليد... زوجي... على أيّة حال... وواقعاً لا تملكين فيه غير هذا الكيس!».

وأشرتُ إلى كيس المجوهرات ذاك. أمّي هتفتْ رادعةً بغضب:

«أروى! ما هذا الكلام؟».

قلتُ مباشرة:

«الحقيقة التي يجب أنْ تدركها هذه».

رغد كانتْ تنظر نحوي بدهشة، فهي لمْ تكن للتوقع منّي كلاماً كهذا، بل إنني نفسي لمْ أكن لأتوقعه!

لطالما كنتُ طيبةً ومتساهلةً معها وتحمّلتُ الكثير منْ سوء معاملتها لي... منْ أجل وليد. وأنا متأكّدة أنّها جاءتْ إلى هنا بحثاً عنه!

متى تدرك هذه المراهقة أنّ وليد هو زوجي أنا؟؟

توجّهتُ لحظتها نحو كيس المجوهرات وجلبتُه إلى رغد وأنا أقول:

«إليكِ أشياؤك... لستُ بحاجة إليها ولديَّ أضعاف أضعافها... وما هو أهمُّ منها يا رغد».

نقلتْ رغد بصرها بيننا أنا وأمّي وتحوّل وجهها إلى اللون الأحمر. وجعلتْ عضلات فمها تتقوّس للأسفل... كانتْ على وشك البكاء!

وضعتُ الكيس قرب قدمها وأشحتُ بوجهي عنها منتظرةً انصرافها. سمعتُ صوت يدها تطبق على الكيس ثمّ رأيتُها تعبر فتحة الباب إلى الخارج، فدخلتُ إلى الداخل وصفعتُ بالباب بقوّة!

سمعتُ حينها صوت رغد تقول منْ خلف الباب:

«سأخبر وليد عن هذا».

قلتُ بغضب وتحدٍ:

«تجدينه في مكتبه... أسرعي!».

في الداخل استقبلتْني والدتي بنظرات غاضبة ووبّختْني. أدرك أنّ تصرُّفي كان سيئاً لكنني لمْ أتمالك نفسي بعد كل الذي حدث مؤخراً، وأصبحتْ لديَّ رغبةٌ مفاجئة في إزاحة رغد عن طريقي.

أمّي أرادتْ اللحاق بها لتهدئة الموقف لكنني عارضتها وقلتُ:

«لا تقلقي على المدلّلة... سيتكفّل وليد بذلك!».

- رغد -

حملتُ كيس المجوهرات وتوجّهتُ إلى غرفة مكتب وليد.

كنتُ قد بحثتُ عنه في أرجاء مختلفة منْ المنزل ولمْ أره. وذهبتُ لأجل سؤال السيدة ليندا عنه حين فاجأتني أروى بموقفها الجديد هذا.

حسنا!

تباً لكِ يا أروى... سترين!

طرقتُ الباب ولمْ ألقَ جواباً، ففتحتُه ودخلتُ الغرفة. الوقت آنذاك كان وقت غروب الشمس... الغرفة كانتْ تسبح في السواد إلا عن بصيصٍ بسيط يتسلّل عبر فتحة صغيرة بين ستائر إحدى النوافذ...

البصيص كان يشقُّ طريقه عبر فراغ الغرفة ويقع رأساً على جسمٍ مغناطيسي... طويل... عريض... ضخم... محشور فوق أحد المقاعد!

متأكّدة أنّ البصيص اختار الانجذاب طوعاً إليه هو... دوناً عن بقية الأجسام... الطويلة العريضة الضخمة... التي تفرض وجودها بكل ثقة في أرجاء هذه الغرفة!

لا أعرف ما الذي دهاني!؟

كنتُ قادمة بمشاعر غاضبة تريد أنْ تنفجر... وفجأة تحوّلتْ مشاعري إلى نَهر دافئ ينجرف طوعاً نحو وليد!

أغلقتُ الباب وعلى هدى النور الخافت سرتُ نحو وليد أحمل الكيس بحذر. وقفتُ قربه وأنا أشعر بأنه أقرب إليَّ منْ الهواء الذي يلامسني، ومِنَ المشاعر التي تختلج صدري...

وضعتُ الكيس جانباً فأصدر صوتاً... لكن وليد لمْ ينتبه له. يبدو أنه نائمٌ بعمق! ولكن لماذا ينام هنا وبهذا الشكل المتعب وفي مثل هذا الوقت؟

كنتُ على وشك أنْ أهتف باسمه إلا أنّ هتافاً أقوى وأعظم تسلّل عبر زجاج نوافذ الغرفة أو جدرانها وملأ داخلها إصغاءً وخشوعاً.

(الله أكبر الله أكبر).

لمْ ينتبه وليد لصوت الأذان...

توجّهتُ نحو تلك النافذة... وأزحتُ الستائر وفتحتُها بهدوء... فاندفع صدى الأذان أقوى وأخشع نحو الداخل... وانتشر النور الباهت في الغرفة...

النافذة تطلُّ على الفناء الخلفي للمنزل، والذي كانتْ تستعمره حديقةٌ جميلة في الماضي... تحوّلتْ إلى صحراء قاحلة خالية إلا مِنْ بعض قطع الأثاث والسجاد القديمة التي ركناها هناك عند مجيئنا للمنزل...

أمّا السماء فقد كانتْ تودّع خيوط الشمس الراحلة... والتي لمْ تشأ الرحيل قبل أنْ ترسل بصيصها الأخير... إلى وليد!

انتهى الأذان ووليد لمْ يسمعه... ولمْ يشعر بحركة شيءٍ مِنْ حوله! قررتُ أخيراً أنْ أوقظه! ناديتُه بضع مرّات وبصوتٍ يعلو مرّة تلو الأخرى إلى أنْ سمعني واستيقظ أخيراً!

فتح وليد عينيه وهو ينظر نحو النافذة مباشرة! قلتُ:

«صحوة حميدة!».

وليد مغط ذراعيه وتثاءب ثمّ قال:

«مَنْ؟ أهذهِ أنتِ رغد؟؟».

«نعم».

وليد أخذ يدلّك عنقه قليلاً... ربّما يشعر بألمٍ بسبب نومه على المقعد! لا أعرف لِمْ يحب وليد النوم على المقاعد؟؟

قلتُ:

«لماذا تنام هنا وليد؟؟».

أسند وليد رأسه إلى مسند المقعد لبرهة ثمّ أخذ ينظر إلى ساعة يده:

«كم الساعة الآن؟؟».

«تقريباً السادسة! رُفِعَ أذان المغرب قبل قليل فأردتُ إيقاظك!».

قال وليد:

«آه... هل نمتُ كل هذا!؟ إنني هنا منذ الظهيرة».

ابتسمتُ وقلتُ:

«نوم العافية!».

وليد فجأة نظر نحوي... ثمّ أخذ يتلفتْ يميناً وشمالاً... ثمّ نهض واقفاً وهو ينظر نحوي وقال:

«رغد؟؟! ماذا تفعلين هنا؟؟».

وكأنه انتبه للتو أنني موجودة! وكأنه استيقظ الآن فقط مِنَ النوم!

قلتُ باستغراب:

«أتيتُ لإيقاظك! وقت الصلاة».

«والنافذة؟».

قلتُ:

«كنتُ أستمع إلى الأذان... وأراقب السماء!».

وليد حكّ شعر رأسه ثمّ سار باتجاهي... حتى صار عند الطرف الآخر مِنَ النافذة ثمّ قال:

«ولكن أين المطر».

استغربتُ وسألتُ:

«المطر؟ أي مطر؟؟».

قال:

«ألمْ تقولي أنكِ كنتِ تراقبين المطر؟».

«أبداً! قلتُ أنني كنتُ استمع إلى الأذان وأراقب السماء! أي مطر هذا ونحن في قلب الصيف!».

قال وليد:

«لمْ أسمع جيداً».

قلتُ وأنا أبتسم:

«يبدو أنك لا تزال نائماً!».

ابتسم وليد وألقى نظرةً على السماء ومجموعة مِنَ العصافير تطير عائدةً إلى أعشاشها. التفت إليَّ بعدها وسأل:

«صحيح رغد... كيف أنتِ الآن؟».

وتذكّرتُ لحظتها الدوخة الذي داهمتي صباحاً بسبب الجوع... وكيف أنّه أغشي عليَّ بضع دقائق... وانهرتُ بين ذراعي وليد!

وشعرتُ بطعم السكّر في فمي... فازدرتُ ريقي وأنا أطأطئ رأسي خجلاً وأهمس:

«بخير...».

وليد قال:

«جيّد! وهل تناولتِ وجبة بعد البيتزا؟».

«لا».

«سيِّء! لماذا رغد؟ أنتِ صغيرة ونحيلة ولا تتحملين الجوع لوقتٍ طويل... تكرَّر هذا معنا في البر... أتذكرين؟».

رفعتُ بصري إليه وابتسمتُ. طبعاً أذكر! مَنْ ينسى يوماً كذلك اليوم؟؟ ونحن حفاةٌ جياعٌ عطشى مرعوبون وهائمون في البر؟؟

ولكن لحظة! هل أنا صغيرة لهذا الحد؟؟

قلتُ:

«لا تقلق... متى ما شعرتُ بالجوع سأحضّر لي بعض البطاطا المقلية».

ابتسم وليد وقال:

«طبقكِ المفضّل!».

اتسعتْ ابتسامتي تأييدا وأضفتُ:

«والوحيد! فأنا لا أجيد صنع شيءٍ آخر!».

ضحك وليد... ضحكةً عفوية رائعة... أطربتْ قلبي... فكدتُ أنفجر ضحكاً مِنَ السعادة لولا أنني كتمتُ أنفاسي خجلاً منه!

في ذات اللحظة، انفتح باب الغرفة... التفتنا نحن الاثنان نحو الباب... فوجدنا أروى تطلُّ علينا.

ولأنَّ الإضاءة كانتْ خافتةً جداً... يصعب عليَّ كشف تعبيرات وجهها... لمْ تتحدّث أروى بادئ الأمر، كما ألجم الصمت لسانينا أنا ووليد... بعدها قالتْ:

«استيقظتَ؟ جيّد إذن... كنتُ سأوقظكَ لتأدية الصلاة».

وليد قال وهو يسير نحو الباب مقترباً منها ومبتعداً عنّي:

«نعم أروى... نهضتُ لتوّي».

وصل وليد إلى مكابس مصابيح الغرفة، فأضاءها. الإنارة القوية ضيّقتْ بؤبؤي عينيّ المركزين على أروى، للحد الذي كادا معه أنْ يخنقاها!

كانتْ أروى تنظر نحوي، ثمّ نقلتْ نظرها إلى وليد. سمعتُ وليد والذي صار قربها يهمس بشيءٍ لمْ تترجمه أذناي... ثمّ رأيتُ أروى تشيح بوجهها وتغادر الغرفة.

وليد وقف على وضعه لثوان... ثمّ استدار وهو يتنهّد وقال أخيراً:

«سأذهب إلى المسجد... هل تريدين شيئاً أحضره؟».

قلتُ وأنا مشغولة البال بفك رموز همسة وليد السابقة:

«كلا... شكراً».

وغادر وليد الغرفة. أغلقتُ النافذة وسرتُ خارجةً مِنَ الغرفة وفي رأسي شاغلٌ جديد أنساني أخذ كيس مجوهراتي الذي تركتُه في غرفة المكتب حتى آخر الليل.

- وليد -

والآن... الغاضبة هي أروى وهذا دورها!

ربّاه! هل أنتهي مِنْ إحداهما لأبدأ مع الأخرى؟؟

إنَّ أعصابي ما كادتْ تستفيق مِنْ صدمة الصباح، وها هي على وشك الاحتراق بحادثة أخرى... كنتُ أودُّ تلطيف الأجواء... والاسترخاء في هواءٍ طلقٍ يزيح عنّي شحنات الصباح القوية... ويطمئنني أكثر إلى أنَّ رغد بخير...

اقترحتُ في تلك الليلة أنْ نخرج في نزهةٍ ونتناول عشاءنا في أحد المطاعم. رغد وافقتْ والخالة ليندا رحّبتْ بالفكرة غير أنَّ أروى ردّتْ بـ:

«اذهب أنتَ وابنة عمّك المدلّلة... واستمتعا بوقتكما... أنا وأمّي سنبقى ها هنا».

كنتُ ساعتها مع أروى في غرفتها وقد قدمتُ للتو لأعرض عليها الفكرة... ولمّا سمعتُ ردّها حزنتُ وقلتُ:

«لِمَ يا أروى؟ والدتكِ كذلك رحّبتْ بالفكرة وبادرتْ بالاستعداد للنزهة».

أبعدتْ أروى نظرها عنّي هروباً مِنْ سؤالي... لكنني واصلتُ:

«هيا يا أروى! دعينا نروّح عن أنفسنا! الأجواء خانقةٌ هنا!».

اعني بذلك المشكلة الأخيرة بيننا أنا ورغد وأروى. نظرتْ أروى إليّ وقالتْ:

«كلاّ وشكراً... لا أريد الذهاب معكم».

صمتُ ثوان ثمَّ قلتُ:

«أما زلتِ غاضبةً منِّي؟؟».

لمْ تجب أروى، بمعنى أنها تؤيِّد هذا... قلتُ:

«ولِمَ كل هذا؟».

قالتْ بعصبية:

«أنتَ تعرف السبب... فلِمَ تسأل؟».

وبدا وكأنها تنتظر الشرارة لتشعل الحريق! لمْ أكن أريد أنْ نبدأ الجدال مِنْ جديد بل على العكس... أردتُ أنْ نجدد الأجواء ونرخي أعصابنا المشدودة منذ يومين...

«ليس بالوقت المناسب لإعادة فتح الموضوع مِنْ جديد يا أروى!».

ردّتْ أروى بعصبية أكبر:

«ومَنْ قال أنني أغلقتُه أصلاً؟؟ سيبقى معلَّقاً إلى أنْ تخبرني بكل الحقائق التي تخفيها عنّي».

كنتُ أقف عند الباب ولما اشتدَّ صوت أروى خشيتُ أنْ يتسرَّب إلى آذان أخرى. دخلتُ الغرفة وأغلقتُ الباب واقتربتُ منها وقلتُ برجاء:

«لا نريد أنْ نثير شجاراً الآن... أرجوكِ يا أروى... لا أستطيع إيضاح المزيد... ولنْ أفعل ذلك مستقبلاً فلا تعاودي الضغط عليَّ».

ردّتْ أروى مباشرة:

«إلى هذا الحد؟؟».

قلتُ مؤكداً:

«نعم. إلى هذا الحد».

ضيّقتْ أروى فتحتَي عينيها وقالتْ:

«ورغد؟؟».

لمْ تقلها ببساطة... كانتْ تحدّق في عينيّ بحدة ثاقبة... كأنها تتوقَّع رؤية الحقائق تختبئ خلف بؤبؤيهما. بدّلتُ تعبيرات وجهي إلى الجديَّة والتحذير وقلتُ:

«إيَّاكِ أنْ تقتربي منها ثانيةً! يكفي ما حصل هذا الصباح... إياكِ يا أروى».

أروى تأمَّلتْ تعبيراتي برهة ثمَّ أشاحتْ بوجهها وهي تقول:

«اذهب... قبل أنْ يتأخَّر الوقت».

«... وهل ستبقين بمفردكِ؟».

استدارتْ أروى وقالتْ بلهجة أقرب للسخرية:

«لا تقلقْ بشأني! فأنا لا أخاف البقاء منفردةً وليستْ لدي عقدةٌ مِنَ الوحدة!».

آنذاك... لمْ أشأ أنْ أطيل النقاش حرفاً زائداً... وغادرتُ غرفتها وذهبتُ إلى غرفة المعيشة الرئيسية حيث كانتْ رغد والخالة ليندا تجلسان...

قلتُ:

«هيا بنا».

الخالة ليندا سألتْ:

«أين أروى؟».

«لا تريد الذهاب».

تمتمتْ الخالة بعبارات الاحتجاج ثمّ قالتْ أخيراً:

«إذن... اذهبا أنتما فأنا لنْ أتركها وحدها».

نهاية الأمر التفتُ إلى الصغيرة وسألتُ:

«إذن... أتذهبين؟».

ولعلّي لنْ أفلح في وصف التعبيرات التي كانتْ تملأ وجهها وهي تجيبُ:

«نعم! بالتأكيد».

- رغد -

«نعم بالتأكيد!».

وهل أضيّع فرصةً رائعة كهذه؟؟

أنا ووليد نخرج في نزهة ليلية! نتجوّل في شوارع المدينة... نتناول الطعام مِنْ أحد المطاعم... ونحلّي بكرات البوظة! تماماً كما كنا نفعل في الماضي! يـــاه! ما أسعدني!

وتحقّق الحلم الذي كان أبعد مِنَ الخيال! وقضينا نحو ثلاث ساعات في نزهةٍ رائعة أنا ووليد قلبي فقط وفقط!

أوقف وليد سيارته عند الموقف الجانبي لأحد الجسور المؤدّية إلى جزيرة اصطناعية ترفيهية صغيرة يرتادها الناس للتنزُه... ووقفنا أنا وهو على الجسر... عند السياج نتأمّل الجزيرة ونراقب أمواج البحر ونتنفّس عبقه المنعش... ومِنْ حولنا الناس يستمتعون بالأجواء الرائعة...

«منظرٌ مُدهش وليد! ليتنا أحضرنا معنا آلة تصوير!».

وليد ابتسم، وأخرج هاتفه المحمول مِنْ جيبه واستخدم الكاميرا التابعة له والتقط بعض الصور... ثمّ دفعه لي كي أتفرّج عليها!

«عظيم! ليتَني اقتني هاتفاً ذا كاميرا كهذا!».

كرّر وليد ابتسامته وقال:

«بكل سرور! أبقِه معكِ لتصوّري ما تودّين! مع أنّ الظلام لنْ يسمح بالكثير».

ومع ذلك التقطتُ بعض الصور الأخرى، والأهم... صورة مختلسة لوليد التقطتُها بحذر دون أنْ يدري... وقد أبقيتُ الهاتف معي طوال النزهة لئلاً يراها!

وراودتني فكرة أنْ أنقلها إلى الحاسوب، ثمّ أقوم بطباعتها ومِنْ ثمّ أرسمها بيدي... وأعيد إلى مجموعة لوحاتي صورةً جديدة لوليد قلبي... عوضاً عن تلك التي احترقتْ في منزلنا

المنكوب...

آه! كم أنا سعيدة!

ولأنني كنتُ في غمرة لا توصف مِنَ البهجة فقد تخلَّيتُ عن جزءٍ مِنْ حذري ورحتُ أراقب وليد بلهفة وتمعُّن وأرصد تحركاته وتعبيرات وجهه بدقَّة منقطعة النظير...

أتمنى فقط ألاّ يلحظ هو ذلك!

ونحن عند الجسر... وفيما أنا منغمسة في مراقبته... مرَّتْ لحظة أغمض وليد فيها عينيه وأخذ يتنفس بعمق... ويزفر الهواء مصحوباً بتنهيدات حزينة مِنْ صدره... كرَّر ذلك مراراً وكأنه يريد أنْ يغسل صدره مِنَ الهواء الراكد الكئيب فيه!

شعرتُ ببعض القلق فسألتُ:

«ما بكَ وليد؟».

التفتَ إليَّ وهو يفتح عينيه ويبتسم ويجيب:

«لا شيء! أريد أنْ أملأ رئتيَّ مِنْ هذا النقاء! جميل جداً... كيف تفوِّتُ أروى والخالة شيئاً كهذا؟».

إذن... ربّما كان يفكِّر في أروى!

خذلتْني جملته بعض الشيء... ففيما أنا مكرِّسةٌ نظري وفكري فيه... يشتغل باله بالتفكير بها هي؟؟

مرَّتْ بذاكرتي صورة أروى وهي تشيح بوجهها عن وليد وتخرج مِنْ غرفة مكتبه هذا اليوم... عند المغرب...

بدتْ غاضبة... وبدا وليد حينها منزعجاً... وكأنَّ بينهما خصامٌ ما...

الفضول تملّكني هذه اللحظة وقد تكون الغيرة هي الدافع، فسألتُ:

«لماذا رفضتْ المجيء معنا؟؟ هل... هل هي غاضبة؟».

وليد نقل بصره إلى البحر... وقال بعد قليل:

«نعم... منِّي».

لستُ شريرة ولا خبيثة! لكن... يا إلهي أشعر بسرور غير لائق! لمْ أستطع كتمه وقلتُ باندفاع فاضح:

«هل أنتما متخاصمان؟؟».

التفتَ إليَّ وليد مستغرباً! لقد كان صوتي وكذلك تعبيرات وجهي تنمُّ عن البهجة! شعرتُ بالخجل مِنْ نفسي فطأطأتُ رأسي نحو الأرض فيما تصاعدتْ الدماء إلى وجنتيَّ!

لمْ أسمع رداً مِنْ وليد... فرفعتُ بصري اختلس النظر إليه... فوجدتُه وقد سبحتْ عيناه في البحر بعيداً عنّي...

ثمَّ سمعتُه يقول:

«تريد العودة إلى لمزرعة».

اندهشتُ... وأصغيتُ باهتمام مكثَّف... وليد تابع:

«مصرَّة على ذلك وقد فشلتُ في ثنيها عن الأمر... اضطررتُ لشراء التذاكر وموعد السفر يوم الأحد».

ماذا! عجباً!

قلتُ:

«أحقاً؟ ستتركها تذهب؟؟».

وليد أجاب وهو لا يزال ينظر إلى البحر:

«والخالة كذلك...».

قلتُ مباشرة:

«وأنتَ؟؟ وأنا؟».

التفتَ وليد إليَّ وكأن هذه الجملة هي أكثر ما يثير اهتمامه! ركَّز النظر في عينيّ لحظة ثمَّ قال:

«سنرافقهما طبعاً».

صمتُّ وعلامات التعجب تدور فوق رأسي!!! قلتُ بعدها:

«نعود للمزرعة! كلا! والجامعة؟ والدراسة؟؟».

وليد تنهد ثمَّ قال:

«سنرافقهما إلى المزرعة ثمَّ نعود... مساء الثلاثاء».

بدأ قلبي يدق بسرعة... (نعود) يقصد بها... أنا وهو؟؟ أمْ ماذا؟؟

خرجتْ الحروف مرتجفةً على لساني:

«أأأ... نـ... عود أنا وأنتَ؟».

وليد قال:

«نعم».

عدتُ أسأل لأتأكد:

«و... أروى وأمُّها... تظلان في... المزرعة؟؟».

«نعم! إلى أنْ تهدأ الأوضاع».

أتسمعون؟؟

أنا ووليد وحدنا... ولا شقراء بيننا!

مدهش! يا لسعادتي! تخلّصتُ منها أخيراً

أكاد أطير مِنَ الفرح! بل إنني طرتُ فعلاً! أنا أحلّق في السماء... انظروا!

تعبيرات وجهي بالتأكيد كانتْ صارخة... ولو لمْ أمسِك نفسي آنذاك لانفجرتُ ضحكاً...

لكن وليد مع ذلك سألني وبشكلٍ متردِّد:

«ما رأيكِ؟».

آه يا وليد أَوَ تسأل عن رأيي؟

ألا تدرك أنَّه حلم حياتي... يتحقَّق أخيراً؟؟

وداعاً أيتها الشقراء!

ولئلا أفضح فرحي بهذا الشكل طأطأتُ رأسي وخبأتُ نظري تحت حذاء وليد!

وقلتُ مُفتعِلة التماسك:

«لا أعرف... كما ترى أنتَ».

«هل تقبلين بهذا كحلٍ مؤقَّت طارئ... حتَّى نجد الحل الأنسب؟».

قلتُ وأنا لا أزال أدَّعي التماسك وعدم الانفعال:

«لا بأس».

تحرَّكتْ قدم وليد باتجاه الجسر... رفعتُ عيني عنها إليه فوجدتُه وقد عاد يغوص بأنظاره في أعماق البحر... وسمعتُه يقول:

«سنمرُّ بسامر وأطلب منه العودة معنا...».

«سامر؟!».

«نعم. طلبتُ مِنه مراراً أنْ يأتي للعيش والعمل معنا هنا وقد تكون هذه فرصةً جيِّدةً لإقناعه».

سامر مِنْ جديد؟

لا أتخيَّل أنْ أعود للعيش معه تحت سقف بيتٍ واحد! لا أعرف بأيِّ طريقة سنتعامل... يكفي الحرج الذي عانيناه عندما اضطررتُ للمبيت في شقَّته أنا ووليد بعد حادث السيارة... أتذكرون؟؟

ورغم أني لمْ أحبِّذ الفكرة لمْ أشأ التعليق عليها... وعلى كلٍ لا أظنُّ سامر سيرحِّب بها هو بدوره...

وليد تابع:

«أمَّا الخادمة فسنجعلها تستمرُّ معنا وتباتُ في المنزل ونضاعف لها الراتب».

«يبدو أنَّكَ خطَّطتَ لكل شيء!».

استدار وليد إليَّ وقال:

«لمْ أنمْ الليلة الماضية مِنْ شدَّة التفكير! هذه الحلول المؤقَّتة حالياً... يمكننا تدبُّر بعض الأمور الأخرى بشكلٍ أو بآخر...».

«أأأأ... وماذا عن الطعام؟».

فأروى ووالدتها كانتا تتولَّيان أمر المطبخ وتعدَّان الوجبات الرئيسية... والأطباق الأخرى والتي كان وليد لا يستغني عنها ويمتدحها دائماً!

وليد ردَّ:

«لدينا المطاعم».

ابتسمتُ وقلتُ مداعبةً:

«يمكنكَ الاعتماد عليَّ! البطاطا المقلية يومياً كحلٍ طارئٍ مؤقّت!».

ابتسم وليد فأتممتُ:

«لكن لا تقلق! سأشتري كتاب الطهي وأتعلّم ابتداءً مِنَ الغد! سترى أنني ذكيّة جداً وأتطوّر بسرعة».

ضحك وليد ضحكة خفيفة كنتُ أريد أنْ أختم نزهتي الرائعة بها...

ومع خبرٍ مُذهِل كخبر سفر الشقراء أخيراً... أصبحتْ معنوياتي عاليةً جداً ودبَّ النشاط والحيوية في جسدي وذهني وألححتُ على نقل الصور مِنْ هاتف وليد إلى جهاز الحاسوب في مكتبه وتنسيقها في تلك الليلة... قبل أنْ يكتشِف صورته مِنْ بينها...

ورغم أنَّ الليل كان قد انتصف ولمْ يبقَ أمامي غير ساعات قليلة للنوم إلى موعد الكلية إلا أنني أنجزتُ الأمر وبدأتُ برسم أوّلي لوجه وليد بقلم الرصاص على بعض الأوراق...

الساعة تجاوزت الثانية عشرة والنصف، وأخيراً انتهيتُ!

كنتُ على وشك النهوض عندما رنَّ هاتف وليد والذي كان معي، موضوعاً على المكتب. ولكن هل يتّصِل أصحابُه به في ساعةٍ متأخِّرة؟؟ أتراه لا يزال مستيقظاً؟ اعتقد أنَّ الجميع قد خلدوا للنوم!

توقّف رنين الهاتف. حملتُ أوراقي وكيس مجوهراتي وهممتُ بالمغادرة، فإذا به يرنُّ ثانيةً ويستمرُّ رنينه بضع ثوانٍ ثمَّ يتوقّف...

أخذتُه معي، وواصلتُ طريقي نحو السلّم وفي نيّتي المرور بغرفة وليد وإعادة الهاتف إليه إنْ كان مستيقظاً، فقد يكون الاتصال هاماً.

وفيما أنا أصعد الدرجات عاد الهاتف للرنين للمرّة الثالثة. حثثتُ الخطى صعوداً لأوصله إلى وليد...

في منتصف الطريق رأيتُ جسماً يقف على الدرجات ينظر نحوي!

كانتْ أروى!

توقّفتُ ثوانٍ وألقيتُ عليها نظرةً لا مبالية وصعدتُ خطوةً جديدة...

وهنا سمعتُها تخاطبني:

«أليس هذا هاتف وليد؟».

نظرتُ إليها وأجبتُ:

«بلى».

«ولِمَ هو عندكِ؟».

رمقتها بنظرة تجاهلية وقلتُ:

«سأعيده إليه».

وصعدتُ خطوةً بعد...

كانتْ أروى تقفُ مباشرةً في طريق خطواتي... تنحَّيتُ للجانب لأواصل طريقي إلا أنَّها تنحَّتْ لتعترضني!

نظرتُ إليها ورأيتُها تمدُّ يدها إليَّ قائلةً:

«هاتيه... أنا سأعيده».

توقَّف الهاتف عن الرنين، يبدو أنَّ المتَّصل قد يئِس مِنَ الرد. أضافتْ أروى:

«وليد نائمٌ على أية حال... لكنه يستخدمه كمنبِّهٍ لصلاة الفجر... سأضعه قرب وسادته».

شعرتُ بالغيظ! يكفي أنْ ألقي نظرة على هذه الفراشة الملوَّنة حتى أفقد أعصابي!

قلتُ:

«سأفعل أنا ذلك، بما أنَّ غرفته في طريقي».

فجأة تحوّل لون الفراشة إلى الأحمر الدموي! أروى بيضاء جداً وحين تنفعل يتوهَّج وجهها احمراراً شديداً!

قالتْ بنبرة غاضبة:

«عفواً؟؟ تقصدين أنْ تتسلَّلي إلى غرفة زوجي وهو نائمٌ؟؟ مَنْ تظنين نفسكِ؟».

فوجئتُ مِنْ هذا السؤال الذي لمْ أكن لأتوقَّع صدوره مِنْ أروى! والمفاجأة ألجمتْ لساني... أروى قالتْ بانفعال:

«وليد هو زوجي أنا... يجب أنْ تدركي ذلكَ وتلزمي حدودكِ».

صُعقتُ... عمَّ تتحدَّث هذه الدخيلة؟؟

«مــ... ماذا تعنين؟؟».

هتفتْ أروى باندفاع:

«تعرفين ما أعني... أمْ تظنين أننا بهذا الغباء حتى لا ندرك معنى تصرُّفاتكِ؟؟».

ذهلتُ أكثر وكرَّرتُ:

«ما الذي تقصدينه؟؟».

وكأنَّ أروى قنبلةٌ موقوتةٌ انفجرتْ هذه اللحظة! رمتْ بهذه الكلمات القويَّة دون تردُّد ودون حساب!

«لا تدَّعي البراءة والسذاجة يا رغد! ما أبرعكِ مِنْ مُمثِّلة! أنتِ ماكرةٌ جداً... وتستغلِّين تعاطف وليد وشعوره بالمسؤولية تجاهكِ حتى تفعلين ما يحلو لكِ! دون خجل ولا حدود... لكن... كل شيءٍ أصبح مكشوفاً يا رغد... أنا أعرف ما الذي تخطِّطين له... تخطِّطين لسرقة زوجي منِّي! أليسَ كذلك؟؟ تستميلين عواطفه بطرقكِ الدنيئة! أنتِ خبيثةٌ يا رغد... وسأكشفُ نواياك السيِّئة لوليد ليعرف حقيقة مَنْ تكونين!».

ذُهِلتُ... وقفتُ كالورقة الصفراء، تعصف بي كلماتُ أروى... لا تكاد أذناي تصدِّقان ما تسمعان...

كنتُ أنظر إلى أروى بأوسع عينين مِنْ شدّة الذهول... عبستْ أروى بوجهها وضغطتْ

على أسنانها وهي تقول:

«كنتِ تمثلين دور المتُعبة هذا الصباح... ومثَّلتِ دور المريضة ليلة حفلتنا أنا ووليد... ودور المرعوبة ليلة سهرنا أنا ووليد... هنا وفي المزرعة وفي بيت خالتكِ وفي أي مكان... تمثِّلين أدوار المسكينة المغلوبة على أمرها لتجعلي عقل وليد يطير جنوناً خوفاً عليكِ! تدركين أنَّه لا يستطيع إلا تنفيذ رغباتكِ شعوراً مِنْه بالمسؤولية العظمى تجاهكِ! ما أشدّ دهائكِ وخبثكِ... لكنني سأخبر وليد عن كل هذا... وإنْ اضطررتُ لفعل ذلك الآن!».

كنتُ أمسكُ بهاتف وليد في يدي اليمنى وبالأوراق والكيس في يدي اليسرى... وللذهول الذي أصابني مِنْ كلام أروى رفعتُ يدي اليمنى تلقائياً ووضعتُها على صدري...

فجأة تحرّكتْ يد أروى نحوي... وهمّتْ بانتزاع الهاتف وهي تقول:

«هاتي هذا».

وكردَّة فعلٍ تشبَّثتُ بالهاتف أكثر... فسحبَتْه هي بقوَّة أكبر... ثمَّ انزلق مِنْ بين أيدينا ووقع على عتبات الدرج...

استدرتْ مُنثنيةً بقصد التقاطهِ بسرعة فتحرّكتْ أروى لمنعي فجأةً واصطدمتْ بي...

حركتها هذه أفقدتْني التوازن... فالتوتْ قدمي وفتحتُ يدي اليسرى بسرعة موقعةً بالأوراقِ والكيس أرضاً... ومددتُها نحو ذراع أروى وتشبَّثتُ بها طالبةً الدعم... الأمر الذي أفقد أروى توازنها هي الأخرى... وفجأةً اِنهرنا نحن الاثنتان متدحرجتين على الدَّرَج...

ولأنني كنتُ في الأسفل... فقد وقع جسدها عليَّ وانتهى الأمر بصرخةٍ مُدويةٍ انطلقتْ مِنْ أعماق صدري مِنْ فرط الألم...

- وليد -

لأنني نمتُ معظم النهار، لمْ يستجِب النعاس لندائي تلك الليلة وبقيتُ أتقلّب في فراشي لبعض الوقت...

كنتُ استعيد ذكريات النزهة الجميلة التي قضيناها أنا وصغيرتي هذه الليلة والتي أنعشتْ الذكريات الماضية الرائعة في مخيلتي... خصوصاً وأنَّ صغيرتي بدتْ مسرورةً ومُبتهجةً بشكلٍ أراحني ووأد خوفي عليها المولود هذا الصباح...

كل شيء كما في السابق... إنها نفس الفتاة التي كنتُ أصطحبها في النزهات باستمرار... في أرجاء المدينة... وأقضي بصحبتها أمتع الأوقات وأطيبها على نفسي. غير أنها كبرتْ ولمْ يعد باستطاعتي أنْ أحملها على كتفيَّ كما في الماضي...

كانتْ مهووسةً بامتطاء كتفيَّ وهي صغيرة ولمْ تتخلَّى عن هوسها حتى آخر عهدي بها قبل دخولي السجن...

يا ترى... هل تتذكّر الآن؟؟

يا ترى كيف تشعر حين تكون معي وهل أعني لها ما عنيتُ في الماضي؟؟

لا أعرف لِمَ كان طيف رغد يسيطر عليَّ هذه الليلة... بالتأكيد... خروجي معها في النزهة هو ما هيّج المكنون مِنْ مشاعري القديمة... الأزليّة...

نهضتُ وتوجَّهتُ إلى محفظتي... ومنها استخرجتُ قصاصات الصورة الممزَّقة لرغد... وعدتُ أركّب أجزاءها كما كانتْ...

أقسم... بأنني أستطيع تجميعها بالضبط كما كانتْ وأنا مغمض العينين!

أخذتُ القصاصات إلى سريري وجلستُ وأغمضتُ عينيّ... لأثبت لكم صدق قسمي...

أتحسّسها قصاصةً قصاصةً... حافةً حافة... طرفاً طرفا...

ها أنا ذا انتهيتُ!

فتحتُ عينيَّ ونظرتُ إلى الصورة المكتملة وشعرتُ بالسرور! إنها رغد... ودفتر تلوينها... وأقلام التلوين الجميلة!

يا لي مِنْ مجنون!

ما الذي أفعله في مثل هذا الوقت المتأخِّر بعد منتصف الليل؟!

وضعتُ القصاصات تحت الوسادة وأرخيتُ جفوني... سأنام على صورتكِ يا رغد!

تصبحين على خير...

فجأة... صحوتُ على صوتُ جلبة... أشبه بارتطام شيءٍ ما بالأرض... مصحوبةً بصراخٍ قوي!

نهضتُ بسرعة وسمعتُ صوت صرخات متتالية ومتداخلة مع بعضها البعض في آنٍ واحد...

أسرعتُ للخروج مِنْ غرفتي وهرولتُ ناحية مصدر الصراخ... إنه السلّم... وصلتُ إلى أعلى عتباته وألقيتُ نظرةً سريعة إلى الأسفل وذُهِلتُ!

قفزتُ العتبات قفزاً حتَّى وصلتُ إلى منتصف الدَّرَج... حيث وجدتُ رغد وأروى جاثيتين على العتبات إحداهما تئنُّ... والأخرى تتلوَّى ألماً وتطلق الصرخات القوية...

ومجموعةٌ مِنَ الأوراق والعُلَب مبعثرةٌ على العتبات مِنْ حولهما...

«ماذا حدث؟؟».

سألتُ مفزوعاً... ولمْ تجبْ أيهما بأكثر مِنَ الأنين والصراخ...

«رغد... أروى... ماذا حدث؟؟».

ردّتْ أروى وهي تضغط على كوعها بألم:

«وقعنا مِنْ أعلى السلّم».

لمْ يكنْ لديَّ مجال لأندهش... فقد كانتْ رغد تصرخ وتنقل يدها اليسرى بين يمناها ورجلها اليسرى...

قلتُ بسرعة:

«أأنتُما بخير؟؟».

أروى وقفتْ ببطء واستندتْ إلى الجدار... وأمّا رغد فقد بقِيتْ على وضعها تئنُّ وتصرخ.

«رغد هل أنتِ بخير؟؟».
عصرتْ رغد وجهها مِنَ الألم فسالتْ الدموع متدفِّقةً على وجنتيها المتوهجتين...
«رغد؟؟».
فأجابتْ باكيةً متألِّمة صارخة:
«يدي... قدمي... آه... تؤلماني... لا أتحمَّل... ربما كُسِرتا».
أصبتُ بالهلع... أقبلتُ نحوها حتَّى جلستُ قربها تماماً... وسألتُ:
«هذه؟».
ماداً يدي إلى يدها اليمنى، ولكني ما أنْ قرّبتُ يدي حتى صرختْ رغد بقوة وأبعدتْ يدها عنّي...
«رغد».
هتفتُ بهلع، فردَّتْ:
«لا تلمسها... تؤلمني بشدّة...».
فوجَّهتُ يدي إلى يدها اليسرى:
«وهذه؟ أتؤلمك؟».
«كلا».
فأمسكتُ بها وأنا أقول:
«إذن... دعيني أساعدكِ على النهوض».
رغد هزّت رأسها اعتراضاً وقالتْ:
«لا أستطيع... قدمي ملتوية... تؤلمني كثيراً... لا أستطيع تحريكها».
ونظرتُ نحو قدمها ثمَّ سحبتُ يدها اليسرى مِنْ يدي وأمسكتُ برجلها اليسرى. وكانتْ قدمها ملوية إلى الداخل، يخفي جوربها أيَّ أثر لأيِّ كدمةٍ أو خدشٍ أو كسر...
قلتُ:
«سأحاول لفَّها بحذر».
وعندما حرّكتُها بعض الشيء... أطلقتْ رغد صرخةً قويَّةً ثقبتْ طبلتَي أُذنيَّ وأوقفتْ نبضات قلبي...
يبدو أنَّ الأمر أخطر مِمَّا أتصوّر... ربما تكون قد أصيبتْ بكسرٍ فعلاً...
تلفَّتُّ يُمنةً ويُسرةً في تشتُّت مِنْ فكري... كانتْ أروى متسمِّرةً في مكانها وأمارات الفزع تبرق على وجهها... بدأ العرق يتصبَّبُ مِنْ جسمي والهواء ينفذ مِنْ رئتيّ...
ماذا حلّ بصغيرتي؟؟
التفتُّ إلى رغد بتوتُّر وقلتُ:
«سأرفعكِ».
ومددتُ ذراعي بحذر وانتشلتُ الصغيرة مِنْ على العتبة وهي تصرخ متألِّمةً... وهبطتُّ

بها إلى الأسفل بسرعة... وأنا أطأ بقدميَّ الحافيتين على الأوراق والأشياء المبعثرة هناك، ودستُ على شيءٍ اكتشفتُ أنَّه كان هاتفي المحمول ملقىً على درجات السلَّم هو الآخر...

حملتُ رغد إلى غرفة المعيشة ووضعتُها على الكنبة الكبرى... وهي على نفس الوضع تعجز عن مدِّ رجلها أو ثنيها... أمَّا يدها اليمنى فقد كانتْ تبقيها مُبعدةً خشيةَ أنْ تصطدم بي...

«رغد...».

ناديتُها باضطراب... لكنها كانتْ تكتم أنفاسها حتَّى احتقن وجهها وانتفختْ الأوردة في جبينها... وبرزتْ آثار اللطمات التي أمطرتُها بها صباحاً أكثر توهّجاً... حتَّى حسبتُ أنها آثارٌ جديدة سبَّبها الدرج...

بعدها انفجر نفَس رغد بصيحة قوية قطّعتْ حبالها الصوتية... قلتُ مفزوعاً:

«يا إلهي... يجب أنْ آخذكِ إلى الطبيب».

وقفتُ ثمَّ جثوتُ على الأرض ثمَّ وقفتُ مجدَّداً... خطوتُ خطوةً نحو اليمين وأخرى نحو اليسار... تشتَّتُّ ومِنْ هول خوفي على رغد لمْ أعرف ماذا أفعل... أخيراً ركزتْ فكرةٌ في رأسي فركضتُ في اتجاه غرفتي، أريد جلب مفاتيح السيارة...

عند أوَّل عتبات السلَّم كانتْ أروى تقف متسمِّرةً تنمُّ تعبيرات وجهها عن الذعر...! وقفتُ برهةً وأنا طائر العقل وقلتُ باندفاع:

«ماذا حدث؟ كيف وقعتُما؟ ربما انكسرتْ عظامها... سآخذها إلى المستشفى».

لمْ أدع لها المجال للرد بل قفزتُ عتبات الدرج قفزاً ذهاباً ثمَّ عودة... وأنا أدوس عشوائياً على الأوراق والعلب المبعثرة عليه دون شعور... ثمَّ رأيتُ أروى لا تزال قابعةً في مكانها... فهتفتُ:

«تكلَّمي؟؟».

وأنا أسرع نحو غرفة المعيشة...

توقفتُ لحظةً واستدرتُ إلى أروى وقلتُ:

«وأنتِ بخير؟».

أومأتْ أروى إيجاباً فتابعتُ طريقي إلى رغد... ولمْ أشعر بأروى وهي تتبعني...

وجدتُ رغد وقد كوَّمتْ جزءاً مِنْ وشاحها داخل فمها لتعضّه بين أسنانها... حين رأتْني خاطبتْني والوشاح لا يزال في فمها:

«وليد... سأموت مِنَ الألم...آآآآه».

ركعتُ قربها ومددتُ ذراعيَّ أريد حملها وأنا أقول:

«هيا إلى الطبيب... تحمّلي قليلاً أرجوكِ».

وعندما أوشكتُ على لمس رجلها دفعتْ يدي بعيداً بيدها وصاحتْ:

«لا... أقول لكَ تؤلمني... لا تلمسها».

«يجب أنْ أحملكِ إلى المستشفى رغد... أرجوكِ تحمَّلي... أرجوكِ صغيرتي».

جمعتْ رغد القماش في فمها مِنْ جديد، وعضّت عليه وأغمضتْ عينيها بقوّة...

حملتُها بلطفٍ قدر الإمكان متجنباً لمس طرفيها المصابين؛ يدها اليمنى، ورجلها اليسرى، واستدرتُ نحو الباب. هناك كانتْ أروى تقف في هلعٍ تراقبنا.

قلتُ:

«هيا... اسبقيني وافتحي لي الأبواب بسرعة».

وهكذا إلى أنْ أجلستُ الصغيرة على مقعد السيارة الخلفي، ثمَّ فتحتُ بوابة المرآب وانطلقتُ بالسيارة بسرعة...

لحسن الحظ كانتْ رغد لا تزال ترتدي عباءتها ووشاحها الأسودين، لمْ تخلعهما منذ خرجنا إلى النزهة أول الليل...

عندما وصلنا إلى المستشفى، استقبلنا فريق الإسعاف بهمّة وحملْنا رغد على السرير المتحرك إلى غرفة الفحص. كانتْ مستمرّةً في الصراخ والألم...

سألني أحد الأفراد:

«حادث سيارة؟».

قلتُ:

«لا! وقعتْ مِنْ أعلى السلّم... ربما أصيبتْ بكسرٍ ما... أرجوكم أعطوها مسكّناً بسرعة».

أراد الطبيب أنْ يكشف عن موضع الإصابة... تحمّلتْ رغد فحص يدها، ولكنها صرختْ بقوة بمجرّد أنْ وجّه الطبيب يده نحو رجلها اليسرى. يبدو أنَّ الألم كان أشدّ في الرجل. شجّعتْها الممرضة وحين همّتْ بالكشف عن رجلها استدرتُ ووقفتُ خلف الستارة...

عادتْ رغد تصرخ بقوّة لمْ أتحمّلها فهتفتُ مخاطباً الطبيب:

«أرجوكَ أعطِها مسكّناً أولاً... لا تلمس رجلها قبل ذلك... ألا ترى أنها تتلوّى ألماً؟؟».

وصرختْ رغد مرّة أخرى وهتفتْ:

«وليد».

لمْ أتحمّل... أزحتُ الستارة وعدتُ إلى الداخل ومددتُ يدي إلى رغد التي سرعان ما تشبّثتْ بها...

«معكِ يا صغيرتي... تحمّلي قليلاً أرجوكِ».

واستدرتُ إلى الطبيب:

«هل لا أعطيتَها مسكناً قوياً؟؟... أرجوكَ في الحال».

الممرضة كشفتْ عن ذراع رغد اليسرى بهدف غرس الإبرة الوريدية في أحد عروقها... ولمحتْ الندبة القديمة فيها فسألتني:

«وما هذا أيضاً؟».

قلتُ غير مكترث:

«حرقٌ قديم...».

وبمجرَّد أنْ انتهتْ الممرضة مِنْ حقن رغد بالعقار المسكِّن للألم عبر الوريد، عادتْ رغد ومدَّتْ يدها إليَّ وتشبَّثتْ بي...

«لا تقلقي صغيرتي... سيزول الألم الآن».

قلتُ مشجِّعاً وأنا أرى الامتقاع الشديد على وجهها. ومضتْ بضع دقائق غير أنَّ رغد لمْ تشعر بتحسُّن.

«ألمْ يختفِ الألم؟».

سألتُها فقالتْ وهي تتلوَّى وتهزُّ رأسها:

«تؤلمني يا وليد... تؤلمني كثيراً جداً».

خاطبتُ الممرضة:

«متى يبدأ مفعول هذا الدواء؟ أليس لديكم دواءٌ أقوى؟؟».

الممرضة والطبيب تبادلا النظرات ثمَّ أمرها بحقن رغد بدواء آخر حقنتْه الممرضة في قارورة المصل المغذي وجعلته يسري بسرعة إلى وريدها...

قلتُ مخاطباً الطبيب:

«هل هذا أجدى؟».

«فعَّال جداً».

«إنَّه ألمٌ فظيعٌ يا دكتور... هل تظن أنَّ عظامها انكسرتْ؟».

«يجب أنْ أفحصها وأجري تصويراً للعظام قبل أنْ أجزم».

بعد قليل... بدأتْ جفون رغد تنسدل على عينيها... وصمتتْ عن الصراخ... وارتختْ قبضتها، ونامتْ».

ثمَّ باشر فحصَ رجل رغد وأعاد تفحُّص يدها اليمنى... وبقيَّة أطرافها... وعندما انتهى مِنْ ذلك، أمر بتصوير عظام رجلَي رغد ويديها وحتى جمجمتها تصويراً شاملاً.

«طمئنِّي أيها الطبيب رجاءً... هل اتَّضح شيء مِنَ الفحص؟؟».

نظر إليَّ الطبيب نظرة ريب، ثمَّ سألني وهو يتكلَّم بصوتٍ منخفض:

«قلْ لي... هل حقاً وقعتْ على درجات السلَّم؟».

استغربتُ سؤاله وبدا لي وكأنه يشكُّ في شيء فأجبتُ:

«نعم... هذا ما حصل».

«كيف؟».

«لا أعرف فأنا لمْ أشاهد الحادث... ولكن لماذا تسأل؟».

«أردتُ التأكُّد... فوجهها مكدوم بشكلٍ يوحي إلى أنَّها تعرَّضتْ للضرب! قد يكون الأمر ليس مجرَّد حادث».

أثار كلام الطبيب جنوني وغضبي فردتُ منفعلاً:

«وهل تظنُّ أننا رميناها مِنْ أعلى الدرج مثلاً؟».

لمْ يعقّب الطبيب فقلتُ:

«وجهها متورمٌ نتيجة شيءٍ آخر لا علاقة له بالحادث».

تبادل الطبيب والممرضة النظرات ذات المغزى ثمّ طلب منها اصطحاب رغد إلى قسم الأشعة. ولأنني كنتُ هلعاً على رغد عاودتُ سؤاله:

«رجاءً أخبرني... هل تبيّن شيءٌ بالفحص، لا قدّر الله؟».

ردَّ صريحاً:

«لا أخفي عليكَ... يبدو أنَّ الإصابة في الكاحل بالغةٌ لحدٍ ما... أشكُّ في حدوث تمزُّق في الأربطة».

ماذا؟؟

ماذا يقول هذا الرجل؟؟

تمزّق؟ كاحل؟؟ أربطة؟؟ رغد؟؟

تابع الطبيب:

«الظاهر أنَّ قدمها قد التوتْ فجأةً وبشدّة أثناء الوقوع، ولديها تورُّم ورضٌ شديدٌ في منطقة الساق، قد تكون ساقها تعرضت لضربة قويّة بحافة العتبة. أما يدها اليمنى فأتوقّع أنها كُسِرتْ».

كسر؟؟ تمزُّق؟؟ التواء؟؟ تورُّم؟؟ رض؟؟ ما كل هذا؟؟ ماذا تقول؟؟

شعرتُ بعتمةٍ مفاجئة في عينيَّ وبالشلل في أعصابي... كنتُ سأنهار بطولي لولا أنَّ الطبيب أسندني وأقعدني على كرسيٍ مجاور... وضعتُ يدي على رأسي شاعراً بصداع فظيع... كأنَّ أحد الشرايين قد انفجر في رأسيَ مِنْ هول ما سمعتُ...

الطبيب ثرثر ببعض جملٍ لمْ أسمع منها شيئاً... بقيتُ على هذه الحال حتى أقبلتْ الممرضات يجررن سرير رغد ويحملن معهنَّ صوَر الأشعة...

الطبيب أخذ الأفلام وراح يتأملها على المصباح الخاص... وأنا ذهبتُ قرب رغد حتى توارينا خلف الستار...

الصغيرة كانتْ نائمةً وبقايا الدمع مبلِّلٌ رموشها... رقَّ قلبي لها وأمسكتُ بيدها اليسرى وضغطتُ بقوّة...

كلا يا رغد!

لا تقولي أنَّ هذا ما حدث؟ أنتِ بخير أليس كذلك؟؟ ربّما أنا أحلم... ربّما هو كابوس صنعه خوفي المستمر عليكِ وجنوني بكِ!

ربّاه...

بعد ثوانٍ تركتُ رغد وذهبتُ إلى حيث كان الطبيب مع مجموعة أخرى مِنَ الأطباء يتفحّصون الأشعة ويتناقشون بشأنها.

وقفتُ إلى جانبهم وكأنني واحدٌ منهم... أصغي بكل اهتمام لكل كلمة تتفوّه بها

ألسنتهم، ولا أفقه منها شيئاً...

أخيراً التفتَ الطبيب ذاته إليّ فقلتُ بسرعة:

«خير؟؟ طمئني؟».

قال الطبيب وهو يحاول تهوين الأمر:

«كما توقّعتُ... يوجد كسرٌ في أحد عظام اليد اليمنى... وشرخٌ في أحد عظام الرجل اليسرى وهناك انزلاق في مفصل الكاحل سببه تمزق الأربطة».

ولمّا رأى الطبيب الهلع يكتسح وجهي أكثر مِنْ ذي قبل، أمسك بكتفي وقال:

«بقية الأشعة لمْ توضّح شيئاً... الإصابة فقط في اليد اليمنى والرجل اليسرى، أمّا الكدمات الأخرى فهي سطحية».

ازدرتُ ريقي واستجمعتُ شظايا قوتي وقلتُ غير مصدّق:

«أنتَ... متأكد؟».

قال:

«نعم. جميعنا متّفقون على هذا».

وهو يشير إلى الأطباء ممَّنْ معنا. قلتُ وصوتي بالكاد يخرج مِنْ حنجرتي واهِناً:

«و... هل... سيُشفى كل ذلك؟».

«نعم إنْ شاء الله. لكن... ستلزمها عمليّةٌ جراحيّة، وبعدها ستظل مجبَّرة لبعض الوقت».

يا للصاعقة!!!

لا! مستحيل!

عمليّة!!؟؟ جبيرة!!؟؟ أوه... كلاّ! كلاّ!

كدتُ أهتف («كلا») بانفعال... لكنني رفعتُ يدي إلى فمي أكتم الصرخة... قهراً...

الطبيب أحسَّ بمعاناتي وحاول تشجيعي وتهوين الأمر... لكن أيّ كارثةٍ حلّتْ على قلبي يمكن تهوينها بالكلمات؟؟

قلتُ بلا صوت:

«تقول... عملية؟».

«نعم. ضرورية لإنقاذ الإصابة مِنَ العواقب غير الحميدة».

أغمضتُ عيني وتأوّهتُ إثر الصدمة... وقلبي فاقدٌ السيطرة على ضرباته. عندما لاحظ الطبيب حالتي سألني بتعاطف:

«هل أنتَ شقيقها؟».

فرددتُ وأنا غير واعٍ لما أقول:

«نعم...».

«وأين والدها؟».

«أنا».

«عفواً!؟».

«ماتَ... كلُّهم ماتوا... أنا أبوها الآن... آه... صغيرتي».

وأحشائي تتمزَّق مرارةً. أنا لا أصدِّق أنَّ هذا قد حصل... رغد صغيرتي الحبيبة... مهجة قلبي والروح التي تحرِّكني... تخضع لعمليَّة جراحيَّة؟؟

وقفتُ وسرتُ نحو سرير رغد بترنُّح... يظنُّ الناظر إليَّ أنني أنا منْ تحطَّمَتْ عظامُه وانزلقتْ مفاصله وما عاد بقادرٍ على دعم هيكله...

اقتربتُ منها... أمسكتُ بيدها اليسرى... شددتُ عليها... اعتصرني الألم... واشتعلتْ النار في معدتي... حرقتْني وفحَّمتْني... ولمْ تُبقِ منّي إلا رماداً تبعثر مع الهواء...

الطبيب لحق بي وأقبل إليَّ يشجِّعني بكلمات لو تكرَّرتْ ألف مرَّة ما فلحتْ في لمِّ ذرَّتين مِنْ رمادي المبعثر...

قال:

«علينا إتمام بعض الإجراءات الورقية اللازمة قبل أخذها لغرفة العمليات».

الكلمة فطرتْ قلبي لنصفين ودهستْ كلاً على حدا. التفتُّ إليه وقلتُ في حالة إنكار:

«أأنتَ واثقٌ مِنْ أنّها كسور؟؟ و... ألا يمكن أنْ تُعالج بشكلٍ آخر؟؟ أرجوكَ... إنها صغيرةٌ ولا تتحمَّل أي شيء... كيف تخضع لعملية؟؟ لا تتحمَّل...».

وكان الطبيب صبوراً ومتفهِّماً وعاد يواسيني...

«لا تقلق لهذا الحد... عالجنا إصابات مشابهةً وشُفِيَتْ بإذن الله...».

لكن مواساته لمْ تخمد مِنْ حمم القلق شرارةً واحدةً. هنا أقبلتْ الممرضة تخاطبه قائلةً:

«أبلغنا أخصائي التخدير وغرفة العمليات جاهزةٌ يا دكتور».

الطبيب نظر إليَّ وقال:

«توكَّلنا على الله؟».

نقلتُ بصري بينه وبين الممرضة ثمَّ إلى رغد. قلتُ:

«يجب أنْ تعرف ذلك أوَّلاً...».

كنتُ لا أزال ممسكاً بيدها، اقتربتُ منها أكثر وهمستُ:

«رغد».

كرَّرتُ ذلك بصوتٍ ميِّت... ولمْ تستجب، فضربتُ يدها بلطف فيما أنا مستمرٌ في النداء...

فتحتْ رغد عينيها وجالتْ فيما حولها واستقرَّتْ عليَّ... كانتْ شبه نائمة مِنْ تأثير المخدِّر...

قلتُ بلهفة:

«صغيرتي...».

وشددتُ على يدها... استجابتْ رغد ونطقتْ باسمي. قلتُ:

«كيف تشعرين؟ كيف الألم؟؟».

قالتْ وهي بالكاد تستوعب سؤالي:

«أفضل... أشعر به... لكن أخف بكثير».

«الحمد لله... سلامتكِ يا صغيرتي ألف سلامة...».

«سلّمك الله... آه... أشعر بنعاسٍ شديد وليد... دعنا نعود للمنزل».

لمْ أتمالك نفسي حينها وتأوّهتُ بألم... آه يا صغيرتي... آه...

رغد أحسّتْ بشيء... بدأتْ تستفيق وتدرك ما حولها. قالتْ:

«ما الأمر؟؟».

لمْ أتكلّم... فنظرتْ نحو الطبيب والممرضة واللذين قالا بصوتٍ واحد:

«حمداً لله على السلامة».

ثمّ تقدّم الطبيب نحوها وبلطف حرّك يدها المصابة فأنّتْ رغد. قال:

«ألا زالتْ تؤلمكِ؟».

أجابتْ:

«نعم. لكن أخف بكثير مِنْ ذي قبل».

قال:

«هذا مِنْ تأثير المسكن القوي ولكن الألم سيعود أقوى ما لم نعالجها عاجلاً. انظري... لقد تفاقم التورم بسرعة».

رغد نظرتْ إلى يدها ثمّ إليّ بتساؤل... ولمْ أعرف بِمْ أجيب ولا كيف أجيب...

«وليد؟؟».

ترددتُ ثمّ قلتُ:

«يبدو... أنَّ الإصابة جدِّيةٌ يا رغد... يقول الطبيب أنَّ لديكِ كسور وأنكِ بحاجة إلى جراحة».

ولو رأيتم مقدار الذعر الذي اكتسح وجه رغد... آه لو رأيتم!!

جفلتْ جفول الموتى... ثمّ سحبتْ يدها مِنْ بين أصابعي ووضعتْها على صدرها هلعاً... وكتمتْ أنفاسها قليلاً ثمّ صاحتْ:

«ماذا!!؟؟».

حاولتُ تهدئتها وأنا الأحوج لمَنْ يهدِّئني... كانتْ ردّة فعلها الأولى أقرب للهستيريا... ذعر... فزع... خوف... ارتجاف... صراخ... رفض... بكاء...

وانفعالات يعجز قلب وليد عن تحمّلها وشرحها...

كانتْ مشوّشة التركيز والتفكير بسبب الدواء المخدِّر ولا أدري إنْ كانتْ قد استوعبتْ بالفعل الخبر وما إذا كانتْ تقصد بإرادةٍ ردود فعلها تلك، أمْ أنَّ الأمر كان وهماً صنعه المخدر...؟؟

بعد أنْ هدأتْ قليلاً وأنا ما أزال قربها أكرِّر:

«ستكونين بخير... لا تخافي صغيرتي... ستكونين بخير بإذن الله».

قالتْ وهي ممسكةٌ بيدي:

«لا تتركني وحدي وليد أرجوك...».

قلتُ مؤكِّداً بسرعة:

«أبداً صغيرتي... سأبقى معكِ طوال الوقت ولنْ أبتعد عن باب غرفة العمليات متراً واحداً... اطمئني».

نظرتْ رغد إليَّ بتوسل... فكرَّرتُ كلامي... حينها قالتْ:

«هل نحن في الحقيقة؟؟ هل يحصل هذا فعلاً؟؟ هل أنا مصابةٌ وفي المستشفى؟؟ ألستُ أحلم؟؟».

قلتُ بأسى:

«هوّني عليكِ يا رغد بالله عليكِ... قطّعتِ نياط قلبي... أرجوكِ يكفي... الحمد لله على كل حال... بلاءٌ مِنَ الله يا صغيرتي... لا تجزعي...».

ابتلعتْ رغد آخر صيحاتها وحبستْ دموعها وبدأتْ تتنفَّس بعمقٍ واستسلام. وبعد قليل نظرتْ إليَّ وقالتْ:

«أشعر بنعاسٍ شديد... ماذا حصل لي؟؟ عندما أصحو لا أريد أنْ أذكُر مِنْ هذا الكابوس شيئاً... أرجوكَ وليد».

وأغمضتْ عينيها وغابتْ عن الوعي مباشرةً. ناديتُها بضع مرّات فلم تجبْ... نظرتُ إلى الطبيب فأشار بإصبعه إلى المصل المغذي... ثمّ قال:

«علينا الاستعجال الآن...».

وبهذا ذهبتُ لإتمام الإجراءات المطلوبة ومِنْ ثمّ تمّ نقل رغد إلى غرفة العمليات.

بقيتُ واقفاً على مقربةٍ التهم الهواء في صدري التهاماً... علّه يُخمِد الحريق المتأجِّج فيه...

لمْ يكن معي هاتف ولمْ أشأ الابتعاد خطوةً أخرى عن موقع رغد... وظللتُ في انتظار خروجها أذرع الممرَّ ذهاباً وجيئةً وأنا أسير على الجمر المتّقد... ولساني لا ينقطع عن التوسُّل إلى الله... إلى أنْ انتهتْ العملية بعد فترة ورأيتهم يقودون السرير المتحرِّك في الممرِّ...

لمْ يكن الطبيب موجوداً فلحقتُ بالممرضات اللواتي كنَّ يقدن السرير بسرعة وألقيتُ نظرة متفحِّصة على وجه رغد...

كانتْ هناك قبّعةٌ زرقاء شبه شفّافة تغطّي شعرها وقارورتان مِنَ المصل الوريدي عُلّقتا على جانبيها تقطران السائل إلى جسمها...

اقتربتُ منها وأنا أنادي باسمها ففتحتْ عينيها ولا اعتقِد أنّها رأتْني... ثمّ أغمضتهما ونامتْ بسلام...

سحبتُ اللحاف حتى غطيتُ رأسها كاملاً... وسرتُ معها جنباً إلى جنب إلى أنْ أوصلتْها الممرضات إلى إحدى الغرف. وهناك ساعدتهنّ في رفعها إلى السرير. وفيما نحن نحملها

شاهدتُ الجبيرة تلِفُّ يدها ورجلها فكدتُ أصاب بالإغماء مِنْ مرارة المنظر...

شعرتُ بتعبٍ شديد... وكأنني حملتُ جبلاً حديدياً على ذراعيَّ لعشر سنين... وتهالكتُ بسرعة على حافة السرير قرب رغد...

وعندما همّتْ إحداهن بتغيير اللحاف أشرتُ إليها بألا تفعل... وطلبتُ منها أنْ تلفَّ رأس رغد بوشاحها الأسود.

«متى ستصحو؟».

سألتُ بصوتٍ متبعثرٍ... فأجبنَني:

«عمّا قريب. لا تقلق. مِنَ الخير لها أنْ تبقى نائمةً».

«وأين الطبيب؟».

أجابتْ إحداهن:

«سيجري عمليَّةً طارئةً لمريض آخر الآن».

بقيتْ إحدى الممرِّضات تفحص العلامات الحيوية لرغد وتدوِّن ملاحظاتها لبضع دقائق ثمَّ لحقتْ بزميلتيها خارج الغرفة.

في هذه اللحظة، أنا وصغيرتي نجلس على السرير الأبيض... هي غائبةٌ عن الوعي... وأنا غائبٌ عن الروح... لا أحسُّ بشيءٍ ممَّا حولي... إلا بصلابة الجبيرة التي أمدُّ إليها بيدي أتحسَّسها غير مصدّق... لوجودها حول يد طفلتي الحبيبة...

لا شيء تمنيتُه تلك الساعة أكثر مِنْ أنْ يوقظني أحدكم بسرعة ويخبرني بأنَّه كان مجرَّد كابوس...

تلفتُّ ذات اليمين وذات الشمال... بحثاً عن أحدكم... ولمْ يكن مِنْ حولي أي أحد...

لمحتُ هاتفاً موضوعاً على مقربة... واشتغلتْ بعض خلايا دماغي المشلولة فأوحتْ إليَّ بالاتصال بالمنزل...

وقفتُ وتحرَّكتُ وأنا أجوفٌ مِنَ الروح... لا أعرف ما الذي يحرِّكني؟ لا أشعر بأطرافي ولا أحسُّ بثقلي على الأرض... ولا أدري أيَّ ذاكرةٍ تلك التي ذكَّرتني برقم هاتف منزلي!

ظل الهاتف يرنُّ فترة مِنَ الزمن... قبل أنْ أسمعَ أخيراً صوت أروى تجيب.

«وليد! أخيراً اتَّصلتَ؟ أخبرني أين أنتما وكيف حالكما وماذا عن رغد؟؟».

عندما سمعتُ اسم رغد لمْ أتمالك نفسي. أجبتُ بانهيار وبصري مركَّزٌ على رغد:

«أجروا لها عمليَّةً جراحيَّةً... إنها ملفوفةٌ بالجبائر... آه يا صغيرتي... منظرها يذيب الحجر... آه... يا إلهي...».

وأبعدتُ السمَّاعة... لمْ أشأ أنْ تسمع أروى ما زفره صدري. ثمَّ قرَّبتُها وقلتُ:

«سأتَّصل حينما تستفيق... نحن في مستشفى المدينة التخصُّصي... ادعي الله لأجلها معي».

وأنهيتُ المكالمة القصيرة وعدتُ إلى رغد...

ولا زلتُ لله داعياً متضرِّعاً حتى رأيتُ رغد تتحرَّك وتفتح عينيها! تهلَّل وجهي واقتربتُ منها أكثر وناديتُها بشغف:

«رغد... صغيرتي...».

وأضفتُ:

«حمداً لله على سلامتكِ أيتها الغالية... الحمد لله».

رغد رفعتْ رأسها ونظرتْ نحو يدها وسألتْ:

«هل... أجروا لي العملية؟».

وقبل أنْ أجيب كانتْ قد حركتْ ذراعها الأيمن حتَّى صارتْ يدها أمام عينيها مباشرة... تحسَّستْ الجبيرة الصلبة باليد الأخرى... ثمَّ نظرتْ إليَّ...

ثمَّ حاولتْ تحريك رجلها وعلامات الفزع على وجهها... ثمَّ سحبتْ اللحاف قليلاً لتكشف عن قدمها المصابة وتحدِّق بها... وتعود لتنظر إليَّ مجدَّداً:

«لا أستطيع تحريك رجلي! وليد... هل أُصِبتُ بالشلل؟ أوه لا...».

إلى هنا ولا أستطيع أنْ أتابع الوصف لكم... عمَّا حلَّ بالصغيرة آنذاك...

لقد سبَّب وجودنا إرباكاً في القسم... وخصوصاً للممرِّضات اللواتي على رؤوسهن وقعتْ مهمَّة تهدئة هذه الفتاة الفزعة ورفع معنوياتها المحطَّمة...

كان صراخها يعلو رغم ضعف بدنها... وكل صرخةٍ وكل آهةٍ وكل أنَّةٍ... أطلقتْها رغد... اخترقتْ قلبي قبل أنْ تصفع جدران الغرفة...

بجنونٍ ما بعده جنون... تشبَّثتْ بي وهي تصرخ:

«أريد أمِّي».

ربَّما لمْ تكن رغد تعي ما تقول بفعل المهدئات... أو ربَّما... الفزع أودى بعقلها... أو ربَّما يكون الشلل قد أصاب رجلها فعلاً...!!

عندما أتى الطبيب وأعطاها دواءً مخدِّراً... بدأتْ تستسلم وهي تئنُّ بين يديّ...

الطبيب أكَّد مراراً وتكراراً أنَّ شيئاً لمْ يصِب العصب وأنَّ الأمر لا يتعدَّى تأثير البنج المؤقَّت... وأنَّ ردَّة فعلها هذه شيءٌ مألوفٌ مِنْ قِبَل بعض المرضى...

التفتُّ إلى رغد التي كانتْ متمسِّكة بي بيدها اليسرى تطلب الدعم النفسي:

«لا تخافي صغيرتي... ستكونين بخير... ألمْ تسمعي ما قال الطبيب؟؟ إنها أزمةٌ مؤقَّتة وستستعيدين كامل صحَّتكِ وتعودين للحركة وللمشي طبيعياً كما في السابق...».

رفعتْ رغد بصرها إليَّ وقالتْ وهي تفقد جزءاً مِنْ وعيها:

«هل... سأصبح مُعاقةً وعرجاء؟».

هززتُ رأسي وقلتُ فوراً:

«كلاَّ يا رغد... مَنْ قال ذلك؟؟ بعد ألف شرٍ وشر... لا تفكِّري هكذا أرجوكِ».

«لكن كاحلي تمزّق... وعظامي انكسرتْ! قد لا أستعيدها ثانيةً! ماذا سيحلُّ بي إنْ

فقدتُهما للأبد؟».

«لا تقولي هذا... فداكِ كاحلي وعظامي وكل جسمي وروحي يا رغد! ليتني أصِبتُ عوضاً عنكِ يا صغيرتي الحبيبة».

أمسكتُ برأسها... كنتُ أوشك على أنْ أضمَّه إليّ بقوّة... وجنون... نظرتُ إلى عينيها... فرأيتهما تدوران للأعلى وينسدل جفناها العلويان ليغطياهما ببطءٍ... بينما يظلُّ فوها مفتوحاً وآخر كلامها معلّقا على طرف لسانهَا...

الحلقة الثانية والأربعون

إلا رغد!

- سيف -

وأنا على وشك الخروج للعمل صباحاً تلقَّيتُ اتصالاً منْ رقم هاتفٍ غريب، وعرفتُ بعدها أنّه صديقي وليد شاكر!

أخبرني وليد بأنَّ قريبته قد أُصيبتْ إصابةً بالغة في رِجلها ويدها وأنّه تمَّ إدخالها إلى المستشفى وإجراء عمليّة جراحيّة طارئة لها آخر الليل، ورجاني أنْ أصطحِب زوجته ووالدتها إلى المستشفى.

صديقي وليد كان منهاراً وهو يتحدَّث إليَّ عبر الهاتف وكان صوته حزيناً وأقرب إلى النحيب. ولأنني صديقه الأوّل فقد كان وليد يلجأ إليَّ كلَّما ألمَّتْ به ضائقةٌ أو أصابته كُربةٌ. وكان يضعف قليلاً لكنّه سرعان ما يستعيد قواه ويقف صامداً دون انحناء. أمّا هذه الأزمة فقد دهورتْ نفسيَّته بشكل سريع وشديد للغاية، ممّا أدّى إلى انحدار صحّته وقدرته على العمل تباعاً.

يعاني وليد منْ قرحة مُزمنة في المعدة وهي تنشط وتتفاقم مع الضغوط النفسية. وقد كان الأطباء ينصحونه بالاسترخاء والنقاهة كلَّما تهيّجتْ وبالإقلاع عن التدخين، وأظنّه أقلع عن السجائر ولكنّه أهمل علاج قرحته في هذه الفترة إلى أنْ تطوّر وضعها للأسوأ كما ستعرفون لاحقاً.

وليد متعلّق بشدّة بابنة عمّه المصابة هذهِ وأخالهُ يخبل لو ألمَّ بها شيء. وقد كانتْ ترافقه كالظلِّ عندما كنّا صغاراً في سني المدارس وكان يحبُّها جداً وكثيراً ما اصطحبها معه في زياراته لي وفي تجوالنا سوياً. وقد افترق عنها سنوات حبسه في السجن، ورحلتْ مع عائلته بعيداً عن المدينة. ثمَّ دارتْ الأيام لتعيد جمعه بها منْ جديد، وتجعله وصياً شرعياً عليها ومسؤولاً أولاً عن رعايتها.

عندما وصلنا دخلتْ السيدتان إلى غرفة المريضة ورأيتُ وليد يخرج إليَّ بعد ذلك...

وكما توقّعتُ بدا الرجل متعباً جداً، وكأنّه قضى الليلة الماضية في عملٍ بدني شاق. سألتُه عن أحواله وأحوال قريبته فردَّ ببعض الجمل المبتورة وتمتم بعبارات الشكر.

«لا داعي لهذا يا عزيزي! إننا أخوَان وصديقان منذ الطفولة!».

ابتسم وليد ابتسامةً شاحبةً جداً ثمَّ قال:

«عليَّ أنْ أسرع».

قلتُ مقاطعاً:

«لا تبدو بحالةٍ جيدةٍ يا وليد! دعني أقلّك بسيارتي... ذهاباً وعودةً».

وأعاد الابتسام ولكن هذه المرَّة بامتنان.

أوصلتُ وليد إلى منزله حيث قضى حوالي الأربعين دقيقة رتّب خلالها أموره وشربنا سوية بعض الشاي على عجل.

وليد كان مشغول البال جداً ومخطوف الفكر، وقد حاولتُ مواساته وتشجيعه لكنه كان قد تعدّى مستوى المواساة بكثير، وبما أنني أعرفه فأنا لا استغرب حالته هذه، فهو مهووسٌ بقريبته وقد باح لي برغبته في الزواج منها رغم أي ظروف.

وقبل أن أركن السيارة في مواقف المستشفى الخاصة رأيتُه يفتح الباب ويكاد يقفز خارجاً

«على مهلكَ يا صاحبي! هوِّن عليكَ!».

قال وهو يمسك بالباب المفتوح:

«أخشى أنْ تستفيق ثمَّ لا تجدني وتصاب بالفزع... إنها متعبةٌ للغاية يا سيف وإنْ أصابها شيء بها فسأُجنٌّ».

ألمْ أقل لكم؟؟ رددتُ عليه بتهوّر:

«أنتَ مجنونٌ مُسبقاً يا وليد».

وانتبهتُ لجملتي الحمقاء بعد فوات الأوان. التفتَ وليد إليَّ وقد تجلَّى الانزعاج على وجهه ممزوجاً بالأسى... فاعتذرتُ منه مباشرةً:

«آسِف يا وليد! لمْ أقصدْ».

تنهّد وليد ولمْ يعلّق... ثمّ شكرني وغادر السيارة... هتفتُ وأنا ألوّح له مِنَ النافذة وهو يهرول مُبتعداً:

«اتَّصِل بي وطمئني إنْ جدَّ شيءٌ».

وتولَّيتُ بنفسي إبلاغ السيّد أسامة المنذر بأنَّ وليد سيتغيَّب عن العمل، وأوضحتُ له السبب.

أسامة كان نائباً للمدير السابق عاطف - أبي عمّار - البحري رحمهما الله، وكان على علاقة وطيدة بآل بحري، وعلى معرفة جيّدة بنا أنا ووالدي وفور اكتشافه بأنَّ وليد هو ذاته قاتل عمّار، قدّم استقالته ورفض التعاون مع وليد والعمل تحت إدارته.

ولكن... بتوصيةٍ منِّي ومِنْ والدي، وبعد محاولات متكرِّرة نجحنا في تحسين صورة وليد في نظره وأفلحنا في إقناعه بالعودة للعمل خصوصاً وأنَّ وجوده كان ضروريّاً جداً بحكم خبرته الطويلة وأمانته.

ومع الأيام توطّدتْ العلاقة بين وليد والسيّد أسامة الذي عرف حقيقة وليد وأخلاقه واستقامته. وصار يقدّره ويتعامل معه بكل الاحترام والمحبّة. أما بقيّة موظفي المصنع والشركة، فكانتْ مواقفهم تجاه وليد متباينة وكنتُ في خشيةٍ على وليد مِنْ ألسنتهم. غير

أنَّ وليد تصرَّفَ بشجاعةٍ ولمْ يعرْ كلامهم اهتماماً حقيقياً وأثبتَ للجميع قدرته على الصمود وتحمُّل مسؤولية العمل مهما كانتْ الأوضاع.

- وليد -

لوّحتُ لسيف بيدي وأسرعتُ نحو غرفة رغد.

وجدتُها لا تزال نائمةً وإلى جوارها تجلسُ أروى والخالة. سألتُهما عمَّا إذا كانتْ قد استيقظتْ فأجابتا بالنفي. اقتربتُ منها فإذا بأروى تمدُّ يدها إليَّ بهاتفي المحمول وتقول:

«تفضَّل.. جلبتُه معي لكَ».

تناولتُ الهاتف وجلستُ على مقربةٍ أتأمَّل وجه رغد، وأُلقي نظرةً بين الفينة والأخرى على شاشةِ جهاز النبض الموصول بأحد أصابعها.

بعد قليل مرّتْ الممرّضة لتفقّد أحوال رغد ونزعتْ الجهاز عنها. خاطبتُها:

«كيف هي؟».

أجابتْ:

«مستقرة».

«ولماذا لا تزال نائمة؟».

«يمكنكم إيقاظها إنْ شئتم».

وبعد أنْ غادرتْ بقينا صامتين لوهلة... ثمَّ التفتُّ نحو أروى وسألتُها:

«كيف وقعتُما؟».

ظهر التردُّد على وجه أروى واكتسى ببعض الحمرة... ما أثار قلقي... ثمَّ تبادلتْ نظرةً سريعةً مع خالتي ونطقتْ أخيراً:

«كنا... واقفتين على الدرجات... و... تشاجرنا... ثمّ...».

قاطعتُها وسألتُ باهتمام:

«تشاجرتُما؟؟».

أومأتْ أروى إيجاباً... وسمعتُ خالتي تُتمتم:

«يهديكما الله».

قلتُ بشغف:

«في ذلك الوقت المتأخِّر مِنَ الليل؟؟ وعلى عتبات السلَّم؟؟».

وتابعتُ:

«لأجل ماذا؟؟ وكيف وقعتُما هكذا؟؟».

قالتْ أروى مباشرةً وباختصار:

«كان حادثاً... عفوياً».

انتظرتُ أنْ تفصِّل أكثر غير أنها لاذتْ بالصمت وهربتْ بعينيها منّي. قلتُ مستدرّاً توضيحها:

«وبعد؟».

فرمقتْني بنظرة عاجلة وقالتْ:

«مجرّد حادثٍ عفوي».

انفعلتُ وأنا ألاحظ تهرّبها مِنَ التفصيل فقلتُ بصوتٍ قوي:

«مجرَّد حادثٍ عفوي؟؟ اُنظري ما حلَّ بالصغيرة. ألَمْ تجدي وصفاً أفظع مِنْ (حادث عفوي)؟؟».

نطقتْ أروى في وجس:

«وليد!».

«أريد التفاصيل يا أروى؟ ما الذي يجعلكِ تتشاجرين مع رغد في منتصف الليل وعلى عتبات السلَّم؟؟ أخبريني دون مراوغة فأنا رأسي بالكاد يقف على عُنقي الآن».

هنا أحسسنا بحركةٍ صدرتْ عن رغد فتوجَّهتْ أنظارنا إليها...

فتحتْ رغد عينيها فتشدَّقتُ بهما بلهفة... واقتربتُ منها أكثر وناديتُ بلطف:

«رغد... صغيرتي...».

الفتاة نظرتْ إليَّ أولاً، ثمَّ راحتْ تجوبُ بأنظارها فيما حولها وحين وقعتْ على أروى والقابعة على مقربةٍ، فجأةً... تغيّر لونها واحتقنتْ الدماء في وجهها وصاحتْ:

«لا... أبْعِدْها عني... أبْعِدْها عنّي...».

أروى قفزتْ واقفةً بذعر... والخالة مدّتْ يديها إلى رغد تتلو البسملة وتذكر أسماء الله محاولةً تهدئتها...

أمسكتُ بيد رغد غير المصابة وأنا أكرر:

«بسم الله عليكِ... بسم الله عليكِ... اهدئي صغيرتي...».

رغد نظرتْ إليَّ وصاحتْ بقوّة:

«أبْعِدْها عني... لا أريد أنْ أراها... أبعِدْها... أبعِدْها... أبعْدْها».

التفتُّ إلى أروى وصرختُ:

«ما الذي فعلتِه بالفتاة يا أروى؟؟ أُخرجي الآن».

أمُّ أروى قالتْ معترضةً:

«وليد! ما هذا!؟».

فقلتُ غاضباً:

«ألا ترينَ حال الصغيرة؟؟».

وأتممتُ موجِّهاً الكلام إلى أروى:

«أُخرُجي يا أروى... أنا ما كدتُ أصدّق أنها هدأتْ قليلا... ابقي في الخارج هنّا».

وأروى سرعان ما أذعنتْ للأمر وهرولتْ إلى الخارج. حينها التفتُّ إلى رغد وأنا أحاول تهدئتها:

«ها قد ذهبتْ... أرجوكِ اهدئي... اسم الله عليكِ ويحفظكِ...».

لكنها قالتْ وهي لا تتمالك نفسها:

«لا أريد أنْ أراها... أبْعِدْها عنِّي... أتتْ تشمتُ بي... إنها السبب... أنا لا أطيقها... قلتُ لكَ لا أريد أنْ أراها... لماذا سمحتَ لها بالمجيء؟؟ هل تريد قتلي؟ أنتَ تريد لي الموت... لماذا تفعل هذا بي يا وليد؟؟ ألا يكفي ما أنا فيه؟؟ لماذا قُل لماذا... لماذا؟؟؟».

جمّدني الذهول حتّى عن استيعاب ما أسمعه... لا أدري إنْ كان هذا ما قالتْه بالفعل أو إنْ كانتْ رغد هي التي تتكلّم الآن... أنا لنْ أؤكِّد لكم سماعي شيء... إنَّ أذنيَّ فقدتا حاسة السمع ودماغي فقد القدرة على الفهم وذاكرتي أُتْلفتْ مِنْ كميّة الفزع المهولة التي اجتاحتْني منذ البارحة ولا تزال تدكّ عظامي دكاً...

ثوان وإذا بالممرضة تدخل الغرفة وتسأل:

«ما الذي حدث؟؟».

ترددتُ ببصري بين رغد الثائرة والممرِّضة... ثمَّ هتفتُ منفعلاً وموجِّهاً كلامي لها:

«أين هو طبيبكم؟ دعوهُ يرى ما الذي حدث للفتاة إنها ليستْ بخير... ليستْ بخير...».

وبعدها جاء الطبيب - وهو غير الجراح الذي أجرى لرغد العملية - ولمْ تسمح له رغد بفحصها بل صرختْ:

«أخرجوا جميعكم... لا أريدكم... ابتعدوا عنِّي... أيها المتوحشون».

جُنَّ جنون الفتاة... وتصرَّفتْ بشكل أقرب للهستيريا... نعتتنا بالوحوش والأوغاد... وحاولتْ النهوض عن السرير... ونزعتْ أنبوب المصل الوريدي مِنْ ذراعها فتدفَّقتْ الدماء الحمراء ملوّنة الألحفة البيضاء... وسال المصل مبللاً ما حوله... وعندما حاولتْ الممرضة السيطرة على النزيف زجرتْها رغد بعنفٍ ورمتْها بالوسادة التي كانتْ تنام عليها...

«ابتعدوا عنّي... أيها الأوغاد... أخرجوا مِنْ هنا... لا أريد أحداً معي... أكرهكم جميعاً... أكرهكم جميعاً...».

لدى رؤيتي الحالة المهولة لصغيرتي أصابني انهيار لا يضاهيه انهيار... وتفاقمتْ شكوكي بأنها جُنَّتْ... لا قدّر الله... وبنبرةٍ عنيفةٍ طلبتُ مِنْ... لا بل أمرتُ كلاً مِنَ الخالة والطبيب والممرضة بالمغادرة فوراً... علّي أفلح في تهدئة صغيرتي بمفردي... لقد كنتُ مذهول العقل عليها وأريد أنْ أطمئنَّ إلى أنَّ عقلها سليم!

أذعنوا لأمري وطيورُ القلق محلِّقة فوق رؤوسهم... وبعد أنْ خرجوا التفتُّ إلى صغيرتي والتي كانتْ لا تزال تردِّد بانفعال:

«اخرجوا جميعكم ابتعدوا عنِّي...».

قلتُ وأنا أسير عكس اتجاه أمرها وأراقب ثورتها وبالكاد تحملني مفاصلي لِفزعي مِنْ حالها:

«لقد خرجوا يا رغد... إنّه أنا وليد...».

وازدردتُ ريقي:

«هل تريدينني أنْ أخرج أنا أيضاً؟».

أنا وليد... هل ترينني؟ هل تميِّزينني...؟ هل تعين ما تفعلين يا رغد؟

بالله عليكِ لا تجنِّنيني معكِ...

رغد نظرتْ إليَّ وهي لا تزال على انفعالها وقالتْ:

«أنتَ أحضرتَها إليَّ... تريدان أنْ تعجِّلا أجلي... أنتما تكرهانني... كلكم تكرهونني... كلكم متوحِّشون... كلّكم خبثاء... كلّكم أوغاد...».

طار طائر عقلي... انفصمتْ مفاصلي... هويتُ على السرير قربها... مددتُ يديَّ بضعفٍ شديد إلى كتفيها ونطقتُ:

«رغد... ما الذي تهذين به؟؟ ماذا أصاب عقلكِ أنبئيني بربّك؟؟..

آه يا إلهي هل ارتطم رأسكِ بالسلَّم؟؟ هذا أنا وليد... وليد يا رغد... وليد... هل تعين ما تقولين؟؟ ردِّي عليَّ قبل أنْ يُغشى عليَّ؟».

وإذا بي أشعر بحرارة في جفوني... وبشيء ما يتحرّك على عينيَّ...

رغد حملقتْ بي برهةً وقد توقّفتْ عن الصراخ... ثمَّ أخذتْ تئِنّ أنين المرضى أو المحتضرين... وهي تنظر إليَّ... وأنا على وشك فقدان وعيي مِنْ شدّة الذهول والهلع...

اقتربتُ منها أكثر... أسحب ثقل جسدي سحباً... حتّى صرتُ أمامها مباشرةً. حرّكتُ يديَّ مِنْ على كتفيها وشددتُ على يدها السليمة إنْ لأدعمها أو لأستمد بعض الدعم منها... لكنها سحبتْ يدها مِنْ قبضتي... ثمَّ رفعتْها نحو صدري وراحتْ تضربني... بكلتا يديها.

ضرباتها كانتْ ضعيفة قويّة... مواسية وطاعنة... غاضبة وخائفة... في آنٍ واحد... وفوق فظاعة ما أنا فيه رمتْني في زوبعة الذكريات الماضية... الماضي المرير... حيث كانتْ قبضة صغيرتي تصفع صدري عندما يشتدّ بها الغضب منّي...

استفقتُ مِنَ البنج الذي ألمّ بحواسي وإدراكي على صوتها تقول بانهيار:

«لماذا أحضرتَها إلى هنا؟ تودّون السخرية منّي؟؟ أنتم وحوش... أنا أكرهكم».

صحتُ منكسراً:

«لا! كلا... أنتِ لا تعنين ما تقولين يا رغد! أنتِ تهذين... أنتِ غير واعية... لا ترين مَنْ أمامكِ... أنا وليد... انظري إليَّ جيِّداً... أرجوكِ يا رغد... سيزول عقلي بسببكِ... آه يا رب... إلا هذا يا رب... أرجوكَ... أرجوكَ يا رب... إلا صغيرتي... لا أتحمَّل هذا... إلا رغد يا ربِّي... إلا رغد...».

أمسكتُ بيديها محاولاً إعاقتها عن الاستمرار في ضربي ولكن بلطفٍ خشية أنْ أوجعها...

«توقّفي يا رغد أرجوكِ ستؤذين يدكِ... أرجوكِ كفى... أنتِ لا تدركين ما تفعلين...».

لكنها استمرّتْ تحركهما بعشوائية يميناً ويساراً وهما قيد قبضتَيَّ، ثمَّ نظرتْ إلى الجبيرة وامتقع وجهها وصاحتْ بألم:

«آآآه يدي...».

تمزّقتُ لتألمها... أطلقتُ سراح يديها ثمّ حرّكتُهما بحذرٍ ولطفٍ دون أنْ تقاومني، وأرخيتُهما على السرير إلى جانبيها وسحبتُ اللحاف وغطّيتهما... وقلتُ:

«سلامتكِ يا رغد... أرجوكِ ابقي هادئة... لا تحرّكيها... أرجوكِ... عودي للنوم صغيرتي... أنتِ بحاجة للراحة... نامي قليلاً بعد».

فأخذتْ تنظر إليّ وفي عينيها خوفٌ واتّهامٌ... وعتابٌ قاسٍ... وأنظر إليها وفي عينيّ رجاءٌ وتوسُّلٌ وهلعٌ كبير... كانتْ أعيننا قريبةً مِنْ بعضها ما جعل النظرات تصطدم ببعضها بشدّة...

قلتُ وأنا أرى كلَّ المعاني في عينيها... وأشعر بها تحدّق بي بقوّة:

«أرجوكِ صغيرتي اهدئي... لنْ يحدث شيءٌ لا تريدينه... لنْ أدعها تأتي ثانيةً لكن سألتكِ بالله أنْ تسترخي وتهدّئي مِنْ روعكِ... أرجوكِ...».

رغد بعد هذه الحصّة الطويلة مِنَ النظرات القوية... هدأتْ وسكنتْ وأغمضتْ عينيها وأخذتْ تتنفّس بعمق... مرّتْ لحظةٌ صامتةٌ ما كان أطولها وأقصرها... بعدها سمعتُ رغد تقول للغرابة:

«هل سأستطيع رسم اللوحة؟».

نظرتُ إلى وجهها بتشتُّتٍ... وهو مغمض العينين، كأحجيةٍ غامضةٍ ومقفلة الحلول...

أي لوحةٍ بعد؟؟

«أي لوحة؟».

رغد حرّكتْ يدها المجبّرة ثمّ قالتْ:

«لكنني رسمتُها في قلبي... حيث أعيد رسمها كل يوم... وحتى لو لمْ أستطِع المشي... وليد سيحملني على كتفيه... سأطير إلى أمّي...».

ثم اكفهرّ وجهها وقالتْ:

«آه... أمّي... أنظري ما فعلوا بي...».

وصمتتْ فجأة...

بعد كل ذلك الجنون... والهذيان... صمتتْ الصغيرة فجأةً ولمْ تعد تتكلّم... حملقتُ في وجهها فرأيتُ قطرة يتيمة مِنَ الدموع الحزينة... تسيل راحلةً على جانب وجهها ثمّ تسقط على الوسادة... فتشربها بشراهة... وتختفي...

ناديتُها ولمْ ترد... ربّتُ عليها بلطفٍ فلم تُحس... هززتُها بخفة ثمّ ببعض القوة فلمْ تستجب... خشيتُ أنْ يكون شيئاً قد أصابها بغتةً... فقد كانتْ قبل ثوانٍ تصرخ ثائرة والآن لا تتحرّك... ولا تستجيب... ناديتُ بصوتٍ عالٍ:

«أيها الطبيب... أيتها الممرّضة...».

وكان الاثنان يقفان خلف الباب وسرعان ما دخلا وأقبلا نحونا. قلتُ هلِعاً:

«أنظرا ماذا حدث لها... إنها لا تردّ عليّ...».

الطبيب والممرّضة اقتربا لفحصها فابتعدتُ لأفسح لهما المجال... أوصل الطبيب جهاز

قياس النبض بإصبع رغد وتفحّصها ثمّ أمر الممرّضة بإعادة غرس أنبوب المصل في أحد عروقها فباشرتْ الممرضة بفعل ذلك دون أي مقاومة أو ردّة فعل مِنْ رغد... الأمر الذي ضاعف خوفي أكثر فأكثر...

جلبتْ الممرضة عبوة مصل أخرى وجعلتْ السائل يتدفق بسرعة إلى جسد رغد ثمّ أعادتْ فحصها وقياس ضغط دمها... وخاطبتْ رغد سائلةً:

«هل أنتِ بخير؟؟ كيف تشعرين؟؟».

رغد عند هذا فتحتْ عينيها ونظرتْ إلى الاثنين وكأنها للتو تدرك وجودهما فعبستْ وقالتْ زاجرة:

«ابتعدا عنّي».

لكنّها كانتْ مستسلمةً بين أيديهما. سألتها بدوري في قلق:

«رغد هل أنتِ بخير؟؟».

فردّتْ وهي تشيح بوجهها وتحرّك يدها المصابة:

«ابتعدوا عنّي... دعوني وشأني... متوحّشون... آه... يدي تؤلمني».

استدرتُ إلى الطبيب والذي كان يتحسّس نبض رسغها الأيسر وسألتُ:

«ما حلّ بها؟؟... طمئنّي؟؟».

أجاب:

«ضغطها انخفض... لكن لا تقلق سيتحسّن بعد قليل».

سألتُ مفزوعاً:

«ضغطها ماذا؟؟... طمئنّي أكثر أرجوكَ. هل حالتها خطيرة؟؟».

نظر إليّ نظرة تعاطف وطمأنة وقال:

«اطمئن. سيتحسّن بسرعة. إنها نزعتْ الأنبوب مِنْ يدها فجأة... وكان المصل يحتوي مسكّناً للألم يجبْ أنْ يُخفّف بالتدريج كي لا يسبّب هبوطاً مفاجِئاً في ضغط الدم. الوضع تحت السيطرة فلا تقلق».

وكيف لا أقلق وأنا أرى مِنْ أمر صغيرتي العجب العجاب؟؟

قلتُ مستميتاً إلى المزيد مِنَ الطمأنة:

«كانتْ غير طبيعية البتة... ألا تظنّ أنّه ربّما أُصيب رأسها بشيء؟؟... إنّها تهذي وتتصرّف على غير سجيتها... أرجوك تأكّد مِنْ أنّ دماغها بخير».

قال الطبيب:

«نحن متأكّدون مِنْ عدم إصابة الرأس بشيء والحمد لله. لكن الواضح أنّ نفسيّتها متعبةٌ مِنْ جرّاء الحادث، وهذا أمرٌ ليس مستبعداً ويحدث لدى الكثيرين، تحتاج إلى الدعم المعنوي وأنْ تكونوا إلى جانبها».

قلتُ متفاعلاً مع جملته الأخيرة:

«إنها لا تريد منّا الاقتراب منها».

وكأنَّ رغد لمْ تسمع مِنَ الحوار غير تعقيبي هذا فالتفتتْ إلينا وقالتْ:

«ابتعدوا عنّي».

ثمَّ سحبتْ يدها مِنْ يد الطبيب وأمسكتْ باللحاف وخبّأتْ رأسها تحته كلياً... وطلبتْ منّا أنْ نخرج جميعاً وهذتْ بكلمات جنونية لمْ أفهم لها معنى.

نظرتُ إلى الطبيب بقلقٍ شديد:

«أظنّها جُنَّتْ... يا دكتور.. افعلْ شيئاً أرجوكِ... ربّما جُنَّتْ!».

قال:

«كلا كلا... لا سمح الله. كما قلتُ نفسيتها متعبة... سأعطيها منوماً خفيفاً».

وبقيتْ رغد على حالها وسمعتُها تقول ووجهها مغمورٌ تحت اللحاف:

«لا تُعِدها إلى بيتنا ثانيةً... لا أريد أنْ أراها... أبداً».

وكرّرتْ وهي تشدُّ على صوتها:

«أبداً... هل تسمعني؟ أبداً».

ولمّا لمْ تسمع رداً قالتْ:

«هل تسمعني؟؟ وليد إلى أين ذهبتَ؟».

لقد كانتْ تخاطبني مِنْ تحت اللحاف... وأنا لا أعرف إنْ كانتْ تعني ما تقول. قلتُ وأنا أقترب لأُشعرها بوجودي فيما صوتي منكسر وموهون:

«... نعم أسمع... حاضر... سأفعل ما تطلبين... لكن أرجوكِ اهدئي الآن...».

قالتْ:

«إنها السبب».

أثار كلامها اهتمامي... سألتُها:

«ماذا تعنين؟؟».

ولمْ ترد. فقلتُ:

«أتعنين أنَّ أروى...».

ولمْ أتمَّ جملتي، إذ أنها صرختْ فجأة:

«لا تذكر اسمها أمامي».

قلتُ بسرعة وتوتّر:

«حسناً حسنا... لا تضطربي».

فسكنتْ وصمتتْ قليلاً... ثمَّ سمعتُها وللذهول تقول:

«أريد أمّي».

شقّتْ كلمتها قلبي إلى نصفين. الممرضة سألتْني:

«أين والدتها؟».

فعضضتُ على أسناني ألماً وأجبتُ بصوتٍ خافتٍ:

«متوفّاة».

حرّكتْ رغد رأسها مِنْ تحت اللحاف وراحتْ تنادي باكيةً:

«آه... أمي... أبي... عودا إليّ... لقد كسروا عظامي... أنا مدللتكما الغالية... كيف تتركانني هكذا؟؟ أيرضيكما هذا؟؟... لا أستطيع النهوض... آه... يدي تؤلمني... ساعداني... أرجوكما... لا تدعاني وحدي... مَنْ لي بعدكما... عودا إليَّ... أرجوكما... عودا...».

الغرفة تشبعتْ ببخار الدموع المغلية التي لمْ تكد تنسكب على وجنتَيَّ حتّى تبخّرتْ... والتنفس أصبح صعباً داخل الغرفة المغمورة بالدموع...

طلبتُ بنفسي مِنَ الطبيب إعطاءها المنوّم الجديد في الحال... حتّى تنام وتكفّ عن النحيب الذي أفجع ذرّات جسمي... وقطّع نياط قلبي... وأثار حزن وشفقة حتّى الجدران والأسقف... وبعد أمرٍ مِنه، أعطتْها الممرضة جرعةً مِنَ المنوِّم الذي سرعان ما أرسل رغد في دقائق إلى عالم السبات...

وكم تمنيتُ لو أنَّ جرعةً أخرى قد حُقِنتْ في أوردتي أنا أيضاً...

قالتْ الممرضة:

«ها قد نامتْ».

ثمّ أعادتْ قياس ضغط دمها مجدّداً وطمأنتني إلى أنه تحسّن... كما أنَّ الطبيب أعاد فحص نبضها وأخبرني بأنّه على ما يرام...

بقي الاثنان ملازمَين الغرفة إلى أنْ استقرَّ وضع رغد تماماً، ثمَّ خرج الطبيب وظلّتْ الممرّضة تسجّل ملاحظاتها في ملف رغد...

وجه رغد كان لا يزال مغمورا تحت اللحاف وخشيتُ أنْ يصعب تنفُّسها فسحبتُه حتى بان وجهها كاملاً... ومخسوفاً...

كان... كتلةً مِنَ البؤس واليُتم... يصيب الناظر إليه بالعمى ويشيب شعره... وآثارٌ واهية مِنَ الكدمات تلوّن شحوب وجنتيه الهزيلتين...

قالتْ الممرضة وهي ترى التوتر يجتاحني وأنا أتأمّل وجه الفتاة:

«تبدو محبطةً جداً... مِنَ المُستحسن أنْ تأتي شقيقاتها أو المقرّبات لديها لتشجيعها. الفتيات في مثل هذا السنِّ مفرطات الإحساس ويتأثّرن بسرعة حتى مِنْ أتفه الأمور فما بالكَ بإصابة بالغة...!».

أي شقيقات وأي قريبات! أنتِ لا تدركين شيئاً...

ثمَّ تابعتْ تكتب في الملف وأنا قابعٌ إلى جوار رغد أتأمّل كآبتها وأتألّم.

فيما بعد، خاطبتْني الممرضة سائلة:

«عفواً يا سيِّد ولكنّي لاحظتُ شيئاً وأريد التأكُّد... يبدو أنَّ هناك خطأ في معلومات الكمبيوتر... هل اسم والدكما هو شاكر أم ياسر؟؟».

التفتُ إليها وقلتُ:

«رغد ياسر جليل آل شاكر، وأنا وليد شاكر جليل آل شاكر».

نظرتْ إليّ الممرضة وعلّقتْ:

«ألستما شقيقين؟!».

«إنها ابنة عمّي، وابنتي بالوصاية».

زاد العجب على تعبيراتها وأوشكتْ على قول شيء لكنها لاذتْ بالسكوت.

أثناء نوم رغد... أعدتُ استعراض شريط ما حصل منذ أفاقتْ قبل قليل إلى أنْ عادتْ للنوم محاولاً تذكُّر ما قالته واستيعاب تصرّفاتها... وتذكّرتُ جملتها («إنها السبب») والتي أشارتْ بها إلى أروى...

ويحكِ يا أروى...

كبرتْ الفكرة في رأسي وتلاعبتْ بها الشياطين ولمْ أعد بقادر على حملها... وأردتُ التحدُّث مع أروى حالاً...

طمأنتُ قلبي على سلامة الصغيرة وتأكدتُ مِنْ نومها، ثمَّ طلبتُ مِنَ الممرّضة أنْ تبقى ملازمةً معها لحين عودتي، وخرجتُ مِنَ الغرفة بحثاً عن أروى والخالة فوجدتُهما تجلسان على مقربةٍ. وقفتْ الاثنتان بقلقٍ لدى رؤيتي. أنظاري انصبّتْ على أروى وبدأتْ عيناي تتّقدان احمراراً...

الخالة سألتْ:

«كيف هي الآن؟».

لمْ أجبها... إنما اتجهتُ مباشرةً إلى أروى وقلتُ بحدَّة:

«ما الذي فعلتِه برغد؟».

التعجّب والذعر ارتسما على وجه أروى... ولمْ تنطق. يدي تحرّكتْ نحو ذراعها فأطبقتْ عليه وكررتُ بحدّة أكبر:

«أجيبي... ما الذي فعلتِه برغد؟؟».

الخالة تدخّلتْ قائلة:

«ماذا عساها تكون قد فعلتْ؟ لقد وقعتا سويةً».

ضغطتُ بقوّة أكبر على ذراع أروى وصحتُ بوجهها:

«تكلّمي».

أروى حاولتْ التملّص منْ قبضتي عبثاً... ثمّ استسلمتْ وقالتْ:

«كان حادثاً... هل تظنّ أنني دفعتُ بها؟ هل أنا مجنونةٌ لأفعل ذلك؟؟».

بخشونةٍ دفعتُ بأروى حتى صدمتُها بالجدار الذي كانتْ تقف أمامه وقلتُ ثائراً:

«بل أنا المجنون... لأفعل أي شيء... انتقاماً لها...».

الخالة اقتربتْ منا وقالتْ:

«وليد! ماذا دهاكَ؟؟ الناس يمرون مِنْ حولنا».

أخفضتُ صوتي وأنا أضغط على كتفَي أروى الملصقتين بالجدار أكاد أسحقهما به:

«الفتاة بحالةٍ سيئةٍ... أسوأ مِنْ سيئةٍ... إصابتها بالغةٌ ونفسيّتها منهارةٌ... تتصرّف بهستيريا... تقول أنّكِ السبب... وتنفر منكِ بشدّة... لا تقولي أنّكِ لمْ تفعلي شيئاً... أخبريني ما الذي فعلتِه بها اعترفي؟؟».

«وليد!».

صاحتْ أروى وحاولتْ التحرّر لكنني حشرتُها بيني وبين الجدار وصحتُ:

«قلتُ لكِ مراراً... لا تقتربي منها... إلاّ رغد يا أروى... إلاّ رغد... أي شيءٍ في هذا الكون إلاّ رغد... أنا لا أقبل أنْ يصيب خدشٌ أظافرها... ولا يكفيني فيها غير إزهاق الأرواح... وأقسم يا أروى... أقسم بالله العظيم... إنْ أصاب الفتاة شيءٌ... في عقلها أو جسمها... وكنتِ أنتِ السبب بشكلٍ أو بآخر... فسترين منّي شيئاً لمْ تريه في حياتكِ قط... أقسم أنّني سأعاقبكِ بأبشع طريقةٍ... وإنْ اضطررتُ لكسر عظامكِ كلّها وسحقها بيديَّ هاتين».

وجذبتُ أروى قليلاً ثمّ ضربتُها بالجدار بعنفٍ مرّة أخرى...

- أروى -

وبعد نحو الساعة اصطحبني إلى المنزل، وتركنا أُمّي مع رغد، والتي كانتْ تغطُّ في نومٍ عميقٍ بعد جرعةٍ مِنْ دواءٍ مخدِّر.

وليد لمْ يتحدّث معي طوال الوقت... بل كان ذهنه شارداً لأبعد حدود. وفور وصولي للمنزل ذهبتُ إلى غرفتي وأخذتُ أبكي إلى أنْ تصدّع رأسي فأويتُ إلى الفراش.

عندما استيقظتُ لمْ أكن بحالةٍ أفضل، وقرّرتُ أنْ أخبر وليد بتفاصيل ما حصل البارحة... حتّى تتّضح له الحقيقة ويتوقّف عن توجيه الاتهام الفظيع لي.

لمْ أكنْ قد نمتُ غير ساعةٍ أو نحو ذلك، وتوقّعتُ أنْ أجد وليد مستلقٍ على سريره في غرفته ولكنني لمْ أجد له أثراً في المنزل. واستنتجتُ أنه عاد إلى المستشفى.

أنا لا أدري ما القصّة التي قصّتْها رغد عليه للحادث بيد أنني لا استبعد أنْ تكون قد أوهمتْه بأنّني دفعتُ بها عمداً مِنْ أعلى الدرج.

لكن... والله يشهد على قولي... كان ذلك حادثاً غير مقصودٍ إطلاقاً... ولو كنتُ أتوقّع أنْ ينتهي بها الأمر إلى غرفة العمليات لما كنتُ اعترضتُ طريقها ولتركتها تحمل هاتف زوجي إليه وأنا أتفرّج.

(زوجي) كلمةٌ لمْ أعرف معناها كما لا أعرف حقيقة الوجه الآخر لوليد. فالنظراتُ والتهديدات والطريقة الفظّة العنيفة التي عاملني بها هذا الصباح تكشف لي جوانبَ مرعبةً مِنْ وليد لمْ أكن لأتوقّعها أو لأصدّق وجودها فيه، وقد بدأتْ بالظهور الآن.

هذا الرجل قتل شخصاً عندما كان في قمّة الغضب... ومهما كان السبب فإنّ الخلاصة هي

أنَّ الغضب قد يصل بوليد إلى حد القتل!

اقشعرَّ بدني مِنَ الفكرة البشعة فطردتُها خارج تفكيري هذه الساعة، وحاولتُ شغل نفسي بأشياء أخرى... كترتيب وتنظيم أثاث المنزل وما إلى ذلك.

كنتُ قد رأيتُ فراش وليد مُبعثراً حين دخلتُ غرفته بحثاً عنه، والآن عدتُ إليها لأرتّب الفراش وأعيد تنظيم الغرفة، كالمعتاد.

وأثناء ذلك، وفيما أنا أرفع إحدى الوسائد رأيتُ شيئاً غريباً!

كانتْ ورقةٌ فوتوغرافية ممزَّقةً وأجزاؤها موضوعة تحت الوسادة. بفضولٍ جمعتُ الأجزاء وشرعتُ بإعادة تركيبها إلى أنْ اكتملتْ الصورة الفوتوغرافية، فظهرتْ صورةٌ لطفلةٍ تبتسم وفي يدها دفتر تلوين للأطفال، مؤرَّخة قبل ثلاثة عشر عاماً.

الأمر أثار فضولي الشديد وتعجّبي... لِمَ يضعُ وليد صورةً قديمة وممزّقة لطفلةٍ ما تحت وسادته؟؟

لكن لحظة!

دقّقتُ النظر إلى ملامح تلك الطفلة... وإذا لمْ تكن استنتاجاتي خاطئةً فأعتقد أنني عرفتُ مَنْ تكون...!

دعوني وحدي الآن رجاءً!

أنا في حالة ذهول... ولا أريد قول المزيد!

- وليد -

ظلّتْ رغد نائمةً لثلاث ساعات أخرى بعد المنوِّم وأنا والخالة إلى جانبها.

كنتُ أراقب أي تغيّر يطرأ عليها... الصغيرة كانتْ تهذي أثناء نومها وذكرتْ أمّي أكثر مِنْ مرّة... وكانتْ في كل مرّة... تطعن قلبي دون أنْ تدرك...

تركناها تنام دون أي محاولةٍ لإيقاظها... إذ كنتُ في خشيةٍ مِنْ أنْ تداهما الحالة العصبية الجنونية تلك مرّة أخرى...

وعندما فتحتْ عينيها تلقائياً تسارعتْ نبضاتُ قلبي قلقاً... وتشدّقتْ بها عيناي مستشفَّتَيْن حالتها. بدتْ هادئةً ومُستسلمة. نظرتْ مِنْ حولها ولم تُظهِر أية ردّة فعل. كانتْ متقبّلة لوجودنا أنا والخالة إلى جوارها. تركناها بصمتٍ في انتظار أي كلمةٍ أو حركةٍ أو إشارةٍ منها، ولمّا لمْ يصدر عنها شيءٌ، وللهفتي في الاطمئنان عليها، تجرّأتُ وسألتُها:

«صحوة حميدة صغيرتي... هل أنتَ بخير الآن؟».

هربتْ رغد مِنْ نظراتي ورأيتُ فمها يتقوّس للأسفل... لكنها تمالكتْ نفسها ولمْ تبكِ...

هنا حضر الطبيب المشرف على رعايتها لتفقّدها، وقد تجاوبتْ مع أوامره وأخبرتْه أنها لمْ تعد تشعر بالألم. تحدَّث إليها مشجِّعاً وطمأنها إلى أنها تحسّنتْ كثيراً وحاول حثّها على تناول الطعام، لكنها بطبيعة الحال رفضتْه.

على الأقل أنا مطمئنٌ أكثر الآن إلى أنها لمْ تُجنّ، وأنَّ حالتها النفسية الفظيعة تلك قد زالتْ... وأنَّ ضغط دمها مستقرٌ والحمد لله...

بعد خروج الطبيب التفتُّ إليها وسألتُها:

«صغيرتي... أخبريني... هل تشعرين بتحسّن؟ طمئنيني».

كنتُ متلهِّفاً جداً لسماع أي كلمةٍ مطمئنةٍ منها هي... فأنا لا يهمّني فقط أنْ يكون وضعها الصحي مستقراً... بل أريد أنْ تشعر هي بأنها بخير وتخبرني بذلك.

حرّكتْ رغد يدها اليسرى نحوي فأسرعتُ بضمها بين أصابعي مؤازرةً... وقلتُ:

«أنتِ بخير... ألستِ كذلك؟...».

كانتْ تنظر إليّ ولكنها لمْ تجب. بدتْ غارقةً في بئرٍ مِنَ الحزن... رققتُ لحالها وقلتُ مشجِّعاً:

«كلّميني يا رغد أرجوكِ... قولي لي أنكِ بخير...؟؟ أنا أحتاج لأنْ أسمع منكِ...».

نطقتْ رغد أخيراً:

«وليد».

شددتُ على يدها وقلتُ بلهفة:

«نعم صغيرتي... هنا إلى جانبكِ... أكاد أموتُ قلقاً عليكِ... أرجوكِ... أخبريني أنكِ بخير... طمئنيني عليكِ ولو بكلمةٍ واحدةٍ... قولي لي أنّك بخير وأفضل الآن... هل أنتِ كذلك؟؟».

قالتْ رغد أخيراً... وهي تقرأ التوسل الشديد في عينيّ:

«الحمد لله».

كرّرتُ بامتنان:

«الحمدُ لله... الحمدُ لله».

وعقّبتْ الخالة:

«الحمد لله».

حرّكتْ رغد يدها اليسرى نحو رجلها المصابة وبأطراف أصابعها ضربتْ فوق الجبيرة... ثمّ سألتْ:

«كم ستظلّ هذه؟».

كان الطبيب قد أخبرني مسبقاً بأنها ستظلُّ بالجبيرة بضعة أسابيع... وخشيتُ أنْ أذكر ذلك فتصاب الفتاة بإحباطٍ هي في غنىً تام عنه... فقلتُ:

«ليس كثيراً كما أكّد الطبيب... كما أنكِ ستغادرين المستشفى إنْ شاء الله خلال أيام».

والجملة طمأنتْها لحدٍ ما... فصمتتْ ثمّ عادتْ تسأل:

«والجامعة؟».

«سأتّصل بهم وأخبرهم عن أمركِ».

قالتْ وهي تستدير نحو الخالة ليندا:

«والسفر؟؟».

فأجابتْ الخالة:

«نؤجّله إلى أنْ تتحسَّن صحَّتك وتستعيدين عافيتكِ إنْ شاء الله».

فأخذتْ رغد تطيل النظر نحو يدها رجلها المصابتين، وتزفر التنهيدة خلف الأخرى بمرارة...

مددتُ يدي مرّة أخرى وأخذتُ أمسح على جبيرة يدها المصابة مواسياً وأنا أقول:

«اطمئنّي صغيرتي... بلاءٌ وسينفرج بإذن الله... ستتعافين بسرعةٍ بحوله تعالى».

قالتْ وكأنَّ في ذهنها هاجسٌ تريد أنْ تستوثق منه:

«هل سأستطيع المشي؟».

قلتُ بسرعة:

«طبعاً رغد! إصابتكِ ليستْ شديدة لهذه الدرجة».

فقالتْ متشكّكة:

«ألستَ تقول هذا لتهدئتي فقط؟ لا تخفِ عنّي شيئاً».

أجبتُ مؤكِّداً:

«أبداً يا رغد... أقسم لكِ أنَّ هذا ما قاله الطبيب... هل كذبتُ عليكِ مِنْ قبل؟؟».

وليتني لمْ أسأل هذا السؤال... لأنها نظرتْ إليَّ نظرةً قويّةً ثمَّ قالتْ:

«أنتَ أدرى».

ابتلعتُ نظرتها وجملتها، وقد حضر بذهني كيف كانتْ في العام الماضي تنعتني بالكذّاب، لأنني أخلفتُ بوعدي لها بألاّ أسافر دون علمها وسافرتُ مضطراً...

الخالة ليندا قالتْ مؤيِّدة:

«أكّد الطبيب ذلك على مسمعٍ منّي أنا أيضاً. ستشفين تماماً بمشيئة الله. تحلّي بالصبر وقوّي أملكِ بنيّتي».

وسرتْ بعض الطمأنينة في قلب الصغيرة وإنْ بدا على وجهها القلق وهي تقول:

«الحمد لله... المهم أنْ أعود وأمشي طبيعياً... وأرسم مِنْ جديد».

وفهمتُ أنَّ جلّ خوف رغد هو مِنْ أنْ تُصاب بإعاقة لا قدّر الله في رجلها أو يدها... وصرفتُ الوقت في طمأنتها وتشجيعها ورفع معنوياتها...

قضيتُ النهار بكامله مع رغد... ما بين قراءة القرآن والاستماع لتلاوته عبر التلفاز... ومراقبة ودعم رغد بين الحين والآخر... واطمأننتُ ولله الحمد إلى زوال حالة الهذيان الغريبة التي انتابتها صباحاً.

ورغم الإرهاق الذي يستعمر جسدي، قاومتُ وتابعتُ إظهار صمودي وتماسكي وتأقلمي مع الوضع... مِنْ أجلها هي... مِنْ أجل أنْ تصمد وتتشجّع وتستمد القوة منّي... وإنْ كان داخلي في الحقيقة منهاراً بشدّة...

في وقت الزيارة حضر صديقي سيف وأحضر زوجته (أم فادي) لزيارة رغد، ووجدتها فرصةً جيّدةً لتجد رغد مَنْ يواسيها، ولكي استمدَّ بدوري بعض الدعم مِنْ صديقي الحميم وأشكره واعتذر إليه، وإنْ كنتُ أعلم أنَّ سيف لمْ يكن لينتظرهما.

بقي سيف وزوجته معنا لدقائق، وقبيل مغادرتهما سألتُ سيف أنْ يصطحِب خالتي مِنْ جديد إلى المنزل على أنْ يعود بها ليلاً ومعها بعض حاجيات رغد.

«و ماذا عنك يا صديقي؟ ألا تريد قسطاً مِنَ الراحة؟؟».

سألني سيف ونحن نقف في الممرِّ بجوار غرفة رغد وأنا مستندٌ على الجدار أنشد دعمه... وهو أمامي يرى آثار الإرهاق مستنجدةً على وجهي وجسدي...

أجبتُ:

«عندما تعود بالخالة ليلاً سأذهب للنوم. طلبتُ مِنْها أنْ تبقى مرافِقةً لرغد طوال الليل، وأبقى أنا طوال النهار».

سألني سيف:

«وماذا عنْ زوجتكَ؟».

تنهّدتُ بأسى وقلتُ:

«آه... اسكتْ يا سيف ولا تأتِ بذكرها داخل المستشفى... لا تريد رؤيتها ولا حتّى سماع اسمها... آه لو تعرف ما الذي حصل لها صباحاً... جُنَّ جنونها حين رأتْها... تنفر منها بشكلٍ مفزعٍ يا سيف... يبدو أنَّها مَنْ تسبّب في الحادث... بشكلٍ أو بآخر... ولو لمْ أتمالك نفسي اليوم لكنتُ...».

وصمتُّ... إذْ لمْ أشأْ أنْ أعبِّر عنْ مشاعر الغضب المجنونة أمام سيف... لكنني أعلم بأنَّه يُدرك كل شيء...

قلتُ:

«ما كدتُ أصدّق أنها هدأتْ أخيراً... ولا زلتُ متخوفاً مِنْ أنها قد تنهار في أيَّةِ لحظة، ولستُ مطمئناً لتركها وحدها مع الخالة... لكن... إنها مستشفى ولها قوانينها وأنظمتها وبقائي هنا طوال الوقت أمرٌ غير لائق».

بعد صمتٍ قصير سألني:

«كيف وقعتْ؟».

أجبتُ:

«لا أعرف. تشاجرتْ مع أروى... هما ومنذ أيَّام متخاصمتان... تشاجرتا معاً وكانتا تقفان على درجات السلَّم... ووقعتا سويَّةً... لكنّ الإصابة اختارتْ رغد».

وتنفستُ عميقاً ثمَّ قلتُ:

«لمْ يحدث أنْ تعاركتا بالأيدي ولكن... يبدو أنَّ هذا ما حصل على السلَّم... فوقعتا... وأصيبتْ رغد».

زفرتُ نفساً طويلاً وواصلتُ:

«أنا خائفٌ عليها... خائفٌ أنْ يسبِّبَ الجرح مشكلةً مزمنةً في رِجْلِها... أو يدها».

قال سيف مباشرة:

«لا قدَّر الله... تفاءل بالخير يا صديقي».

تنهدتُ مجدَّداً وقلتُ:

«الأمر بالنسبة لي... قضاء أحمد الله على لطفه فيه... والطبيب طمأننا جداً... لكن... يظلّ خوفي الأساسي على الفتاة ونفسيتها... إنها صغيرةٌ وضعيفةٌ جداً... لنْ تتحمَّل شيئاً كهذا... بل إنَّ مجرَّد تفكيرها في احتمال وقوعه يرسلها إلى الجحيم... الصغيرة قد لاقتْ مِنَ البلاء الكثير حتى اليوم... منذ الطفولة يا سيف وهي تعاني...

اليتم... وعمَّار القذر... وفقد والديَّ... واحتراق المنزل... الحرب... والتشرُّد والغربة والوحدة... كل هذا... على قلب فتاة صغيرةٍ بريئةٍ هشَّةٍ... قلْ لي يا سيف مَنْ يتحمَّل ذلك؟؟ وبعد هذا كسرٌ وجبرٌ وعكَّاز... وإعاقة... إنَّ عقل فتاتي يوشك أنْ يزول يا سيف... بل إنَّه قد بدأ يزول فعلاً».

وقبضتُ يدي بشدَّة وفي ألم مرير...

سيف أمسك بقبضتي مشجِّعاً وحين شعرتُ بدعمه أطلقتُ العنان لصدري أكثر ليبوح بمخاوفه...

«أنا السبب الحقيقي في هذه الحادثة! كنتُ أعرف أنَّ التوتُّر بينهما وصل حد الخطر... بل تجاوزه بكثير... كان يجب أنْ أبعدهما عن بعض منذ زمن... ليتَني فعلتُ ذلك قبل فوات الأوان... تركتُ الأمر يصل إلى حد الكسر! أوه يا إلهي! أنا السبب... كيف أقابل ربّي؟؟ بأي وجه سألقى أبي وعمِّي؟ وأمِّي؟؟ ماذا سأقول لهم؟؟ لقد أودعتموها أمانةً عظمى في عنقي وأنا... ببساطةٍ تركتها تتكسَّر!».

وضربتُ رأسي بالجدار الذي كان خلفي غضباً مِنْ نفسي... ومناي لو أنَّه تحطَّم... أو أنَّ عظامي هي التي انكسرتْ ولا مسَّ الصغيرة خدشٌ سطحي...

سيف شدَّ على يدي أكثر ونطق ببعض الكلمات المواسية... التي ما كان أحوجني إليها آنذاك...

بعد ذلك سألني:

«هل... عرف أقاربها بالأمر؟».

فتحتُ قبضتي بسرعة وكأنني تذكَّرتُهم الآن فقط... فقلتُ وأنا أهزُّ رأسي:

«كلاَّ! لنْ أخبرهم! إنهم سيتَّهمونني بالتقصير في رعايتها... كانوا سيحرقونني بنظراتهم عندما أخذتها آخر مرَّة مِنْ بيتهم...».

وتذكَّرتُ الطريقة التي كانتْ أمُّ حسام تخاطبني بها في آخر لقاء... وكيف قالتْ لي: («الله الله في اليتيمة») وكأنها كانتْ تتنبَّأ بأنني سآتي بها يوماً ما مكسورة العظام...!

والأيام سترينا مدى صدق مخاوفي...

قال سيف:

«لا تُحمِّل نفسكَ الذنب يا وليد... فلنحمد الله على لطفه وندعوه أنْ يعجِّل الشفاء للمصابة ويجعل مِنْ وراء هذه الحادثة خيراً».

ابتسمتُ بامتنان ثمّ عانقتُ صديقي مُستمداً منه بعض الطاقة والشجاعة...

بعدها قال:

«بلِّغها تحياتي وأمنياتي بالشفاء العاجل... وإذا احتجتم لأي شيء أو أي مساعدة منّي أو مِنْ أم فادي فلا تترددوا رجاءً».

الساعة الثامنة مساءً... انتهى وقتُ الزيارة... وأتتْ إحدى موظَّفات المستشفى لتنبيهنا لذلك... وأنا واقفٌ إلى جوار رغد... والخالة قد وصلتْ قبل قليل، وسيف قد غادر.

نظرتُ إلى رغد نظرةً متردِّدة ثمَّ قلتُ:

«ستبقى الخالة برفقتكِ... اعتمدي عليها في أيِّ شيء تريدينه وإذا احتجتما لي اتَّصِلا في الحال».

ظهر الاهتمام على قسمات وجه رغد وقالتْ:

«إلى أين ستذهب؟».

أجبتُ بلطف:

«إلى البيت... إذ أنَّه لا يمكنني البقاء أكثر».

وهنا رأينا رغد تستوي جالسةً... وتقول معترضةً ووجهها يصفرُّ قلقاً:

«هل ستتركني وحدي؟».

تبادلتُ والخالة النظرات ثمّ قلتُ:

«لا... ستبقى خالتي معكِ».

وإذا برغد تهتف:

«أخرجني مِنْ هنا».

وضعها ينذر بأنها على وشك الثوران... لمْ أستطع قول شيء فقالتْ الخالة:

«يهديكِ الله يا بنيّتي كيف يُخرجكِ هكذا؟».

لكنَّ رغد لمْ تكنْ تمزح... بل أبعدتْ اللحاف وأرادتْ النهوض فأسرعتُ باعتراضها وأنا أقول:

«أوه كلاَّ... أرجوكِ لا تتحرّكي».

فصاحتْ مرتاعة:

«كيف تذهب وتتركني؟ ألا ترى ما أنا فيه يا وليد؟ ألا ترى هذا؟؟».

قلتُ بهلع:

«حسناً حسنا... سوف لنْ أذهب لكن أرجوكِ لا تنفعلي... ابقَي مكانكِ».

وأنا أعيد إسنادها إلى الوسادة، وأتنهَّد ثمَّ أمسح زخَّات العرق التي نبعتْ مِنْ جبيني وأضغط على صدغي لأخفِّف الصداع الذي تفاقم لحظتها... ثمَّ أجلس على طرف السرير باستسلام...

لا بد أنَّ التوتر والضيق كانا فاضحين جداً على وجهي... للدرجة التي صعقتْني عندها رغد بقول:

«ماذا؟ هل ضِقتَ ذرعاً بي؟ إذنْ ارمِ بي مِنْ هذه النافذة وأرح نفسكَ».

لا! ليس مِنْ جديد...

توقَّفي عن جنونكِ يا رغد أرجوكِ كفى... كفى...

زحفتُ نحوها وقلتُ بألم وما بي مِنْ بقايا طاقة تتحمَّل المزيد:

«ما الذي تتفوَّهين به يا رغد؟؟».

قالتْ صارخةً:

«ألا ترى حالتي هذه؟؟ كيف تفكِّر في الذهاب وتركي؟ ألا تشعر بما أنا فيه؟».

إنَّكِ أنتَ مَنْ لا يشعر بما أنا فيه يا رغد...

قلتُ:

«لا لمْ أفكِّر في ترككِ، ولكن نظام المستشفى لا يسمح ببقاء رجلٍ برفقةِ مريضة في قسم السيدات. حتّى لو كان أباها. لذلك طلبتُ مِنَ الخالة مرافقتكِ».

لكن رغد لمْ يُعجبها هذا وأصرَّتْ على أنْ أبقى معها تلك الليلة، ولمْ تكن حالتها تسمح بأنْ أتجاهل إصرارها...

ورغم الحرج الشديد الذي واجهتُه وأنا أطلب مِنَ المسؤولين السماح لي بالبقاء هذه الليلة مع المريضة والمرافقة... تعاطفاً مع حالتها النفسية، رضختُ لرغبة رغد وتكبّلتُ العناء وقضيتُ الليلة الثانية ساهراً إلى جوار صغيرتي... تاركاً أروى تبات وحيدةً في المنزل الكبير...

لمْ تكن ليلتي ليلةً ولمْ يكن حالي حالاً... لا أنا ولا صغيرتي عرفنا للراحة طعماً... كنتُ أجلس على مقعد تحجبه عن سريرها الستارة... ولكنّي كنتُ أسمع كلَّ حركاتها وتقلباتها وتأوّهاتها طوال الليل... كانتْ نوبات الألم تكرُّ وتفرُّ على عظام الصغيرة المكسورة وأنسجتها الممزقة... والممرضة تأتي بين فترة وأخرى لإعطائها المسكِّن...

في صباح اليوم التالي سمحتْ لي رغد بالخروج على أنْ أعود عصراً... وما كادتْ تفعل.

كان الإرهاق قد أخذ منّي ما أخذ ولمْ أكن قد نمتُ البارحة أبداً... غير غفوةٍ قصيرة تملَّكتني بعد شروق الشمس. ويبدو أنَّ الخالة قد نجحتْ في إقناعها بتركي أذهب أثناء غفوتي القصيرة أوَّل الصباح.

وقفتُ قرب رغد أسألها عن أي شيء أخير تريده قبل مغادرتي...

«سآوي إلى فراشي مباشرةً... وسأترك هاتفي عند وسادتي... اتصلا إنْ احتجتما أي شيء في أي وقت وبدون تردد».

قلتُ وأنا أنقل بصري بين رغد والخالة... رغد أومأتْ موافِقة، والخالة قالتْ مطمئِنة:

«لا تقلق يا بني. سنتصل عند الضرورة. اذهب ونم مطمئناً مسترخياً».

التفتُ إلى رغد وأطلتُ النظر... لمْ يكن قلبي بقادر على المغادرة ولمْ أثق في موافقتها هذه... لكنّي كنتُ في غاية الإرهاق وبحاجة ماسّة للنوم...

مددتُ يدي إليها وربتُ على يدها وقلتُ بصوت هادئ وحنون:

«حسنا صغيرتي... أتركُكِ في رعاية الله... ابقي هادئة رجاءً... سوف لنْ أطيل الغياب».

الصغيرة شدّتْ على يدي وحملقتْ بي وربما كان لسان حالها يقول («لا تذهب») لكنها أجبرتْ فمها على التقوس في شبه ابتسامة...

وما كان منّي إلا أنْ شددتُ على يدها وقلتُ أخيراً بأحن صوت:

«أراكِ على خيرٍ وعافية... يا صغيرتي».

وهكذا تركتُها أخيراً وعدتُ إلى البيت مثقلاً بالتعب والهموم...

في المنزل سرتُ ببطءٍ شديد حتى بلغتُ أسفل الدرج... وتذكرتُ صراخ رغد ليلة الحادثة فقرصني الألم في قلبي... صعدتُه خطوةً خطوة... وأنا مستمرٌ في إنعاش صدى صرخاتها... وانعكاس صورة وجهها المتألم...

وقادتني قدماي بشعور أو بغير شعور... ليس إلى غرفتي... بل إلى غرفتها...

دخلتُ الغرفة متجاوزاً كل اعتبار... وأخذتُ أحلّق بأنظاري في أرجائها... وأعانق بيدي جدرانها...

على الجدار الكائن خلف سرير رغد... كانتْ الورقة القديمة... للصورة التي رسمتْها رغد لي... بشاربي الطويل... لا تزال تقف ومنذ سنين... بكل صمود...

لمْ تتحمّل عيناي رؤيتها... وسرعان ما خرّتْ دموعي صريعة الأسى...

جلستُ على حافّة السرير... ومسّدتُ على الوسادة كما لو كانتْ هي صغيرتي... بكل عطف وحنان... فإذا بي أشعر بحبيبات رمل تعلق بكفي... وألقي عليها نظرة فإذا بها ذرات السكر...

جذبتها إليّ وضممتُها إلى صدري... وهو أمرٌ لمْ أستطع أنْ أقدّمه لفتاتي المرعوبة... عوضاً عن وسادتها... وكلّما تذكّرتُ كيف كانتْ مرحةً وسعيدة جداً ونحنُ في النزهة أوّل الليل... ثمَّ كيف صارتْ كومةً مِنَ البؤس والألم والصراخ... ملقاةً على السرير الأبيض التعيس آخره... عصرتها أكثر بين ذراعي...

انتابني شعور بنيران تحرق معدتي... وكأنها تنعصر قهراً مع الوسادة وتأوهتُ بألم...

«آه يا رغد...».

رفعتُ يدي مِنْ على الوسادة إلى السماء وزفرتُ الآهة مصحوبة باستغاثة يا رب...

«يا رب... يا رب... أنا لا أعزُّ شيئاً في هذه الدنيا مثل رغد... يا رب... أنا أتحمّل أيَّ بلاءٍ... إلا فيها... أتوسّل إليكَ يا رب... ألطُف بحالي وحالها... أتوسّل إليكَ... اشفِها وأخرجها سالمةً...

وأعِدها كما كانتْ... يا رب... خُذ مِنْ صحّتي وأعطِها... وخُذ مِنْ عمري وهبها... خُذ منّي كل شيء... واحفظها سالمةً... هي فقط... أنا لا أتحمَّل أنْ أُفجَع فيها... يا رب... أيّ شيء... إلاّ رغد يا رب... أرجوكَ... لا تفجعني فيها... أنا أختنق يا رب... إلهي... أتوسّل إليكَ وأنتَ السميع البصير اللطيف الرحيم... اجعل لي مِنْ لطفكِ فرجاً عاجلاً... عاجلاً يا رب... عاجلاً يا رب... يا رب...».

ولو بقيتُ ها هنا لزهقتْ روحي مِنْ فرط المرارة...

غادرتُ غرفة رغد وأنا شاعرٌ بها تملأ رئتي... أزفرها وأستنشقها مع كل أنفاسي وأناتي...

ذهبتُ إلى غرفتي وقضيتُ زمناً أناجي الله وأدعوه وأصلّي له... حتى سكنتْ نفسي واطمأنَّ قلبي وارتاح بالي... وفوّضتُ أمري إلى الله اللطيف الرحيم...

أخيراً... رميتُ برأسي المثقل على الوسادة... ونشرتُ أطرافي على فراشي بعشوائية... أخيراً سأستسلم للنوم...

أغمضتُ عينيّ بسلام... فإذا بي أتخيّل رغد مِنْ جديد... فتحتُهما فرأيتُها أمامي... لففتُ رأسي ذات اليمين ثمّ ذات الشمال... وكانتْ هي هناك... في كل مكان...

رفعتُ وسادتي ووضعتُها على وجهي لأحول دون صورة رغد التي لمْ ترحم بحالتي تلك الساعة...

أرجوكِ كفى! لماذا عدتِ؟ دعيني أنام ولو لساعة! أرجوكِ يا رغد... رأفةً بي...

لكنني رأيتُها تحت الوسادة ولو قلبتُ وجهي على السرير لرأيتها فوقه أيضاً تحاصرني كالهواء مِنْ كل الجهات...

فجأة... تذكّرتُ شيئاً... لمْ يكن ينقصني تذكُّره في تلك الساعة التعيسة...

رفعتُ الوسادة عن رأسي وجلستُ وبحثتُ بعيني تحت موضعها... قلبتُ بقية الوسائد... أزحتُ البطانية وفتّشتُ هنا وهناك ولمْ أعثر على رغد!

«ربّاه! أين اختفيتِ فجأة؟؟».

ذهبتُ فوراً إلى محفظتي وشرّحتها تشريحاً دون جدوى!

فتشتُ أسفل السرير... والمنضدتين الجانبيتين والأدراج... وكل مكان لمْ أكن لأترك فيه (رغد)... ورغم أنها كانتْ موجودة في كلِّ مكان، لمْ أجدها في أي مكان!

«أروى! هي أروى!».

استنتجتُ فجأة...

فخرجتُ مِنْ غرفتي وتوجّهتُ إلى غرفة أروى... والتي لمْ أكنْ قد رأيتُها مذ تشاحنتُ معها صباحاً ونحن في المستشفى...

لمْ أتردّد غير برهةٍ واحدةٍ بعدها طرقتُ الباب وناديتُ:

«أروى... هل أنتِ نائمة؟؟».

الوقت كان مبكّراً وخشيتُ أنْ تكون نائمةً، لكنني أعلم أنَّ مِنْ عادتها النهوض باكراً كل

صباح... أعدتُ الطرق فرأيتُ الباب يُفتح بعد ثوان وتطلُّ مِنه أروى بوجهٍ قلِق.

اللحظة الأولى مرَّتْ صامتةً ساكنةً حتى عن الأنفاس... وباردةً كليلة شتاء...

«هل... كنتِ نائمة؟».

سألتُها بعد ذلك البرود فأجابتْ:

«نعم...».

وسألتْ بقلق:

«ماذا هناك؟؟».

رددتُ:

«آسف لأنني أيقظتكِ».

«كنتُ سأصحو قريباً على أية حال... لكن ماذا هناك؟ متى عدتما؟».

قاصدةً إياي والخالة، قلتُ:

«خالتي ظلّتْ مع رغد».

وكأنّ ذكر (رغد) أثار في وجه أروى موجة مِنَ التعبيرات المنزعجة... وسرعان ما نقلتْ بصرها بعيداً عنّي...

قلتُ:

«كنتُ سأسألكِ سؤالاً».

التفتتْ إليَّ وقالتْ مباشرة:

«وأنا أيضاً أودُّ أنْ نتحدّث يا وليد...».

وهي تفتح الباب أكثر... فرددتُ:

«كلا ليس هذا وقته. أنا متعبٌ لأقصى حد، ولا يتحمَّل رأسي أي شيء... ولا شيء».

وكأن إجابتي أصابتْها بإحباطٍ ممَّا بدا على وجهها. تابعتُ:

«فقط أخبريني... ألستِ مَنْ قام بترتيب غرفة نومي؟».

وكانتْ عادتها أنْ تفعل ذلك. لمْ تجِبْ أروى مباشرةً... بل أخذتْ لحظة تفكُّرٍ... ثمَّ قالتْ:

«بلى».

«و... هل رأيتِ شيئاً قرب وسائد سريري؟ أعني... هل أخذتِ شيئاً مِنْ هناك؟».

لمعتْ عينا أروى بشكل لمْ أفهمه... رمقتْني بنظرة حادّة لا تتناسب وبرودة اللحظة... ثمَّ قالتْ:

«شيء مثل ماذا؟؟».

وفهمتُ مِنْ ذلك أنها رأتْ الصورة الممزَّقة... فعضضتُ على أسناني ثمَّ قلتُ:

«أين وضعتِها؟».

أروى رفعتْ حاجبيها وقالتْ:

«القصاصات الممزَّقة؟».

تشبثتْ عيناي بعينيها أكثر، إجابة على السؤال... فتابعتْ هي:

«لقد... ألقيتُ بها في سلّة المهملات».

ماذا تقولين؟؟ لمْ أسمع جيداً؟؟ سلّة ماذا؟؟!!

قلتُ بدهشة ممزوجة بعدم التصديق:

«ماذا؟؟ رميتِ بها؟؟».

لمْ تعقّبْ أروى... فكرّرتُ وقد اشتدّ صوتي وبدأتْ ألهبة النار تتراقص في عيني:

«تقولين رميتِ بها؟؟».

ومِنَ البرود الذي صافحني به وجهها اشتعلتْ النيران في رأسي كلياً...

«أروى!! رميتِ بها؟؟ بهذه البساطة؟؟ ومَنْ أعطاكِ الحق بهذا التصرُّف؟ أوه... أروى ويحك!! في المرّة السابقة رميتِ بالصندوق والآن بالصورة... كيف تسمحين لنفسكِ بهذا؟؟».

ولمْ يتجاوز ردّ أروى حدّ النظرات الصامتة!

«أخبريني في أي سلّة رميتِ بها؟».

دارتْ عين أروى وكأنّها تحاول التذكُّر ثمَّ قالتْ:

«أظن... أنّ الخادمة قد أخرجتْ جميع أكياس المهملات إلى سلّة الشارع».

حينها لمْ أتمالك نفسي!

صرختُ في وجه أروى بعنف... وأحرقتْه بنار الغضب...

أطبقتُ على ذراعيها وهززتُها بقوّة وركلتُ الباب ركلةً عنيفةً أوشكتْ على كسر عظام قدمي الحافية...

«ما الذي فعلتِه يا أروى؟؟ لا تدركين ما فعلتِه... كيف ستعيدينها الآن؟؟ تباً لكِ! ألا يكفي كل ما أحدثتِه لحد الآن؟ لن يتّسع عمري لتصفية حساباتي معكِ... والآن اذهبي واستخرجيها لي ولو مِنْ قعر الجحيم!».

رأيتُ نهرين مِنَ الدموع يتفجّران فجأة مِنْ عيني أروى ويسيلان على وجنتيها... ورأيتُ الاشتعال في وجهها إثر صفْعِ صراخي القوي...

كنتُ غاضبا جداً...

ألمْ يكفها ما فعلتْ بالصغيرة؟ وأيضاً تحرمني مِنَ البقايا الممزّقة مِنْ ذكراها التي لمْ تفارقني لحظةً واحدة...منذ سنين؟؟

صرختُ بخشونةٍ بالغةٍ:

«لا أريد دموعاً... أريد الصورة الآن وبأيّ طريقة... هيّا تحرّكي... في الحال... قبل أنْ تمزّقكِ شياطين غضبي إرباً... أتسمعين؟؟».

وأفلتُّها مِنْ بين يدي بدفعةٍ قاسيةٍ...

أروى استندتْ إلى الجدار... ثمَّ مسحتْ دموعها... ثمَّ سارتْ ببطء نحو الداخل... ثمَّ عادتْ إليَّ تحمل شيئاً في يدها ومدّته نحوي...

وسرعان ما اكتشفتُ أنها قصاصات صورة رغد الممزقة...

تجمّدتُ فجأة ولمْ أقوَ على الحراك... وتحوّلتْ نيراني إلى كتلٍ مِنَ الجليد... رفعتُ بصري إلى عينيها فرأيتهما حمراوين والمزيد مِنَ الدموع تتجمّع فيهما... ومنهما تنبعثُ نظرات تعيسة...

«خُذ».

تكلّمتْ بصوتٍ هزيلٍ ضعيفٍ... وهي تحرّك يدها...

تحرّكتْ يدي بلهفةٍ وتناولتُ القصاصات مِنْ يدها... وأخذتْ عيني تتفحّصها بشوقٍ وتتأكّد مِنْ اكتمالها... ثمّ انتقلتْ أنظاري مِنَ القصاصات إلى أروى...

شعرتُ بالانهيار... بالشتات... بالفراغ...

وأخيراً... قلتُ بصوتٍ تحطّم وتحوّل مِنَ الصراخ الناري إلى الهمس البارد:

«لكن... أه... لماذا ادّعيتِ أنكِ...».

وتجمّدتْ بقية الجملة ولمْ تذب على لساني. أروى ردّتْ وسط بحر الدموع:

«كنتُ... أريد اختبار ردّة فعلكَ... لأتأكّد».

وعصرتْ الدمع المتجمّع في عينيها بمرارة... ثمّ تابعتْ:

«وأنا الآن... متأكّدة... مِنْ كلّ شيء».

وأطلقتْ زفرتين باكيتين ثمّ أضافتْ أخيراً:

«ستمزّقني... حتّى مِنْ أجل... صورتها!».

وبسرعة استدارتْ وهرولتْ نحو سريرها وأخفتْ وجهها بين الوسائد وبكتْ بانفعال...

واقفٌ كعمود الإنارة المحروق... لا يملك قدماً تخطو للأمام ولا للخلف... ومهما ثار يبقى منطفئاً عاجزاً عن إنارة المنبت الذي يرتكز عليه... ورؤية أين يقف... تسمّرتُ أنا بين الذهول والفزع... وبين الإدراك والغفلة... والتصديق والرفض... أنظر إلى أروى وأسمع دوي كلماتها الأخيرة يزلزل جمجمتي... دون أنْ يكون لي مِنَ القوّة أو الجرأة ما يكفي لفعل أي شيء!

أخيرا تمكّن لساني مِنَ النطق...

«أروى...».

لمْ ترد عليّ، ربما كان صوتي جداً ممزقاً... لممتُ شيئاً منه وناديتُها ثانيةً:

«أروى...».

وهذه المرّة ردّتْ فجاء صوتها مكتوماً عبر الوسائد:

«اتركني وحدي».

وعلى هذا... عدتُ أدراجي إلى غرفتي أحمل أشلاء صورة محبوبتي الصغيرة بين أصابعي... وأضمّها إلى صدري...

ومرّة أخرى هويتُ برأسي المشحون بشتّى الأفكار على الوسادة... ولكنني لمْ أرَ إلا ظلاماً أودى بوعيي إلى قعر الغياب...

الحلقة الثالثة والأربعون

مَنْ حبيبتك؟

- وليد -

الساعة الثالثة إلا عشر دقائق عصراً أفقتُ مِنَ النوم مفزوعاً على صوت رنين هاتفي. تناولتُ الهاتف بسرعة وأنا استرجع وعيي فجأة وأتذكَّر رغد وما ألمَّ بها.

أجبتُ بقلق:

«نعم هذا أنا».

وسمعتُ صوت رغد يحدّثني مِنَ الطرف الآخر:

«مرحباً وليد. هل كنتَ نائماً؟».

«نعم رغد. هل أنتِ بخير؟».

«أجل. اتّصلتُ مرّتين ولمْ ترد! كنتُ أريد أنْ أطلب مِنْك جلب بعض حاجياتي معكَ. متى ستأتي؟».

ألقيتُ نظرة على ساعة الحائط ثمَّ قلتُ:

«بعد ساعة مِنَ الآن. لقد استغرقتُ في النوم ولمْ أحس بشيء. أنا آسف. ماذا أجلبُ معي؟».

وذكرتْ لي عدّة أشياء تلزمها... كان (الحذاء) مِنْ بينها!

لمْ ألتقِ بأروى خلال تلك الساعة ولمْ أسمعْ رداً حين طرقتُ باب غرفتها لأعلِمها بانصرافي... وذهبتُ إلى المستشفى وأنا أحمل باقةً مِنَ الزهور الجميلة وعلبة شوكولا كبيرة بالإضافة إلى حاجيات رغد.

عندما وقعتْ أنظاري عليها للوهلة الأولى شعرتُ براحة... إذ أنها بدتْ بحالة أفضل وعاد لون الحياة إلى وجهها بعد الشحوب. كما أنها سُرَّتْ بباقة الزهور وشكرتْني عليها. أقللتُ خالتي إلى المنزل وعدتُ سريعاً إلى رغد حيث قضيتُ معها ساعات الزيارة...

تخلّل تلك الساعات فترة العشاء وقد قمتُ بنفسي بتشجيع ومساعدة رغد على تناول الطعام.

تجاوبها معي طمأنني إلى أنها تجاوزتْ مرحلة الانهيار النفسي وتقبّلتْ لحدٍ ما وضعها الحالي. هذا إضافة إلى أنَّ كلام الطبيب منحني المزيد مِنَ الطمأنة على وضعها هذا اليوم.

بعد أنْ أنهتْ عشاءها بدا عليها بعض الشرود والتوتر... وأنا أعرف صغيرتي حين يشغل بالها شيء...

سألتُها:

«أهناك شيءٌ رغد؟».

نظرتْ إليّ وفي عينيها التردد ولمحتُ أصابع يدها السليمة تتحرّك باضطراب. وكأنّها تودّ قول شيء وتخشاه.

قلتُ مشجعاً:

«خير صغيرتي؟؟ ماذا يزعجكِ؟».

قالتْ بعد لحظة تردد:

«ماذا قالتْ لكَ؟».

نظرتُ إليها مستنتجاً ما تعنيه. كانتْ الإشارة إلى أروى طبعاً. الاهتمام كان جلياً على وجهها. رددتُ عليها:

«لا شيء».

فسألتْ:

«لا شيء؟؟».

فوضّحتُ:

«أعني أنني لمْ أتحدّث معها بعد. لمْ أجدْ الوقتَ لذلك. كنتُ نائماً طوال الساعات».

تلاشى جزءٌ مِنْ توتّر رغد وسكنتْ أصابعها ولكنها لمْ تزل مشغولة البال. قلتُ:

«أهناك شيء تودّين قوله لي يا رغد؟».

اضطربتْ وأجابتْ:

«لا. لكن...».

«لكن ماذا؟».

«لا تصْغِ لما تدّعيه هي عليّ... إنها تكرهني».

وقد قالتْها بانفعالٍ فقلتُ:

«لا أحد يكرهكِ يا رغد».

فردّتْ بانفعالٍ أكثر:

«بل تكرهني... وتعتبرني عالةً عليكَ وعلى ثروتها.. بل وحتّى على منزلنا».

قلتُ نافياً:

«غير صحيح يا رغد... أروى ليستْ مِنْ هذا النوع».

قالتْ بعصبية:

«قلتُ لكَ لا أريد سماع اسمها... لماذا تدافع عنها؟ ألمْ ترَ ما فعلتْ بي؟؟ أنتَ لمْ تسمعْ ما قالتْه لي».

أحسستُ بأنّ أي شرارة قد تُشعِل حريقاً فظيعاً... فأردتُ تدارك الأمر وقلتُ:

«لا تلقي بالاً لشيءٍ الآن. سنناقش المشكلة بعد خروجكِ سالمةً إنْ شاء الله».

هدأتْ رغد وقرأتُ الرضا والامتنان على قسمات وجهها، ألحقتْهما بابتسامةٍ بسيطةٍ وبكلمة:

«شكراً على تفهّمكَ».

ابتسامتها السطحية هذه أدّتْ مفعولها وأشعرتني بتيارٍ مِنَ الراحة... أما جملتها التالية فأطلقتُ قلبي محلقاً في السماء...

«أنتَ طيّبٌ جداً... أثقُ بكَ كثيراً وليد».

غمرتْني نشوى دخيلةٌ على الظرفِ والحالِ اللذين نمرّ بهما... وأطلقتُ زفرة ارتياحٍ وسرورٍ مِنْ أعماقِ صدري...

وانقضتْ ساعات الزيارة وذهبتُ إلى المنزل مرتاحَ البالِ ومتهلّل الوجه لحدٍ ملحوظ... ثمَّ اصطحبتُ الخالة ليندا إلى المستشفى لتبقى مع رغد طوال الليل...

عندما وصلنا إلى المستشفى، وبعد أنْ ركنتُ السيارة في أحد المواقف الخاصة، خاطبتْني الخالة قائلة:

«وليد يا بنيّ... عُد إلى أروى وتحدَّث معها».

كانتْ نبرتها مزيجاً مِنَ الجديّة والحزن... أيقظتْني مِنْ نشوة السرور التي كنتُ أغطّ فيها... شعرتُ بالحرج وقلّة الحيلة ولمْ أجرؤ على النظر إلى عينيها... الخالة تابعتْ:

«إنها ليستْ على ما يُرام يا بُني... أنتَ منشغلٌ هنا مع رغد وإصابتها... لكنّ أروى أيضاً في حالةٍ سيئةٍ وبحاجةٍ إليكَ بارككَ الله».

بخجلٍ رفعتُ بصري إليها وأطرقتُ برأسي مؤيّداً...

حين وصلتُ إلى البيت وقفتُ أمام غرفة أروى في حيرة... لمْ تكن لدي الأفكار الحاضرة لطرحها في الحديث... وأحاديثنا في الأيام الأخيرة كانتْ مشحونةً جداً... ومؤخَّراً تصرّفتُ معها بخشونةٍ بالغةٍ...

مددتُ يدي أخيراً وطرقتُ الباب...

«هذا أنا... أيمكنني الدخول؟؟».

فلمْ ترد. فقلتُ:

«أروى... هل أنتِ نائمة؟؟».

فلمْ ترد. كرّرتُ نداداتها إلى أنْ سمعتُها تجيب أخيراً وبنبرةٍ غاضبةٍ:

«نعم؟ ماذا تريد».

«لِمَ لا تردّين عليَّ؟؟ أقلقتِني عليكِ».

فسمعتها ترد بأسلوبٍ لمْ يعجبني:

«أحقاً؟؟ لا داعٍ لأنْ تقلق بشأني. يكفيك ما أنتَ فيه ومَنْ تقلق بشأنهم. لا تُتعِب نفسكَ».

وقفتُ برهةً حائراً ومُنزعجاً في مكاني.. فأنا لمْ اعتدْ الصدود مِنْ أروى بل رحابة الصدر وطول البال وحرارة الترحيب... ثمَّ ناديتُها مرّتين وطلبتُ منها الإذن لي بالدخول لنتحدّث...

ولمّا تجاهلتْ نداءاتي تجرّأتُ وفتحتُ الباب!

دخلتُ الغرفة فرأيتُ أروى تهبُّ واقفةً مفاجَأة مِنْ دخولي... ورأيتُ الاحمرار يطلي وجهها بسرعة... وأروى مِنَ النوع الذي يتغيّر لون وجهه بسرعة مع تغيرات انفعالاته...

قلتُ وأنا أراها تضطرب وترتدّ خطوةً للوراء:

«أنا... أنا آسِف ولكنّني...».

وتنحنحتُ لأزيل الحروف التي تعثّرتْ في حنجرتي... ثمّ تابعتُ بصوتٍ خافتٍ وحنونٍ:

«قلقٌ بشأنكِ».

حلّ صمتٌ عميقٌ فيما بيننا فلا أنا قدرتُ على مواصلة الكلام ولا هي تكلّمتْ لتشجّعني... بل تراجعتْ خطوةً أخرى للوراء وأدارتْ وجهها وأبعدتْ عينيها عنّي...

هل سنقف هكذا طويلاً!؟؟ يجب أنْ أفعل شيئاً!

تجرّأتُ وخطوتُ بضع خطوات مقترباً مِنْ أروى... وهي لا تزال مديرةً وجهها عنّي متحاشيةً النظر إليّ...

«أروى».

ناديتُها بصوتٍ حنون... وإنْ لمْ تنظر إليّ أو لمْ ترد عليّ... فهي على الأقل تسمعني. قلتُ:

«أروى... أنا آسفٌ لما بدر منّي... أعرف أنني... أنني كنتُ فظاً... لكن... اعذريني فأنا أمرُّ بظروفٍ يُفقِد المرء اتزانه».

وأضفتُ:

«والأجدر بكِ كزوجةٍ مساندتي وليس مؤاخذتي...».

هنا التفتتْ أروى إليّ ورفعتْ بصرها نحوي... فقرأتُ في عينيها كلمات غاضبة...

ثمّ علّقتْ:

«والأجدر بكَ كزوج... ملاطفتي وليس الصراخ في وجهي وسحق عظامي في الجدران».

لمْ أعرف بِمَ أعقّب! ألجمني تعقيب أروى وأشعرني بذنبٍ مؤلم...

أنا وأروى ومنذ ليلة شجارها مع رغد... على خصام وتشاحن... أحدث شجارهما بيننا فجوةً آخذةً في الاتساع...

أولتْني أروى ظهرها لتبعد عينيها وتعبيرات وجهها عن مرآي. مرّتْ اللحظة خلف اللحظة ونحن واقفان على هذا الوضع... أردتُ أنْ أشعِرها بندمي وبأنني راغبٌ في أنْ نتفاهم ونتصالح...

مددتُ يدي ووضعتُها على كتفها برفق... ثمّ أدرتُها لتواجهني... وعندما التقتْ نظراتنا شاهدتُ بريق الدموع في عينيها...

«أروى...».

قلتُ هامِساً...

«دعينا نتفاهم... أرجوكِ».

رفعتْ أروى يدها ومسحتْ الدمعة العالقة في رموشها قبل أنْ تهطل... وأظهرتْ تعبيرات التماسك وقالتْ:

«حسناً. عمَّ تريدنا أنْ نتفاهم؟».

قلتُ وأنا لا أزال واضعاً يدي على كتفها:

«عن كل شيء... والأهم عنكِ أنتِ».

نظرتْ إليَّ وهي تضيّق فتحتي عينيها وتقول:

«عنّي أنا؟».

«نعم. فأنا أودّ الاطمئنان عليكِ قبل كلِّ شيءٍ الآن...».

«وكيف تراني الآن؟؟».

قلتُ مشجّعاً:

«أراكِ بخير والحمد لله... ألستِ كذلك؟».

أمالتْ أروى إحدى زاويتي فمها للأعلى وعقّبتْ:

«تلزمكَ نظّارة».

وهي إجابةٌ لمْ أتوقعها مِنْ أروى... ولمْ أستسغها... ثمَّ أبعدتْ يدي عنْ كتفها إشارةً إلى أنها غاضبة منّي...

قلتُ محاولاً استرضاءها:

«أروى... أنا آسف... آسفٌ لأنني قصّرتُ معكِ وأسأتُ التصرُّف... أرجوكِ أنْ تعذريني... إنني لا أعرف ما حصل ولكنني كنتُ مأخوذاً بإصابة رغد البالغة ولمْ أستطع التفكير في شيءٍ آخر وقتها... أردتُ أنْ أسألكِ لتتَّضِح الأمور... ولكن... تعرفين... كنتُ مضطراً لملازمة رغد في المستشفى بالتالي لمْ تسنح الفرصة».

قالتْ أروى وهي تعبّر عن استيائها:

«مضطر؟؟».

«أعني... أنَّه لا بد مِنْ ذلك... لمْ يمكنني تركها وحيدةً آنذاكَ لأنها تفزع مِنَ الوحدة والغربة... إنَّه فزعٌ مرضي كما أعلمتُكِ مسبقاً...».

قالتْ أروى بشيء مِنَ السخرية:

«وما الذي جعلكَ تتركها الآن؟ هل تخلّصتْ مِنْ مرضها أم ماذا؟».

لمْ أعلّق على سؤالها، ثمَّ قلتُ:

«لندعْ رغد لما بعد ولنتحدّث عنكِ أنتِ الآن».

ولمْ أفهم سرَّ التعبيرات التي طلعتْ على وجه أروى لحظتها. بعدها قالتْ:

«بالنسبة لي أنا... فأنا أريد العودة إلى المزرعة».

فوجئتُ مِنْ كلامها وارتسمتْ على وجهي تعبيرات عدم التصديق... فنحن في ظروفٍ ليستْ بحاجة للشرح ولا يمكن لفكرة السفر أنْ تبقى في رأس أيٍ منّا...

قلتُ مستغرباً:

«المزرعة؟؟!!».

«نعم المزرعة. أريد العودة إلى المزرعة... إلى خالي... وفي أقرب فرصة».

أتعني ما تقول؟؟ ألا ترى وضعنا الحالي؟؟ أهي جادة في كلامها هذا؟؟. قلتُ:

«كيف يا أروى؟ عجباً! كيف تفكِّرين في هذا الآن؟؟ لا نستطيع السفر وتدركين لماذا».

قالتْ موضّحةً:

«أنا لمْ أقل نريد العودة... قلتُ أنّني أنا أريد العودة... وإذا احتجتم لوالدتي فلا أظنّها تمانع البقاء معكم... لكنِّي أريد السفر وبسرعة... ولا تحاول ثنيي لأنني لنْ أغيِّر موقفي».

وكان على وجهها الحزم والجدّ... فأدركتُ مدى الإصرار الذي تحمله. رفعتُ يديَّ الاثنتين إلى كتفيها مِنْ جديد وقلتُ بصوت راجٍ:

«لماذا يا أروى؟ ألا تقدِّرين ما نحنُ فيه؟».

أجابتْ بصوتٍ غاضب، أفلتَ مِنْ مكابحه فجأةً وفجّر نافورةً مِنَ الدماء في وجنتيها:

«لماذا؟ أوَ تسألني؟؟ لأنّني تعبتُ يا وليد... أكاد أنفجر... ألا تشعر بما أعانيه؟؟ ألا تحسّ بي يا وليد؟؟ ألا تحس؟؟».

وقبل أنْ تتمَّ جملتها كانتْ الدموع قد فرّتْ مِنْ عينيها... فرفعتْ كفّيها وخبّأتْ وجهها وبكتْ بصوتٍ عالٍ...

كانتْ يداي لا تزالان قابعتين على كتفيها بحنان... ربّما لتطبطبان على موضع القسوة التي عاملتُها بها صباحاً...

بكتْ أروى بمرارة... فرققتُ لحالها وقلتُ:

«أرجوكِ... لا تبكي...».

لكنّها استمرتْ في إطلاق الزفرات الباكية الحارة. قلتُ بلطف:

«اهدئي رجاءً...».

أروى أزاحتْ كفّيها عن وجهها ونظرتْ إليَّ مِنْ بين الدموع...

«ألا تحسُّ بي يا وليد؟؟».

أجبتُ بعطف:

«مَنْ قال ذلك؟!».

أروى عصرتْ عينيها مِنَ الدموع وهي تحرّك رأسها نفياً وتقول:

«لا... لا تحسُّ بي! إنّكَ لا تشعر بما أشعر به... ولا بما أعانيه».

مُدهَشاً مِنْ كلامها وقفتُ أحدّق في عينيها وأصغي باهتمام، وإذا بها تمدُّ إحدى يديها إلى إحدى ذراعيَّ الممدودتين إلى كتفيها فتشدُّ عليها وتقول:

«وليد... وليد... أنا أحبُّكَ!».

شعرتُ بشيءٍ يقف في حلقي فجأةً ويسدّ مجرى هوائي! فتوقّفتُ عن الحركة وعن

التنفّس. أما هي فتابعتْ:

«أتدركَ ذلكَ؟؟».

ولمّا رأتْ سكوني هزّتْ ذراعي وكرّرتْ:

«أتدركَ ذلك يا وليد؟ أتحسّ بي؟؟».

أطلقتُ زفرة أخيره مصحوبة بإجابة متوترة:

«آه... أجل... طبعاً».

«وأنتَ؟ هل تحبّني؟».

ازداد توتُّري واستغرابي... ازدردتُ ريقي ثمَّ قلتُ:

«ماذا دهاكِ يا أروى».

قاطعتْني سائلةً وهي تضغط على ذراعي:

«هل تحبّني؟».

«أروى!!؟».

فضغطتْ أكثر على ذراعي وقالتْ:

«أجِبْ يا وليد...».

احتقنتْ الدماء في وجهي واشتعل احمراراً... وخرجتْ أنفاسي حارّةً لفحتْ وجه أروى وأوشكتْ أنْ تحرقه...

«بالطبع... ما هذا السؤال؟!».

وكأنَّ الإجابة قد فجّرتْ بركاناً مملوءاً بالحمم في عينيها... نظرتْ إليَّ نظرة تشكُّك... وحرَّكتْ رأسها نفياً... ثمَّ دفنتْ كل تلك الحرائق في صدري...

«لماذا تفعل هذا بي يا وليد؟؟ أنا لا أتحمَّل... لا أتحمَّل... لا أتحمَّل».

انهارتْ أروى باكيةً على صدري بعمق... فما كان منِّي إلا أنْ أحطتُها بذراعي بعطف... وطبطبتُ عليها...

كنتُ أرغب في أنْ نتحدَّث معاً ونستوضح الأمور... ونصلح الخصام القائم بيننا غير أنَّ بكاءها وانهيارها بهذا الشكل جعلني أرجئ بعيداً الأفكار المبعثرة التي كنتُ أحاول تجميعها قبل دخولي الغرفة...

تركتُها تبكي على صدري وأخذتُ أمسح على شعرها الناعم... حتّى هدأتْ قليلاً... فقلتُ مشجِّعاً:

«يكفي أروى...أرجوكِ».

وأمسكتُ برأسها وأبعدتُه عنِّي قليلاً... حتى التقتْ نظراتنا... وكم كانتْ عميقة ومكتظَّة بالمعاني...

همستُ بعطف وقلق:

«ماذا حلَّ بكِ... أروى؟».

فردّتْ للعجب رداً لا يمُتُّ لسؤالي بصلة!

«إنكَ حتّى... لمْ تفكّر في الاحتفاظ بصورةٍ لي! أنا خطيبتك... وزوجتك شرعاً».

نظرتُ إليها والدهشة تملأ وجهي... وبدأ سباق نبضات قلبي وانتهى بتوقّف مفاجئ حين سمعتُها تتابع قائلة:

«لكنّكَ تحتفظ بصورتها هي!».

جفلتُ... تيبستْ ذراعاي وتصلّبتْ رجلاي... حملقتُ في أروى في عجزٍ عن تحرير أنظاري مِن أسرها... وإذا بها تقول:

«لا يحتفظ الرجل بصورة فتاةٍ تحت وسادته... إلا إذا كان يحبّها... لا يحتاج المرء لذكاء خارقٍ حتى يستنتج هذا».

هنا انكتمتْ أنفاسي كلياً ووقف شعر جسدي مذهولاً... حدّقتْ عيناي في عيني أروى واستقبل وجهي كلماتها القوية... كصفعةٍ مباغتةٍ اصطدمتْ به حتى كادتْ تمحي ملامحه...

وبالتأكيد... فإنَّ ملامح وجهي بالفعل قد اختفتْ... لأنني رأيتُ عينَي أروى تدوران فيه... تفتّشان عن شيءٍ لمْ تعثرا عليه...

متسمراً في مكاني... وساكناً عن أي حركةٍ أو نَفَسٍ أو نبض، وقفتُ أمام أروى أتلقّى سهام النظرات الثاقبة... ذات المعاني المستهدِفة...

لمّا رأتْ أروى سكوني المهول... حرّكتْ يديها نحو كتفيَّ وضغطتْ عليهما... وسألتْ:

«هل تحبّها؟».

السؤال المفاجئ المهول... أجبر فمي على الانفغار... لكنّ نفساً لمْ يخرج منه... ونفساً لمْ يدخل إليه...

شعرتُ بيدَيْ أروى تشدّان أكثر على كتفيَّ... وكانتْ تركّز في عينَيَّ كمسمارٍ دُقَّ على بصري فثبّته ومنعه مِنَ الهروب...

كرّرتْ:

«أنتَ تحبها... أليس كذلك؟؟».

لمْ أتحرّك!. قالتْ ووجهها يشتعل احمراراً:

«أجِب يا وليد؟؟».

حاولتُ أنْ أبلع ريقي لكن الشلل أصاب حلقي... كما أنَّ الجفاف الشديد صيّر لساني إلى قطعة خشب مهترئةٍ عاجزةٍ عن الحراك...

«أجبني».

ألحّتْ أروى... وبصعوبةٍ عصرتُ هذه الكلمات مِنْ لساني عصراً:

«بـ... بالطبع... أليستْ ابنة عمي؟».

أروى هزّتْ رأسها استنكاراً وقالتْ:

«لا يا وليد! أنتَ تدرِك ما أعني... أنتَ تحبها أكثر مِنْ ذلك... لا تحاول... إنَّك... أنتَ... آه...».

ولمْ تكمل جملتها... بل سحبتْ يديها وأخفتْ وجهها بهما وابتعدتْ عنّي... وربما كان هذا أفضل ما فعلتْهُ... لتطلق سراح عينيَّ...

ترنّحتْ عيناي في اللاشيء... واللاهدف... وتأرجحتْ ذراعاي على جانبي كبندول الساعة... وتراقصتْ كلمات أروى الأخيرة بين طبلتي أذني حتى مزّقتهما...

العرق كان يتصبّب مِنْ جسمي... والدماء تغلي في عروقي... وأشعر ببخارها يخترق جلدي ويطير إلى السقف...

لم أتوقع أنْ تأتيَ هذه اللحظة ذات يوم... ولمْ أفكّر بها... وبقيتُ متجاهلاً لاحتمالها وهارباً منه... حتى جاءتْ بغتةً... فلمْ تجد لديَّ أي استعداد لاستقبَالها...

كانتْ لحظة مِنْ أصعب لحظات المواجهة... بيني وبين أروى... كان... موقفاً لا أُحسد عليه... ورغم أنّه فاجأني لحد الذهول... لحدِّ الذوبان والتيه والتلاشي... لمْ تصدر عنِّي أية ردّة فعل تجاهه... كنتُ مشلولاً تماماً... وما كان أسرع ما استسلمتُ لحصوله... وانسقتُ لما فرضه عليَّ... فلا يوجد ما يمكنني أنْ أنفيه أو أدّعيه أو أشكِّك فيه...

عرفتِ يا أروى؟؟ لا بد أنكِ كنتِ ستعرفين ذات يوم...

أنا... لا أستطيع بأي حالٍ أنْ أفلحَ في إنكار حقيقةٍ بهذا الحجم... بحجم السماء في سعتها... وبوضوح الشمسِ في سطوعها... وبعمق البحر في جوفه...

إنها الحقيقة التي تحتل تسعاً وتسعين جزءاً مِنَ المائة... مِنْ حياتي كلّها... ولساني يبقى عاجزاً تماماً عن نفيها أو تحويرها... وأفكاري منقادةٌ لأوامر القلب الذي يستحيل عصيانه... وجنوني يدفعني لأن... أحتفظ بصورتها القديمة الممزَّقة كل تلك السنين... كل تلك السنين... مخبّأةً عندي... نعم... فهي فقط... كل ما أستطيع الاحتفاظ به... قريباً مِنْ قلبي... هي فقط... ما أستطيع أنْ أتحسّسه بيديَّ... وأتأمّله بعينيَّ... وأضمُّه إلى صدري...

وخلال العشر سنوات الماضية... أو ما يزيد... لمْ تفارقني هذه الصورة الغالية... كنزي الثمين... ولا ليلةٍ واحدةٍ...

بعد مرور بضع دقائقٍ أو شهورٍ أو حتّى سنين... أصابني الإعياء فسرتُ حتى جلستُ على طرف السرير...

التقطتُ أنفاسي كعجوزٍ طاعنٍ... أتعبه الوقوف على رجليه لبعض الوقت... وبقيتُ على صمتي لدهر...

كنتُ أسمع صوت بكاء أروى ولا أرفع نظري إليها... حتى إذا ما توقَّفتْ، تسلّلتْ عيناي إليها بحذر...

كانتْ موليةً ظهرها إليَّ ولكنها استدارتْ بعد قليل ولما التقتْ نظراتنا أسرعتُ بالانسحاب عن عينيها...

سمعتها بعد ذلك تقول:

«أريد أنْ ترتّب أمر سفري بأسرع ما يمكن...».

وخرجتْ الجملة متحشرجةً هزيلة... وجّهتُ إليها بصري فوجدتُ الدموع وقد جفّتْ عن عينيها والجفون وقد تورّمتْ والخدين وقد توهّجا مِنْ أثر الملوحة...

قالتْها وانتظرتْ ردّة فعلي...

ولأنني ساعتها لمْ أكنْ بقادرٍ على الرد فقد اكتفيتُ بالتنهُّد وإمالة رأسي نحو الأرض... وحينما رفعتُه مجدداً رأيتُها تخرج مِنَ الغرفة وتتّجه إلى درة المياه. حاولتُ أنْ أناديها لكن الضعف الذي ألمّ بي حال دون حراكي...

انتظرتُها حتّى تعود... وأنا ألملم بعض أشلاء شجاعتي... وأعيد ترتيب كلماتي... لكن الانتظار طال ولمْ تعد. قمتُ وتوجّهتُ نحو دورة المياه وطرقتُ الباب:

«أروى... ألنْ تخرجي الآن؟».

«كلاّ... لا تنتظرني».

وأدركتُ أنها لا تريد مواصلة الحديث... فما كان منّي إلا أنْ انسحبتُ.

وفي غرفتي أعدتُ عرض حوارنا القصير... وتقليب الجُمَل التي قالتْها أروى في رأسي مراراً... فيما كانتْ الصورة الممزّقة تعبث بأصابعي.

(لا يحتفظ الرجل بصورة فتاة تحت وسادته... إلا إذا كان يحبّها).

آه يا صغيرتي الممزّقة...

ألمْ تكوني نائمةً بأمان في محفظتي؟؟ لماذا أخرجتكِ تلك الليلة!؟ لماذا تخلّيتُ عن حذري هكذا؟؟ لقد... كنتِ دائماً لي وحدي ولا يراكِ إلا عيناي... لماذا ظهرتِ لها وكشفتِ السرّ الدفين... وفي هذا الوقت بالذات؟؟

وتذكّرتُ... أنّه في منزلنا المحروق... في غرفة سامر... في إحدى المرّات... تركتُ صورة رغد الممزقة قرب وسادتي ونمتُ... ثمّ جاءتْ والدتي رحمها الله توقظني لتأدية الصلاة... ورأتْها...

ظننتُ حينها... أنّ الموقف قد انتهى في ساعته... ولو تعلمون... إلى أي مدى امتدّ... وماذا فعل...

طافتْ على مسمعي... ذكريات الكلمات الغامضة التي قالتْها لي والدتي في لقائي الأخير لها قبل سفرها مع أبي إلى بيت الله... إلى حيث لا رجعة... عندما كانتْ توصيني برغد...

(«انتبه لرغد جيداً يا بنيّ»).

(«بالطبع أمّي!»).

أمي بدا المزيد مِنَ القلق جليّاً على وجهها وقالتْ:

(«كنا سنؤجّل حجّنا للعام التالي لكن... كتبه الله لنا هذا العام... هكذا قضتْ الظروف يا بنيّ»).

وهذا زادني حيرة! قالتْ:

(«لو أنَّ الظروف سارتْ على غير ذلك... لكانتْ الأوضاع مختلفة الآن... لكنّه قضاء الله يا ولدي... سأدعوه في بيته العظيم بأنْ يعوّضك خيراً مما فاتكَ... فلنحمده على ما قسم وأعطى»).

وسألتُها:

(«أنتِ تلمحين لشيءٍ معيَّن؟؟»).

فردَّتْ:

(«لمْ تتغيَّر هي عمّا تركتَها عليه قبل سنين... كما لمْ تتغيّر أنتَ، إلا أنَّ الظروف هي التي تغيّرتْ، وأصبح لكلٍّ منكما طريقه»).

وقد توهّج وجهي منفعلاً مع كلمات أمِّي والحقيقة الصارخة أمامي آنذاك، ولمْ أستطع البنس ببنت شفة أمام نظراتها التي كشفتْ بواطن نفسي...

أوصتْني:

(«اعتنِ بها كما يعتني أي شقيقٍ بشقيقته... كما تعتني بدانة، وادعُ معي الله أنْ يسعدهم هم الثلاثة، وأنتَ معهم»).

آه يا أمّاه... إنّكِ لا تعلمين ما حصل بعد رحيلكِ... لو تعلمين...!

في صباح اليوم التالي وقبل ذهابي إلى المستشفى التقيتُ بأروى صدفةً في المطبخ. كانتْ هادئةً جداً... وتحضِّر بعض الطعام... وكانتْ بعض الأطباق موضوعةً على المائدة... ورائحة الخبز المحمّص والقهوة تملآن المكان. وقفتُ أراقبها خلسةً عند الباب وأنا حائرٌ... أأدخل، أم أنصرف؟؟ هل سيزعجها مروري أمْ سترحِّب بي؟؟

بأيِّ وجهٍ أقابلها وأي كلام سأقول...؟ وأيِّ موقفٍ ستتّخذ منّي؟؟ وفيما أنا في حيرتي لمحتْني أروى فجأةً فارتاعتْ وأوقعتْ ما كان في يدها...

باشرتُ بالدخول وسرتُ نحوها والتقطتُ معها حبّات الزيتون المبعثرة على الأرض وأنا أقول:

«أنا آسف... هل أفزعتكِ؟».

وهي تردّ:

«فاجأتني».

وبعد فراغنا مِنْ جمع الحبّات، التهمتُ إحداها...

«طيّبة المذاق».

قلتُ معلقاً... متحاشياً إطالة النظر في عينيها قدر الإمكان... ومحاولاً خلق جوٍ جديدٍ يمحي آثار جو البارحة الممطر... أو يلطِّفه.

قالتْ وهي تشير إلى مائدة الطعام، والتي وضعتْ عليها صحن الزيتون وبعض أطباق الفطور الأخرى:

«تفضَّل».

بدا الطعام شهياً... وذا رائحة طيّبة... تُسيل اللعاب... وارتحتُ لتجاوبها مع الجو الجديد... وقد أتناول شيئاً مِنَ الفطور معها لإخماد الحريق... ولو مؤقتاً. نظرتُ بشكل عفوي إلى ساعةِ يدي... لمعرفة الوقت تحديداً فما كان مِنْ أروى إلا أنْ علّقتْ بطريقةٍ فاجأتني:

«أمْ... أنَّ المدلَّلة الحبيبة تنتظركَ؟».

اصطدمتْ نظراتنا وتعاركتْ معاً... ثمَّ عادتْ نظراتي تجرُّ أذيال الهزيمة إليَّ. إذن... النار مضرمةٌ ومستمرةٌ ولا سبيل لإطفائها بوجبةِ فطور. ومع ردّ أروى الحاد، لمْ أجرؤ على قول أكثر مِنْ:

«إلى اللقاء».

وسرتُ خارجاً... يلحقني صوتها وهي تقول:

«لا تنسَ موضوع السفر».

- رغد -

أخبرتني (مَرَح) أنها ستأتي مع والدها لزيارتي عصرَ هذا اليوم. (مرح) هي صديقتي وزميلتي في الجامعة، وهي ابنة السيد (أسامة المنذر)... مساعد (وليد) الأول في العمل... وشقيق المحامي (يونس المنذر) الرجل الذي أتى إلى مزرعة الشقراء يخبرها عن إرث عمّها قبل شهور... والذي يعمل كذلك مع (وليد)...

و(مرح) رسّامة بارعة... وهي شقيقة وتلميذة لأحد الفنانين الأساتذة المعروفين والذائعي الصيت على مستوى البلد.

كنتُ بطبيعة الحال لا أزال محبوسةً على السرير الأبيض، معتمدة على الممرضات والسيدة (ليندا) في كل شيء.

كانتْ أعصابي منهارةً تماماً في اليومين السابقين... ولكنني اليوم أفضل بكثير والحمد لله. إنّها فترة الزيارة و(وليد) يقضيها كلّها إلى جانبي... بينما تعود السيدة (ليندا) فيها إلى البيت. (وليد) ذهب إلى عمله هذا الصباح وأتى إليَّ مباشرةً بعد العمل... وها هو يجلس بقربي ويطالع إحدى الجرائد وعلى وجهه اهتمامٌ ملحوظ... يبدو أنّه يقرأ أخباراً مزعجةً، وأظنّها عن الحرب... فهو مهووسٌ بمتابعة تطوّراتها وما يحدث في البلد أولاً بأوّل.

على المنضدة المجاورة كان (وليد) قد وضع باقةً رائعةً مِنَ الورود الخلابة التي تُبهج النفوس... وعلبةً كبيرة مِنَ الشوكولا (((الفاخرة التي وزّع شيئاً مِنْ محتواها على الأطباء والممرضات الذين يرعونني...

وألاحظ أنَّ الرعاية في هذه المستشفى دقيقةٌ جداً.! الأطباء والممرضات يأتون لتفقّدي بتكرار... حتى في أوقات الزيارة!

ها هو وليد يتثاءب مِنْ جديد! بين الفينة وأختها أراه يتثاءب أو يفرك عينيه... لا شكَّ أنّه

لمْ ينم جيداً... وربّما هو مُتعبٌ ويريد أنْ يقيل... لكنّه لمْ يعد للبيت بل أتى ليبقى معي... هذا يشعرني بالذنب!

إنَّه حنونٌ جداً... أغدق عليَّ عطفه وعاملني بمنتهى اللطف والاهتمام ورحابة الصدر في أزمتي هذه... حتّى أنّه... يساعدني في تناول الطعام!

بين لحظةٍ وأخرى... أجرُّ نظراتي وأحبسها بعيداً عنه، فتغافلني وتتسلّل خلسةً إليه... مخترقة أسوار اللياقة والخجل!

إنه يرتدي زي العمل... بذلة زرقاء اللون... أنيقة جداً... أراها للمرة الأولى... وقد صفّف شعره بمستحضر يُظهر الشعر وكأنّه مبلل وتدلّتْ خصلة طويلة لحدٍ ما على جبينه العريض... فوق أنفه المعقوف مباشرة!

أرجو أنْ يكون منهمكاً في القراءة وأنْ لا يلاحظ نظراتي الحمقاء!

طُرِق الباب...

«لا بد أنها مرح».

قلتُ وأنا أنظر إلى الباب ثمَّ إلى وليد، فوضع وليد الصحيفة جانباً وقام إلى الباب وفتحه وخرج... وسمعتُ صوت رجل يحييه... ثمَّ رأيتُ صديقتي مرح تطلُّ مِنَ الباب، وتحمل باقةً كبيرة مذهلة مِنَ الزهور البديعة.

أخذتْني بالأحضان وأمطرتْني بالقبل وكلمات المواساة والتشجيع... ولا أخفي عليكم أنها رفعتْ مِنْ معنوياتي بقدرٍ كبير...

وبدأتْ بعد ذلك تتحدَّث وبشكلٍ مستمر...

نسيتُ أنْ أخبركم أنّ مَرَح ثرثارةٌ ومرحةٌ جداً كاسمها... حلوة المعشر وطيّبة القلب... تحبُّ الحياة وتنفق على متعها بسخاء...! إنها موهوبة في الرسم مثلي وأخوتها الرسامون يقيمون معارض فنيّة دورية، وقد أخبرتْني بأنَّ معرضهم التالي سيُقام عمّا قريب وأنّها ستشارك فيه ودعتْني أيضاً للمشاركة...

الفكرة أبهرتْني...! مرح فتاةٌ رائعة... وأفكارها رائعةٌ أيضاً...

وجود مرح معي في الجامعة في الواقع أبهج حياتي كثيراً... وساعدني على تطوير علاقاتي بالزميلات... وزيارتها هذه لي فجّرتْ ينبوعاً مِنَ الأمل والتفاؤل في صدري وأزاحتْ جزءاً كبيراً مِنْ حزني وكآبتي... الحمدُ لله.

فيما نحن نتجاذب أطراف الحديث حول المعرض الفني المرتقب طُرِق الباب ثمَّ فُتِح ببطءٍ وسمعتُ صوت وليد يتنحنح مستأذناً الدخول..

قلتُ:

«تفضّل وليد».

ولمّا أذنتُ له بالدخول دخلَ وقال:

«المعذرة... سآخذ هذهِ».

وتوجّه نحو الصحيفة التي كان يطالعها قبل قليل فأخذها ثمَّ قال موجِّهاً الكلام إليَّ وعيناه مركزتان على الصحيفة:

«أبو عارف يبلّغكِ السلام ويحمد الله على سلامتكِ يا رغد».

قلتُ:

«سلّمه الله. اشكره نيابةً عنّي».

وهمّ وليد بالمغادرة فقلتُ:

«وعلى الورد كذلك وليد».

«بالطبع».

ثمَّ غادر. كنتُ لا أزال أنظر إلى الباب حين سمعتُ مرح تقول:

«أوه! أ هذا هو السيد وليد شاكر؟!!».

تعجّبتُ والتفتُ إليها فوجدتُ الدهشة تعلو وجهها فسألتُ مستغربةً:

«نعم، ولكن كيف تعرفينه؟».

ابتسمتْ مرح وقالتْ وهي لا تزال ترفع حاجبيها مِنَ الدهشة:

«الجميع يتحدّث عنه! والدي وعمّي وأخوتي! كلّهم يتحدثون عنه! هذا هو إذن!!».

سألتُها متعجّبة:

«يتحدّثون عنه؟».

ردّتْ:

«نعم! كمدير لمصنع مواد البناء! السيد وليد شاكر قال، والسيد وليد شاكر فعل، والسيد وليد شاكر ذهب، والسيد وليد شاكر عاد!! هذا هو السيّد وليد شاكر!!».

وكان التعجّب طاغٍ على تعبيرات وجهها! قلتُ:

«ولِمَ أنتِ مستغربةٌ هكذا؟؟».

مرح أطلقتْ ضحكةً خفيفة وقالتْ:

«لمْ أتوقّعه أبداً شاباً صغيراً! أوه إنّه في مقتبل العمر! أهلي دائماً يصفونه بالسيد النبيل! يقولون أنّه ذكي وجدّي ومهذّب، ومُهاب... ولا يضحك أبداً! تخيلتُه رجلاً صارماً منغلقاً في منتصف العمر أو حتى بعمر والدي!».

ثم أشارتْ إليَّ وأضافتْ:

«وأنتِ أخبرتِني أنّه أبوكِ بالوصاية! حسبتُه أكبر بكثير!».

قلتُ وأنا ابتسم عفوياً:

«إنه يكبرني بنحو عشر سنين فقط!».

قالتْ والضحك يمتزج بكلامها:

«وكيف تنادينه في البيت؟ أبي؟؟ أو ابن عمّي؟ أو يا سيّد وليد شاكر؟؟».

ضحكتُ بخفة لتعليق مرح... وعقّبتُ:

«وليد فقط! كما اعتدتُ أنْ أناديه منذ الطفولة... لقد ربيتُ معه في بيت واحد... بعد فقد والديّ... وكثيراً ما كنّا نلعب سوياً... وقد كنتُ أعتبره مثل أمّي وأنا صغيرة! والآن صار مثل أبي!».

ويا للأيام...!

سرحتُ برهة لألقي نظرة استرجاعية على الماضي البعيد... حيثُ كنتُ طفلةً صغيرةً غضَّة... عَنَى لها وليد الدنيا بأسرها!

وحقيقةً... لا يزال!

انتبهتُ على صوت مرح تتابع حديثها وقد لمعتْ نظرةٌ ماكرةٌ في عينيها:

«أبٌ شاب... ثري وقوي وذكي... ومهذب... و...».

وهنا طُرق الباب ثانيةً... وسمعتُ وليد ينادي باسمي فأذنتُ له بالدخول...

«أرجو المعذرة... الحلوى للزوار».

قال وهو يسير نحو المنضدة المجاورة لسريري حيث علبة الشوكولا...

قلتُ:

«ولصديقتي أيضاً مِنْ فضلكَ».

إذ أنّه يشقُّ عليَّ تحريكها مِنْ موضعي، خصوصاً مع إصابة يمناي. فحمل وليد العلبة واقترب منا ومدّها إلى مرح:

«تفضلي آنستي».

مرح أخذتْ تقلّب عينيها بين أنواع الشوكولا في حيرةٍ أيها تختار! وأخيراً اختارتْ إحدى القطع وهي تقول:

«شكراً... سننتظر حلوى خروجكِ مِنَ المستشفى بالسلامة يا رغد».

ابتسمتُ، أما وليد فعقّب:

«قريباً عاجلاً بحول الله... الحلوى والعشاء أيضاً».

واستأذن وانصرف حاملاً العلبة إلى والد مرح. هذه المرة كانتْ أعيننا نحن الاثنتان تنظر إلى الباب، ثمّ إلى بعضها البعض في الوقت ذاته. ثمَّ إذا بي أسمع مَرَح تقول:

«إنّه عطر (عمق المحيط) الرجالي!».

نظرتُ إليها باستغراب وقلتُ:

«عفواً!؟».

ابتسمتْ وقالتْ:

«أهديتُ زجاجةً مماثلة لشقيقي عارف قبل أيّام! شذى قوي وراقٍ... وباهظ الثمن!».

يا لهذهِ الـ (مَرَح)! عقدتُ حاجبيّ وضيّقتُ عينيّ ونظرتُ إليها باستنكار... ثمّ قلتُ:

«ماذا كنّا نقول؟».

قبل أنْ يقطع حديثنا دخول وليد. أجابتْ مرح:

«شاب... ثري... وقوي... وذكي... وراق...».

وتوقّفتْ برهة ثمَّ برقتْ عيناها وأضافتْ:

«وجذاااب!».

أوه يا إلهي!

وقبل أنْ أنطق بأي تعليقٍ طُرق الباب مجدَّداً والتفتَ رأسانا بسرعةٍ نحوه... لكن الطارق هذه المرّة كان السيدة أم فادي... زوجة السيد سيف صديق وليد المقرّب...

- وليد -

بعد أنْ رحل الزوّار عُدتُ إلى غرفةِ رغد فوجدتها بوجهٍ مبتسم...

تهللتْ أسارير وجهي... لا بد أنَّ زيارة صديقتها والسيدة أم فادي لها قد رفعتْ معنوياتها... ورغم أنّهما لمْ تبقيا غير دقائق، إلا أنّها كانتْ كافية لتشجيع رغد وتحسين مزاجها... ولاحظتُ بعد ذلك أنّها أيضاً تناولتْ وجبة العشاء بشهية جيّدة...

الحمد لله...

كان الطبيب قد أخبرني بأنّه باستطاعة رغد مغادرة المستشفى بعد بضعة أيام، كي تشعر بارتياح أكثر في بيتها وبين أهلها ويزول عنها الإحباط... ولكنني... ولعلمي بأنّه لا أهل لها ولا عائلة تنتظرها... غير أروى التي لا تطيقها رغد... طلبتُ منه إبقاءَها في المستشفى لفترة أطول ريثما تسترد عافيتها وأتدبّر أمرها مع أروى بشكل أو بآخر...

وبعد العشاء شكرتْني رغد على المساعدة وابتسمتْ ابتسامة خجلة. إنها ليستْ ابتسامة عادية... وتوقيتها غريب جداً... فما معناها يا ترى؟؟!

تأمّلتُها منتظراً التفسير... ثمَّ سمعتها تسألني:

«وليد... هل تعرف ماذا يقول عنك (آل المنذر)؟».

السؤال كان غريباً! لكن الأغرب هي هذه الابتسامة الحمراء المتفتحة على وجهها... كأنها وردة بين الثلوج...

ولكن... ما بال آل منذر هم الآخرين؟؟

قلتُ:

«ماذا؟ «

رغد بعثرتْ نظرها عنَي وأجابتْ:

«أنكَ... المدير الجدي... الذي لا يضحك أبداً!».

ارتفع حاجباي تعجُّباً وقلتُ:

«أنا؟».

«نعم».

«مَنْ يقول ذلك؟».

رغد وهي لا تزال مبتسمة أجابتْ:

«جميعهم... ربّما يهابونك! إنهم يعتقدون بأنكَ صارمٌ جداً ولا تعرف المزاح ولا الضحك...».

وحدّقتْ بي في ابتسام. عفوياً ضحكتُ ضحكةً خفيفةً وقلتُ:

«وهل تصدّقين؟؟».

رغد ألقتْ عليّ نظرة متأمّلة وخجلة ثمّ قالتْ:

«لا يبدو!».

الذي يبدو هو أنّ صديقة رغد قد نقلتْ إليها انطباع والدها وشقيقها وعمها عنّي. لديَّ ثلاثة موظفين مِنْ آل منذر يعملون معي... يونس وأسامة وابنه زياد... صحيح أنّني جادٌّ ودقيقٌ في العمل، ولكنني لستُ ثقيل الظل... هل أنا كذلك؟؟

رغد نقلتْ نظرها إلى الورود التي إلى جوارها وتابعتْ:

«عندما يعرفونك عنْ قرب... سيكتشفون كم أنتَ طيّب... وحنون...».

لحظتها... شعرتُ بروحي تحلّق في السماء. تأمّلتُ رغد فوجدتُها تحدِّق في الورود وهي شبه مبتسمة...

آه يا رغد...

هل احتجتِ لكل ذلك الزمن... لتصفيني ولو بكلمةٍ واحدةٍ تشعِرني بأنّني... شيءٌ في حياتك يستحقُّ الوصف؟؟

وليلتها تجاذبنا أطراف حديثٍ ممتع... أخبرتْني رغد فيه عن معرض فنّي للرسامين سيُقام قريباً وأنّ صديقتها وشقيقها الفنان عارف سيشاركان فيه... وأنّها تتمنّى لو تعرض إحدى لوحاتها فيه أيضاً...

قالتْ ذلك ثمّ نظرتْ إلى يدها المجبّرة وعلاها بعض الحزن الذي سرعان ما تبدّد حين قلتُ مشجّعاً:

«سنرى ما يمكن فعله».

ابتسمتْ رغد ابتسامة رضا وامتنان... وفارقتُها تلك الليلة والبسمة ملتصقة بوجهها...

ذهبتُ إلى البيت ليلاً... وكان أمامي فتاة أخرى انتظر أنْ تلتصق ابتسامةٌ ما بوجهها هي الأخرى!

بعد أنْ أوصلتُ الخالة إلى المستشفى دخلتُ إلى مكتبي، فإذا بأروى توافيني بعد دقيقة...

كان جلياً على وجهها أنها ترغب في الحديث معي... طلبتُ منها أنْ تجلس... وجلستُ على المقعد المجاور لها... انتظرتُ حديثها... ومرّتْ بضع ثوانٍ وبعض التردد مسيطرٌ عليها ثمّ نطقتْ أخيراً:

«هل اشتريتَ التذاكر؟».

تنهّدتُ باستياء... فقد كانتْ فكرة السفر هي آخر ما انتظر الحديث عنه... ونحن في مثل

هذه الظروف... ثمَّ قلتُ:

«ليسَ بعْد».

فقالت أروى متشكّكة:

«لكنّكَ لمْ تنسَ أمرها أليس كذلك؟».

نظرتُ إليّ نظرةً مركّزة فأجبتُها:

«لا لمْ أنسَ... ولكن... دعي رغد تخرج مِنَ المستشفى أولاً على الأقل».

ومرّرتُ أصابعي في شعري وزفرتُ بضيق... إشارة منّي إلى أنّه ليس بالوقت المناسب لحديثٍ كهذا... راقبتْني أروى قليلاً وربّما لمْ تفهم إشارتي وسألتْني:

«تبدو قلقاً جداً... هل ابنة عمّكَ بخير؟».

انقبضتْ عضلات فكّي لدى سماع سؤالها ثمَّ أرخيتُها وأجبتُ:

«نعم».

فإذا بأروى تقول مدافعةً:

«وليد... اسمعني... أنا لمْ أدفع بها مِنْ أعلى السلّم».

حدّقتُ بها مستغرباً... ثمَّ أطلقتُ بصري للفراغ وقلتُ:

«أعرف».

فصمتتْ أروى ثمَّ قالتْ:

«كنتُ أظنّ أنكَ فهمتَ شيئاً خطأً... ما حَصَلَ هو أنّنا تشاجرنا وانثنينا لالتقاط شيءٍ مِنْ على العتبات فانزلقتْ قدم رغد وأمسكتْ بي فوقعنا سويةً».

أثارتْ جملتها اهتمامي... فأنا حتى الآن لا أعرف تفاصيل ما حصل وتحاشيتُ سؤال رغد ولمْ أتمكّن مِنْ سؤال أروى... التفتّ إليها وقلتُ باهتمام:

«ولأجل ماذا تشاجرتما؟؟».

التزمتْ أروى جانب الصمت ثمَّ سألتْني:

«ألمْ تخبركَ؟».

«لمْ أسألها... ولنْ أفعل على الأقل في الوقت الراهن... لا أريد أنْ تنفعل... أريد أنْ تتحسّن نفسيتها قبل أي شيء... لكن أخبريني أنتِ؟».

ترددتْ أروى ثمَّ عقدتْ العزم وقالتْ:

«إنه هاتفكَ».

استغربتُ:

«عفواً؟؟!».

فتابعتْ أروى:

«أنتَ نسيتَه في مكتبكَ... وكان يرنُّ... وأرادتْ هي حمله إليكَ فطلبتُ منها إعطائي إيّاه فرفضتْ وأصرّتْ على حملِه إليكَ بنفسها... كنّا على الدرجِ... وحينما حاولتُ أخذه منها وقع

على العتبات...».
وتوقّفتْ. صمتُّ لحظةً أستوعبُ فيها ما قيل... ثمّ سألتُ:
«ثمّ ماذا؟؟».
فتابعتْ:
«أردنا التقاطه فوقعنا...».
قلتُ:
«أهذا كل شيء!؟».
غير مصدّق... أنْ يكون سبب حادثٍ فظيعٍ ومؤلمٍ هو شيء بهذه التفاهة... ولمّا رأيتُ أروى تومئ برأسها (نعم) تملّكني الغضب...
قلتُ تلقائياً:
«هكذا إذن... أردتِ نزع الهاتف مِنْ يدها فكسرتِها».
اندهشتْ أروى لتعقيبي وقالتْ:
«قلتُ لكَ أنّه وقع للأسفل وأردنا التقاطه».
وقفتُ مستاءً وقلتُ:
«أنا لمْ أنسه في المكتبِ أصلاً... بل أنا مَنْ أعطاها إيّاه تلك الليلة ولمْ يكن هناك داعٍ لأنْ تتدخّلي لاستعادته».
عبسَ وجه أروى وقالتْ مستنكرةً:
«وليد! لقد كنتَ نائماً في غرفتكَ... منتصف الليل... أردتُ إعادته إليكَ ليوقظكَ وقت الصلاة كالمعتاد... وهي أرادتْ أنْ تفعل هذا بنفسها».
قلتُ بشيءٍ مِنَ العصبية:
«ولماذا اعترضتِها؟؟ أمِنْ أجل شيءٍ بهذه التفاهة تتسبّبان بحادثٍ بهذا الحجم؟؟ لقد تكسّرتْ عظامها وها هي طريحة الفراش كالمعاقة... كنتُ اعتقد أنَّ شجاركما قام على أمرٍ أعظم شأناً... تقولين مِنْ أجل هاتف؟؟! ألا تُخفين عنّي شيئاً أكبر يا أروى؟؟».
هنا وقفتْ أروى بانفعالٍ وهتفتْ بغضب:
«ليس مِنْ أجل الهاتف... وأنا ليس لديَّ ما أخفيه عنكَ، مثلما تفعل أنتَ... ولا أسمح بأنْ تتجاوز هي حدودها... كيف كنتَ تتوقّع منّي أنْ أتصرّف؟؟ أأتركُها تذهب إليكَ وأنا واقفةٌ أتفرّج؟؟ هل نسيتَ إنني أنا زوجتكَ يا وليد؟؟ أنا زوجتكَ وأقرب الناس إليكَ وليستْ هي».
اندهشتُ... فتحتُ فمي لأنطق مُستنكراً:
«أروى...».
غير أنها لمْ تدعني أتمُّ جملتي بل قاطعتني مباشرة وبانفعال:
«ماذا يا وليد؟ ماذا؟؟ ما الذي ستجرؤ على قوله الآن؟؟ إنني أنا زوجتكَ لا هي... وأنا مَنْ يحقُّ لها الاقتراب منكَ ومِنْ خصوصياتك... لا هي... أنا مَنْ يجب أنْ تضعها في اعتباركَ الأوّل...

ومَنْ يجب أنْ تصْرف عليها عواطفكَ وحبّكَ... لا هِيَ...

وليد... إنني لا أحظى بعلاقةٍ أكثر دفئاً وحرارة مِنْها... وطوال تلك الشهور وأنا أفسِّر مواقفك بأنها مِنْ باب المسؤولية والأمانة... وأتقبّلها وبسعة صدر بل وبإعجاب وفخر... والآن... أكتشفُ أنَّ الحقيقة قد تخطَّتْ ذلك... أنَّكَ تحبُّها هي... لا أنا!!».

حملقتُ في أروى في دهشةٍ مِنْ كلامها... وعجزٍ عن الردَّ... وإذا بها تهتف في وجهي مستمرّةً بانفعال:

«لماذا لا تتكلّم؟ أي حقائق تخفي عنّي بعد يا وليد؟؟ ماذا سأكتشف عنكَ أيضاً؟؟ لماذا أتيتَ إلى مزرعتي أصلاً؟؟ لماذا ظهرتَ في حياتي؟؟ لماذا تزوجتني؟؟».

صعقني كلام أروى فانفضتْ يداي ثمَّ إذا بهما تطبقان على ذراعيها وإذا بي أهتف بعصبية:

«أروى... هل فقدتِ صوابكِ؟؟».

أروى دفعتْ بيديَّ بعيدا عنها وهي تقول:

«اتركني... لماذا تزوّجتَني إنْ كنتَ تحبُّها هي؟؟ ماذا تخفي عنّي بعد؟؟ ما الذي تخطّطان له مِنْ خلف ظهري؟؟... ماذا... ماذا كنتما تفعلان عند النافذة؟؟ قُلْ».

«أي نافذة وأي هذيان؟؟».

قالتْ مندفعةً وهي تشير بيدها إلى نافذة الغرفة:

«هنا... ضحكاتكَ كانتْ تخترق الأبواب... وأراكما واقفين جنباً إلى جنب عند النافذة والأضواء مُطفأة... هل كنتما تتبادلان كلمات الحبِّ وتضحكان عليَّ؟؟».

وفهمتُ أنها تعني يوم الجمعة الماضي... عندما وقفتْ رغد تستمع للأذان عند النافذة في غرفة مكتبي وقدِمْتُ إلى جوارها. لمْ أتحمَّل جنونها الفظيع هذا... فقبضتُ على يدها بشدّة وهتفتُ بوجهها:

«حسبكِ... تماديتِ يا أروى؟؟ هل جننتِ؟؟!».

«وكيف تريد منّي ألاَّ أجنَّ وأنا أكتشف أنَّ زوجي خائنٌ...؟؟ يُظهِر النبالة والشهامة مع ابنة عمِّه بينما في الخفاء يتبادلان الحُبَّ والصور ويستغفلانني؟؟».

هنا فقدتُ السيطرة على أعصابي وضغطتُ على يدها بقوّة أوشكتُ معها على عصرها في قبضتي... وصرختُ وأنا أعضُّ على أسناني:

«إيّاكِ... إيّاكِ أنْ تكرِّري الكلمة ثانيةً... أتسمعين؟؟ وإيّاكِ... ثمَّ إيّاكِ... أنْ تُقحِمي رغد في هذا... لا علاقة لها بشيء... فهمتِ؟؟ ولا أسمح لكِ بأنْ تتحدَّثي عنها هكذا... ولا تجعلي أفكاركِ تقودكِ إلى الجحيم...».

وتابعتُ:

«أكون خائناً لو كنتُ عرفتُها بعد زواجي منكِ... لكن... لكن حبُّها نشأ في صدري منذ طفولتي... ولا أسمح... بأنْ تصفيه بالخيانة... إنّهُ أكبر مِنْ أنْ... تفهميه... أو يفهمه أي أحد...

وسواءً عرفتِ أو لمْ تعرفي... وأعجبكِ أو لمْ يُعجبكِ... فإنّ شيئاً لنْ يتغيَّر... وما في قلبي سأحمله معي إلى قبري... وأنا أتحمَّل أي شيء في هذه الدنيا... أي شيء... إلا أنْ يُصيب صغيرتي الأذى أو الإساءة... بأيِّ شكلٍ... ومِنْ أيِّ شخصٍ... مهما كان... أعرفتِ هذا الآن؟؟».

وأطلقتُ صراح يدها وابتعدتُ عنها وسددتُ ركلة عشوائية إلى المقعد...

أروى بقيتْ تحملق بي... ثمّ صمّتْ أُذُنَيها وكأنها تريد أنْ تحول دون تكرّر صدى كلامي بينهما... ثمّ إذا بها تهتف:

«كيف... أمكنكَ... فعل هذا بي!؟».

ثم تهرول بسرعةٍ خارجة مِنَ الغرفة.

بقيتُ واقفاً على النار وجبتُ في الغرفة بضع خطوات عشوائية حتّى استقررتُ أخيراً على مقعدي خلف المكتب.

ركزتُ مرفقيَّ على طاولة المكتب وأسندتُ رأسي على كفيَّ بمرارة...

ما الذي فعلتُه؟؟

ما الذي قلتُه؟؟

ما الذي أصابكَ يا وليد؟؟ وما الذي ينتظركَ؟؟

درتُ في دوامة الأفكار حتى داهمني الدوار والغثيان وشعرتُ بألم حادٍ في معدتي.

رفعتُ رأسي عن كفيَّ وهممتُ بالتفتيش عن أقراص المعدة التي أتناولها عند الحاجة والتي أضع بعضها في أدراج مكتبي. لفتَ انتباهي وجود مجموعة مِنَ الأوراق على المكتب، يعلوها قلم رصاص...

تركتُ يدي الدُّرْج واتجهتْ إلى الأوراق عفوياً... أزحتُ القلم ورأيتُ الورقة الأولى بيضاء خالية إلا مِن تجعيد خفيف...

تصفَّحتُ ما يليها... ودُهِشتُ لما رأيتُ...!!

أتعرفون ماذا رأيتُ؟؟

شيئاً سيُدهشكم مثلي ويلقي بكم في بئر الحيرة...

على تلك الأوراق كانتْ هناك صُور مرسومة بقلم الرصاص... لوجه شخصٍ مألوفٍ جداً... كان ينظر إلى إحدى النواحي وقد علا وجهه تعبير القلق... ملامحه كانتْ مرسومة بدقةٍ عجيبةٍ وكأنها خرجتْ مِنْ أصل الواقع مباشرة... وأكثر ما يثير الدهشة... هو وجود انكسار بسيط على أنفه الطويل... مشابه تماماً للانكسار الذي يعلو أنفي أنا!

قلّبتُ الورقة بعد الأخرى... والدماء تتصاعد إلى وجهي... والدهشة تملأ عينيَّ...

كان وجهي أنا... مرسوماً على أكثر مِنْ ورقة... رسماً هيكلياً بسيطاً وغير مكتمل... بقلم الرصاص...

هذه رسمات رغد...

تذكّرتُ... إنني في ليلة الحادث، كنتُ قد تركتُها في مكتبي مع هاتفي... لتنقل الصور

التي التقطناها في النزهة إلى الحاسوب...

الصور... الهاتف... الحاسوب...!

أخذتُ أفتّش في هاتفي وحاسوبي عن تلك الصور... لمْ أعثر عليها في الهاتف... لكنني وجدتها في الحاسوب...

أتدرون ماذا وجدتُ مِنْ بين الصور؟؟

صورة لي!

صورة لي وأنا أنظر إلى البحر... وعلى وجهي أمارات قلق... مطابقة تماماً لتلك التي وجدتها مرسومةً على الورق...

رغد... رغد...

آه... يا حبيبتي...

- رغد -

اليوم سأجرّب السير على العكاز...

الطبيب وأخصائية العلاج الطبيعي والممرِّضة والسيِّدة ليندا\جميعهم يقفون إلى جانبي وأنا أحاول النهوض مستندة إلى العكاز.

أخصائية العلاج الطبيعي أجرتْ لرجلي تمارين تحريك بسيطة قبل قليل، وشرحتْ لي وللسيدة ليندا\كيفيتها... كانتْ سهلةً ولكنها هيّجتْ بعض الألم في قدمي ولذلك أنا متخوّفة مِنْ استخدام العكاز...

الطبيب كان يكرِّر عبارات التشجيع... ويطمئنني بأنَّ رجلي بخير... لكنني قلقة وخاشية أنْ تُصاب رجلي بالعرج... وأنتهي عرجاء... تثير شفقة الآخرين...

ولأنَّ إصابتي شملتْ يدي اليمنى أيضاً فإن استخدام العكاز لمْ يكن بالأمر السهل... ولاقيتُ صعوبةً في تثبيته والارتكاز عليه...

المحاولات الأولى لمْ تكنْ ناجحةً ولمْ تثر في نفسي إلا القلق والكآبة... وفيما أنا أخطو خطواتي البطيئة الثقيلة تعثّرتُ بعباءتي وكدتُ أنزلق لولا أنْ تداركتْني أيدي مَنْ حولي.

«لا أريد أنْ أستخدم هذا».

قلتُ ذلك بغيظ مشيرة إلى العكاز... شاعرةً بنفور منه ورفض كلّي لاستخدامه... أخصائية العلاج الطبيعي حاولتْ تشجيعي وحثّي على إعادة المحاولة... كانوا جميعاً مسترسلين في تحريضهم لي على السير وتصوير الأمر بالمهمّة السهلة فيما هي شاقة بدَنياً ونفسياً...

«لا أستطيع».

صرّحتُ... فعقّبوا:

«بلى تستطيعين... هيا حاولي مجدّداً... ستنجحين هذه المرة».

أخيراً وافقتُ كارهةً على المحاولة وسرتُ خطوتين أجرُّ فيهما رجلي مِنْ خلفي وأكاد

أتعثر في ملابسي..

«هيا... أحسنتِ... واصلي...».

يشجعوني وأنا أكاد أنهار مِنَ التوتر...

هنا سمعنا طرقاً على الباب والذي كان نصف مُغلَق وجاء صوت وليد يحيِّي، ثمَّ رأيتُه يدخل الغرفة وينظر إلينا. كان يحمل حاسوبه المحمول وكيساً ما. عندما نظر إليَّ هتفتُ مستنجدة:

«وليد...».

وألقيتُ بالعكاز جانباً ومددتُ يدي إليه... طالبةً الدعم...

وليد وضع ما كان في يده جانباً وأسرع نحوي وما إنْ بلغني حتى ألقيتُ بثقل جسدي عليه هو بدلاً مِنَ العكاز وأنا أقول:

«لا أستطيع... لا أريد أنْ أمشي بالعكاز... لا أريده أبداً».

ربّتَ وليد على يدي المجبّرة وقال:

«اهدئي رغد... ماذا حصل؟؟».

قلتُ مستغيثة:

«قلْ لهم ألاَّ يضغطوا عليَّ... لا أريد هذا العكَّاز... قدمي تؤلمني... لنْ أستخدمه ثانيةً... أرجوكَ أخرجني مِنْ هنا».

تنقّل وليد ببصره على الطاقم الطبي وقال مخاطباً الطبيب:

«ما الأمر يا دكتور؟».

الطبيب أجاب:

«لا شيء. إنها خائفةٌ مِنْ استخدام العكّاز ونحن نحاول تشجيعها».

أبدى وليد تعبيرات الضيق على وجهه وقال:

«لكننا لمْ نتّفق على هذا».

استغرب الطبيب وسأل:

«على ماذا؟».

ردّ وليد:

«على بدء التمارين... لا أحبُّ أنْ تقرّروا شيئاً دون إبلاغي... ولا أقبل أنْ تضغطوا على الفتاة في شيء».

نظر الطبيب وأخصّائية العلاج الطبيعي إلى بعضهما البعض، نظرات ذات مغزى، ثمَّ التقطتْ الأخيرة العكاز الملقى على الأرض وقالتْ:

«حسناً... سنحاول مع العكاز لاحقاً... لكن يجب الاستمرار على تمارين الرجل».

التفتَ وليد إليَّ وقال:

«سنعود إلى السرير».

وسرتُ معتمدةً عليه إلى أنْ جلستُ باسترخاء على سريري.

«كيف تشعرين؟».

سألني وليد فأجبتُ منفعلة:

«أنا لنْ أمشي بهذا الشيء... إمَّا أنْ أسير على قدمي كالسابق أو سأبقى في سريري للأبد».

وليد رد:

«هوّني عليكِ...».

كتمتُ خوفي وتذمّري ولذتُ بالصمت. غادر الطاقم الطبي فلحق بهم وليد ثمَّ عاد بعد بضع دقائق... ابتسم وقال:

«أحضرتُ لكِ بعض المجلات لتطَّلعي عليها».

وقرّب إليَّ الكيس الذي أحضره معه. نظرتُ إليه بامتنان ثمَّ قلتُ:

«ولكن يا وليد أنا أريد الخروج مِنْ هنا... دعنا نعود للبيت».

وليد ارتسم بعض القلق على وجهه ثمَّ قال:

«مِنَ الأفضل أنْ تبقي لأيام أخرى بعد... ريثما تتحسَّن إصابتكِ وتتدرّبين على السير على العكاز أكثر».

«لنْ أحاول ثانية».

بدأ القلق يتفاقم على وجه وليد فقلتُ:

«أرجوكَ... أنا لا أريد البقاء هنا».

السيدة ليندا\تدخَّلتْ قائلة:

«شرحتْ لنا أخصائية العلاج الطبيعي كيفية التمارين وسأتولَّى العناية بها في المنزل... فإذا كان الطبيب يوافق فمِنَ الخير لنا المغادرة يا بنيَّ».

وليد لمْ يُظهِر تأييداً ولا أعرف لِمَ يريد لي البقاء في المستشفى أكثر، رغم الإرباك الذي يسبِّبه الأمر في عمله وفي وضعنا بشكلٍ عام... إضافةً إلى تكاليف المستشفى الباهظة.

قال:

«لبضعة أيّام أخرى على الأقل».

وكان الإصرار مغلَّفاً بالرجاء ينبع مِنْ عينيه... فقلتُ باستسلام:

«ثلاثة فقط».

ابتسم وليد ثمَّ التفتَ إلى السيدة ليندا\وخاطبها:

«هيا بنا الآن إلى المنزل يا خالتي... وكان الله في عونكِ هذه الليالي أيضاً».

وكالعادة بعد اصطحابها للمنزل عاد وليد وبقي برفقتي طوال ساعات الزيارة... وكان يشغل نفسه بإنجاز أعماله في حاسوبه الخاص، بينما كنتُ أتصفَّح المجلات التي جلبها لي وبين لحظة وأخرى ألقي نظرةً على الساعة...

النهار غدا طويلاً... وشعرتُ بالملل... وراودتْني فكرة الاتصال بنهلة والتي لمْ أهاتفها منذ أيام ولمْ أعلِمها عمّا حصل معي حتى الآن...

«وليد».

ناديتُه وقد كان مركّزاً في الشاشة فالتفتَ إليّ:

«نعم؟».

«مِنْ فضلكَ هل لا ناولتّني الهاتف؟».

وأشرتُ إلى المنضدة المجاورة حيث كان الهاتف موضوعاً ويشق عليَّ الوصول إليه. أقبل وليد وناولني الهاتف وسألني عفوياً:

«بمَنْ ستتصلين؟».

«ببيت خالتي».

وليد أمسك بالهاتف وأبعده عنّي. نظرتُ إليه باستغراب فردَّ على استغرابي بسؤال:

«هل سبق وأنْ أخبرتِهم؟».

أجبتُ:

«لا».

وليد أعاد الهاتف إلى المنضدة وقال:

«جيّد. لا داعي لأنْ تقلقيهم الآن».

تعجّبتُ وسألتُ:

«ألا تريد مني الاتصال بهم؟».

«أرجوكِ لا تفعلي رغد».

ازداد عجبي وسألتُ:

«لماذا؟؟».

وليد شدّ على قبضتيه وعلاه التوتر ثمَّ قال:

«تعرفين... إنَّ ذلك سيسبِّب لهم القلق وأنتِ لا تزالين في المستشفى... الحمد لله أنكِ بخير ولا داعي لإشغال بالهم عليكِ».

إنني أوافي نهلة بتفاصيل سخيفة عن حياتي اليومية فهل يُعقل ألاّ أخبرها عن حادثة كهذه؟

قلتُ:

«سأطمئنهم إلى أنّني بخير وسأغادر المستشفى قريباً».

وليد حرّك رأسه اعتراضاً. قلتُ:

«لكن...».

وتكلّم وليد بنبرةٍ شديدةِ الرجاء:

«أرجوكِ يا رغد... لا تخبريهم بشيء... أرجوكِ».

ورغم أنّني لمْ أفهم جيّداً موقف وليد، غير أنني أذعنتُ لطلبه ولمْ أتّصل بعائلة خالتي ولمْ أُطلِعهم على شيء مما حصل إلى أنْ التقينا فيما بعد...

ومضتْ الأيّام الأخيرة... وأخيراً غادرتُ المستشفى...

كان وليد قد أعدَّ إحدى غرف الطابق السفلي لأقيم فيها مؤقتاً... ولأنَّ منزلنا كبيرٌ وموحشٌ ومليءٌ بالعتبات والدرجات، فقد اختار لي أقرب غرفة إلى المطبخ وإلى غرفة المعيشة السفلية والتي استقلّها هو بدوره للمبيت قريباً مني.

كنتُ قد تدرّبتُ على السير بالعكّاز مضطرّةً. المهمّة شاقّة وتحرّكي بطيء وثقيل، لكنني عُدِمتُ حلاً آخر... أخذتُ أتنقّل بالعكاز في غرفة نومي وفي الجوار بحذر ومشقّة وغالباً ما اعتمد على الآخرين لجلب الأشياء إليّ. وليد والسيدة ليندا والخادمة تناوبوا على رعايتي وملازمتي معظم الأوقات. أما الدخيلة الشقراء فلمْ أرَ وجهها الملوّن مُذ زارتْني في المستشفى بعد الحادث، قبل أسابيع.

وليد أصرَّ على إقامة حفلة عشاءٍ صغيرة ندعوا إليها المقربين احتفالاً بخروجي من المستشفى. الفكرة لمْ تعجبني لأنني بالتأكيد سأضطرُّ لمجالسة الشقراء مع الضيوف. لكنني رضختُ للأمر مِنْ أجل وليد.

ما كان أطيبه وأكرمه... طوال فترة بقائي في المستشفى...

أكرم به وأنعم...

أوّل ضيفة وصلتْ كانتْ صديقتي مَرَح مع والدتِها وشقيقتيها وقد استقبلتْهنَّ السيدة ليندا وقادتهنَّ إلى غرفةِ الضيوف حيث أجلس.

أمطرتْني الثلاث بالتحيّات والتهنئات على خروجي مِنَ المستشفى وأهدينني سلّة حلويات رائعة.

«ولكن أين هي السيدة أروى؟ نتوق للتعرّف إليها».

قالتْ ذلك مَرَح بكل عفوية وهي تجهل أنَّ مجرَّد ذكر اسم هذه الدخيلة يثير غيظي. السيدة ليندا ردّتْ مبتسمة:

«إنها في الجوار... سوف استدعيها».

وذهبتْ لاستدعائها. مرح قالتْ مازحة:

«أتحرّق شوقاً لرؤية مالكة المصنع وصاحبة الملايين! يقول أبي أنها كانتْ تعيش في مزرعةٍ صغيرة حياةً عاديةً!».

أم عارف - والدة مَرَح - زجرتْ مَرَح على تعليقها ولكنّ مَرَح ابتسمتْ وقالتْ:

«هيّا أمّي! هذه رغد صديقتي المقرّبة وهي تعرف أنني أحبُّ المزاح! ألا تبدو حكاية السيدة أروى أشبه بالأساطير؟؟».

لحظات وإذا بالشقراء تهلُّ علينا...

قامتْ الثلاث وحيّينها بحرارة وعبّرن عن سرورهن الشديد بالتعرُّف إليها ولهفتهنَّ المسبقة

للقائها... وكان جلياً عليهنّ الانبهار بها... نعم فهي جميلةٌ بدرجة آسرة للنظر وقد تزيَّنتْ هذه الأمسية بشكلٍ متقنٍ جداً...

إنني أمهرُ منها في فنِّ المساحيق والألوان... وذوقي أجمل مِنْ ذوقها في الملابس والحلي، لكنِّي الآن قابعةٌ في مكاني بجبيرتي وعكّازي... وبدون أي زينة وأي ألوان... ولا أُثير سوى شفقة الآخرين...

بمجرّد حلولها، سرقتْ الشقراء كل الأضواء بعيداً عنّي أنا... أنا مَنْ كان يُفترض أنْ تكون هذه الحفلة قد أقيمتْ مِنْ أجلها!

وعندما أتتْ أمّ سيف وأمّ فادي كذلك انضمّتا إليهنّ.

وحتّى على المائدة، كنَّ يأكلنَ بسرور وعفويّة ويمتدحن الأطباق اللذيذة واليد الماهرة التي أعدَّتها... فيما كنتُ أنا المُعاقة بالكاد ألمس الطعام بيدي اليسرى...

كل شيءٍ رائع محتكرٌ عند الشقراء... الجمال... والمال... والأطباق الشهية...

والأهم... وليد قلبي!

وعوضاً عن أنْ تبهجني هذه الحفلة كما يُفترض زادتْني غيظاً وغيرةً ونفوراً مِنْها.

التزمتُ جانب الهدوء طوال الوقت، لشعوري بأنني لا أملِكُ شيئاً أمام ما تملكه الشقراء ممّا يثير اهتمام وإعجاب الآخرين...

وعندما قامتْ الدخيلة ووالدتها برفع الأطباق الرئيسية إذا بمَرح والتي كانتْ جالسةً إلى جواري تقترب منّي وتهمس في أذني:

«زوجة أبيكِ مُذهلة! جذّاااابة مثله! كم هما ثنائيٌ رائع».

ولو لمْ أتمالك نفسي لأفرغتُ ما في معدتي مِنْ شدّة الغيظ...

مرح... أنا أسوأ شخص لتطلقي على مسامعه تعليقاً كهذا!

بعد أنْ خرج الضيوف، أويتُ مباشرةً إلى غرفتي والنار تحرق صدري وتفحّمه... ولمْ أجدْ مِنْ حولي ما أفرغ فيه غضبي ولا مَنْ أبثُّه همّي أو أعبِّر له عمّا يختلج داخلي... فأخذتُ أبكي بحرقة... وأردتُ أنْ أكسِر الجبيرة وأحطِّم العكّاز اللذين لمْ يزيداني إلا بؤساً على بؤس... ومِنْ شدّة غيظي رميتُ بالعكاز بعيداً بقوّة فارتطم بطاولةٍ على مقربةٍ وأحدَثَ جلبة...

طُرِق الباب وسمعتُ وليد يخاطبني:

«هذا أنا يا رغد... هل أنتِ بخير؟؟».

قلتُ:

«نعم. لا تقلق».

قال:

«هل تحتاجين إلى شيء؟».

أجبتُ:

«كلاّ... شكراً».

فقال:

«إذن تصبحين على خير».

وأحسستُ به يبتعد...

شعرتُ برغبةٍ مفاجئة في التحدُّث معه... في احتكاره معي ولو لبعض الوقت... في جذب اهتمامه وطمأنة نفسي بأنني لستُ نكرةً في هذا المنزل...

أردتُ النهوض ولكنَّ عكّازي كان بعيداً... ناديتُ وليد ولكنّه لمْ يسمعني... زحفتُ على الأرض إلى أنْ وصلتُ إلى العكاز... ثمَّ ارتديتُ حجابي على عجلٍ وسرتُ نحو الباب...

ذهبتُ إلى غرفة المعيشة المجاورة حيثُ يباتُ هو حالياً... وكان الباب مفتوحاً ويكشِف ما في الداخل...

إلى الجدار المقابل لِفتحة الباب كانتْ أروى تُسنِد ظهرها وقد مدَّتْ إحدى يديها إلى خصرها بينما يقف وليد أمامها مباشرة وذراعاه ممدودتان إلى الأمام ومسندتان إلى ذات الجدار مشكلتين طوقاً حولها...

حين وقع بصري على منظرهما شعرتُ بالشلل المفاجئ وترنّحتُ بعكازي...

بسرعة استدرتُ للوراءِ وخطوتُ خطوتين بالعكاز مبتعدةً عن الصدمة... ولأنني شعرتُ بالشلل فقد رميتُ ثقلي كاملاً على العكّاز الذي انزلق فوق الأرضية الملساء وأوقعني فجأة...

تأوّهتُ ألماً... ولمْ أستطِع النهوض. ليس مِنْ شدّة الإصابة بل مِنْ العشي الذي أصاب عيني مِنْ منظر الاثنين... لا أطيق أنْ أراهما قرب بعضهما البعض... لا أتحمّل...

لمحتُ وليد يُقبل نحوي قلِقاً ويجثو بقربي وهو يقول:

«أأنتِ بخير؟».

بخير...؟؟ لا! أنا لستُ بخير... لستُ بخير... لستُ بخير...

هبَّ وليد لمساعدتي على النهوض فقلتُ زاجرةً:

«دعني مِنْ فضلكَ».

ومددتُ يدي إلى العكاز وأقمتُه عمودياً على الأرض وحاولتُ النهوض، غير أنّني لمْ أستطع...

كانتْ أطرافي ترتجِف وأعصابي منهارة وعجزتُ عن شدِّ قبضتي على العكاز فانزلق مجدّداً...

قال وليد:

«دعيني أساعدكِ».

لكنني رددتُ باقتضاب:

«قلتُ دعني وشأني... سأنهض بمفردي».

وأعدتُ الاستناد إلى العكاز وحاولتُ الوقوف... ولمْ تسعفني عضلاتي وسرعان ما انزلق العكاز وانهرتُ أرضاً...

وليد حينما رأى ذلك مدَّ ذراعيه ورفعني عنْ الأرض...

قلتُ بغضب:

«ماذا تفعل؟ كلاَّ... أنزلني...».

قال وليد بانفعال:

«ستكسرين بقية أطرافك إنْ تركتُكِ هكذا».

وسار بي رغماً عنّي إلى أنْ أوصلني إلى غرفتي ووضعني على السرير.

هتفتُ ثائرة:

«لا أريد مساعدة مِنْ أحد... دعوني وشأني».

وليد نظر إليَّ باستغراب واستهجان معاً وقال:

«ماذا جرى لكِ يا رغد؟ ما غيّركِ هكذا فجأة؟».

«ليس مِنْ شأنك... إيّاكَ أنْ تكرِّرها ثانيةً... مَنْ تظنّ نفسكَ؟؟».

وليد حملق بي مندهشاً:

«رغد!! أتهذين؟؟».

«نعم أهذي... أنا مجنونة... ماذا يعنيكَ في ذلك؟؟».

أطرق وليد برأسه ثمَّ قال مستاءً:

«الظاهر أنني تسرّعتُ حين أحضرتكِ مِنَ المستشفى... أنتِ لا تزالين مُتعبة».

استفزّتني جملته... فصرختُ:

«مُتعبة ومجنونة وعرجاء... ثمَّ ماذا؟ هل اكتشفتَ حقيقة ما أكون الآن؟».

تنفَّس وليد نفَساً عميقاً ثمَّ أولاني ظهره وغادر. ناديتُ بغضب:

«إلى أين تذهب؟ عُد إلى هنا».

لكنه اختفى... ثمَّ فجأة ظَهَرَ يحمل العكّاز وأتى به إلى جانبي. لمّا رأيتُ العكاز قربي مباشرةً ثارتْ ثورتي... أخذتُ العكاز ورميتُ به بقوةٍ بعيداً فارتطم بنفس الطاولة وأحدث ذات الجلبة... وليد وقف إلى جواري يراقب بصمت...

قلتُ بحدّة:

«لا أريد هذا ولن استخدمه ثانية... هل فهمتَ؟».

لمْ يتحرّك ولمْ يقل شيئاً... فاشتططتُ غضباً مِنْ بروده وصرختُ:

«لا تعده إليَّ ثانيةً... مفهوم؟؟».

ووليد واقفٌ يسمعني وينظر إليَّ ولا يردّ!. أردتُ منه أنْ يقول شيئاً... أنْ يغضب... أنْ يتشاجر معي أو يواسيني... أنْ يُبدي أيَّ ردّة فعل تفيد بأنه يحسُّ ولكنّه لمْ يحرّك ساكناً.

قلتُ بتهيّج:

«لماذا لا تردّ؟».

وليد حدّق بي لحظةً ثمَّ قال:

«هل انتهيتِ الآن؟».
حملقنا ببعضنا لفترة ثمَّ استدار وليد بقصد المغادرة. هتفتُ بسرعة:
«انتظر».
استدار إليَّ بنفاذ صبرٍ وقال بضيقٍ بالغ:
«ماذا بعد؟».
ولمَّا أحسستُ بضيقه هدأتُ فجأةً وشعرتُ بالذنب. صمتُّ برهةً متراجعة، وقبضتُ على ما أفلتَ مِنْ أعصابي... ثمَّ قلتُ وقد تحوّل صوتي بغتة إلى السكينة:
«إلى أين تذهب».
ردّ وليد بانفعال:
«إلى قعر الجحيم... هل يعنيكِ هذا؟».
وأراد أنْ يخرج فناديتُه مجدداً:
«وليد».
التفتَ إليَّ بطول بالٍ وزفر زفرة قويَّة مِنْ صدره وقال باقتضاب:
«نعم؟».
آه يا إلهي!... إنه غاضبٌ بالفعل...
يا أنتَ!.. يا مَنْ تقف هناك تشتعِل غضباً... يا مَنْ تدَّعي أنك ذاهبٌ إلى قعر الجحيم... إنكَ أنتَ جحيمي! اقترِب وابتعِد منِّي وعنِّي في آنٍ واحد... فأنا أفقد توازني في كلا الوضعين... ولا شيء يحرقني ويزيدني سعيراً وجنوناً أكثر مِنْ رؤيتكَ إلى جانب الشقراء الدخيلة...
«نعم يا رغد هل هناك شيءٌ آخر؟؟».
قال وليد ذلك لمَّا استبطأ ردّي ورأى ترددي...
«رغد؟!!».
قال مستغرباً ومستاءً... فقلتُ منكسِرة:
«أنا... آسِفة».
ومِنَ التعبيرات التي تجلّتْ على وجهه أدركتُ أنَّه لمْ يكن يتوقّع أسفي أو ينتظره. قلتُ:
«لا تغضَب منِّي».
حملق بي وليد في صمت، ثمَّ ضغط بإصبعه على المنطقة بين حاجبيه ثمَّ قال:
«لستُ غاضباً... لكنني تعِبٌ مِنْ تقلبّات مزاجكِ هذه يا رغد...».
ثمَّ تابع بصوتٍ راجٍ:
«أعطيني فترة نقاهة أُرخي فيها أعصابي المشدودة قبل أنْ تنقطع».
فسّرتُ الإرخاء الذي يقصده على أنّه أُروى... فهيّجني المعنى وقلتُ منفلتة مِنْ جديد:
«وأعصابكِ هذه لا تسترخي إلا مع الشقراء؟».
نظر إليَّ بتعجُّب وتابعتُ:

«أمّا أنا... فأعصابي لنْ تستريح ومزاجي لنْ يصفوَ إلا إذا أرسلتَها للمزرعة وأبعدتَها عنّي نهائياً».

مرّرَ وليد أصابع في شعره كما يفعل عندما يتوتّر... ثمّ زفر:

«يـــــا صبر أيـّـــوب».

وأحسستُ بالجملة تطعن قلبي... فقلتُ ثائرة:

«يلزمكَ صبرٌ بحجم المحيط إنْ كنتَ ستُبقيها أمام عيني تصول وتجول... وأنا معاقةٌ بهذا الشكل... وبسببها... فلتتحمّل النتائج... قلتُ لكَ أنني أكرهُها ولا أريد رؤية وجهها ثانيةً... إنّها حتّى لمْ تفكّر في الاعتذار عمّا سبّبتْه لي... بل لا بد أنّها فرِحَة بإصابتي وتشمُت بي... وأنا أفضِّل الموت حرقاً على أنْ أراها تتجوَّل أمام ناظريَّ بكل حرِّية».

ربّما بالغتُ في التعبير عن غيظي الشديد أمام وليد... هو وضع يديه على صدغيه ثمّ هتف بقوة:

«حاضِر... حاضِر يا رغد... حـاضـر... سأرسلها إلى المزرعة وأخلّصكِ مِنْ كل هذا... أفعل أيَّ شيءٍ لأجلكِ... ماذا تأمرين بعد؟ فقط أريحيني...».

وضرَبَ البابَ بقبضتِه بقوّة وانصرف...

- وليد -

وعدتُ إلى غرفةِ المعيشة والمجاورة لغرفةِ رغد فوجدتُ أروى لا تزال هناك... واقفةً عند البابِ، وتستمع إلى شجارنا.

لمْ تتحدَّث بل ألقتْ عليَّ نظرة خيبةٍ سريعة ثمَّ غادرتْ المكان. قبل قليل كنتُ أحاول مصالحتها وتوضيح بعض الأمور العالقة منذ أيام... إننا متخاصمان والجو بيننا مربوكٌ للغاية وكلّما حاولتُ التقرُّب منها صدَّتْني بجملة: («أعدني إلى المزرعة»).

أحاول بذل جهودي لإقناعها بالعدول عن الفكرة حالياً ولكن... وإنْ كان هناك شعرة أمل واحدة فإنَّ رغد بكلامها الأخير هذا... قطعتْها.

رغد كانت بصحّةٍ مقبولة مُذ غادرتْ المستشفى وتقبّلتْ بعد جهد فكرة السير على العكاز... والأمور سارتْ على نحوٍ مُرْضٍ إلى أنْ انتهتْ حفلة العشاء الصغيرة التي أقمتُها احتفالا بسلامتها.

واعتقد... بل أنا على يقين مِنْ أنَّ سبب تدهورها المفاجئ هو مقابلة أروى. إنَّ عليَّ ألا أقف مكتوف اليدين وأترك الفتاة تتخبَّط وتنهار مِنْ جديد. في السابق كانت تنشغل في الجامعة وفي الدراسة... أما وهي حبيسة الجبيرة والمنزل... فإنَّ اصطدامها بأروى سيسبِّب كارثة نفسية لها... ولأنَّ الوضع لمْ يكن ليُطاق البتّة فقد انتهى قراري إلى أنْ أحجز للسفر عاجلاً...

«لا بأس... خيراً تفعل».

أجابتْني الخالة حين أخبرتُها بعد أنْ عدتُ مِنْ شركة الطيران. قلتُ:

«جيّد. وهل لا ساعدتِ رغد في تجهيز أمتعتها؟».

«بكل تأكيد».

سألتُ:

«بالمناسبة هل هي مستيقظة؟».

فأنا لمْ أرها أو أعرف عنها شيئاً منذ البارحة... ولا أعرف بأي مزاج استيقظتْ هذا الصباح.

ردّتْ الخالة:

«نعم. أنهتْ حمّامها وطعامها قبل قليل فقد رأيتُ الخادمة تخرج بالأطباق مِنْ غرفتها».

«إذن رجاءً هل لا تعلمينها بأنني أودُّ التحدُّث معها».

وسبقتني الخالة إلى غرفة رغد لتعلمها بقدومي، ثمَّ رأيتُها تخرج وتقول:

«تفضَّل».

البارحة كانتْ فتاتي غير طبيعية وأظنني أنا أيضاً لمْ أسيطر على أعصابي كما ينبغي... لكن أنا حتَّى لو غضبتُ مِنْ رغد وتقلُّبات مزاجها يتغلَّب خوفي عليها وحبُّي لها على أي شعور آخر ويعيدني إليها ملهوفاً...

اشتاق وأعود إليها حتّى لو لمْ أكن أجد لديها ما يغذِّي شوقي...

إنها المحور التي تدور حوله أحاسيسي ومشاعري واهتماماتي... وأمور حياتي كلّها...

وقفتُ عن الباب وطرقتُه... وسمعتُها تأذن لي بالدخول. هذه المرّة تسارعتْ نبضات قلبي وداهمني التوتر... أكثر مِنَ المعتاد...

رغد كانتْ جالسةً على المقعد أمام المرآة... ونظرتْ إليَّ مِنْ خلال المرأة فازداد توتري ثمَّ حيَّيتُها بصوتٍ خافت، وهي ردّتْ بهدوء.

سألتُها:

«كيف أنتِ هذا الصباح؟».

متمنياً أنْ تكون إجابتها مطمئنة شكلاً ومضموناً.

«نحمد الله ونشكره».

وهي لا تزال تخاطبني عبر المرآة... عقّبتُ:

«ونعم بالله».

ولمحتُ العكاّز إلى جوارها فسألتُ:

«هل قمتِ بالتمارين؟».

«نعم».

«وكيف تشعرين؟».

«بتحسُّن خفيف».

ابتهجتُ وقلتُ:

«عظيم... ستتحسَّنين بسرعة إنْ شاء الله تعالى، وتستغنين عن هذا قريباً».
وأشرتُ إلى العكاز. رغد نظرتْ إلى العكّاز ثمَّ إليَّ عبر المرآة نظرة تشكُّك وقلق وسألتْ:
«أحقاً؟ أخشى أنني لنْ أستطيع الاستغناء عنه أبداً».
قلتُ بسرعة:
«لا سمح الله! ما هذا الكلام؟ غير صحيح».
وبدا على وجهها قلقٌ أكبر وقالتْ:
«أو ربّما يظلُّ في قدمي شيءٌ مِنَ العرج الأبدي».
قلتُ معترضاً:
«لا تتشاءمي هكذا!».
لكنها كانتْ شديدة القلق... بل إنَّ أكبر مخاوفها كما استنتجتُ هو أنْ تنتهي إصابتها بالعرج لا سمح الله...
قلتُ مشجِّعاً:
«لقد أكَّد الطبيب أنه أمرٌ مؤقّت إلى أنْ يُشفى التمزّق ويزول الورم وينجبر الكسر... لا تخافي صغيرتي».
تعلّقتْ عينا رغد بسراب كلماتي الأخيرة... ثمَّ إذا بها تستدير نحوي لتواجه نظراتي مباشرة... وتقول:
«وليد... فيما لو... لو لا قدَّر الله أصبحتُ عرجاء أو مُعاقة... فـ... هل... ستظلُّ تهتم بي؟».
فوجئتُ مِن سؤالها الغريب... والذي أجهل المغزى الحقيقي مِن ورائه... وكانتْ تنتظر منِّي الإجابة مِنْ لهفة نظراتها إليَّ...
أي سؤالٍ هذا يا رغد...!؟ قلتُ:
«لا تفكّري هكذا يا رغد بالله عليكِ... أنا متفائلٌ جداً وبإذن الله سيعود كل شيءٍ على ما كان».
لكنَّها عادتْ تسأل:
«لكن لو لا قدَّر الله لمْ أشفَ تماماً... هل ستظلُّ تعتني بي؟».
ومِنَ الرجاء الذي قرأتُه في عينيها فهمتُ مقدار تشوّقها لسماع إجابةٍ مطمئنة...
آه يا رغد! أَوَ تسألين؟؟ أيساورك أيُّ شكٍ تجاه أهميّتكِ وأولويّتكِ أنتِ في حياتي..؟؟
أجبتُ:
«وحتّى لو بلغتِ المائتين مِن العمر وأصبحتِ عجوزاً عاجزة عن كل شيء... سأظلُّ اعتني بكِ دوماً يا صغيرتي».
رأيتُ الابتسامة تشقُّ طريقها إلى وجها... كأنها شمسٌ أشرقتْ في سماءٍ صافية نقيّة... ثمَّ قالتْ:
«شكراً لكَ».

ابتسمتُ بسرور وراحة وقلتُ:

«على الرَّحبِ والسَّعة».

رغد كرّرتْ:

«أنا عاجِزةٌ عنْ شكركَ على كل ما تفعله مِنْ أجلي...».

قاطعتها مداعباً:

«وهل ينتظر الآباء شكراً على رعاية بناتهم؟».

رغد نظرتْ إلى الأرض ثمَّ إليَّ وقالتْ:

«ولكنّكَ ستكون في المائتين وعشر سنين مِنْ عمرك آنذاك...!! أشكُّ في أنّكَ ستكون قادراً على حملي!».

ضحكتُ ثمَّ قلتُ:

«لا تستهيني بقدراتي».

ثمَّ أضفتُ:

«حسناً! سأريكِ!».

وعلى غير توقُّعٍ منها مددتُ يدي أسفل الكرسي الذي تجلس هي فوقه ورفعتُهما سوياً!

رغد هتفتْ متعجِّبة:

«أوه... ماذا تفعل؟!».

«سأحملكِ إلى الطابق العلوي لتُعدّي حقيبة سفركِ... ستساعدكِ الخالة».

ولمْ أدعْ لها الفرصة للاعتراض وحملتُها إلى غرفتها في الطابق العلوي واستدعيتُ خالتي والخادمة لمساعدتها... وذهبتُ لأعد حقيبتي أنا أيضاً.

- رغد -

موعد سفرنا هو مساء اليوم... ولأنَّه سيكون سفراً قصيراً فأنا لمْ أجهِّز في حقيبتي الكثير مِنَ الحاجيات. وكنتُ أتمنّى لو أنَّني لا أضطرُّ للسفر وأنا بهذه الحالة، ولكن وليد لمْ يجد بداً مِنْ أنْ يسافر بنا نحن الثلاث ثمَّ يعود بي...

الساعة الآن الثالثة فجراً... تصوّروا أنني مستيقظة حتّى الآن... يحُول الأرقُ الفظيع دون استسلامي لسلطان النوم...!

وليد أخبرني بأنّه سيأخذني إلى بيتِ خالتي لأقضي عندهم بضعة أيام... وأنا لمْ أُخبر عائلة خالتي عن قدومي إليهم ولا عن إصابتي، بطلبٍ مِنْ وليد نفسه.

سوف نترك الشقراء والسيدة ليندا في المزرعة... ونعود أنا ووليد إلى البيت!

ألا يكفي هذا سبباً لجعلي أتأرّق طوال الليل؟؟

هذا إضافة إلى تفكيري الدائم بإصابتي وخوفي مِن أنْ أنتهي عرجاء... أو تفقد يدي مهارتها في الرسم...

الرسم!... آه...

على ذكر الرسم تذكّرتُ شيئاً مهماً فهببتُ جالسةً...

«لوحاتي!».

هتفتُ أخاطب نفسي... كيف يُعقل أنْ تكون رسماتي الأخيرة قد غابتْ عن ذهني هكذا..؟!

نهضتُ عن سريري وأضأتُ المصابيح وجلتُ ببصري فيما حولي مفتِّشةً عن الأوراق التي رسمتُ عليها وجه وليد ليلة النزهة...

«يا إلهي... أين يمكن أنْ تكون؟؟».

فقد كانتْ في يدي عندما وقعتُ مِنْ أعلى الدرج، هي وكيس مجوهراتي ذاك... ولا أعرف ما حلّ بهما بعد ذلك...

ربما الشقراء أزالتْ الأوراق وتخلّصتْ منها... أو ربَّما السيدة ليندا جمعتْها ووضعتْها في مكانٍ ما... أو ربما وليد بالصدفة شاهدها...

ربّاه!!

ولمْ أستطع مقاومة رغبتي الملحّة في العثور عليها تلك الساعة.

فتّشتُ تفتيشاً سطحياً في الأماكن التي افترضتُ أنَّ أحداً يمكن أنْ يكون قد نقلها إليها... ولمْ أعثر على شيء للآن... وحان دور غرفة مكتب وليد!

البيتُ يخيّم عليه السكون والظلام... وحقيقةً يبدو مُرعباً... وأنا أتحرّك ببطء وبحذر وببعض الخوف... إلى أنْ دخلتُ غرفة المكتب...

كانتْ الغرفة غارقةً في الظلام الدامس، أشعلتُ المصابيح وألقيتُ نظرةً على ما حولي واستقرَّ بي العزم على أنْ أبدأ بتفتيش مكتب وليد...

«ربّما يكون أحدهم قد جلبها إلى هنا! لكنّي أخشى أنْ يكونوا قد ألقوا بها في سلّة المهملات».

قلتُ مخاطبةً نفسي... وتأمّلتُ المكتب والأرفف العديدة والأوراق الكثيرة مِنْ حولي... وشعرتُ بالتقاعس... كيف يمكنني البحث بين كل هذه الأشياء؟؟

اقتربتُ مِنَ المكتب ولمْ ألحظْ ما يسترعي الاهتمام على سطحه، فجلستُ على الكرسي خلفه وفتحتُ أوّل الأدراج وفتّشتُ ما بداخله ثمّ تنقلتُ بين البقية واحداً تلو الآخر...

وفيما أنا أفعل ذلك فجأة سمعتُ صوتاً مُقبِلاً مِنْ ناحية الباب فجفلتُ وتسمّرتُ في مكاني...

انكتمتْ أنفاسي مِنَ الفزع وتلاحقتْ نبضات قلبي... وكاد شعر رأسي يقف مِنَ الذعر...!

«رغد!».

لقد كان صوت وليد!

سحبتُ يدي مِنَ الدرج الذي كنتُ أفتّشه ووضعتُها تلقائياً على صدري وأطلقتُ نفَساً طويلاً...

وليد تأمّلني وهو واقفٌ عند فتحة الباب ويده ممسكةٌ بمقبضه ووجهه يكسوه الاستغراب والقلق...

«ماذا تفعلين هنا وفي هذا الوقت!!؟؟».

نبعتْ قطيرات مِنَ العرق على جبيني مِنْ شدّة فزعي وازدردتُ ريقي وتتأتُ ولمْ أجد جواباً...

رأى وليد اضطرابي فقال:

«هل أفزعتكِ؟؟».

أومأتُ برأسي (نعم) فأقبل نحوي حتى صار جواري وهو محملقٌ بي باستغراب وحيرة، ثمّ قال:

«أتبحثين عن شيء؟؟».

جمعتُ بعض الكلمات المبعثرة على لساني وقلتُ:

«إممم لا... أعني... لا شيء... لقد كنتُ...».

ولمْ أستطع التتمة.

وليد مدّ يده وأمسك بيدي اليمنى المجبّرة بلطفٍ وقال:

«هوّني عليك... هذا أنا ليس إلّا!».

وبعد أنْ هدأتْ أنفاسي مِنْ فزعها وانتظمتْ خفقات قلبي ولاحظ وليد استرخائي قال:

«حسناً... عمَّ كنتِ تبحثين؟؟».

شعرتُ بالخجل ولمْ أجرؤ على إجابته... ماذا أقول له؟!...

سَحبَ وليد يده عن جبيرتي وانثنى أمامي ومدَّ يده إلى أحد الأدراج واستخرج منه شيئاً وضعه على المكتب مباشرةً أمامي قائلاً:

«عن هذه؟؟».

وإذا بها الأوراق التي كنتُ أفتّش عنها ومعها قلمي الرصاصي.

تسلّقتْ الدماء الحمراء أوداجي ورشّتْ على وجهي صبغاً شديد الاحمرار... وسكنتُ عن أي كلام وأي حركة.

وليد بقي واقفاً يراقب تقلبّات لوني ولا أعرف ماذا كان يقول في نفسه... وأخيراً نطق:

«لِمَ لمْ تنتظري حتّى الصباح أو تطلبيها منّي؟».

حينها نطقتُ بارتباك:

«أأأ... طرأتْ... في بالي الآن».

وليد عاد ومدَّ يد وأخذ الأوراق مِنْ جديد وقال:

«هلمّي بنا إلى النوم... ينتظرنا سفرٌ ومشقة».

وسار مبتعداً... والأوراق في يده! هتفتُ:

«لوحاتي!».

فالتفتَ إليَّ وليد... ثمَّ أمال إحدى زاويتي فمه للأعلى وهو ينظر إليَّ نظرةً قوية ويقول:

«سآخذها إلى غرفتكِ! لا تخافي عليها».

وسبقني إلى غرفتي... تنفّستُ الصعداء... ثمَّ سرتُ خلفه بعكّازي ببطء... وعند الباب تقابلنا وجهاً لوجه... هو يهمُّ بالخروج وأنا أهمُّ بالدخول... بالضبط في طريق خطوات بعضنا البعض... لكنّ أياً منّا لمْ يتنحّى عن طريق الآخر...

رفعتُ نظري إليه فإذا به ينظر إليَّ... بعمقٍ وغموض... وجسده يحجب النور عنّي وظلّه يغطّي جسدي... كالشجرة الخرافية الممتدّة إلى السماء... حاولتُ أنْ أهرب مِنْ نظراته... وأنْ أبتعد عن طريقه... ولمْ أفلح... كنتُ كالأسيرة المقيّدة المربوطة بإحكام إلى جدع الشجرة... ونظراته كانتْ قويّة وثاقبة... كتلك النظرات التي كانت معلّقة في سقف غرفتي... في بيتنا المحروق... تراقبني وتخترقني كل حين...

رأيتُ على طرف لسانه كلاماً يوشك أنْ يقوله... أكادُ أجزم بأنَّ بعض الحروف قد تساقطتْ منه... لكنّ وليد زمَّ شفتيه وعضَّ على أسنانه وتنهّد ثمَّ قال ختاماً:

«تصبحين على خير».

الحلقة الرابعة والأربعون

الخيار المستحيل

- وليد -

استقبلنا العمّ إلياس استقبالاً حميماً جداً... مليئاً بالعناق والقبل... فقد كان غيابنا طويلاً وبقي العجوز وحيداً بعيداً عن أخته وابنتها اللتين لمْ يسبق له فراقهما...

كانتْ خطّتي المبدئية هي أنْ نأتي جميعاً إلى المزرعة فقد تساعِد الأجواءُ هنا على تحسين الأوضاع النفسية لنا...

وإنْ رفضتْ رغد البقاء، وهذا ما أتوقّعه، كنتُ سآخذها إلى بيت خالتها وأقضي في المزرعة بضعة أيام...

مخاوفي الأولى كانتْ في ردود فعل عائلة أمّ حسام تجاه إصابة رغد، والتي لمْ نذكر لهم عنها شيئاً حتى الآن...

بضع أيام في المزرعة هي كافيةٌ لتجديد نشاطي وطرد هموم صدري... أزور أثناءها شقيقي سامر وأقنعه بالمجيء للعمل معي في المصنع، ونعود نحن الثلاثة إلى منزلنا الكبير...

كان هذا ما أتمنّى حصوله وأجهل ما الذي ستؤدي إليه الأقدار مستقبلاً...

أروى غاية في البهجة وتكاد تقبّل حتى الأشجار مِنْ شدّة الشوق والحنين، والخالة لا تقلُّ عنها فرحاً...

أمّا الفتاة الواقفة خلفي فهي تسير بعكّازها خطوةً للأمام وخطوةً للخلف، رافضةً دخول المزرعة...

انطلقتْ أروى تعدو بين الأشجار كالفراشة... ونشرتْ الخالة بساطاً قماشياً على العشب بجانب مدخل المنزل... وجلستْ عليه ومددتْ رجليها باسترخاء...

وذهب العمّ إلياس يقطف بعض ثمار العنب ثمّ غسلها وجلبها إلى البساط وأشار إلينا: «تعالوا... تذوّقوا».

الوقتُ كان ليلاً... والنسيم عليلٌ جداً والهواء غنيٌ بالأوكسجين النقي الذي يبثُّ الحيوية والانتعاش في البدن... هذه هي أجواء المزرعة الرائعة... وكم نحن بحاجة إليها...

«تعال يا وليد... إنه لذيذ جداً... تفضلي يا آنسة رغد».

دعانا العم إلياس بسرورٍ إلى وجبة العنب الطازجة. التفتُ إلى رغد التي تقف خلفي متردِّدة وقلتُ:

«تعالي رغد».

الإنارة كانتْ خفيفة منبعثة رئيسياً مِنَ المصباح المعلّق عند مدخل باب المنزل... لكنّها سمحتْ لي برؤية الاعتراض على وجه رغد.

خاطبتها:

«رغد... ما الأمر؟».

أفصحتْ:

«تعرف... لا أريد المبيت هنا».

اقتربتُ منها أكثر حتى أُخفِض صوتي وأضمن عدم وصوله لمسامع الآخرين...

«أرجوكِ يا رغد... لا تحرجيني مع العائلة... تحمّلي قليلاً مِنْ أجلي».

قالتْ:

«لكن...».

ولمْ تتم فقلتُ:

«بالله عليكِ... على الأقل لهذه الليلة... نرتاح مِنْ عناء السفر ونقابل كرم المضيفين بحسن الذوق... لا يمكننا أنْ نخرج هكذا فجأة دون اعتبار للأدب واللياقة... أنا أرجوكِ بشدّة يا رغد».

واستجابتْ رغد لرجائي الملح... وسارتْ معي حتى جلستْ على طرف البساط ببعض المشقّة... واقتربتُ أنا مِنْ سلّة العنب وأخذتُ لي ولها شيئاً منه...

وكان بالفعل لذيذاً جداً...

تبادلتُ والعم إلياس أحاديث خفيفة متنوعة وشعرتُ بارتياح شديد قلّما أشعر به مع شخصٍ غيره... والعم كان مِنَ الأدب بحيث أنّه لمْ يسأل عن تفاصيل ما أصاب رغد حين رآها بالعكاز بل اكتفى بحمد الله على سلامتها...

قضينا نحو الساعة جالسين على البساط نتناول العنب حتى أتينا على آخره... سمعتُ بعد ذلك رغد تهمس لي:

«لا أستطيع الجلوس هكذا طويلاً... أصاب الإعياء رجلي».

«حسنا... هل تودّين الذهاب إلى الداخل؟».

سألتْني:

«ماذا عنكَ؟».

أجبتُ:

«أود البقاء هنا فالجو رائعٌ جداً... وقد أباتُ الليلة على هذا البساط!».

وابتسمتُ للتعجُّب الذي ظهر على وجه الصغيرة ثمَّ نهضتُ ونهضتْ هي معي، واستأذنا للدخول إلى المنزل...

ساعدتُ رغد على صعود العتبات ورافقتُها إلى غرفتها ثمّ تولّيتُ حمل الحقائب إلى الداخل وتأكّدتُ مِنْ أنّ كل شيء مهيّأ لها، وتركتُها لتسترخي...

عدتُ إلى الخارج واستلقيتُ على البساط وبدأتُ أملأ رئتي مِنَ الهواء النقي... أغمضتُ عيني في استرخاءٍ تام... وكنتُ أسمع أحاديث العم والخالة المرحة... ولشدّة استرخائي غفوتُ لفترة مِنَ الزمن...

صحوتُ بعد ذلك على أصوات أشخاصٍ يتحدّثون، وحين فتحتُ عيني رأيتُ العمَّ والخالة وأروى جالسين على مقربة منّي وملتفّين حول صينية الشواء... ورائحة المشويات تملأ المكان. قال العم:

«ها قد نهض وليد... نوم العافية... تعال وشاركنا».

جلستُ ونظرتُ إلى الجمر المتّقد وقلتُ:

«آه... أما زال لديكم طاقةٌ بعد السفر!».

رد العمّ:

«وهل ستنامون دون عشاء؟ اقترب بُنيَّ».

وجلستُ معهم أملأ أنفي بالرائحة الطيبة...

أروى كانتْ تتولّى تقليب المشويات بهمّة... وكانتْ قد أطلقتْ شعرها الطويل لنسمات الهواء... وعندما هبَّ نسيم قوي حمل خصلة منه نحو الجمر فحرّكتُ يدي بسرعة لإبعاده وأنا أقول:

«انتبهي».

نظرتْ أروى إليَّ نظرةً عميقة ولمْ تعلّق... بل إنها لمْ تتحدّث إليَّ أبداً تلك الليلة وحينما طلبتُ منها تحضير طبق مِنَ المشويات كي آخذه إلى رغد تركتْ الأسياخ مِنْ يدها وقالتْ:

«حضّره بنفسكَ».

لا أعرف إنْ كان العمُّ لاحظ وجود شحنةٍ بيني وبينها أمْ لا... والخالة سرعان ما تدخّلتْ وأعدّتْ الطبق المنشود وبنفسها حملتْه إلى غرفة رغد، غير أنها عادتْ به بعد قليل وأخبرتنا أنّ الفتاة نائمة.

بعد وجبة غنية كهذه قمتُ أتمشّى في المزرعة وأحرّك عضلاتي... غبتُ طويلاً ولمّا عدتُ صوب المنزل لمْ أرَ غير أروى مضطجعةً على ذات البساط الذي كنتُ نائماً فوقه... تراقب النجوم...

حينما أحسّتْ باقترابي جلستْ وأخذتْ تلملم شعرها الذي تعبث به الريح... اقتربتُ منها ثمّ ناديتُها وقلتُ:

«أروى... يجب أنْ نضع حداً لكلّ هذا».

وقفتْ أروى وهمّت بالمغادرة وهي تقول:

«نعم... سنضع حداً».

نهضتُ باكرةً جداً... على زقزقة العصافير القوية المتسلّلة عبر النافذة إلى الغرفة. فيما بعد فتحتُ النافذة فتدفّقتْ تياراتٌ باردةٌ مِنَ الهواء النقي إلى الداخل... وأطللتُ مِنَ النافذة فرأيتُ الخضرة تغطّي المنظر وتأسر الأعين...

لمْ أستطع مقاومة هذه الجاذبية... ارتديتُ عباءتي وسرتُ بعكازي بحذر... وخرجتُ مِنَ المنزل. كان صباحاً رائعاً... والشمس بالكاد أرسلتْ الجيش الأول مِنْ أشعّتها الذهبية لتغزو السماء. على مقربةٍ مِنَ المنزل وجدتُ السيدة ليندا\ تحمل سلّة كبيرة وتجمع فيها ما تقطفه مِنَ العنب. حييتُها فردتْ مبتسمة وسألتني عن أحوالي فطمأنتُها إلى أنني بخير... ووجدتها فرصةً عفوية لأشكرها على وقوفها معي وعنايتها بي أيام إصابتي.

«لا داعي للشكر يا بنيّتي... نحن عائلة واحدة وجميعنا في خدمة بعضنا البعض».

كان ردّها كريماً مثل طبعها... وأشعرني بالخجل مِنْ مواقفي السابقة منها بالرغم مِنْ أنّ ندّي الحقيقي هو أروى...

«إنّكِ طيبة القلب جداً وأنا لا أعرف كيف أشكركِ أو أعتذر منكِ على أي إزعاج تسبّبتُ به لكِ».

قلتُ بصدق وعرفان فكرّرتْ:

«لا ننتظر الشكر مِنْ أبنائنا على رعايتهم».

عجيب! إنّها نفس الجملة التي قالها وليد لي مؤخّراً!

ولدى تذكّري الجملة تذكّرتُ كيف حملني وليد بالكرسي وصعد بي الدرج ثمّ نزل دون أنْ تظهر عليه أي إمارة تعب!

وكذلك تذكّرت (لوحاتي) والموقف الأخير بيننا...

آه أنتم تعرفون مسبقاً... كم هو طويلٌ وعريضٌ وضخمٌ وقويٌ ابن عمّي الحبيب هذا!

الشيء الذي لا تعرفونه والذي اكتشفتُه مؤخّراً... هو أنَّ صدره واسعٌ جداً جداً... يكفي لأنْ أغوص فيه وأسبح وأغرق دون أنْ أصل إلى بر أرسي عنده!

إنّه رغم ظاهره الصارم الغليظ، رقيق القلب ولطيف للغاية...

ابتسمتُ ابتسامة عريضة وأنا أتخيّل وليد... ربما اعتقدتْ السيدة ليندا أنني ابتسم لها مسرورةً بجملتها الأخيرة...!

خطوتُ مبتعدةً عنها ومتغلغلةً في عمق المزرعة بسرور...

ملأتُ صدري مِنَ الهواء المنعش الذي شعرتُ به يسري حتى في أطرافي... وكان عابقاً بمزيجٍ مِنْ رائحة الخضرة والزهور... كم كان هذا رائعاً خلاباً...

بعد فترة مِنَ الزمن... ظهرتْ الشقراء أمامي فجأة...

كانتْ ترتدي ملابس بيتيه وتطلق شعرها الطويل للهواء الطلق... وتسير على العشب

حافية القدمين...

اصطدمتْ نظراتنا ببعضها وتنافرتْ بسرعة! هممتُ بالانسحاب بعيداً عنها لكنها فجأة نادتني:

«انتظري».

ماذا؟! أنا أنتظر؟ ومعكِ أنتِ؟

ألقيتُ عليها نظرة لا مبالية وهممتُ بالمغادرة غير أنها اعترضتْ طريقي...

«ماذا تريدين؟».

سألتُها بحنق فأجابتْ:

«ألا يمكننا التحدُّث ولو للمرّة الأخيرة... كشخصين ناضجين؟».

لمْ استسغ مقدّمتها هذه وفي الواقع أنا لا استسيغ منها أي شيء. قلتُ بحدة:

«أي حديث بعد؟! بعد الذي فعلتِه!».

أروى قالتْ مدافعة:

«أنا لمْ أفعل شيئاً يا رغد... وكلانا يدرك أنّه كان حادثاً عفوياً... ولو كنتُ أعلم مسبقاً بأنّكِ ستتضرّرين هكذا ما كنتُ اعترضتُ طريقكِ».

عقّبتُ باستهجان:

«وها أنتِ تعترضين طريقي ثانيةً... وقد ينزلق العكاز مني وأقع وأصاب مِنْ جديد... فهل ستقولين عنه أنه حادثٌ عفوي؟».

ابتعدتْ أروى عن طريقي فحثثتُ الخطى قدر الإمكان... مولّيةً عنها. سمعتها تقول مِنْ خلفي:

«لكننا سنضع حداً لكلِّ هذا يا رغد... والحال لنْ تستمر على هذا النحو».

لمْ ألتفتْ إليها... فتابعتْ:

«مِنَ الأفضل أنْ نناقش الأمر بيننا نحن قبل أنْ نضعه على عاتق وليد».

توقّفتُ... فاسم وليد هزَّ وجداني... لكنني لمْ أستدر إليها... وسمعتُها تتابع:

«وليد لنْ يتحمّل وجودنا معاً... ولا يستحقُّ هذا العناء... المكان لا يتَّسع لكلتينا... وعلى واحدة منَّا الانسحاب طوعاً».

أثارتْني عبارتها الأخيرة أيّما إثارة... وأرغمتْني على الالتفات إليها وأنا أحبس أنفاسي مِنَ الذهول...

تابعتْ هي:

«أجل يا رغد... على إحدانا الانسحاب مِنْ دائرة وليد... وتركه يعيش بسلامٍ مع الأخرى».

ازداد اتساع حدقتي عينيَّ وتجمّع الهواء الفاسد في رئتي فاضطررتُ إلىّ زفره بقوة...

أروى سارتْ مقتربة منّي... حتّى صارتْ أمامي وهي محملقة في وجهي...

قالتْ:

«إحدانا يجب أنْ تُضحّي مِنْ أجل راحة وليد...».

لا زلتُ متسمِّرةً على وضعي... لا أكاد أصدّق ما أسمع. تغيَّرتْ نبرة أروى إلى الحزن.. وتابعتْ:

«رغد.. هل تفهمين ما أعنيه؟».

أطرقتُ برأسي كلاًّ... كلا لا أريد أنْ أفهم... كلا لا أريد أنْ أسمع المزيد... لكن أروى قالتْ:

«بل تفهمين... البارحة وليد لمْ ينمْ مطلقاً... راقبتُه قبل نومي ورأيتُه يحوم في المزرعة بتشتُّت... وعندما نهضتُ فجراً وجدتُه لا يزال في الخارج شارداً لحدّ الغيبوبة... إنّه لا ينام منذ أيام... أوضاعنا تشغل تفكيره لأبعد الحدود... إنّه مهمومٌ جداً ويعاني الأمرَّين بسببنا... وأنا أريد أنْ نضع نهايةً لهذا... هل فهمتِ؟».

كان صوت أروى يخترق أذنيَّ بعنف... وقلبي يتقطّع وأنا أسمع منها كلاماً كهذا لأوّل مرّة...

قالتْ:

«اعتقد... أنَّ أمر وليد يهمّكِ كما يهمّني... أليسَ كذلك؟».

لمْ أجب فكرّرتْ السؤال:

«أليس كذلك يا رغد؟».

قلتُ:

«بلى... قطعاً».

أروى قالتْ بنبرةٍ أشد حزناً:

«يجب أنْ تضحِّي إحدانا مِنْ أجل إراحته... إنَّه يستحقُّ التضحية... لمْ يهنأ بحياته وافتتحها بمحنة السجن... وتتابعتْ عليه المحن عقبها... وهذا يكفي... جاء دور إحدانا للتضحية لصالحه...».

نظرتُ إليها بعمقٍ لمْ يسبق لي أنْ نظرتُ إليها بمثله... بجدّيةٍ لمْ يسبق أنْ علتْ نظراتي إليها... وباهتمامٍ لمْ يسبق أنْ أوليتُها إيّاه مِنْ قبل... وكانتْ تبادلني ذات النظرات... ولمْ أشعر إلا بدمعة تتجمّع في مقلتي ثمّ تسيل حارقة على خدّي...

خرجتْ الجملة مِن حنجرتي واهيةً مذعورة:

«تقصدينني أنا؟؟».

لمْ تتكلّم أروى... فقلتُ وأنا أحرّك رأسي رفضاً:

«لا...».

فإذا بها تقول:

«صدّقيني... لقد وصلنا إلى مرحلةٍ لا يمكن معها أنْ نستمر نحن الثلاثة معا... مطلقاً...».

أخذتُ شهيقا باكياً وقلتُ:

«لكن... لكنه الوصيُّ عليّ... لا يمكنني الاستغناء عنه... إنه كافلي».

قالتْ:

«وهو زوجي أيضاً».

وخزتني جملتها وقرصتْ قلبي... فقلتُ رافضةً:

«أنتِ تعبثين بي... تتلاعبين بمشاعري».

أروى قالتْ:

«إنها الحقيقة يا رغد وأنتِ تدركينها... لكنكِ تخدعين نفسكِ... وتتصرفين بأنانية بحتة... أنظري إلى حال وليد بيننا... هل تعجبكِ؟ هل يرضيكِ أنْ يعاني كل هذا التشتُّت؟ هل ترضين له... هذه المرارة وهذا العذاب؟؟».

وتخيّلتُ صورة وليد وهو يتشاجر معي ليلة حفلة العشاء... ويقول لي أنّه تعِبٌ مِنْ تقلبّات مزاجي... ويطلب منّي تركه يستريح... وشعرتُ بسكينٍ قويّة تمزّق قلبي...

طأطأتُ رأسي إلى الأرض فهوتْ دموعي مبلِّلة العشب...

آه يا وليد... هل أنتَ تعاني بسببي أنا؟ هل أنا سبب تعكير حياتكَ؟؟ هل وجودي معكَ هو خطأٌ كبيرٌ عليَّ تصحيحه؟

لكن.. ماذا عنّي أنا؟؟

أنا لا أستطيع العيش بدونكَ... إنّكَ الهواء الذي أتنفّسه وإنْ انقطعتَ عني... فسأموت فوراً...

«رغد».

خاطبتني الشقراء فرفعتُ بصري إليها ولمْ أرها مِنْ غزارة الدموع...

«رغد... يجب أنْ نناقش الأمر... يجب ألا نستمر في هذه الدوّامة التي ستقضي على وليد أولاً... إنْ كنّا نكترث لأمره بالفعل... فيجب أنْ نتصرّف بإيثار... لا بأنانية... على إحدانا أنْ تُخلي الساحة...».

عصرتُ عينيّ لأزيح الدموع عنها ثمَّ قلتُ بصوتٍ حزين:

«لماذا لا تكون... أنتِ؟».

أروى تنهّدتْ ثمَّ قالتْ:

«أنا.. مستعدّة لأنْ أفعل ذلك مِنْ أجل وليد... أحبّه كثيراً وسأضحّي بمشاعري لإراحته... صدّقيني أنا أعني ما أقول... لكن...».

قلتُ:

«لكن ماذا؟».

أروى نظرتْ إلى الأشجار مِنْ حولها... ثمَّ إلى السماء... ثمَّ عادتْ إليَّ...

«وليد.. متعلّق بعمله... لقد... كان حُلم حياته أنْ يدير شركة أو مصنعاً، كما كان والده رحمه الله... تعرفين أنّ وليد متخرِّج مِنَ السجن... ولا يحمل أي شهادةٍ دراسية غير الثانوية... لمْ ولنْ يرحِّب أحدٌ به للعمل عنده... وبالكاد وجد عملاً متواضعاً كفلاحٍ بسيطٍ في مزرعتنا

لقاء المأوى والطعام... وليد عانى كثيراً وعاش فترةً بائسةً جداً العام الماضي... ربّما لمْ تشعروا بها كما شعرتُ بها أنا. وأنا، وأنتِ كذلك... كلانا لا نريد له أنْ يعود لذلك البؤس مِنْ جديد... أليس كذلك؟؟».

هززتُ رأسي ثمّ هتفتُ:

«كفى».

واستدرتُ أريد الهروب بعيداً عن صورة أروى وكلامها... لكنّها تابعتْ وهي تعلّي صوتها:

«إذا كنتِ تحبين وليد فعلاً فابتعدي عنه... لا تعيديه إلى البؤس يا رغد».

تابعتُ طريقي بأسرع ما أمكنني... ولحقتني عبارتها:

«فكّري في الأمر ملياً... مِنْ أجل وليد».

كفى... كفى... كفى...

كنتُ أسير وأحرّك رأسي محاولةً نفضه عن كل ما علِق به مِنْ كلام أروى. عندما وصلتُ إلى غرفتي اندفعتُ بسرعةٍ أكبر نحو سريري فتعثرتُ ووقعتُ قبل أنْ أبلغه...

وعلى الأرض رميتُ برأسي ونثرتُ دموعي وأنا أكرّر:

«كلا... كلا... كلا...».

وعبثاً حاولتُ طرد كلامها مِنْ رأسي... غدا كالسمِّ... يسري في عروقي كلّها ويشل تفكيري وحركتي ويعميني عن رؤية غير السواد...

- وليد -

لمْ أكن نشيطاً هذا اليوم... فقد استيقظتُ عند الظهيرة بعد نومٍ سطحي ساعات النهار. تفقّدتُ الآخرين فوجدتُ العم إلياس في الساحة الأمامية للمنزل مشغولاً بتنظيف الصناديق الخشبية المستخدمة في جمع الثمار مما علِق بها مِنْ بقايا ثمار وأتربة. هذا الرجل لا يكفّ عن العمل! ورغم أننا وظفنا مسبقاً مجموعة مِنَ العمال للعناية بالمزرعة لساعات معيّنة مِنَ النهار، غير أنّه ما فتئ يستخدم ساعديه وبهمّةٍ كما في السابق.

بعد حوارٍ بسيطٍ ساعدتُه على تنظيف الصناديق ثمّ ترتيبها فوق بعضها البعض، لعلّ النشاط يدبُّ في بدني المنهك... وحالما فرغنا مِنَ الأمر فاجأني العم بهذا الجملة...

«بُنيَّ... أريد أنْ نتحدّث بشأنكَ أنتَ وأروى».

أدركتُ مِنْ خلال النظر إلى عينيه أنّه صار على علمٍ بما حصل مؤخّراً... التزمتُ جانب الصمت فقال مستدرجاً:

«أريد أنْ أسمع منكَ ما حكاية عمّار عاطف؟».

شعرتُ باستياء... فقد وصل الموضوع الآن إلى العمّ... وصار موقفي حرجاً جداً. تباً لكَ يا عمار... قتلتُك قبل أكثر مِنْ عشر سنين وحتّى الآن لمْ أتخلّص منكَ؟؟

أجبتُ أخيراً:

«هل أخبرتكَ أروى؟».

قال:

«إنهما لا تخفيان عنّي شيئاً يا وليد».

وظهر شيءٌ مِنَ القلق على ملامح العجوز... ممّ أنتَ قلقٌ يا عمّي؟؟ وهل اهتزّتْ ثقتكَ بي أنتَ أيضاً؟؟ أنا لا أتحمّل خسارة الإنسان الأوّل الذي قدّم لي الاحترام والثقة والمعونة وفتح لي باب قلبه وبيته بينما كانتْ كل أبواب الدنيا موصدةً في وجهي... بعد خروجي مِنَ السجن...

قلتُ مدافعاً:

«عمّاه.. أرجوكَ صدّقني... أنا لمْ أقصدْ أنْ أخفي عليكم حقيقة أنّني قاتِل ابن أخ نديم رحمه الله».

وبدا الاهتمام الشديد على وجه العم، وأصغى بكلّ جوارحه. فتابعتُ:

«حتّى نديم ذاته لمْ يعرف هذه الحقيقة. لقد كان صديقاً وأباً لي في السجن وأحببتُه كثيراً... وحضوري إليكم وارتباطي بكم كان بدافع الوفاء له... لمْ أجدْ مناسبةً لكشفِ هذا ولمْ أعتقد أنّ الأمر سيسبّب كل هذا التعقيد».

العم أظهر تعبيرات التفهّم التي أراحتني بعض الشيء ثمّ قال:

«حسناً... ربما لمْ تكن هناك مناسبةٌ لذكره مسبقاً، أمّا الآن وقد ذُكِرَ... فاعذر فضولنا لنعرف لماذا قتلتَه أو على الأقل... لماذا لا تريد أنْ تُفصِح عنْ السبب».

رمقتُ العم بنظرةِ رجاء... اعفِني يا عمّ مِنْ هذا... أتوسّل إليكَ... لكن نظراته كانتْ تنمّ عن الإصرار... أشحتُ بوجهي بعيداً عن عينيه... وقلتُ:

«لا أستطيع».

العمّ رفع يديه إلى كتفيَّ وقال:

«وليد... انظر إليّ».

بتردّد أعدتُ عينيّ إلى عينيه... وحملقنا في بعضنا البعض لفترة. بعدها أبعد العمّ يديه وقال:

«كما تشاء».

ثمّ ابتعد عنّي... ناديتُه برجاءٍ:

«عمّاه...».

وحين نظر إليّ قلتُ:

«أرجوكَ... لا تتّخِذ منّي موقفاً بسبب هذا...».

العم ابتسم وقال:

«لا عليكَ يا بنيّ».

جملته طمأنتني فقلتُ:

«أسبابي قهريّة».
قال:
«عرفتُ ذلك. إنّكَ أنبل مِنْ أنْ تقتلَ شخصاً لأسبابٍ أصغر شأناً».
تنهّدتُ باطمئنانٍ وقلتُ:
«آه... أشكركَ يا عمّي... أرحتَني».
العمّ إلياس ابتسم وقال:
«الأهم أنْ نريح الفتاة التي تراقبك مِنَ النافذة خِلسةً!».
وعندما التفتُ إلى ناحية المنزل لمحتُ أروى تقفُ عند النافذة وتنظر إليّ...
فيما بعد ذهبنا أنا والعمّ لتأدية الصلاة وعندما عدنا كانتْ مائدة الطعام مُعدّة لي وللعمّ في غرفة الطعام، وللسيدات في المطبخ كما جرتْ العادة. أطللتُ على المطبخ برهةً وكما هو متوقّع لم أجد رغد. سألتُ عنها فأخبرتْني الخالة أنّها دعتْها للمائدة غير أنّها اعتذرتْ عن المشاركة.
أردتُ أنْ أتفقّد الصغيرة بنفسي... ولمْ أكن قد رأيتُها منذ البارحة... وأنا أعرف أنها منزعجةٌ مِنَ النزول في المزرعة...
طرقتُ باب غرفتها فأذنتْ لي بالدخول... سألتُها عنْ أحوالها فطمأنتْني إلى أنّها بخير... ولكنّني أنا وليد أعرف متى لا تكون صغيرتي بخير...!
«ما بكِ رغد؟».
سألتُها بقلقٍ فردّتْ مباشرة:
«لا شيء».
قلتُ تشككاً:
«متأكّدة؟».
«طبعا!».
نظرتُ إلى عينيها غير مقتنعٍ وقلتُ:
«لا تخفي عنّي شيئاً يا رغد».
وما كدتُ أنهي الجملة حتى فاضتْ دموعٌ حارّة كانتْ مختبئة في عينيها...
«رغد!».
بسرعة مسحتْ رغد دموعها وتظاهرتْ بالتماسك وادّعتْ:
«أنا بخير».
«وهذه الدموع؟».
قالتْ زاعمة:
«فقط... مشتاقة إلى خالتي».
لا يمكنكِ خداعي يا رغد... هناك ما تخفينه ولا ترغبين بالبوح به. اقتربتُ منها وقلتُ:

«تعرفين أنّني سآخذكِ إليها اليوم... فلماذا الدموع؟».
رغد غيّرتْ تعبيرات وجهها محاولةً إظهار المرح وابتسمتْ وقالتْ:
«متى نذهب؟».
أجبتُ مجارياً:
«الخامسة ننطلق بعون الله».
«بعون الله».
وأبعدتْ عينيها عنّي لئلاّ أقرأ المزيد... لمْ أشأ إزعاجها فتجاهلتُ دموعها وقلتُ:
«حسناً... سأطلب مِنَ الخالة جلب وجبتكِ».
وهممتُ بالانصراف غير أنّها قالتْ:
«كلاّ شكراً. لا أشعر بالجوع الآن».
«هل تناولتِ شيئاً في الصباح».
ولمْ تردْ. قلتُ مستاءً:
«لمْ تأكلي شيئاً مُذ غادرنا المنزل؟».
«بلى... عنقود العنب».
«كلا... رجاءً لا تتهاوني في هذا... أمْ أنّكِ لمْ تتّعظي مما حصل تلك الجمعة؟ لا يتحمّل جسمكِ النحيل الجوع».
فردّتْ رغد مبررة:
«لكني لا أحسُّ بالجوع الآن».
«حتّى وإنْ... لنْ أثق بإحساسكِ بعد الذي حصل. سأجلب غذاءكِ بنفسي».
«قلتُ لكَ لا أشتهي شيئاً وليد أرجوكَ! أنا لستُ طفلة».
أحقاً؟
أتظنين أنكِ لستِ طفلة؟؟
أو تعتقدين أنَّ الأعوام التسعة التي أُضيفتْ إلى عمر طفولتكِ التي فارقتكِ عليها... زادتكِ في نظري كبراً ونضوجاً؟؟
بل أنتِ طفلتي التي مهما دارتْ بها رحى السنين ستظلّ في عيني صغيرةً لا بد لي مِنَ العناية بها.
لمْ أشأ وقتها أنْ أضغط عليها أو أُحرجها... خصوصاً وأنا أشعر بأنَّ هناك ما يضايقها... فقلتُ:
«حسناً... لكن يجب أنْ تأكلي شيئاً قبل موعد المغادرة... اتفقنا؟».
فأجابتْ بملل:
«حاضر».
أخفضتُ صوتي وجعلتُه أقرب إلى الهمس العطوف وأضفتُ:

«وإذا كان هناك أي شيء يضايقكِ... وأحسستِ بالحاجة لإخباري... فلا تترددي...».

نظرتْ إليّ رغد نظرة مطوّلة ثمّ قالتْ:

«بالتأكيد».

وبالتأكيد هذه خرجتْ مِنْ صدرها متّشحةً بحزنٍ عميق ضاعف مخاوفي. استأذنتها بالانصراف... وحالما بلغتُ الباب سمعتها تقول:

«وليد... سامحني!».

أي تأثير تتوقعون أنّ جملتها هذه قد أوقعتْ على نفسي؟؟

ماذا جدّ عليكِ اليوم يا رغد؟؟

صحيح أنني اعتدتُ على تقلّباتها... وانفعالاتها المتفاوتة... كونها تغضب وترضى وتفرح وتحزن بسرعة... ولا يتوقّع المرء موقفها التالي، غير أنّ حالتها هذه الساعة جعلتْ قلبي ينقبض ويتوقع أزمةً مُقبلةً...

لطفكَ يا رب...!

- رغد -

كلُ الساعات الماضية وأنا أفكّر فيما قالتْه الشقراء... وأشعر بقلبي ينعصر. لا شكّ أنها محقّةٌ فيما قالتْ وأنّ وليد وبسبب وجودي في حياته وتولّيه مسؤوليتي العظمى... مع وجود الخلافات المستمرة بيني وبين الشقراء... لا شكّ أنه يضغط على نفسه كثيراً ويعاني...

طوال الوقت وأنا أتصرّف بأنانيةٍ ولمْ أفكّر به... بما يشعر وبما يُثقِل صدره ويُرهِق كاهله... جعلتُه يغيّر ظروف حياته لتناسبني أنا... وحمّلته الكثير... الكثير...

هذه الساعة أنا أشعر بالذنب وبالخجل مِنْ نفسي... والغضب عليها... آه يا وليد قلبي... هل ستسامحني؟؟

فكّرتُ في أنّني يجب أنْ أختفي مِنْ حياته وأُخلي طرفه مِنَ المسؤولية عليّ... حتّى يرتاح... ويهنأ بحياته... لكن الفكرة ما إنْ وُلِدَتْ في رأسي حتّى وأدَها قلبي بقسوة... وأرسل رفاتها إلى أعماق الجحيم...

أنا ابتعد عن وليد؟؟

مستحيل! مستحيل... لا أستطيع... إنّه الروح التي تحرّكني والأرض التي تحملني والدنيا التي تحويني... أحبّه وأريد أنْ أبقى ولو اسماً منقوشاً على جدارٍ يمرُّ به كل يوم...

أحبّه أكثر مِنْ أنْ أستطيع التخلّي عنه... أو تخيّل العيش بدونه...

عند الخامسة أتى وليد لحمل حقيبة سفري... وتبعتُه إلى الخارج. كان يسير وأسير على ظلّه الطويل... شاعرة برغبة مجنونة بأنْ أرتمي عليه...

وصلنا إلى السيارة وأدخل وليد الحقيبة فيها. وفتحتُ أنا الباب الخلفي لكي أجلس وأسلّمه العكّاز ليضعه مع الحقيبة.

وليد قال وهو يفتح باب المقعد الأمامي المجاور لمقعد السائق:

«اركبي هنا رغد».

نظرتُ إليه مستغربة... فقد اعتدتُ أنْ أجلس خلفه... وهذا الموضع صار مِنْ نصيب الشقراء الدخيلة... قال وليد معلِّلاً:

«فالمكان أوسع وأكثر إراحة لرجلك».

وكانتْ هذه السيارة التي أهداها سامر لوليد قبل أشهر والتي اصطدمنا فيها بعمود الإنارة في ذلك اليوم الممطر... وهي أصغر حجماً مِنْ سيارة وليد الجديدة التي يستخدمها في المدينة الساحلية.

أذعنتُ للأمر ولمّا جلستُ تناول هو عكّازي ووضعه على المقاعد الخلفية، ثمَّ أقبل وجلس خلف المقود وأدخل يده في جيبه وأخرج هاتفه ووضعه على المسند، وتفقّد جيبه الآخر ثمَّ التفتَ إليَّ وقال:

«انتظريني رغد... نسيتُ شيئاً... سأعود حالاً».

وغادر السيارة عائدا أدراجه إلى المنزل...

- وليد -

انتبهتُ إلى أنّني لمْ أحملْ محفظتي معي... وكنتُ قد تركتُها على المنضدة في غرفتي منذ البارحة... وقد حملتُ فيها مبلغاً مالياً لأعطيه لرغد لتنفق منه أثناء إقامتها في بيت خالتها. تركتُ رغد في السيارة وذهبتُ لإحضار المحفظة، وفيما أنا في الغرفة أتتْني أروى...

كانتْ تتحاشاني نهائياً منذُ قدومنا... عدا عنْ خصامها لي منذ أيّام... وكانتْ آخر مرّة تحدّثنا فيها ولو قليلاً هي ليلة حفلة عشاء رغد... والتي لمْ تدعْ لي المجال لأي حديث معها بعدها... وبدوري لمْ أتعمّد ملاحقتها أو الضغط عليها. أردتُ أنْ نأخذ هدنةً لبضعة أيّام... نتنفّس الصعداء ونسترخي في المزرعة... ثمَّ نعود لمناقشة أمورنا مِنْ جديد...

عندما رأيتُها وقفتُ برهةً ولمْ أتكلّم.

«إذن.. ذاهبان الآن؟».

بادرتْ هي بالسؤال فأجبتُ:

«نعم».

ظهر عليها التوتّر ثمَّ قالتْ:

«وهل ستمكث هناك؟».

«سأبقى لبعض الوقت، ثمَّ أذهب إلى شقيقي...».

«ومتى ستعود؟».

«غداً مساءً على الأرجح. أريد قضاء بعض الوقت مع شقيقي فنحن لمْ نلتقِ منذ فترة».

ظهر المزيد مِنَ التوتّر على وجه أروى. سألتُها:

«أهناك شيء؟».

سارتْ أروى نحوي حتّى صارتْ أمامي. قالتْ:

«وليد أنا... أنا...».

ولمْ تتم... إنها مترددة.

«ما الأمر؟».

تشجّعتْ وقالتْ:

«أنا... أعتقد أنّكَ لا يمكن أنْ تقتل شخصاً دون سببٍ قوي جداً...».

وصمتتْ...

أدهشني كلامها بادئ ذي بدء... فأنا لمْ أتوقّع أنْ يبدأ الحديث بيننا بهذا الموضوع بالذات بين كلّ المواضيع العالقة، والأكثر أهميّة... لكن الواضح أنّه أوّل ما يشغل تفكير أروى. تابعتْ:

«أخبرني خالي... بأنَّ أبي رحِمَهُ الله... كان يقول عن عمّار أنّه كان شخصاً سيّئاً... وأنَّ عمِّي عاطف رحِمَه الله قد أخفقَ في تربيته... وأنّه - أي أبي -... كان يشعر بالعار منه».

حبستُ نفسي لئلا أتفوّه بسيل منجرفٍ مِنَ الشتائم... سيئٌ فقط؟ أنتِ لا تعرفين مَنْ كان ابن عمّكِ الذي تتحرّقين شوقاً لمعرفةِ سبب قتلي إيّاه... وكأنّه ضحيّةٌ بريئة. تابعتْ:

«حسناً... أنا لنْ أسألكَ عن السبب ثانيةً... واخفِ عنّي ما تريد إخفاءَه بالنسبة لموضوع عمّار... لكننا يجب أنْ نتناقش جدياً بشأن موضوع رغد».

أثارني ذكر رغد... فقلتُ بلهفة:

«رغد؟».

أروى أكّدتْ:

«نعم رغد... الوقتُ غير مناسب الآن...».

أقلقتْني جملتها في وقتٍ كنتُ أنا فيه قلقٌ ما يكفي ويزيد... خصوصاً مع حالة رغد الجديدة اليوم... وخطر ببالي أنهما - أي رغد وأروى - ربّما تشاجرتا معاً اليوم... فعدتُ أسأل:

«ماذا عن رغد؟».

ألقتْ عليّ أروى نظرة قويّة التعبير ثمّ أجابتْ:

«الحديث يطول... وأنتَ على وشك المغادرة».

فنظرتُ إلى ساعة يدي ثمّ قلتُ مستسلماً:

«حسنا.. عندما أعود غداً... نتحدّث».

وفي رأسي فكرة تقليص فترة الهدنة، بما أنَّ أروى قد بادرتْ بالحديث معي. أروى أخذتْ تحرّك رأسها اعتراضاً ثمَّ إذا بها تقول:

«أرجوك أنْ... تبقى مع شقيقكَ بضعة أيام».

فوجِئتُ بطلبها... الذي جاء عكس استنتاجاتي... وحين رأتْ تعبيرات الدهشة على وجهي

قالتْ مبرّرة:

«أريد ألا نتقابل لبعض الوقت... لا تسئ فهمي... مِنَ الأفضل أنْ نرخي أعصابنا حتى نفكّر بهدوء...».

أصابني طلبها بجرح... ولكنني تظاهرتُ بعدم التأثّر وقلتُ:

«فهمتُ...».

وتذكّرتُ آنذاك أنّني كنتُ قد وعدتُ عمّي بمرافقته في مشوارٍ مهمٍ يوم الغد بشأن المزرعة. قلتُ:

«إذنْ سأعتذر لخالكِ عن العودة... وأحمل بعض الحاجيّات».

وذهبتُ للبحث عنه ووجدتُه في المطبخ يساعد الخالة ليندا في تنظيف السمك. أخبرتُه بأنني سأقضي بضعة أيام مع شقيقي واعتذرتُ عن مرافقته وودّعتُه هو والخالة بوجهٍ مبتسم.

عدتُ بعدها إلى غرفتي وحملتُ حقيبتي الصغيرة التي أتيتُ بها مِنَ الجنوب وفيها بعض ملابسي وحاجيّاتي... وأعدتُ الأشياء التي كنتُ قد استخرجتُها منها... وبينما أنا مشغولٌ بها سمعتُ صوت أروى تناديني...

«وليد».

عندما التفتُ إليها رأيتُها واقفةً عند الباب ووجهها يبدو حزيناً وممتقعاً... ولمحتُ دمعة تنساب من عينها...

سألتُ بقلق:

«ما بكِ الآن؟؟».

وكان جوابها بأنْ أقبلتْ نحوي... ووضعتْ رأسها في حضني وطوقتني بذراعيها بحرارة...

- رغد -

تأخّر وليد!

قال أنّه نسي شيئاً وسيعود في الحال... وتركني جالسةً في السيارة والتي لمْ يشغّل محرّكها ولا مكيّفها!

شعرتُ بالحر والاختناق ففتحتُ باب السيارة أتنفس الهواء الطلق... وبعد دقائق داهمني الشعور بالقلق.. لماذا تأخّر وليد؟؟

خرجتُ مِنَ السيارة واستخرجتُ عكّازي مِنْها وذهبتُ كي أتفقّده. ذهبتُ مباشرةً نحو غرفته ورأيتُ الباب مفتوحاً... ولمْ يكن عليَّ إلا أنْ أُلقي نظرةً عنْ بعدٍ عبر فتحته حتّى أرى حبيب قلبي يعانق أكثر فتاةٍ كرهتُها في حياتي... على الإطلاق...

الصورة أعشتْ عينيَّ... وخدّرتْ أعصابي... ومزقتْ بقيّة أربطة مفاصلي فتفككتْ وانفصمتْ مفصلاً مفصلاً..

انسحبتُ أجرّ أطرافي جراً وأتخبّط في سيري حتى بلغتُ الباب الرئيسي وخرجتُ إلى

الشمس دون أنْ أرى شيئاً...

شعرتُ بالعتمة تلوّن ما حولي... وبمفاصلي المنفصمة تخرّ هاويةً...

أمسكتُ بالباب أنشد دعمه لكنّه أرجحني معه... وحتّى عكازي... خانني في آخر لحظة وسلّمني أسيرة الوقوع أرضاً...

ربّما رقّ الحجر لحالي؟ لمْ أشعر بأي ألم... قد يكون البنج الذي سبّبتْه الصدمة لي قد أتلف أعصابي الحسية... فما عدتُ أشعر بأي شيء... أي شيء...

ثوانٍ وإذا بالباب يتحرّك ومِنْ خلفه يطل الرجل الطويل... العملاق الذي أحبّه...

والذي رغم كل السواد... والظلام والعتمة... استطعتُ رؤيته... والذي فور رؤيتي له... تدفّق النزيف مِنْ قلبي مجتاحاً كل المشاعر...

كان يتكلّم... لكنني لمْ أسمعه... ثمّ رأيتُه يجلس على العتبة قربي ويمدُّ يده إلى العكاز... ويقرّبه منّي...

ماذا يقول هذا الرجل؟؟ ماذا يطلب مني؟؟ هل يريد أنْ أقف؟ ألا يرى مفاصلي مفككة؟؟ ألا يرى عضلاتي مشلولة؟؟ ألا يرى الدماء تغرق جسدي؟؟ ألا ترى كل ذلك يا وليد؟؟ ألا ترى كل ذلك؟؟

أسندتُ رأسي إلى الجدار... وأغمضتُ عينيّ... وتمنيتُ ألا أفتحهما بعد الآن أبداً...

- وليد -

«رغد ماذا جرى لكِ؟».

قلتُ ذلك ومددتُ يدي تلقائياً إلى وجه رغد وضربته بخفّة... فقد كانتْ مغمضة العينين وكأنها ستفقد وعيها... ولي معها سابق مواقف...

فتحتْ رغد عينيها ونظرتْ إليّ مباشرة. قلتُ مفزوعاً:

«أأنتِ بخير؟؟ أتسمعينني؟؟».

نظرتْ رغد مِنْ حولها أوّلاً وكأنّها تستفيق مِنْ نوم أو إغماءة... بدا على وجهها التيه والضياع... ثمّ نظرتْ إليّ وكأنّها ليستْ واثقة ممّنْ أكون... ثمّ وضعتْ يدها على جبينها كأنّها تسترجع الذاكرة... وأخيراً قالتْ:

«تعثّرتُ بالعتبة».

قلتُ بلهفة:

«سلامتكِ... هل أُصبتِ؟».

فحرّكتْ رأسها نفياً. مددتُ يدي لأساعدها على النهوض:

«قومي بنا إلى السيارة».

لكن رغد لمْ تقم بل أسندتْ مرفقها إلى رجلها ورستْ برأسها على كفّها اليسرى وقالتْ:

«انتظر قليلاً...».

وظهر عليها الإعياء... ما فجّر سيول قلقي المتكدّسة منذ الظهيرة... قلتُ:

«رغد... يبدو عليكِ الإعياء... أخبريني بصدق هل تشعرين بدوار؟... هل أنتِ بخير؟؟».

أومأتْ رغد بنعم، لكنني لمْ أطمئن... قلتُ:

«لا تبدين كذلك... أراهن أنّكِ لمْ تسمعي كلامي ولمْ تأكلي شيئاً... أليس كذلك؟».

ولمْ تردْ. فتأكّدتُ مِنْ شكوكي وقلتُ بغضبٍ ممزوج بالقلق:

«متى تتوقفين عن هذا العناد...؟ هل يجب أنْ تكرّري ما حصل وتجفّفي دمائي مِنَ القلق عليكِ؟ جسمكِ أضعف مِنْ أنْ يتحمّل عنادكِ... رأفةً بنفسكِ وبي... لقد أهلكتِني».

ولمْ أنتبه لقسوة كلماتي إلا حين رأيتُ وجه رغد يلتفتُ إليَّ ويكفهرُّ ويصفرُّ... بعدها قلتُ بنبرة ألطف:

«سوف لن نغادر وأنتِ بهذه الحالة».

هنا اعترضتْ رغد وقالتْ:

«كلاّ أرجوك... أنا بخير الآن».

قلتُ مُناقضاً ادعاءها:

«لا لستِ بخير... أرى هذا بوضوح».

«أنا بخير... صدّقني... تعثّرتُ بهذه العتبة لا أكثر... دعنا نذهب الآن».

ثمّ أمسكتْ بالعكاز ونهضتْ واقفة لتثبِتْ لي أنّها على ما يرام... لكني أعرف أنّها ليستْ كذلك.. إنّها تلتهم أنفاسها التهاماً وتتحرّك ببطء... ويطغى الشحوب على وجهها...

قلتُ:

«دعينا ندخل إلى الداخل.. ستتناولين وجبةً كبيرة وتنالين قسطاً وافراً مِنَ الراحة قبل أنْ نغادر».

رغد استماتتْ معترضة:

«رجاءً وليد... دعنا ننصرف الآن».

لمْ أصدّقها وبقيتُ مصراً على موقفي، وهي مصرّة على عنادها...

«لن نتحرّك خطوةً واحدة وأنتِ بهذا الشكل... ماذا إنْ انهرتِ عليَّ في الطريق؟؟ واضحٌ مِنْ لونك أنّكِ مرهقة. ستدخلين الآن إلى المنزل وتأكلين بعض الطعام ماذا وإلا فإنني سأؤجل الرحلة إلى الغد».

وأمسكتُ بيدها المصابة بلطف أحثّها على السير نحو الداخل غير أنّها سحبتْها وقالتْ بعصبية:

«قلتُ لكَ لا أريد شيئاً مِنْ هذا المكان... ألا تفهم؟؟».

حينها أدركتُ موقفها... فقلتُ:

«في هذه الحالة... إذن... سنمرُّ بأحد المطاعم قبل المغادرة».

ولمْ تملك رغد إلا أنْ تنصاع للأمر. سرنا عائدين إلى السيارة ببطءٍ... هي بعكّازها... وأنا

بحقيبة سفري... جنباً إلى جنب... وخطوةً بخطوة... إلى أنْ ركبنا السيارة. كنتُ خاشٍ عليها أنْ يداهمها الدوار كما في المرّة السابقة، لا قدّر الله...

توقفتُ عند أحد المطاعم واشتريتُ لها وجبةً كبيرة أجبرتُها على تناولها عن آخرها... وأعترف بأنني كنتُ صارماً معها... فأعرف أنَّ جسدها النحيل لا يحتمل الجوع الطويل... وبعد تجربتي الأخيرة معها في منزلنا الكبير... لنْ أسمح لها بالتهاون بشأن الطعام.

طوال المشوار... رغد كانت صامتة صمتاً مُقلقاً محيّراً. أنا غير مرتاح مِنْ حالها اليوم ولكنّها لمْ تشأ إخباري بشيء... والله الأعلم... بم تفكِّر الآن...

أما أنا، فإلى جانب تفكيري بها كنتُ أفكّر بقلق في عائلة خالتها وما سيقولونه عن إصابتها... وسرعان ما ثبتَ لي أنَّ مخاوفي كانتْ في محلّها...

أم حسام، وبمجرّد أنْ رأتْ الصغيرة تدخل المنزل بالعكّاز... لطمتْ على وجهها وصرختْ:

«ابنتي... ويلاه...».

وأقبلتْ مسرعة مولولة... وضمّتْ الفتاة إلى حضنها وبدأتْ بالنواح، ورغد سرعان ما انفجرتْ بكاءً عميقاً على صدر خالتها ممّا زاد الأمر دراما واشتعالا...

أردتُ أنْ أتكلّم... أنْ أسلِّم... وأوضّح الأمر فقلتُ:

«خالتي...».

ولمْ أكد أتمّ الكلمة حتّى رأيتُ أم حسام ترفع رأسها وتنظر إليّ وقد توهّج وجهها احمراراً وفاضتْ الدموع مِنْ عينيها وتطاير الغضب مِنْ بؤبؤيها وإذا بها تصرخ:

«ماذا فعلتَ بالفتاة أيها المتوحِّش؟ لا باركَ الله فيكَ ولا في اللحظة التي تركتُ ابنتي فيها تحتَ رحمتكَ أيها المجرم القاتل».

ذهلتُ... صعقتْ... ووقف شعر رأسي مِن كلامها القوي الجنوني... أُلجِم لساني مِنَ الهول... حاولتُ النطق بأي شيء... فإذا بها تُمطرني بدعوات شرِّيرة مزلزلة...

«لا باركَ الله فيكَ... لا وفّقكَ الله في شيء... حطّم الله قلبكَ كما حطّمتَ قلبي على ابنة أختي».

صرختُ مستغيثاً:

«رغد».

قولي شيئاً! تظنُّ خالتكِ أنّني كسرتُ عظامكِ وعن عمد... قولي شيئاً يا رغد.. أوضحي لهم...

لكن رغد لمْ تتكلّم... حتى أنها لمْ تنظر إليّ...

التفتُ مِنْ حولي فرأيتُ أعين بقيّة أفراد العائلة تحملق بي والشرر يتطاير منها... ما هذا؟؟ أكلّكم تظنّون أنني كسرتُ عظامها؟؟ هل تعنون هذا؟؟

فجأة سمعتُ صوت حسام يقول بحدّة:

«ماذا فعلتَ بها؟».

أجابتْ أمُّ حسام منفعلة:

«ألا ترى؟ كسر عظامها كسر الله عظامه ودكَّها دكّاً».

أبو حسام تدخّل ها هنا وقال:

«رويدكِ يا أمّ حسام هداكِ الله... دعينا نسمع منه ما حصل».

والتفتَ إليّ وقال:

«هيا بنا إلى الداخل».

وقفتُ في مكاني مذهولاً مِنْ موقف أمّ حسام المهاجم بعنف دون استيضاح الأمور... ومِنْ موقف رغد الصامتة وكأنها تؤيِّد خالتها في هجومها اللاذع ضدّي...

نظرتُ إلى رغد شاعراً بالخذلان. كيف تدعيهم يظنُّون بي هكذا ثمَّ لا تدافعين عني ولا بكلمةٍ ولا إيماءةٍ واحدة؟؟

أم حسام سارتْ مسندةً لرغد التي خطتْ بعكازها مبتعدة عني... دون أنْ تلقي عليَّ نظرة. قال أبو حسام:

«تفضلوا».

بقيتُ واقفاً متسمّراً في مكاني يحول ذهولي مِنْ كلام أم حسام دون حراكي، فالتفتَ أبو حسام إليَّ ومدَّ يده نحوي وقال:

«تفضّل وليد».

وسرنا جميعا نحو المدخل... يسبقنا نواح أم حسام. الطريق بين بوابة السور الخارجي للمنزل والباب الداخلي له طويل لحدٍ ما... يتخلّل حديقة المنزل الأمامية. قطعنا المسافة صامتين إلا عن ولولة أم حسام التي أحدثتْ في قلبي صدعاً بالغاً.

عندما وصلنا إلى المدخل قلتُ قاصداً تنبيهها:

«انتبهوا... إنها لا تستطيع صعود الدرجات».

وتقدّمتُ بقصد مدِّ يد العون إلا أنَّ أمّ حسام زجرتْني بقسوة:

«دعْ الفتاة لي».

فابتعدتُ والعرق يتصبّب منّي حرجاً. واقتربتْ ابنة خالة رغد الكبرى ومع والدتها ساعدتْ رغد على الصعود.

قادني أبو حسام إلى غرفة الضيوف وأحسن ضيافتي، أمّا حسام فقد كنتُ أشعر بألسنة النار تندلع مِنْ عينيه وهو يراقبني بتربّص.

أخيراً شرحتُ لهما ما حصل وبيّنتُ أنّه كان حادثاً عرضياً... غير أنَّ ذلك لمْ يخفّف وطء المصيبة على حسام الذي قال معقّباً:

«ولماذا لمْ تبلغنا عنْ الحادث منذ البداية؟ إلاّ إذا كان هناك ما تريد إخفاءه أو تحريفه».

أبو حسام زجر ابنه، والأخير رمقني بنظرةٍ ملؤها الشكّ والنقمة. قلتُ:

«أحرّف ماذا؟؟».

ردّ وهو يهبُّ واقفاً:

«سأعرف هذا مِنْ رغد».

وغادر المكان.

- رغد -

الانهيار الذي ألمّ بي لدى رؤية خالتي لمْ يكن بسبب رجلي ويدي، بل بسبب الصورة الأخيرة التي لا تزال مبثوثة أمام عيني... للخطيبين المتعانقين بكل حمية وانسجام... والتي لمْ تفلح رؤية خالتي وعائلتها في محوها عن بصري ذلك اليوم...

أجرى معي أقاربي تحقيقاً مطوّلاً عن إصابتي وشرحتُ لهم تفاصيلها وأوضحتُ لهم أنّه لا علاقة لوليد بالحادث وأنّ اللوم كلّه يقع على الشقراء.

لمْ أكنْ أرى غيرها في عيني... وأردتُ أنْ أحرق صورتها بأي شكل... وبالغتُ في التعبير عن غضبي منها وممّا حلَّ بي بسببها.

أما خالتي فقد كانتْ تضع باللوم على نفسها لأنّها سمحتْ لي بالذهاب إلى المدينة الساحلية بعيداً عنْ عنايتها. وبعد أنْ استوعب أهلي الأمر وهدأتْ مشاعر غضبهم الأوليّة أخذتُ أسرد لهم بعض أخباري وأخبار الجامعة وحياتي اليومية في المنزل الكبير...

أخبرتُهم كيف كان وليد يعتني بي... ويعاملني بكل لطفٍ ومودّة... ويغدق عليَّ العطايا ويلبّي كل احتياجاتي... وكيف بقي مرابطاً إلى جانبي فترة مكوثي في المستشفى... وأشياء كثيرة كان وليد يقدّمها لي بكل سخاء... لمْ أشعر بافتقادها إلا الآن...

والحديث عن وليد لم يُعجب حسام الذي قال منفعلاً:

«أنتِ طيّبة يا رغد... ولنْ تحكمي على ذلك المتوحِّش إلا بالطيب!».

قلتُ مدافعةً:

«لماذا تنعته بالمتوحِّش يا حسام؟؟».

«هل نسيتِ كيف هاجمني ذلك اليوم؟ وكيف لطم شقيقه بقسوةٍ أمام عينيّ يوم كنّا في بيتكم يا رغد؟ وكيف جرّكِ مِنْ يدكِ رغماً عنكِ وأجبركِ على السفر معه إلى الجنوب؟ إنّه متوحِّش وهمجي كسائر المجرمين الـ...».

غضبتُ كثيراً وقلتُ مندفعةً مقاطِعةً:

«لا تنعته بهذا... لا أقبل مِنكَ... كيف تجرؤ؟؟».

ولستُ أدري متى وكيف علم بأنّ وليد كان مسجوناً. جملتي ضايقتْ حسام فانسحب مِنَ الغرفة التي كنّا نجلس فيها...

حلّ الصمتُ على الأجواء... ثمّ تكلّمتْ نهلة قائلةً:

«لا تكوني قاسيةً عليه يا رغد! إنه غاضبٌ لأجلكِ».

وأضافتْ سارة:

«يحبّكِ كثيراً».

التفتُ إلى هذه الأخيرة فرأيتُها تبتسم ابتسامة شديدة الغباء... كعادتها... تجاهلتُها وجملتها كما تجاهلتْها خالتي ونهلة. خالتي قالتْ بعد ذلك:

«على كلٍ يا رغد... ها قد عدتِ ولنْ أدعكِ تغادرين ثانيةً».

ألقيتُ على خالتي نظرةً متوجّسة فقابلتْني بنظرةٍ شديدة الإصرار وقالتْ:

«إلى هنا ويكفي... وسنحلُّ هذه المسألة جذرياً اليوم قبل الغد».

ورأيتُها تضبط حجابها وتتّجه نحو الباب فقلتُ بقلق:

«إلى أين خالتي؟».

قالتْ بحزم:

«سأذهب لأتحدّث مع وليد...».

وخرجتْ مباشرةً وتبعتْها سارة دون ترك فرصة لي لأيّ ردّة فعل. نظرتُ إلى نهلة في توتّر وقلتُ:

«ماذا ستفعل؟؟».

أجابتْ نهلة:

«لا أعرف! ربما ستتشاجر مع ابن عمّكِ!».

قلتُ مستهجنةً:

«لماذا كلّكم متحاملون على وليد؟ قلتُ لكم إنّه ليس مذنباً في شيء».

قالتْ نهلة:

«تدافعين عنه لأنكِ تحبينه يا رغد... لكنّه في الواقع رجلٌ متسلِّطٌ وقاسٍ ومكابر... إننا جميعاً في هذا المنزل لا نرتاح له...».

قلتُ بعصبيّة:

«إنكم جميعاً لا تعرفون شيئاً... تصدرون حكماً ظالماً على شخصٍ لمْ تعاشروه... أرجوكِ يا نهلة الحقي بخالتي واطلبي منها الحضور إلى هنا فوراً».

لمْ تتحرّك نهلة فقلتُ:

«هيّا.. يجب أنْ أعرف أولاً ما الذي تخطّط له».

ولمْ تتحرّك نهلة بالسرعة المطلوبة... غادرتْ الغرفة، وعادتْ بعد دقيقتين... وما إنْ رأيتُها حتى بادرتُ بالسؤال:

«هل لحقتِ بها؟».

قالتْ:

«نعم، وهي الآن في غرفة الضيوف».

صحتُ بعصبيّة:

«تباً! ولماذا لمْ توقفيها؟ لا بد أنّها الآن ستتشاجر مع وليد».

نظرتْ إليّ نهلة نظرة استنكار ثمّ قالتْ:

«لا تخافي على مشاعر ابن عمّكِ!... إنه ليس هنا».

«ليس هنا؟؟».

«غادر منذ زمن... يبدو أنّه قد رحل فور إنهاء فنجان قهوته!».

- وليد -

إنني تجرّعتُه جرعةً كدتُ أغصّ بها... بسبب النظرات التي تقدح شرراً مِنْ حولي... مصوّبا نحوي. صحيح أنّ أبا حسام قدّم الاعتذار عمّا قالتْه زوجته لي، لكن ذلك لمْ يخفّف عنّي شيئاً. وبحياتي لمْ أقف أمام شخصٍ يدعو عليّ علناً وبهذا الشكل... وأكثر ما خيّبني هو موقف رغد البارد.

نعم كنتُ أتوقّع أنْ يثور أقاربها عليّ ولكن ليس بهذا الشكل... سامحهم الله...

وصلتُ إلى شقّة شقيقي سامر أخيراً... ولمْ أكنْ قد اتّصلتُ به... وأردتُ أنْ أفاجئه بحضوري. قرعتُ الجرس وغطّيتُ بإصبعي عدسة الباب لئلا يراني...

قرعتُ ثانيةً وثالثةً وما مِنْ مجيب! لكنني كنتُ قد رأيتُ سيارته في المواقف... ولا شكّ أنّه في الشقة...

أخيراً سمعتُ صوتاً منخفضاً يسأل:

«مَنْ هناك؟».

لم أتبين ماهيّة الصوت... فطرقتُ الباب لعلّه يعاود الحديث... فكرّر الصوت بنبرة حذِرة:

«مَنْ الطارق؟».

نعم إنه صوت شقيقي. قلتُ:

«شخصٌ يريد معانقتك فوراً... افتح الباب!».

وبدا وكأنّ أخي لمْ يميّز صوتي... ثمّ رأيتُ الباب ينفتح بحذر... ورأيتُ رأس أخي يطلُّ منه أخيراً...

اندهشتْ ملامحه كثيراً وانفغر فوهه... لكن دهشتي أنا كانتْ أكبر!

«وليد!!».

قال والعجب يعلوه... قلتُ:

«بشحمه ولحمه!».

لمْ يفتح سامر الباب وظلّ محملقاً بي لثوان... قلتُ:

«هل أبدو شبحاً؟».

هنا بدأ سامر يبتسم وفتح الباب ومدّ ذراعيه لمعانقتي...

«إنني لا أكاد أصدّق عيني! فاجأتني يا أخي».
ابتسمتُ وقلتُ:
«بل أنا المندهش يا أخي...».
وأشرتُ بإصبعي إلى عينه اليمنى وقلتُ:
«اختفتْ الندبة تماماً! تبدو وسيماً للغاية».
سامر ضحك وهو يمسِك بيدي ويقودني إلى الداخل.
تذكرون أنّ جفنَي عين سامر اليمنى قد أصيبا بحرقٍ بالجمر عندما كان طفلاً صغيراً... وأنَّ عينه تشوّهتْ وأصبحتْ نصف مغلقة وقبيحة المنظر... وكان أبي رحمه الله يودُّ إخضاعه لجراحة تجميلية غير أنَّ أوضاعنا الماديّة في تلك الفترة لمْ تكن مناسبة.
في لقائنا الأخير كان سامر قد بدأ علاج الندبة والآن عالج حركة الجفن وما لمْ يدقّق الناظر إليها جيّداً فإنّه لنْ يكتشف وجود أي أثر أو فرق بين عينيه. الحمد لله...
في داخل الشقّة وجدتُ ضيوفاً لأخي... عرّفنا سامر إلى بعضنا البعض، وبعد حديثٍ قصيرٍ استأذن الضيوف وغادروا...
قلتُ:
«أرجو ألا تكون زيارتي قد أتتْ في وقتٍ غير ملائم».
قال سامر:
«ماذا تقول يا أخي! إنهم رفقائي في العمل... نلتقي في كل وقتٍ... لا تأبه لهم».
ابتسمتُ فقال سامر:
«لكنكَ فاجأتني! ما سرُّ هذه الزيارة غير المتوقعة؟».
قلتُ مداعباً:
«اشتقتُ لعينكِ اليمنى فجئتُ أتفقّدها».
ضحك سامر ثمَّ قال:
«بجد وليد.؟. لِمَ لَمْ تُبلغني لأستقبلكَ في المطار؟».
«أردتُ أنْ أقتحم عليكَ الشقة!».
وضحكتُ ثمَّ أضفتُ:
«في الحقيقة كنّا قادمين إلى المزرعة... فأتيتُ لأزوركَ».
سامر ابتسم ابتسامة خفيفة ثمَّ سأل:
«و... ورغد؟».
قلتُ بعفويّة:
«تركتُها في بيتِ خالتها».
شيءٌ مِنَ التردد ظهر عليه ثمَّ قال:
«لِمَ لمْ تحضرها معكَ؟ أعني أننا لمْ نسمع مِنْ بعضنا منذ شهور».

آه يا سامر... أتريد القول أنكَ اشتقتَ إليها؟؟ إنني أسوأ شخصٍ لتبدي لهفتكَ عليها أمامه!
وربّما أحسَّ سامر ببعض الأفكار تدور في رأسي فقال مغيِّراً الدفّة:
«كيف سارتْ أموركم في المدينة الساحلية؟ وما أخبار نسبائكَ؟».
«الحمد لله... وهم يبلّغونك السلام».
«سلّمهم الله. ماذا عنْ أقارب رغد؟».
«أتيتُ مِنْ منزلهم... الجميع بخير».
«لمْ أتّصل بهم منذ فترة! ما أخبار حسام؟ هل التحق بالمعهد كما كان يخطّط؟».
«لا أعرف فأنا لمْ أطلْ البقاء لديهم ولمْ أسمع آخر أخبارهم».
ثمَّ أضفتُ:
«مررتُ لدقائق مصطحباً رغد».
عاد ذاك التوتُّر الخفي إلى وجه أخي وتجرّأ وسأل:
«وكيف هي؟ وكيف تعايشتْ مع خطيبتكَ في المنزل؟؟».
استغربتُ السؤال كثيراً!... ولماذا تسأل عنْ تعايشها مع خطيبتي؟؟ وهل تعلم بأنَّ بينهما شيئاً؟؟
قلتُ:
«مع خطيبتي؟».
رفع سامر كتفيه وحاجبيه وقال:
«آه نعم... فهي كانتْ... أعني أنّها لمْ تكن... منسجمةً معها في السابق... آمل أنْ يكون الوضع قد تغيّر!!».
ربّـاه!
هل تعرف أنتَ يا سامر عن توتّر العلاقة بين الفتاتين؟ لا بدّ أنَّ رغد كانتْ توافيكَ بالأخبار..! قلتُ راغباً في التأكّد:
«هل... تتّصل بكَ رغد؟؟».
بُهِتَ سامر واندهش مِنْ سؤال وردّ مباشرة:
«لا لا!... لمْ أتحدَّث معها منذ كنتما مُعي في الشقة».
كان ذلك قبل شهور... عندما مرضْتُ ولازمْتُ فراشَ شقيقي ليومٍ وليلة... هنا في الشقّة... بعد حادث السيارة... ولكنني لمْ أعرف أنَّ رغد كانتْ قد أبلغتْه آنذاكَ عن علاقتها المتوتّرة مع أروى... حتّى أنّني لمْ أكن أُعير ذلك التوتّر اهتماماً حقيقياً آنذاك...
قلتُ:
«حسناً... يبدو أنّكَ تعرف أنَّ الأمور بينهما مضطربة».
ظهر الاهتمام على وجه أخي... وتابعتُ أنا:
«لا تزال كذلك».

سأل أخي بقلق:
«إذن كيف كانتا تتعاملان معاً هناك؟».
قلتُ:
«بتنافرٍ مُتبادل... خصوصاً في الآونة الأخيرة».
ثمَّ أضفتُ:
«والآن... هما متخاصمتان تماماً».
قال سامر:
«توقّعتُ هذا».
أثار حيرتي وفضولي، فسألتُ:
«عفواً؟؟».
ارتبكَ سامر ثمَّ أوضحَ:
«أعني... أنَّ رغد لا تتكيّف بسهولة مع أحد... مِنَ الصعب جداً أنْ تكسِب صداقتها...».
لمْ أعلّق، فتابع سامر:
«إنها حذرةٌ جداً في اختيار مَنْ ترغب في منحهم صداقتها... ولا تتأقلم مع مَنْ هُم خارج إطار سنّها أو اهتماماتها أو مجالها الفكري...».
سامر!
هل تريد أنْ تُفهِمني أنَّكَ تعرف رغد خير منّي؟؟
بالطبع تعرف... فأنتَ بقيتَ قريباً منها طوال السنين التي حُرمتُ أنا فيها منها... وكبرتْ وتطوّرتْ شخصيتها أمام عينيك... وأصبحتْ أقرب الناس إليكَ وألصقهم بكَ..! أما أنا فلمْ أصل للدائرة التي بارتباطكَ الشرعي أنتَ بها... أمكنكَ تخطّيها...
تأمّلتُ شقيقي... في أعماق عينيه كانتْ المرارة تتكلّم... إنّه يتحدّث عن الفتاة التي كانتْ خطيبته لما يقرب مِنْ أربع سنين... والتي كانتْ قاب قوسين أو أدنى مِنَ الزواج به. تألّمتُ لأجله... لكن...
يا سامر... ألمْ تجد في هذه الدنيا غير حبيبتي أنا... كي تعلّق قلبكَ بها؟؟
إنَّ رغد.. منذ أنْ حلّتْ بعائلتنا قبل ستة عشر عاماً وأكثر... أصبحتْ لي...
قلتُ:
«على كلٍ... ستظلُّ في بيت خالتها لعدّة أيام... يمكنكَ زيارتهم وتفقّد أحوالها وقتَ تشاء».
استغرب سامر وقال:
«عدّة أيام؟؟ غريب! ماذا عنْ الجامعة؟ ليس موسم إجازات حسب علمي؟؟».
صمتُ قليلاً ثمَّ قلتُ:
«إنها... في إجازة مَرَضِيّة طويلة... فهي... مُصابة بكسورٍ في قدمها ويدها».

- رغد -

مرّ يومٌ وأنا أقيم باسترخاءٍ في بيت خالتي...

وفّر لي أفراد العائلة سبل الراحة وتفانوا في رعايتي والاهتمام بي، غير أنَّ ذلك لمْ يخلِّصني مِنَ التفكير المستمرِّ في وليد... خصوصاً وأنّه لمْ يتَّصل للسؤال عنِّي حتى الآن...

تراقبني نهلة وأنا ممسكةٌ بهاتفي المحمول في تردّد... أأتّصل أمْ لا؟

«هل يصعب عليكِ الاتّصال بيدكِ اليسرى؟ دعيني أساعدكِ».

قالتْ نهلة ذلك بخبث... فهي تدرك ما الذي يدور برأسي... قلتُ مستسلمةً:

«الغريب أنّه لمْ يخبرني قبل مغادرته ولمْ يتّصل ليتفقّد أمري... في المنزل كان يتفقّدني ألف مرّة في اليوم والآن نسيني!؟ لا سلام ولا كلام ولا خبر... لا أعرف إنْ كان قد ذهب إلى سامر أم عاد إلى الشقراء».

وتذكَّرتُ صورتها الأخيرة فامتقع وجهي... ثمَّ تذكَّرتُ حديثها الأخير معي صباح الأمس... فأبعدتُ الهاتف عنّي...

لاحظتْ نهلة حركتي الأخيرة فقالتْ:

«جيّد! لا تتّصلي... واختبري مدى قدرتكِ على تحمُّل بعده».

قلتُ:

«لا أتحمَّل... لا يمكنني تخيّل حياتي بدونه! سأموتُ إذا ابتعد عنِّي».

رفعتْ نهلة حاجبيها ونظرتْ إلى السقف استنكاراً. قلتُ بلهفة:

«أنا أعني ما أقول يا نهلة لا تسخري منِّي».

فأخذتْ تفرك شعرها بأطراف أصابع يدها وعيناها معلّقتان على السقف. قلتُ مدافعةً عن كلامي ومؤكِّدةً له:

«إذا تخلَّى عنّي فسوف أموتُ فوراً... صدّقيني... لا استغني عنه يوماً ولا ساعة... والدخيلة البغيضة... اللصّة... تطلب منِّي الخروج مِنْ حياته... تريد الاستحواذ عليهِ لوحدها... تظنّ أنّها أقرب إليه وأحقّ به منّي».

هبطتْ نهلة ببصرها مِن السقف عليّ وعلّقتْ:

«وهي على صواب يا رغد!».

توتَّرتُ وكدتُ أصرخ... حتَّى أنتِ يا نهلة؟؟ حتى أنتِ؟؟. قلتُ بعصبية:

«كلا...».

ردّتْ نهلة مباشرةً وبشيء مِنَ القسوة:

«يا رغد... متى تستفيقين مِنْ أحلامك الخرافية؟؟ ما الجدوى مِنْ حبِّ رجلٍ متزوِّج؟ إنكِ تهذرين عواطفكِ سدى».

أحسَّتْ نهلة بأنها قستْ عليَّ... فأقبلتْ نحوي وأمسكتْ بيدي اليسرى وقالتْ مواسيةً:

«أنا قلقةٌ عليكِ... وأفكِّر بعقلانية... لقد مضتْ فترةٌ طويلة... وأنتِ لا تزالين تحلمين بالمستحيل... تعذِّبين نفسكِ.. أنظري إلى أين وصلتِ؟».

وهي تشير إلى عكازي... ثمَّ تابعتْ:

«آن الأوان لتستفيقي... اتركي الرجل وخطيبته يواصلان مشوارهما... بسلام... وانتبهي أنتِ لنفسكِ.. والتفتي للشخص الذي ينتظر منكِ الإشارة ليغمركِ بكل الحبِّ والحنان اللذين تحتاجينهما».

نظرنا أنا ونهلة لبعضنا نظرةً طويلةً... عميقةً... وأنا أشعر بأنَّ الدنيا كلها تتخلَّى عنِّي وتقف في صفِّ أروى. فجأة رنَّ هاتفي المحمول فسحبتُ يدي بسرعة مِنْ بين يديها وأخذتُ الهاتف وأجبتُ حتى قبل أنْ ألقي نظرة على اسم المتصل...

سمعتُ نهلة تقول باستنكار:

«أنتِ حالةٌ ميئوسٌ منها!».

لمْ أعِرها اهتماماً وتحدَّثتُ عبر الهاتف بلهفة:

«نعم مرحباً».

متوقِّعةً أنْ يكون المتَّصل وليد... لكنه لمْ يكن وليد!

لقد كان... سامر!

سألني عنْ أحوالي... وعن إصابتي وحمد الله على سلامتي... ودار بيننا حديثٌ قصيرٌ علِمْتُ مِنْ خلاله أنَّ وليد سيظلُّ معه بضعة أيَّام...

ثمَّ قال فجأةً:

«هل يمكنني أنْ أزوركم الليلة؟».

اشتعل وجهي احمراراً مِنَ الحرج... تعثَّرتُ في كلامي ولكنني أوصلتُ إليه:

«بالطبع... أهلاً بكَ... سأخبر خالتي بهذا».

وبعد أنْ أنهينا المكالمة نظرتُ إلى نهلة فرأيتها تحملق بي بخبث!. قلتُ:

«إنه ليس وليد بل سامر».

عادتْ تنظر إلى السقف... قلتُ:

«ويريد أنْ يحضر لزيارتنا الليلة».

نظرتْ إليَّ بخبثٍ وقالتْ:

«تعنين لزيارتكِ».

تنهّدتُ وقلتُ وبريق الأمل يشعُّ في عيني:

«وبالطبع سيأتي وليد معه... سأطلب مِنْ خالتي أنْ تعتذر إليه».

وفيما بعد تحدّثتُ مع خالتي ووعدتني بأنْ تتحدَّث مع وليد بهدوء وتعتذر عما قالتْه يوم أمس. وعندما حلَّ المساء... وعند الثامنة والنصف قُرِع جرس المنزل...

انتظرتُ إلى أنْ جاء حسام ليخبرني:

«يرغب ابن عمّكِ في إلقاء التحية عليكِ».

قلتُ بشوق يكاد يفضحني:

«هل حَضَر وليد؟».

نظر حسام إلى نهلة الجالسة بقربي... ثمَّ إليّ وقال:

«لمْ أعنِ هذا الـ...».

وانتبهَ لنفسه ولمْ يتم... ثمَّ قال:

«أعني سامر».

قلتُ بخيبة أمل:

«وحده؟».

أجاب:

«والداي معه الآن... تعالي لتحييه».

نظرتُ إلى نهلة... ففهمتْني...

قمتُ ورافقتُ حسام إلى غرفة الضيوف... حيث كان سامر يجالس خالتي وزوجها. ما إنْ رآني حتى وقف ونظر إلى العكّاز وعلتْ تعبيرات وجهه علامات المفاجأة والألم. أمّا أنا فقد دُهِشتُ للتغير الجديد في مظهر عينه...

«مرحباً سامر... كيف حالكَ؟».

بادرتُ بتحيّته فردّ والقلق يغلّف نظراته وصوته:

«مرحباً يا رغد... كيف حالكِ أنتِ؟ سلامتكِ ألف سلامة».

«سلّمكَ الله. الحمد لله إصابتي في تحسُّن.. تفضَّل بالجلوس».

وجلسنا نتجاذب أطراف الحديث نحن الخمسة ساعة مِنَ الزمن ثمَّ استأذن سامر للمغادرة. قبل انصرافه أعطاني ظرفاً قال لي أنّه مِنْ وليد... وسألني عمّا إذا كنتُ بحاجة لشيء فشكرتُه وودَّعتُه على أنْ نبقى على اتصال.

أما الظرف فقد كان كما توقعتُ يحوي مبلغاً مِنَ النقود...

- وليد -

إنها النقود التي كانتْ في محفظتي ونسيتُ تسليمها لرغد بعد أنْ أصابني الإرباك وأنا أراها جالسةً على عتبة المنزل في المزرعة.

لمْ أرغب في الذهاب... لذا تركتُ شقيقي يخرج لزيارتها وتسليمها النقود بنفسه... وبقيتُ وحيداً في شقته...

كما أنّني أيضاً لمْ أرغب في الاتصال لا بها ولا بأروى... وآثرتُ البقاء بعيداً عن كليهما لبعض الوقت. باشرتُ بتنظيم الحاجيات القليلة التي حملتُها معي... وعندما فتحتُ خزانة الملابس الخاصة بشقيقي فوجئتُ برؤية فساتين نسائية معلَّقة آخر الصف...!!

أصابتني الدهشة والحيرة... وتملّكني الفضول لإلقاء نظرةٍ على بقية الخزانة والأدراج. لنْ تصدّقوا أنني وجدتُ خاتم خطوبة سامر الفضّي موضوعاً في أحد الأدراج مع مجموعة مِنْ عُلب الهدايا والمجوهرات... وكان أحد الأدراج مُقفلاً والله الأعلم... ما الذي يخبئه شقيقي فيه...

أخذتُ أعبث بالخاتم في يدي وأنا شارد التفكير... وشاعر بقلقٍ شديد على سامر... وفكرّتُ في الألم الذي يعانيه وفي الصدمة التي ستصيبه إنْ أنا تزوّجتُ رغد مستقبلاً...

إنها نفس المشاعر التي عانيتُ مرارتها حين اكتشفتُ ارتباطه هو بها... تجربة قاسية جداً لا أريد لشقيقي الوحيد أنْ يخوضها...

وإضافةً إلى عشرات المشاغل والهموم التي تثقِل صدري وتزدحِم في رأسي، أضفتُ اليوم هماً جديداً... اسمه سامر...

ولمْ أدرِ يومها... أنه الهمّ الذي سيحتل المركز الأول في قائمة المصاعب التي لا يزال القدر يخبّئها لي في المستقبل القريب...

- رغد -

مرّتْ أيامٌ وأنا في بيت خالتي لا همَّ لي سوى التفكير الملي بما قالتْه الشقراء لي آخر مرّة... حالتي النفسية لمْ تكنْ جيّدة وقد لاحظ ذلك أفراد العائلة.

«والآن يا رغد... ما الذي يشغل بالكِ لهذا الحد؟ إننا جميعا قلقون عليكِ».

كان هذا سؤال خالتي والتي كانتْ تلحظ شرودي... أجبتُ:

«لا شيء خالتي...».

قالتْ غير مصدِّقة:

«لا شيء؟».

أجبتُ مدّعيةً:

«إنني... قلقةٌ بشأن... أعني بشأن الجامعة وغيابي عنها».

ولا أدري إنْ بدا كلامي مُقنِعاً لها أمْ لا، غير أنّه لمْ يقنع نهلة الجالسة معنا... بطبيعة الحال. قالتْ خالتي:

«الجامعة والجامعة! دعكِ منها يا رغد... وانسي أمرها».

حدّقتُ في خالتي بتعجّب! فقالتْ:

«لستِ بحاجة إليها ولا أرى داعٍ لها أصلاً».

قلتُ مندهشةً:

«خالتي! كيف تقولين هذا؟».

«لولا إلحاحكِ ما كنتُ وافقتُ على الذهاب مع ابن عمّكِ للجنوب مِنْ أجل الدراسة... اصرفي نظراً عنها أو التحقي بالمعهد مثل حسام».

قلتُ محتجَّةً:

«ولماذا أفعل ذلك؟ أنا مسرورة بدراستي وناجحة بل ومتفوقة فيها».

وأضفتُ:

«ثمّ أنَّ وليد قد دفع تكاليف الدراسة لهذا العام كاملة... وهو مبلغٌ طائل لنْ نضيِّعه هباءً».

قالتْ:

«وماذا عن السنوات التالية؟».

«سيدفعها أيضا».

قالتْ معترضة:

«ولماذا يكبّل نفسه كل هذا العناء؟ الجامعات الأهلية مكلفةٌ جداً».

«لكن وليد الآن ثريٌ جداً. يدير أكبر مصنع في الجنوب. ومصاريف دراستي لا تساوي شيئاً أمام ما يجنيه عليه».

قالتْ خالتي:

«لا نريد أنْ نكلّف الرجل فوق هذا...».

قلتُ متعجِّبة:

«ماذا تعنين؟ إنه الوصي عليَّ!».

قالتْ خالتي:

«هنا مربط الفرس...».

ولمْ أفهم ما تعنيه... ثمَّ قالتْ:

«على كلٍ نحن ننتظر حضوره حتى نضع النقاط على الحروف».

وحالما انصرفتْ سألتُ نهلة:

«ما الذي تعنيه خالتي وماذا تقصد؟؟».

نهلة ردّتْ:

«هذه المرّة... أمّي جادّة جداً بشأن إقامتكِ معنا بشكلٍ دائمٍ يا رغد!».

قلتُ مندهشة:

«والجامعة؟؟ ووليد؟؟».

قالتْ:

«آن الأوان... للتحرُّر منهما!».

في ذلك اليوم لمْ أطِقْ صبراً... واتّصلتُ بوليد... أخيراً...

وكأنني أكلِّمه للمرَّة الأولى في حياتي... لا أعرف لماذا ارتبكتُ وتسارعتْ نبضات قلبي... وفور سماعي لصوته... انصهرتُ كما تنصهر الشمعة... دمعةً دمعة!

«كيف أنتَ؟ ولماذا لا تتّصل بي؟».

تجرّأتُ وسألته بعتاب... إذْ أنّه لمْ يهاتفني ولا مرّة مذ أحضرني إلى هنا... وكأنني عبءٌ ما كاد يصدّق أنّه تخلّص منه!

وليد قال:

«لمْ أشأ إزعاجكِ... وأعلم أنَّ أقاربكِ يعتنون بكِ جيداً».

حتّى وإنْ! أنتَ أبي بالوصاية... أليس مِنْ واجبك السؤال عني كلَّ يوم؟

قلتُ:

«ومتى ستحضر؟».

«هل هناك شيء؟؟».

«لا لا... لا تقلق... إنما قصدتُ... متى سيتعيَّن علينا العودة؟».

لمْ يُجبني مباشرة ثمَّ قال:

«لا يزال أمامنا بعض الوقت... موعدكِ في المستشفى لمْ يحن».

هكذا إذن! لنْ تأتي لرؤيتي إلا يوم السفر أم ماذا؟؟

قلتُ:

«إنَّ خالتي ترغب في الحديث معكَ».

«حسناً...».

«لا أعني على الهاتف... تودُّ أنْ تأتيَ للعشاءِ عندنا... والتحدُّث».

«لا بأس... لنقل بعد يومين؟ فأنا في الطريق إلى المزرعة الآن».

فوجئتُ... وخذلتْني جملته الأخيرة... ذاهبٌ إلى المزرعة ولمْ تفكّر بالمرور بي؟؟

قلتُ:

«هكذا إذنْ؟ حسناً لنْ أشغلكَ وأنتَ تقود السيارة... رافقتكَ السلامة».

- وليد -

كنتُ أنتظر إشارةً مِنْ أروى لأعود للمزرعة ونعود لمناقشة الخلافات الأخيرة الحاصلة بيننا.

والأيام التي قضيتها مع شقيقي بعيداً عن أي مشاكل كانتْ كافيةً لإرخاء الشدِّ الحاصل في أعصابي. فكرتكِ كانتْ نافعةً يا أروى... اعترف بهذا.

اتصلتْ بي البارحة وأخبرتني أنها ترغب في مقابلتي...

منذ ارتباطنا وأروى أمامي يومياً لمْ يفصلها عني غير الشهر الأسود الذي تلا مقتل والديَّ رحمهما الله والذي قضيتُه مع سامر ورغد بعيداً عنها...

أما رغد فمنذ أنْ التحقتْ برعايتي لمْ افترق عنها غير الأيام التي سبقتْ رحيلنا الأخير إلى الجنوب.

والحديث القصير معها عبر الهاتف جعلني أشتعل شوقاً لرؤيتها والاطمئنان على وضعها

وصحتها... ولو لمْ أكنْ قد ابتعدتُ كثيراً... لربّما سلك بي شوقي الطريق إليها...

الاستقبال الذي استقبلتْني به أروى كان بارداً... على عكس الطريقة التي ودّعتْني بها... واخترنا الغرفة الخارجية الملاصقة للمنزل، والتي كنتُ أقيم فيها فيما مضى... مكاناً لحديثنا المطوّل.

أروى ظهرتْ أكثر هدوءاً وتماسكاً ممّا كانتْ عليه خلال الآونة الأخيرة... ولمْ تتعمّد الإطالة في المقدمات بل قالتْ مباشرة:

«كما قلنا... يجب أنْ نضع نهاية لكلِّ المشاكل والخلافات الحاصلة بيننا نحن الثلاثة».

تعنيني أنا وهي ورغد. قلتُ:

«هل وجدتِ حلاً مناسباً؟».

بدا الجدُّ يعلو قسمات وجهها وأخذتْ نفساً عميقاً ثمّ قالتْ:

«نعم... وهو... بيدكَ أنتَ يا وليد».

تملكني الفضول والحيرة... لمْ أفهم ما الذي عنتْه فسألتُها:

«بيدي أنا؟ ما هو؟».

«يجب أنْ تكون مستعداً له».

ازدادتْ حيرتي وقلتُ:

«بالطبع فأنا أريد بالفعل أنْ نتجنّب التصادم مستقبلاً وإلى الأبد... إذا كان الحل بيدي فأنا لنْ أتردّد... لكن ماذا تقصدين؟».

هنا توقّفتْ أروى عن الكلام وكأنها تستجمع قواها لتنطق بالجملة التالية... تلك الجملة التي مِنْ قوّتها... كاد سقف الغرفة أنْ ينهار على رأسي...

«وليد... عليكَ أنْ تختار... مع أيّنا تريد العيش... إما أنا... أو رغد...».

وقوع سقف بهذا الحجم على رأس موقوتٍ مسبقاً... لا يسبّب التكسّر والتهشّم فقط... بل ويفجّره إلى شظايا تنطلق مخترقة الفضاء إلى مالا نهاية...

تسمّرتُ على وضعي مذهولاً... أشدّ ذهولاً مِنَ الذهول ذاته... أحاول أنْ أترجم اللغة العجيبة التي التقطتها أذناي منطلقة مِنْ لسان أروى...

لم أتفوّه بشيء فأنا لمْ أعدْ أملك رأساً يدير حركة لساني... أروى بعد الجمود الذي رأتْه عليَّ قالتْ:

«وليد... صدّقني... الحياة بوجودنا معاً نحن الثلاثة مستحيلة... لقد فكّرتُ ملياً طوال الأيام الماضية... مراراً وتكراراً... ولمْ أجد لمشكلتنا مخرجاً غير هذا... لنْ نستمر واقفين على فوّهة البركان... أنا ورغد لا يمكن أنْ نجتمع تحت سقفٍ واحدٍ بعد الآن... أبداً يا وليد».

أيّ سقف؟ وهل أبقيتِ في المنزل أيّة أسقف؟ لقد أوقعتِها كلّها على رأسي يا أروى.. فعنْ أيّ سقفٍ تتحدثين؟؟

أخيراً استطعتُ النطق:

«ما الذي تهذين به؟».

توتّرتْ أروى... وقالتْ:

«هذا هو الواقع... يستحيل عيشنا سويّةً في سلام... لا تتحمّل إحدانا وجود الثانية أبداً... إمّا أنْ تعيش معي... أو تعيش معها... يجب أنْ تختار».

صرختُ:

«أروى... هل جننتِ؟».

صاحتْ أروى:

«بل هذا هو عين الصواب... إنني سأجنُّ فعلاً إنْ بقيتُ مع ابنة عمِّكِ في بيتٍ واحدٍ».

انفعلتُ وثرتُ فجأة... وهببتُ واقفاً أضرب كفي الأيسر بقبضتي اليمنى... وقفتْ أروى وقالتْ:

«أرجوكَ أنْ تحافظ على هدوئكَ لنتابع النقاش».

صرختُ بعصبية:

«أحافظ على هدوئي؟ كيف تريدين منِّي البقاء هادئاً بعد هذا الجنون الذي تفوّهتِ به؟ إنني لمْ أتوقّع أنْ تكوني أنتِ كارهةً لرغد لهذا الحد أبداً».

قالتْ منفعلة:

«وأنا لمْ أقل أنني أكرهها».

قاطعتها:

«وبِمَ تترجمين موقفكِ هذا؟».

أجابتْ:

«إنه حلٌّ وليس موقف... واحدة منا فقط تعود وتبقى معك... وعلى الأخرى أنْ تظلَّ هنا... هذا مِنْ أجل راحتنا جميعا».

قلتُ غاضباً:

«مِنْ أجل راحة مَنْ؟؟ تريدين منِّي أنْ أتخلّى عن رعاية ابنة عمِّي مكفولتي وتقولين راحتنا جميعاً؟؟».

هتفتْ أروى:

«أنا لمْ أقلْ تخلَّ عنها».

«وما هو تفسيركِ إذن لتركي لها هنا؟».

«ولم أقلْ اتركها هي... قلتُ أنّكَ مَنْ يجب أنْ يختار.. إما أنا أو هي».

وقفتُ مأخوذاً بأعماق أكبر وأغزر... لكلام أروى... قلتُ:

«أروى... بربّكِ... ماذا تعنين؟؟».

رمقتْني بنظرات ملؤها المعاني... سألتُ:

«تعنين... أنْ أعود معها هي... وأتركِكِ أنتِ هنا؟».

رفعتْ أروى رأسها بشموخ وقالتْ:

«إنْ قرّرتَ اختيارها هي».

اندهشتُ وقلتُ:

«لا بدّ أنّ شيئاً ما قد ألمّ بعقلكِ يا أروى».

لم تعلّق فتابعتُ:

«إلا إذا كنتِ... تعنين لفترة محدّدة... ريثما تهدأ الأوضاع».

قالتْ بثقة:

«لا... بل أعني للأبد...».

صُعقتُ وسألتُ غير مصدّق:

«وأنتِ؟».

قالتْ وعضلات وجهها قد خذلتْها وبدأتْ بالانهيار:

«لنْ أعيش معكَ ما دامتْ رغد تحت ولايتكَ...».

مِنْ ذهولي لمْ أعرف كيف أرد... رفعتُ يديّ وأمسكتُ بعضديها ونظرتُ إلى عينيها بجديّة ثمّ قلتُ:

«هل تعين ما تتفوّهين به يا أروى؟؟».

أجابتْ وأول دمعة تنزلق بين رموشها:

«أعيه وأعنيه تماماً يا وليد... لن استمر معكَ... ما بقِيَتْ ابنة عمّكَ تحتَ رعايتكَ... إنْ أردتَ لحياتنا أنْ تسمر معاً... تنازل عنْ وصايتها... وأبعدها عنا».

أطرقتُ برأسي رفضاً لتصديق ما أسمع... وضغطتُ على عضدي أروى وقلتُ:

«كلاّ.. أنتِ لا تعنين ما تقولين يا أروى... لا شكّ أنني أحلم».

أروى عصرتْ عينيها وتدفقتْ الدموع بغزارة منهمرةً منهما. هززتها وقلتُ:

«كلّميني يا أروى.. أخبريني بأنكِ تهذين...».

أروى فجأة رمتْ برأسها على صدري وانفجرتْ باكيةً وهي تزفر:

«لا أتحمّل هذا... ارحمني وليد... لا يمكن لقلبي أنْ يتحمّل العيش مع فتاةٍ أعرف أنّكَ تحبّها... ما الذي تخطّط له بشأنها؟؟ كم أنتَ قاسٍ عليّ...».

وانهارتْ أروى في بكاء طويلٍ وحارق..

لمْ أحرّك ساكناً... وانتظرتُ حتّى أفرغتْ دموعها في ملابسي... وبكاءَها بين ضلوعي...

بعدها، أبعدتْ رأسها عن صدري ونظرتْ إليّ...

«ماذا قرّرتَ؟».

سألتْني ونظرتها متعلّقة بعيني... فلمْ أردّ... فنادتْني:

«وليد... أنا.. أم هي؟».

عضضتُ على أسناني توتراً ثمّ قلتُ:

«سأعتبر نفسي لمْ أسمع شيئاً اليوم».

قالتْ بحنق:

«وليد.. لا تهرب مِنْ سؤالي».

رددتُ بحدّة:

«إنه ليس سؤالاً يا أروى... إنه جنون... يبدو أنكِ لمْ تسترخي بما فيه الكفاية بعد... سأتركِكِ لتراجعي حساباتكِ الحمقاء هذه ثانية».

وتركتُها وغادرتُ الغرفة.

في المزرعة وجدتُ العم إلياس والخالة ليندا يعملان مع بقية العمّال في حرث بقعة مِنَ الأرض... قلتُ مخاطباً الخالة:

«خالتي... دعي عنكِ هذا أرجوكِ».

فقالتْ بسرور:

«إنني استمتع بحرث الأرض يا بنيّ... ثمّ أنّه تمرين جيّد لتنشيط القلب».

قلتُ:

«بل هو شاق على مرضى القلب... أرجوكِ توقّفي».

واقتربتُ منها وانتزعتُ الأداة مِنْ بين يديها وطلبتُ منها الذهاب للراحة. كانتْ أشعّة الشمس لا تزال ساطعةً بقوّة والجو اليوم أكثر حرارةً مما كان عليه الأسبوع الماضي.

شمّرتُ عن ساعديّ وأمسكتُ بالمِعول وجعلتُ أضربُ الأرض بقوّة... وكلّما تذكّرتُ كلام أروى ضربتها بقوّة أكبر وأكبر... وكأنها المسؤولة عن دوّامة المشاكل التي أعيشها... كأنّ بيني وبينها ثأرٌ كبير...

عملتُ بهمّة لا تتناسب والحالة المزاجية المتعكّرة التي تسيطر عليّ... ومرّتْ الساعات واختفى قرص الشمس خلف ستار الأفق... الذي خبّأ بحرصٍ شديد... ما ستشرق به شمس الصباح التالية...

كان الإعياء قد نال مِنْ عضلاتي والعرق قد أغرق جسدي حينما ألقيتُ بالمعول جانباً واستلقيتُ على الرمال ألتقطُ أنفاسي...

تنفستُ بعمقٍ شديد وأنا شارد التفكير... أنظر إلى السماء وقد بدأ الظلام يلوّنها بلون الحداد الكئيب...

أمام عينيّ كنتُ أرى كلمات أروى تتراقص مع أوراق الشجر... ذات اليمين وذات الشمال... وتسبِّب لي دواراً...

أغمضتُ عينيّ لأحول دون رؤية أي شيء... فأنا في هذه اللحظة لا أريد لأي مؤثرٍ خارجي أنْ يغزو تفكيري...

شعرتُ بشيء يسري على ذراعي... حركتُ يدي فأحسستُ بحبات الرمل تعلق بي...

جذبتُ نفساً فخُيِّل إليّ أنني أشم رائحة دخان السجائر... وسمعتُ أصوات أشخاص كثُر ينمنمون...

فتحتُ عينيّ بسرعة... وهببتُ جالساً... لمحتُ حشرةً تسير على ذراعي فأبعدتُها ونفضتُ التراب عن يدي... وتلفتُّ يمنةً ويسرةً أبحث عن مصدر الرائحة والصوت...

لقد كنتُ واهماً... إنني في المزرعة الآن... ولستُ في السجن...

لا أعرف لماذا عادتْ بي الذكريات إلى الزنزانة... وتوهّمتُ أنني أنام على الفراش الخشبي القذر... تعلق بي حبات الرمال والغبار... وتسير الحشرات على جسدي... وتحشو رائحة السجائر والعرق تجويف أنفي...

كلاّ كلاّ!...

وقفتُ منتفضاً وأنا أطرد الذكرى البشعة مِنْ مخيلتي... مدَّدتُ أطرافي الأربعة إلى أقصاها... وتنفّستُ نفساً عميقاً وزفرتُ باسترخاء... ثمَّ أجريتُ تمارين إرخاء سريعة... دخلتُ بعدها إلى المنزل.

تحاشيتُ الالتقاء بأروى وتعمَّدتُ عدم الظهور في أماكن تواجدها... وأبقيتُ موضوعنا معلّقاً لحين إشعار آخر...

الحلقة الخامسة والأربعون

الجفاء القاتل

- رغد -

طرتُ مِنَ الفرح... عندما أخبرني وليد بأنّه قادمٌ لزيارتنا هذه الليلة... فأنا لمْ أرَه منذ أسبوع... وأشعر بحنينٍ شديدٍ إليه...

وشعرتُ بالحسرة لأنني لمْ أستطع المشاركة في إعداد طعام العشاء مع خالتي وابنتيها. قلتُ مخاطبةً نهلة:

«يحبُّ عصير البرتقال الطازج... هل لا حضّرتِ كمّيةً مِنه؟؟».

فتحتْ نهلة درج الثلاّجة المليء بثمار البرتقال وأشارتْ إليها وقالتْ ساخرة:

«كل هذه؟».

سارة انفجرتْ ضحكاً فوبّختها خالتي. أما أنا فرمقتُ نهلة بنظرة غضب فابتسمتْ وقالتْ:

«حاضر سيدتي... وماذا أحضِّر بعد؟».

وكنتُ قد أخبرتُ خالتي عنْ الأطباق التي يفضِّلها وليد وطلبتُ منها أنْ تحضّرها بسخاء! سمعتُ خالتي تسأل:

«ماذا عنْ سامر؟ هل تأكّدتِ مِنْ أنّه لنْ يحضر؟».

أجبتُ:

«نعم. هكذا أجاب وليد عندما سألتُه... لكن اعملي حسابه... ربما يغيّر رأيه ويأتي».

قالتْ سارة فجأة:

«أصبح وجه سامر وسيماً الآن. هل ستتزوجين مِنْه ثانيةً يا رغد؟».

هذه المرّة خالتي زجرتْ ابنتها بعنفٍ بل وطردتْها مِنَ المطبخ... سارة فتاة غبيّة لدرجةٍ ملحوظة... وتفكيرها سخيفٌ جداً...

الصمت حلَّ على المطبخ بعد مغادرتها وأرادتْ نهلة أنْ تلطّف الجو فسألتْني:

«وخطيبته وأمّها؟؟ أمتأكّدة مِنْ أنهما لنْ تحضرا؟».

كانتْ هي تعرف الإجابة ولكنني جاريتُها:

«لنْ تحضرا... سيأتي وليد فقط».

والتفتُّ إلى خالتي وقلتُ برجاء:

«خالتي... لا تنسي أنْ تعتذري له».

قالتْ بتملّل:

«أعرف يا رغد... وهل سأتركُه يتناول العشاء في منزلي دون أنْ اعتذر له عمّا بدر منّي مِنْ سوء فهم؟؟».

هنا دخل حسام المطبخ وهو يحمل بعض الحاجيات التي أوصتْه خالتي بإحضارها، وبعد التحية سأل:

«ما بها صغيرتكم تبكي في الردهة؟».

يعني سارة.. أجابتْه خالتي:

«كالعادة تتصرّف ببلاهة... لا أعرف متى ستكبر هذه الفتاة وتخلّصني مِنْ همِّها؟».

ضحكتْ نهلة وقالتْ:

«تخلّصي مِنْ همّي أنا أوّلاً!».

قال حسام مداعباً:

«أنتِ؟ لو يَترِك والداي الأمر لي لزوّجتكِ مِنْ أوّل رجلٍ أصادفه في طريقي اليوم، وارتحتُ منكِ!».

قالتْ نهلة وهي تشهق وتضع يديها على صدرها:

«آه... الحمد لله أنّ ضيفنا لهذه الليلة متزوِّج ومنتهٍ!».

وضحكتْ... فعلّق حسام:

«مَنْ؟ المتوحِّش؟ أفضِّل أنْ تموتي عجوزاً عانساً على أنْ أزوّجكِ رجلاً مثله!».

وضحك الاثنان ببساطة... دون أنْ يضعا وجودي في الاعتبار... وكأنَّ الشخص الذي يتحدَّثان عنه ليس ابن عمِّي وكافلي...

غضبتُ كثيراً ورغبتُ في زجرهما والشجار معهما... غير أنّني أمسكتُ بأعصابي وتركتُ الموقف يمرُّ بسلام فالوقتُ حرجٌ... لكنّي سأصفِّي الحساب معهما لاحقاً...

بعد ذلك تظاهرتُ بالتعب واستأذنتُ للانصراف عن المطبخ بهدوء. في الردهة وجدتُ ابنة خالتي المسكينة لا تزال تبكي! أحسستُ بالشفقة عليها فأقبلتُ إليها أريد مواساتها:

«سارة! لا تأخذي الأمر بهذه الحساسية... توقّفي عن البكاء».

مسحتْ سارة دموعها ثمّ قالتْ:

«إنّ أُمِّي لا تُحسن معاملتي».

يا للفتاة! ربّتُّ بيدي على كتفها وقلتُ أطيِّب خاطرها:

«كيف تقولين هذا؟ إنّها غضبتْ منكِ على كلامكِ غير اللائق... وعندما تغضب منكِ فهي تريد تنبيهكِ إلى الخطأ».

قالتْ:

«ما هو الخطأ الذي قلتُه؟».

أوه... إنّها حتى لا تدرك خطأها! إنها طفلةٌ بريئةٌ ولا تستحق العقاب. قلتُ:

«عندما قلتِ عن سامر أنّه أصبح وسيماً وسألِتني إنْ كنتُ سأتزوّج مِنْه».

قالتْ ببلادة:

«ما الخطأ في ذلك؟ لقد أصبح وسيماً بالفعل عندما عالج عينه البشعة».

قلتُ مجارية:

«نعم أعرف».

وانتظرتْ هي منّي إيضاح الخطأ... فقلتُ:

«لكن لا يليق أنْ تسأليني إنْ كنتُ سأتزوَّجه أم لا... أوّلاً لأنكِ صغيرة السن ولا يُستساغ منكِ كلامٌ كبيرٌ كهذا، وثانياً لأنّني وسامر قد انفصلنا عن بعضنا البعض نهائياً ولنْ نتزوّج ثانيةً...».

ونظرتُ إلى عينيها استشفُّ منهما الفهم، لكن... لا يبدو أنّها استوعبتْ تماماً ما عنيتُ!

قالتْ:

«إذن ستتزوَّجين بحسام؟».

أوه... ألهمني الصبر يا رب!

أجبتُ:

«كلاّ».

قالتْ:

«إذن بِمَنْ؟».

قلتُ مُظهرةً الغضب لأفهمها أنَّ عليها التوقُّف عن هذا:

«لا أعرف يا سارة ولا تكرّري الحديث عن أمورٍ كهذه ثانيةً... مفهوم...؟؟».

واستدرتُ راغبةً في الانصراف عنها، فسمعتُها تقول:

«أنا أعرف بِمَنْ».

استدرتُ إلى سارة مجدّداً فوجدتُها تبتسم ولكن هذه المرّة بمكر! قلتُ مجاريةً لها:

«بِمَنْ في اعتقادكِ؟».

قالتْ:

«بابن عمِّكِ الطويل... فأنا سمعتُكِ تخبرين أختي بهذا!».

- وليد -

بعد العشاء، جلستُ مع أبي حسام والخالة وحسام ورغد نتجاذب أطراف الحديث.

أحاديثنا منذ البداية كانتْ عاديّة وغير هادفة، باستثناء اعتذار أم حسام الذي أزاح عنّي حملاً... لمْ أهنأ بزواله... أمّا صغيرتي فكانتْ ساكنةً إلا عن نظرات تلقيها عليَّ مِنْ حينٍ لآخر!

ولكن هل يبدو في مظهري شيءٌ غريب؟؟

سألتْ أم حسام:

«كم ستمكث هنا؟».

أجبتُ:

«أسبوع كحدٍ أقصى... بعض شؤون العمل في الجنوب متوقِّفة على حضوري...».

«وماذا عن رغد؟».

بسرعة التفتُ إلى الصغيرة واشتبكتْ نظراتنا... ثمَّ عدتُ إلى أم حسام:

«ستأتي معي قطعاً».

وهل هناك شكٌّ في الأمر؟؟. أم حسام قالتْ:

«أليستْ إجازتها المرَضِيّة ممتدَّة لعدَّة أسابيع...؟ لنْ تكون هناك دراسةٌ ولا جامعة وبالتالي لا داعٍ لسفرها».

عدتُ ونظرتُ إلى رغد... متوقعاً أنْ تكون هذه فكرتها.. ثمَّ قلتُ:

«نعم ولكن... لديها موعد مع الطبيب في الأسبوع المقبل... كما وأنّها يجب أنْ تبقى قريبةً مِنَ المستشفى لمتابعة العلاج... هذا إلى أنّه... بإمكانها الدراسة في المنزل والاستعانة بصديقاتها خلال فترة الإجازة».

أليس كلامي منطقياً؟؟. أم حسام قالتْ وقد طغتْ الجديّة على نبرة صوتها:

«في الحقيقة يا وليد... وباختصار وبلا مقدّمات... أريد أنْ تبقى ابنة أختي تحت رعايتي مِنَ الآن فصاعداً».

اجتاحتْني الدهشة فسألتُ:

«ما الذي تقصدينه بالضبط؟؟».

أجابتْ بكلّ ثقة:

«أقصد أنْ تبقى هنا في بيتي وتحت ناظري وبين أبنائي... وهو المكان الطبيعي لها أساساً».

درتُ بعيني بعشوائية ثمَّ ألقيتُ نظرةً على رغد أستشفُّ منها موقفها... لكني لمْ أفهم المعاني المرتسمة على وجهها...

قلتُ:

«خالتي... ألمْ يسبق وأنْ أغلقنا هذا الموضوع بعد أنْ أشبعناه حواراً وختمنا القرارات؟ بقاء رغد تحت رعايتي أمرٌ مفروغٌ منه البتة ولا مجال للحديث فيه أصلاً».

تدخّل حسام وقال:

«هذا ما تفرضه أنتَ».

لمْ أعرهُ اهتماماً وركّزتُ أسماعي على الخالة التي تابعتْ:

«لمْ ننهِه لكنّكَ أصررتَ على موقفكَ واستغللتَ شغف الفتاة بالدراسة كيف تكسبها إلى جانبك».

استغلال؟؟ عندما أفكّر في مستقبل رغد... وأخطّط له... تسمُّونه استغلال؟؟

حسام قال:

«إنّهم يعيدون ترميم المبنى المدمَّر مِنَ الجامعة هنا وستُفتتح العام المقبل وتستطيع رغد العودة إليها».

قلتُ:

«ولماذا عليها أنْ تفعل ذلك؟ الجامعة الأهليّة في الجنوب أفضل مستوى وقد قطعتْ شوطاً مهماً وبنجاح فلِمَ تفكّر أصلاً في تغيير الجامعة؟».

كنتُ سأوجِّه سؤالاً إلى رغد غير أنَّ أمّ حسام سبقتْني بالحديث:

«كي تبقى معي... وإنْ كانتْ حجّتك الدراسة فها هو الحلُّ أمامكَ».

استفزّتْني الجملة وقلتُ:

«ليستْ مسألة الجامعة فقط... رغد تحت وصايتي أنا وأريد أنْ آخذها معي».

قالتْ أمُّ حسام وبصوتٍ حاد:

«في هذه المرَّة أعدتهَا إلينا بالجبائر... في المرّة القادمة كيف ستعيدها؟؟».

أبو حسام تكلَّم ليخفِّف الشدَّ الحاصل فقال:

«نحن نعرف أنَّكَ تعتني بها جيِّداً ولكن إنّه قلب الأمّ... لا تتصوّر كم كانتْ خالتها مشغولة البال والقلب عليها».

قال حسام:

«جميعنا كنا قلقون عليها وهي بعيدة كل ذلك البعد. يجب أنْ تقدِّر مشاعرنا».

كأنَّكَ تماديتَ يا حسام؟ مشاعر ماذا تقصد؟ يجب أنْ تتوقَّف عند هذا قبل أنْ تُشعِل غضبي...

قلتُ معارضاً وبكلّ إصرار:

«الأمر مفروغٌ منه ولسنا هنا لنناقشه مِنْ جديد. وأرجوكم لا داعي لهذر المزيد مِنَ الوقت في جدالٍ عقيمٍ لقضيّةٍ محسومةٍ مسبقاً».

قال حسام فجأةً:

«أنتَ متسلِّط جداً!!».

صمتَ الجميع مِنَ المفاجأة... وأنا نظرتُ إليه بتعجُّب... حسبتُ أنّها زلّة لسانٍ سيعتذر عليها لكنّه أضاف وللعجب:

«نحنُ أقرب إلى رغد مِنْكَ وأحقّ بكفالتها...».

أبو حسام ردع حسام بنظرة غاضبة... والأخير سكتَ ثوانٍ ثمّ وجّه خطابه إلى رغد:

«ما رأيكِ أنتِ يا رغد؟ ألستِ تفضّلين البقاء مع والدتي؟؟».

نظرنا جميعا نحو رغد التي أجابتْ بإخضاع نظرها نحو الأرض كأنّها تؤيِّد هذا. ماذا يا رغد؟ أتريدين إحراجي أكثر مع أقاربكِ؟ ألمْ ننته كلياً مِنْ موضوع إقامتكِ معي؟ هل غيّرتِ رأيكِ الآن؟

خاطبتُها سائلاً وشاعراً بالخذلان منها:

«ماذا يا رغد؟».
فنظرتْ إليَّ وأجابتْ مضطربة:
«كما ترى أنتَ... وليد».
الجميع نقلوا بصرهم عنها وصبّوا أنظاراً حارّة عليَّ...
ويحكم! هل تعتقدون أنّني أهدِّد الفتاة أو أجبرها على شيء؟ قلتُ طالباً منها التأكيد:
«ألستِ ترغبين في متابعة الدراسة في الجامعة الأهلية؟».
قالتْ مؤكِّدة:
«بلى».
اطمأنّ قلبي لردّها لكنّ أمّ حسام قالتْ معترضة:
«كلا... ستبقين معي... أريد أنْ أرعاكِ بنفسي... ولنْ يطمئِنّ قلبي لسفركِ ثانيةً على الإطلاق».
وإذا بحسام يخاطبني قائلاً فجأة:
«لماذا لا تتنازل عن الوصاية؟».
نظرتُ إليه مندهشاً وأنا أرمقه بحدّة، وقلتُ:
«أتنازل عنها لِمَنْ مثلاً؟؟ لكَ أنتَ!؟».
حسام غضب مِنْ تعقيبي الساخر وردّ منفعلاً:
«تعرف أنّني دون السن القانوني ولا يمكنني أنْ أكفل أحداً... أنا أعني لِوالدي فهو بمقام والدها وهو ابن عم والدتها وأمّي خالتها ونحن أقرب إليها منكَ».
عند هذا لمْ أتحمّل. اشتعلتْ نفسي غضباً وتصبّب العرق مِنْ جبيني ورفعتُ يدي أمسحه فلمستُ جبيناً ساخناً يكاد يوقد ناراً...
نظرتُ نحو رغد وأظنُّ نظرتي كانتْ قويّة للدرجة التي اهتزّ فيها جسدها وتراجع للوراء...
زفرتُ زفرةً قويةً أخيراً كانتْ ساخنةً ما يكفي لحرق أثاث الغرفة. قلتُ أخيراً:
«يمكنكم مناقشة أمر الوصاية هذا بعد موتي، ولكن طالما أنا حيٌّ، فابنة عمِّي ستبقى تحت مسؤوليتي أنا ما امتدّتْ بي الحياة».
ووقفتُ وتابعتُ:
«عليَّ الذهاب الآن... شكراً على حسن الضيافة».
والتفتُّ إلى رغد وقلتُ:
«رغد.. هل لا رافقتِني إلى البوّابة؟».
سرنا جنباً إلى جنبٍ بخطىً بطيئة إلى أنْ ابتعدنا عن مدخل المنزل وانتصف بنا الطريق إلى البوابة الخارجية لسور المنزل...
حينها فقط أذنتُ للساني بالنطق:
«رغد».

وتوقّف صوت خطوات العكاز... التفتُ إليها فرأيتُها وقد توقّفتْ عن المشي وكأنّها في انتظار شيءٍ مهم...

قلتُ:

«هل كانتْ هذه فكرتكِ؟».

رغد قالتْ بسرعة:

«لا.. لا.. إنّها خالتي، هي التي تريد منّي البقاء... على الأقل فترة نقاهتي».

قلتُ:

«والوصاية؟».

أجابتْ:

«حسام يتحدّث بسخافة أحياناً».

كنتُ أنظر إليها بتشكّك... فهي لطالما طلبتْ مني تركها مع أقاربها، وخشيتُ أنْ تكون هي وراء كل هذا...

حين قرأتْ الشكّ في عينيّ قالتْ مدافعةً:

«صدّقني لستُ أنا».

قلتُ:

«اسمعي يا رغد... عليكِ أنتِ أنْ تُفهِمي أقاربكِ أنَّ موضوع الوصاية هذا ليس مِنْ حقِّهم التحدُّث فيه، وأنا لا أقبل منهم أنْ يفتحوه لا أمامي ولا خلف ظهري... وأمر إقامتكِ هنا مرفوض نهائياً. يجب أنْ تخبريهم أنْ يتوقّفوا عن محاولاتهم المزعجة وإلاّ فإنّني سوف لنْ آتي بكِ لزيارتهم ثانيةً».

بدا التوتّر على وجه رغد فقلتُ:

«أنا أعني ما أقول...».

ثمّ استدرتُ لأتابع طريقي إلى البوّابة. بعد ثوانٍ لحقتْ رغد بي وسمعتُها تناديني وتقول:

«وليد... لا تغضب...!».

التفتُ إليها فوجدتُ عينيها متعلّقتين بعينيّ...

«أرجوكَ... لا تغضب منهم...».

وأضافتْ:

«أنا أعتذر لكَ عن أيّ كلمة مُزعِجة وُجّهتْ إليكَ هذه الليلة... أو مِنْ قبل... سامحهم وليد».

أراحني الشعور بأنَّ رغد... تكنُّ لي التقدير وتكترث لمشاعري... وتودُّ تطييب خاطري بعد الكلام الجارح الذي تلقّيته مِنْ أهلها...

قلتُ:

«هذه المرّة سأبتلع كلَّ شيء... لكن عليكِ أنْ تُفهِميهم جيّداً بأنّني فيما لو تكرّر هذا مرّة

أخرى، سأتخّذ موقفاً مختلفاً».

أطرقتْ رغد برأسها إذعاناً. أخيراً قلتُ:

«والآن... هل تأمرين بشيء قبل ذهابي؟».

رأيتُ وجه رغد يبتسم فيما قسمات القلق مرسومة على جبينها وهي تقول:

«انتبِه لنفسكَ».

انتبه لنفسي؟!

إنّها أوّل مرّة تقولها لي وبهذه الطريقة، ومعالم القلق والاهتمام ناطقة على وجهها!

شعرتُ بدغدغة لطيفة تسري في جسدي لمْ تكن لتتناسب مع الغضب الذي أُضمره!... ابتسمتُ لها وفارقتُها بارتياح...

ذهبتُ إلى شقّة سامر والذي كان قد أعطاني مفتاحاً احتياطياً لشقّته بطلبٍ منّي... حتّى يتسنّى لي الدخول والخروج بحريّة، خصوصاً وأنّه كان يقضي ساعات طويلة في العمل.

دخلتُ إلى الشقّة واتّجهتُ إلى غرفة النوم... وهناك... رأيتُ شقيقي يجلس على السرير وفي يده علبةٍ ما... ووجهه متجهِّم... ويظهر عليه الشرود... حتّى أنّه لمْ ينتبه لدخولي...

«سامر».

بمجرّد أنْ ناديتُه ارتبكَ وأغلقَ العلبة بسرعة وهبَّ واقفاً وهو يقول:

«وليد.. أأأ... أهلاً».

وسار نحو الخزانة وأدخلَ العلبة في أحدِ الأدراج، الدُّرج الذي وجدتُه مقفلاً ذلك اليوم، وأقفل الدرج بالمفتاح وهو يقول:

«لمْ أنتبه لقدومكَ».

دقّقتُ النظر في وجهه فوجدتُ آثار الدموع تبلّل رموشه... شعرتُ بانقباضٍ في قلبي وسألتُ بقلق:

«أهناك شيءٌ؟؟».

سامر تظاهرَ بالعفويّة وابتسمَ وقال:

«لا. لا شيء».

لكنّني لمْ أشتِّتْ نظري عنه فقال:

«تذكّرتُ والدينا».

وظهر الخشوع والحزن على وجهه... لمْ أصدّق ما ادّعاه ولكنّني لمْ أردْ إحراجه فقلتُ:

«رحمهما الله».

وتصرّفتُ بشكلٍ طبيعي رغم القلق الذي يعتصر أحشائي. لا أعرف ما الشيء الذي كان سامر يخفيه في الدُّرْج ويحذر أنْ أراه... لكنّي أتوقّع وتقريباً شبه متأكّد مِنْ أنّه ذو علاقةٍ برغد...

والفضول تملّكني بشدّة... وانتهزتُ الفترة التي ذهب أخي فيها للاستحمام بعد ذلك

وتسلّلتْ يدي نحو الدرج...

كان المفتاح في ثقب الدُّرج... فتحتُه بحذر واستخرجتُ العلبة الكبيرة الثقيلة التي كانتْ تحتل معظم الدرج...

وضعتُ العلبة على السرير وهممتُ بفتحها، غير أنَّ ضميري تغلّب على فضولي في آخر لحظة... وإذا بي أعيد العلبة إلى الدرج وأقفله بالمفتاح وأغلق باب الخزانة كما كان...

لحظتها أثنيتُ على نفسي أمانتي... وشكرتُ ضميري على تأنيبه... وبتُّ راضياً عنْ نفسي مسروراً بها...

لكنني فيما بعد... عضضتُ أصابعي ندماً... على أنني لمْ أكتشِف وقتها السرَّ الذي كان شقيقي يخبّئه... رغم أنّه كان طائعاً بين يديَّ...

- رغد -

بالأمس الأوّل أبلغني وليد عنْ موعد سفرنا وهو مساء هذا اليوم، واتّصل بي قبل ساعة ليتأكّد مِنْ استعدادي. وقد أبلغني أنّه في طريقه للمزرعة وسوف يكون هنا عصراً. وفيما أنا مع ابنتَي خالتي نجمع حاجياتي في حقيبتي رنَّ هاتفي مرّة أخرى... نهلة ونظرتْ إليَّ بمكرٍ وقالتْ:

«الوصي الطويل!».

وسارة ضحكتْ - كعادتها - بصوتٍ مرتفع. كان هاتفي موضوعاً على المنضدة بجوار المرآة، وكنتُ أجلس على السرير أطوي ملابسي. قلتُ مخاطبةً نهلة:

«ناوليني الهاتف».

فأسرعتْ سارة والتقطته مِنْ على المنضدة وأقبلتْ نحوي... نهلة قالتْ لإغاظتي:

«دعيها تسير إليه بنفسها يا سارة!».

سارة غيّرتْ اتجاه سيرها وعادتْ أدراجها إلى المنضدة. قلتُ بحنق:

«هذا ليس وقته... هاتي الهاتف سارة».

فقالتْ نهلة وهي تضحك بخبث:

«تعالي وخذيه بنفسكِ».

«تباً لكما».

ورميتُهما ببعض ملابسي وأمسكتُ بعكازي وهببتُ لأقف، حينها أخذتْ نهلة الهاتف ورمتْه نحوي على السرير وأطلقتْ وأختها القهقهات وهما تغادران الغرفة... مددتُ يدي بسرعةٍ والتقطتُ الهاتف..

كان رقم هاتف المزرعة، ذاك الذي ظهر علِى شاشة هاتفي...

«مرحباً».

«مرحباً يا رغد... كيف حالكِ؟».

أتدرون مَنْ المتصّل؟

إنها الشقراء!! نعم الشقراء...!!

ماذا تريدين منّي؟؟

قلتُ بجفاء:

«نعم؟ ماذا تريدين؟».

قالتْ:

«حسناً... خشيتُ ألا تجيبي على اتصالي...».

قلتُ:

«ظننتُه وليد... لكن ماذا هناك؟».

«إنّه لمْ يصل بعد... هل أخبركِ بأنّه... حجز للسفر مساءً؟».

«نعم».

الشقراء صمتتْ قليلا ثمّ سألتْ:

«رغد.. هل فكّرتِ في الموضوع الذي حدَّثتُكِ عنه؟».

تعني الكلام الذي سمّمتْ قلبي بسماعه ذلك الصباح في المزرعة... والذي بذلتُ قصارى جهدي للتهرّب منه... أجبتُ:

«لا أريد أنْ أفكّر به».

«لماذا؟».

قلتُ بغضب:

«لا يعجبني... ولو سمحتِ لا تعيدي فتح الموضوع ثانيةً».

قالتْ:

«يا رغد لا بدَّ مِنْ فتحه وأخذه بعين الاعتبار... إنه ليس مجرَّد موضوعٍ عابرٍ بل فيه مستقبلنا وحياتنا ومصيرنا نحن الثلاثة».

قلتُ وقد اشتدّ غيظي:

«لا شأن لكِ بمستقبلي ومصيري أنا».

«وماذا عن مستقبل وليد؟ وحياته؟ ومصير الدوّامة مِنَ الشجار التي نحيطها به؟ ألا تفكّرين فيه؟ ألا تشعرين به؟ ألا تشفقين على حاله؟؟».

قلتُ باندفاع:

«اسمعي... وليد لنْ يتخلّى عنّي تحت أيّة ظروف... إنَّه بمقام أبي... لنْ ابتعد عنه وإذا شئتِ أنتِ فابتعدي وأريحينا».

صمتتْ الشقراء لبرهة ثمّ قالتْ:

«إذنْ هذا هو قراركِ؟؟».

قلتُ بتحدٍ:

«نعم. هذا هو قراري».

قالتْ وقد تجلّى الألم والحزن في نبرة صوتها:

«لمْ أتوقّعْ أنْ تكوني أنانيّةً جداً لهذا الحد... حسبتُكِ تهتمّين لوليد ولراحته...».

ثمَّ أضافتْ وقد اشتدّتْ نبرتها:

«لكن... وليد سيأتي الآن... وسأخبره بما دار بيننا... وعن قراركِ... وسأضعه أمام الأمر الواقع وأطلب منْه أنْ يعيِّن مَنْ منّا سيختار ليصطحبها في السفر».

وتوقّفتْ برهة، ثمَّ أضافتْ:

«وفي بقيّة العمر».

وأقفلتْ السماعة فوراً...

تسمّرتُ على وضعي حقبةً مِنَ الزمن... تدحرج فيها رأسي على محيط الغرفة... ثمَّ تهالكَ على السرير دائخاً تصارعه كلمات أروى وتستلُّ عقله استلالاً...

رفعتُ هاتفي أمام عيني... أوشكتُ على الاتصال بوليد... لكنَّ أصابعي ارتجفتْ وحالتْ دون مقدرتي على الضغط على الأزرار...

حاولتُ أنْ أركّز تفكيري على شيء لكنّني فشلتُ... أغمضتُ عينيَّ ووضعتُ يدي اليسرى عليهما لأخفّف مِنْ مقدار النور الذي بدا ساطعاً قويا يخترق جفوني مقبلاً مِنْ مصباح السقف...

«رغد!».

سمعتُ صوتاً يناديني... أبعدتُ يدي ونظرتُ باتّجاه مصدر الصوت الذي ولشدّة تيهي لمْ أميّزه... ولولا أنّها اقتربتْ منّي كثيراً ربمّا لمْ أكنْ لأميّزها... كانتْ نهلة...

«ما بكِ!؟».

سألتْني بقلقٍ وهي تراني مُلقِيَةً بثقل رأسي على السرير في ذلك الوضع... جلستُ ومددتُ يديّ نحوها فأقبلتْ إليَّ وشملتْني في حضنها وهي تقول:

«ماذا جرى لكِ بحقِّ السماء؟؟ ماذا قال لكِ ذلكَ المتعجرف اللئيم؟».

هززتُ رأسي في حضنها وأنا أطلق شهقاتي:

«ليس هو يا نهلة... إنها هي... هي...».

سألتْ بتوتُّر وقد فهمتْ قصدي:

«ماذا أرادتْ مِنْكِ؟».

انهرتُ وأنا أقول:

«تريد أنْ تحرمني مِنْ وليد... ستأخذه منِّي يا نهلة... ستأخذه منِّي...».

أبعدتُ رأسي عن حضنها وقلتُ بانهيار:

«... لا أستطيع العيش بدونه... إنّه وليد قلبي أنا... يخصُّني أنا... لي أنا... آآآآه... أنا انتهيتُ يا نهلة... انتهيتُ... انتهيتُ...».

- وليد -

كنتُ قد حدّثتُ سامر عنْ أمر عودتي إلى الجنوب مع رغد... وألححتُ عليه كي يرافقنا... وأعَدْتُ عرض فرصة العمل الكبيرة في مصنع أروى...

سامر كان في السابق يرفض الفكرة أمّا الآن فقد قبل العرض... وطلب مهلةً كي يرتّب أموره... اتفقنا على أنْ أُمهله بضعة أيام أخرى كي ينجزَ مهامَّه ويستعد للسفر...

وَضْعُ سامر ووحدته في هذه المدينة وبُعده عنّي لمْ يكن يروق لي منذ البداية... ولكنَّ الظروف لمْ تساعد على لمِّ شملنا في بيتٍ واحدٍ كما هم الأخوة الأشقاء...

ودّعتُه وذهبتُ إلى المزرعة لأقابل أروى وأهلها، وأقضي معهم بعض الوقت قبل السفر. أروى طبعاً لمْ تكنْ لتسافر معنا بطبيعة الحال، وفي المزرعة كانتْ تنتظرني مشكلتي الكبرى معها...

كنّا أنا وهي نجلس بين الأشجار... بعيداً عن مرأى أو مسمع أي إنسان... نتحدّث بشأن كلامها الجنوني في لقائنا الفائت...

اعتقدتُ أنّه كان انفعالاً مؤقتاً، غير أنّني وجدتُها على نفس الموقف هذا اليوم وقد تجلّى الإصرار الشديد عليها...

أروى كانتْ على غير سجيّتها... غاية في التوتّر والعصبية...

«اسمعني يا وليد... لا أريد أنْ نضيِّع الوقت والجهد في محاولة تغيير المواقف. كل ما عليكَ اتّخاذه الآن وبشكلٍ حاسمٍ هو القرار المصيري. إمّا أنْ تأخذني أنا معكَ، وللأبد... أو تأخذها هِيَ معكَ... وللأبد».

كنتُ قد استنفذتُ طاقتي في محاولة إقناعها بالتخلّي عن حلِّها الأحمق هذا... لكن دون جدوى...

قلتُ متهيّجاً:

«الهراء الذي تتفوّهين به لنْ أحمله محمل الجد... أجد نفسي مضطراً لأنْ أترككِ هنا مؤقتاً وأعود معها هي إلى أنْ تنتهي موجة الجنون الذي أودتْ بعقلكِ... بعدها نناقش بعقلٍ كلَّ أمورنا».

أروى هتفتْ:

«وليد لا تتهّربْ... أنا أحدِّثكَ بكل جدّية وعقلانية... إمّا أنا وإمّا هي، ولا خيار ثالث مطلقاً».

الإصرار كان يندلع كالنار مِنْ عينيها... والنار لمْ تحرق عينيَّ ورأسي فقط... بل وأشعلتْ الآلام التي بالكاد هدأتْ في معدتي...

شهقتُ شهيقاً طويلاً لأملأ صدري بالهواء وأضغط على معدتي... ثمَّ استدرتُ للوراء وخطوتُ مبتعداً عنها...

«وليد إلى أين؟».

لمْ أرد... وأبقيتُ النفَس محبوساً في صدري، وخطوتُ خطوة أخرى، فقالتْ:
«هل أفهم مِن هذا... أنّكَ قررتَ اختيارها هي؟».
توقّفتُ لحظة، وأطلقتُ زفرة طويلةً، ثمَّ خطوتُ خطوتين أخريين فسمعتُها تقول بانفعال:
«إذا قرّرتَ الذهاب إليها فلا تفكّر بالعودة إليّ ثانيةً».
عند هذا الحدِّ واستدرتُ إليها وهتفتُ بغضب:
«ماذا تعنين؟ أروى... أُخرجي مِنْ رأسي هذه الساعة... أكادُ أنفجر... باللهِ عليكِ ماذا تعنين بهذا الجنون؟؟».
أروى حملقتْ برهة بي ثمَّ قالتْ:
«ننفصل».
فجأة... أُصيب رأسي بارتجاجٍ حاد إثر هذه الكلمة الفظيعة وانفغر فوهي وانفتحتْ حدقتاي أوسعهما...
ذُهِلتُ... صُعِقت... تصلّبتُ في موضعي... غير مصدّق!!...
نطقتُ وأنا لا أجرؤ على التفوّه بالكلمة مِنْ شدّة فظاعتها:
«ماذا؟؟ تقولين نن... نن... ماذا؟».
أجابتْ أروى بكل ثقة:
«ننفصل يا وليد».
ولمْ يزدني برودها إلا ذهولاً فوق ذهول...
بقيتُ أحملق فيها لوقتٍ ما كان أطوله... ثمَّ أخرجتُ عبارات عشوائية مِنْ لساني:
«كيف تجرّأتِ يا أروى؟ لا بدّ أنّك بالفعل قد جُننتِ...!...ماذا...؟؟ كيف أطاعكِ لسانكِ على التفوّه بها؟؟ تقولين... ننفصل؟؟».
صمتتْ أروى فسِرْتُ حتّى صرتُ أمامها وقلتُ غير مصدِّق:
«ننفصل يا أروى؟؟ هل قلتِ ننفصل؟».
أروى قالتْ وقد تغيّر صوتها وجاء مبحوحاً:
«نعم... فنحن... لنْ نستطيع العيش... أنا... وأنتَ... وابنة عمِّكَ... سويّةً... لقد خيّرتُكَ... وأنتَ مَنْ اختار التخلّي عنّي مِنْ أجلها».
مددتُ يدي إلى ذراعها وهززتها بقوّة وصرختُ:
«أنا؟؟».
وتابعتُ:
«بل أنتِ يا أروى مَنْ قرّر كل شيءٍ بجنونكِ... أنتِ مَنْ يرفض العودة معي... تعرفين كم هي ظروفي حرجةٌ... وعوضاً عن حمل الهمِّ معي تزيدين عاتقي أثقالاً... أثقالاً لا طاقة لي بحملها... تريدين منّي ترك رغد في بيت خالتها إلى الأبد؟؟ هذا المستحيل بعينه... لنْ أتخلّى عن الأمانة التي تركها أبي في عنقي تحتَ أيّ ظرفٍ ومهما كان».

قالتْ أروى بغضب:

«إذن تخلَّ عنِّي أنا زوجتكَ... واحتفظْ بأمانتكَ الغالية... المدلّلة الأنانية... حبيبة قلبكَ التي لا تخجل مِنَ الاحتفاظ بصورتها تحت وسائدكَ».

هنا... فار التنور...

رفعتُ يدي وأوشكتُ على تسديد لكمةٍ قويّة إلى وجه أروى، غير أنّني توقّفتُ عند آخر جزء مِنَ الثانية... وتركتُ يدي معلّقةً في الهواء...

أروى صارتْ تحملق بي بذهولٍ فائق... وتحوّل لونها إلى الأصفر مِنْ شدّة الفزع... ولو كنتُ قد سددتُ ضربتي إلى وجهها لكنتُ فصلتُ فكّها الأسفل عن رأسها كلياً...

تراجعتُ بقبضتي الثائرة والتفتُ يميناً فرأيتُ الشجرة التي نقف إلى جوارها تراقبنا بسلام... وكالمجنون ضربتُ أحد أغصانها بعنفٍ فخرَّ مكسوراً صريعاً على الأرض...

ابتعدتُ مسرعاً عن أروى لئلاّ تنالها يدي ببطشٍ شديد... ذهبتُ أبحث عن العمِّ إلياس فألفيتُه والخالة يجلسان عند مدخل المنزل يصنعان السلال السعفيّة ويتبادلان كُرة الحديث...

حين رأياني رحّبا بي ودعياني للجلوس معهما... ولكنهما سرعان ما رأيا الشرر يتطاير مِنْ عينيّ والعرق يتصبب مِنْ جبيني...

العمّ إلياس وقف وقال قلقاً:

«ما الخطب يا بُنيّ؟؟».

هتفتُ بغضب:

«عمّي أريد أنْ أُحدِّثكَ عن شيء».

وقد خرَجَ صوتي مُرعباً ما جعلَ الخالة ترفع يدها إلى صدرها... قال العم:

«اهدأ بني...».

قلتُ منفعلاً:

«يجب أنْ تتدخّل وتفعل شيئاً يوقف جنون ابنة أختكِ هذا».

الخالة وقفتْ بدورها هي الأخرى وقالتْ:

«ماذا يحصل؟؟».

العمّ إلياس خاطبني قائلاً:

«اجلس يا بنيّ هداكَ الله... تبدو منفعلاً جداً».

والتفتَ إلى الخالة وطلبَ منها:

«أحضري بعض الماء يا أمّ أروى بارككِ الله».

الخالة دخلتْ إلى المنزل على مضض لتُحْضِر الماء، أمّا العم إلياس فحملق بي متسائِلاً وأمسك بذراعي محاولاً تهدئتي، غير أنني سحبتُ ذراعي وشددتُ على قبضتي وقلتُ:

«عمّي... أروى... فقدتْ عقلها... تهدّدني... إمّا أنْ أترك ابنة عمّي في بيت خالتها للأبد... أو...».

ولمْ أقوَ على إتمام الجملة. فسأل العم:

«أو ماذا؟».

تفوّهتُ:

«أو ننفصل يا عمّ».

العمّ ذُهِلَ ونظر نحوي بدهشةٍ فائقة. فقلتُ:

«يجب أنْ تكلِّمها... إنها مجنونة منذ عرفتْ أنّني قتلتُ مَنْ كان ابن عمِّها... والآن تريد منِّي إخلاء مسؤوليتي عن مكفولتي اليتيمة... التي هي أمانةٌ في عُنقي إلى يوم الدين...».

العم كان ينظر إلى بمنتهى الدهشة التي فاقتْ مقدرته على التعبير...

قلتُ بحدّةٍ بالغةٍ:

«تتعامل مع رِباطي بها أو برغد وكأنّهما لعبةٌ يُمكن تغييرها إنْ لزم الأمر... أفهِمْها يا عم... أنّه لا يحقّ لها وضعي بين خيارين عابثين كهذين... ولا الاستهانة برباطنا بهذا الشكل المخزي... وإنّني لستُ مِنَ الاستهتار لدرجةِ أنْ... أرمي بوصاية ابنة عمِّي على غيري... أو انفصل عن زوجتي... فقط لأنّهما لا تطيقان التعايُش مع بعضهما البعض».

واستدرتُ منصرفاً قبل أنْ أعطي العم فرصة للاستيعاب...

– أروى –

ما زلتُ واقفةً عند الشجرة... أنظر إلى الغصن المرمي على الأرض، والذي كسره وليد عن جذعها قبل قليل.

أنا غارقةٌ في الدموع، لا أعرف ما أفعل ولا كيف أفكِّر. انصرف وليد غاضباً جداً منِّي، وسيسافر وموضوعي معه معلَّق وشديد الالتهاب.

أحسستُ بحركة مِنْ حولي فنظرتُ في الاتجاه الذي سلكه وليد مغادراً وكلّي لهفة أنْ يكون قد عاد... رأيتُ أُمِّي وخالي يُقبلان نحوي يكسو وجهيهما القلق الشديد.

كانتْ أمّي تُمسك بكأس مليءٍ بالماء في يدها وقطرات منه تنسكب مع خطواتها المضطربة، وقبل أنْ تصبح في مواجهتي سبقها سؤالها:

«ماذا حصل؟؟ أروى ماذا حصل مع وليد؟؟».

نظرتُ مِنْ بين دموعي إلى عينيها وعيني خالي، وقلتُ:

«لقد... طلبتُ مِنْه... أنْ... ينفصل عنِّي».

وأجهشتُ بكاءً واستندتُ إلى الشجرة التي ضربها وليد. لمْ أكنْ أسمع غير صوت بكائي إلى أنْ سمعتُ صوت خالي يهتف:

«ليندا!... تماسكي».

استدرتُ إلى أُمّي فرأيتُ الكأس يقع مِنْ يدها ورأيتُها تضغط على صدرها وتتنفّس بصعوبة، ثمّ تترنّح وتخرّ على الأرض.

- وليد -

استقبلتْني ابنة خالة رغد الصغرى وقادتْني إلى مدخل المجلس الجانبي. لمْ يكنْ حسام ولا أبوه موجودين ساعة وصولي. وعند المدخل وجدتُ أمّ حسام تقف في انتظارنا. كنتُ أعرف أنّها غير راضية عن سفر رغد وخشيتُ أنْ تعود لفتح موضوع اعتراضها في هذه الساعة، فيما الصداع مشتدٌ على رأسي بعد شجاري مع أروى، ولا ينقصني الآن أي جدال. وبعد تبادل التحية دخلنا إلى الداخل واتّخذنا مجالسنا وأخبرتْني أنّ أبا حسام في الطريق إلينا. ثمّ سألتُها:

«هل رغد مستعدّة؟».

أجابتْ وفي نبرتها شيءٌ مِنْ عدم الرضا:

«نعم. جمعتُ أشياءها بمساعدة ابنتيَ... إنها بالكاد تتحرّك... يشقُّ السفر عليها مع هذه الإصابة».

أرجوكِ! لا تفتحي الموضوع ثانيةً الآن!... قلتُ لئلاً أدع لها الفرصة للبدء مِنْ جديد:

«إذنْ هل لا أخطرتِها بوصولي مِنْ فضلكِ؟ لا يزال أمامنا مشوارٌ طويل».

الفتاة الصغيرة خرجتْ مِنَ الغرفة فوراً... ذاهبةً لاستدعاء رغد. أمّا أمّ حسام فسألتْ:

«وأين زوجتكَ ووالدتها؟».

استغربتُ السؤال وأجبتُ:

«في المزرعة».

قالتْ مُستغربةً:

«حسبتُ أنّكَ قادمٌ مِنْ هناك!».

«نعم، كنتُ هناك».

سألتْ باستغراب أشد:

«ولِمَ لمْ تحضرا معكَ مباشرةً؟».

قلتُ مستغرباً:

«ولِمَ؟؟».

بدا القلق على وجه أمّ حسام مع بعض الحيرة ثمّ قالتْ:

«ألنْ تصطحباهما معكما؟؟».

قلتُ:

«كلاّ... إنهما لنْ تسافرا معنا الآن».

اتّسعتْ حدقتا أم حسام واكفهرّتْ ملامحها وقالتْ:

«لنْ تسافرا معكما؟؟ ماذا تقصد يا وليد؟؟».

قلتُ موضّحاً:

«لن تسافرا حالياً... لكن... ستلحقان بنا بعد فترة... تودّان البقاء في المزرعة أياماً أخرى».

تعبيرات وجه أم حسام ازدادتْ توتّرا واضطرابا وقالتْ:

«و... رغد؟؟».

فهمتُ منها إنّها قلقةٌ بشأن مَنْ سيعتني بالصغيرة وهي مصابة هكذا، فقلتُ:

«لدينا خادمةٌ لتساعدها».

أم حسام قالتْ فجأة وبانفعال مهول:

«أتريد القول... أنّكَ... ستسافر مع الفتاة... بمفردكما؟».

ألجمَ السؤال لساني... وفي ذات اللحظة رأيتُ أم حسام تهبُّ واقفةً وقد تناثر الشرر مِنْ حولها وتقول بصوتٍ حاد:

«هل جننتَ يا وليد؟؟ تريد أنْ تأخذ الفتاة بمفردها إلى الجنوب؟».

وقفتُ تباعاً وقد أصابني الذهول مِنْ أمر الخالة وأردتُ أنْ أتحدّث غير أنّ كلامها اخترق المسافة الفاصلة بيننا بسرعة البرق وزلزلة الرعد...

«كنتُ أظنّ أنّ خطيبتكَ ووالدتها سترافقانكما كما في السابق...».

تدخّلتُ بسرعة:

«ستلحقان بنا عمّا قريب... وكذلك سامر... لا يمكنني ترك العمل أكثر مِنْ هذا».

ردّتْ أم حسام:

«وتريد منّي أنْ أترك ابنتي تسافر وتعيش هناك لوحدها معكَ؟؟ هل فقدتَ صوابكَ يا وليد؟؟».

ارتبكتُ واضطربَتْ كلُّ ذرّات كياني... تحوّل لوني إلى الأحمر وتفجّرتْ قطراتُ العرق على جسمي كلّه... حاولتُ النطق:

«خالتي...».

غير أنّها قاطعني بحدّة وقالتْ صارخةً في وجهي:

«كفى... هذا ما كان ينقصني... لمْ يبقَ إلا أنْ نترك ابنتنا تقيم بمفردها مع رجلٍ غريب... مَنْ تظنُّ نفسكَ يا وليد؟؟ كيف تجرؤ؟».

تسمّرتُ على وضعي مذهولاً... مكتوم النفَس طائر الفؤاد محملق العينين... لا أكاد أفهمْ ما أسمع...

«خـالـ... ما... ماذا... رجل غريب؟؟ أنا؟».

صاحتْ أم حسام بوجهي:

«نعم رجلٌ غريب... أتظنّ أنّ الوصاية على الفتاة تجعلك أباها حقاً؟؟ أفِقْ يا هذا... أمْ لأنّها فتاةٌ يتيمةٌ وحيدةٌ بلا حولٍ ولا قوّة تظنّ أنّه بإمكانكَ التصرُّف بشأنها كما يحلو لكَ وأنَّ أحداً لنْ يوقفكَ عند حدودكَ؟؟ اصح يا وليد... يا سيِّد وليد... يا مُحترم».

تلقّيتُ الكلام كصفعةٍ قويةٍ ناريةٍ على وجهي... النار كانتْ تشتعل في عينَي أمِّ حسام

وفي صدرها النافث بالصراخ... حملقتُ بها مذهولاً... غير واعٍ لما أسمع... ما الذي تقوله هذه المرأة؟؟

كان صدري لا يزال يحبس النفس الأخير الذي التقطه وسط النار... أطلقتُ نفسي باندفاعٍ وقوّة وهتفتُ:

«ما الذي تقولينه يا خالة؟».

الشرر كان يتطاير مِنْ عينيها، ومِنْ عينيّ تفجّر بركانٌ ثائرٌ مدمِّر...

«ما الذي تظنّينه بي؟؟ إنّني أنا وليد... ابن شاكر وندى... ولستُ إنتاج وتربية شوارع... أنا تقولين لي هذا الكلام؟؟ لقد تربَّيتُ بين أبنائكِ وتحت ناظريكِ... وكأنّكِ لا تعرفين مَنْ أكون؟؟ أمْ لأنّني دخلتُ السجن بضع سنين تظنّين أنّني خرجتُ منه فاسِقاً قذِراً لا يعرف حدوده ويتجرَّأ على حرمات الغير...؟؟ إنّها ابنة عمّي... دمي وعرضي وحرمتي أنا... والأمانة العظمى التي في عنقي... كيف تجرئين على الظنِّ بي هكذا؟؟ لنْ أغفر لكِ هذه الإهانة... أبداً».

وسرتُ مبتعداً عنها متَّجهاً إلى الباب... وفي طريقي اصطدمتُ بطاولة فما كان منِّي إلا أنْ رفعتُها وقلبتُها رأساً على عَقِب ورميتُ بها بقوّة بعيداً...

فتحتُ الباب بقوّة وصفعتُه بالجدار حتّى كُدتُ أكسرهما سويةً... ثمَّ خرجتُ بسرعة مغادراً المنزل... صادفتُ حسام عند البوابة... فدفعتُه بعيداً عن طريقي... ثمَّ ركبتُ سيارتي وانطلقتُ بأقصى سرعةٍ... نحو المطار...

- رغد -

ونحنُ نسير نحو غرفة المجلس سمعنا صوتَ انغلاق بابٍ قوي... اقشعرّتْ له الجدران والثريات!

ابنتا خالتي كانتا تتعاونان في حمل حقيبة سفري وأنا أسير بعكّازي حاملةً حقيبة يدي على كتفي إلى أنْ وصلنا إلى الباب. الاثنتان عانقتاني وودّعتاني وابتعدتا.

طرقتُ الباب الداخلي لغرفة المجلس بهدوء ثمَّ فتحتُه فتحة صغيرة وأطللتُ بعينيَّ في شوقٍ لرؤية وليد قلبي...

مسحتُ الغرفة بعينيّ طولاً وعرضاً وارتفاعاً... ولمْ أعثر عليه. لكنّي رأيتُ أحدى الطاولات مقلوبةً، والزهرية الزجاجيّة مكسورة على الأرض!

ورأيتُ خالتي تقف عند الباب الخارجي للمجلس، ثمَّ رأيتُ حسام يدخل وهو يسأل:

«ماذا حدث؟؟».

وسمعتُ خالتي تسأله:

«هل خرج؟».

قال حسام:

«ضربني بيده وخرج! ماذا حلَّ بهذا الرجل بحقِّ السماء؟».

قالتْ خالتي وهي تُغلق الباب وتقفله بعد دخول حسام:

«لا أعرف ممَّنْ ورث هذا المتعجرف غلظته! لا ياسر ولا شاكر رحمهما الله ولا سامر يحفظه الله فيهم شيء مِنَ الفظاظة... بلْ هُم في منتهى التهذيب واللطف والهدوء... أمّا هذا... أعوذ بالله! متوحِّش وأخرق... أُنظُر ماذا فعل؟».

وهي تُشير إلى الأرض والشظايا المبعثرة عليها. فتحتُ الباب على مصراعيه وتقدّمتُ إلى الداخل في قلقٍ وتساؤل... وأخذتُ أحدّق في خالتي وأسأل:

«ماذا حدث؟».

وكان وجه خالتي يتّقد احمراراً فرمقتْني بنظرةٍ صامتة ثمَّ انحنتْ إلى الأرض ترفع قطع الزهرية المكسورة.

عدتُ وسألتُ:

«أين وليد؟».

أجابتْ وهي لا تنظر إليَّ:

«غادر».

ماذا؟؟ غادر؟؟ ماذا تعنين بغادر؟؟

سألتُها:

«غادر؟؟».

قالتْ بغضب:

«نعم غادر... عسى ألاَّ يعود».

هتفتُ بقوّة:

«أعوذ بالله... لماذا خالتي؟؟... ماذا حصل؟؟».

قالتْ وهي ترفع نظرها إليَّ وتتكلّم بعصبية:

«إنّه مجنون... لا يعرف حدود نفسه... يظنّنا سنتركه يتصرَّف كيفما يريد... متسلِّط فظ وعنيف... مِنْ أين أتى بكلّ هذه العجرفة والوحشية؟».

حسام عقّب مباشرةً:

«مِنَ السجن قطعاً».

اشتططتُ غضباً وانفجرتُ بشدّة:

«لا تتحدّثا عن وليد كهذا... لا أسمح لكما...».

ثمَّ تقدّمتُ نحوهما وقلتُ:

«أخبراني ماذا حصل؟؟».

قال حسام:

«ألا ترين؟».

مشيراً للطاولة المقلوبة على الأرض... والزجاج المتناثر حولها. قلتُ:

«وليد فعل هذا؟».
ووجّهتُ خطابي لخالتي التي لا تزال جاثية على الأرض تلملم ما تبعثر...
«لكن لماذا؟؟ ماذا حدث؟؟ هل تشاجرتِ معه؟».
خالتي وضعتْ ما بيدها جانباً ووقفتْ وقالتْ:
«نعم تشاجرتُ معه... وغضب وصرخ في وجهي وقلب الدنيا رأساً على عقب وخرج ثائراً كالبركان».
قلتُ بسرعة:
«ماذا قلتِ له؟ هل أهنتِه ثانيةً؟؟ خالتي...!! إلى أين ذهب الآن؟».
ردّتْ بحدّة:
«إلى حيثما ذهب... بلا رجعة».
هتفتُ منفعلة:
«بعد ألف شر... خالتي لا تقولي هذا ثانيةً».
وعمدتُ إلى حقيبة يدي واستخرجتُ هاتفي واتصلتُ بهاتف وليد...
كان الهلع ينخر رأسي بشراسة وما إنْ رنَّ الهاتف حتى كان قد أتى على قواي الذهنية كاملةً. الهاتف رنَّ مرّة ثمّ أخرى ثمّ انقطع الاتصال. عاودتُ الاتصال فوجدتُ الهاتف مغلقاً. كرّرتُ الاتصال عدّة مرّات... الهاتف ظلَّ مغلقاً.
قلتُ أخاطب خالتي:
«أغلقَ هاتفه».
ثمّ سرتُ نحو هاتف المنزل الموضوع على منضدةٍ في الجوار واتّصلتُ برقم وليد مرّات أخرى... دون جدوى. قلتُ بعصبية:
«الهاتف مغلقٌ يا خالتي، ماذا قلتِ له؟».
خالتي تنهّدتْ ثمّ قالتْ:
«اعترضتُ على سفركِ معه».
صُدِمتُ... حملقتُ فيها وسألتُ:
«ماذا؟؟ لكن لماذا؟؟ تعرفين أنه آتٍ لأخذي فماذا تغيّر؟».
قالتْ خالتي وقد عاد الانفعال على وجهها:
«لنْ أسمحَ له بأخذكِ معه يا رغد... ستبقين معي وتحت عيني... سأضع حداً لجنون لهذا المتسلّط».
تركتْني خالتي في إعصار الحيرة والهلع واشتغلتْ بتنظيف وترتيب الطاولة وما حولها متجاهلةً تساؤلاتي... ممّا زادني يقيناً فوق اليقين بأنَّ ما حصل كان أمراً خطيراً...
«خالتي أرجوكِ أفهميني ما حدث؟؟ ماذا فعل؟ ماذا قلتِ له بالضبط؟؟ بالله عليكِ أخبريني».

وهذه المرّة حسام ساندني وقال:

«أخبرينا بما حدث تفصيلاً يا أمّي؟».

خالتي أفصحتْ أخيراً:

«تصوَّرا... كان يريد أخذ رغد بمفردها إلى بيته! دون خطيبته ولا والدتها...! يظنّ أنّ الوصاية كافيةٌ لتجعله مثل أبيها... يقيم معها بمفرده أينما يريد».

هتف حسام مستنكراً:

«ماذا ماذا؟؟ يقيم معها بمفرده هكذا... بكل بساطة؟؟ يا سلام! مَنْ يعتقد ذلك المعتوه نفسه؟؟».

خالتي قالتْ:

«وبكلِّ جرأة يخبرني بأنَّ خطيبته لنْ تسافر معه... بلا حياء ولا لياقة... ولمّا اعترضتُ ثارتْ ثائرته وزلزل المنزل... وقلب الطاولة... المجنون!».

تسمرتُ في مكاني مصعوقة بما أسمع... ثمَّ قلتُ:

«لكن... لكن... إنّه... إنّه الوصي عليَّ».

قالتْ خالتي بغضب:

«الوصيُّ عليكِ شيءٌ، وأنْ يقيم معكِ بمفردكما في بيته شيءٌ آخر...».

قلتُ مذهولةً:

«خالتي!! إنّه ابن عمِّي».

ردّتْ مقاطعةً:

«وحتّى لو كان ابني... أمجنونةٌ أنا كي أدعكِ تقيمين بمفردكِ مع رجلٍ غريب؟ حتى لو كان حسام أو أبا حسام... هذا ما كان ينقصنا».

قلتُ وأنا في ذهولي:

«ألا... تثقين به؟».

«أثق بِمَنْ؟؟ بهذا؟؟».

وهي تشير إلى عكّازي... ثمَّ أضافتْ:

«المتوحِّش المتعجرف خرِّيج السجون؟؟».

عندها صرختُ مِنْ أعماق قلبي:

«يكفي... يكفي... لا تتحدَّثي عنه هكذا... لا أسمح لكم بإهانته... لا أقبل أنْ تصفوه بهذا... أنتم لا تعرفون شيئاً... أنتم ظالمون».

والتقطتُ السماعة واتصلتُ مِنْ جديد، وللأسف كان هاتف وليد مغلقاً. أعدتُ الاتصال مرَّة ومرّتين ومئة... والهاتف لا يزال مغلقاً...

يا إلهي... وليد قلبي غاضبٌ ولا يريد الردَّ عليَّ؟؟

نظرتُ إلى الساعة... الوقت يمرُّ ومِنَ المفترض أنْ نكون في الطريق إلى المطار. اتّصلتُ بهاتف سامر ولمّا ردَّ عليَّ قلتُ باضطراب:

«هل وليد معكَ أو اتّصل بكَ؟؟».

استغرب سامر السؤال فسألني:

«لا! غادر قبل الظهيرة... أليسَ في المزرعة؟؟».

قلتُ بتوتُّر:

«كان هنا في بيت خالتي ليصطحبني إلى المطار، لكنَّه غادر مِنْ دوني... أتّصِلُ به ولكنّه مُغلِقٌ هاتفه. أرجوكَ حاولْ الاتصال بهِ وبالمزرعة واطلبْ مِنه مهاتفتي فوراً...».

سألني وقد تجلّى القلق في نبرته:

«هل حدث شيءٌ يا رغد؟؟».

نظرتُ نحو خالتي وأجبتُ:

«تشاجر مع خالتي... لكن أرجوكَ قُلْ له أنْ يتّصِل بي للضرورة».

صمَتَ سامر لحظةً ثمَّ قال:

«حسناً».

وأنهينا المكالمة وبقيتُ جالسةً على الجمر المتّقد أنتظر اتّصال سامر، فيما هاتف المنزل وهاتفي المحمول كلاهما في حضني... وعيناي محملقتان في ساعة يدي...

مرّتْ الدقائق تلحق بعضها بعضاً... والهاتفان لا يرنّان...

لمْ أطقْ صبراً حاولتُ الاتصال بوليد دون جدوى واتّصلتُ بسامر فقال أنّه لمْ يجده في المزرعة وأنَّ هاتفه المحمول مغلقٌ طوال الوقت.

في هذه اللحظة حضر زوج خالتي وعَلِمَ بما حصل وبدوره صار يحاول الاتصال بوليد عبر هاتفه بلا فائدة.

مضى الوقت... ولا مِنْ خبر مِنْ أو عن وليد...

نبضات قلبي آخذة في التباطؤ... أطرافي ترتجف خوفاً وقلقاً...

أنظاري متمركزة على الهاتفين وعلى الساعة... والآن لمْ تعدْ عيناي بقادرتين على الرؤية... الضباب كثيف... لا بل هي قطرات الندى... لا بل هي الدموع... تريد الانطلاق مِنْ محجريَّ...

وبعد ما يفوق الساعة... رنَّ هاتفي المحمول... نظرتُ إلى الشاشة فرأيتُ اسم سامر. أجبتُ بسرعة:

«نعم سامر هل كلَّمكَ؟؟».

قال:

«كلا... إنّني الآن عند باب المنزل».

«المنزل؟».

«أعني منزل خالتكِ... هل حسام هناك؟».

وطلبتُ مِنْ حسام الذهاب لاستقبال سامر. غادرتْ خالتي المجلس وعاد حسام مع سامر... والأخير بدأ بالتحية والسؤال عن الأحوال ثمَّ سألني مباشرة:

«ماذا حدث؟؟».

قلتُ بشكل غير مرتّب:

«خرجَ غاضباً... إنهّا خالتي... إنّه موعد إقلاع الطائرة... هل سافر بدوني؟؟».

رأى سامر اضطرابي فحاول تهدئتي ثمَّ قال:

«لنْ يفعل ذلكَ... لكن أخبريني ما الذي حدث بالضبط؟».

قلتُ منفعلة:

«خالتي تشاجرتْ معه... إنّهم يقسون عليه ولا يحترمونه ولا يثقون به».

أبو حسام قال مدافعاً:

«ليس الأمر كذلك لا سمح الله.. إنه ابننا مثل حسام ومثلكَ يا سامر ولكن أمّ حسام جُنّ جنونها مُذ رأتْ الفتاة بالعكّاز والجبيرة... تعرف كم تحب ابنة أختها وتقلق عليها ولا تريدها أنْ تبتعد عنها».

قلتُ بغضب:

«لكن لا ذنب لوليد فيما حصل لي... لماذا تنظرون إليه هكذا؟؟ إنَّه يعتني بي جيداً ويعاملني بكل احترام وحنان وأدب... وأنا لا أسمح... لا أسمح...».

وأخذتُ شهيقاً باكياً ثمَّ زفرتُ نفسي مع دموعي:

«لا أسمح لأحدٍ بأنْ يُهينه... ولا أقبل بأنْ ينعته أحد بالمجرم... أنتم كلُّكم قُساة... كلُّكم بلا مشاعر... كلّكم ظالمون».

انخرطتُ في بكاءٍ لمْ أبكِ بمثله أمام أحدٍ مسبقاً... غير نهلة...

الثلاثة؟.. سامر وحسام وأبوه التزموا الصمت للدقائق الأولى... ثمَّ تحدَّث سامر مخاطباً الآخرين:

«بعد إذنكما... هل لي بحديثٍ خاص مع ابنة عمّي؟».

وشعرتُ بهما يغادران... ثمَّ شعرتُ بسامر يقترب منِّي وسمعتُه يناديني. مسحتُ دموعي ونظرتُ إليه فقال:

«أفهِميني يا رغد... ما الذي يدور ها هنا؟؟».

قلتُ مقاطعة:

«هل تعتقد أنّه سافر؟».

سامر قال:

«لا. كيف سيسافر ويتركِكِ؟».

«إذنْ لماذا أقفل هاتفه؟؟ أُنظر إلى الساعة... لا شكَّ أنَّ الطائرة قد أقلعتْ منذ فترة...».

ولمعتْ في رأسي فكرةٌ فقلتُ:

«اتّصِلْ بالمطار واسألْ عنه».

وأنا أراقب سامر وهو مشغولٌ بطلب الرقم تلو الآخر... سمعتُه أخيراً يتحدَّثُ إلى الطرف الآخر باهتمام، ثمّ شكره وأغلق السمّاعة. نظر إليّ وعيناي متعلقتان به بلهفة... ثمَّ قال:

«يبدو... أنّه قد سافر بالفعل يا رغد».

«سافر؟!».

قال سامر:

«الموظّف أكّد لي أنَّ اسم وليد شاكر جليل... أُدرِجَ مع قائمة أسماء المسافرين الذين ركبوا الطائرة المتَّجهة إلى الجنوب».

نظرتُ إليه بتشتُّت... بضياع بعدم تركيز... بعدم تصديق... بانهيار...

«لا!».

سامر كان ينظر إليَّ بقلقٍ وخوف. قلتُ:

«وأنا؟؟».

لازال سامر ينظر إليَّ... والتعاطف ينبثق مِنْ نظراته...

«وأنا؟؟ ماذا عنّي أنا؟؟».

سامر قال:

«وليد لنْ يفعل شيئاً كهذا لسببٍ تافه... أخبريني ماذا حصل بالتفصيل يا رغد».

قلتُ وأنا أنهار:

«أخبروني بأنّه وصل... فأتيتُ إلى هنا ولمْ أجده... رحل فجأة... تشاجر مع خالتي خلال دقائق معدودة وغادر غاضباً... خالتي أهانتْه... عارضتْ سفري معه بدون الشقراء... لا بدّ أنّها رمتْه بألفاظٍ قاسية... إنّها تكرهه ولا تثق به... تعيّره بالمجرم... وتنعته بالمتوحّش وخرِّيج السجون... وكلمات جارحة ومُهينة... آه يا إلهي... وليد لا يستحق هذا...».

وأخفيتُ وجهي خلف يدي اليسرى مِنْ مرارة الموقف... وعصرتُ عينيّ دموعاً شجيّة... أحسستُ بشيءٍ يلامس يدي ففتحتُ عينيَّ ورأيتُ منديلاً تمدّه يد سامر نحوي.

«هوّني عليكِ يا رغد».

قال مواسياً. أخذتُ المنديل ومسحتُ دموعي ثمَّ قلتُ:

«ماذا أفعل الآن؟».

قال سامر مطمئناً:

«عندما يصل إلى المنزل سنهاتفه... لا بدّ أنّه كان غاضباً... لكنّه سيهدأ».

«هل تظن أنّه سيعود؟».

«بل أنا على يقينٍ مِنْ ذلك... اطمئنّي...».

ثمّ أطرق برأسه إلى الأرض وشرد قليلاً... ثمَّ قال:

«لمْ أكنْ أعلم بأنّهم يسيئون إلى أخي...».

نظرتُ إليه فإذا بالاستياء البالغ يعشّش على قسمات وجهه وإذا بكفيه ينقبضان بشدّة حنقاً...

نظر إليّ وألقى عليّ سؤالاً:

«أأنتِ مَنْ أخبرهم عن سجنه؟؟».

أطرقتُ برأسي... وأشرتُ نفياً... وكانتْ نظراتُ الاتهام تشعُّ في عينيه... وقبل أنْ أتكلّم سمعنا صوت خالتي تلقي بالتحية وهي تطلُّ علينا عند الباب. التفتنا إليها فإذا بها تُقبِل يتبعُها حسام يحمل صينية أكواب الشاي...

وبعد حوار سريع وسطحي سألتْ:

«هل ردّ عليكم؟».

قال سامر:

«ليس بعد فهو في الطائرة الآن».

«إذنْ فقد سافر».

ثمّ أضافتْ:

«رافقتْه السلامة».

لمْ أحتمل ذلك... هببتُ واقفةً هامّةً بالانصراف... فإذا بسامر يهبُّ واقفاً هو الآخر ويستأذن للمغادرة...

ناداه حسام:

«والشاي؟؟».

فردّ مقتضباً:

«في مناسبة أفضل».

وغادر المكان.

في الردهة... رأيتُ حقيبة سفري لا تزال واقفةً قرب الباب... تنتظرني... أشحتُ بوجهي بعيداً عنها فاستقبلتْني أعين ابنتَي خالتي اللتين تقفان على بعدٍ تراقبانني. وبعد عناق الأعين جاء دور عناق الأذرع والأحضان...

وليد قلبي... سافر ليس فقط مِنْ دوني... بل ودون وداعي... ودون أنْ يكلّمني... ودون أنْ تقع عيناي عليه ولو لنظرةٍ أخيرة...

- سامر -

تسع ساعات وأنا أحاول الاتصال بشقيقي مِنْ حينٍ لحين وبجميع الأرقام التي لدي دون نتيجة.

أخذَ القلق يتفاقم في صدري، خصوصاً وأنّ رغد تتّصل بي مراراً وتهوّل الأمر. حتّى أنّها

اقترحتْ عليّ مهاتفة صديقه سيف غير أنّني عارضتُ الفكرة وطلبتُ منها الانتظار حتّى صباح اليوم التالي.

وفي الصباح اتّصلتُ بهاتفه فوجدتُه لا يزال مُغلقاً، وبالمنزل فلمْ يجبني أحد، ثمّ بهواتفه المباشرة في مكتبه في مقرّ عمله، فأُخبِرتُ بأنّه لمْ يحضر وبأنّه قد اتّصل بهم قبل فترة وأبلغهم عن عودته مِنَ السفر. على الأقلّ أعرف الآن أنّه وصل إلى المدينة الساحلية بسلام.

اتصلتُ برغد وأخبرتُها بالجديد وكنتُ أظنّ أنّها سترتاح للخبر غير أنّها انزعجتْ وحزنتْ كثيراً. كان أخي قد قضى في شقّتي عدّة أيام وقد كانتْ أياماً جميلة أنعشتْ في صدري الذكريات الماضية التي لنْ تعود... الجميلة والمؤلمة معاً... وكان أشدّها إيلاماً هي ذكريات والدينا رحمهما الله.

لمْ تمضِ سنةٌ بعد على مصرعهما... والنار لا تزال تتأجّج في صدري... ولنْ تخمد أبداً...

وهو السبب الأول الذي كان يمنعني مِنَ العودة إلى المدينة الساحلية والعيش في بيتنا القديم المليء بالذكريات مع شقيقي الذي ما فتئ يطلب هذا منّي. أما الثاني فهو ولا شكّ رغد...

وفي هذه المرّة ألحَّ عليّ شقيقي للسفر معه وأبلغني بأنَّ خطيبته لنْ ترافقه وبأنّه لا يستطيع ترك رغد في بيت خالتها فهي بحاجة لمتابعة العلاج وكذلك الدراسة. وقد خطّطتُ جدياً للحاق به عمّا قريب، خصوصاً وأنا أرى أنّه مِنَ الأفضل لي الابتعاد عن هذه المدينة.

أثناء وجودي في مقر عملي في المدينة التجارية عاودتُ الاتصال بهاتف شقيقي وللمفاجأة كان مفتوحاً. رنّ عدّة مرّات قبل أنْ يجيب وليد أخيراً.

«السلام عليكم».

«مرحباً سامر... وعليكم السلام ورحمة الله».

وكان صوته منهكاً.

«كيف حالكَ؟ حمداً لله على سلامة الوصول».

«سلّمك الله».

يردّ بجملٍ قصيرة وعلى عجل.

«ما هذا يا وليد! ألف مرّة أتّصل بكَ وهاتفكَ مغلق؟».

«نعم. لقد تركتُه مغلقاً منذ الأمس».

«أقلقتَنا... ماذا حصل؟ هل أنتَ بخير؟».

«نعم... نعم».

«تبدو مشغولاً».

«أجل...».

«حسناً... سأتّصل لاحقاً... أرجوكَ لا تغلق الهاتف...».

«حسناً».

وأنهينا المكالمة ومباشرة هاتفتُ رغد وأخبرتها فأبلغتني بأنها ستتّصل به فوراً.

بعد قليل اتصلتْ بي وأخبرتْني بأنّ وليد لا يجيب. أبلغتُها بأنّه مشغول واقترحتُ عليها الاتصال بعد ساعة أو أكثر. واتصلتْ بي بعد ساعة ثمّ بعد ساعة أخرى تخبرني بأنها كلّما اتصلتْ بهاتف وليد وجدته مفتوحاً ولكنّه لا يجيب.

على هذا النحو مرَّ ذلك النهار وفي الليل اتَّصلتُ به ودار بيننا حديثٌ قصير، امتنع فيه وليد عن ذكر ما حصل يوم أمس... وأظهر لا مبالاة غريبة عندما حدّثته عن رغد.

باختصار... شقيقي كان غاضباً جداً مِنْ عائلة الخالة أم حسام بما فيهم رغد ولا يرغب في الإتيان بذكر أي منهم... على الإطلاق...

كان هذا غريباً لكن الأغرب... أنّه وبعد ثلاثة أيّام، بعث إليَّ بظرفٍ عبر البريد الجوّي الموثّق... يحوي وثائق هامّة... طلب منّي الاحتفاظ بها... وأخبرني بأنّه مسافرٌ إلى خارج البلدة للاستجمام...!!

الظرف كان يحوي تقريراً طبياً مفصّلاً عن إصابة رغد... وصوراً لبطاقته المدنية، والعائلية، ووثيقة كفالة رغد، وشيكاً مصرفياً بمبلغٍ كبير... وتوكيلاً مؤقتاً باسمي لأتولّى الوصاية على رغد... خلال الفترة التي سيقضيها في الخارج...

هكذا سافر وليد قبل أنْ يترك لنا المجال للاستيعاب...

ويمكنكم تصوّر وقع نبأٍ كهذا على الفتاة التي كانتْ تحترق رماداً مِنْ أجل مهاتفته. والتي تتلوّى شوقاً لعودته... وتتّصل بي عشرات المرّات مِنْ أجل السؤال عنه...

عندما رأيتُ ما حلّ بها... تقلّبتْ في مخليّتي ذكرياتٌ قديمةٌ أخرى... كانتْ مركونةً بإهمالٍ في إحدى نتوءات دماغي.

حدث ذلك قبل أكثر مِنْ عشر سنين عندما كنّا في المدينة الساحلية في بيتنا القديم. بعد أنْ غادر وليد المنزل، أُصيبتْ رغد بحالة افتقاد مَرَضية إليه... في تلك الفترة رفضتْ الذهاب إلى المدرسة وصارتْ تلازم والدتي كالظلّ حتّى في النوم وتراودها الكوابيس المفزعة وتصحو مِنَ النوم مفزوعة وتصرخ (أريد وليد... أريد وليد).

كانتْ أشبه بالمذعورة وقد أدخلناها للمستشفى بسبب رفضها للطعام وزاد الأمر سوءاً الحرب والتدمير الذي تعرّضتْ له مدينتنا وجعل الناس جميعاً يعيشون حالة ذعر هستيري. ومِنْ سيّء إلى أسوأ تدهورتْ حالتها حتّى قرّر والدي رحمه الله الهجرة إلى الشمال، الذي كان ينعم بأمان حتى العام الماضي.

ومنْ سيِّئ إلى أسوأ تدهورتْ نفسيّة رغد بعد سفر وليد المفاجئ هذا، ووجدتُ نفسي أُعاصر إحدى أسوأ الفترات العصيبة التي عاشتها مِنْ جديد...

- أروى -

منذ ذلك اليوم المشؤوم... الذي رحل فيه وليد بعد شجاره معي، ووالدتي طريحةُ الفراش في المستشفى والأطبّاء قرّروا إجراء عمليّة جراحية لقلبها المريض.

كان خالي يواظب على الاتصال بوليد الذي لمْ يكن يجيب، حتّى ردَّ وأبلغ خالي بأنّه مسافرٌ إلى خارج البلدة لبضعة أسابيع.

تدهورتْ صحّة والدتي أكثر لمّا علمتْ بالخبر مِنْ خالي... وها نحن نجلس إلى جانبَيها في غرفة العناية القلبية المركزة... والطبيب يبقي كمّامة الأوكسجين على وجهها ويمنعها عن بذل أي مجهود يُتعب قلبها.

أنا أمسِك بيدها أضمُّها إلى صدري وأقبّلها وأدعو الله أنْ يشفيها عاجلاً. التفتتْ والدتي إليَّ وسألتني:

«ألَمْ تتّصلي بزوجكِ؟».

فأجبتُها:

«لمْ أتّصل».

«ألمْ تبلغاه بأنني في المستشفى؟».

«بلى، أخبره خالي بذلك».

ونظرتُ إلى خالي الذي حرّك رأسه مؤيداً. فقالتْ أمّي:

«إذنْ لماذا لا يحضر لزيارتي؟ ليس مِنْ عادته التخلُّف في موقفٍ كهذا».

أجاب خالي:

«لأنّه مسافر بعيداً حالياً».

فنظرتْ إليَّ وشدّتْ على يدي وقالتْ:

«يا ابنتي... هل تخفين عنّي شيئاً؟».

فقلتُ:

«كلا».

ولكنّها بدتْ متشكّكة واستدارتْ إلى خالي وسألتْ:

«هل تخفون عنّي شيئاً يا أخي؟».

فقال خالي:

«كلاّ يا أمّ أروى. ماذا سنخفي عنكِ مثلاً؟».

فقالتْ:

«ربّما حصل شيءٌ... بعد ذاك الشجار... ربّما وليد نفّذ ما طلبتْه أروى... لا أريد أنْ أرحل وأنا غير مطمئنّة على ابنتي».

قرّبتُ رأسي مِنْ رأس أمي وأخذتُ أحضنها وأقبّلها وأقول:

«لا تقولي هذا يا أمّي أرجوكِ».

وهي تتابع:

«الأعمار بيد الله... نسأله حسن الخاتمة».

فلمْ أتمالكْ نفسي وفاضتْ الدموع في عينيّ... وقلتُ:

«أرجوكِ يا أمّي لا تتحدّثي هكذا.. شفاكِ الله ومدّ في عمركِ... أنا مَنْ لي غيركِ في هذه الدنيا؟».

وأحسستُ بيدها تمتدّ وتلامس يدي ثمّ سمعتُها تقول:

«لكِ زوجكِ... وخالكِ... يحفظكم الله».

ثمّ التفتتْ إلى خالي وقالتْ:

«أخي يا قرّة عيني... أحضِر وليد وصالحهما أصلح الله لكَ آخرتك... الشّاب جيِّد ومِنْ خيرة الرجال وأنا ما كدتُ أصدِّق أنّ الله بعث إليَّ مَنْ أستأمنه على ابنتي مهجة قلبي...».

خالي مسح على رأس أمّي وقال:

«لا تشغلي بالكِ بهذه الأمور يا أمّ أروى هداكِ الله... إنّه شجارٌ عابر يحصل بين أي زوجين وينتهي».

لكن أمي أبدتْ عدم التصديق وقلتْ مخاطبة خالي:

«لا تدعه يذهب يا إلياس... ما كان نديم ليطلب مِنْ شخصٍ عادي أنْ يهتم بعائلته».

ثمّ التفتتْ إليّ وقالتْ:

«لو لمْ يكن رجلاً بمعنى الكلمة... لما تمسّك بالمسؤولية على ابنة عمِّه اليتيمة بهذا القدر».

وشدّتْ على يدي وقالتْ:

«تمسّكي بهِ يا أروى... لا تفرِّطي به... يهديكِ الله».

- سامر -

حصلتُ على أقرب موعد ممكن مع أحد أطباء العظام في إحدى المستشفيات الكبيرة في المدينة الصناعية واليوم سآخذ رغد من أجل المعاينة ومتابعة العلاج.

استخرجتُ الظرف الذي أرسله لي شقيقي قبل سفره وقلّبتُ الأوراق لاستخراج التقرير الطبي. وأثناء ذلك أطّلعتُ على مجمل الأوراق وبشكل أخصّ على ورقة التوكيل. كانتْ ورقةً رسميةً وموثقةً مِنْ قبل مكتب المحامي يونس المنذر وهو شخصٌ سبق لوليد وأنْ أخبرني بأنّه يعمل معه في المصنع.

ذكر في هذا التوكيل أموراً كثيرة يفوّضني لتولّيها وفي الأسفل ذُكِرتْ جملة الاستثناءات. وفي الواقع لمْ يكن هناك غير استثناءين اثنين...

الزواج والسفر!

ويحكَ يا وليد!

وهل تظنّ مثلاً بأنني سأستخدم هذا التوكيل وأعيد رغد إلى ذمّتي وأهرب بها بعيداً؟؟

ليتَني... أستطيع ذلك...!!

أخذتُ أوراق التقرير الطبي وذهبتُ إلى بيت أبي حسام. تمنّيتُ أنْ أقابل رغد بحالةٍ أفضل ولكنها كانتْ بحالةٍ يُرثى لها.

«لا أريد أنْ أذهب إلى أي مكان... ومِن فضْلكَ يا سامر لا تضغط عليَّ...».

هذا ما استقبلتني به فقلتُ:

«بربّكِ رغد! لا بدّ مِنْ معاينة إصابتكِ ومتابعة علاجكِ. بل إنّني أخشى أنْ نكون قد تأخّرنا ويُصيب قدمكِ أو يدكِ شيءٌ لا قدّر الله».

قالتْ بلا مبالاة:

«لا فرق عندي».

لنْ أبذل الجهد في محاولة تشجيعها فنبرتها أشدّ كآبة مِنْ أنْ تتغلّب كلماتي عليها. لكنني قلتُ برجاء:

«يا رغد.. يجب أنْ نزور الطبيب حتّى تتخلّصي مِنْ هذا العكّاز وهذه الجبيرة... هل يعجبكِ أنْ تظلّي مُعاقة عن الحركة الطبيعيّة ومحتاجة لمساعدة الآخرين في أبسط الأشياء؟».

وكانتْ الآنسة نهلة تجلس معنا وسترافقنا إلى المستشفى، فقالتْ مشجّعة رغد:

«على العكس. إنها تريد التخلّص مِنْ هذين بسرعة. أليس كذلك؟ اشتاقتْ إلى الرسم ونتوق لفنّها الرائع! هيا بنا عزيزتي».

لكنّ ردّة فعل رغد جاءتْ عنيفة! انفجرتْ صارخةً:

«قلتُ لكما اتركاني وشأني... لا أريد الذهاب إلى أي مكان... إلا إذا شئتما حملي إلى المقبرة ودفني تحت الأرض... لأرتاح وأريحكم جميعاً...».

قالتْ الآنسة نهلة بعد الدهشة:

«بعد ألف شر! لا تتكلّمي هكذا يا رغد».

فردّتْ رغد بانفعال:

«ما لمْ يعجبكم كلامي فحلّوا عنّي... لماذا تضغطون عليَّ؟؟ أتركوني وشأني... أتركوني وشأني...».

وهمّتْ بمغادرة المجلس حيث كنّا هي وأنا والآنسة نهلة جالسين، في ذات الوقت الذي دخلتْ الخالة أمّ حسام وهي تنظر نحو رغد ويظهر أنها سمعتْ صوتها الصارخ وكلامها الزاجر. حين رأتْ رغد خالتها تصرّفتْ بعصبيّة أكبر وغيّرتْ اتجاه سيرها واستدارتْ نحو الباب الخارجي للمجلس وخرجتْ إلى الفناء.

أمّ حسام لحقتْها بسؤال:

«إلى أين يا رغد؟».

والأخيرة ردّتْ بحدّة:

«إلى حيث ألقتْ».

وهذه إجابة وبأسلوبٍ ونبرة لم أعهدها على رغد. فهي لطالما كانتْ تحبُّ خالتها وتعاملها بكل احترام ومودة كما وأنَّ رغد فتاةٌ مهذَّبة وهادئة الطباع وراقية الأسلوب. هذا تحوُّل كبير في شخصيتها صبغها به حزنها وغضبها بسبب سفر وليد.

وبعد أنْ انصرفتْ رغد خاطبتْني الخالة متسائلة:

«هل وافقتْ؟».

فأجبتُ إجابة مخيّبة:

«أبداً. لمْ تُعِرني أذناً صاغية. جلّ ما أخشاه هو أنْ تتطوّر إصابتها للأسوأ لا قدّر الله».

فقالتْ الخالة آسفةً:

«إنها لا تستمع إليَّ وترمقني بنظرات الاتّهام وتُشعرني بأنني ارتكبتُ جريمةً عظمى في حقّها. أيرضيكَ أنْ ندعها تسافر مع وليد بمفردهما؟؟ هل هذا يليق؟؟».

ولمْ أشأ فتح المجال لها لإدارة موضوعٍ هكذا الآن، وفي خاطري نقمةٌ على المعاملة السيئة التي عُومِل بها شقيقي مِنْ قِبَلها وآثرتُ أنْ أصرفَ الاهتمام إلى إصابة رغد فقلتُ:

«سألحق بها وأحاول إقناعها، على الأقل ولو بزيارةٍ واحدةٍ للطبيب الآن».

ونهضتُ واستأذنتُ وخرجتُ إلى الفناء أتعقَّب رغد، فوجدتُها تسير ببطء بعكازها متغلغلةً في الحديقة حتّى وقفتْ عند إحدى الأشجار الباسقة فاستندتْ إليها وأطلقتْ بصرها نحو الأعلى. توقّفتُ على بعد مترين أو أكثر منها ثمّ سألتُها:

«أتسمحين بأنْ أكلِّمكِ؟».

ردّتْ بضيق:

«أرجوكَ لا تتعبْ نفسكَ وتتعبني... لنْ أذهبَ إلى المستشفى ولا يهمُّني ما يحلُّ برجلي ولا بيدي... لنْ أخسر شيئاً إنْ فقدتهُما هما أيضا إزاء كل ما فقدتُ... ولنْ أعيش طويلاً لأفقد المزيد».

الحزن والكآبة بلغا بها لهذا الحد... ألمها يعصرني...

«أنتِ لمْ تخسري شيئاً يا رغد...».

فرمتْني بنظرةٍ قويّةٍ وقالتْ:

«ما حجم الخسارة التي تريدون منِّي فقدها حتّى يمكنكم رؤيتها؟؟ لا أم ولا أب ولا كافل ولا بيت ولا رجل ولا يد ولا مستقبل ولا شيء... ماذا تريدون أن أخسر أكثر؟؟».

رددتُ:

«لا أحد يريد لكِ خسارة شيء... رغد لا تنظري للأمر هكذا».

وضغطتُ على أعصابي وأضفتُ:

«إنّه سافر مؤقتاً ولمْ يرحلْ عن الدنيا لا سمح الله».

وأخذتْ تعبيرات وجهها تنهار شيئاً فشيئاً... وتابعتْ:

«وسيعود حتماً بإذن الله».

أطرقتْ برأسها وقالتْ نافية:

«لن يعود... لقد تخلَّى عنِّي... أخلفَ بوعده... إنّه دائماً يُخلف بوعوده... لطالما كان يتركني ويسافر بعيداً... يظنُّ أنني سأبقى حيَّةً لحين عودته ذات يوم... لا يعرف أنني سأموتُ عاجلاً بسببه».

عضضتُ على أسناني بمرارة وتحمّلتُ الألم وقلتُ:

«بعد ألف شرٍ وشر... لا تكوني متشائمةً هكذا... لقد أخبرني بأنَّه سيقضي بضعة أسابيع للاستجمام هناك ثمَّ سيعود».

قالتْ مصرّة:

«لنْ يعود إليَّ... ألمْ ينقل كفالتي إليكَ؟ تبرّأ مِنْ مسؤوليّتي... كما خطّطتْ الشقراء... انتهينا».

وكم ألمتُ لألمها وتجرّعتُ مرارتها. عقّبتُ:

«الوصاية التي أسندها إليَّ جزئيّة ومؤقّتة. لا تخشَيْ... ستعودين إلى كنفه ورعايته فور مجيئه».

ولكنّ رغد أومأتْ برأسها عدم التصديق وبأسى فقلتُ:

«بلى»... ولكن... هل أنا سيِّئٌ لهذا الحد؟؟».

هنا حملقتْ بي وانتبهتْ إلى أنّني سامر خطيبها السابق والذي يحبّها كثيراً. تبدّلت سحنة وجهها وقالتْ بصوتٍ كئيب:

«أنتَ... أعزّ إنسان على قلبي... سامحني...».

وكانتْ تقولها بمرارة وندم... وقد تكون اللحظة الأولى التي تكتشف فيها رغد كم قستْ عليَّ وجرحتْني وإلى أي عمق طعنتْ قلبي...

تابعتْ رغد:

«ليته لمْ يظهر في حياتي... ليتّني لمْ أقترب منه... كم أنا حمقاء... حمقاء وغبية وواهمة... أتعلّق بالأوهام... والخيالات المستحيلة... وواقعي... فتاة يتيمة وحيدة بائسة مُعدمة...».

وضربتْ بعكازها جدع الشجرة وتابعتْ:

«ومعاقة وعاجزة وعالة على الآخرين».

«كفى يا رغد... لا تصفي نفسكِ بهذا وأنتِ العزيزة الغالية المدلّلة وكلّنا رهن إشارتكِ».

لكنّها واصلتْ بكآبة:

«ما الذي كنتُ أتوقّعه لنفسي؟؟ البلهاء... ما الذي كان سيجعله يختارني؟؟ ما الذي لديَّ ويستحق العودة مِنْ أجله؟؟ ماذا أملكُ أنا ليعجبه؟؟ أنا لمْ أُثِرْ لديه إلا الإزعاج والقلق والمشاكل...».

وأضافتْ:

«وبعد كلّ هذا... تأتي خالتي وعائلتها ويهينونه في بيتهم وعلى مرأىً ومسمعٍ منّي... كيف أنتظرُ منه أنْ يعود مِنْ أجلي؟؟ يا لي مِنْ حمقاء... غبيّة».

قلتُ:

«هوّني عليكِ أرجوكِ... لِمَ كل هذا؟؟ بالله عليكِ... إنْ هي إلا فترة مؤقتة ويعود ونصلح الشروخ الحاصلة بين الجميع... ليس شقيقي مِنَ النوع الذي يهرب مِنَ المسؤوليات والشدائد بل هو أهلٌ لها».

فقالتْ منفعلة:

«إذنْ لماذا لا يردّ على اتصالاتي؟؟ لماذا قاطعني؟؟».

أجبتُ محاولاً تحسين الموقف وتبريره:

«تعرفين... إنه غاضبٌ ولا يحسِن المرء التصرّف في ثورة الغضب. عندما يهدأ سيتّصل بكِ».

«ما ذنبي أنا؟؟... لماذا يشملني في غضبه ومقاطعته؟».

«أُعذريه يا رغد... ربّما كانتْ خالتكِ بالغة القسوة عليه».

«كلّهم قساة... وليد أشرف وأرقى منهم جميعاً... سوف لنْ أغفر لهم إهانتهم له... وإذا لمْ يعدْ إليّ فسوف لنْ أبقى في هذا المنزل... وسأعود إلى بيتي المحروق وأدفنَ نفسي تحت أنقابه».

يتّضح لكم مدى الاكتئاب الذي ألمّ برغد جرّاء سفر وليد... لَمْ أفلح يومها في إقناعها بالذهاب إلى المستشفى وحين عدتُ إلى شقّتي هاتفتُ شقيقي وأبلغتُه عن هذا فوبّخي وألقى بالمسؤولية عليّ وقال لي بالحرف الواحد:

«أنتَ المسؤول عنها الآن ويجب أنْ تتصرّف ولا تدعْ عنادها يتغلّب عليكَ. أرحني مِنْ همِّها بضعة أسابيع' فأنا قرحتي تكاد تأكل أحشائي».

وفهمتُ مِنْ كلامه بأنَّ وضعه الصحي متدهور وقلقتُ كثيراً... وربّما يكون الطبيب هو مَنْ نصحه بالسفر والاستجمام بعيداً عن المشاكل والمسؤوليات مِنْ أجل صحّته، خصوصاً وأنني لاحظتُ إكثاره مِنْ تناول الأدوية خلال فترة مكوثه في شقّتي.

ولهذا تحاشيتُ في المكالمات التالية وقدر الإمكان إبلاغه بالتفاصيل المزعجة عن وضع رغد وادّعيتُ بأنها في تحسّن بينما هي على العكس...

إلى أنْ حلَّ يومٌ احتدّ الجدال فيه بين رغد وخالتها واتصلتْ بي هي بنفسها وطلبتْ منّي أخذها إلى المستشفى. لمْ يكن هدفها هو المستشفى بل الابتعاد عن خالتها.

زرنا الطبيب وعاينها واطلع على تقريرها الطبي وأجرى لها بعض الفحوصات ثمّ أخبرنا بأنّه لا يزال أمامها أسابيع أخرى قبل أنْ يمكنها الاستغناء عن الجبيرة والعكّاز.

وهذا الخبر لمْ يزد رغد إلا كآبة ما كان أغناها عنها، فانزوتْ على نفسها في غرفتها بقية

اليوم. اتّصلتُ بشقيقي مساءً وأعلمتُه بأننا زرنا الطبيب أخيراً وأخبرتُه بما قال، كما أوصاني مسبقا.. ولكنني أخفيتُ عنه مسألة الإحباط الشديد الذي ألمَّ برغد وطمأنتُه على صحّتها... وأذكر أنّه يومها سألني بتشكُّك:

«ألا تخفي عنّي شيئاً؟؟ هل حقاً تقبّلتْ النبأ؟».

فقلتُ له:

«اسألها بنفسكَ لتتأكّد!».

«سأفعل، في الوقت المناسب».

والله الأعلم متى يحين الوقت المناسب حسب معادلة وليد...!

ومرّتْ أيّامٌ أخرى... والحال كما هي. وليد غائبٌ ويتابع أخبار رغد عن بعدٍ ويرفض التحدّث معها أو مع أقاربها أو عن شجاره معهم، وهي في كآبة مستمرّة لا تعرف حتى البسمة السطحية إلى وجهها طريقاً... إلى أنْ طلبتْ مني الخالة أنْ أزورهم ذات مرّة...

«لا أفعل هذا إلا مِنْ أجل رغد... الفتاة تذبل يوماً بعد يوم وأخشى أنْ تموت بين يدي... معاملتها ونظراتها لي كلها اتهامٌ ونفور شديدين، وأنا لا أقوى على مواجهتها خشية أنْ يزداد الموقف حدّةً ولا أستطيع تحمُّل وضعها هذا. قلبي منفطرٌ عليها ويكاد الشعور بالذنب يمزّقني...

أريد أنْ نتصالح مع وليد لأجلها وأنْ أُفهِمه أنّني لمْ أقصد إهانته شخصياً بل توضيح حدود علاقته برغد... قلْ له أنْ يعود وإلا فإنها ستمرض إلى أنْ تموتُ...».

قلتُ وأنا أعلم كم يرفض وبشدّة الحديث عن أو مع عائلة الخالة:

«سأخبره عن رغبتكِ في محادثته حينما أتّصل به».

«اتّصِل بهِ الآن يا سامر رجاءً ودعني أكلّمه».

أحرجني الطلب فأذعنتُ له كارهاً واتصلتُ بشقيقي وبعد تبادل التحيات أخبرتُه بأنّني في منزل أبي حسام وأنّ الخالة أمّ حسام ترغب بشدّة في التحدُّث معه، وبدوره أيضاً وليد أحرجني جداً حيث قال:

«لا أرغب في التحدُّث مع أحدٍ يا سامر... البتّة... أرجوكَ أنْهِ المكالمة».

قلتُ ووجهي يحمرُّ حرجاً:

«ولكن...».

فقال:

«آسِف يا سامر سأغلق الهاتف. لا تكرّر هذا ثانيةً. اعذرني ومع السلامة».

وقطع الاتصال. أبعدتُ الهاتف عن أذني وعيناي تطئان الأرض خجلاً وأمّ حسام تراقبني ثمّ قالتْ:

«لمْ يقبل التكلّم معي أليس كذلك؟».

قلتُ محرجاً:

«إنّه... أعني...».

وطبعاً أمّ حسام فهمتْ الأمر. قالتْ مستنكرة:

«ولكن ما هذا الطبع في أخيكَ؟ يجب أنْ يكون أرحبَ صدراً وأوسع بالاً وأرقى ذوقاً مِنْ هذا».

في ذات اللحظة أقبلتْ رغد تدخل الغرفة سائرةً بعكّازها وعلى وجهها أمارات القلق والفضول... لا بدّ أنها كانتْ تنتظر المكالمة بصبرٍ نافذ... وبعد تحيّتي سألتْ عمّا إذا كنّا قد أفلحنا في الاتصال بوليد... فأطرقنا برأسينا... وفهمتْ رغد ما جرى... فطأطأتْ رأسها حزناً... وتراجعتْ للوراء...

أم حسام حاولتْ أنْ تطيّب خاطر رغد فقالتْ:

«لا يزال ناقماً عليَّ... سيبلّغه سامر اعتذاري ويطلب الصفح بالنيابة عنّي... لا أظنّه سيرفض اعتذاري هذه المرّة».

ولمْ تُعِر رغد الكلام أهميّةً، واستدارتْ يائسة. قالتْ أم حسام مخاطبةً إياي:

«أعد الاتصال به وأخبره بأنَّ رغد هي مَنْ يرغب بالحديث معه».

والتفتتْ إليَّ رغد... موقفي صار غاية في الحرج... واتصلتُ فلمْ يرد. وبقيتُ أنظار رغد وأم حسام تراقبان وتترقبان بأملٍ يائس... وضعتُ الهاتف أخيراً في جيبي وقلتُ:

«ربّما انشغل».

وهو مبرِّرٌ ندرك زيفه ثلاثتنا... أمّ حسام قالتْ:

«بل ربّما ينوي قطع الصلة بيننا نهائياً».

فالتفتتْ رغد إليها وتكلّمتْ منزعجة:

«يقطع صلته بنا؟ ماذا تعنين؟؟ كيف يقطع صلته بي أنا؟؟ إنّني ابنة عمّه... ومكفولته... لا يجوز له...».

قالتْ أم حسام:

«كما ترين، لا يريد أنْ يعطينا فرصة للتصالح معه بتاتاً... فبماذا تفسّرين هذا؟».

قالتْ رغد وقد علا صوتها واشتدّ احمرار وجهها واشتعل الغضب في عينيها:

«أنتِ السبب يا خالتي... أنتِ السبب».

ولمْ تعقّب الخالة فاستمرّتْ رغد في الاتهام:

«دفعتهِ لأنْ يتركني ويرحل... ماذا سيحلُّ بي الآن؟».

قالتْ أم حسام بلطف محاولة تهدئة رغد:

«ستسير حياتكِ طبيعية بيننا والله يغنينا عنه وعن وصايته... سريع الغضب عنيف الرد...».

وفي الواقع لمْ يكن يجدر بها قول هذا على مسامعنا، وفيما رغد على أهبّة الانفجار. اشتطّتْ رغد غضباً وانتفخ وريد جبينها وهتفتْ بعنف:

«قلتُ لكِ لا تتحدّثي عن وليد هكذا... إذا لمْ يكنْ يعني لكم أنتم شيئاً فأنا لا استغني عنه... ولا أريد وصياً غيره... وسألحق به أينما ذهب... ولا أحد له الحق في توجيه حياتي غيره هو... وليس لأنني يتيمة الأبوين ستعبثون بي كما تريدون... وإذا تخلّى وليد عنّي كلياً فسوف لن أبقى معكم... سوف لنْ أسامحكم أبداً لأنّكم أنتم السبب... وما لمْ تعيدوه إليَّ فسأخرج بنفسي للبحث عنه... عسى ألا أعود حيّةً بعد خروجي».

وسارتْ نحو الباب وغادرتْ ثائرة.

خيّم الصمتُ بيننا أنا والخالة لبعض الوقت ثمَّ إذا بها تقول:

«جُنّ جنونها!!».

وبقيتُ صامتاً... فواصلتْ:

«لمْ أكن أتوقّع أنها... لا تزال مولعةً به لهذا الحدّ... حتّى بعد كلّ تلك السنين».

أثارتْ الجملة جلّ اهتمامي وركّزتُ النظر إلى عيني الخالة يعلوني التساؤل... فقالتْ هي:

«عندما كانتْ صغيرة كانتْ مهووسةً به للغاية، حسبناه تعلُّق طفولي لطفلة يتيمة تبحث عن الحنان... وكان شقيقكَ يدلّلها ويصطحبها معه أينما ذهب. والدتكَ رحمها الله كانتْ قلقة بهذا الشأن، وكانتْ تعتقد أنّهما حين يكبران قد تتطوَّر علاقتهما... مع فارق السن... ولكن عندما غاب كل تلك السنين توقّعنا أنْ تكون قد نسِيتْه وانتهى كل شيء».

ثمَّ أضافتْ:

«لكن يبدو أنَّ الحنين إلى الماضي قد اجتاح كل عواطفها ولا أعرف... إنْ كان الآن يعني لها وليد السابق أمْ أنَّ الأمر قد تخطّى ذلكَ بمسافات...».

هنا وقفتُ شاعراً بالحرج والجرح معاً... ألهذا التعلُّق جذورٌ متّصلة بالماضي؟؟ أرسلني كلام الخالة إلى غياهب الأفكار...

لكن... ماذا عنّي أنا؟؟ لا يبدو أنَّ أحداً يكترث لمشاعري أو يقيم لها اعتباراً. يتحدّثون معي عن رغد وكأنها لمْ تكن خطيبتي لسنين ولمْ أكنْ قاب قوسين أو أدنى مِنَ الزواج منها حين فقدتُها فجأة.

«أستأذنكِ للانصراف الآن».

وذهبتُ إلى شقّتي كئيباً مكسور الخاطر، مشوّش الأفكار.

كلام خالتي ما فارقني، وما استطعتُ لا تقبّله ولا رفضه. كانتْ رغد طفلةً صغيرة فكيف يمكن أنْ تكون قد أحبّتْ وليد هذا النوع مِنَ الحب في ذاك الزمان؟؟

و... ماذا عن وليد؟؟ هل يُعقل أنَّ شيئاً ما... كان بينهما حقاً؟؟ هل يمكن أنْ يكون وليد... هل يمكن أنْ يكون هو أيضا...؟؟؟

يا للسخف...!!!

تحاشيتُ التفكير قدر ما أمكنني إلى أنْ اتصلتُ بأخي لاحقاً. في البداية عاتبتُه على

إحراجي مع أمّ حسام فلمْ يكترث، ثمّ نقلتُ إليه تحيّات رغد وأشواقها الشديدة إليه وأنا أدوس على قلبي وأتصرّف كالرجل الآلي تماماً... ودققتُ في كلامه وردوده جيّداً باحثاً عن أي دليل يؤدي إلى تأكيد أفكاري أو نفيها... غير أنّ أخي كان يتحدّث ببلادة شديدة... لمْ تكشف لي شيئاً...

وأخيراً... داهمتْني رغبة ملحّة في توجيه سؤالٍ مباشرٍ إليه... غير أنّه قال فجأة أنّه يتلقّى اتصالاً آخر وانتهى المكالمة فوراً. قرّرتُ بعد ذلك مواجهته في الاتصال التالي لتتضح حقائق الأمور...

ولكن... وفي اليوم التالي مباشرةً وفيما كنتُ أجلس في شقتي بكسلٍ في عطلتي الأسبوعية رنَّ جرس الباب وإذا بي أُفاجأ بأخي يقف خلفه!!!

اهتزّ قلبي قلقاً واصفرّ لوني وسألتُ وأنا بالكاد أُخرِج الحروف صحيحةً مِنْ فمي:

«وليد!!!... مـ.. ماذا حصل؟؟».

فمدّ وليد يده وربَّتَ على كتفي وقال والخشوع والحزن يكسوان وجهه العريض:

«البقاء لله... توفّيتْ خالتي أم أروى بالأمس... إنا لله وإنّا إليه راجعون».

الحلقة السادسة والأربعون

عُدْ إليّ

- رغد -

انقضتْ فترة العزاء وقد شاركتُ في التعزية مع بقيّة أفراد عائلة خالتي، وعندما جاء دوري ووقفتُ أمام الشقراء لأواسيها لمْ أستطع مصافحتها بسبب يدي المصابة واكتفيتُ بعبارة مخنوقة خرجتْ مِنْ فمي ببطء. والشقراء بدورها ردّتْ بشكلٍ عابرٍ دون أنْ ترفع نظرها إليّ. لكن الحزن كان جلياً على وجهها.

السيدة ليندا كانتْ سيّدةً طيّبةً جداً. أحسنتْ معاملتي وسهرتْ إلى جانبي في المستشفى ورعتْني بكل مودّة ولطف... رحمها الله... وغفر خطاياها...

متى سيحين أجَلي أنا أيضاً؟؟...

انتظر الموت... ليأخذني كما أخذ أحبابي... ويخرجني مِنْ شقاء الدنايا وما فيها...

كنتُ أعرف أنّ وليد موجود في القسم الآخر مِنْ قاعة التعازي... وكنتُ أعرف أنّه أبعد ما يكون عن التفكير بي في هذه الفترة... لكنني كنتُ في شوقٍ منجرفٍ لرؤيته ولو لدقيقةٍ واحدة... ولو لنظرةٍ بعيدةٍ عاجلة... أعانق فيها عينيه ولو لآخر مرّة في حياتي...

ولخيبة الأمل وتحالف الأقدار ضدّي، عُدنا إلى المنزل دون أنْ ألتقي به ولا حتّى صدفة.

ومرّتْ الأيام... ونخر الشوق عظامي... وأتلف الحنين ذهني... ولمْ أعد بقادرة على الانتظار يوماً آخر... كيف... وأنا أعرف أنّ ما يفصلني عنه هي أميال قليلة لا أكثر...؟؟ وإنْ هو لم يأتِ إليّ... فسأذهب أنا إليه... فقط لألقي نظرة...

«هل أنتِ مجنونة!؟».

قالتْ نهلة معترضةً على فكرتي وليدة اللحظة، فقلتُ:

«نعم مجنونة... لكنّي أريد أنْ أراه بأي شكلٍ يا نهلة.. ما كدتُ أصدّق أنّه عاد مِنْ سفره... يجب أنْ أراه... أكاد أختنق... لا أحد يحسّ بي هنا».

«تخيّلي كم سيكون وضعكِ حرِجاً ومدعاة للسخرية عندما تذهبين فجأة إلى المزرعة الآن... هيّا رغد.. تخلّي عن هذه الفكرة السخيفة. توفّيتْ أمُّ زوجته قبل أيّام وأنتِ تفكرين في هذا؟؟».

«سألقي عليه التحيّة وأعتذر منه وأعود. حتّى لو لمْ يردْ عليّ... المهم أنْ تكتحل عيناي برؤيته... ويبرد صدري بتقديم الاعتذار...».

«ماذا سيقول عنكِ يا رغد؟؟ هُوَ في محنةٍ عظيمة وأنتِ تذهبين لتقديم الاعتذار! سيستحقر موقفكِ... ليس هذا وقته... انتظري أسبوعين على الأقل».

«لا أقوى على الانتظار... ألا تفهمين؟؟ أنتِ لا تشعرين بالنار المضرمة في صدري...».
أشاحتْ نهلة بوجهها عنّي وقالتْ:
«لقد حذّرتكِ... افعلي ما تشائين».
وغادرتْ المكان...
خرجتُ بعد ذلك إلى الحديقة... طلباً لبعض الهواء النقي... والتقيتُ بحسام صدفةً وهو مقبلٌ نحو المنزل... فلمعتْ الفكرة في بالي كمصباحٍ قوي أعشى عيني عنْ رؤية ما هو أعمق مِنْ ذلك...
«مرحبا حسام».
حييتُه فر د مبتسماً:
«مرحباً رغد.. ماذا تفعلين هنا؟؟ تدرّبين رجلكِ على المشي؟؟».
قلتُ وآمالي تتعلّق به:
«حسام... هل لا أسديتَ لي معروفاً؟».
قال وعلى وجهه الاستغراب:
«بكل سرور!».
فقلتُ بلهفة:
«أريدكَ أنْ... أنْ تصطحبني في مشوار...».
«إلى أين؟».
ازدردتُ ريقي وقلتُ:
«إلى... مزرعة أروى».
سأل متعجّباً:
«مزرعة أروى؟؟».
«نعم.. أرجوكَ».
ففكّر قليلا ثمّ سألَ:
«لماذا؟؟».
تردّدتُ في الإجابة... عرفتُ أنّني لو قلتُ مِنْ أجل مقابلة وليد فإنّه لن يوافق... فقلتُ:
«سأتفقّد أحوالهم... وأُلقي التحيّة».
وبدا مبرراً معقولاً بعد مضي عدّة أيام على وفاة السيدة ليندا. وسألني إنْ كنتُ قد أعلمتُ خالتي بهذا فأقنعتُه بأنّ الأمر لا يستدعي... وبعد تردّد قصير وافق على اصطحابي، وخرجنا مباشرة...
حين بلغنا المزرعة لمْ يكن وليد موجوداً وأخبرنا العجوز والذي كان يجلس كعادته قرب باب المنزل بأنّ وليد قد ذهب في مشوار وسيعود قريباً. ودعانا للدخول لكنّنا آثرنا البقاء في الخارج وانتظاره. وذهب العجوز لاستدعاء الشقراء فعلاني التوتّر... أنا لمْ آتِ مِنْ أجلها كما

أنّها لا تنتظر منّي زيارتها... لكنّي وضعتُ نفسي في هذا الموقف وعليّ التصرف الآن...

أبدى حسام إعجابه بالمزرعة وراح يتحدّث عن انبهاره بما يرى غير أنّني لمْ أكنْ مصغية إليه... بل في انتظار لحظة ظهور الشقراء.

وأخيراً ظهرتْ...

ملفوفة في السواد الحزين، كما هي حالي... وكأنّ عدوى اليُتم والبؤس قد انتقلتْ منّي إليها... وقد اعتدْتُ في الماضي رؤيتها ملوّنة بشتّى ألوان قوس قزح... مثل سربٍ مِنَ الفراشات أو إكليلٍ مِنَ الزهور...

عندما اقتربتْ زممتُ شفتيّ تردداً ثمّ ألقيتُ عليها التحيّة وسألتُها عن أحوالها... وأنا متأكّدة مِنْ أنّها تدرك أنّني لمْ أكنْ لأقلق على أحوالها أو أكترث لها... ولا بد أنّها تدرك أنّ سبب حضوري هو... وليد...

ساعد وجود حسام في تلطيف الجو... وتشتيت الكآبة وصرف أذهاننا إلى الحديث عن المزرعة وشؤونها...

ذهبتْ الشقراء لإعداد القهوة فوجدتُها فرصةً للاسترخاء مِنْ عناء الموقف المُصطنع... وبقي حسام والعجوز يتحدّثان أحاديث عاديّة... أمّا أنا فعيناي ظلّتا تراقبان البوّابة إلى أنْ رأيتُ أخيراً سيارةً تقف عندها ومنها يخرج مجموعةٌ مِنَ الرجال... يقودهم الرجل الطويل العريض... بهي الطلعة قوي القسمات ثاقب النظرات... مُضرِم ناري وحارِق جفوني وسالِب عقلي وشاغل تفكيري... حبيبي الجافي... وليد قلبي...

الأرض لمْ تكن أرضاً والسماء لمْ تكن سماءً... حين عانقتْ عيناي عينيه... والتحمتْ نظراتي بنظراته...

آه... كيف لي أنْ أصف لكم؟؟

لحظتها خلا الكون مِنْ كل الخلائق... سوانا... لا وجود للأرض ولا السماء... ولا النور ولا الهواء... ولا الجماد ولا الأحياء... فقط... أنا وهو... وعيون أربع متشابكة متلاحمة... ذائبة في بحور بعضها البعض... أيّما ذوبان...

وليد قلبي... آه... كم اشتقتُ إليكَ... لولا إعاقتي... لربّما... ركضتُ إليه بجنون وغطستُ في حضنه الواسع...

اقترب وليد يتقدّم بقيّة الرجال فوقفنا جميعاً... ورأيتُ الدهشة تنبثق في وجهه وهو يحطّ ببصره الهابط مِنَ العُلا عليّ وعلى حسام.

بادر حسام بإلقاء التحيّة فردّ وليد دون أنْ يحاول إخفاء عجبه... ودوى صوتُه في كهف أُذني فتطايرتْ خفافيش حسّي تلتقِط وتحتضِن ذبذبات صوته وتخبّئها في أعماق الكهف... ككنزٍ مِنَ الذهب...

بعد التحيات السريعة استأذن وليد وسار مع الرجال إلى قلب المزرعة ولحق العجوز بهم... ولحقتْ بهم عيناي ركضاً... وهوَتا متعثّرتين لهفةً عند مفترق الطرق...

وبعد قليل عاد وليد فتسابقتا لاحتضانه بسرعة... تكاد الواحدة تفقأ الأخرى... لتنفرد بالحبيب الغائب... وتذوب في أعماق صدره...

وليد كان وجهُه محمراً ويعلوه الاستياء فوق التعجّب... انغمستُ في ترجمة تعبيرات وجهه وطلاسم عينيه... فتهتُ... وضللتُ طريقي... وفقدتُ لغة لساني... فما استطعت النطق ولا التعبير...

وقفتُ أشبه بشجيرة ضئيلة لا جذع لها تمدُّ أغصانها محاولةً تسلُّق الشجرة الضخمة الواقفة أمامها... بكل شموخ وإباء...

لاحظ حسام صمتي وتوتّري فتولّى الكلام:

«جئنا نلقي التحية ونسأل عن الأخبار».

ولمْ يتحدّث وليد... فقال حسام متظاهراً بالمرح:

«ألن تدعونا للجلوس؟».

فتكلّم وليد قائلاً:

«أأنتما بمفردكما؟».

فأجاب حسام بعفويّة:

«نعم».

وازداد الاستياء على وجه وليد... ثمَّ قال:

«منذ متى وأنتما هنا؟».

فردَّ حسام مستغرباً:

«منذ دقائق... ولكن... هل يزعجكم حضورنا؟».

قال وليد:

«أنا آسِف، لديَّ ما أقوم به الآن... إنّهم في انتظاري».

مشيراً إلى قلب المزرعة.

كل هذا وعيناي ملتحمتان بوجهه منذ أنْ وقعتا عليه أوّل وصوله... لكن...

ماذا يا وليد؟؟ ألنْ تتحدّث معي... وتسأل عن أحوالي...؟؟ إنّكَ حتّى لا تنظر إليَّ... أنا هنا وليد هل تراني؟؟ هل تميّزني؟؟ لماذا كل هذا الجفاء؟؟ أرجوكَ... التفِتْ إليَّ لحظةً... دعْ عينيَّ تخبرانك كم اشتقتُ إليكَ... دعهما تعاتبانكَ على جفائكَ... أو تعتذران لإرضائكَ... وليد... أنّك حتّى... لمْ تُحسِن الترحيب بنا كأي ضيوف...

انتبهتُ على صوت حسام يقول:

«لا بأس... نعتذر على الزيارة المفاجئة... كانتْ فكرة رغد».

ولذكر اسمي... أخيراً تكرّم عليَّ وليد بنظرة... لكنها لمْ تكن أي نظرة... كانتْ حادة وساخنة جداً لسعتْني وكادتْ تفقدني البصر...

حاولتُ التفوّه بكلمة فلم تُسعفني شجاعتي المنهارة بمرأى الحبيب... تأتأتُ ببعض

الحروف التي لمْ أسمعها حتّى أنا...

التفتَ حسام إليَّ وقال:

«هل نذهب؟».

نذهب..؟؟ وهل أتينا؟؟ هكذا بهذه السرعة؟؟ أنا لمْ أكد أره... انتظِر... أنا لديَّ عشرات بل آلاف المشاعر لأعبّر عنها... دعني استردُّ أنفاسي... دعْ لساني يسترجع قدرته على النطق... دعني واقفةً قرب وليد استمدُّ دعمه واستشعر حنانه!

قال وليد وهو يشيح بوجهه عنّي:

«سأرافقكما».

فقال حسام معتقداً أنَّ وليد يقصد مرافقتنا إلى السيارة المركونة في الخارج:

«لا تكلِّف نفسكَ... نعرف الطريق... شكراً».

فازداد احمرار وجه وليد وقال:

«أعني إلى المنزل».

فضرَبْنا الاستغراب... ونظرنا أنا وحسام إلى بعضنا البعض!! لماذا يريد وليد مرافقتنا إلى المنزل؟؟ هل هذا يعني أنّه... سيأتي معنا؟؟ هل حقا سيأتي معنا..؟؟

«هيّا فأنا لا أريد التأخّر على ضيوفي».

قال هذا وسار يسبقنا نحو سيارة حسام، وسرنا خلفه كتلميذين مطيعين... وأبلهين... حتّى ركبنا السيارة، والتي بالكاد حشر وليد جسده فيها... وانطلقنا عائدين إلى منزل خالتي.

كنتُ أجلسُ خلف حسام، إذ أنَّ وليد كان قد دفع بمقعده إلى الوراء لأقصى حد ليمدّ رجليه... فسيارة حسام صغيرةٌ جداً...

الصمت خيّم علينا طوال الطريق... الذي انقضى وأنا أحاول تهدئة نبضات قلبي وإعادتها إلى معدّل سرعتها الطبيعي... ولمْ يقطع الصمت غير جملٍ قصيرةٍ عابرةٍ مِنْ لسان حسام... وجملة («خفِّفْ السرعة») مِنْ لسان وليد... فقاد حسام السيارة بسرعةٍ عاديةٍ على عكس عادته... وطال المشوار... خصوصاً وأنّنا اضطررنا للتوقّف مرّتين عند مركزَي تفتيش بوليسي...

وفي كلا المرّتين يطلب رجال الشرطة رخصة القيادة والبطاقات الشخصيّة... ولحسن الحظ أو ربّما لحسن العادة كان وليد يحمل صورة مِنْ بطاقته العائلية والتي تشمل هويّتي... لذلك قال وليد بعدما غادرنا نقطة التفتيش الثانية مخاطباً حسام:

«ماذا لو لمْ أرافقكما؟».

فقال حسام:

«لمْ نواجه أي نقاط تفتيش في طريق الحضور».

عندما وصلنا إلى المنزل هبط وليد مِنَ السيارة أولاً وتبعناه...

قال حسام:

«تفضّل».

داعياً إياه للدخول إلى المنزل مِنْ باب اللياقة... غير أنّ وليد قال:

«شكراً، سأعود إلى ضيوفي».

فقال حسام:

«هل... أوصلكَ؟».

فأجاب وليد:

«سأتدبّر أمري».

ثمَّ فجأة أدار وجهه نحوي وسمعتُه يقول:

«في المرّة القادمة إذا أردتِ الذهاب إلى أيّ مكان فاطلبي ذلكَ مِنْ سامر فقط... مفهوم؟».

هل هو يخاطبني؟؟

هل يعنيني أنا؟؟

هل ينظر إليّ أنا؟؟

كان حسام يوشك على فتح بوّابة المنزل ولمّا سمع هذا استدار ونظر إلى وليد وقال مستاءً:

«وهل تظن أنّني سأختطفها؟ إنّها ابنة خالتي كما هي ابنة عمّكَ».

وبدا أنَّ الجملة قد استفزّتْ وليد فقال غاضباً:

«أنا لمْ أخاطبكَ أنتَ... هذا أولاً...، أمّا ثانياً فلا تقارن نفسكَ بي... إنّني الوصي هنا ومَنْ يقرّر مع مَنْ أسمح أو لا أسمح لابنة عمّي بركوب السيارة».

شعر حسام بالإهانة فقال حانقاً:

«هكذا..؟؟.. مَنْ تظنُّ نفسكَ؟».

فردّ وليد:

«لا أظنُّ نفسي بل أنا على يقين ممّنْ أكون... وإذا سمحتَ... افتح الباب ودعْ الفتاة تدخل عوضاً عن الوقوف في الشارع هكذا».

هُنا... اجتاحتني شجاعةٌ مفاجئةٌ فتدخّلتُ ناطقةً أخيراً:

«وليد أنا...».

وقاطعني وليد فجأة قائلاً بفظاظة:

«ادخلي».

نظرتُ إليه شاعرةً بالانكسار... وليد... كيف تخاطبني هكذا؟؟ وليد هل نسيتَ مَنْ أكون؟؟ لماذا تغيّرتَ إلى هذه الدرجة؟؟ دعني أتحدّث...

وأصررتُ على النطق... أريد أنْ أُفهِم وليد لماذا ذهبنا إلى المزرعة وما مقدار لهفتي إليه... وحاجتي للتحدّث معه...

«وليد...».

نطقتُ باسمه فإذا بِهِ يقاطعني مكرّرا بفظاظةٍ أشد وهو يعضُّ على أسنانه ويبثُّ الشرر

مِنْ عينيه:

«قلتُ إلى الداخل... هيّا».

انكمشتُ على نفسي... تقلّصتُ حتى أوشكتُ على الاختفاء... مِنْ رد وليد. حسام فتح الباب وقال بصوتٍ خافت:

«ادخلي يا رغد».

فدخلتُ خطوة، وتوقّفتُ عند فتحة الباب وانقلبتُ على عقبي ورأيتُ وليد يولي ظهره إلينا ويسير مبتعداً...

اقترب حسام ووقف أمامي مباشرةً حائلاً دون رؤية وليد... فتراجعتُ للوراء ودخلنا إلى الداخل... وأغلقَ هو البوابة وسار مبتعداً وبقيتْ عيناي معلقين على البوابة... تنتظران أنْ يعود وليد للظهور... لكنه لمْ يظهر...

«ما الأمر يا رغد؟».

سمعتُ حسام يسألني وهو يسير نحو باب المنزل الداخلي ويراني واقفةً عند بوابة السور أحملِق فيها... نظرتُ إليه فرأى تعبيرات الأسى المريرة على وجهي... فأقبل نحوي وأظهر التعاطف قال:

«إنّه... لا يكترِث بكِ يا رغد».

نظرتُ إليه والعبرة تكاد تخنقني... فقال:

«لا أعرف ما الذي يعجبكِ في رجلٍ كهذا؟ إنكِ تضيعين مشاعركِ هباءً».

صُعِقتُ... أخذتْني الدهشة مِنْ كلام حسام... الذي واصلَ وهو يرى سحنتي تتغيّر:

«أتظنين أنّني لا أعرف أنّكِ تحبينه؟ أنا أعرف يا رغد».

وتضاعف ذهولي وحملقتُ به غير مصدّقة لِما أسمع. قال حسام:

«سارة لفتتْ انتباهي لهذا ذات مرّة... والآن تصرفاتكِ كلّها فاضحة...».

ما زلتُ أحملق فيه بذهول... عاجزةً عن التعليق. تابع هو:

«لكنني لنْ أقفَ مكتوفَ اليدين يا رغد... سبق وأنْ وافقتِ على الزواج منّي... وهي الآن مسألة وقت... إيّاكِ والتلاعب معي... إيّاكِ...».

وأشار إليَّ بسبّابتهِ مهدّداً... ثمَّ استدار وواصل طريقه داخلاً إلى المنزل...

- سامر -

أمّا وليد فعندما جاء لزيارتي في شقّتي... أخبرني عمّا حصل ووبّخني بشدّة وأثارَ معي شجاراً حامياً...

«لقد كلّفتكَ أنتَ وأعني أنتَ... بأنْ تهتمّ بشؤونها في غيابي... فلماذا تدعُها تخرجُ مع حسام في سيارته مهما كان المشوار؟؟».

قلتُ مستنكرا:

«يا وليد! أنتَ تتكلّم عن حسام وكأنّه شخصٌ غريبٌ... إنّه ابن خالتها ومثل أخيها ومثلي ومثلك تماماً ولطالما كان يصطحبُها سابقاً في المشاوير إذا اقتضى الأمر... ليس لها ملجأ غيره وغيرنا ولذلك هي تعتمد عليه...».

غضب أخي كثيراً وقال صارخاً:

«كان ذلك في السابق... في عهد أبي رحمه الله... لكن أنا لا أسمح لها بالخروج معه... وفي عهدي أنا يجب عليها أنْ تلتزم بما أقوله أنا».

قلتُ مستاءً وساخراً:

«لكنّك لمْ توصِني بألا أسمح لها بالخروج معه... ولمْ تذكر أسماء المسموح لهم في توكيلكَ السامي ذاك».

فاشتطّ أخي غضباً وضربَ الجدار بيده فجاءتْ ضربته على لوحة معلّقة وأوشكَ أنْ يكسرها... وللعلم فإنّ لشقيقي هذا قبضة فتّاكة جرّبتها أكثر مِنْ مرّة...

ولا تزال أمامي تجارب أخرى... كما سترون...

أثار غضبه شيئاً مِنَ الروع في نفسي وإذا به يزمجر:

«أنا لا أمزح هنا يا سامر... أُحَذّْركَ بمنتهى الجدّية والمسؤولية... فلا تستفزّني...».

فقلتُ مدافعاً:

«وما أدراني أنا أنَّ هذا سيغضبكَ وإلى هذا الحد؟ لماذا لمْ تنبّهني مسبقاً؟».

«هي تعرف هذا جيداً وسبق وأنْ حذّرتها.. مراراً وتكراراً... لكنّها تضرب بكلامي عرض الحائط... قُلْ لها... أنْ تتوقّف عن عنادها هذا وإلا...».

وهو يشير بسبّابته نحوي مهدّدا... فهتفتُ معترضاً:

«وإلا ماذا يا وليد؟؟».

ولمْ يردْ وكأنّه لا يجرؤ على النطق بما يدور بخلده مِنْ شدّة فظاعته... فأعدتُ السؤال:

«وإلاّ ماذا بعد؟ لماذا كل هذه القسوة والصرامة في معاملتها؟».

ردّ أخي بحدّة:

«أعاملها كيفما يحلو لي».

«كلاّ... كلا يا أخي ليس كما يحلو لكَ... أنتَ قاسٍ وفظٌّ للغاية... وتصبُّ جام غضبكَ على مَنْ لا ذنب لهم في الإساءة إليكَ... رغد كانتْ مستميتة لأجل لقائِكَ أو التحدُّث معكَ والاعتذار لكَ على خطأٍ لمْ تقترفه هي مِنْ أجل تطييب خاطركَ، وأنتَ عاملتّها بمنتهى الغلظة والرعونة... معاملة لا يتحمّلها رجلٌ شديد فكيف بفتاةٍ رقيقة؟؟».

هتف وليد بغضب:

«سامر!».

فقلتُ مسترسلاً:

«نعم يا وليد... أزلْ الغشاوة عنْ عينيكَ... وميِّزْ مع مَنْ تتعامل... إنها فتاةٌ حسّاسة ولا يليق بكَ أنْ تعاملها كهذا».

وعوضاً عنْ أنْ تثير كلماتي الندم وتأنيب الضمير في نفس شقيقي، إذا بي أراه ينظر إليَّ والشرر يتطاير مِنْ عينيه ويقول:

«وهل ستعلّمني كيف أعامل فتاتي؟».

أذهلتْني كلمة وليد هذه وحملقتُ به متفحِّصاً... وقفزتْ كلمات خالتي أم حسام إلى رأسي... قلتُ:

«فتاتك؟؟».

ورأيتُ تعبيرات وجه أخي تتغيّر... وكأنّه انتبه للتو للكلمة... فقال محاولاً تغيير أو تصحيح المعنى:

«الفتاة التي تحت وصايتي أنا».

وأضاف ليصرف الانتباه عن الكلمة:

«وما دامتْ تحت وصايتي أنا فأنا مَنْ يحدِّد ويقرِّر كل شيء يخصُّها... ولا أسمح لأحد بالتدخُّل... فهل هذا واضح؟؟».

حيّرني أمر أخي... ولمْ أعرف بم أفسِّر موقفه مِنْ رغد... أهو الحرص عليها أم التسلّط عليها أمْ شيء آخر..؟؟

قلتُ:

«حسناً... إنما أريد أنْ ألفتَ انتباهكَ لما قد يكون غضبكَ قد أغفلكَ عنه... أنتَ لا تدرك حجم المعاناة التي تخلّفها مواقفكَ القاسية في نفسيّتها... إنها مِنَ البشر وليستْ قطعةً مِنَ الحديد... كل تلك الفترة وهي تحاول الاتصال بكَ لتقدّم لكَ كلمة اعتذار لتُرضيكَ أنتَ بصفتكَ ولي أمرها وفي مقام الأب وأكثر لديها... وأنتَ لاهٍ في الخارج لا تكترِث لشيء... وبعد هذا تلومها إنْ هي حضرتْ بحثاً عنكَ في المزرعة؟؟ على الأقل... استمِعْ لما تودّ قوله ثمَّ افعلْ ما تشاء... أي قلبٍ تملكُ أنتَ؟».

فجأة أمسكَ وليد بقميصي وأخذ يهزّني بقوّة ويهتف:

«أنا لا أملك قلباً... أنتم قتلتموه... إنّكم السبب... كلُّكم السبب...».

ودفع بي إلى الجدار... ثمَّ جعل يصرخ في وجهي مهدِّداً:

«إياكَ... ثمَّ إياكَ... ثمَّ إياكَ يا سامر... والسماح لهذا بالتكرُّر... هل فهمتَ؟».

وأبعد يده عني ثمَّ سار مغادراً الشقة... مخلّفاً بصمات جُمَلِه الأخيرة مطبوعةً على طبلتَي أذنيّ...

- رغد -

في اليوم التالي حضر سامر لزيارتي وأخبرني عن زيارة وليد له البارحة وعن شجاره معه بسبب خروجي مع حسام وبيّنَ لي مدى الغضب الذي اكتسحه والتهديد الذي رماه به، وطلبَ منّي:

«لا تكرّري ذلك ثانية... إذ أنّ وليد لا يولي حسام ثقةً كبيرةً، أو لِنقُلْ أنّه مستاءٌ مِنْه بسبب الشجار العائلي...».

وأنا أعرف بحقيقة الأمر وقلتُ تلقائياً:

«إنّه لا يطيقه منذ زمن».

فظهر التعجّب على سامر وسأل:

«أحقاً؟؟ لكن لماذا؟».

فانتبهتُ إلى أنّني تسرّعتُ في جملتي السابقة... وحاولتُ تدارك الأمر فقلتُ:

«لأنه... لأنه نعته بألفاظٍ سيّئة... ذكرتُ لكَ ذلك...».

وطبعاً لمْ أكنْ لأشير إلى موضوع عرض حسام الزواج منّي ورفْضِ وليد له والشحنات التي نشأتْ بينهما منذ شهور لهذا السبب...

شيٌ مِنَ الغموض اكتسى وجه سامر وسألني:

«أهناك ما لا أعرفه يا رغد؟؟».

فقلتُ متظاهرة بالاستغراب:

«عن ماذا؟؟».

«عن حسام... عن وليد... أو عنكِ؟؟».

فقلتُ مستمرّة في تظاهري:

«لمْ أفهم قصدكَ!».

«لأنّ وليد كان غاضباً بمقدار فوق المعقول... لسببٍ تافه».

فقلتُ مؤكّدة:

«كما قلتُ. حسام شتم وليد وعيّره بأنّه خرِّيج سجون وأهانه بقسوة ولهذا... وليد لا يطيقه».

وأقنع كلامي هذا سامر وأثناه عن محاولة التعمّق أكثر...

قال أخيراً:

«على أية حال يا رغد... إذا أردتِ أي شيء فاطلبيه منّي أنا فقط».

فنظرتُ إليه وفي عينيّ مزيج مِنَ الامتنان، والأسى، والندم... وقلتُ:

«شكراً... ولا أظنّني سأحتاج شيئاً بعد الآن...».

وطأطأتُ رأسي بأسىً... فبعد وليد... لا شيء يستحق الاهتمام. حين أحسَّ سامر المرارة في نبرة صوتي حدّثني بلطفٍ بالغٍ وقال:

«لا تأخذي الموقف بهذه الحساسية... تُوفِّيتْ والدة زوجته قبل أيّام... هذا سببٌ أكبر مِنْ كافٍ لتبدّل أوضاعه... ستمرُّ الأزمة ويعود كما عهدتِه».

لا تحاول مواساتي يا سامر... ما بي أبلغ مِنْ حدِّ المواساة... قلتُ:

«حتّى لو لمْ يرغب في إعادتي لرعايته كما في السابق، حتّى وإنْ اختار الاقتصار على

الشقراء... حتّى وإنْ سافر بدوني إلى كوكبٍ آخر... المهم أنْ يصفح عنّي... ويسمح لي بالاتصال به ورؤيته مِنْ حينٍ لآخر...».

وجّهتُ نظرةً شديدة الرجاء إلى سامر وطلبتُ:

«أرجوكَ... بلّغه هذا... قلْ له أنّني سألتزم بكل ما يريد... فقط... ليصفح عنّي...».

- وليد -

حدثتْ مجموعة مِنْ أعمال الشغب في المدينة الصناعية واضطرب الأمن فيها. وهي منذ شهدتْ مأساة القصف في عيد الحج الماضي لمْ تزلْ عُرضةً لحوادث صغيرةٍ متفرّقة تُفقِد أهاليها الأمان للعيش فيها. الكثير مِنْ سكّانها هجروها واتّخذتْ جماعات مِنَ المتمرّدين المنازل المهجورة بُؤراً لإدارة عمليّات الشغب. ومؤخّرا حُظِر التجوُّل في الشوارع بعد منتصف الليل وتكثّفتْ دوريّات الشرطة وتضاعف عدد نقاط التفتيش والمراقبة.

كنتُ قد مررتُ أثناء سفري بإحدى مُدُن المنطقة... ورأيتُ حالة التخريب الفظيعة التي ألمّتْ بها مؤخّراً بعد أعمال شغبٍ مصحوبة بهجومٍ عدائي تعرّضتْ لها... وأوضاع البلد بشكلٍ عام آخِذة في التدهور السريع...

والآن... أنا جالسٌ في غرفة المعيشة في المنزل الريفي في المزرعة أُتابعُ الأخبار على التلفاز وأُشاهد مناظر بشعةً لجثث قتلى مِنَ المتمرّدين الذين تمّتْ مداهمتهم وإبادتهم. ولقطاتٍ أخرى لمجموعةٍ مِنْ أعضاء منظّمة سريّة نفّذتْ عمليّة اغتيال لأحد كبار المسؤولين، وتمّ القبض على بعض أعضائها وهاهم يُقادون بإذلالٍ إلى مأواهم الأخير... السجن...

مناظر تُثير الرهبة في قلبي... خصوصاً بعد تجربتي المريرة خلف القضبان... لا زال جسدي يقشعرُ منها وقلبي يضطربُ... ومعدتي تشتعلُ ناراً على ذكراها...

شربتُ آخر رشفةٍ مِنَ الحليب البارد الذي أدمنتُ على شربه في الآونة الأخيرة كلّما اشتدّ ألم معدتي، وابتلعتُ معها القرص المخفِّف للحموضة الذي صار عنصراً رئيسياً مِنْ عناصر وجباتي اليوميّة، وتنفستُ باسترخاء...

خضعتُ مؤخّرا لعلاجٍ جديد لقرحة معدتي ولكنه لمْ ينجح... وأوجاعها تراودني مِنْ حينٍ لآخر وتقضُّ عليّ مضجعي...

فيما أنا مغمضٌ عينيّ باسترخاء... سمعتُ صوتاً يقتربُ مِنَ الباب... ففتحتُ عينيّ والتفتُّ إلى مصدره فإذا بي أرى \أروى تدخل الغرفة...

أنا وهي لمْ نجتمع اجتماعاً خاصاً ولمْ نتحدّثْ إلا أحاديث عاديّة خلال الأيام الماضية، التي تلتْ رحيل الخالة \ليندا\ رحمها الله. ورائحة الكآبة والحداد كانتْ تفوح وتنتشر بشكلٍ خانق في المزرعة وفي المنزل، وقد غابتْ سيّدته بلا عودةٍ تُرجى...

وكان لقائي السابق معها قبل السفر هو أبشع اللقاءات وأفظعها...

قالتْ \أروى:

«ماذا تشاهد؟».

فقلتُ:

«نشرة الأخبار...».

واسترسلتُ:

«الوضع يزداد اضطراباً في المدينة الصناعيّة».

وجلستْ أروى على أحد المقاعد المجاورة تتابعُ الأنباء معي...

خيّم السكون علينا وأصغينا إلى النشرة باهتمام... على الأقل بالنسبة لي. وبعد انتهائها، تركتُ التلفاز مشغلاً وقمتُ بقصد الخروج. عندما اقتربتُ مِنَ الباب اختفى صوت التلفاز فألقيتُ نظرةً للوراء ورأيتُ أروى وقد أوقفتْه ثمّ سارتْ باتجاهي...

«وليد».

نادتْني... فاستدرتُ إليها كلياً... شعرتُ بأنها ترغب في التحدّث معي وبدا أنّ قواها تخونها...

الحديث عن أي شيءٍ لنْ يكون لائقاً الآن وقبر الخالة رحمها الله لمْ يجف ماؤه بعد. صمتُ منتظراً ما ستقول، ولمّا طال تردُّدها قلتُ:

«خيراً إنْ شاء الله؟».

وإذا بالدموع تقفز مِنْ مقلتيها، فتنكّس رأسها وتخفيه خلف يدها. شعرتُ بالأسى عليها فاقتربتُ منها ومددتُ يدي وربّتُ على كتفها بحنان... وما كان منها إلا أنْ أسندتْ رأسها إلى صدري وبكتْ بحرقة...

قلتُ مواسياً:

«تشجّعي يا أروى... كلّنا للموت والبقاء لله الواحد الأحد».

فقالتْ بانهيار:

«لا أتخيّل حياتي بدونها... إنّني السبب في موتها... أنا السبب».

وكانتْ الخالة قد توفّيتْ بعد عمليّة جراحيّة أُجريتْ لها في القلب، إثر تعرُّضها لنوبة شديدة.

«كيف تقولين هذا؟».

«نعم... فهي مرضتْ بعد أنْ... أخبرتُها عن قرار انفصالنا... لو لمْ أخبرْها بذلك... ما ماتتْ».

عضضتُ على أسناني متأثّراً بهذا الكلام، ثمّ قلتُ:

«الموت بيد الله وحده... ولكلٍ أجله المقدّر... لندعوا لها بالرحمة والمغفرة».

قالتْ أروى:

«رحمكِ الله يا أمّي... كنتِ نِعْمَ الأمهات وخير النساء... عشتِ حياةً مريرةً وحيدةً بعد سجن أبي... ورحيله... شقيتِ في هذه الدنيا وعملتِ دون راحة أعمالاً مُنهِكة يعجز عنها

الرجال... وحين ابتسمتْ لنا الدنيا... حين تحسّنتْ أوضاعنا... آه يا أمي... أبعدتكِ الأقدار قبل أنْ تهنئي... ما كان أسرع رحيلكِ يا أمّاه...».

نحيبها الشجي هيّج في ذاكرتي ذكرى والدتي رحمها الله. إنّه ما مِنْ مُصاب أفجع على قلب البشر مِنْ فقْد الأحبّة..

على الأقل... أنتِ عشتِ مع والدتكِ ولازمتِها منذ ولادتكِ وحتّى آخر لحظة في حياتها. أمّا أنا... فقد حُرِمتُ مِنْ والديَّ الحبيبين تسع سنين وأنا محبوسٌ في أبشع مكانٍ رأيتُه على الإطلاق، محروم منهما بينما هما حيّان يُرزقان... وما إنْ خرجتُ إليهما... حتّى داهمهما الموت وأخذهما معاً... وبأشنع طريقة...

لا حول ولا قوّة إلاّ بالله...

وفيما نحن هكذا أقبل العم إلياس... ألقى علينا نظرةً ثمّ قالَ مخاطباً إيّاي:

«حضر الضيوف يا بُني».

فقلتُ:

«حسناً. أنا قادم».

وهم مجموعةٌ مِنْ تجّار الفواكه كنتُ سأعقد معهم اتّفاق عمل. انصرف العمّ إلياس... فالتفتُّ إلى أروى وقلتُ:

«يريدون شراء محصول العنب والليمون بالكامل... سنتخلّص مِنْ عناء بيعه في الأسواق، وقد عرضوا سعراً جيداً.. ما رأيكِ؟».

نظرتْ أروى إليّ نظرة لا مبالاة ثمّ قالتْ:

«افعلوا ما تشاءون».

قلتُ:

«سنكتب وثيقةً رسميّةً وسنحتاج لتوقيعكِ بصفتكِ مالكة المزرعة... سأجلب لكِ العَقْد لمراجعته وتوقيعه».

«أرجوكَ... أعفِني مِنْ هذه الأمور فأنا لستُ في وضعٍ يسمح بالتفكير في أي شيء».

وأنا أعلم بهذا ولكن...

«لكن... العمل يجب أنْ يستمر... إنْ أهملنا المحصول فسنخسره».

«افعلوا ما ترونه مناسباً».

وكان هناك في خاطري شيءٌ أودُّ ذكره وأعاقَ الظرفُ الحالي لساني... لكنّني هذه اللحظة وجدتُها فرصةً ملائمة قليلاً فقلتُ:

«و... كذلك بالنسبة للمصنع... هناك أمورٌ معلّقةٌ في انتظاري...».

نظرتْ أروى إليّ نظرةً جادّةً... فقلتُ متابعاً:

«عليَّ العودة إلى المصنع عاجلاً... لا يجب تركه أطول مِنْ هذهِ المدّة».

فقالتْ وهي تضغط على صدغيها بأصابع يدها اليسرى:

«افعل ما تريد... أنا باقيةٌ مع ذكرى أمِّي ورائحتها العابقة في جو المنزل...».

عندما نقلتُ نبأ وفاة نديم رحمه الله إلى عائلته في العام الماضي، أتذكّر أنَّ أروى أبدتْ صموداً غريباً في وجه الخبر المُفجِع... أمّا الآن... فهي منهارةٌ لوفاة والدتها...

لطالما كنتُ أظنُّها أكثر صلابةً في مواجهة المصائب... وأرى فيها قوّةً وقدرةً كبيرةً على التحمُّل... ووضعها هذا جعلني أرجئ إلى أجلٍ غير مسمّى موضوعنا السابق... بشأن مستقبل علاقتنا معاً...

فلأترك عنّي همّ أروى... وهمَّ رغد... وأتفرَّغ لهمِّ العمل، فهو أرأف بي منهما...

وبعد لقائي بتجّار الفواكه وفيما كنتُ واقفاً في المزرعة أرتّب الوثائق فوجئتُ بضيفٍ غير متوقّع يدخل المزرعة!

لقد كان حسام...

حيّاني فنظرتُ إلى ما حوله، لاستوثق مِنْ عدم حضور رغد برفقته... لكنّه كان منفرداً... فرددتُ التحيّة وكلِّي حيرة عن سبب حضوره... ثمَّ قُدتُه إلى المقاعد المجاورة وجلسنا متواجهين... تفصلنا طاولةٌ صغيرة... فأمكنَه قراءة تساؤلاتي مباشرةً...

قال موضّحاً:

«أعرف أنّكَ لمْ تتوقّع زيارتي... لكنّني أودُّ التحدُّث معكَ في أمرٍ مهمٍ وإنْ لمْ يكنْ الظرف الحالي مناسباً».

أقلقني كلامه فسألتُ باهتمام:

«ماذا هناك؟؟».

فتتأتأ قليلاً... ثمَّ أجاب:

«إنّه... ليس موضوعاً جديداً... ولكن... أودّ تذكيركَ به وتعجيل تنفيذه».

وبسرعة تفتّح في رأسي موضوع أظنُّ أنّه يقصده. قلتُ:

«هاتِ مِنَ الوسط ولا داع للمقدّمات... أي موضوع تعني؟؟».

اضطربَ حسام وتغيّر لونه... ثمّ قال:

«مـو... موضوعي أنا ورغد».

كبحتُ جمح نفسي لئلاً أنفجر فجأةً في وجه الضيف في هذه اللحظة وهذا المكان... ثمّ قلتُ متظاهراً بعدم الفهم:

«موضوعكَ أنتَ ورغد؟؟».

نظر إليَّ حسام وقال وهو يزدرد ريقه:

«أعني موضوع... زواجنا».

احتقنتْ الدماء في وجهي وتورّمتْ عيناي غضباً... وبالتأكيد لاحظَ حسام ذلكَ لأنَّ بعض الخوف اعترى تقاسيم وجهه...

قلتُ وأنا أضغطُ على نفسي كيْ لا أثور بركاناً:

«أي زواج؟؟».

تردّد ثمَّ قال:

«هل نسيتَ؟؟ لقد... سبقَ وأنْ عرضنا الأمر عليكَ... أنتَ تعرف أنني... أنني أرغبُ في الزواج مِنْ رغد».

لمْ أستطع تمالك نفسي أكثر... هببتُ واقِفاً باندفاعٍ كان مِنَ القوّة بحيث جعل الكرسي ينقلب مِنْ خلفي ويرتطم بالأرض...

وقف حسام بدوره واجلاً. قلتُ:

«هل فقدتَ صوابكَ؟ ألا ترى في أي ظروفٍ نحن؟؟».

قال حسام معتذراً ومدافعاً:

«لا أقصد هذا أبداً... لسنا نريد ارتباطاً شكلياً علنياً... كل ما نريده هو عقد قران شرعي حتّى...».

صرختُ غاضبا مقاطعاً:

«حتّى ماذا؟؟».

ألجم لسان حسام فكرّرتُ بعصبية:

«حتّى ماذا... أكمِل؟؟».

قال باضطراب:

«حتّى نستقر... أنا ورغد... بما أنّها تُقيم عندنا وبما أنها موافقة على الزواج منّي...».

ضربتُ على الطاولة بعصبيّة وقلتُ:

«ومَنْ قال أنّها موافقةٌ على هذا؟؟».

أجاب:

«هي... أعربتْ عن قبولها منذ زمن».

نفثتُ ما في صدري مِنْ نيرانٍ ملتهبة... وضربتُ الطاولة بقوّةٍ أكبر وقلتُ:

«ومَنْ قال لكَ... أنَّ الأمرَ متوقّفٌ على قبولها هي؟؟».

قال حسام متراجعاً:

«بالطبع أعني بعد موافقتكَ أنتَ... فأنتَ وليُّ أمرها».

فقلتُ بغضب:

«نعم... أنا وليُّ أمرها... وأنا لا أوافق على هذا».

صمتَ حسام برهةً وسأل بعدها:

«لماذا؟؟».

فزمجرتُ:

«لا تسأل لماذا... أنا الوصيُّ وأفعل ما أريد».

تغيَّرتْ سحنة حسام مِنَ الرجاء إلى النقمة وقال مهاجماً:

«لكن... هذا لا يعطيكَ الحقَّ في التحكُّم برغد... ما دامتْ موافقة».

استفزّتْني الجملة فصرختُ مُنذِراً:

«حسام!!».

وحسام أطلق العنان لثورته وقال:

«أي نوعٍ مِنَ الأوصياء أنتَ؟؟ ولماذا هذا العناد؟».

صرختُ مجدداً:

«حســـام... يكفي...».

لكنّه تابعَ بعصبيّة:

«أخبرني ما هي حُجَجُكَ؟ إذا كان بشأن الدراسة فنحنُ لنْ نتزوّج الآن وإنّما بعد التخرُّج ولكنني أريد أنْ ارتبط بها رسمياً وأريح مشاعري وقلبي».

انفجرتُ... ثرتُ... انقضضتُ على كتفيه فجأة وصرختُ بقسوة:

«أي مشاعر وأي قلب أيها الـــ...».

حسام حاول إبعاد يدي عنه وهو يقول:

«إنني أحبُّها ولنْ أسمحَ لكَ بالوقوف في طريقي».

وبانفلاتٍ تام... سدّدتُ لكمةً إلى وجهه ثمّ دفعتُ به بعيداً... وأنا أصرخ:

«أرني ماذا ستفعل لإزاحتي أيّها العاشِق المعتوه».

كانتْ ضربتي موجعة... أمسكَ حسام بفكِّه متألّماً وترنّح قليلاً... ثمّ صرخ:

«متوحّش وستظلّ متوحشاً... يا خرِّيج السجون!!».

أوشكتُ أنْ أنفلتُ أكثر وأنقض عليه وأوسعه ضرباً... غير أنَّ العم إلياس ظهر فجأةً ورأى الاضطراب الحاصل بيننا فتساءل:

«ما الأمر؟؟».

حسام سار إلى الخلف مبتعداً وهو يقول:

١ «لا ترحمُ ولا تدعُ الرحمةَ تهبط مِنَ السماء؟؟... لكنني لنْ أسمحَ لكَ بالتحكُّم بهذا وإنْ لزم الأمر سألجأ للقضاء وأخلِّصها مِنْ سطوتكَ نهائياً... أسمعتَ؟».

صرختُ مهدداً:

«أُغربْ عنْ وجهي هذه الساعة قبل أنْ تندم... انصرِف فوراً...».

«سأذهب... لكن سترى ما سأفعل... سنتزوّج رغماً عنْ أنفكَ وقبضتكَ وجبروتكَ...».

هممتُ بالإمساك به فأقبل العمّ إلياس وحال دون ذلك. واحتراماً للرجل العجوز وللمكان الذي نحن فيه... تركتُه يفلتْ مِنْ قبضتي لكنني هددتُه:

«ابتعد عنها نهائياً... نهائياً... ماذا وإلا... فأقسِم بربِّ السماء... أنني سأمحيكَ مِنْ على هذا الكوكب... وقبل أنْ تصلَ إلى ما تصبو إليه نفسُك... سيتعيَّن عليكَ أنْ تدوس على قبري أولاً... ما مِنْ قوّةٍ في الأرض ستجبرني على تحقيق هدفكَ... مطلقاً... أيّها المراهق الأبله».

وبعد أنْ غادر حسام سألني العمّ عمّا حصل فاعتذرتُ عن الإجابة وخرجتُ مِنَ المزرعة غاضباً أبحث عنْ شيءٍ أنفث فيه غضبي بعيداً عن الأنظار...

- رغد -

«ماذا تقولين!!».

ارتسمتْ الدهشة على وجهي حين أخبرتْني نهلة بأنَّ حسام ذهب شخصياً إلى وليد عصراً وفتح موضوع زواجنا أمامه، وأنّ وليد رفضَ الموضوع ولكَمَ حسام بعنفٍ على وجهه.

قالتْ:

«هذا ما أخبرني به... وهناك كدمةٌ مريعةٌعلى وجهه وتورّمٌ فظيع!».

قلتُ:

«يا إلهي! ما الذي دفعه لهذا الجنون؟ يذهب إليه بنفسه وبمفرده وفي هذه الفترة؟؟ هل فقد صوابه؟؟».

قالتْ نهلة:

«يحبّكِ يا رغد ولا يطيق صبراً... وأراد اغتنام فرصة تواجد ابن عمِّكِ في المنطقة. لو لمْ يكنْ سامر خطيبكِ السابق لكان طلب يدكِ منه! والآن وصيّكِ الرسمي يهدِّده بألا يعود لطرح الأمر ثانيةً وإلا محاه مِنَ الوجود... تهديد صريح بالقتل وأمام أحد الشهود!».

قلتُ حانقةً ومهاجمة:

«إلامَ تشيرين؟؟».

«أنتِ أدرى».

فازداد غضبي وخاطبتُها بحدّة:

«لا أسمح لكِ... ابن عمّي ليس سفّاحاً... وإذا كان قد ارتكب جريمةً في السابق فإنّه...».

وانتبهتُ لكلامي وأخرستُ فمي، فقالتْ نهلة متحدّية:

«فإنّه ماذا؟؟».

ولمْ أملك إجابة، فنظرتْ إليّ نهلة بجديّة وقالتْ:

«فإنّه قد يفعلها ثانيةً».

زمجرتُ:

«توقفي... أنتِ لا تعرفين شيئاً... كلّكم ظالمون... اتركوا وليد وشأنه وإياكم وإهانته ثانيةً... أنتم تهينونني أنا وتجرحونني أنا... ألا تحسُّون بذلك؟؟».

وتراجعتْ نهلة عن موقفها لمّا رأتْ عصبيّتي... وقالتْ:

«حسناً يا رغد، لا تنفعلي».

«كيف لا أنفعل وأنتم كلّما جيء بذكر وليد نعتُّموه بألفاظٍ قاسية؟ رأفةً به وبي... هذا كثير... كثير...».

وفيما أنا في غمرة انفعالي طُرِق الباب ودخلتْ سارة تقول مخاطبة إياي:

«ابن عمّكِ هنا ويريدكِ».

قفزتُ واقفةً وقفز قلبي معي... ودارتْ بي الأفكار وأرسلتْني إلى البعيد... فقلتُ بهلعٍ:

«وليد؟؟».

فردّتْ سارة وهي تحرّك رأسها حركةً طفولية:

«لا! بل سامر».

وسُرعان ما أُصِبتُ بخيبة الأمل...

إلى أين ذهبتْ أفكارِكِ يا رغد؟؟ يا لكِ مِنْ مسكينة واهمة! طبعاً سيكون سامر... ألا زلتِ تعتقدين بأنَّ وليد سيعود إليكِ ذات يوم...؟؟

كان الوقتُ ليلاً... وليس مِنْ عادة سامر زيارتي في الليل ودون سابق موعد... إلا لأمورٍ طارئةٍ أو ضرورية...

ارتديتُ حجابي وعباءتي وذهبتُ لملاقاته في غرفة المجلس كالعادة. وهناك ومِنْ أوّل نظرةٍ ألقيتُها عليه لاحظتُ أنَّ هناك ما يقلقه... وعرفتُ أنّ للزيارة سبباً قاهراً...

بعد التحيّة والسؤال عن الأحوال... سألْتُه:

«ماذا هناك؟؟».

وفاجأني عندما قال:

«وليد يريد أنْ ترافقيني الآن إلى الشقة... إنّه هناك وينتظرنا...».

هل سمعتم؟؟ يقول... أنَّ وليد يريد مقابلتي... هل هذا ما قاله؟؟ هل هذا ما يُفهم مِنْ كلامه؟؟

تسمّرتُ في مكاني مأخوذةً بالمفاجأة ونظرتُ مِنْ حولي أتأكّد مِنْ أنّني لا أتخيّل!

وليد يريد مقابلتي... أخيراً؟؟

قطع عليَّ حبلَ شرودي صوتُ سامر وهو يقول بنبرة قلقة:

«لا يبدو بمزاجٍ جيِّد... لا أعرف ما الطارئ الذي يشغل باله لكنّه طلب أنْ آخذكِ إلى الشقّة في هذا الوقت...».

عرفتُ... لقد فهمتُ... موضوع حسام... لا محالة...

لمْ أُحرّك ساكِناً... مِنْ شدّة القلق... إلى أنْ قال سامر يحثّني على الاستعجال:

«هيّا يا رغد فالوقتُ ليس مِنْ صالحنا...».

وصلنا إلى الشقّة أخيراً... ومع وصولنا وصلتْ ضربات قلبي إلى أقصى سرعة... وبدأتُ أُحِسُّ بالنبضات في شرايين عنقي. وفيما سامر يستخرج مفتاح الشقّة عند الباب حدّثني بصوتٍ خافتٍ قائلاً:

«أنبّهكِ يا رغد... يبدو أنَّ شياطين رأسه تسيطر عليه...».

أرعبتْني جملته فبلعتُ ريقي وقلتُ:

«هل... هو غاضبٌ جداً؟؟».

فأجاب وهو يُخفِض صوته:

«يشتعل بركاناً... حاولتُ أنْ أعرف ما القصّة فلمْ يخبرني ورفضتُ إحضارك فهدَّدني بأنّه إنْ ذهبَ بنفسه إلى منزل خالتكِ فسوف يحرقه بمَنْ فيه. لا استبعد هذا... فوجهه ينذر بالشر...».

وضعتُ يدي اليسرى على عنقي فزعاً... ورددتُ رأسي للوراء... فقال سامر محاولاً بعد كل هذا طمأنتي:

«سأكون معكِ...».

وفتح الباب... لملمتُ شظايا قوّتي وذكرتُ اسم الله... ودخلتُ الشقة.

في الداخل وقعتْ عيناي مباشرةً على العينين الملتهبتين... القادِحتين بالشرر... اللتين لمْ أحظَ برؤيتهما منذ أيّام... ولمْ أحظَ برعايتهما... منذ أسابيع...

كان وجهه كتلةً مِنَ الحمم البركانية المتوهِّجة... عابس التعبيرات... قاطب الحاجبين أحمر العينين... تلك الحمرة النارية التي تكسو وجه وليد وعينيه عندما يشتطُّ غضباً... وكان يتنفَّس عبر فمه... وتكاد ألهبة مِنَ النار المتأجِّجة تخرج مع زفيره... وكان يقف وسط الشقة وعلى أهبّة الهجوم...

يا لطيف...!

أردتُ أنْ أبدأ بالتحيّة... غير أنّه لمْ يكن لها مجالٌ هنا... مع وجهٍ مرعبٍ يقدح شرراً... وعندما أغلقَ سامر الباب خلفه تكلّم وليد فجأةً:

«مِنْ فضلكَ يا سامر ابقَ في الخارج قليلاً».

تبادلتُ النظر مع سامر... الذي رأى اضطرابي وقرأ توسّلاتي... فقال:

«هل الموضوع سرِّيٌ لهذا الحد؟؟».

فقال وليد بصبرٍ نافذ:

«رجاءً ابقَ في الخارج إلى أنْ أستدعيكَ...».

فنظر إليَّ سامر وقال:

«سأدخل غرفة النوم».

فزمجرَ وليد بحدّة:

«قلتُ في الخارج... لو سمحتَ».

فلمْ يتحرّك سامر بل أصرّ:

«لنْ أخرجَ يا وليد».

هنا هتف وليد بغضب:

«سامر... رجاءً أُخرج الآن ولا تضيِّع الوقت...».

قال سامر:

«يبدو عليكَ الغضب الشديد... لماذا لا تسترخي أولاً؟؟».

صرخَ وليد:

«أنا لستُ غاضباً...».

واضح جداً! ماذا تريد أكثر مَنْ هذا!!؟؟

قال سامر:

«لكن يا أخي...».

فقاطعه وليد بفظاظة:

«انصرِف يا سامر أرجوكَ ولا تُغضِبني بالفعل...».

ولمْ يملك سامر مِنَ الأمر شيئاً... فنظر إليَّ نظرةَ عطف وإشفاق... ثمَّ فتح باب الشقَّة... وقال محذِّراً:

«إيّاكَ أنْ تقسوَ عليها...».

وألقى عليّ نظرة أخيرة وخرج...

بقينا أنا والمذنّب المتوهّج وليد بمفردنا في الشقّة.. هو ينفث الأنفاس الغاضبة الحارقة.. وأنا أرتجف هلعاً...

وبعد أنْ التهم عدّة أنفاس... قال أخيراً:

«اجلسي يا رغد».

رفعتُ بصري إليه ولمْ أتحرّك. كنتُ مضطربةً وقلبي تركض نبضاته بسرعة... ولا أقوى على السير مِنْ فرط توتّري... ولمّا رآني متصلِّبة في مكاني قال بصوتٍ حاد:

«اجلسي يا رغد هيا».

فزعتُ وارتددتُ للوراء... وحين لاحظ ذلك قال:

«ما بكِ تنظرين إليَّ بهذا الذعر؟؟ هل أبدو كالغول المفترس؟؟ أم هل تظنّين أنّني سألكمكِ أنتِ أيضاً؟».

خفتُ... وأومأتُ رأسي بـ (لا)... فأشار إلى المقعد... فسرتُ مذعنة... أعرجُ في خطواتي... إلى أنْ جلستُ على طرف المقعد... ووضعتُ حقيبتي إلى جانبي...

وليد كان مُرعباً لحدٍ كبير... وكنتُ أسمع صوت الهواء يصطدم بفمه كالإعصار... وكلَّما أطلق نفَساً قوياً جذب نفساً أقوى... حتّى أوشكَ الهواءِ على النفاذ مِنَ الشقَّة...

فجأة اقترب خطوةً منّي فأرجعتُ ظهري إلى الوراء تلقائياً... خشيةَ أنْ تحرقني أنفاسه أو تلسعني نظراته... توقّف وليد على بعد خطوتين منّي ثمَّ قال:

«أظنّكِ تعرفين لِمَ أنتِ هنا».

رفعتُ رأسي إليه وأومأتُ بـ (لا)... فهتف بسرعة:

«بل تعرفين».

أفزعني صوته... فغيَّرتُ موقفي وأومأتُ رأسي بـ (نعم)... وأنا متوقِّعة أنْ يكون الموضوع

هو موضوع حسام. قال:

«تعرفين أنّ ابن خالتكِ العزيزة... قد أتى إليّ خصّيصاً هذا اليوم ليطلب موافقتي على خطبتكما».

تصاعدتْ دفعةٌ كبيرةٌ مِنَ الدماء إلى وجهي... وهويتُ بأنظاري نحو الأرض حرجاً... ولمْ أقلْ شيئاً... فتابع هو:

«أتى بمفرده وبكل شجاعة... بل بكل وقاحة... بعد الإهانات الفظيعة التي رموني بها في منزلهم... وبدون اعتبار للظروف المُفجِعة التي نمرُّ بها في المزرعة... بلا احترام لي ولا لعائلتي... أتى إليّ طالباً تحويل مشروع زواجكما المزعوم إلى واقع... بكل بساطة».

وأيضاً لم أقلْ شيئاً... بل لمْ أجرؤ حتّى على التنفس. قال:

«وحجّته... أنّكما متّفقان على الارتباط... ومنذ زمن.. وأنّه يريد أنْ يريح مشاعره وقلبه!».

فطأطأتُ برأسي نحو الأسفل أكثر فأكثر... أكاد أكسر عنقي مِنْ حدّة الطأطأة... وأفجّر عروق وجهي مِنْ غزارة الدماء المتدفّقة فيها...

فتابع وليد:

«وربّما مشاعركِ وقلبكِ أنتِ أيضاً».

ذُهِلتُ، فرفعتُ بصري إليه بطرفة عينٍ، ثمّ غضضتُه ثانيةً، في حرجٍ بالغ... ولمْ أرفعه إلى أنْ سمعتُ صوت اصطفاق كفّي وليد ببعضهما البعض...

نظرتُ إليه فشاهدتُ حشداً مِنْ ألسنة النار تغادر عينيه هاجمةً عليّ...

«ما هو رأيكِ؟».

ولمْ أتكلّم فردّد السؤال بغلظة:

«ما هو رأيكِ؟ أجيبيني؟؟».

فأطلقتُ لساني بتلعثم:

«في ماذا؟».

فقال بعصبيّة:

«في هذا الأمر قطعاً».

فلمْ أُجبْه لكنّني حملقتُ فيه... فاقترب منّي أكثر وسأل بعصبيّةٍ وجفافٍ بالغين:

«لا تحملقي بي هكذا بلْ أخبريني ما هو رأيكِ الآن يا رغد؟؟ تكلّمي».

فقلتُ مفزوعةً مِنْ صوته:

«لا أعرف».

«لا تعرفين؟؟ كيف لا تعرفين؟؟ أخبريني ما هو رأيكِ الصريح؟».

أجبتُ في خوف:

«كما ترى أنتَ».

قطب حاجبيه أقصاهما وقال:

«كما أرى أنا؟؟».

فكرّرتُ:

«كما تريد أنتَ... أنتَ وليُّ أمري وما تطلبه سأنفِّذه».

وليد فجأة ضربَ مِسند المِقعد المجاور ورأيتُ سحابة مِنَ الغبار تطير مفزوعةً مِنْه... ثمَّ قال:

«قولي لي يا رغد... ما هو رأيكِ أنتِ؟؟ وهل اتّفقتِ معه على أنْ يأتي لتقديم عرضه في المزرعة؟».

فرددتُ نافيةً:

«لا... كلاّ لمْ أتّفق معه... لقد أتاكَ مِنْ تلقاء نفسه... لمْ أعرف إلا مِنْ نهلة قبل حضوري إلى هنا مباشرة».

ونظر إليَّ بتشكُّك فأكّدتُ:

«لمْ أتّفق معه على شيء صدّقني».

فسأل:

«ولا على الزواج؟».

فصمتُّ... وكرَّر هو سؤاله بحدّة:

«ولا على الزواج يا رغد؟؟ هل سبقَ وأنْ اتفقتما على ذلك؟؟ أجيبي...؟؟».

في الواقع... كنتُ قدْ أعربتُ عن قبولي المبدئي لفكرة الزواج، عندما أعيد طرحها خلال فترة إقامتي في بيت خالتي، في الشتاء الماضي.

قلتُ معترفة:

«أجل».

وما كدتُ أنطق بالكلمة إلا ويدا وليد تطبقان فجأة على كتفيَّ وتهزّانني... وإذا به يصرخ في وجهي:

«كيف تجرئين على فعل ذلك؟؟ مَنْ سمحَ لكِ باتّخاذ قرارٍ في موضوعٍ كبيرٍ كهذا دون إذني أنا؟؟ كيف تتّفقين معه على الزواجِ دون علمي؟».

فقلتُ مدافعةً ومفزوعةً في آنٍ واحد:

«أنتَ تعلم بذلكَ... لقد عُرِضَ الموضوع عليكَ مِنْ قبل... تعرف كل شيء».

فقال وهو يهزُّني:

«وأنتِ تعرفين أنّني رفضتُ الموضوع مُسبقاً... وحذَّرتُكِ مِنْ إعادة طرحه أو التفكير به مجدَّداً... ألمْ أحذِّركِ يا رغد؟؟ ألمْ أحذِّركِ؟؟».

«بلى.. لكن...».

«لكن ماذا؟؟ أكملي».

ابتلعتُ ريقي وأرغمني الخوف مِنْ صوته على النطق فقلتُ:

«لكنّكَ... أنتَ لمْ ترفضْ الموضوع بل رفضتَ توقيته... وحسام... حسام هو الذي أعاد فتحه الآن... هو مَنْ رغِب في تعجيله».

صرخَ وليد:

«وأنتِ متَّفقةٌ معه أليسَ كذلك؟؟».

«ليس كذلك... قلتُ لكَ أنّني لمْ أعلمْ عن زيارته لكَ إلا مِنْ نهلة قبل حضوري».

فضغط وليد على كتفيَّ وقال:

«لكنكِ موافقة ألستِ كذلك؟؟».

وشعرتُ بالألم مِنْ قوّة قبضته... والفزع مِنْ نظراته المهدّدة... قلتُ:

«سأفعل ما تطلبه منِّي أنتَ».

فزاد ضغطه على كتفي وهتف:

«موافقة على ذلك؟ أجيبيني؟؟ أترغبين بالزواج مِنْ ابن خالتكِ المخبول هذا؟؟ أجيبيني؟؟».

أطلقتُ صيحة ألمٍ وقلتُ والدموع تقفز مِنْ عينيَّ فجأة:

«آه... أنتَ تؤلمنيٍ...».

وليد دفع بكتفيَّ نحو المسند وابتعد سائراً نحو الباب...

أنا أخفيتُ وجهي خلف يدي المصابة وأخذتُ أذرف شُحنة الدموع المخزّنة في عيني... وتأوّهتُ مِنْ قسوة وليد عليَّ... قسوة لمْ أعهدها ولمْ أكنْ أنتظرها منه... بعد كل ذلك العطف والحنان اللذين غمرني بهما طوال سنين... وبعد كل الفراق والجفاء والمقاطعة التي فرضها عليَّ منذ أسابيع...

عندما أفرغتُ كل دموعي أزحتُ يدي عنْ عيني... وشاهدتُه يدور حول نفسه تارةً ويسير يميناً وشمالاً تارةً أخرى... وهالةٌ مِنَ اللهيب الأحمر تحيط به...

وحين رآني أنظر إليه صرخ فجأةً:

«ألمْ أحذِّركِ مِنْ مغبّة فتح هذا الموضوع يا رغد؟؟ ألَمْ أفعل؟؟».

ولمْ يمنحني فرصةً للردِّ بل تابع مُزلزلاً:

«لكنّكم تستخفُّون بي... وترونني مُجرماً حقيراً خرِّيج سجون... لستُ أهلاً لتولِّي الوصاية على فتاةٍ يتيمة... ولا أؤتمَن عليها...».

أردتُ أنْ أنطق («كلاّ») لكن وليد لمْ يعطِني المجال وواصلَ:

«سأريكم... ما الذي يستطيع المجرمون فعله... سترون أنَّ كلمتي أنا... هي النافذة... وأنَّه ما مِنْ قوّةٍ في الأرض سترغمني على الموافقة على هذا الزواج مهما كانتْ...».

واقترب منِّي مجدَّداً... ورمقني بنظرات التهديد الشديدة... وقال:

«ستحقِّقين أمنيتكِ بالزواج مِنْهُ فقط بعدما أموت يا رغد... هل تفهمين؟؟».

وعندما لمْ يرَ منِّي أيّ ردّةِ فعلٍ تصوّر أنني لمْ أفهمه أو لمْ أعرْ كلامه اهتماماً... فأطبق

على كتفيَّ كالصقر المنقضّ على فريسته... بمنتهى الخشونة وراح يصرخ:

«أُكلِّمكِ يا رغد... أصغي إليَّ جيداً... واحفظي كلامي بالحرف الواحد... أنا المسؤول عنكِ هنا... وأنا مَنْ يقرّر كلَّ شيءٍ يتعلَّق بكِ... صغيراً كان أمْ كبيراً... شئتِ أمْ أبيتِ... تركَكِ أبي تحت عُهدتي أنا... وليس تحت عُهدة خالتكِ وعائلتها... وإنْ أبقيتُكِ هناك كل هذا الوقت فهذا لأنّني أنا أريد إبقاءكِ... وليسَ لتتصرَّفي كما يحلو لكِ... أنتِ وابن خالتكِ المراهق الأبله... ومتى ما شئتُ أنا... سآتي وآخذكِ... وخالتكِ... وزوجها... وأبناؤها... كلُّهم لا يملكون الحقَّ في تسيير أموركِ... وحسام بالذات... وبالذات حسام... واسمعيني جيِّداً... هذا الفتى بالذات... سيكون آخر آخر آخر شخصٍ على وجه الأرض... سأسمح له بالاقتراب مِنْكِ... ولنْ يكون ذلك إلا بعد موتي... أفهمتِ ذلكَ يا رغد؟؟ أفهمتِ ذلك؟؟».

كل هذه الصواريخ في وجهي... والضغط العنيف على كتفيَّ... والأعاصير النارية المنطلقة مِنْ عينيكِ وتريد منِّي ألاَّ أفهم؟

صحتُ بخوفٍ وأنا أحاول استعطافه والنجاة مِنْ بطش يديه:

«نعم... فهمتُ...».

فضغط على كتفيّ بخشونة أشدّ وقال:

«فهمتِ جيِّداً؟؟ أنا لنْ أعيدَ كلامي في المرّة المُقبلة إنْ تكرَّر الأمر... ولنْ أكتفي بلكم وجهه... بل سأهشِّم عظامه كلّها.. وأطحن رأسه... أَوعيتِ هذا؟؟».

«فهمتُ... فهمتُ... أرجوكَ... دعني».

وواصل عصر كتفيَّ بقبضتيه وهو يُجبرني على النظر في عينيه ويخترقني بنظرته الثاقبة المهدّدة ويقول:

«لا تضطرّيني لتصرّفٍ لا تُحمد عُقباه يا رغد... أحذِّركِ... أحذِّركِ... ما أنا فيهِ يكفيني... التزمي بكلامي وإلا...».

أطلقتُ إجابتي مع زفرة ألم:

«حاضر... فهمتُ... سأفعل ما تأمر به... هذا موجِع... أرجوك أُتركني...».

وانخرطتُ في البكاء مِنَ الألم... فأطلقَ سراح كتفيَّ وابتعد...

جعلتُ أمسّد كتفي الأيمن بيدي اليسرى لأخفِّف الألم... ولمْ أرفعْ رأسي مجدداً... حلَّ سكونٌ مخيفٌ بضع دقائق... ثمَّ سمعتُ صوتَ باب الشقّة ينفتح فرفعتُ رأسي ونظرتُ إلى وليد فشاهدتُه يغادر...

وقفتُ بسرعةٍ وسألتُ:

«إلى أين تذهب؟؟».

لكنّه أغلقَ الباب ولمْ يجبني... أسرعتُ أسير بعكّازي إلى الباب وأردتُ فتحه فإذا بي أسمع صوت قِفله يُدار...

ضربتُ الباب وهتفتُ بفزع:

«وليد إلى أين تذهب؟ افتح الباب».

فسمعتُه يقول مِنْ خلف الباب:

«سأرسل إليكِ سامر».

«لا تتركني وحدي... أرجوكَ لا تفعل... افتح الباب».

ولكنه لمْ يفتحه، ولمْ أعد أسمع صوته.

بقيتُ واقفةً عند الباب في انتظار عودة وليد أو سامر... ومرَّتْ بضع دقائق ولمْ يظهر أيٌّ منهما...

انتابني الذعر... وعدتُ إلى المقعد واستخرجتُ هاتفي مِنْ حقيبتي واتَّصلتُ بوليد فلمْ يجبني... واتصلتُ بسامر فوجدتُ الخط مشغولاً...

انتظرتُ دقيقةً ثمَّ أعدتُ الاتصال بسامر فردَّ عليَّ وأخبرني بأنّه في صالون الحلاقة أسفل المبنى وسيصعد بعد خمسة عشر دقيقة...

«لكنني وحدي في الشقَّة... ذهب وليد وتركني أرجوكَ تعال الآن».

قال سامر:

«لمْ يذهبْ. أخبرتُه أنْ يبقى وينتظرني. سيأتيكِ الآن».

وأنهيتُ المكالمة ونظرتُ نحو الباب في انتظار عودة وليد... ولكنّه لمْ يعدْ. أخذ القلق والخوف يتفاقمان في صدري... وإنْ هي إلا دقائق حتى عاودتُ الاتصال بسامر وأخبرتُه بأنَّ وليد لمْ يعدْ ورجوتُه أنْ يوافيني في الحال. فقال إنّه قادم... وأقبلتُ نحو الباب في انتظاره... وعندما اقتربتُ منه خُيِّل إليَّ أنني سمعتُ صوتاً مِنْ خلفه ففزعتُ... أصغيتُ بسكون... فتكرَّر الصوت وأجفل قلبي...

«سامر؟؟».

ناديتُ بحنجرة مخنوقة... ولمْ أسمعْ رداً... لكنّني أحسستُ بحركةٍ ما... وكأنّ أحدهم يقف خلف الباب مباشرة أو يستند إليه... سألتُ:

«وليد؟».

فلمْ يأتني جواب. اقشعرَّ جسدي وانطلقتْ خفقات قلبي تركض بسرعة... وكنتُ لا أزال أحسُّ بحركة هناك. قلتُ وركبتاي تكادان تخرّان أرضاً وصوتي يرتجف:

«أهذا أنتَ وليد؟ رُدْ أرجوك!».

فسمعتُ صوت وليد يردّ:

«نعم، هنا».

لقد كان وليد قلبي يقف خلف الباب... مستنداً إليه...

عندما سمعتُ صوته حلّتْ الطمأنينة في قلبي... فألقيتُ بثقل جسمي على الباب... وخُيّل إليَّ... أنني أحسستُ بالحرارة تتخلّله منبعثةً مِن جسم وليد...

يفصل بيني وبينه بابٌ خشبي... وعشرات المشاكل ومئات الشحنات... والمشاعر

المتضاربة والمواقف الملاطمة... والكلمات القاسية... والمعاملة الجافة... التي أثخن قلبي وجسدي بخدوشها قبل قليل...

تلمّستُ كتفي... فألفيتُ الألمَ قد انقشع... وتلمّستُ الباب فوجدتهُ دافئاً حنوناً... وألصقتُ أذني به... فتوهّمتُ أنني أسمع نبضات قلب وليد... تناديني...

أفقتُ مِنْ أوهامي على صوت خشنٍ زاجر... أصدره وليد...

«أقول لكَ انتظرني ها هنا فتذهب إلى الحلاّق؟؟».

ثمَّ أتى ردٌّ بصوت سامر:

«لمْ أتوقَّع أنْ تُنهيا الحوار بهذه السرعة كما وأنني لمْ أشأ الوقوف هكذا كالبوّاب».

فقال وليد متضايقاً:

«قلتُ لكَ أنني لنْ أطيل الكلام وكما ترى فالوقت ليل ولا يزال أمامكَ مشوار إعادتها... تعرف أنَّ التجوّل محظور آخر الليل هناك...».

ثمّ سمعتُ صوت المفتاح يُدخَل في ثقبه فابتعدتُ بسرعة.

كان سامر هو مَنْ فتح الباب فدخل ولمْ أرَ أحداً مِنْ خلفه. استدار للوراء ثمَّ التفتَ إليَّ وأغلق الباب مِنْ بعده وسألني:

«هل كل شيء على ما يُرام؟؟».

«نعم».

فاقترب وهو يحملق في عينيَّ ويرى أثر الدموع ثمَّ سأل:

«ماذا أراد مِنْكِ؟؟».

فطأطأتُ برأسي ولمْ أُجبه. فألحَّ عليَّ بالسؤال غير أنني اعتذرتُ عن الإجابة.

«إذن الموضوع سرِّي بينكما؟».

ألقيتُ نظرة سريعة عليه ثمَّ نظرتُ إلى الأرض لأبعد عينيَّ عن عينيه... خشية أنْ يكتشف شيئاً...

سأل برجاء:

«ألنْ تخبريني؟».

فلم أردْ. كيف أُخبركَ وبِم؟؟! سيضرب هذا على وترك الحساس المؤلم... أأقول لكَ أنَّ حسام طلب يدي مِنْ وليد...؟؟

احترم سامر موقفي وقال متراجعاً:

«كما تشائين. إنّما أردتُ المؤازرة. فإذا ما أساء إليكِ أخي بأي شكل فأخبريني حتّى أوقفه عند حدّه».

فشددتُ على قبضتي ولمْ أتفوّه بشيء.

بعد ذلك، أعادني سامر إلى منزل خالتي. ولأنَّ المسافة بين المدينتين التجارية والصناعية طويلة نسبياً، فقد وصلنا في ساعة متأخّرة مِنَ الليل.

أمّا وليد فكان قد اختفى فور ظهور سامر عند باب الشقّة، ولا أعرف إنْ كان قد عاد إلى مزرعة الشقراء أمْ أنّه بات في شقّة أخيه تلك الليلة.

وجدتُ خالتي ونهلة في انتظاري وعيونهما ملأى بالتساؤلات... أخبرتُهما بأنّه لا شيء يستحقُّ القلق وذهبتُ إلى غرفتي فتبعتْني نهلة، والتي سهرتْ في انتظار عودتي على نارٍ هادئة لتعرف ما حصل.

«لا شيء».

تعجبّتْ مِنْ قولي وسألتْ:

«لا شيء؟؟ كل هذا الوقت وتقولين لا شيء؟؟».

«تعرفين... الوقت ضاع في قطع المسافة مِنْ هنا إلى شقّة سامر... ذهاباً ثمَّ إياباً».

سألتْني بصبرٍ نافذ:

«المهم ماذا حدثَ وفيمَ تكلّمتما؟ وهل تصالح معكِ...؟؟».

أجبتُ بإعياء:

«أسكتي يا نهلة أنا مُتعبة ولا طاقة لي بالحديث».

وألقيتُ بثقل جسمي على السرير... ومددتُ أطرافي... لكن نهلة لمْ تعتقني:

«أرجوكِ يا رغد أخبريني بما حصل الفضول يخنقني؟؟».

قلتُ أخيراً وأنا أنظر إلى السقف وأتنفَّس الصعداء باسترخاء بعد كل ذلك التوتّر...:

«تشاجر معي... فجَّر صواريخ فتّاكة في وجهي... وهدّدني بأنْ...».

قالتْ نهلة بلهفة:

«بأنْ ماذا...؟ أكملي!؟».

فوجهتُ بصري نحوها وقلتُ:

«بأنْ يهشّم عظام حسام إنْ عاود طرح موضوع الزواج ثانية...».

حملقتْ بي نهلة بدهشة... ثمَّ قالتْ مستنتجة:

«هكذا إذنْ...».

ثمَّ أضافتْ:

«تهديد صريح آخر...».

حينها قلتُ بجديَّة وصراحة:

«إنّه ينوي شراً... أخبري حسام بأنْ يبتعد عنّي وأنْ يُلغي الفكرة نهائياً مِنْ رأسه لينجو بنفسه...».

غضبتْ نهلة مِنْ كلامي الصريح الجارح... وقالتْ وهي تستدير مغادرة:

«أخبريه أنتِ بذلك... أنا لنْ أجرحَ شعور أخي بهذه القسوة... أنتِ عديمة الإحساس».

الحلقة السادسة والأربعون

الجزء الثاني

- سامر -

رفض كلٌ مِنْ أخي ورغد إطلاعي على موضوع الحوار الذي دار بينهما، لكنّي لمْ أسكتْ على الدموع التي رأيتُ آثارها في وجه رغد ليلتها.

«حسناً... أنا لن أطلبْ مِنْكَ إخباري بتفاصيل الموضوع وسأنسى أنني مَنْ جلبها وأعادها في قلب الليل وأنّ الحديث دار في شقّتي أنا... لكنني لنْ أتغاضى عن جرحكَ لها وجعلها تبكي يا وليد!».

نفثتُ كلامي أمام أخي، الجالس بصمتٍ يشرب الماء البارد... ويبتلع قطع الجليد الصغيرة السابحة في الكأس.

تجاهل أخي كلامي فغضبتُ وقلتُ:

«أكلّمكَ يا وليد ألا تسمع؟».

نظر أخي إليّ مِنْ خلال زجاج الكأس الشفاف الذي يحمله في يده وأجاب:

«أسمع».

فقلتُ:

«إذن أخبرني... لماذا جعلتّها تبكي؟ لماذا تعاملها بخشونة؟».

«ليس مِنْ شأنكَ يا سامر وأرجوكَ... أنا مُتعب كفاية... دعني أسترخي».

فقلتُ مستنكراً:

«ليس مِنْ شأني؟؟ كيف تقول هذا؟ إنّها ليستْ ابنة عمِّكَ وحدكَ...».

وكأنّ الجملة أثارتْ أخي فقال بحدة:

«الأمر لا يعنيكَ يا سامر فأرجوكَ كل الرجاء ألاّ تتدخّل».

فقلتُ غاضباً:

«بل يعنيني... أنا لا أسمح لأحدٍ بأنْ يقسوَ على رغد ويسبّب لها الألم...».

وقف أخي فجأةً... وألقى بالكأس بعنف نحو الأرض فتكسّر... ثمّ صرخ غاضباً:

«أما زلتَ تفكّر بها؟؟... سامر... أيها الأحمق... إنّها لا تكترثُ بِكَ».

جفلتُ ولمْ يمكنني التعقيب. اقترب أخي منّي حتّى صار أمام وجهي مباشرةً وإذا به يسألني:

«ألا زلتَ تحبُّها؟؟».

ففارتْ الدماء في وجهي... لمْ أكنْ أتوقّع منه هذا السؤال وهكذا مباشرة... أخي أمسكَ بذراعي بقوّة وقال:

«لقد رأيتُ ما تُخبِّئه في خزانتكَ... يا لكَ مِنْ بائسٍ يا سامر!!... تخلّص منها تماماً... إنها لا تفكِّر بكَ... ولنْ تعود إليكَ... لا تتعِب نفسكَ... انسها نهائياً».

وطعن كلام أخي على جرح قلبي مباشرة... فأبعدتُ يده عنّي فعاد وأمسكَ بي وأعاقني عن الحركة وقال:

«أخرِجها مِنْ رأسكَ نهائياً يا سامر... ولا تدافعْ عنها فهي خائنةٌ وتستحقُّ العقاب».

عند هذا لمْ أتمالك نفسي ودفعتُ بأخي بقوَّة حتى ارتطم بالجدار. وأوليتُه ظهري قاصداً الخروج مِنَ المكان غير أنّه أمسكَ بي فجأة وجذبني في اتجاهه ولوى ذراعي... وهو يقول:

«أجبْ على سؤالي أوّلاً».

حاولتُ الفكاك منه ولكنه كان يطبق عليّ ويعيق حركتي كلما أردتُ التملّص.

«اتركني يا وليد».

ورفستُ بطنه بركبتي حتّى أبعده عنّي. وبصراحة رفستي لمْ تكن قويّةً... لكنّ أخي أطلق صرخة ألم واندفع مبتعداً عنّي... وأمسك ببطنه وراح يتلوّى. ثمَّ إذا به يجثو على الأرض بالضبط فوق شظايا الكأس المكسور دون أنْ ينتبه لها... ويحني رأسه إلى الأرض ويتقيّأ الماء الذي شربه قبل قليل... ممزوجاً بالدم...

هلعتُ لمنظر أخي... وأقبلتُ أليه قلِقاً ومددتُ يدي نحوه، غير أنّه أبعدها بفظاظة وأخذ يتلوّى ويئنُّ...

وأخيراً نهض وسار نحو الباب.

«إلى أين؟؟».

فالوقت كان قد تجاوز الواحدة ليلاً... ويُفترض به المبيت عندي... ووضعه لا يسمح بالمغادرة...

تبعتُه وحاولتُ استيقافه إلا أنّه صدَّني وغادر الشقّة... وقبل غروب الشمس التالية اتصل بي وأخبرني بأنه في طريقه إلى المطار... مسافراً إلى الجنوب.

سافر أخي إلى المدينة الساحلية... وغاب عنّا بضعة أسابيع.

جاء سفره مفاجِئاً ودون سابق تخطيط وتهيئة... وتوقّعتُ أنْ أواجه موقفاً صعباً مع رغد لدى إبلاغها عن هذا... فكتمتُ النبأ عمداً في البداية...

وفي الآونة الأخيرة لاحظتُ إنَّ رغد لحدٍ ما قد هدأتْ... أعني أنّها لمْ تعدْ تثور وتغضب بسرعة... بل بدتْ مستسلمةً وخاضعةً لما نقوله لها بدون جدال. صحيح أنَّ حالتها هذه لمْ ترضِني لكنها على الأقل أفضل مِنَ التهيُّج الشديد الذي سبقها، وكذلك أبدتْ تجاوباً جيداً مع برنامج العلاج في المستشفى وحضرتْ المواعيد التالية بلا اعتراض... والأهم... أنها توقّفتْ عن الاتصال بهاتف وليد وعن السؤال عنه...

اعتقدتُ أنَّ ما دار بينهما تلك الليلة قد أراحها بشكلٍ ما... وأنَّ اعتقادها أنَّ وليد في الجوار هدّأ نفسيّتها... وخشيتُ إنْ أنا كشفتُ لها حقيقة سفره الآن أنْ تتقلّب بها الأحوال، فواصلتُ كتم النبأ إلى أنْ حلَّ هذا اليوم... والذي قرّر فيه الطبيب نزع جبيرة يدها.

بعد أنْ نُزِعتْ الجبيرة... وحرّكتْ رغد يدها... رأيتُ ابتسامة تشعُّ على وجهها ولأوّل مرّة مُذ قَدُمَتْ مِنَ الجنوب... وبمجرّد أنْ غادرنا عيادة الطبيب قالتْ لي:

«سأتّصل بوليد وأخبره بأنّني أستطيع تحريك يدي كالسابق. لا بدّ وأنّه سيفرح للخبر!».

واستخرجتْ هاتفها واتّصلتْ به ولمْ يرد، فحمدتُ الله في داخلي... لكنّها سرعان ما فكّرتْ بالاتصال بالمزرعة والسؤال عنه... حينها لمْ أجدْ مناصاً مِنْ إطلاعها على الحقيقة...

ساعتها تجهّم وجه رغد واختفتْ تماماً آثار الابتسامة التي مرّتْ على وجهها مرور الكرام... أحسستُ بالندم على تسببي بقتل بهجتها القصيرة... ولكي أشجّعها أدّعيتُ أنَّ وليد قد أعرب لي عن عزمه اصطحابنا معه في المرّة المقبلة.

ومضتْ الأيام والأسابيع وهي على حالٍ مستمرّة مِنَ العزلة وفقدان الاهتمام بأي شيء. حتّى أنّها نحلتْ أكثر مما هي نحيلة وانطوتْ على نفسها أكثر ممّا هي منطوية وما عدتُ أطيق رؤيتها بهذا الوضع.

الشيء الوحيد على الأقل... الذي صرفتْ إليه بعض الاهتمام... كان الرسم. ولكي أشجّعها على الانشغال به وطرح الأحزان جانباً جلبتُ لها عدّة الرسم كاملة، ووعدتُها كذلك بشراء حاسوب محمول مع ملحقاته عمّا قريب...

أمّا عنْ وليد فكما فاجأني بسفره فاجأني بعودتِه ذلك اليوم...

صُدمتُ للوهلة الأولى عندما دخلتُ شقّتي ورأيتُه جالساً يشاهد التلفاز... وقد كان وجهه شاحباً هزيلاً ملتحياً، وقد خسر جسمه عدّة أرطال. ولمْ يبدُ أنّه قد حلق شعره أو ذقنه منذ لقائي الأخيرِ به قبل أربعة أسابيع...

وقف ليحييني ويصافحني، فحييتُه وسألتُه:

«ماذا حلّ بجسدكَ؟؟!».

فابتسم وردّ:

«القرحة حرمتنا مِنَ الطعام...».

«هل تراجع طبيباً؟».

«لا وقت لذلك، العمل مضغوطٌ جداً وبالكاد نتنفّس».

وتبادلنا حديثا قصيراً عرفتُ فيه أنّه عائدٌ مِنْ أجل شؤون عمل تتطلّب توقيع زوجته شخصياً على بعض الوثائق الهامّة...

«ولكن... ألستَ موكّلاً للتصرُّف بكل شيء... توكيلاً شاملاً ورسميّاً».

«بلى، لكن هناك بعض الاستثناءات الضرورية».

أطرقتُ برأسي برهة، وراودني سؤالٌ طارئ لمْ يسبق لي أنْ طرحته على أخي:

«متى ستتزوّجان؟».

ألقى عليّ أخي نظرة لا مبالاة، ثمّ أدار وجهه بعيداً عنّي... واستخرج مِنْ أحد جيوبه قرصاً دوائياً ووضعه في فمه. ثمّ جذب نفساً عميقاً ثمّ قال:

«أي زواج وأي فرح... ألا ترى ما نحن فيه الآن؟؟».

إشارةً إلى حادثة وفاة أمّ خطيبته. ثمّ تابع:

«إنني أريد على الأقل... أنْ تسير أمور المصنع كما يجب. أروى لا تفكّر في حجم الخسائر التي ستلمّ بثروتها إنْ هي بقيتْ عالقةً في الشمال وأملاكُها مزروعةٌ في الجنوب. لولا السيد أسامة المنذر بعد الله لفاتها الكثير... ليس جميع موظّفي المصنع والشركة بأمانة المنذر. يجب أنْ يُبقي صاحب الأملاك عينه مفتوحةً على ثرواته... يجب أنْ تعود إلى الجنوب».

فهمتُ حرص أخي على أموال زوجته، وتفانيه في العمل لأجلها، وقلتُ:

«البركة فيكَ يا أخي».

فنظر إليّ وأوشكَ أنْ يقول شيئاً لكنّه تراجع والتزم بالصمت. ثمّ عاد فقال:

«أنا لا أريد العيش وحيداً هناك... أريد عائلتي مِنْ حولي... المنزل كبير وكئيب...».

فانتهزتُ الفرصة وسألتُ:

«ماذا عن عودتنا أنا ورغد؟».

وكأنّ السؤال أوجعه أو صبَّ خل الليمون الحامض على معدته، فإذا بي أرى وجهه يتألّم ويده ترتفع إلى موضع معدته وفمه يطلق آهة مريرة...

قلتُ قلِقاً:

«أأنتَ بخير؟».

وما كان مِن وليد إلاّ أنْ وقفَ واستدار باتجاه الباب. قال أخيراً وهو ينصرف:

«ليس بعد... دعهم ينزعون جبيرة رجلها أوّلاً... أراكَ لاحقاً».

عندما وصل إلى الباب توقّف واستدار إليّ وقال:

«لا تُنبئها عن حضوري».

- رغد -

ذات نهارٍ... وفيما أنا حبيسةٌ في غرفتي لا أفعل شيئاً غير محاولة تذكُّر ملامح وجوه أحبابي البعيدين... ورسمها على الورق... أمّي... أبي... دانة... ووليد... وليد قلبي الحبيب الغائب... طُرِق الباب...

«رغد هل أنتِ مُستيقظة؟».

وكان صوت حسام. أجبتُه بنعم، فأخبرني بأنّ لديه ما يعطيني إيّاه.

طبعاً كنّا أنا وهو نتحاشى الجلوس أو التحدُّث معاً ما أمكننا... بعد الذي حصل...

أغلقتُ كرّاستي وقمتُ وارتديتُ حجابي وفتحتُ الباب فرأيتُه يحمل صندوقاً ورقياً كبيراً

وثقيلاً على ما بدا...

سأل:

«أين أضعه؟؟».

قلتُ مستغربةً:

«ما هذا؟».

فأجاب مستغرباً:

«أليستْ أغراضكِ داخل الصندوق؟».

سألتُ متعجِّبةً:

«أغراضي أنا؟».

«بعث به ابن عمّك...».

وتذّكرتُ الحاسوب المحمول الذي وعد سامر بشرائه لي بعد نزع جبيرة يدي... واستنتجتُ أنْ يكون هذا هو. قال حسام:

«أين أضعه؟ فهو ثقيلٌ ولنْ تستطيعي تحريكه».

قلتُ وأنا أشير إلى الطاولة الصغيرة عند الزاوية:

«هناك مِنْ فضلكَ».

وسرتُ خلفه وأنا أقول:

«لا بدّ أنّه الحاسوب المحمول...».

وضع حسام الصندوق على المكتب وهو يسأل:

«حاسوب؟ عظيم! مِنْ أي صنف؟».

وأخذ يطالع جوانب الصندوق بحثاً عنْ أي ملومات ولمْ نجد شيئاً قلتُ:

«افتحْ لنرى».

وبادر حسام بفتح الصندوق، ودُهِشنا حين وجدنا محتواه مجموعةَ مِنَ الكتب والمجلات والكراسات... وأدوات الرسم...!

استخرجتُ الكتب فإذا بها كُتُبي الدراسية!! أخذتُ أقلّبها متعجّبة وقلتُ:

«هذه... كتبي الدراسيّة!!».

وعدتُ أتأمّل المجموعة وأستخرجها واحداً بعد الآخر... وأقول وأنا مندهشة:

«عجباً!! كيف أحضرها سامر؟!».

قال حسام:

«وليد مَنْ بعثها».

وليد!؟... وليد؟؟؟

اسم عادي... اسمعه عشرات المرّات في اليوم... بيني وبين نفسي... أو بين وجهي وصورته في المرآة... أو بين قلمي وكراستي ورسماتي... أو حتّى مِنْ لسان أي شخص مِنْ

حولي...

وليد... هو الاسم الذي يلفظه قلبي مع كل نبضةٍ ويزفره صدري مع كل نَفَس... اسم معتادةٌ حواسي على استقباله كل حين... لكن العجب كل العجب... أنْ يقشعرَّ جسدي فجأة... حالما لُفِظَ هذه المرّة...

فجأة... إذا بي أُحسُّ بطوفان هائلٍ مِنَ الدماء يصعد إلى وجهي ويجتاح قسماته... ويوشك على تدمير ملامحه وطمس معالمه...

وأعدتُ التحديق في محتويات الصندوق... واستخراجها وتلمّسها... وكأنني أبحث عن بقايا بصمات وليد عليها...

آه يا وليد... تبعث إليَّ بكتبي الدراسية وأدوات رسمي... ألا زلتَ تهتم بي؟؟... نعم أنتَ كذلك... أنتَ كذلك...

لو لمْ يكنْ حسام إلى جانبي ساعتها لأكببتُ على الصندوق وما حوى مصافحةً ومعانقة.

التفتُّ إلى حسام وسألتُه مستغربة:

«ولكن... كيف بعثها بها؟ عبر البريد الجوي؟؟».

نظر حسام إليّ نظرة هادفة ثمَّ قال:

«أحضرها بنفسه».

عفواً؟؟

ماذا تقول؟؟!

حملقتُ في حسام مطالبةً بأنْ يعيد الجواب... فأنا اليوم صمّاء ولا أسمع...

«أحضرها... بماذا؟؟ بالـ... بالبريد؟؟».

ونظرتُ إليه منتظرة أنْ يقول نعم، لأنني لنْ أصدّق غير ذلك، لكنه قال:

«بنفسه».

ملأتْ الدهشة عينيّ ورددتُ:

«بنفسه؟؟».

فأومأ نعم... فسألتُ بسرعة:

«ماذا تعني؟؟ وليد... وليد جاء... إلى هنا؟؟».

فأومأ بنعم... شهقتُ ورفعتُ يدي إلى صدري تلقائياً... ربّما لأهدِّئ مِنَ الاضطراب المفاجئ الذي اعتراه...

«لكن... آه... كيف؟؟ وليد مسافر.. إنه... إنه...».

فقال حسام:

«إنه مَنْ جلبها وقد استلمتُها مِنْ يده مباشرة».

هتفتُ وأنا مذهولة:

«متى؟؟!!».

أجاب:

«الآن».

قلتُ وعيناي ينفتحان أوسعهما:

«الآن!!».

قال وهو يرى انفعالي:

«نعم. اتصل بوالدي قبل قليل وقال أنّه سيمرُّ لإيصال شيءٍ لكِ».

انتفض جسمي... وقلتُ مرتبكة:

«هل... تعني... أنّه... كان هنا؟؟ كان هنا؟؟».

حسام نظر إليّ نظرة حادة ثمّ أجاب:

«تركتُه واقفاً مع أبي في الفناء... وأتيتُ أسلّمكِ الصندوق».

ارتجّ دماغي إثر ذلك... ترنّحت في وقفتي كما لو كنتُ أقف على كُرة متدحرجة... وليد هنا؟؟ هنا؟؟

حسام رأى التعبيرات القوية على وجهي... ورآني وأنا أندفع فجأة مهرولة نحو الباب... وأسير بسرعة... بسرعة... بكل ما أوتيتُ على ضعفي مِنْ قوّة... بسرعة... قبل أنْ يرحل وليد...

سمعتُ حسام يلحق بي ويناديني... لكنني تجاهلتُه وسرتُ عرجاء واطئة على رجلي المصابة ورافعة ثقلها مرّة... ومستندة إلى عكازي مرّة أخرى... متجاهلةً الألم الذي اشتعل في رجلي كصعقة الكهرباء... فقط لأدرك وليد قبل أنْ يرحل...

وأخيرا وصلتُ إلى الباب الرئيسي للمنزل... وما إنْ فتحتُه حتّى رأيتُ عمّي أبا حسام مقبلاً نحوه...

قلتُ بلهفة:

«أين وليد؟؟».

استدار للوراء ينظر إلى مَنْ كان يقف بجواره قبل قليل... نظرتُ إلى بوابة السور الخارجي فرأيتُ وليد يفتح البوابة الخارجية على وشك الخروج...

هتفتُ بأعلى صوتي:

«وليــــــــــــــــــد...».

خشيتُ أنْ يكون صوتي قد خرج هزيلاً بالكاد لامس الهواء قرب فمي... لكنّه وصل إليه... رأيتُه يتوقّف ويستدير...

خرجتُ عبر الباب وهبطتُ العتبات بسرعة متجاهلةً ألم رجلي... وهرولتُ وأنا أعرج حافية... أدوس على الرمل والحصى... وبقايا أوراق وأغصان الأشجار العالقة في الممر... قاطعةً المسافة الطويلة بين البوابتين... حتى صرتُ قريبةً منه... للحد الذي... لو تخطّيتُه... لانصهرت مِنْ وهج حرارته...

كان الوقت ظهراً... والشمسُ حارّة... وقويّة السطوع... تعشي العين عن الرؤية... وحاربتُها

حتّى أُرسِل نظراتي إلى وليد...

نعم... إنّه وليد... بدمه وجسمه... بطوله وعرضه... بكيانه وهيئته... والهالة مِنَ اللهب الأحمر المتوهّج... التي تحيطُ به...

كان يضع نظارةً شمسية تُخفي عن شوقي إي نظرة انتظرتُ إنْ أصافحها في عينيه... بعد فراقٍ طويلٍ قاسٍ...

وكان شعره طويلاً بعض الشيء ومبعثر... لاعبه النسيم الصيفي الحار لحظة هبوبه...

وليد بقي واقفاً في مكانه... لمْ يتحرّك... ولمْ يُظِهر أي حركة تشير إلى أنّه يكترث لظهوري...

وقفتُ أستردّ أنفاسي التي نُهِبتْ مذ علمتُ بوجوده... وأحاول خرق نظّارته السوداء ورؤية ما تخفيه عدستاها خلفهما...

لمْ أرَ شيئاً...

اقتربتُ منه أكثر... صرتُ أمامه... تفصلني عنه ثلاثة أمتار...

وقفتُ صامتةً لا أعرف ماذا أقول... مِنْ أين أبدأ وأين أنتهي؟؟ دعوني... فقط أتأمّل وليد... وأملأ قلبي مِنَ الإحساس الجميل الذي ينتابني بقربه...

ماذا حلَّ بي؟ لماذا لا أستطيع التحدُّث؟؟ هيا يا لساني اِنطلقْ... أما اكتفيتَ حرماناً؟؟ أرجوكَ... قُلْ شيئاً...!

«وليد...».

نطقتُ باسمه وعيناي توشكان على التهامه... وأذناي على أهبّة الاستعداد لخطف أي كلمةٍ تصدر مِنْ لسانه قبل مغادرة فمه...

«وليد... أأأأ... لمْ أعلم أنّكَ هنا».

لمْ يرد. قلتُ:

«كنتُ... أعتقد أنّك... مسافر».

لمْ يردْ. قلتُ:

«متى عُدتَ؟».

أجاب أخيراً:

«قبل أيّام».

قبل أيّام؟؟ أنتَ هنا منذ أيّام... وأنا لا أعرف؟؟

«لمْ... يُخبرني سامر عن عودتكَ...!!».

ثمَّ أضفتُ:

«حمداً لله على سلامتكَ».

ردّ مقتضباً:

«سلّمكِ الله».

انتظرتُ منه أنْ يخبرني عنْ أي مبررٍ لعدم إحاطتي علماً بعودته... أو بمجيئه إلى منزل خالتي الآن... ولمّا لمْ أرَ منه المبادرة لشيء سألتُ:

«و... كيف هي أحوالكَ؟».

فنطق مجيباً ببرود:

«بخير».

ولمْ يسألني عن حالي أنا.

سمعتُ صوت باب المنزل الرئيسي ينغلق فالتفتُّ إليه ورأيتُ حسام وأباه يقفان هناك... يراقبانني عن بعد... وعندما عدتُ بنظري إلى وليد رأيتُه وقد مدَّ يده إلى قبضة بوّابة السور يوشك على فتحها.

قلتُ:

«هل أنتَ مستعجل؟ هل ستذهب الآن؟؟».

«مررتُ لجلب الكتب قبل سفري».

توقّف قلبي عن النبض وانحشرتْ أنفاسي في صدري...

قلتُ مذهولة:

«ستسافر؟؟».

«نعم».

«متى؟».

«غداً».

صعقني الخبر... ستسافر يا وليد؟؟ هكذا... دون أي اعتبار لي؟؟ دون أنْ تخبرني لا عن حضوركَ ولا عن سفركَ... دون أنْ تفكِّر بالمرور عليَّ ولو لإلقاء تحيّةٍ عابرة؟؟

قلتُ وأنا أنهار مِنْ خيبة الأمل:

«ستعود... إلى بيتنا؟؟».

«نعم».

«وهل ستمكث هناك... طويلاً».

«ربّما».

ورفع يده ينظر إلى ساعته ثمَّ قال:

«بعد إذنكِ».

وهمَّ بالانصراف فهتفتُ مسرعة:

«وليد انتظر».

توقّف ولمْ يتكلّم فقلتُ بلهفة:

«أرجوكَ... أريد أنْ أتحدّث معكَ».

فأجاب دون أنْ يُلقي بالاً لي:

«فيما بعد... لا وقت لديّ».

فسرتُ خطوتين نحوه وأنا متشبّثة به بكل كياني... لا تذهبْ أرجوكَ...!

قلتُ:

«متى إذن؟ أنتَ ستسافر... لمْ تزرني... ولا ترد على اتصالاتي».

فلم يعلّق. ولمْ أستطع قراءة شيء في وجهه بسبب النظارات... ثمَّ إذا به يقول:

«مع السلامة».

وأدار ظهره لي، وأدار قبضة البوابة وفتحها.

وأنا أراه يوشك على الرحيل... بعد لقاءٍ شديد البرودة... في حين أنَّ شوقي إليه يكاد يقتلني... لمْ أصمد...

هتفتُ:

«انتظر يا وليـــــد».

وهرولتُ باتجاهه متناسيةً حالة رجلي... التي خانتْني فجأةً فتعثَّرتُ بخطواتي وهويتُ أرضاً...

رآني وليد أقع... فأغلق البوابة وسار باتّجاهي بضع خطوات وسأل:

«هل أنتِ بخير؟».

وكذلك سمعتُ صوت حسام يُقبل مِن الخلف وهو يسأل ذات السؤال.

نفضتُ يديَّ مِنَ الرمال التي علقتْ بهما، ثمّ مددتُهما إلى السور المحيط بالأشجار والمجاور لي واستندتُ عليه محاولةً الوقوف لكن قواي المنهارة بسبب وليد لمْ تسعفني...

اقترب وليد منّي أكثر... ورأيتُه ينحني ويمدُّ يد العون لي...

نظرتُ إليه بتدقيق... لمْ تمكّنني النظارة السوداء مِنْ رؤية ما كنتُ أبحث عنه...

مددتُ إليه يدي اليمنى... والتي كانت مجبّرة فيما مضى... وطليقة الآن... وأحسستُ به يتردَّد قبل أنْ يقرِّب يده يريد الإمساك بها ليساعدني على النهوض، غير أنّني تجاوزتُ يده ومددتُ يدي أكثر نحو وجهه... وانتزعتُ نظارته...

الآن... يمكنني أنْ أسبح في بحر عينيه... الآن... أستطيع أنْ أغوص في أعماقِه وأبحث عن نبضاته... عن الحنان الذي يغلّفني به... عن الرعاية التي يحيطني بها... عن العطف الذي يغمرني به...

لكن... للذهول... لمْ أقرأ شيئاً مِنْ هذا في عينيه...

كانتا باردتين برود الرياح المثلجة في القطب الجنوبي... جامدتين جمود الجبال الجليدية... خاليتين مِنْ أي دفء... أي شوق... أي اهتمام... وأي معنى...

ارتجف فكّي الأسفل مِنْ برودة وليد... التي أوشكتْ أنْ تصيِّر صيف ذلك النهار شتاءً قاسياً... اهتزّ قلبي... وارتعدتْ يدي فأوقعتُ النظارة أرضاً...

كان حسام قد وصل يتبعه أبوه... يسألاني إنْ كنتُ بخير...

وليد سحب يده التي كانتْ ممدودة إليَّ... ومدّها إلى النظارة يريد التقاطها...

فحرّكتُ يدي وأمسكتُ بيده أريد أنْ أشعر بأي ذرة دافئة فيه...

وليد أراد سحب يده فأحسستُ به يستل خنجراً كان قد طعنه في صدري...

لمْ أقوَ على ذلك... فاضتْ الدموع في عيني وهتفتُ وأنا أجذب يده وأنهض معتمدةً عليها وأقول منهارة أمامه:

«لا تفعل هذا بي يا وليد... أنا لا أتحمّل...».

وزفرتُ زفرات باكية بألمٍ وأنا متشبّثة بذراعه وهو واقفٌ كشجرةٍ جامدة... لمْ يحرّك ساكناً...

سلطتُ النظر على عينيه... والآن... أرى فيهما الكثير... الكثير...

إنهما عينا وليد قلبي اللتان ما فتئتا تحيطاني بالرعاية منذ طفولتي...

لكنّ وجهه كان مختلفاً... بارز العظام عابس القسمات بارد التعبيرات...

ورأيتُ الحمرة تعلوه وزخّات مِنَ العرق تسيل على صدغيه... أهذا بسبب الشمس الحارقة؟؟ أمْ بسبب النار المضرمة في صدري أنا...؟؟

قلتُ وأنا متعلّقة بذراعه:

«خُذني معكَ...».

علتْ الدهشة وجه وليد فقلتُ:

«أريد العودة معكَ... إلى بيتنا».

وليد نظر إلى مَنْ خلفي ثمّ عاد ينظر إليّ وأراد تخليص ذراعه مِن يدي... فما كان منّي إلا أنْ شددتُ الضغط عليها أكثر وقلتُ:

«خُذني معكَ أرجوكَ».

وليد قال:

«إلى أين؟».

«لا يهم. سأذهب معكَ إلى أي مكان».

وليد أزاح يدي عن ذراعه... ورأيتُ عينيه تلقيان نظرةً عليها وشعرتُ بيده تشدُّ بلطفٍ عليها... ثمّ تركها ورجع خطوة للوراء... وقال:

«يجب أنْ أذهب الآن... زوجتي تنتظرني».

واستدار مولياً ظهره إليّ... وببساطة اختفى عن ناظري... مثل السراب...

زوجتي تنظرني... زوجتي تنتظرني... زوجتي تنتظرني...

لفّتْ الجملة برأسي حتّى أصبتُ بالدوار وترنحتُ وجثوتُ فجأةً على الأرض...

رأيتُ حسام يظهر أمامي مُنحنياً على الأرض وهو يقول:

«هل أنتِ بخير؟؟».

أغمضتُ عينيّ فأنا لمْ أقوَ على تحمّل سطوع الشمس المعشية... وحالما فتحتُهما لمْ

أجد غير حسام قريباً منّي...

بحثتُ يُمنةً ويسرةً...

هل كنتُ أحلم؟؟

هل كان وليد هنا؟؟

لا لمْ يكن...

كان وهماً... خيالاً... تهيؤاً رسمه قلبي الشغوف به وعيني المتلهفة للقائه...

نظرتُ إلى البوابة... إلى الحيّز الذي توهّمتُ أنّ وليد كان يشغله قبل قليل... تمنّيتُ لو أنَّ طيفه بقي عالقاً هناك... أردتُ أنْ أنهض وأعانق جزيئات الهواء التي لامستْ جسده... لكنني عجزتُ إلا عن الانهيار بجذعي على السور...

سمعتُ صوت حسام يناديني... وأحسستُ بيديه تمسكان بي... نظرتُ إليه فإذا بي أراه يحملق بي بقلق وعطف... ويقول:

«لا بأس عليكِ... هلمّي بنا إلى الداخل».

وساعدني على النهوض. وفيما أنا أنهض لمحتُ نظارةً شمسيّةً سوداء ملقاة على الأرض بالقرب منّي...

التفتُ إلى حسام وسألتُ بضياع:

«لمَنْ هذه؟؟... هل كان وليد هنا حقاً؟؟».

ولمْ يقل حسام شيئاً... فانحنيتُ والتقطتُ النظارة وتأمّلتها وهتفتُ:

«لقد كان وليد هنا... لقد تركني ورحل... رحل مع الشقراء... آه... لماذا فعل هذا بي؟؟».

وهُيّأ لي... أنني رأيتُ حسام يسحب النظارة مِنْ يدي ويلقى بها بعيداً على العشب... وتوهّمتُ أنّني سمعتُ صوته يهمس في أذني...

«تخلّصي مِنْ هذا يا رغد... إنّه لا يستحق...».

الحلقة السابعة والأربعون

تحت جناحك مهما يكن

- أروى -

في طريق عودتنا مِنْ مكتب الشؤون المدنية القابع في المدينة الصناعية حيث استخرجنا بعض الوثائق اللازمة للعمل، مررنا على منزل خالة رغد وقال وليد أنّه سيوصل إليها بعض الحاجيات.

وبعدما عُدنا إلى المزرعة لاحظتُ شروده وانشغال باله. ولكي أكون دقيقةً أكثر أقول أنني لاحظتُ ذلك منذ أنْ غادر وليد منزل خالة رغد.

كان وليد قد عاد قبل ثلاثة أيام مِنَ المدينة الساحلية جالباً معه حقيبة عمله والكثير مِنَ الأوراق والوثائق المهمّة التي يريد منّي الاطلاع عليها وقبولها أو رفضها. حسابات... عقود... فواتير... مشاريع... وأشياء مزعجة اعتاد وليد على أنْ يُقحِمني فيها حينما كنّا في المدينة الساحلية.

شؤون العمل هي كل ما دار نقاشنا حوله خلال الأيام القليلة التي قضاها هنا، ولمْ نتحدّث عن أي شيء آخر، وكأننا لسنا خطيبين... فرّقتْ بينهما عدة أسابيع والتقيا أخيراً.

وها هو الآن يستعد للمغادرة ويأخذ حقيبته مِنْ فوق المكتب ويخطو وسط الغرفة... باتّجاه الباب. كان يريد الذهاب إلى أخيه ليقضي الليلة معه وليصطحبه إلى المطار غداً.

كنتُ أراقبه وهو يتحرّك، فلاحظ تحديقي به فتوقّف وسأل:

«أهناك شيء؟».

هناك أشياءٌ كثيرة ولكن لا مجال لطرحها الآن. أجبته بعد تردد قصير:

«لا... لاشيء... فقط... أتساءل... لِمَ لا تقضي الليلة هنا؟؟».

فنظر إليّ نظرة ذات مغزى، فقلتُ:

«سأعدُّ لكَ عشاءً غنياً. لا يبدو أنّكَ كنتَ تأكل شيئاً منذ أسابيع».

وخشيتُ أنْ يستسخف الفكرة لكنّه لمْ يشأ إحراجي فقال:

«لا بأس. لكن يجب أنْ يكون عشاءً مبكّراً، إذْ سيتعيّن عليّ الخروج باكراً صباحاً».

فابتسمتُ بسرور، وانصرفتُ مِنْ فوري إلى المطبخ وعملتُ بنشاط. وفيما أنا منشغلةٌ مع طهوي أقبل خالي إلى المطبخ وحيّاني ووقف يراقبني لحظة ثمّ طرح عليّ سؤالاً:

«هل تكلّمتما؟».

مشيراً إلى موضوع زواجنا المعلّق. فمنذ يوم طلبتُ مِنْه أنْ ننفصل وحتى يومنا هذا وليد لمْ يفتح الموضوع ولمْ يخبرني عن قراراته ولا ما يجول بخاطره، ولمْ يجمع بيننا لقاءٌ خاص

أو حوارٌ خاص... أو حتّى مائدة طعام. وفاة والدتي رحمها الله شغلتنا عن التفكير بأنفسنا.

علاقتنا كانت باردة كالثلج... وهو وجد في العمل مهرباً مِنَ التصادم معي... ولكن إلى متى؟؟

أجبتُ على سؤال خالي:

«ليس بعد».

فحزن وتنهّد. كان قلقاً جداً عليَّ. قلتُ له:

«إنه لمْ يُقم هنا غير ثلاثة أيام. كان مشغولاً مع الوثائق والأوراق. لمْ تسنح الفرصة».

فقال خالي:

«الشاب ينتظر منكِ أنتِ فتح الموضوع يا بنيّتي فهو لن يجرؤ على هذا في ظلٍّ ظروفنا الحالية».

قلتُ بصراحة:

«لا أعرف مِنْ أين أبدأ ولا كيف. أنا مشوّشة يا خالي وفقد والدتي أربك حياتي».

وسكتُّ برهة ثمَّ واصلتُ:

«استطعتُ دعوته للبقاء هنا الليلة، وتناول العشاء معي. سأحاول أنْ ألمّح للموضوع أثناء ذلك، وأرى إنْ... كان على استعداد للتطرُّق إليه الآن...».

شدَّ خالي على يدي وقال:

«أصلح الله أمركما وبارك فيكما... تشجعي بنيّتي...».

ثمَّ غادر...

تركتُ الطعام ينضج على النار... وذهبتُ إلى حيث وليد. كان جالساً في غرفة المعيشة يطالع الصحيفة باهتمام، وقد ترك حقيبة سفره على المقعد إلى جانبه. هممتُ بأنْ اقترب منه وأبعد الحقيبة وأجلس بجواره... ولكن خانتني شجاعتي. حين انتبه وليد لحضوري قال معلّقاً على خبر قرأه في الصحيفة:

«سيحظرون الرحلات الجوية مِنْ جديد... لا نعلم لِكَمْ مِنَ الزمن... سيزداد الأمر سوءاً ومشقّةً».

وقطب حاجبيه استياءً... وتابع القراءة. أردتُ التفوه بأي تعليق غير أنَّ هاتفه سبقني بالرنين فأجابه وليد، وسمعتُه يتحدَّث باهتمام إلى الطرف الآخر والذي أدركتُ مِنْ مضمون الكلام أنّه شقيقه يسأله عن موعد حضوره ثمَّ يطلب مِنه أمراً مُلحّاً...

هتفَ وليد وهو يقف منفعلاً:

«رغد؟؟».

فأصغيتُ لحديثه باهتمام... وكانتْ آخر جملة قالها:

«حسناً أنا قادم».

وأنهى المكالمة. سألتُه بفضول:

«خيراً؟؟».

فنظر إليَّ نظرة سريعة ثمَّ قال:

«يجب أنْ أغادر الآن... أنا آسِف».

أصبتُ بخيبةٍ كبيرة... وقلتُ معترضة:

«والعشاء؟؟».

فقال معتذراً:

«تناولاه بالصحة والعافية... لنْ أستطيع مشاركتكما».

غضبتُ وقلتُ:

«لقد أعددتُه مِنْ أجلكَ أنتَ يا وليد... ألا تقدِّر هذا؟؟».

أطرق وليد برأسه ثمَّ قال معتذراً:

«بلى يا أروى طبعاً أقدِّر... لكن...».

فقاطعتُه منفعلة:

«لكن حبيبة القلب أولى بكل التقدير».

نظر إليَّ وليد والدماء آخذة في الصعود إلى وجنتيه. ولمْ يجرؤ على التفوّه بكلمة. أما أنا فقد اختلَّ ميزاني لحظتها وأطلقتُ لساني قائلة:

«لِمَ سكتَّ؟ قلْ شيئاً... ألستَ ذاهباً إليها؟».

زفر وليد زفرة ضيق من صدره ثمَّ قال:

«سأذهب إلى شقيقي، يطلب حضوري حالاً والأمر مقلِقٌ».

«لكنه أمرٌ متعلِّقٌ برغد... أليسَ كذلك؟؟».

ولمْ يجب وليد فقلتُ:

«لنْ يمكنكَ الإنكار».

هنا قال:

«لا أعرف ماذا هناك يا أروى... سامر لمْ يوضِّح لكنه أقلقني... ربّما حدث شيءٌ لا قدَّر الله».

فقلتُ:

«أو ربَّما الصغيرة الغالية تتدلَّل على وصيِّها الحنون النبيل!».

نظر إليَّ وليد بانزعاج فقلتُ:

«إنها بالمرصاد لأي شيء يسعدني... ألا تلاحظ هذا؟؟».

زفر وليد الكلمات بضيق:

«هذا ليس وقته... أرجوكِ...».

وأولاني ظهره وتناول حقيبته هاماً بالمغادرة. لمْ أقدر على السيطرة على نفسي حينها، وشعرتُ بالإهانة والخذلان والغيظ، فهتفتُ مجنونة:

«وليد...إذا خرجتَ الآن فلا تعدْ إلى هنا ثانيةً».

توقّف وليد واستدار إليّ... ورأيتُ في عينيه دهشةً ثمّ مرارة كبيرة... لكنني فقدتُ التحكم بنفسي... في أحوج الأوقات إليه تركني وسافر... والآن مع أوّل بادرة للتصالح بيننا وفيما أنا أشغل تفكيري وجهدي فيه ولأجله... يتركني وينصرف إليها...

أشاح وليد وجهه دون تعليق وسار نحو الباب. فهتفتُ مجدداً:

«قلتُ... إذا خرجتَ فلا تعدْ ثانيةً... أبداً... هل سمعتَ؟».

ولمْ يكترثْ بكلامي، فصرختُ في غيظٍ:

«هل سمعتَني يا وليد؟؟».

استدار آنذاك بعصبيّة ونظر إليّ وهتف بغضب:

«نعم سمعتُ».

ثمّ أضاف:

«كم يؤسفني هذا مِنْكِ... أوري... أولاً أنا قلتُ أنني سأذهب إلى شقيقي... يعني إلى المدينة التجارية وليستْ الصناعية والطريقان مختلفان ومتباعدان... وثانياً ليس بالوقت المناسب لتقليب المواجع... دعينا نفترق بسلام الآن».

كنتُ أشعر بأنَّ جزءاً مِنْ قلبي قد نُزِع بعنفٍ، قلتُ منهارة:

«لنْ يكون هناك مرّة قادمة... إذا خرجتَ الآن فلا تعدْ... أنا لمْ أعدْ أتحمّل... هذا كثير... أي نوع مِنَ الأزواج أنتَ؟؟».

وهرولتُ منصرفةً عن غرفة المعيشة وعائدة إلى المطبخ وأسندتُ جبيني إلى الثلاجة وأخذتُ أبكي.

بعد قليل سمعتُ صوت وليد يناديني ولمْ أُجِبه. أحسستُ به يقف عند الباب ثمّ يقترب منّي، ثمّ سمعتُه يقول لي:

«أروى... لا تزيديني همّاً على هم».

واستمررتُ في ذرف عبرات الخذلان والأسف... إنَّ الهمّ الأكبر هو همُّ امرأةٍ تحب زوجها وتعرف أنَّ قلبه مشغولٌ بحب امرأة غيرها. هذا هو الهمُّ الأدهى والأمر...

قلتُ:

«إذا كنتَ متعلّقاً بها لهذا الحد ولا تستطيع الاستغناء عنها فاذهب إليها. أنا لنْ أُجبركَ على البقاء معي ولا على حبّي... ما حاجتي إلى رجلٍ مشغول القلب بغيري...؟؟... اذهبْ... ولا تعدْ إليّ ثانيةً».

- سامر -

«أجِّل سفركَ».

نظر شقيقي إليّ باستغراب ثمّ سأل:

«عفواً؟؟ ماذا؟».

فكرّرتُ والجدُّ يملأ عينيَّ:

«أجِّل سفركَ يا وليد ودعنا نسوِّي الأمور ونحلُّ المشاكل أولاً».

قال بانزعاج:

«أتجلبني مِنَ المزرعة إلى هنا مفزوعاً على وجه السرعة... مسبِّباً ما سبّبتَ هناك... لتقول لي أجِّل سفركَ؟ يا سامر وضِّح ماذا لديكَ؟ وما بها رغد؟».

أجبتُ بكل جديّة:

«ألمْ تقلْ أنّكَ لا تريد إخطارها عن حضوركَ؟ ألمْ أقلْ لكَ أنَّ هذا سيحزنها؟؟ إذنْ لماذا ذهبتَ إلى بيت خالتها اليوم وقابلتَها؟ وبطريقة جافّة؟ ألا تعرف كم مِنَ الحزن سبّبتُ لها معاملتُك هذه؟ إذا كنتَ قد ضقتَ ذرعاً بها ولا تريد تحمُّل أعباء مسؤوليتها بعد الآن ولا تطيقها بسبب خلافكَ مع أهلها فانقل الوصاية الكاملة عليها إليَّ واتركها في عهدتي».

دوهم أخي وحملق فيَّ... وأنا أركِّز في عينيه بحدّة وشدّة... ثمَّ سألني:

«ماذا تعني؟؟».

فأجبتُ منفعلاً:

«أعني أنْ تتنازل عن الوصاية عليها لي أنا... وأخلِّصكَ مِنْ هذا العناء تماماً».

وإذا بالحمرة تلوّن وجه وليد وإذا به يقول مهدِّداً:

«كيف تجرؤ؟؟».

فأجبتُ بحدَّة:

«على الأقل... أنا سأعاملها معاملةً حسنةً تليقُ بها كابنة عمٍ وحيدة ويتيمة الأبوين».

وقفَ وليد فجأة وهتف غاضباً:

«أتعني أنني لا أحسن معاملتها يا سامر؟».

فوقفتُ تباعاً ورددتُ بصوتٍ قوي:

«هل تسمِّي هذه القسوة والصرامة والخشونة... معاملة حسنة؟؟ وليد... لقد كنتُ أزورها قبل اتصالي بكَ. اتصلتْ بي الخالة وطلبتْ منِّي أنْ أذهب إليها. أخبرتْني بأنكَ ذهبتَ إليهم ظهراً وقابلتَ رغد والله الأعلم ماذا قلتَ لها، وجعلتَها تحبس نفسها في غرفتها منذ ذلك الحين ولا تفتح الباب لأحد...

حاولتُ أنْ أكلِّمها لكنّها طلبتْ منّي الانصراف... أنا لا أعرف ما الذي قلتَه لها وجعلتَها تغرق في الحزن أكثر مما هي غارقة... ثمَّ تريد السفر بلا مبالاة... وتتركني أنا أواجه الأمر وأرمِّم ما تهدمه أنتَ... أتسمِّي هذه معاملةً حسنة؟؟».

وليد نظر إلى ساعة يده... وبدا متوتّراً... ثمَّ قال:

«اتّصِل بها».

ولمْ أتحرّك... فقال وليد:

«الآن».

فقلتُ:

«أقول لكَ إنني قدمتُ مِنْ عندها قبل ساعتين وهي منزويةٌ على نفسها... وهاتفها مغلقٌ منذ النهار».

قال:

«إذنْ اتصل بهاتف المنزل واسأل عنها ودعني أكلّمها».

بقيتُ واقفاً في موضعي... أنظر إلى أخي بتشكّك... ثمّ سألتُه:

«أخبرني أوّلا... ما الذي قلتَه لها؟؟ لماذا ذهبتَ إليها؟؟».

فأجاب مندفعاً:

«أنا لمْ أذهب لزيارتها بل مررتُ لسببٍ آخر... ولمْ أقلْ شيئاً».

«إذنْ لماذا هي محطّمة هكذا؟ لا بد أنّكَ قلتَ أو فعلتَ شيئاً جارحاً حتّى لو لمْ تدركه».

وهذه الجملة استفزّتْ أخي فهتف بغضب:

«وهل تراني وحشاً ذا مخالب وأنياب؟؟».

قلتُ غاضباً:

«لا أراكَ تقدِّر شيئاً أو تفهم شيئاً... ألا تعرف ما تعني لها وما يعني رضاكَ أو غضبكَ؟؟ إمّا أنْ تكون أعمى أو بلا إحساس... وفي كلتا الحالتين لا تصلح لرعاية رغد... فدعني أتولّى أمرها بنفسي مِن الآن فصاعداً».

سكتَ وليد مبهوتاً وتبعثرتْ نظراته ثمّ استجمعها واستردّ رباطة جأشه وقال:

«اتّصل الآن».

ألقيتُ عليه نظرةً مستهجنة ثمّ توجّهتُ نحو الهاتف واتصلتُ بمنزل الخالة فأجابتني هي وعلمتُ منها أنّ رغد لا تزال حبيسة غرفتها وطلبتُ منها استدعاءها للتحدُّث معي فلمْ تستجبْ، وقلتُ لخالتي بأنْ تخبرها بأنّ وليد يريد التحدُّث معها ولكنها أيضاً لمْ تستجب.

حين وضعتُ السماعة على الهاتف رأيتُ أخي ينظر إلى ساعة يده ثمّ يقول:

«إذن دعنا نذهب».

انطلقنا مِنْ فورنا بسيارتي إلى المدينة الصناعية. عندما وصلنا إلى منزل أبي حسام لمْ يخرج وليد مِنَ السيارة بل قال:

«تعال بها».

التفتُّ إليه وقلتُ:

«لِمَ لا تأتي معي ونسوِّي المشكلة مع العائلة الآن؟».

فردّ:

«ليس هذا وقتُه».

وتركتُه في انتظاري في السيارة ودخلتُ إلى المنزل. لمْ تفتح رغد الباب إلا بعد أنْ أقسمتُ لها مراراً وتكراراً أنّ وليد قد حضر معي ويريد مقابلتها. وعندما فتحتْه ذهلنا للسواد

الذي لوّن وجهها الكئيب حتّى غدا مضاهياً لسواد وشاحها. نقلتْ بصرها بيننا ثمّ سألتْ:

«أينَ هو؟».

فأجبتُ:

«ينتظرنا في السيارة».

وبدا عليها عدم التصديق ونظرتْ إلى خالتها تبحث عن تأكيد فقالتْ أمُّ حسام:

«لقد أحضره سامر ولكنه لا يريد دخول منزلنا كما تعرفين».

فأطرقتْ رغد برأسها وقالتْ:

«أنتم تكذبون عليَّ».

وتراجعتْ خطوة بعكازها إلى الخلف فقلتُ بسرعة:

«ولماذا سنكذب عليكِ يا رغد؟ تعالي وتأكّدي بنفسكِ».

بعثرتْ رغد علينا نظرات الريبة ثمّ قالتْ:

«إذا اكتشفتُ أنكم تخدعونني...».

فقاطعتها الخالة وقالتْ:

«يهديكِ الله يا رغد... انظري إلى حالكِ وحالنا معكِ... اذهبي معه وأرحمي نفسكِ وارحمينا».

ورافقتْني رغد يدفعها الأمل خطوة ويوقفها الشكُّ أخرى حتى صرنا أمام السيارة ورأتْ وليد بأمّ عينيها... نظرتْ إليَّ غير مصدِّقة فقلتُ مؤكداً:

«هل صدّقتِني الآن؟».

ثمّ فتحتُ لها الباب الخلفي فجلستْ خلف مقعدي ورأيتُ أخي يلتفتُ إليها وسمعتُه يلقي التحية. جلستُ على مقعدي والتفتُّ إلى أخي وسألتُ:

«إلى أين؟».

فأجاب:

«جولة قصيرة».

وسرنا يرافقنا الصمتُ الشديد. ربّما كانت أفئدتنا تتخاطب وأفكارنا تتصافح دون أنْ نشعر بها. بمحاذاة الكورنيش طلب منّي أخي أنْ أوقف السيارة وأشار بيده نحو المقاعد الإسمنتية العامة قائلاً:

«دعونا نجلس هناك».

وسبقنا بالخروج مِنَ السيارة والتوجُّه نحو المقاعد. التفتُّ إلى رغد فرأيتُها قابعةً في مكانها والتوتّر منقوش على وجهها ويدها ممسكة بطرف وشاحها. سألتُها:

«ألنْ تنزلي؟».

فأجابتْ بصوتٍ وجِل:

«ماذا... يريد؟؟».

فقلتُ مُطمئناً:

«ممَّ أنتِ خائفة؟ ألستِ تريدين التحدُّث معه؟؟ هو هنا ليسمعكِ...».

وإنْ كنتُ غير واثق مِمَّا سيقوله... وإذْ بدا على رغد التردُّد، شجّعتُها قائلاً:

«فرصتنا لنقول كل ما نريد ونضع الحروف على النقط... طلبتُ مِنْه أنْ يؤجِّل سفره حتّى نحل المشاكل العالقة. هيّا قبل أنْ يغيّر رأيه».

وخرجنا مِنَ السيارة وذهبنا نحو وليد. تردّدتْ رغد في الجلوس فأخرجتُ منديلاً ومسحتُ المقعد لأنظفه وقلتُ:

«تفضّلي».

وعندما جلستْ جلسنا جوارها ثمّ التفتُّ إلى وليد وقلتُ:

«ندخل في الموضوع مباشرة... يجب أنْ تؤجِّل رحلة الغد وتعيد الحسابات».

قال وليد:

«لا مجال... سفري ضروري للغاية».

ثمّ التفتَ نحو رغد وقال:

«لا يمكنني أنْ آخذكِ معي الآن يا رغد».

وما كاد يُنهي الجملة حتى انهارتْ رغد فجأة... وكأنَّ جملة وليد كانتْ الدبوس الذي فجَّر البالون...

قالتْ وهي شديدة التهيّج وتكاد تمزّق طرف وشاحها المشدود بين يديها:

«أنا لستُ متواطئةً مع خالتي... ولستُ راضيةً عمّا قالتْ... ولنْ أُحدِث أي مشاكل مع أروى بعد الآن... سأهتمُّ بدراستي فقط... لنْ أسبِّبَ لكَ أيّ إزعاج... وأي شيء سأحتاجه سأطلبه مِنْ سامر... سأبقى مُنعزلةً في غرفتي أدرس وأرسم... وسأنفِّذ كل ما تطلبه منِّي... لكن أرجوكَ... دعني أعود إلى بيتي وجامعتي... فأنا ليس لي غيرهما ولا أريد أنْ أتشرَّد ويضيع مستقبلي أكثر مِنْ هذا أرجوكَ...!».

وانخرطتْ رغد في بكاءٍ قوي مؤثِّر... كأنها كانتْ تربطه عنوةً على طرف حنجرتها وأفلتَ منها بغتةً دفعةً واحدة... كان منظرها مؤلماً جداً.

وقفتُ كما وقف أخي وسرنا مقتربين مِنْها... وصرنا أمامها مباشرة.

قال وليد:

«ما الذي تقولينه؟!».

فقالتْ رغد بنفس الانفعال:

«سأفعل ما تطلبه منِّي لكن لا تتركني هنا أرجوكَ... أعِدني إلى بيتي وجامعتي... سأطلب مِنْ أقاربي أنْ يعتذروا مِنْكَ... الآن إذا شئتَ... وسأتصالح مع الشقراء وأنسى أنها مَنْ تسبَّب بإصابتي... قُلْ لها أنّني لنْ أزعجها أبداً ولنْ تشعر بوجودي في المنزل... أرجوكَ لا تذهب بدوني... أرجوكَ...».

كدتُ أبكي مع رغد. أخرجتُ مناديل وقدَّمتُها لها لتمسح دموعها وأنا أقول:

«رغد أرجوكِ... تماسكي».

ونظرتُ إلى شقيقي فرأيتُه يحملق فيها مُندهِشاً مِنْ سوء حالتها... ثمَّ يجلس على المقعد بجوارها ويُسنِد مرفقيه إلى ركبتيه وجبينه إلى كفَّيه ويجذب عدَّة أنفاس قوية ثمَّ يلتفتُ إليها ويقول:

«رغد... أروى لنْ تأتي معي هذه المرّة ولذلك لا أستطيع أخذكِ».

فالتفتتْ رغد إليه ومسحتْ دموعها. تابع وليد:

«عندما تتحسَّن الأوضاع سنعود جميعاً... لكن الآن... صعب».

فقالتْ رغد:

«لماذا؟».

فأجاب أخي:

«قلتُ لكِ... لأنّ أروى لنْ ترافقنا وهي ما تزال غارقةً في الحزن على فقد والدتها رحمها الله... لا نستطيع الذهاب أنا وأنتِ وسامر... لنْ يكون هذا مقبولاً ولنْ توافق خالتكِ».

فقالتْ رغد بسرعة:

«لا تأبه بكلام خالتي».

فردّ وليد:

«ليستْ خالتكِ فحسب... إنْ كانَ هذا تفكيرها هي فكيف بتفكير الآخرين؟».

فردتْ رغد:

«أنا لا آبه بتفكير أحد... أنتَ في مقام أبي... وسامر أخي... أنتما عائلتي الحقيقية وليس لي ملجأ غيركما».

وليد نظر إليَّ ليرى وقعِ الكلام على نفسي... فأرسلتُ نظري بعيداً عنه... ثمَّ سمعتُه يقول:

«حسناً يا رغد عندما آتي في المرَّة المقبلة...».

ولمْ يتم كلامه لأنّ رغد قاطعته منفعلة:

«كلاّ.. لنْ يكون هناك مرّة مقبلة... سأذهب معكَ الآن... أرجوكَ لا تتركني».

فقال وليد:

«سأسافر باكراً يا رغد... لمْ نرتِّب لسفركِ وسامر».

فقلتُ:

«أجِّل سفركَ يوماً أو يومين على الأكثر وسيكون كلُّ شيءٍ مرتَّباً».

فالتفت أخي إليَّ وقال:

«لا يمكن. لدي اجتماعٌ مهمٌ للغاية صباحاً... أمرٌ مُعدٌ له بصعوبة منذ أسابيع».

فقالتْ رغد مصرّة:

«سآتي معكَ».

فنظر وليد إليها وقد علاه الانزعاج وقال:

«يستحيل ذلك الآن. سنناقش الأمر في المرَّة التالية».

فقالتْ رغد وهي تنهار مجدَّداً وتفقد تماسكها:

«أنتَ تكذب عليَّ... لا تريد أخذي معك... تماطل إلى أنْ أملَّ وأكفَّ عنْ ملاحقتكَ... قُلها صراحةً يا وليد أنّكَ لمْ تعدْ تريد كفالتي... تريد أنْ تتخلّص منّي حتَّى تكسب خطيبتكَ ويصفو لها الجو معكَ وحدكَ».

أصابتنا الدهشة مِنْ كلام رغد... ووقفَ وليد غاضباً وهتفَ بخشونة:

«ما هذا الكلام المجنون يا رغد؟».

فهتفتْ رغد:

«هذهِ هي الحقيقة... لقد اخترتَها هي وتنازلتَ عنّي...».

هنا أطلق وليد زجرة قويّة:

«رغد يكفي».

بصوتٍ عالٍ وفظٍ جداً لدرجة أنَّ رغد انتفضتْ فزعاً ثمَّ بلعتْ صوتها وكتمتْ أنفاسها، ثمَّ سار مُبتعِداً متَّجهاً إلى السيارة... ثمَّ توقَّف واستدار نحونا وقال:

«هل هذا ظنُّكِ بي يا رغد؟ فيم ستختلفين عن أقاربكِ؟ كلكم تبخسونني قدري وتسيئون إليَّ».

وأولانا ظهره واقترب أكثر مِنَ السيارة حتى مدَّ يد ليفتح الباب ووجده مقفلاً... فركل السيارة برجله وهتف:

«تعال وافتحها».

وقفتْ رغد ونادتْ:

«وليد».

ثمَّ التفتتْ إليَّ وأمسكتْ بذراعي وقالتْ متوسلة:

«لا تدعه يذهب أرجوكَ».

عضضتُ أسناني وقلتُ:

«لا تقلقي».

ثمَّ خاطبتُ أخي:

«سأتّصل بشركة الطيران وأرى ما إذا كان لديهم مقاعد شاغرة على رحلة الغد».

والتفتُّ إلى رغد قائلاً:

«فهي رحلاتٌ يوميّة ولا بد أنَّ مقعدين على الأقل لا يزالان شاغرين».

وهذه فكرةٌ طرأتْ على بالي للتو... أنتجها قلقي على رغد وتخوّفي مِمَّا قد يعتريها بعد هذا. حثثتُها على السير إلى أنْ صرنا عند وليد فخاطبته سائلاً:

«ما قولكَ؟؟».

فلمْ يجب، فقلتُ:

«دعنا نمرُّ الآن بمكتب الطيران ونرى ما يمكن فعله».

«الوقتُ متأخِّر على فكرة كهذه».

«إما هذهِ... أو امنحني تصريحاً بالسفر مع رغد وسنلحق بكَ عاجلاً».

فزفر بضيق وقال:

«افتح الأبواب».

وركبنا السيارة وسرنا في الطريق وعندما اقتربنا مِنْ مفترق طرق أردتُ الانعطاف بالسيارة يساراً لأسلكَ الشارع المؤدي إلى مكتب الطيران فقال:

«أسلُك اليمين».

وهو الطريق المؤدِّي إلى بيت أبي حسام؛ فقلتُ:

«دعنا نمرُّ بالمكتب أوّلاً».

«إلى المنزل يا سامر وكفى».

هنا هتفتْ رغد:

«كلا... لا أريد العودة إلى منزل خالتي... لا أريد».

فالتفتَ وليد إليها وقال:

«افهمي يا رغد هذا صعبٌ جداً الآن».

ولكنها ألحَّتْ:

«لا تسافر عنِّي... لا تفعلْ هذا بي».

أما أنا فقد انعطفتُ يساراً وانطلقتُ بأقصى سرعةٍ ممكنة في الطريق إلى مكتب الطيران.

أثناء هذا وردتْني مكالمةٌ مِنْ أمّ حسام تطمئنُّ فيها على رغد فطمأنتُها وأخبرتُها بأننا سنعود بعد قليل. توقفتُ عند مكتب شركة الطيران وفتحتُ الباب وقلتُ:

«سأتحقَّق وأعود».

وحالفني الحظ واشتريتُ تذكرتين وعدتُ أزفُّ البشرى إلى رغد... غير آبهٍ برأي وليد. تهلَّل وجهها حينما أخبرتُها ومع ذلك أخذتْ تنظر نحو وليد -و الذي كان ينظر عبر النافذة إلى الخارج- وعلى وجهها القلق وكأنّها تسأله عن رأيه وتطلب موافقته. لمْ يعلِّق أخي فاعتبرنا صمته بمثابة الضوء الأخضر، وتابعنا المسير.

أظنّه خاف على رغد وأدركَ إلى أي حدٍ وصلتْ بها نفسيّتها...

عُدنا أدراجنا إلى منزل أبي حسام ولمّا فتحتُ الباب لها تردَّدتْ في الخروج. وإذا بها تخاطب وليد قائلة:

«لا تفعلها وتسافر عنّا».

فأجاب:

«وهل سأقود الطيارة وأهرب مثلاً؟».

«لكن... إذا تعرقل سفري لأي سبب... فسوف... فسوف...».

فالتفتَ وليد إليها:

«فسوف ماذا؟».

ولمْ تكمل رغد، وخرجتْ مِنَ السيارة ورافقتُها إلى داخل المنزل وأخبرتُ العائلة بأنّنا اشترينا التذكرتين وسنسافر مع وليد.

فور أنْ أنهيتُ إعلام الخبر رأيتُ رغد تنظر إلى خالتها وتقول مهدِّدة:

«لا تحاولي منعي يا خالتي وإلا فإنني سأحبس نفسي في الغرفة إلى أنْ أموتَ وألحق بأُمّي».

فلمْ تتفوَّه أم حسام بكلمة. ورنَّ هاتفي فإذا به أخي يستعجل خروجي ويوصيني:

«قل لرغد ألاَّ تنام دون عشاء وأنْ تتناول فطوراً جيداً قبل المغادرة صباحاً. أكِّد عليها هذا مراراً».

ونقلتُ وصيّته إليها فردّتْ والسرور يتجلّى على وجهها:

«حاضر».

وعدتُ إلى السيارة ونظرتُ إلى أخي فرأيتُه شارداً... يفكِّر بعمق. قلتُ:

«صدّقني وليد... هذا أفضل حلٍ... وإلا فإنَّ نفسيّة رغد ستتدهور إلى الحضيض».

التفتَ أخي إليَّ وتنهّد وقال:

«لقد أحدثتَ مشكلةً كبيرةً جداً لي مع أروى يا سامر...».

سألتُه بقلق:

«أي مشكلة؟».

«تصرَّفتَ وكأنَّ الأمر يعني رغد فقط... وحين تعرف أروى بأنَّ رغد عائدةٌ معي فستنقلب الدنيا رأساً على عقِب».

فكَّرتُ قليلاً... بعدها قلتُ:

«إذن قلْ لها أنَّ رغد عائدةٌ معي أنا وليس معكَ».

فرمقني أخي بنظرةٍ غامضة وأوشكَ على قول شيء، لكنّه حبس لسانه ولاذ بالصمت.

- رغد -

مِنَ الصباح الباكر... اتصلتُ بسامر لأتأكّد مِنْ أنَّ كل شيء يسير بخير... وتناولتُ فطوري وبقيتُ جالسةً في الحديقة مع أقاربي وحقائبي، في انتظار مجيء ابنَيْ عمّي.

وعندما أتى سامر... عمد إلى الحقائب يحملها... وخرج عمِّي أبو حسام لملاقاة وليد، الذي لمْ يدخل المنزل. عانقتْني نهلة بحرارة... أمّا خالتي فقد ذرفتْ الدموع وهي تضمُّني إلى صدرها، وأبقتْني في حضنها طويلاً، إلى أنْ سمعتُ صوت سامر يقول:

«هيّا بنا».

ابتعدتُ عن خالتي، فمسحتْ على رأسي وقالتْ:

«انتبهي لنفسكِ جيِّداً يا رغد...».

أومأتُ بنعم... فالتفتتْ نحو سامر وقالتْ:

«اعتني بها وصُنْها كعينكَ يا بنيَّ... ولا تدعْ أخاكَ يقسو عليها».

فقال سامر:

«توصينني أنا يا خالتي؟؟».

«أذكِّر... علَّ الذكرى تنفع المؤمنين».

فأكَّد لها:

«اطمئنِّي... رغد بعنقي».

ثمَّ التفتَ إليَّ وقال:

«هيا وإلا تأخّرنا».

جلتُ بنظري لألقي نظرة الوداع على أقاربي، وافتقدتُ حسام الذي كان نائماً ولمْ ينهض لوداعي. وأخيراً... غادرتُ المنزل... ورحلتُ عائدةً إلى منزلي الحقيقي... في الجنوب.

وصلنا إلى المنزل الكبير ضحىً...

وليد أسرع بالاستحمام ثمَّ غادر المنزل على عجل وهو يقول:

«اهتمّ بكلِّ شيء... سأعود عصراً... اتصل بي عند الحاجة».

واختفى بسرعة. أمّا سامر ففي البداية أخذ يتجوَّل في أنحاء المنزل مستعيداً الذكريات الماضية... وشاعراً بالألم لتذكُّر والديَّ. ولأنَّني لا أستطيع صعود الدرج فلمْ أرافقه عندما واصل جولته في الطابق العلوي. إنّما ذهبتُ إلى غرفتي السفليَّة واستلقيتُ على سريري باسترخاء وأغمضتُ عيني.

آه... أخيراً أنا هنا. كأنَّ ما حصل... حلم طويل... لقد مضتْ فترة طويلة منذ غادرتُ هذه الغرفة، على أمل العودة إليها بعد أيام... وبدون الشقراء.

يا للأيام... يا للأحلام...

ولم أدرِ بنفسي وأنا أستسلم لنوم عميق... عميق جداً... عوضتُ فيه سهر الليالي المؤرقة التي قضيتُها بعيداً عن وليد.

- وليد -

عدتُ مِنْ عملي قبيل المغرب فوجدتُ شقيقي متمدِّداً على الكنبة في غرفة المعيشة الرئيسية، غارقاً في النوم، والتلفاز مشغلاً والمصابيح مطفأة، وعلى الطاولة إلى جواره علبة فواكه مشكَّلة فارغة وقارورة ماء. ما إنْ هتفتُ باسمه مرتين حتّى استيقظ وراح ينظر إلى ما حوله ثمَّ يتثاءب ويمدِّد ذراعيه ثمَّ يقول:

«عُدتَ أخيراً؟!... تأخرتَ».

فقلتُ:

«أخبرتكَ أنني سأعود متأخِّراً. كان أمامي الكثير لأنجزه اليوم».

ثمّ أضفتُ:

«وعلى فكرة يمكنكَ استلام وظيفتك رسمياً ابتداءً مِنَ الغد، وقد خصّصتُ سيارة تابعة للمصنع لتستخدمها إلى أنْ نجلب سيّارتكَ مِنَ الشمال».

قال:

«عظيم... ممتاز... وأين ستعيّنني؟».

قلتُ:

«معي يا سامر... نائب عني ومساعدي الأوّل».

وأضفتَ:

«مثل السيد أسامة... وأريدكَ أنْ تتقِنَ الوظيفة بسرعة لتحمل العبء معي، خصوصاً وأنَّ المنذر يطالب بإجازة منذ زمن وأنا أرفضها».

سألني أخي:

«هل أسامة المنذر هذا موضع ثقة؟».

«نعم، وهو مَنْ كان يدير المصنع ويرعى ثروة أروى وأملاكها إلى أنْ تسلّمتْها. إنّه رجلٌ أمينٌ، وجديرٌ بالثقة».

«وماذا عن بقية الموظفين؟ الإداريين بالذات؟؟».

«لا أولي الثقة المطلقة في حياتي إلا لخمسة رجال؛ سيف وأبيه... وعمِّي إلياس... والسيد أسامة... وأنتَ».

ثمّ مددتُ يدي وربّتُ على كتف شقيقي وقلتُ:

«وأنتَ أوّلهم يا شقيقي... سأعتمد عليكَ كثيراً...».

ابتسم سامر وقال:

«بكل تأكيد...».

ثمّ أضاف مازحاً:

«المهم أنْ تسبغ عليَّ الرواتب والعطايا الكريمة! دعني أتذوّق طعم الثراء والترف!!».

وضحكنا بابتهاج،ثمّ سألتُه:

«ماذا عن رغد؟».

فحكَّ شعر رأسه وقال:

«ربّما نائمة... لمْ أرها منذ ساعات».

«منذ ساعات!».

«نعم فهي قد دخلتْ غرفتها المجاورة بعد انصرافكَ ولمْ تجبْ عندما ناديتها قبل أنْ أنام...».

أثارتْ الجملة قلقي فقلتُ:

«تعني أنكَ لمْ ترها منذ الصباح؟؟ وأنا مَنْ اعتمدتُ عليكَ؟».

وخرجتُ مِنْ غرفة المعيشة وذهبتُ إلى غرفة رغد وتبعني أخي. طرقتُ الباب وناديتُها بضع مرّات فلمْ تجبْ. قال أخي:

«أظنها نائمة، فقد كانتْ مُتعبة مِنْ عناء السفر كما أنها لمْ تنم البارحة».

«يجب أنْ نتأكّد».

وطرقتُ الباب بقوّة أكبر وهتفتُ مناديا إياها بصوتٍ عالٍ، ولم تُجِب... فما كان منّي إلا أنْ أمسكتُ بقبضة الباب وفتحتُه... وأخي يهتف:

«ماذا تفعل!!؟».

لمْ أدخلْ الغرفة بل ناديتُ رغد بصوتٍ يعلو مرّة بعد مرّة إلى أنْ سمعتُ صوتها أخيراً يردُّ:

«نعم؟؟».

«رغد هل أنتِ بخير؟؟».

«أجل... ماذا هناك؟؟».

«لا شيء، نطمئن عليكِ. معذرةً».

وأغلقتُ باب الغرفة وابتعدتُ. لاقاني أخي بنظرات استهجان فشرحتُ له:

«داهمها الإغماء مِنْ قبل وشارفتْ على الموت، بسبب الجوع».

واتجهتُ إلى المطبخ وجلستُ على أحد المقعد أرخي أعصابي وعندما لحق بي أخي قلتُ:

«ستكون الخادمة هنا غداً. وسأعمل على توظيف طاهية أيضاً».

قال سامر متجاوباً:

«على ذكر الطعام أنا أتضوَّر جوعاً».

واتصلنا بأحد المطاعم وطلبنا وجبة غنية تناولنا نصيبنا أنا وأخي منها فور وصولها.

«أين سأنام؟».

سأل أخي ونحن على مائدة الطعام، فأجبتُ:

«في أي غرفة تشاء... لكن الغرف بحاجة إلى تنظيف أولاً وغرفتكَ السابقة ظلّت مقفلة. استخدم غرفتي الليلة».

«وأنتَ؟».

«أنام في غرفة المعيشة على مقربة مِنْ رغد. فهي تخشى المبيت بفردها في الطابق الأرضي».

وفوجئتُ بأخي يرد:

«إذن لا بأس. سأنام في غرفة المعيشة وابق أنتَ في غرفتكَ».

وكتمتُ في صدري شيئاً لمْ أشأ إخراجه ساعتها.

ومع مرور الأيام بدأتْ تصرُّفات أخي تزعجني... فهو نصَّب نفسه مسؤولاً أوَّلاً عن رغد وحلَّ مكاني في رعايتها. كنّا نتناوب في الذهاب للعمل والبقاء في المنزل مع رغد، وكنتُ أسهر كل ليلة لمتابعة العمل أولاً بأوّل. ومع الوقت تحسَّن وضع رغد أكثر وصار بالإمكان أنْ تعود إلى الجامعة، حسب رأي الطبيب.

أمّا أنا فسأضطر للذهاب إلى المزرعة نهاية هذا الأسبوع، لأعالج مشاكلي مع أروى... والتي ترفض الحديث معي منذ ليلة العشاء الذي أفسدتُه قبل سفري...

- رغد -

«إلى المزرعة؟!».

شهقتُ مندهشة لمّا أعلمنا وليد عن نيّته في الذهاب إلى المزرعة غداً... ورجَّحتُ أنْ يكون الهدف هو جلب الشقراء. لمْ أستطع شيئاً وكتمتُ اعتراضي في داخلي. لا يهمُّ إنْ كانتْ الشقراء ستأتي... لا يهمُّ إنْ كانتْ قد انتصرتْ عليَّ؛ المهم أنْ أبقى تحت سقفٍ واحد مع وليد وأحظى برؤيته كل يوم. إنني رأيتُ الموت مِنْ دونه... وسأقبل بأي شيء لقاء أنْ أظلَّ على مقربة منه ويظل طيفه يجول مِنْ حولي. ومنذ أنْ أخبرنا بالخبر وأنا واقفةٌ على أعصابٍ مشدودة في انتظار ما ستسفر عنه سفرته هذه.

لمْ يكن وليد يجالسني أو يتحدَّث معي إلا بكلام عابر، وكان يقضي معظم الوقت في مكتبه يعمل. كنتُ سأجنُّ لو أنّه لمْ يُحضرني معه. لمْ تكنْ شمس النهار التالي لتطلع عليَّ وبي عقل... بعد مقابلته البليدة عند بوابة منزل خالتي...

على فكرة... نظارته الشمسية أصبحتْ ملكي الآن!

اتفقنا أنا وزميلتي مرح على أنْ نحضر اليوم لزيارتي، وتجلب معها بعض المحاضرات الهامة لأطلع عليها. سأعود للجامعة قريباً وأشغل وقتي في الدراسة مِنْ جديد... وأبعد عن رأسي التفكير في الشقراء. الساعة الآن الواحدة ظهراً ونحن - أنا وسامر - نتناول طعام الغذاء في المطبخ... ووليد في عمله.

«ما بك يا رغد؟؟ فيم أنتِ شاردة؟؟».

سألني سامر وهو يرى يدي تقلِّب الحساء بالملعقة طويلاً... دون أنْ أرشف منه شيئاً. قلتُ تلقائياً:

«هل تظن أنّه سيُحضِرها معه؟؟».

فردّ سامر:

«أظن ذلك، وهذا شأنهما».

فازداد توتّري... فقال سامر:

«مِنَ الطبيعي أنْ يجلب زوجته معه».

تناولتُ رشفة مِنَ الحساء بلعتُها ودون أنْ أشعر بطعمها... ثمَّ قلتُ:

«المهم... أنْ تقبل بوجودي... لأنَّ وليد... فيما لو رفضتْ... سيعيدني إلى خالتي».

فاستغرب سامر وقال:

«وما علاقة هذا بذاك؟؟».

«إنها لا تريد أنْ أعيشَ معهما».

«أهكذا؟».

«نعم. لأنّ الانسجام بيني وبينها مستحيل».

تجلَّى على سامر بعض التردد ثمَّ تجرّأ وسأل:

«هل تدرك هي أنّكِ...».

طأطأتُ رأسي ونظرتُ إلى وعاء الحساء الموضوع أمامي حرجاً... ففهم سامر إجابتي. سامر يفهمني جيداً... وهو معي دائماً صريحٌ ومباشِر، ليس فيه الغموض ولا ينشر الحيرة والتساؤل والذهول أينما حلَّ، كما هو وليد...

قال بعد صمتٍ قصير:

«إذن وليد يعرف... الآن تأكّدتُ».

فرفعتُ بصري إليه وسألتُ:

«يعرف ماذا؟؟».

فهوى ببصره إلى أطباق طعامه وتظاهر بالانشغال بتقطيع قطعة اللحم... وقال:

«أنّكِ تحبّينه».

شددتُ على يديَّ وفارتْ الدماء في وجهي وأبعدتُ نظري عن عيني سامر وقلتُ بصوتٍ ضعيف:

«أأأأ... لا... ليس كذلك».

وأمسكتُ بطرف مفرش مائدة الطعام وجعلتُ أشدُّ وأرخي فيه باضطراب. سامر وضع قطعة اللحم في فمه وراح يمضغها ثمَّ بلعها وقال:

«بل يعرف».

فرفعتُ إليه بصري باهتمام فوجدتُه يرفع كأس العصير ويشرب جرعةً منه... متظاهراً بالبرود...

قلتُ:

«كيف؟».

قال وهو يتابع تناول طعامه:

«هو ليسَ بهذا الغباء».

وأحسستُ بقلبي يخفق بقوّة... هل يمكن أنْ يكون وليد... قد اكتشف أنّني أحبُّه... أكثر مِنْ حبِّ ابنة لأبيها؟؟

وفيما أنا شاردة في تفكيري سمعتُ سامر يقول بجديّة:

«لكن ذلك لنْ يغيِّر شيئاً يا رغد. وليد رجلٌ متزوِّجٌ ويكبركِ بعشر سنين... هو يعتبركِ ابنة أو أُختاً صغيرة يتيمة تكفَّل برعايتها، لا أكثر. لذلك عاملكِ بقسوة كي تستفيقي مِنْ غفلتكِ».

فقدتُ شهيتي للطعام فجأة وتوجّم وجهي حزناً. ولاحظ سامر التغيرات التي اعترتْني فوضع شوكته جانباً وخاطبني بنبرة أكثر جديّة وواقعيّة:

«يا رغد... ستستفيقين يوماً وتدركين أينَ كنتِ تتخبّطين. لكنّني لا أريد أنْ تُصابي بصدمةٍ قاسية. فكِّري ملياً في وضعكِ وقيِّمي الأشياءَ تقييماً عقلانياً وليس عاطفياً بحتاً. ما هي نهاية حبِّ رجلٍ مرتبطٍ بفتاةٍ أخرى، لا يملك أيَّ سبب ليتخلَّى عنها؟ ولا أي دافع ليفكِّر في غيرها».

أصبتُ بعُسر هضم وتلوّتْ معدتي... ورفعتُ عينيّ بانكسار وأبرزتُ يديّ على المائدة وقلتُ:

«حتّى لو تزوَّجها... سأبقى معه... تحتَ وصايته».

«ستكبرين... ولنْ تحتاجي وصيّاً... وهو سيتزوَّج ويكرِّس جهده لعائلته الجديدة. هذا هو المسار الطبيعي للحياة».

«وأنا؟؟».

فصمتَ سامر... ثمَّ قال:

«أنتِ أيضاً... ستتزوَّجين وتعيشين حياتكِ... مع مَنْ يستحقُّكِ ويقدِّركِ».

وتبادلنا نظرات عميقةً... ثمّ قال:

«القرار بيدكِ».

فأخذتُ أنظر إلى يديَّ... أتأمّل راحتيهما... والخطوط التي تملأهما وكأنّني أفتِّش عن القرار بينها... وأراهما خاليتين جوفاوين... لا تحملان شيئاً.

مددتُهما نحو سامر أريه باطنهما الأجوف وأنا أقول:

«يداي لا تملكان شيئاً».

فمدَّ سامر يده نحو يدي وقال:

«ما في يدي هو مُلككِ».

وكانتْ عيناه تحملقان بي تملؤهما المعاني العميقة. شعرتُ بمرارة في حلقي... كأنني تجرّعتُ دواءً مركّزاً... وانهارتْ تعبيرات وجهي أمام نظرات سامر فإذا بي أقول دون تفكير:

«ألا زلتَ تحبّني؟».

وكانتْ إجابته بأنْ شدَّ قبضة يده وأغمض عينيه كمَنْ يعتصر ألماً...

نعم يحبُّني... أعرف ذلك... كان مهووساً بي... يغمرني بلطفهِ ويُمطِرني بهداياه ويغلِّفني بعواطفه.

لمْ يكنْ خطيبي فقط... كان أخي وصديقي المقرَّب... وكان يشاركني كل شيء... ولمْ أشعر يوماً وهو معي بأنني بحاجة لأي شيء...

لماذا لا تزال تحبُّني يا سامر... بعد ما فعلتُه بكَ...؟؟

آه... كم يؤلمني قلبي... كمْ يقرصني ضميري... كم أنا أنانية... كم أنا حزينة مِنْ أجلكَ...

رفعتُ رأسي أريد أنْ أرمي به إلى الوراء لعلَّ الأحزان تتساقط منه... فإذا بعينيَّ تقعان فجأةً على وليد...!!

جفلتُ وسحبتُ يدي نحو صدري أمسِكُ نَفَسي الذي انحشر فجأة في شعيباتي الهوائية إثر ظهور وليد المباغت... وأحسَّ سامر بحركتي السريعة ففتح عينيه والتفتُ إلى الوراء... إلى الباب... فوجد وليد يقف هناك...

«أهلاً وليد... كيف كان يومكَ؟».

بادر سامر بالسؤال فردّ وليد:

«كان حافلاً جداً».

«قرصنا الجوع فشرعنا بالأكل قبلكَ».

«بالهناء والعافية».

وتوجّه نحو المغسل فغسل يديه وأقبل واتخذ مقعده... على رأس المائدة...

«ماذا لدينا اليوم؟».

فأجاب سامر متظاهراً بالمرح:

«مشويات طلبناها مِنْ مطعم... وحساء أعدّته رغد».

فطأطأتُ رأسي خجلاً مِنَ الحساء المتواضع الذي أعددتُه...

وبدأ وليد يعدُّ أطباقه وسكب لنفسه شيئاً مِنَ الحساء... وأخذ يرتشفه... ولمْ ينطقْ بأي تعليق.

وسامر عاد يتناول طعامه ويطرح على وليد الأسئلة حول العمل... حيث أنّه سيذهب بعد قليل... ويجيب وليد أجوبة مختصرة... إلى إنْ سمعتُه يقول:

«لِمَ لا تأكلين؟».

انتبهتُ على سؤاله فرفعتُ رأسي ونظرتُ إليه نظرةً سريعة ثمَّ أخفضتُ رأسي وأجبتُ بصوتٍ خافت:

«اكتفيتُ، الحمد لله».

وأمسكتُ بعكّازي الموضوع إلى جواري وقمتُ عن المائدة. سامر قال:

«لمْ تأكلي شيئا رغد».

فقلتُ:

«الحمد لله».

وسرتُ متّجهةً إلى الباب، فاستوقفني صوت وليد يقول:

«على فكرة هل لديكِ استعداد لزيارة الطبيب اليوم؟».

فتذكّرتُ صديقتي مَرَح وقلتُ وأنا لا أجرؤ على رفع بصري إليه:

«اليوم؟ أأأأ... ستأتي مَرَح لزيارتي».

فقال:

«ماذا عن الغد أو بعده؟».

«بعد الغد...».

«لا بأس».

ثمَّ تابعتُ طريقي إلى غرفتي.

فيما بعد زارتْني صديقتي مَرَح، وعلمتُ منها أنَّ المعرض الفنّي الذي سبق وأنْ أخبرتْني عنه، والذي يقيمه أخوتها، مُقامٌ الآن، وأنّها شاركتْ فيه بإحدى لوحاتها، وتمنَّتْ لو أنّني تمكّنتُ مِنَ المشاركة أيضاً.

«يا ليت! خسارة!! كنتُ أحلم بالمشاركة».

«صحيح خسارة، لكن اطمئنّي، فأخي عارف مهووسٌ بإقامة المعارض، ولنْ يفوتكِ معرضه التالي».

وابتسمتْ وأضافتْ:

«حصلتْ إحدى لوحاته على المرتبة الأولى، وسيُقام حفل تكريم خاص على شرفه غداً».

«عظيم!».

«أنا وزميلاتنا سنحضر الحفل. رغد ألا يمكنكِ المجيء؟».

أشرتُ إلى جبيرتي وقلتُ:

«مع هذه؟ صعب!».

«حاولي! سأساعدكِ».

«يا ليتَ. كم أتوق لرؤية اللوحة الفائزة وبقية اللوحات المبهرة... والفنانين المبدعين!».

قالتْ مرح وهي ترفع يديها نحو فكِّها وتشبك أصابعها:

«ستكون أمسية رائعة! عارف سينصهر مِنْ نظرات الفتيات المعجبات!».

رمقتُها بنظرة مِنْ طرف عيني وقلتُ:

«الفتيات سيحضرن لمشاهدة اللوحات الفنية، وليس للتأمُّل في أصحابها الفنانين!!».

فطالعتْني بنظرة خبيثة، وقالتْ:

«أنتِ لا تفهمين شيئاً!».

وتنحنحتْ ثمَّ أضافتْ بتباهٍ:

«كل بنات دفعتنا مولعات به! وإلا لماذا أنا محطُّ انجذابهنَّ واهتمامهنَّ؟!».

فقلتُ باستنكار:

«ليس هذا سبب اهتمامي بكِ وانجذابي إليكِ!».

فضحكتْ، وقالتْ:

«لكنّه سبب اهتمامي بكِ، وانجذابي إليكِ!».

واستمرّتْ في الضحك، ثمَّ تطرّقتْ إلى موضوع آخر!

- وليد -

جاء شقيقي سامر مساءً يحمل معه عشاءً مِنْ أحد المطاعم وكيساً يحوي معتبرة مِنْ كرات البوظة المختلفة الأنواع قال عنها:

«وهذه لرغد! ستدهشها».

وذهب مباشرةً ليريها إيَّاها... ولأنَّ المطبخَ قريبٌ مِنْ غرفة رغد فمِنَ السهل سماع الحوار الذي يدور عند الباب...

كانتْ مسرورة... وسمعتُ ضحكتها وضحكة سامر تنطلقان بمرحٍ وتطرقان أذنيَّ بتحدّي. وعلى مائدة العشاء كانا يأكلان بشهيّة ويتبادلان الحوار بأريحية، وكأنّهما نسيا أنّهما لمْ يعودا مرتبطين. تجاهلتُ ذلك وخدَّرتُ أعصابي لتمرّ الليلة بسلام.

وقبل أنْ آوي إلى فراشي باكراً عاودتُ الاتصال بالمزرعة وتفقَّد أحوال أروى والعم إلياس. وقد رفضتْ أروى التحدّث معي وطلب عمّي منّي الحضور لحلِّ المشكلة... فأخبرتُه بأنني سأعود نهاية الأسبوع كما خططتُ.

أويتُ إلى فراشي وبعد منتصف الليل استيقظتُ بسبب ألم معدتي. ذهبتُ إلى المطبخ لأتناول دوائي وأشرب الماء وسمعتُ صوت التلفاز في غرفة المعيشة... توقّعتُ أنْ يكون أخي قد نام تاركاً الجهاز مشغلاً وذهبتُ بقصد إيقافه وفوجئتُ حين أطللتُ برأسي فرأيتُ أخي ورغد يشاهدان التلفاز معاً... ويلتهمان الفشار والبوظة...

قال سامر حين رآني:

«ألا تزال مستيقظاً؟».

والأجدر أنْ أطرح أنا هذا السؤال... قلتُ:

«نهضتُ لأشرب الماء. ولكنْ لِمَ أنتما ساهرين للآن؟».

فردّ:

«نشاهد فيلماً ممتعاً... لنْ ننهض باكراً مثلكَ!».

ولمْ أجد أي تعليق أعقّب به... فانسحبتُ وعدتُ إلى فراشي. لكن معدتي شاءتْ تعذيبي ساعةً مِنَ الزمن حتّى هدأتْ... وسلّمتني للأفكار والهواجس... تلعب بي بقيّة الليلة...

سامر ورغد، عادتْ علاقتهما تنتعش وتُزهِر بسرعة، ونواقيس الخطر أخذتْ تدقُّ في رأسي...

الحلقة الثامنة والأربعون

طريق الهلاك

رتّبتُ للسفر إلى الشمال يوم الغد الخميس، على أنْ أعود ليلة السبت. كان لا بدّ مِنَ العودة إلى أروى وحلِّ المشاكل العظمى معها. وقد كنتُ مداوماً على الاتصال بالمزرعة غير أنّها تهرّبتْ مِنْ مكالماتي ولَمْ يصف لي عمّي إلياس عنها حالاً مطمئِنة. وصلتْ الخادمة إلى منزلنا هذا الصباح وسأكون مطمئناً للسفر وتركها للعناية برغد، مع أخي.

الانسجام التام يسود علاقتهما والمسافة بينما تصغر. وأنا مضطرٌ لتقبُّل الوضع والسكوت، إذْ لا خيار أفضل عندي...

«أخيراً انتهينا».

قلتُ وأنا أغلِّق آخر الملفات خاتماً عمل هذا اليوم، والذي كان طويلاً مرهقاً. ابتسم السيد أسامة وقال:

«أعطاكَ الله العافية».

«عافاكَ الله، شكراً على جهودك».

شدَّ السيّد أسامة ابتسامته وقال:

«لا شكر على واجب».

ثمّ قال:

«بهذا نكون قد انتهينا مِنْ هذا المشروع على خير ولله الحمد. هل بقي شيء؟».

«لا. ولا أريد أنْ نبدأ عملاً جديداً قبل أسبوعين على الأقل. أريد أنْ استرخي».

فقال:

«أراحكَ الله. إذن... ليس لديكَ عملٌ شاغلٌ هذا المساء».

«سأنعم بنوم طويل وهانئ يريحني قبل السفر».

فقد كنتُ خلال الأسبوع الماضي أعمل ليلاً ونهاراً... وأحياناً أسهر إلى ساعةٍ متأخّرة على حاسوبي وبين وثائقي. كان أسبوعاً حافلاً جداً.

قال السيّد أسامة:

«هل يناسبكَ أنْ أزوركَ الليلة؟».

فنظرتُ إليه... وابتسمتُ وقلتُ:

«مرحباً بكَ في كل وقت. تشرّفنا أنّى حللتَ».

«الشرف لنا سيِّد وليد. شكراً لكَ. إذن سنزوركَ أنا وأخي».

وعندما عدتُ إلى المنزل، أخبرتُ شقيقي عن الضيفين وطلبتُ منه العودة باكراً

ليستضيفهما معي.

وفي العصر اصطحبتُ رغد إلى الطبيب الذي كان يشرف على علاجها قبل سفرها إلى الشمال، فأعطانا موعداً لنزع الجبيرة بعد أسبوع.

في المساء حضر السيد أسامة مع السيد يونس، يرافقهما الأستاذ عارف، ابن أسامة الأكبر، وهو فنان ويعمل كمدرّس رسم في أحدى المدارس.

قضينا مع الضيوف وقتاً طيّباً تجاذبنا فيه الأحاديث الممتعة وتبادلنا التعارف أكثر فأكثر. وقد سُرّ الأستاذ عارف كثيراً عندما اكتشف معرفته المسبقة بسامر ولمْ يكن قد ميّزه مباشرةً لأنّ أخي قد أجرى عملية تجميل في عينه اليمنى، والتي كانت مشوّهة منذ الطفولة.

وجيء بذكر معرضٍ فنّي شارك فيه عارف، وفازتْ لوحةٌ له بالمرتبة الأولى، واحتفى به جمهوره في حفل عظيم! واتّخذ الحديث مجراه حول المعارض ومهارة الرسام عارف وموهبته النادرة، وكيف يعلّم طلبته في المدرسة وكيف هي علاقته بهم وبزملائه المدرسين والفنانين وبأصدقائه ومعارفه وما إلى ذلك... حتّى خشيتُ أنْ يكون هذا الأستاذ مُصاباً بداء الغرور أو أنَّ أباه وعمَّه مولعان به لأقصى حد!

دار الحديث عن عارف وكأنّه نجم السهرة! لمْ أجد تفسيراً لهذا الاستعراض الغريب إلى أنْ فوجِئتُ بالسيّد أسامة يقول:

«سيكون مِن دواعي سرورنا وتشرّفنا أنْ نناسبكم».

دقّتْ نواقيس الخطر في رأسي فجأة... حملقتُ في السيد أسامة بذهول... ثمّ التفتُّ إلى شقيقي فرأيتُه لا يقلُّ ذهولاً عنّي... ارتبكتُ ولمْ أعرفْ إلى أين أرسل نظراتي... وإذا بي أسمع يونس يقول:

«يشرِّفنا أنْ نطلب يد كريمتكم لابننا الغالي عارف... عسى الله أنْ يوحِّد النصيب ويجعل البركة فيه».

صعِقتُ... ذهِلتُ... شُللتُ فجأة... غاب دماغي عنْ الوعي... وغشيتْ عينيَّ سحابةٌ سوداء داكنةٌ حجبتْ عنّي رؤية أي شيء...

مرّت لحظة وأنا في حالة الذهول الشديد... لا أفقه ما يدور مِنْ حولي!!

وسمعتُ صوت السيد أسامة بعدها يقول:

«يبدو أنَّ الموضوع فاجأكَ!».

فاجأني فقط؟؟

أتريد أنْ تُفقدِني صوابي؟؟

كيف تجرؤ!! تخطب فتاتي منّي؟؟ هل أنتَ مجنون؟؟ هل كلّكم مجانين؟؟ ألا ترون؟؟ ألا تسمعون ما يقول هؤلاء؟؟

شددتُ على يديَّ وتمالكتُ أعصابي لئلاً أنكبُّ على الضيوف صفعاً... عضضتُ على أسناني وجررتُ بضع كلمات مِنْ لساني أخرجتُها عنوةً:

«أأ... فاجأتَني جداً...!!!».
ثمَّ سألتُ، في محاولة غبيّة لتفسير الموضوع على غير ما هو واضح:
«مـ... مَنْ تعني؟؟».
تبادل السيدان أسامة ويونس النظرات ثمَّ أجاب أوّلهما:
«كريمتكم... ابنة عمِّكَ... ليس لديكم غير ابنة عم واحدة على ما أعرف».
التفتُّ إلى أخي فوجدتُ الاحمرار يلطِّخ وجهه... كان صامتاً متسمِّراً في مكانه، كتمثالٍ شمعي يوشك على الانصهار...
ما بكَ؟؟ ألا تسمع؟؟ ألا تعي؟؟ يريدون خطبة رغد منِّي!! هل أضحك؟؟ هل أصرخ؟؟
قُل شيئاً... افعل شيئاً...
قال أسامة:
«يبدو أنَّ الفتاة لمْ تخبركما».
وأضاف:
«فابنتي قد حدّثتها حسب علمي».
وأردف:
«وكنّا نرغب في فتح الموضوع منذ زمن ولكن كريمتكم أُصيبتْ وسافرتْ لفترة... أمْ عارف كانتْ ستزوركم لو كانتْ حرمكم هنا».
وتكلَّم المحامي يونس قائلاً:
«أردنا أنْ نؤجِّل لحين حضورها بالسلامة لكن...».
ونظر إلى الأستاذ عارف وهو يبتسم متمماً:
«عارف ألحَّ علينا لتعجيل الخطبة!».
فعقَّب عارف في خجل:
«خير البر عاجله».
كل هذا وأنا جامدٌ في مكاني... كالجبل...
أحسستُ بالاختناق... ففتحتُ ربطة عُنقي وتحسَّستُ نحري... كان حاراً يسبح في العرق... زفرتُ آخر نَفَسٍ جذبته مع شهقة المفاجأة... فخرج بخاراً ساخناً مِنْ فرط اشتعالي...
اهدأ يا وليد... تمالكْ نفسكَ يا وليد... هؤلاء... المجانين... لا يعرفون شيئاً... سايرهم على قدر فهمهم... واحترم كونهم ضيوفكَ... اصبر إلى أنْ يغادروا... ثمَّ انسف المنزل بمَنْ فيه...
قال السيد أسامة مستدراً ردّي:
«أ نقول على بركة الله؟؟».
أي مبروك يا هذا؟ أمسكْ لسانكَ وإلا...
وأمسكتُ أنا بلساني وقلتُ:
«على رسلكَ... الموضوع مفاجئ و... لمْ أستوعبه بعد».

فقال المحامي يونس:

«خذوا وقتكم... الشاب كتابٌ مفتوح واسألوا عنه مَنْ تشاءون. وسنكون غاية في السرور إذا ما توافق النصيب وارتبطتْ العائلتان بهذا النسب المشرِّف».

ثمَّ تمتمَ هو وأخوه وابن أخيه بكلامٍ لمْ يجدْ في ذاكرتي متَّسعٍ لتخزينه فضلاً عنْ سماعه... وأخيراً شكرونا على حسن الضيافة، واستأذنوا منصرفين...

غادر الضيوف... مخلِّفين خلفهم صمتاً موحشاً...

مرَّتْ الدقيقة تلو الأخرى... ونحن... أنا وشقيقي في حالة تيهٍ وتشتُّت... كان أحدنا يلقي بنظرة على الآخر بين الفينة والفينة... منتظراً منه أي تعليق، ولا تعليق...

أخيراً سمعنا صوت حركة في المنزل... تحديداً... كان صوت اصطفاق عكّاز رغد بالأرضية الرخامية... وكان الصوت يقترب منّا... حتّى توقَّف... عند الباب.

التفتْنا إلى الباب مترقّبَين ظهور وجه رغد... فسمعنا صوتها يقول:

«هل أدخل؟».

ولمْ يجبْ أيّنا... ثمَّ سمعناها تنادي باسمينا... ولا مِنْ مجيب، فقد أكلتْ الصدمة لسانينا. ربّما شكّتْ رغد في وجود أحد في الغرفة فأطلّتْ برأسها بحذر واندهشتْ حين رأتْنا نحن الاثنين جالسَين في الداخل، واجمين وكأنَّ على رؤوسنا الطير...

قالتْ:

«ماذا هناك؟؟».

تبادلنا النظرات أنا وأخي، ثمَّ تجرّأ لساني ونطق:

«لا شيء...».

لكن رغد وهي تحملق فِينا أحسَّتْ بأنَّ في الأمر شيءٌ... أو ربّما كانتْ تعرف أصلاً ماذا هناك، وتتظاهر بالجهل...

ألمْ يقل أسامة أنَّ ابنته أخبرتها؟؟

قلتُ:

«تفضّلي رغد».

فسارتْ بحذر حتّى جلستْ على أحد المقاعد، ونقلتْ بصرها بيننا ثمَّ سألتْ:

«هل حصل شيء؟؟ لا تبدوان طبيعيين؟!».

وهل تتوقّعين منّي أنْ أبدو طبيعيّاً... وقد غادر المنزل خاطبٌ لكِ قبل قليل؟؟ لماذا يا رغد؟؟ لماذا تفعلين هذا بي؟؟ لماذا أنتِ مصرّة على الخيانة؟؟ يئستِ مِنْ حسام ففتّشتِ عنْ غيره؟؟ إنّني سأقتله قبل أنْ يتمكّن أي رجلٍ مِنَ الصول إليكِ... سأبيدهم جميعاً...

عادتْ رغد تسأل:

«ماذا؟؟».

فنطقتُ أخيراً وعيناي ملؤهما الغضب:

«رغد... هل تعرفين مَنْ الضيوف الذين زارونا الليلة؟؟».

وقبل أنْ تُجيب نطق أخي رادعاً:

«ليس وقتُه وليد».

تجاهلتُ كلام أخي، أما رغد فقد ألقتْ عليه نظرةً حائرة ثمَّ عادتْ إليَّ وقالتْ:

«كلا... ما أدراني؟؟».

فقلتُ وأنا أعضّ على أسناني:

«إنه السيد أسامة المنذر... والد صديقتكِ».

وتفحّصتُ عينيها بدقّة لأرصد أي تعبير يظهر منهما دالاً على أي شيء... ولمْ أجدْ غير الحيرة والتساؤل...

قلتُ بذات الحدّة والشرر المتطاير مِنْ عينيَّ:

«أتعرفين مَنْ جاء برفقته؟؟».

فهتف أخي بانفعالٍ:

«ليس وقته يا وليد دعنا نناقش الأمر فيما بيننا أنتَ وأنا أولاً».

فالتفتْنا إلى شقيقي... هي تعلوها الحيرة وأنا يجتاحني الغضب. سامر نظر إلى رغد وقال:

«رغد عودي إلى غرفتكِ مِنْ فضلكِ».

تأمّلته رغد بقلقٍ ثمَّ نظرتْ إليَّ وعلائم التعجّب تحيط برأسها مِنْ كل جانب. سألتْ:

«ماذا هناك؟؟».

فتولّى أخي الإجابة قائلاً:

«لا شيء يا رغد. مِن فضلكِ اذهبي الآن».

وأنا صامتٌ لا أعلِّق... فتفاقم القلق والحيرة على وجهها ووجّهتْ إليَّ السؤال:

«ما الخطب وليد؟؟».

فابتلعتُ غيظي وحبستُه في جوفي وقلتُ محاولاً أنْ يظهر صوتي لطيفاً قدر الإمكان:

«عودي إلى غرفتكِ».

وأرادتْ أنْ تجادلني ولكنّها رأتْ الإصرار في عينيَّ والشرر المتطاير منهما... فتراجعتْ... وقامتْ وغادرتْ الغرفة.

بعد ذهابها قام سامر وأغلق الباب ليضمن عدم تسرُّب صوتينا إليها ثمَّ قال:

«والآن... ما موقفكَ؟».

رفعتُ رأسي إلى أخي وقلتُ:

«أي موقف بعد؟».

فقال:

«أعني فيمَ تفكّر؟».

فأطلقتُ زفرة ضيق مِنْ صدري ومرَّرتُ أصابعي بين خصلات شعري مشتتاً... ثمَّ أجبتُ:

«الأمر... خلف حدود التفكير أصلاً... إنّما أنا مُفاجأ... لمْ يذكر لي السيّد أسامة شيئاً... ولا حتّى بالتلميح أو الإشارة... أنّهم يفكّرون بهذا... مع أنَّ.. خالتي متوفّاة مؤخّراً...».

قال أخي:

«ورغد؟؟».

نظرتُ إليه نظرة مطوّلة... شاعراً بأنَّ في صدري خنجراً يُغرس ويُنزع ويُغرس مراراً وتكراراً... مِنْ رغد...

سألَ:

«أتظنّها تعرف؟ كما قال أسامة؟؟».

زممتُ شفتيَّ غيظاً ثمَّ قلتُ وأنا أضغطُ على أسناني أخرج الحروف مِنْ بينها:

«لا استبعد.. واردٌ جداً...».

قال أخي:

«لا... لا أظنّ».

فرميتُه بنظرة اعتراض فقال:

«رغد لنْ تفكّر في هذا».

فقلتُ وأنا أحاول السيطرة على نفسي قدر الإمكان:

«بل تفكّر... والله الأعلم بما يدور في رأسها وما الذي تخطّط له... إنّه ليس العرض الأوَّل...».

وانتبهتُ إلى أنّني تهوّرتُ في الإفصاح عمّا في نفسي... فسألني أخي:

«ماذا تعني... بأنّه ليس العرض الأوَّل؟؟».

وكان التعجّب والهلع يغمران وجهه... فقلتُ مُنسحِباً:

«لا يهمّ. الفتاة ليستْ للزواج على أيّة حال. والموضوع مستبعدٌ تماماً إلى أنْ تُنهي دراستها الجامعية».

وصمتنا برهة، أحسستُ بوجه شقيقي يسترخي، ثمَّ سألني والتردد يُلحظ على نبرة صوته:

«وبعد ذلك؟».

بعد ذلك؟؟ بعد ذلكَ ماذا؟؟ لمْ أجدْ جواباً لكنّ نظرات أخي راحتْ تطاردني فاضطررتُ لقول:

«لنْ نفكّر الآن فيما بعد ذلك. نترك الموضوع برمَّتِه إلى أوانه. الآن... هي ستدرس فقط وفقط».

لمْ يبدُ أنَّ شقيقي اقتنع بالتوقف هنا، كان واضحاً في عينيه المزيد مِن الكلام... وإذا به يقول:

«وستنتهي الدراسة ذات يوم... وربَّما يَقبَل عريسُ الغفلة هذا بالانتظار، أو ربَّما... ربَّما

يزوركَ عرسانٌ آخرون... هكذا هي الطبيعة...».

هببتُ واقفاً مِنْ تأثير الكلمة عليَّ... أي عرسان وأي آخرين؟؟ هذا ما كان ينقصني...

أردف أخي قائلاً:

«أجل... فهي فتاةٌ رائعة... ابنة عائلة راقية وعالية الأخلاق وطيِّبة السمعة... ولها مواصفات مرغوبة ولنْ تخطئها العين الباحثة عنْ عروسٍ مثالية».

فرددتُ بعصبيّة:

«ماذا تعني؟؟».

فوقف أخي وقال:

«أعني أنّه سيأتي اليوم المناسب والظروف المناسبة لتوافق على زواج رغد... مهما طال الأمد فهذه سنّة الحياة».

رددتُ بانفعال:

«قلتُ أنَّ الموضوع سابقٌ جداً لأوانه... لماذا أشغل دماغي في التفكير به أو الحديث عنه؟؟ لِمَ لا ننهي الحوار العقيم هذا؟؟».

قال أخي:

«أريد أنْ أعرف فقط... ما هو موقفكَ مِنْ زواج رغد مستقبلاً؟».

قلتُ بضيق:

«ولِمَ أنتَ مهتمٌ هكذا؟».

فأجاب أخي وقد تبدّلتْ تعبيرات وجهه إلى المرارة... وفضحتْ خوالجه قبل أنْ يفصح عنها لسانه:

«لأنني أنا... أولى بها مِنْ أي شخصٍ آخر... وإنْ كنتَ ستزوِّجها ذات يوم... فيجب أنْ تعيدها إليَّ».

واجتاحتْ قلبي زوبعةٌ مجنونة... لفّت به مئة مرّة حول المنزل... ورشّتْ دماءه على أسواره وجدرانه... وسقتْ الحديقة الخلفية الجرداء... وعادتْ إليَّ.. خالية اليدين...

كان أخي يحدّق بي... ينتظر ردّة فعلي والتي أكاد أعبّر عنها بقبضتي...

كيف تجرؤ يا سامر..؟؟ ألمْ تكفِ الضربة المدمِّرة التي تلقّيتُها قبل قليل؟؟ أنتَ أيضاً تتحدَّث عن أخذها منِّي؟؟

هل خلتْ الدنيا مِنَ النساء... إلا رغد؟؟ لماذا يريد الجميع سرقتها منِّي؟؟ هل يستكثرون عليَّ أنْ أحظى في هذه الدنيا بها؟؟ أنا لا أريد مِنَ الدنيا شيئاً غيرها... إنّها خُلِقتْ لي أنا... كيف يتجرؤون على التفكير في شيءٍ يخصُّني أنا؟؟ رغد هي فتاتي أنا... هي جزءٌ منِّي أنا... حبيبتي أنا... حُلُمي وواقعي أنا... وستكون وتظلُّ لي أنا... أتسمعون؟؟ لي أنا... أنا وأنا فقط...

كان سامر لا يزال ينتظر ردّي... وإنْ هو تأمّل التغيرات التي اجتاحتْ قسمات وجهي لأدركَ مدى خطورة جريمته.. لكنّني أوليتُه ظهري وخطوتُ نحو الباب، محاولاً الابتعاد قبل أنْ

أفقد السيطرة على يدي.

سامر ناداني:

«وليد إلى أينَ؟».

فقلتُ دون أنْ أستدير إليه:

«النقاش منتهٍ. ولا تعدْ لفتح الموضوع ثانيةً أبداً».

لكنّ أخي لمْ يستمع لكلامي بل قال مردفاً:

«أريدكَ أنْ تجيبني فقط على هذا السؤال... هل ستعيدها إليَّ؟».

ثار بركاني لأقصى حد... ولا بد أنّكم ترون الدخان الأسود يتطاير مِنْ جسدي... رددتُ وأنا لا أزال مولياً إيّاه ظهري:

«سامر قلتُ لكَ وأكرِّر وللمرّة الأخيرة... لا تتحدَّث في الموضوع ثانيةً، والتزم الصمت أسلم لكَ».

فقال سامر بعصبيّة:

«لنْ يدوم صمتي طويلاً... لقد تعبتُ مِنْ هذا يا وليد... إمّا أنْ تعطيني أملاً في أنْ تعيدها إليَّ كما فرّقتَها عنّي... وإلا فإنّني لنْ أستمر في العيش معكما وتمثيل دور البليد... أنتَ لا تشعر بمقدار ما أعانيه».

هنا... انطلقتْ شياطين رأسي أخيراً وباندفاع جنوني... لا أستطيع السيطرة على نفسي... لا أستطيع... التفتُ إلى أخي ورشقتُه بسهامٍ حادّة... ثمّ سرتُ نحوه... وانقضّتْ يداي على ذراعيه بعنفٍ... وصرختُ في وجهه:

«حذّرتُكَ مِنَ الاستمرار يا سامر... لمْ أعد أملك السيطرة على غضبي... أنتَ المسؤول».

حاول أخي إبعاد يديَّ عنه وهو يقول:

«ابعِد يديكَ يا وليد... ما الذي يُغضِبكَ الآن...؟ كأنّكَ لا تعرفُ أنّني أحبُّها وأنّها كانتْ عروسي قبل أنْ تظهرَ أنتَ وتُفسِد كلَّ شيء... أنا لمْ أتوقَّف عن التفكير بها».

صرختُ وأنا أجرُّ أخي ثمَّ أدفع به نحو الباب مُستسلِماً لثورتي:

«سأكسر جمجمتكَ... وأخرجها مِنْ رأسكَ عنوة... وأريحكَ... أيها المسكين!!».

وبدأ العراك بالأيدي...

كلانا استسلم للغضب... وسلَّم قبضته للشيطان...

تبادلنا اللكمات والركلات... الضرب والصفع... وحتى الدوس والخنق... كانتْ ساعةً مجنونة... مجنونة جداً... أجنّ مِنْ أنْ نملك السيطرة عليها... مشاعرنا كانتْ هائجةً كأمواج البحر الثائرة في ليلة إعصارٍ عنيفٍ مدمِّر...

أنا سأحطِّم جمجمة كل رجل... يفكّر في رغد...

كنتُ أمسِكُ بذراع أخي وألويها بشدَّة بينما أُلصق رأسه بالجدار وأصرخ:

«إنْ فكَّرتَ بها ثانيةً فسأسوى رأسك بهذا الجدار... هل سمعتَ؟؟».

ثمَّ شددتُه ودفعتُ به نحو المقعد... وأخذنا نلهثُ مِنَ التعب... ونتأوَّه مِنَ الألم...

بعد قليل... سمعتُ نشيج أخي... ورأيتُ دمعاً يسيل مِن عينيه فشعرتُ بها دماءً تقطر مِنْ قلبي...

ذهبتُ إليه وجثوتُ إلى جانبه وأمسكتُ برأسه بلطف وقلتُ بعطفٍ:

«أخي... أنا لا أريد أنْ أفعلَ بكَ هذا... ليتَ ذراعي تُقطع قبل أنْ أُؤذيكَ... سامحني... لكن... لماذا استفززتَني؟؟».

وتأمّلتُ وجهه المتألِّم... وقلتُ:

«يجب أنْ تنساها... إنّها لا تريدكَ يا سامر... لو كانتْ ترغب بكَ بالفعل لما أوقفتْ زواجكما في آخر الأيام... لما عرَّضَتكَ لكلِّ ما حصل... رغد لا تحبُّكَ... إنّها لا تحبُّكَ يا أخي فلا تتعبْ قلبكَ».

وكان ردُّ أخي أنْ لكم وجهي لكمة قويّة أوقعتْني أرضاً... وأدمتْ أنفي... ثمَّ نهضَ ومسح وجهه براحتيه وقال:

«أنتَ السبب يا وليد... ليتكَ لمْ تخرج مِنَ السجن إلا بعد عشرين سنة مِنَ الآن... ليتكَ تعود إليه وتخلّصنا مِنْ وجودكَ... أنتَ أفسدتَ عليَّ حياتي... حطّمتَ حُلُمي... ضيَّعتَ مستقبلي يا وليد... اِنعم بالحياة مِنْ بعدي إذنْ...».

واستدار وسار نحو الباب وفتحه وصفعه بالجدار بقوة... وغادر المنزل...

- رغد -

غرفتي الحالية بعيدةٌ عن مجلس الضيوف الذي استقبل فيه ابنا عمِّي ضيوفهما. ولكنّني سمعتُ صوتَ جلبة فخرجتُ مِنْ غرفتي ووقفتُ في الممرِّ... فتناهى إلى مسمعي صوت شجار بين ابنَي عمِّي وربّما عراك أيضاً...

داهمني القلق وسرتُ في اتجاه مجلس الضيوف ولمّا سمعتُ صوت ارتطام شيءٍ بالباب... ذعِرتُ وتراجعتُ للوراء.. ثمَّ عدتُ إلى غرفتي خائفة...

وقفتُ عند باب الغرفة مضطربةً تنقصني الشجاعة للذهاب إلى مجلس الضيوف واستكشاف ما الأمر، إلى أنْ سمعتُ صوت ارتطام بابٍ بجدار... كان صوتاً قويّاً انتقلتْ ذبذباته إلى باب غرفتي فاهتزَّ ذعراً... وزادني فوق قلقي قلقاً...

أصغيتُ جيّداً فسمعتُ وقع خطوات قوية وسريعة تعلو ثمَّ تنخفض مبتعدة... ثمَّ صوتُ الباب الرئيسي ينفتح ثمَّ ينغلق... ثمَّ يخيّم الهدوء في المكان...

أحدهما قد خرج... ومِن وقع أقدامه على الأرض... يظهر أنّه كان غاضباً...

وليد!؟؟

خرجتُ مِن غرفتي هلِعةً... وسرتُ بعكازي إلى أنْ بلغتُ مجلس الضيوف. كان الباب مفتوحاً. أطللتُ برأسي مِنْ خلال فتحته فوقعتْ عيناي على وليد يجلس على الأرض بجانب

المقعد ويُسند رأسه إليه...

هوى قلبي إلى قدميَّ وخارتْ قوَّتي فجأة لدى رؤيته على هذا الوضع فاستندتُ إلى الجدار وشهقتُ ثمّ قلتُ مفزوعة:

«وليد ما بكَ؟».

انتفض وليد فجأةً وأدار وجهه إليَّ بسرعة... فإذا بي أرى سيلاً مِنَ الدماء يتدفَّق مِنْ أنفه. حملقتْ عيناي فيه أوسعهما.. وانحبس نَفَسِي في قفص صدري وكاد العكاز أنْ ينزلق منِّي ويوقعني أرضاً.

وليد وقف وتلفَّتَ يميناً ويساراً حتّى لمح علبة المناديل فسار إليها وتناول بعضها وجعل يمسح الدماء...

انطلق نَفَسِي السجين مِنْ صدري مُصدِرا صوتاً يشبه الأنين... تلاهُ صوتُ حنجرتي تحاول القول:

«ماذا حصل؟».

وكان واضحاً أنّه تعاركَ مع سامر...

كانتْ ربطة عنقه مفتوحة كليّاً... وملوثةً ببقع الدماء الهاطلة مِنْ أنفه... كان شعره مبعثراً وهندامه غير مرتّب... ووجهه شديد الاحمرار والتعرّق...

لمْ يُجِبْ وليد على سؤالي، بل تهالك على المقعد وهو يرفع برأسه للأعلى ويضغط بالمناديل على أنفه ليوقف نزف الدماء، فخطوتُ نحو الداخل يسوقني الفزع والقلق. وحين صرتُ بمحاذاته خاطبتُه:

«وليد... ماذا حدث؟؟ أخبرني!».

أبعد وليد المناديل الغارقة بالدم عَنْ وجهه ووجَّه بصره إليَّ... وحدَّق بي طويلاً... ولمْ يتكلّم. كانتْ عيناه تتكلَّمان... كأنّهما تتَّهمانني... أو تعاتبانني... أو تتشاجران معي!

ولكن ما الذي فعلتُه أنا...؟؟

«وليد..».

ناديتُه مجدّداً فما كان مِنه إلا أنْ قال:

«عودي إلى غرفتكِ».

ماذا؟؟ أعود إلى غرفتي وأنا أراكَ بهذا الشكل؟؟

«لكنْ... أخبرني أرجوكَ ماذا حدث؟».

فكرّر وليد:

«عودي يا رغد».

«لا أستطيع... طمئنِّي أوّلاً ما الذي يحدث؟؟ لماذا تعاركتُما وإلى أين ذهب سامر؟؟».

فأشاح وليد بوجهه عنِّي. لمْ أستطع إلا الانصياع لقلقي... كيف أنصرف وأنا أراكَ هكذا وليد؟؟ لا أقدر...

جلستُ على المقعد بجواره... تركتُ العكّاز جانباً ومددتُ يديَّ وأمسكتُ بذراعه بحنان...

التفتَ وليد إليَّ... نظر إليَّ نظرةً قصيرة ثمَّ أغمض عينيه وأسند رأسه إلى مسند المقعد وتنفَّس بعمق...

بقيتُ ممسكةً بذراعه أكاد أحضنها... وأكاد أفقد صوابي وأمدُّ يدي وأمسح على رأسه وأطبطِب على كتفيه... رغم جهلي بحقيقة ما يحصل، أشعر بأنَّ وليد قلبي يتألَّم... وأنا لا أتحمّل ألمه...

«وليد... كلِّمني!».

توسلتُ إليه... ففتح عينيه ونظر إليَّ ثمَّ قال:

«أرجوكِ يا رغد... اذهبي إلى غرفتكِ الآن ولازميها... لا تتعبيني أكثر».

أنا أُتعِبُكَ؟؟ أنا مَنْ يتعبُ لتعبكَ... لكن إذا كان وجودي الآن يُتعِبكَ فأنا ذاهبة...

قلتُ:

«حاضر».

وسحبتُ يدي مِنْ حول ذراعه وأمسكتُ بعكازي، ثمَّ انصرفتُ دون أنْ أنطق بحرفٍ واحد.

في صباح اليوم التالي استيقظتُ متأخِّرةً. ذهبتُ إلى المطبخ كالعادة لأعدّ الشاي. كانتْ الخادمة منهمكةٌ في أعمال التنظيف والساعة التاسعة والنصف صباحاً. وكان المنزل خالياً مِنْ أي صوتٍ أو حركة عدا ما تصدره هي.

تركتُ الإبريق على الموقد وخرجتُ أتفقَّد ابنَي عمِّي. اليوم يوم الخميس وهو عطلةٌ لدى المصنع، وقبيل الظهيرة سيسافر وليد إلى المزرعة، وقد يعود بالشقراء.

ذهبتُ وتفقَّدتُ أولاً غرفة المعيشة، المجاورة لغرفة نومي. طرقتُ الباب ولمْ يرد أحد، ففتحتُها ببطء وأرسلتُ نظراتي للداخل ولمْ أجدْ أحداً. كان سامر ينام هنا على الكنبة الكبيرة في الليالي الماضية وقد طلبتُ منه أنْ يبقى كذلكَ إلى أنْ تُزال الجبيرة عنِّي الأسبوع المقبل وأعود إلى غرفتي العلوية.

حتّى مع حضور الخادمة وبياتها على مقربةٍ مِنْ غرفتي الحالية، لمْ أكنْ لأشعر بالاطمئنان في هذا المنزل الكبير الموحش...

سرتُ بعد ذلك في أرجاء المنزل... هنا وهناك، ولمْ أعثر لأيٍ مِنْ ابنَي عمِّي على أثر. عدتُ إلى المطبخ وسألتُ الخادمة عمَّا إذا كانتْ قد رأتْ أياً منهما هذا الصباح فأجابتْ بالنفي. ساورني بعض القلق... فطلبتُ منها أنْ تصعد للطابق العلوي وتتفقَّدهما. وعادتْ بعد قليل يتبعها وليد.

كان وجه وليد ممتقعاً وعلى خدِّه كدمةٌ مُبهمة اللون. كان يهبط الدرجات ببطء ونظره مركَّز على موضع قدميه... كنتُ أقف أسفل الدَّرَج في انتظار ظهور إيٍ مِنْ وليد وسامر...

ابتعدتْ الخادمة عائدةً إلى الطبخ وبقيتُ أراقب وليد وهو يهبط الدرج درجةً درجة... إلى أنْ توقّف أخيراً بجانبي.

بادرتُ بإلقاء التحية:

«صباح الخير».

فردَّ وهو لا يرفع بصره إليَّ:

«صباح الخير».

ثمّ سار وتخطّاني وتوجّه نحو المطبخ. لحقتُ به فوجدتُه يفتح الثلاجة ويستخرج علبة حليب بارد ويهمُّ بفتحها.

قلتُ:

«ألا ترغب في بعض الشاي؟؟».

فقال وهو يفتح العلبة ويسكب شيئاً منها في أحد الكؤوس:

«كلا شكراً... الجو حار».

وجلس على أحد المقاعد الموزّعة حول الطاولة وأخذ يشرب الحليب البارد دفعة واحدة حتّى أتى على آخره...

يحب ابن عمّي هذا الحليب... ألا تلاحظون ذلك؟؟

حضّرتُ كوب الشاي الخاص بي ووضعتُه على الطاولة وجلستُ على المقعد المقابل لمقعده. بدأتُ بطرف الحديث:

«هل أعدُّ لكَ فطوراً؟».

أجابَ:

«لا، شكراً».

«ولو وجبة بسيطة؟».

«شكراً يا رغد. لا أرغب بشيءٍ الآن».

احتسيتُ رشفةً مِنْ قدح الشاي ثمَّ قلتُ:

«هل سامر في الأعلى؟».

فنظر إليَّ باهتمام أخيراً... ثمَّ أجاب:

«لا».

فتعجّبتُ وسألتُ:

«أليسَ في المنزل؟؟».

«أبداً...».

فازداد قلقي... أيمكن أنّه لمْ يبتْ هنا البارحة؟؟ قلتُ:

«أين هو؟».

«خرج باكراً... لمْ يحدِّد وجهته».

وظهر الانزعاج على وجه وليد. لمْ أقوَ على إطالة المقدِّمات... أنا متلهفةٌ لأعرف ما حصل البارحة. قلتُ مباشرة:

«لماذا تشاجرتما؟».

فرماني بنظرةٍ ثاقبة... ثمّ زاح بصره عنّي وتجاهل سؤالي. قلتُ:

«أرجوكَ أخبرني... أنا أعيش معكما في هذا المنزل وأشارككما في كلّ شيء».

فأرجع بصره إليّ... ثمّ قال:

«نعم... في كلّ شيء».

ولا أعرف إنْ قالها جاداً أم ساخراً... لأنّ تعبيرات وجهه غامضةٌ جداً. استأتُ مِنْ تهرّبه وقلتُ:

«أرجوكَ وليد... أخبرني وأرحني... أنا لمْ أنمْ جيّداً البارحة مِنْ شدّة القلق، ولمْ أجرؤ على مغادرة غرفتي حتّى لا تغضب منّي. أرجوكَ قلْ لي ماذا هناكَ؟».

ظلّ وليد ينظر إليّ بتركيز ثمّ سأل:

«أحقاً لا تعرفين؟؟ ألمْ تُخبركِ صديقتكِ بشيء؟؟».

أصابتني الدهشة... صديقتي؟؟ تعني مَرَح؟؟ ما دخل مرح بالأمر؟؟. سألتُه فيما الفضول يكاد يلتهمني:

«تخبرني بماذا؟؟ مَرَح؟؟».

فألقى وليد نظرةً سريعةً على الخادمة ثمّ عاد ينظر إليّ. خاطبتُ الخادمة وطلبتُ منها الذهاب لتنظيف غرفتي... ولمّا انصرفتْ سألتُ وليد:

«ما علاقة صديقتي بما حصل البارحة؟ وليد أرجوكَ أوضِح لي فأنا لا أفهم شيئاً».

وليد مدّ يده وأمسكَ بيدي وضغط عليها بشدّة وتحوّلتْ تعبيرات وجهه إلى الجدّ المفاجئ الممزوج بالتهديد، وقال:

«اسمعي يا رغد... إيّاكِ أنْ تفتحي الموضوع أمام سامر... لا تسأليهِ عنْ أيّ شيء، ولا تأتي بذكر شيءٍ عَنْ ليلة أمس لا تصريحاً ولا تلميحاً أمامه... هل تفهمين؟؟».

القلق بلغ ذروته عندي... يبدو أنّ الموضوع أخطر ممّا كنتُ أعتقد... قلتُ:

«لا.. لمْ أفهم شيئاً! أنتَ غامض».

فأغضب ردّي وليد، فشدّ الضغط على يدي واحتدّ صوته أكثر وهو يكرّر:

«بل تفهمين... اسمعيني جيّداً... لا أريدكِ ولا بحالٍ مِنَ الأحوال أنْ تشيري لليلة البارحة أمامه. تصرّفي بشكلٍ عادي وكأنّ البارحة لمْ تكنْ أساساً».

سألتُ:

«لماذا».

فهتف بعصبيّة:

«نفّذي ما أقوله لكِ فقط، فأنا سأسافر اليوم ولنْ أكون موجوداً للتدخُّل وتحويل المواقف. أريد أنْ يمرّ اليومان بسلامٍ إلى أنْ أعودَ وأجدَ مخرجاً للمأزق الجديد الذي أقحمتِنا فيه».

هتفتُ:

«أنا...!!».

ووجهي يملؤه التعجُّب وعدم الفهم، فأبعد وليد يده عنّي، ثمَّ نهض واقفاً وأراد مغادرة المطبخ. قلتُ محتجّة:

«وليد انتظر أنتَ لمْ توضِّح لي شيئاً».

فأشار بيده لي أنْ أصمت، ثمَّ قال:

«لاحِقاً يا رغد... ليس وقتُه الآن... افعلي فقط ما طلبتُه منكِ».

وانصرف.

لمْ أطق صبراً مع كل هذا الغموض... توجّهتُ إلى غرفتي وطلبتُ مِنَ الخادمة المغادرة، وتناولتُ هاتفي المحمول واتّصلتُ بصديقتي مَرَح...

لكم أنْ تتصوّروا الدهشة التي اجتاحتْني عندما علمتُ مِنْ مَرَح... أنَّ.. أنَّ... إه.. أنَّ والدها وعمَّها... تقدَّما بطلب يدي للزواج مِنْ... مِنْ شقيقها الرسَّام... الأستاذ عارف...!!!

«نعم يا رغد... كنّا سنتقدَّم لخطبتكِ مِنْ قبل، فأمّي وأختاي أُعجِبنَ بكِ عندما زرناكم بعد خروجكِ مِنَ المستشفى... وأيّدتا ترشيحي في الحال».

وعادتْ بي الذكرى بسرعة إلى تلك الليلة... حيثُ دعونا آل المنذر للعشاء عندنا وحضرتْ أم مرح وأختاها. أذكر أنني ليلتها كنتُ منزعجةً لأنهن سلَّطن اهتمامهنَّ على الشقراء التي سرقتْ الأضواء منِّي... ولمْ أكنْ لألحظ أنَّ عيوناً خفيّةً كانتْ تراقبني أنا...!

انتبهتُ مِنْ لحظة الذكرى على صوت مَرَح تقول:

«كنّا نريد زيارتكم لولا أنّكم سافرتم... أمّا عارف فهو يثق في اختيارنا... وهو شخصٌ مهذَّبٌ وخلوقٌ وأهلٌ لتحمّل المسؤوليات، وراغبٌ في الزواج بكل جديّة».

وكانتْ نبرتها تمزج بين الضيق والعتب... فقلتُ مُهدِّئةً إيّاها:

«ليس قصدي عكس ذلكَ لا سمح الله... إنّما... آه... لماذا لم تخبريني عنْ هذا سابقاً؟».

فأجابتْ بذات النبرة... وهي نبرة لمْ أعتد سماعها مِنْ مَرَح التي لطالما غلب المزح والمرح على أسلوبها:

«لمّحتُ لكِ تلميحاً... لمْ أستطِع التحدُّث معكِ تصريحاً. أنتِ خجولةٌ جداً وخشيتُ أنْ أحرجكِ!».

«لكن يا مَرَح...».

فقاطعتْني مرح قائلة:

«لكن ماذا يا رغد؟؟ أنتم تشعِروننا بأنّنا ارتكبنا خطيئةً بعرض الزواج هذا!».

«مرح!! لِمَ تقولين هذا!؟».

«أنتِ تحقِّقين معي الآن وكأنني مُتّهمة... وأبوك وأخوه لسعا أخي بنظراتهما البارحة ولمْ يتفوَّها بكلمةٍ واحدةٍ ولو مِنْ باب المجاملة تشير إلى أنّهما يرحِّبان بالعرض أو يقدِّران أصحابه. لقد أخبرني عارف بأنهم غادروا ولديهم الانطباع بأنّ العرضَ مرفوضٌ قبل دراسته...

وكأنَّ عائلتكم لا تتشرَّف بالارتباط بعائلتنا!».

قلتُ بسرعة نافية:

«ما الذي تقولينه يا مرح الأمر ليس كذلك إطلاقاً».

«إذنْ ماذا؟؟».

«إنَّه أكبر بكثير مما تظنين...!!».

بعد حديثي معها جلستُ أفكِّر طويلاً... لمْ أكنْ أتوقَّع أنْ يكون الأمرُ هكذا... ما الذي سأفعله وكيف سأتصرَّف الآن؟؟

بعد حوالي الأربعين دقيقة خرجتُ مِنْ غرفتي قاصدةً الذهاب إلى غرفة المعيشة، ورأيتُ وليد هناك يجلس على طرف أحد المقاعد ويبدو عليه الاضطراب، ولمّا رآني سأل:

«ألمْ يعد سامر؟».

«لا أعرف. لا أظنُّ فأنا لمْ أسمع صوت الباب».

وهنا سمعنا صوت الباب الخارجي، فوقف وليد ثمَّ قال بصوتٍ هامس:

«لا تنسي ما قلتُه لكِ».

فأومأتُ برأسي، وخطوتُ خطوة للداخل. وافانا سامر مباشرةً ولمْ يلقِ التحيَّة بل ألقى علينا نظرةً سريعة ثمَّ همَّ بالانصراف. ناداه وليد وقال:

«تأخّرتَ يا سامر... ألا تعلمْ أنَّ لدي رحلة هذه الظهيرة؟؟ بالكاد يتَّسع الوقتُ للوصول للمطار».

فالتفتَ سامر إليه ثمَّ ألقى نظرةً على ساعة يده ثمَّ قال:

«لا يزال الوقتُ كافياً».

ثمَّ استدار إلى الباب ثمَّ توقَّف واستدار نحو وليد وقال:

«على فكرة وليد... لقد حجزتُ مقعداً على نفس الطائرة».

واستدار وولّى منصرفا نحو الدَّرَج!

لمْ يعطِ وليد الذهول فرصةً لتملُّكِه، بل أسرع عقب أخيه وهو يناديه إلى أنْ أدركه عند أسفل السلم... ولحقتُ بهما في اندهاش شديد.

قال وليد:

«ماذا تقصد؟؟».

فأجاب سامر وهو يرفع قدمه إلى الدرجة الأولى:

«أقصد أنني سأسافر أيضاً إلى الشمال الآن».

وواصل خطواته فهتف وليد:

«سامر قِفْ هنا وكلّمني...».

فتوقَّف سامر بعد بضع درجات وأرسل نظراته إلى وليد... وتسلَّلتْ إحداها إليَّ فقرصتْني.

قال وليد:

«ماذا تعني بتصرّفكَ هذا؟؟».
أجاب سامر وصوته يعلو ويحتدّ:
«لا أعني شيئاً. لدي أشياءٌ ضرورية لأحضِرها، وأمورٌ مهمّةٌ لأنجزها في المدينة التجارية. تعرف أنَّ سفري كان مفاجئاً وعاجلاً جداً».
فقال وليد بصبرٍ نافذ:
«ولكنّني سأسافر الآن... فهل تريد أنْ نسافر كلانا ونترك المنزل ومَنْ فيه هكذا؟؟».
وأصابتْني الفكرة بالرعب. فقال سامر:
«عُدْ ليلاً فهناك رحلةٌ مناسبةٌ هذا المساء».
ثمّ تابع صعود الدرجات حتى اختفى عنْ أنظارنا. وقف وليد برهةً كمَنْ يحاول استيعاب ما سمع، ثمَّ صعد الدرجات ليلحق بسامر. استوقفتُه وقلتُ مرعوبة مِنَ الفكرة:
«أنا لا أستطيع البقاء وحدي مُطلقاً».
فالتفتَ إليَّ وقال:
«وهل ترينني بهذا الجنون لأفعل هذا؟؟».
وواصل صعوده حتّى اختفى هو الآخر عنْ ناظري...

- وليد -

لحقتُ به إلى غرفته، نفس الغرفة التي كان يقيم فيها في الماضي والتي نظفتْها الخادمة يوم أمس، ووضع فيها حقائبه وباتَ على سريره القديم فيها البارحة. كان يستخرج شيئاً مِنْ إحدى حقائبه... سألتُه:
«ألستَ تمزح يا سامر؟؟».
فالتفتَ إليَّ وقال:
«وهل تراني بمزاجٍ جيِّدٍ ومناسبٍ للمزاح؟ ها هي التذكرة على المنضدة أمامكَ».
ولمحتُ التذكرة بالفعل على المنضدة. قلتُ:
«سامر لماذا تفعل ذلك؟؟».
أجاب:
«قلتُ لكَ أنَّ لديَّ حاجيات ضروريةٌ سأحضرها ومهامٌ سأنجزها».
«وهذه لمْ تظهر إلا الآن؟؟ أجِّل سفركَ للأسبوع المقبل أو على الأقل لحين عودتي».
قال:
«مستحيل. سفري ضروريٌ وملحٌ الآن».
وأخذ يضع أشياء معيّنة في حقيبة يدٍ صغيرة ثمَّ يأتي باتجاه الباب قاصداً المغادرة. حاصرتُ عينيه بنظراتي... كانتا كوردتين ذبلتا فجأةً بعد انقطاع المطر... شعرتُ بألمٍ فظيعٍ في صدري وفي معدتي... استوقفتُه وقلتُ بصوتٍ حنون:

«تمهّل يا سامر... حسناً... دعنا نناقش الأمر بعد عودتي مِنَ السفر... أعِدْ حقيبتَك إلى مكانها».

توقّف سامر عن الحركة وصمتَ قليلاً ثمّ قال:

«نناقش ماذا؟».

اجترعتُ المرارة وقلتُ:

«ما كنّا نناقشه البارحة. نبيِّن مواقفنا ووجهات نظرنا... وحقائق الأمور».

قال سامر والحزم جليٌّ على وجهه:

«بالنسبة لي، هناك حقيقةٌ واحدةٌ لا جدوى مِنْ محاولة اللفِّ والدوران بعيداً عن محورها. إما أنْ تعطيني وعداً صريحاً بإعادتها إليَّ، أو سأخرج مِنْ حياتكما نهائياً».

قلتُ:

«هل أنتَ مجنون؟».

فتجاهل سامر تعقيبي وسار مغادراً الغرفة. لحقتُ به وناديتُه مراراً ولكنّه واصل طريقه. وعند أعلى الدرج التفتَ نحوي ونظر إليَّ نظرةً عميقةً مؤلمةً غامضة المعاني، وأشار بسبَّابته نحوي وقال:

«أنتَ السبب يا وليد... تذكّر هذا».

وهبط الدرجات واختفى مِنَ المنزل.

قرب أسفل العتبات، كانتْ تقف الفتاة التي تعاركنا بسببها. سامر خرج مسرعاً ولمْ يلتفتْ إليها. استندتُ إلى السياج وسبحتُ في بحرٍ مِنَ الضياع...

لماذا وقع شقيقي الوحيد... في حبِّ الفتاة التي هي حبيبتي أنا... فتاتي أنا... التي لنْ أتنازل عنها لأجل أي مخلوق... حتى وإنْ... كنتَ أنتَ يا سامر...؟؟

وبسبب سفره اضطررتُ لأنْ ألغيَ رحلتي وأبقى مع رغد، فيما النار مشتعلةٌ في المزرعة... تنتظر عودتي كي أخمدها.

مع بداية الأسبوع الجديد... عادتْ رغد إلى جامعتها. كانتْ لا تزال بالجبيرة والعكاز... ولكن ذهابها إلى جامعتها كان الحلُّ الأمثل للوضع الحالي المضطرب. ولأنها لا تزال بحاجة للمساعدة، فقد وجدنا الحلَّ في أنْ ترافقها صديقتها المقرّبة ذهاباً وعودةً في الفترة الراهنة، على أنْ أتولّى بنفسي إيصالهما.

وفي إحدى المرّات، وفيما كنتُ في اجتماعٍ مهمٍ في مكتبي في مبنى إدارة المصنع، وردتْني مكالمة مِنْ رغد. كانتْ الساعة الثانية عشر والنصف ظهراً، ورغد لمْ تكن تتصل إلا للضرورة. ولمّا أجبتُها أخبرتْني بأنها أنهتْ محاضراتها لهذا اليوم وتريد العودة للمنزل. لمْ يكن التوقيت مناسباً فطلبتُ منها أنْ تنتظر اتصالي لاحقاً. وبعد نحو أربعين دقيقة، اتّصلتُ بها كي أخبرها بأنني مشغولٌ ولنْ أوافيها قبل ساعة، ففوجئتُ بها تخبرني بأنها وصديقتها الآن في طريق العودة إلى المنزل، في سيارة شقيقها.

هذا الشقيق لمْ يكنْ إلا... الأستاذ عارف!

تمالكتُ نفسي، وأنهيتُ المكالمة بهدوء ظاهري، وتابعتُ عملي دون تركيز حقيقي، وعندما عدتُ إلى المنزل، حاملاً طعام الغذاء كالعادة،كانتْ الساعة تقترب مِنَ الرابعة عصراً. توجّهتُ إلى غرفة رغد، لا أطيق صبراً... ولما اقتربتُ مِنَ الباب سمعتُ صوت ضحكات... كانتْ ضحكات رغد ممزوجةٌ مع ضحكات فتاةٍ أخرى...

ذهبتُ إلى المطبخ وسألتُ الخادمة، فأخبرتْني أنَّ لدى رغد ضيفةٌ تناولتْ معها غذاءً أحضرتاه معهما ظهراً مِنْ أحد المطاعم... وهما تجلسان في الغرفة منذ فترة.

انزويتُ على نفسي في غرفة المعيشة. بعد ساعة ونصف الساعة، سمعتُ صوت حركة في الممرِّ... ومعها صوت الفتاتين تودّعان بعضهما البعض، ثمَّ صوت الباب الرئيسي يُغلق.

هببتُ واقفاً وسرتُ نحو الباب وأنا أتنحنح لألفت الانتباه. وفي الممرِّ رأيتُ رغد تسير باتجاه غرفتها فناديتُ:

«رغد».

التفتتْ إليَّ، وسرعان ما لمحتُ البهجة على وجهها... كان واضحاً أنها مسرورة... سألتْني:

«أنتَ هنا؟ متى عدتَ؟».

سرتُ نحوها وأنا أجيب:

«قبل ساعة ونصف تقريباً».

وأضفتُ:

«آسف. لقد كنتُ في اجتماع مهم».

«لا بأس».

ثمّ استدارتْ تريد متابعة السير إلى غرفتها. انتظري! إلى أين تذهبين...؟؟ قلتُ:

«إذن... عدتُما مع... الأستاذ عارف؟».

فالتفتتْ إليَّ ولا تزال تعبيرات السرور باديةً على وجهها وقالتْ:

«أجل، فقد انهينا محاضرات اليوم باكراً ولمْ نشأ تضييع الوقت في الانتظار. عدنا ودعوتُ مَرَح للغذاء والمذاكرة معي».

كتمتُ ما في نفسي وتركْتُها تعود إلى غرفتها بسلام، وعدتُ إلى غرفة المعيشة. كرَّرتُ الاتصال بشقيقي عدَّة مرَّات بلا جدوى. إنني لمْ أتمكَّن مِنْ محادثته منذ سافر. اتصلتُ بالمزرعة وكالعادة رفضتْ أروى التحدث معي. وأعاد العم إلياس تأكيده بأنَّ الوضع حرج وأنَّ عليَّ الحضور فوراً.

شعرتُ بالضيق... أردتُ أنْ أشتِّتْ انتباهي في أمورٍ أخرى، تشغلني عن التفكير المستمر في رغد وسامر وأروى... أشغلتُ التلفاز وجعلتُ أتصفَّح قنواته حتى استقر انتباهي على الأنباء. المزيد مِنْ أعمال الشغب... الاغتيالات... المنظمات السريّة... الاعتقالات... الحرب... الدمار... الخراب... الموت...

ازداد ضيقي فأوقفتُ التلفاز، وخرجتُ مِنْ غرفة المعيشة وتوجَّهتُ إلى غرفة مكتبي، وبقيتُ فيها زمناً لا بأس به، أحاول شغل نفسي بإنجاز بعض الأعمال على الحاسوب، بيد أنَّ حاسوبي لمْ يفلح في إلهائي عن التفكير بما ومَنْ كنتُ أفكر فيهم...

غادرتُ مكتبي ناشداً بعض الشاي، لتصفية ذهني... وفي الواقع... باحثاً عن رغد...

كانتْ في غرفتها. لمْ نكنْ نلتقي إلاّ على مائدة العشاء التي نتناول طعامنا حولها شبه أخرسين.

«هل كنتِ تدرسين؟».

أجابتْ وهي تفتح الباب وتشير إلى مجموعة مِنْ كراسات الرسم الموضوعة على سريرها:

«كنتُ أتصفَّح رسماتي».

قلتُ محاولاً إذابة بعض الجليد مِنْ حولنا:

«ألديكِ الجديد؟ أيمكنني التفرُّج؟؟».

ظهر على وجه رغد تعبير لمْ أفهمه... ثمَّ توهَّج... ثمَّ قالتْ:

«نعم، بالطبع... تفضَّل».

آذنة لي بدخول الغرفة، فقلتُ مُفضِّلاً:

«دعينا نذهب إلى المطبخ... سأعدُّ بعض الشاي».

وسبقتُها إلى المطبخ وبدأتُ بالتحضير للشاي. وافتْني بعد قليل تحمل إحدى كراساتها. وضعتْها على الطاولة وجلستْ وهي تقول:

«لا أظنّكَ شاهدتَ هذه».

وقد كنتُ فيما مضى أتفرَّج على لوحاتها الجديدة مِنْ حين لآخر... وكانتْ تُسرُّ بذلك. أقبلتُ نحوها وجلستُ على المقعد المجاور لها، وتناولتُ الكراسة وشرعتُ في تصفُّحها. سمعنا صوت فقاعات الماء المغلي... فوقفتْ رغد قائلة:

«سأعدّه أنا».

وأمسكتْ بعكّازها. قلتُ وأنا أنظر إلى العكّاز وأتذكّر موعد الطبيب:

«غداً نذهب إلى الطبيب وينزع جبيرتك وتستغنين عن هذا أخيراً».

فابتسمتْ ابتسامةً مشرقةً وواصلتْ طريقها.

كنا جالسين على مقعدين متجاورين، كما لمْ نفعل منذ زمن... نحتسي الشاي الدافئ... أنا أقلِّب صفحات الكراسة، وهي تلقي بتعليقٍ بسيطٍ على الصفحات مِنْ حين لآخر... لا شيء غير ذلك... لا شيء أقرب مِنْ ذلك... أُخفي ما يدور في رأسي خلف صفحات الكراسة... أحاول أنْ أتحدَّث عنْ شيءٍ خارجٍ حدود الصفحة، ولا أجرؤ...

يا ترى... ما الذي تفكّرين به الآن أنتِ يا رغد؟؟

على الورقة التالية، وجدتُ ورقة ملاحظات صغيرة، مُلصقة على الصفحة المقابلة للرسمة... وكان مكتوباً عليها وبخطٍ صغير ومرتَّب كلمات مختصرة، فهمتُ منها أنّها تعليق

على الرسمة المقابلة. كانتْ الرسمة بالفعل خلابة... تفوق ما سبقها روعةً... أخذتُ أتأمّلها مطوّلاً... ورغم أنّني لا أفهمْ في فنِّ الرسم شيئاً... إلا أنّني انبهرتُ بها تماماً...

قلتُ:

«بالفعل رائعة! ما شاء الله».

ابتسمتْ رغد وتورّد خداها، ثمَّ قالتْ:

«هذه الأجمل بين المجموعة... حسب شهادة الخبراء».

التفتُ إليها وسألتُ:

«الخبراء؟».

فقالتْ وهي تشير إلى ورقة الملاحظات الملصقة على الصفحة المقابلة:

«هل قرأتَ هذا؟».

«نعم. أهي مِنْ إحدى مدرِّساتكِ في الجامعة؟».

ابتسمتْ رغد وقالتْ:

«لا! إنّه رأي الرسّام عارف... فقد اطَّلع على رسمي في هذه الكراسة وأبدى ملاحظاته».

كدتُ أوقع قدح الشاي مِنْ يدي وأسكبه على هذه الصفحة بالذات... فوجئتُ... وتسمَّرتْ عيناي على ورقة الملاحظات... وعبثاً حاولتُ إبعادهما عنها...

ماذا تعنين يا رغد؟؟ تعنين أنَّ عارف... عارف هو الذي كتب هذا؟؟ عارف أمسك بكراستكِ هذهِ... وتأمّل رسماتكِ؟؟ كيف تجرّأتِ على اقتراف هذا يا رغد؟؟

التفتُّ إليها... وأخذ الشرر يتطاير مِنْ عينيَّ... لكن عينيها كانتا تحملقان في ورقة الملاحظات... والبهجة مشعَّةٌ على وجهها...

وضعتُ كوب الشاي جانباً... وشددتُ على قبضتي غيظاً... ثمَّ سألتُ:

«و... وكيف شاهد الأستاذ كرّاستكِ؟؟».

فأجابتْ:

«أعطيتُها لِمَرَح قبل يومين وأعادتْها إليَّ اليوم».

ازدرتُ ريقي وابتلعتُ حنقي معه وتظاهرتُ بالتماسك وقلتُ:

«لكنْ... لماذا؟؟ أهي فكرتكِ؟».

أجابتْ رغد:

«فكرة مرح! إنها كانتْ تصرُّ عليَّ بأنْ تعرض لوحاتي على شقيقها الفنان منذ مدّة. تقول أنها واثقةٌ مِنْ أنها ستعجبه وسيرحِّب بعرضها في معرضه التالي. وأخذتْ كرّاستي كعيّنة».

عضضتُ على شفتيَّ وقلتُ:

«و... ما رأيكِ أنتِ؟؟».

فقالتْ بسرور واضح:

«إذا رسمتُ لوحةً مميّزةً فلا أحبّ إليَّ مِنْ أنْ تُعرض ضمن مجموعةٍ لفنانٍ مبدع

ومعروف! سيكون هذا نجاحاً كبيراً لي!».

وكانت عيناها تبرقان سروراً. قلتُ غير قادرٍ على تحمُّل المزيد:

«يبدو... يبدو... أنكِ... مبهورةٌ بالفنّان عارف المنذر... ألستِ كذلك؟؟».

وانتظرتُ إجابتها وأعصابي تحترق مِنَ الغيظ... رغد رفعتْ بصرها مِنَ الكراسة ونظرتْ إليّ... ثمّ طأطأتْ رأسها وتوهّجتْ وجنتاها واضطربتْ تعبيراتها.

ماذا تعنين بربّكِ يا رغد؟؟ كيف تجرُئين؟؟

تباً! أيُّ مصيبة ألقتْ بكَ علينا أيها العارف؟؟ ومِنْ أين خرجتَ؟؟

أنا لا اسمح لكِ بهذا يا رغد...

أغلقتُ الكرّاسة لأنني لمْ أستطع تحمُّل شيءٍ بعد... وبدا الاضطراب على أصابع يدي... لمْ أقوَ على كبتِ مشاعري أكثر... كيف... وأنا أقرأ الإعجاب في عين فتاتي برجلٍ ما... أي كان؟؟

مددتُ يدي حتّى أمسكتُ بيدها... وشددتُ عليها... رغد حملقتْ بي... وكسا الجدُّ وجهها... رمقتُها بنظرات مزجتْ الغيظ والعتاب والرفض والتوسُّل... لا أدري إنْ كانتْ رغد فهمتْ أياً منها... تجرّأتُ أخيراً وقلتُ:

«رغد... لا بدَّ... وأنكِ... تعرفين أنّه... طلبَ يدكِ منّي».

وتفحّصتُ تعبيراتها بالتفصيل... هربتْ بناظرها عنّي... وعلاها الارتباك... وحاولتْ سحب يدها منّي... فشددتُ عليها أكثر... وقلتُ:

«إذنْ...؟؟».

وتأمّلتُها بتركيز شديد... لمْ تقلْ شيئاً... ولمْ تحرّك ساكناً... غير أنَّ توهُّج وجهها تفاقم... ما أشعرني بالألم أكثر فأكثر... فشددتُ على يدها بقوّة أكبر فأكبر... علّها تحسُّ بما أعانيه... هذه الحبيبة الخائنة...

قلتُ:

«ما هو موقفكِ يا رغد... أخبريني؟؟».

لكنّها لمْ تتفوّه بكلمة، ولمْ تنظر إليّ...

أجيبيني يا رغد أرجوكِ... قولي أنّكِ لا تفكّرين في شيءٍ كهذا... وأنّكِ لا ترين في العالم رجلاً غيري أنا... أريحيني أرجوكِ!

ولمّا لم تجبْ... أرسلتْني الأفكار إلى الجنون... قلتُ بنبرة عنيفة وقد تفجّر الغضب في صوتي:

«تكلّمي يا رغد... أطلعيني على ما تفكّرين به الآن».

نبرتي القوية أخافتْ رغد... فألقتْ عليّ نظرة وجِلة ثمّ حاولتْ تحرير يدها مِنْ قبضتي وقالتْ بتوسُّل:

«أرجوكَ... أتركني».

وأرادتْ الوقوف والهرب بعيداً... غير أنّني لمْ أُطلِق صراح يدها ووقفنا معاً... هي تحاول

الابتعاد وأنا أعيق تحرّكها...

«أرجوكَ وليد...».

قلتُ مباشرة:

«أرجوكِ أنتِ... أطلعيني على ما يدورُ في رأسكِ».

قفزتْ دمعةٌ فجأة مِنْ عين الصغيرة واجتاحها الحزن. حرتُ في تفسير موقفها. قلتُ:

«أنا مَنْ لمْ يعدْ يفهمكِ... ماذا تريدين؟ بمَنْ تفكِّرين؟؟».

صاحتْ رغد ووجهها ينكمش:

«لا أحد... لا شيء... أنا لا أريد أنْ أتزوّج أصلاً... أبداً... أنتَ لنْ تفهمني...».

وسحبتْ يدها... وسارعتْ بالتقاط عكّازها ومغادرة المطبخ.

رميتُ بثقل جسمي على الكرسي... وأسندتُ رأسي إلى الطاولة... وزفرتُ زفرةً طويلة...

وهذا الموقف العصيب... لمْ يزدْ العلاقةَ بيننا إلا بروداً وتباعداً. وبعد أنْ كنّا نلتقي على الأقل على مائدة الطعام، صرنا لا نلتقي إلا في السيّارة، وأنا أقلُّها ذهاباً وعودةً إلى ومِنَ الجامعة. أما الأحاديث التي بيننا فقد تضاءلتْ لحد التلاشي. ولمْ نعدْ نكلِّم بعضنا البعض غير كلمة أو اثنتين في اليوم الواحد.

كان مأزقاً مُربِكاً شديداً... أثقل كاهلي وأحنى ظهري... إلاّ أنَّ الورطة التي تلتْه... المصيبة التي تبعتْه... تخطّتْ كل شدّة وفاقتْ كل حدّة...

إنها الكارثة التي قصمتْ ظهري وفلقتْ رأسي وقصفتْ عمري...

كانتْ ليلة أربعاء... وكنتُ مستلقٍ في غرفة المعيشة، على وشك النوم، حين وردتْني مكالمةٌ هاتفيةٌ هيّجتْ كل خلايا اليقظة في دماغي، وغيَّرتْ مجرى حياتي مائةً وثمانين درجة... على الفور...

كان المتّصلُ أبا حسام... وهو لمْ يتَّصل بي منذ زمن. في البداية تجاهلتُ اتصاله، فقد كنتُ أريد الاسترخاء بعيداً عن أي مؤثِّرٍ خارجي... غير أنَّ إلحاح المتّصل... أثارَ فضولي.

«مرحباً...».

أجبتُ فتحدَّث أبو حسام مباشرةً:

«مرحباً يا وليد. كيف حالكَ؟ أين أنتَ».

أقلقتْني نبرته وسؤاله... فقلتُ:

«خيراً؟؟».

وفوجئتُ به يقول:

«هل أنتَ في المنزل الآن؟؟ أنا عند الباب».

ماذا؟؟!!

«عند الباب؟؟».

سألتُ مندهشاً فأجاب:

«نعم. فإذا كنتَ موجوداً فافتحْ لي فهناك ما جئتُ أخبركَ عنه».
هببتُ جالساً بهلع... وسألتُ:
«ما الأمر؟؟».
«دعني أدخل أولاً».
وبسرعة ذهبتُ إلى الفناء وفتحتُ الباب فوجدتُ أبا حسام يقف أمام مرآي. انتابني الهلع... وجوده بحدِّ ذاته وفي مثل هذا الوقت وبهذه الحال ينذر بالخطر...
قدتُ الرجل إلى الداخل... وكان يسير بحذر. ذهبنا إلى المجلس الرئيسي وأنا بالكاد أسيطر على ذهولي. بمجرّد أنْ جلس على المقعد وقبل أي كلام آخر سألتُه:
«ماذا هناك؟؟».
أبو حسام تلفَّتَ يُمنةً ويسرةً، وكأنّه يريد أنْ يستوثق مِنْ أنَّ أحداً لا يسمعنا. وكان الجدُّ مجتاحاً قسمات وجهه بشكل مخيف...
لطفك يا رب...!!
تحدّث أخيراً وقال:
«هناك أمرٌ خطير يجب أنْ تعرفه وتتصرّف حياله فوراً يا وليد».
أفزعتْني الجملة، فحملقتُ به بأوسع عيني، وقلتُ:
«أي أمر؟؟».
قال وهو يخفتْ صوته:
«المصادر التي حصلتُ منها على المعلومات موثوقةٌ مائة بالمائة. وأنا أخاطر بإفشائها لكَ... وقد أتيتُ سراً لإبلاغكَ... يجب أنْ تعيها جيّداً وتتصرّفَ حيالها بمنتهى الحذر... وبمنتهى السرعة».
قلتُ مضطرباً وريقي جفَّ في حلقي:
«جفّفتَ حلقي يا عم... أخبرني ماذا هناك؟؟».
وهنا قرّب أبو حسام رأسه منّي وقال بصوتٍ حذر:
«يتعلّق الأمر... بشقيقكَ».
توقّف قلبي عن النبض فجأة... وصدري عن التنفُّس... واجتاحني فزعٌ مهول. رفعتُ يدي إلى صدري وقلتُ بفزع:
«ما بهِ شقيقي؟؟».
أبو حسام ركّز أنظاره على وجهي وكأنّه يقيس مدى الفزع فيه، ثمَّ سأل:
«أهو هنا؟؟».
فقلتُ باضطراب:
«لا... لكن ما به شقيقي؟ أرجوكَ أفصِح؟؟ هل أصابه شيء؟؟».
هزّ أبو حسام رأسه بنفيٍ ممزوجٍ بالأسف، ثمَّ قال:

«ليس بعد... لكنّه على حافة الخطر...».

ثمّ استنشق نفساً قوياً مِنْ فمه وزفره أسفاً ثمّ قال:

«هل تابعتَ خبر اغتيال الوزير... الذي نفّذه المشاغبون، أعضاء المنظمة السريّة، قبل أيّام؟؟».

أجبتُ بنظرة مِنْ عينيَّ... أردف أبو حسام قائلاً:

«أخوك... متورطٌ مع هذه المنظمة... وشارك في العملية بكل تأكيد».

جفلتُ... تسمّرتُ في وضعي... تصلّبتْ أطرافي وتيبّستْ عضلاتي... حتى كلمة («ماذا؟؟») لمْ أقوَ على النطق بها... أنا ربّما... لا أسمع جيّداً... ربّما أنا نائم؟؟... ماذا... ماذا قلتَ؟؟

حملقتُ في أبي حسام... غير مصدّق... مذهولاً لأبعد حد... فرأيتُ الجدّ ينبثق بقوّة مِنْ عينيه... ثمّ إذا بي أحسُّ بيده تمسك بكتفي... وبصوته يطنُّ في أذني:

«الخبر أكيدٌ تماماً... طرتُ إليكَ مِنْ فوري لأبلغكَ... أحد الأعضاء وقع في أيدي السلطات وانتزعَتْ منه اعترافات خطيرة... وهي في طريقها للقبض على العناصر جميعاً...».

وصمتَ لحظةً، يراقب ردّة فعلي وانفعالاتي المذهولة غير المصدّقة، ثمّ أضاف:

«سامر أحد العناصر. متى ما وقع في قبضتهم، فسيعدمونه لا محالة».

أخيراً استطاع فمي النطق متلعثماً هاتفاً:

«مستحيل!! ما... ما... ما الذي... تقوله؟؟».

شدّ أبو حسام الضغط على كتفيَّ وقال:

«أنا واثقٌ مِنْ معلوماتي تماماً...».

شهقتُ ونطقتُ:

«ما الذي تقوله؟؟ سامر أخي... عضوٌ في... آه... ماذا؟؟ ما هذا الهراء؟؟».

شدَّ أبو حسام على كتفي بحزمٍ أكبر وقال:

«أعرف أنّها صدمة... لكن... هذا ليس وقت المفاجأة يا وليد. شقيقكَ في خطر... يجب أنْ تعمل فوراً وفي الحال على إخراجه مِنَ البلد... الآن يا وليد... قبل فوات الأوان».

زفرتُ زفرة قوية، ونظرتُ مِنْ حولي... علّي أجد ما يؤكّد لي أنني لستُ في حلم. كنتُ رافضاً تماماً القبول بفكرة أنّ أخي... أخي أنا... آه كلاّ... مستحيل...

قلتُ رافضاً ومشكّكاً:

«ربّما... ربّما».

لكن أبا حسام قال بحزم وجدية بالغين:

«أنا لمْ أحضر مِنَ الشمال إلى الجنوب وبهذه السرعة وهذا الشكل وهذا الوقت لمجرّد (ربّما). وليد... أرجوكَ تخطَّ مرحلة الصدمة بسرعة. لا وقت لتضيّعه في الذهول والرفض. حياةُ شقيقكَ في خطر حقيقي... أنّه متورطٌ مع المنظمة منذ شهور... بعض العناصر هم زملاؤه في العمل في المدينة الصناعية... والعضو المعتقل وتحت وطأة التعذيب أفشى عنْ خطّتهم

التالية ومَنْ سينفِّذها وكيف. سينفّذونها هنا في المدينة الساحلية قريباً. السلطات ستنصب كميناً وتباغتهم وترسلهم جميعاً إلى الجحيم. لنْ ينجوَ إذا ما وقع في قبضتهم، لا مخرج أبداً».

أمسكتُ برأسي الذي أحسستُ به يتأرجح على عنقي... وأغمضتُ عيني لأحول دون رؤية الأشياء التي أخذتْ تتراقص مِنْ حولي.

أبو حسام وهو يراني هكذا قال حازماً:

«يجب أنْ تتماسك يا وليد... لا وقت للانهيار... يجب أنْ تنقذه قبل أنْ يُقبَض عليه وحينها... لا أمل أبداً في إنقاذه».

حرّكتُ رأسي تأييداً وأنا لا أزال في مرحلة الصدمة، أجبر نفسي على تخطّيها وسباق الزمن. قلتُ:

«ماذا أفعل؟؟ كيف أتصرّف؟؟».

فقال:

«يجب أنْ نُخرِج الشاب مِنَ البلد بأسرع أسرع ما يمكن. استخدم كل نفوذك وافعل المستحيل لترحليه إلى الخارج. لا أحد يقع في يد السلطات ويعود سالماً، وخصوصاً في قضيَّةٍ بهذه الخطورة. لا تذّخر وسيلةً مهما كانتْ».

مسحتُ العرق الذي تصبَّب على وجهي كشلال مياهٍ مالحة... وأخذتُ أفتح أزرار قميصي العلوية وكأنَّ ذلك سيساعد في إزاحة الكتم عن صدري... ثمَّ قلتُ:

«أنا... لا أعرف أين هو الآن».

فنظر إليَّ أبو حسام بانزعاج فأوضحتُ:

«سافر إلى الشمال الخميس الماضي، ولمْ يُجِبْ على اتصالاتي».

ثمَّ قلتُ مستنتجاً بذعر:

«أخشى أنّه...».

فقاطعني:

«لا يزال طليقاً... وسيشارك في العمليّة التالية. لا بد وأنّه في الجوار الآن...».

في تلك الليلة... انحرفتْ الكرة الأرضية عن محور دورانها، وتخبّطتْ واصطدمتْ في جميع الأجرام السماوية، ولمْ تذر لا نجماً ولا قمراً... إلا وصفعتْه في رأسي...

غادر أبو حسام المنزل... مخلِّفاً إياي وسط كومة ضخمة هائلة... مِنْ حطام الكواكب...

بقيتُ على ذات المقعد، أتلقّى الصفعة تلو الأخرى، فاقداً الحواس الخمس. يحسبني الناظر إليَّ... جثّةً متحنِّطةً تنتظر مَنْ يواريها...

بعد حقبةٍ مِنَ الزمن... الله الأعلم بمداها... عادتْ الروح إلى جسدي واستطعتُ التحرّك...

وقفتُ وأنا مفلوق الهامة... يأمرني الشقُّ الأيمنُ بالسير يميناً ويأمرني الشقُّ الأيسر بالسير يساراً... حتّى إذا ما سرتُ... ترنّحتُ وكدتُ أختتم صدماتي بارتطام بالجدار...

صعدتُ السلَّم وقادتْني قدماي إلى غرفة سامر، في الطابق العلوي.

ربّما خُيّل إليَّ... أنني سأستيقظ مِنَ الكابوس وأرى أخي ينام بسلام على سريره... لكنّه لمْ يكن على سريره! أشعلتُ المصابيح غير أنَّ النور لمْ يكشف شيئاً مُستتراً...

ولا شعوريا أخذتُ أفتِّش بين أغراضه...

مسكينٌ وليد! هل خيَّل لكَ دماغكَ المفلوق... أنَّكَ ستجد شقيقكَ الغائب... مختبِئاً في أحد الأدراج؟؟

ما وجدتُه في أحد الأدراج... كان صندوقاً. إنّه ذات الصندوق الذي رأيتُه في شقَّة أخي في المدينة التجارية، والذي تغلّبتُ على فضولي ولمْ أفتحه ذلك اليوم...!

ولكن لماذا تتحرّك يداي لفتحه الآن؟؟ أي مِنْ شِقَّيْ دماغي يأمرها بذلك؟؟

أخيراً فتحتُه... ووقع بصري مباشرةً على ما فيه!

اشرأبَّ عنقي... جحظتْ عيناي... تصادمتْ قطرات دمي وهي تتدفق بتهوّر وعشوائيةً مِنْ قلبي...

أتعرفون ماذا رأيتَ؟؟

لا لنْ تحزروا...!...

لقد كان... مسدَّساً!!!

الحلقة التاسعة والأربعون

يا شقيقي الوحيد

- رغد -

تقترب الساعة مِنَ السابعة والنصف ووليد لمْ يظهر بعد! سأتأخَّر عن الجامعة. ألا يزال نائماً حتَّى هذه الساعة؟؟

كان لا بد لي مِنَ الذهاب إلى غرفة المعيشة - حيث ينام حالياً - وطرْقِ الباب.

نحن لا نكالم بعضنا منذ أيام. في الحقيقة العلاقة بيننا شبه منقطعة منذ زمن، وبعد موضوع الفنان عارف هذا الأخير، لمْ نعد نتبادل غير التحية.

لكن أنا أرضى مِنْ وليد بأي شيء... حتَّى لو قرّر أنْ يتجاهلني تماماً... سأقبل. أريد فقط أنْ يبقيني تحت جناحه... وأنْ يسمح لي بأنْ أراه ولو مرّة واحدة كل يوم.

واليوم سيأخذني إلى الطبيب حتّى تُنزع جبيرة رجلي، وأستعيد كامل حركتي... أخيراً.

طرقتُ الباب مراراً ولمْ يُجبني. كان الوقت يداهمني لذلك لمْ أتردّد قبل فتح الباب، والمفاجأة كانتْ أنّه لمْ يكن في الداخل!

بحثتُ عنه في المطبخ والغرف المجاورة ولمْ أجده. شعرتُ بالقلق، ورجَّحتُ أنْ يكون في الطابق العلوي. لمْ تكن الخادمة قد استيقظتْ بعد. اتّصلتُ بغرفته العلويّة عبر الهاتف الداخلي وما مِنْ مجيب. ازداد قلقي، فاتصلتُ بهاتفه المحمول، وأخيرا تلقّيتُ رداً:

«نعم رغد».

قالها بسرعة وكأنّه على عجلة مِنْ أمره أو مشغول. سألته مستغربة:

«أينَ أنتَ؟؟».

فأجاب:

«في الجوار... سأصل بعد قليل».

ولكن! إلى أين ذهبتَ في هذا الصباح الباكر؟؟ وكيف غادرتَ وتركتني!؟؟

قلتُ:

«حسناً».

وأنهيتُ المكالمة وجلستُ أنتظره في المطبخ. جاء بعد قليل وكان يحمل معه كيساً يحوي أقراص الخبز وفطائر وأطعمة أخرى، فاستنتجتُ أنّه كان في المخبز.

قاد وليد السيارة بسرعة كبيرة نحو الجامعة، على غير العادة... وتلقّى ثلاثة اتصالات هاتفية أثناء الطريق... وكان ظاهراً مِنْ كلامه... أنّ هناك ما يقلقه...

لمْ أجرؤ على سؤاله، فالتواصل بيننا مؤخّراً كان مُجمَّدا. ذهبتُ إلى جامعتي وقضيتُ نهاري بين زميلاتي بشكل اعتيادي، دون أنْ يخطر ببالي أنّه سيكون... النهار الأخير...!!

بعد انتهاء المحاضرات، جلسنا أنا ومرح عند المواقف ننتظر وصول سيارة وليد كالعادة، فهو مَنْ كان يوصلنا يومياً ذهاباً وإياباً إلى ومِنَ الجامعة. مرّتْ بضع دقائق ولمْ تظهر السيارة. ووجدتْ مَرَح في الانتظار فرصة لتطرح عليَّ السؤال التالي:

«هل مِنْ جديد... عنْ موضوعنا؟؟».

تعني موضوع عرض الزواج!

آه يا مرح! وهل هذا وقته؟؟

لمْ أشأ أنْ أكون فظّة وأخبرها مباشرةً بأنْ تنسى الموضوع نهائياً، خصوصاً وأنَّ هناك طلبٌ رسمي مِنْ عائلتها مقدَّم رسمياً إلى وليد؛ وليّ أمري، والذي يجب أنْ يتولَّى بنفسه الردَّ الرسمي على الطلب، لمْ أُرِدْ أنْ أحرجها وأحرج نفسي لذا قلتُ متظاهرة بالمرح:

«انتظروا ردَّ أبي!».

لكنّني لمْ أتخلّص منْها إذ سألتْ مِنْ جديد:

«ماذا عنْ رأيكِ أنتِ؟؟ هل توافقين على الفكرة مبدئياً؟؟».

واحترتُ بِمَ أجيب؟!

ربّما فسّرتْ مَرَح حيرتي بأنّها قبول وخجل... فها هي تبتسم بسرور!

أظهرتُ الجدّ على ملامح وجهي وقلتُ:

«مَرَح... هناك شيءٌ لمْ أطلعكِ عليه مِنْ قبل».

فاتّسعتْ ابتسامتها وقالتْ بفضولٍ مندفعٍ ممزوجٍ بالمزح:

«ما هو؟؟ أخبريني! سرُّكِ في بئر!».

آه! يبدو أنّه مِنَ الصعب أنْ تأخذ مَرَح الأمور بجدٍ حقيقي! قلتُ وأنا مستمرّة في نبرة الجد:

«لقد... كنتُ مخطوبةً في السابق».

اتّسعتْ حدقتا مَرَح بشدّة... وحملقتْ بي غير مصدّقة، فقلتُ مؤكِّدةً:

«نعم... ولعدّة سنوات!».

قالتْ بعد ذلك وفمها مفغورٌ:

«أحقاً!! لا أصدِّق! كيف!؟؟ متى؟؟ أين؟؟ مَنْ؟؟».

انتظرتُ حتى تستفيق مِن أثر المفاجأة ثمَّ قلتُ:

«بلى صدّقي».

«متى رغدا!؟».

«منذ سنين... كنتُ صغيرةً... و... لقد انفصلتُ عنه... قبل شهور».

لمْ تخفِ مَرَح دهشتها الشديدة. استغرب مِنْ نفسي!!

كيف أذكر هذا الموضوع وكأنّه موقفٌ عابر انتهى... بينما كان في الواقع حدثاً استمرَّ لأربع سنين؟؟!!

أربع سنين عشتُها مخطوبةً لسامر، وأنا لا أعرف ما هي حقيقة مشاعري نحوه. أصلاً... لمْ أكنْ أعرف أنَّ هناك أنواعٌ مِنَ الشعور، لمْ أذقْ منها سوى طعمٍ واحد... إلى أنْ ظهر وليد في حياتي مِنْ جديد، وأذاقني أصنافاً أخرى...

سألتْ مَرَح:

«مَنْ كان؟؟».

فنظرتُ إليها نظرة قويّة، ثمَّ أبعدتُ بصري عنها وطأطأتُ رأسي. وبعد تفكير قصير أجبتُ:

«ابن عمّي».

حينها هتفتْ مرح بدهشة وهي ترفع يدها إلى فمها:

«المليونير!!! وليد شاكر؟!؟؟».

التفتُّ إليها بسرعة وقد لسعني تعليقها بقوّة فأجبتُ بتوتّر:

«لا.. لا...».

ثمَّ زممتُ شفتيَّ وأضفتُ:

«شقيقه الأصغر».

فقالتْ مرح وقد بدا وكأنها آخذةٌ في الاستيعاب:

«هكذا... إذن!».

ثمَّ صمتتْ قليلاً... واستطردتْ تسأل:

«و... لماذا انفصلتُما؟؟».

وعند هذا الحدِّ كان يجب أنْ نتوقّف. قلتُ وأنا افتح حقيبتي واستخرج هاتفي وأتظاهر بعدم الاكتراث:

«لا نصيب».

واتصلتُ مباشرة بوليد أسأله عن سبب تأخّره. وأدهشني وحيّرني حين أجاب:

«أنا آسف يا رغد. لا أستطيع الحضور الآن. مشغولٌ جداً. عودي مع صديقتكِ».

- وليد -

كنتُ ساعتها أبذل كلَّ الجهود الممكنة والمستحيلة مِنْ أجل تسهيل أمر ترحيل أخي إلى الخارج في أي لحظة تصل يدي إليه. اتخذّتُ عشرات التدابير... ووضعت عدَّة خطط وبدائل خطط... استعداداً للعمليّة...

لمْ يعدْ لديَّ شكٌّ في أنَّ أخي بالفعل متورِّط مع تلك المنظَّمة... ولمْ أعد بحاجة إلى دليلٍ إضافي بعد ما وجدتُ في الصندوق.

لا وقت لديَّ كي أستوعب وأحلِّل... أنا هنا فقط لأعمل وأعمل... بشتَّى الطرق... لأعثر عليه وأُخرِجه مِنَ البلد قبل أنْ تسبقني السلطات إليه.

ولشخصٍ مثلي... عاش في السجن تسعة أعوام... ورافق مجرمي أمن البلد... وعاصر مصارعهم أمام عينيه، لستُ بحاجة لأنْ يشرح لي أحد... ما الذي يمكن أنْ يلاقيه أخي... لو تمَّ اعتقاله...

عدتُ إلى المنزل عند الخامسة، في أشدّ أشدِّ حالات الإعياء والتعب. عند وصولي، استقبلتني رغد بوجه قلق، وسألتْني مباشرة:

«تأخّرتَ وليد... لماذا؟».

وسرعان ما لاحظتْ أثر الإعياء صارخاً على وجهي، فسألتْ هلِعة:

«ما الخطب؟؟».

فركتُ عينيَّ اللتين لمْ تذوقا للنوم طعماً منذ البارحة ثمَّ قلتُ:

«مُتعبٌ مِنَ العمل... سأخلد للنوم».

وخطوتُ خطوةً باتّجاه غرفة المعيشة، فاستوقفتْني رغد قائلة:

«موعدي مع الطبيب».

فتذكّرتُ... أنَّ اليوم هو موعد نزع جبيرة رغد، وهو أمرٌ ألغاه مِنْ ذاكرتي ما حلَّ مكانه بكل قوة. التفتُّ إليها وقلتُ:

«لا وقت لدينا».

فنظرتْ إليَّ بحيرة واستغراب وحزن، عندها اقتربتُ منها خطوةً وقلتُ:

«رغد... اجمعي أهم أشياءكِ في حقيبة. جهِّزيها في أسرع وقت اليوم».

بدا الذعر على وجه صغيرتي ورفعتْ يدها نحو عنقها وقالتْ متوجِّسةً خيفة:

«ستعيدني إلى خالتي؟؟... كلاَّ أرجوك!!».

فحملقتُ فيها قارئاً مخاوفها وتوسلاتها ثمَّ قلتُ:

«ليس هذا... قد نُضطر إلى سفرٍ طارئ وحرجٍ في أيّة لحظة... استعدِّي».

وتابعتُ سيري إلى غرفة المعيشة تاركاً إيّاها في حيرتها... واستلقيتُ على الكنبة وغرقتُ في النوم بسرعة...

«وليد... سامر هنا».

فتحتُ عينيَّ... واستفقتُ لأكتشف أنَّني لا زلتُ نائماً على الكنبة، وأرى رغد تقف أمامي. لكن... مهلاً... ماذا كانتْ تقول؟؟ ماذا كنتُ أحلم؟؟ ماذا سمعتُ؟؟ ماذا هُيِّئَ لي؟؟

استويتُ جالساً وأنا لا أزال بين النوم والصحوة... ونظرتُ إلى ساعة يدي... فرأيتُها تشير إلى الثامنة مساءً...

أوه... الصلاة...

قلتُ:

«لماذا لمْ توقظيني عند المغرب؟».

كان شيئاً مِنَ القلق على وجهها... وسمعتُها تقول:

«لمْ أكنْ أعلم أنَّكَ لا تزال نائماً... أحسستُ بحركةٍ في المنزل فبحثتُ عنكَ... ووجدتُكَ نائماً هنا... سألتُ الخادمة فأخبرتْني بأنّها رأتْ السيِّد الأصغر يصعد السلَّم... أتيتُ لأوقظكَ وأخبركَ بهذا».

لخمس ثوانٍ بقيتُ محملقاً فيها استوعب ما قالتْه... ثمّ... وبسرعة البرق... قفزتُ مِنْ مكاني وركضتُ طائراً نحو الطابق العلوي...

أقبلتُ باندفاع نحو غرفة شقيقي وكان الباب مغلقاً... ففتحتُه بسرعة واقتحمتُ الغرفة... وكم كاد قلبي أنْ ينفجر مِنَ البهجة... حين رأيتُ شقيقي سامر... يقف أمام عينيّ...

«الحمد لله».

انسكبتْ الجملة مِنْ لساني وطرتُ نحو شقيقي وطوّقتُه بذراعيّ وضممتُه إلى صدري...

«حمداً لكَ يا رب... حمداً لكَ يا رب».

ألف حمدٍ لكَ يا رب... فقد رددتَ إليَّ شقيقي سالماً... حياً... معافى... الآن أستطيع أنْ أخبِّئه... أنْ أحميه بحفظكَ... وأبعده عن الخطر...

أزحتُ ذراعيَّ عنْ أخي ونظرتُ إلى عينيه... فرأيتُ الشكَّ... والاتهامَ ينبعثان منهما... وانتبهتُ حينها إلى أنَّ الصندوقَ الذي كان سامر يخبِّئ فيه السلاح... موضوعٌ على السرير... وهو مفتوح...

كلانا نظر إلى الصندوق... ثمَّ إلى بعضنا البعض... ونظرتانا تبلِّغ إحداهما الأخرى... بما استنتجتْ...

أخيراً نطق سامر قائلاً:

«أين هو؟؟».

يقصد المسدّس... والذي أخذتُه أنا مِنْ صندوقه ذلك اليوم، وأخفيتُه. لمْ أجِبْ... فكرّر سامر وبنبرة أغلظ وأشد:

«أينَ هو؟؟».

حدّقتُ به برهة ثمّ قلتُ:

«تخلّصتُ منه».

بدأ وجه شقيقي يضطرب... تغيّرتْ ألوانه وتبدّلتْ سحنته... وزفر بنفاذ صبر وعاد يكرّر:

«وليد... أخبرني أين وضعتَه؟؟ ولماذا سمحتَ لنفسكَ باقتحام غرفتي والعبث بأشيائي؟؟».

قلتُ محاولاً امتصاص غضبه وأنا أمسِك بذراعه:

«دعنا نجلس ونتحدَّث».

غير أنَّ أخي سحب ذراعه مِنْ يدي وهتف بعصبيّة:

«أعده إليَّ يا وليد الآن... لا وقتَ عندي».

فنظرتُ إليه بعطف وقلتُ:

«لا وقتَ... لماذا؟؟ ما أنتَ فاعلٌ؟؟».

فردّ باقتضاب:

«ليس مِنْ شأنكَ... ولا تُقحِم نفسكَ في ما لا يخصُّكَ».

فرددتُ مباشرةً معترضاً:

«لا يخصُّني؟؟ أنتَ شقيقي يا سامر... شقيقي الوحيد وكل ما يتعلَّق بكَ يخصُّني ويعنيني».

قال سامر بعصبيةٍ وصبرٍ نافذ:

«وليد لو سمحتَ... لا داعي لتضييع الوقت في الكلام... أعد السلاح إليّ في الحال ودعني أذهب».

وكلمة («أذهب») هذه هزّتْ جسدي مِنْ شعر رأسه إلى أظافر قدميه... ثمَّ هززتُ رأسي بـ (كلاّ) فما كان مِنْ أخي إلا أنْ تجاوزني وسار مندفعاً نحو الباب وهو يقول:

«سأفتّش عنه بنفسي».

وانطلق نحو غرفة نومي... دخلها وباشر بتقليب الأشياء وبعثرة كل ما تقع يده عليه، بحثاً عن المسدَّس. وقفتُ عند الباب أراقبه... وأنا لا أصدِّق أنّها الحقيقة... أخي أنا... عضوٌ مشاغب في منظَّمة للمتمرِّدين... يشارك في تنفيذ عمليات إجرامية؟؟ أخي أنا... يملك سلاحاً... ويغتال البشر...!!؟؟

«أينَ أخفيتَه يا وليد تبّاً لكَ!».

قال ذلك بعد أنْ اشتطَّ بهِ الغضب ويأس مِنَ العثور على ضالّته، فقلتُ:

«لا تتعبْ نفسكَ... إنّه ليس هنا».

التفتَ إليَّ والشرر يتطاير مِنْ عينيه وزمجر:

«إذن... لنْ تدلّني على مكانه؟؟».

فأجبتُ بحزم مع مرارة:

«أبداً».

وما كان مِنْ شقيقي إلا أنْ ألقى ما كان في يده وسار منطلقاً إلى خارج الغرفة وباتجاه السلّم. تبعتُه وأنا أقول:

«إلى أين ستذهب؟؟ إنّه ليس في المنزل».

فسمعتُه يرد:

«أنا تاركٌ لكَ المنزل وما فيه».

انفجرتْ القنابل في رأسي... ركضتُ خلفه وأنا أهتف:

«انتظر... انتظر».

قفزتُ الدرجات قفزاً حتّى أدركتُه عند أواخرها وأطبقتُ بيديَّ على ذراعه...

قلتُ:

«لنْ أدعكَ تخرج».

سامر حاول تحرير ذراعه مِنْ قبضتي فشددتُ أكثر... فصرخ في وجهي:

«أتركني».

غير أنّني شددتُه أكثر وأعقتُه عن التقدُّم. حينها سدَّد ركلةً بركبته إلى معدتي مباشرة... وفرطُ الألم أصابني بشللٍ مفاجئ... فتمكَّن مِنَ الإفلات مِنْ قبضتي وهرول مبتعداً...

لحقتُ به بسرعة وأنا أتلوى وجعاً، وأدركتُه عند الممر فأمسكتُ به وجذبتُه وأنا أهتف:

«لنْ أدعكَ تذهب يا سامر... لنْ أدعكَ».

ودارتْ بيننا معركةٌ عنيفة... أشدّ شراسةً وضراوةً مِنْ تلك التي أشعلناها ليلة زيارة (عارف المنذر) لنا...

كنتُ أضربه وأنا أتألّم... أمزِّق ملابسه وأنا أتمزَّق... أُدميه وأنا أنزف...

يستحيل أنْ أترككَ تخرج يا سامر... وإنْ اضطررتُ لكسر ساقيك فسأفعل... لكنّني لنْ أدعكَ تقع في أيدي السلطات... لنْ أدعهم يلمسوا مِنْكَ ولا شعرة واحدة...

- رغد -

وقفتُ أشاهد عراك ابنَي عمِّي الجنوني مذعورةً... أُلصِق جسدي بالجدار خشيةَ أنْ تنالني صفعةٌ طائشةٌ مِنْ أيٍّ مِنْ قبضتيهما!

كلّما ضرب أحدهما الآخر أطلقتُ صيحةَ ذعرٍ وأخفيتُ عينيّ خلف راحة يدي... وانتفض جسمي. كان سامر يحاول التوجُّه إلى المدخل... إلى الباب... ووليد كان يجرُّه في الاتجاه المعاكس وهو يصرخ:

«لنْ أسمحَ لكَ بالذهاب... لنْ أدعهم يمسكون بكَ... لنْ أسلِّمَكَ للموت هكذا أبداً».

وسامر يحاول التحرُّر مِنْ يده وهو يصرخ:

«أتركني... لا شأنَ لكَ بي...».

فيردُّ وليد:

«سيقبضون عليكَ ألا تفهم؟؟ سيلقون بكَ في السجن إلى أنْ يعدموكَ بأبشع وسيلة... أنا لنْ أسمح لهم بالوصول إليكَ».

ويحتدم العراك بين الشقيقين وأرى اللون الأحمر يشقُّ جداولَ وبركاً على جسديهما...

يضرب سامر ساق وليد بقوة فيجثو أرضاً... ويحاول سامر الفرار فتقبض يدا وليد على رجله ويشدُّه بعنفٍ فيفقد توازنه ويقع أرضاً... يطبق وليد على رجلَي سامر ويجرُّه في الممرِّ عنوةً... يحاول سامر النهوض ويفشل... يصرخ:

«أُتركني... ابتعِد».

ويوجّه ركلةً بقدمه نحو وليد فتصيب أنفه مباشرةً... لكنَّ وليد لا يُطلق صراح سامر مِنْ قبضته بل يجرّه وهو يحكُّ جسده بالأرض... ويحاول سامر غرس أظافره في الرخام الأملس

دون جدوى... فيصرخ بصوت أقوى وأعنف:

«أُتركني أيّها الوحش».

ووليد مستمرٌ في جرّ أخيه إلى أنْ أدخله مجلس الضيوف... لمْ أعد مِن مكاني أستطيع رؤيتهما، لكنَّ صراخهما كان يدوي في كل المنزل... وسمعتُ أيضاً صوت المزيد مِنَ الركلات والضربات والآهات المتوجّعة القوية... والتي جعلتْني أرجِّح أنَّ كسراً ما قد أصاب عظام أحدٍ منهما...

لمْ أشعر إلاَّ ودموع الرعب تنسكب فائضةً مِنْ عينيَّ...

لقد... سبق وأنْ عاصرتُ عراكاً بينهما، ولكن... ما يحدث الآن... يفوق حد الجنون...

«رغــــد».

فجأةً انتفض جسمي على صرخة أحدٍ يهتف منادٍ باسمي...

«رغــــد... تعالي بسرعة».

حتّى أنني لقوّة الزمجرة لمْ أعرف صاحبها...

«رغــــد أسرعي».

أمسكتُ بعكازي وهرولتُ نحو المجلس تاركةً قلبي معلّقا على الجدار الذي كنتُ استند إليه... فور وصولي إلى فتحة الباب وقع بصري على وليد يلوي ذراع سامر وهو يلصقه بالجدار بينما يحاول سامر التملُّص ويسدِّد رفسات عشوائية نحو رِجْلَي وليد...

«أغلقي الباب بالمفتاح».

قال ذلك وليد، فنظرتُ إليه غير مستوعبة... ماذا يقول..؟؟

فصرخ:

«هيّا بسرعة...».

ارتجفتُ مِنْ صرخته ونظرتُ إلى الباب ورأيتُ المفتاح مغروساً في ثقبه، مِن الخارج...

صرخ وليد:

«اقفليه بسرعة هيّا».

وفي نفس الوقت صرخ سامر:

«إياكِ يا رغد».

فصرخ وليد صرخةً مجلجلة:

«تحرّكي».

انصعتُ بعدها لأمره بلا إدراك، وأغلقتُ الباب وأقفلتُه...

وقفتُ خلف الباب المقفل واضعةً يديَّ على صدري... وأنا أحملق في المفتاح... ولمْ يفسح العراكُ الذي هزَّ الباب أمام مرآي، لي المجالَ للتفكير واستيعاب ما يجري...

ابتعدتُ عن الباب وأنا أتوقّع أنْ يُقلع في أية لحظة... كان جسد أيٍ منهما يرتطم به المرّة بعد الأخرى... ثمّ أخذتْ قبضتا أحدهما تدكُّه دكاً...

«افتحـي يـا رغـــد».
لقد كان سامر...
«لا تفتحي يـا رغـــد... ابقي مكانكِ».
صوت وليد...
وتداخلتْ الأصوات الصارخة الثائرة المجنونة... افتحي لا تفتحي... حتَّى شعرتُ بالدوار وخررتُ على الأرض...
انطلق البكاء المكبوت مِنْ صدري أخيراً وأخذتُ أصرخ:
«ماذا يحدث... ما الذي تفعلانه؟؟ ماذا حلَّ بكما؟؟».
وأنا لا أفهم شيئاً...
ثمَّ سمعتُ ضربات قوية على الباب أوشكتْ على اختراقه مِنْ شدّتها... وصراخ سامر يهتف:
«افتحـي البـــاب».
يليه صوت وليد:
«لا تستمعي إليه يا رغد... إذا خرج فسوف يقتلونه... إياكِ يا رغد...».
التفتُ إلى الباب وهتفتُ:
«مَنْ يقتلون مَنْ؟؟».
فجاءني ردُّ وليد:
«الشرطة تطارده... سيجدونه حتماً... أنا سأنقذه قبل أنْ يصلوا إليه...».
أنا... لا أفهم شيئاً... لا أفهم شيئاً...
«رغـد».
ناداني وليد...
«رغد أتسمعين؟؟».
أجبتُ:
«نعم».
«أحضري هاتفي المحمول بسرعة».
لمْ أعقِّب... فقال:
«هل تسمعينني يا رغد؟؟».
قلتُ:
«ما الذي يجري؟؟ أنا لا أفهم».
فقال:
«احضري هاتفي... ولا تفتحي الباب إلا حين أطلبُ أنا ذلك... بسرعة يا رغد».
ونهضتُ، وامتثلتُ لأمر وليد وجلبتُ هاتفه مِنْ غرفة المعيشة. وقفتُ عند الباب وقلتُ:

«الهاتف».
فسمعتُه يخاطب سامر:
«دعني أنقذكَ يا سامر... أنا أعرف سبيلاً لذلك... لا تعترضني أرجوكَ».
لكن الظاهر أنَّ سامر انكبَّ مجدّدا على وليد وتعاركا ثانيةً...
«ما الذي تريده منِّي؟؟ لماذا لا تتركني وشأني؟؟».
قال سامر، فأجاب وليد:
«لنْ أتركَكَ وشأنكَ يا سامر... إنّهم سيقبضون عليكَ ويقتلونك ألا تفهم؟؟».
فقال سامر:
«وما الذي يهمُّكَ أنتَ؟؟ هذه حياتِي أنا».
فيرد وليد بصوتٍ شجي متألِّم:
«كيف تقول ذلك؟؟ إنّكَ أخي الوحيد... كل مَنْ تبقّى لي مِنْ عائلتي... أنا لا أقبل أنْ يصيبكَ أي ضرر».
فردّ سامر:
«مـنــافــق».
فجاء صوت وليد يردُّ بألمٍ أشدّ:
«أنا يا سامر؟؟».
فيقول سامر:
«أنتَ أصلاً لمْ تكترث لي ولمشاعري يوماً... أي أخوَّة وأي نفاق».
وحلّ صمتٌ مفاجئ... بعد طول جلبة وضجيج... ثمَّ سمعتُ وليد يقول:
«أكترثُ لكَ ولكلِّ ما يعنيكَ يا سامر... ألا ترى ما أنا فيه؟؟ ألا ترى؟؟ ألا تعرف ما حلّ بي منذُ عرفتُ؟؟».
ثمَّ أضاف:
«أنتَ جزءٌ منِّي... لا أسمح بأنْ يطالكَ الأذى. دعني أجري اتصالاتي وأتصرَّف بسرعة قبل فوات الأوان».
فقال سامر:
«وفِّر جهودكَ... لقد فات الأوان... أنا لا يهمُّني أي شيء... لا الحياة ولا الموت».
فردّ وليد:
«لمْ يفتْ الأوان... سأعمل على إخراجكَ مِنَ البلد ومِنْ كل بُد».
ثمَّ تغيّرتْ نبرته إلى الرجاء وقال:
«ابقَ مكانكَ... أرجوكَ أنا مرهق... لا طاقة لي بالمزيد».
ثمَّ اقترب صوته... صار عند الباب مباشرة... خاطبني أنا قائلاً:
«رغد افتحي الباب».

وبقيتُ لثوانٍ متردِّدة... وسألتُ:

«هل أفتح؟؟».

فأجاب:

«نعم افتحي».

بحذر أدرتُ المفتاح في ثقبه... ثمَّ رأيتُ قبضة الباب تدور... والباب ينفتح... ويظهر منه وليد... بمظهرٍ فظيعٍ ومرعب...

تحرّك وليد بسرعة إلى الخارج وصدَّ محاولة سامر للحاق به وأغلق الباب وأقفله فوراً...

أخذ سامر يضرب على الباب بيديه وبرجليه ضرباً مسترسلاً وهو يصرخ طالباً منّا فتحه، ووليد واقفٌ على الناحية الأخرى يقول:

«لنْ أفتحه يا سامر... أرجوكَ لا تعقِّد عليَّ الأمر... إنتظر حتّى أؤمِّن فرارَك... أرجوكَ ثِق بي».

صرخ سامر:

«جبان... ستدفع ثمن هذا...».

ولم يُجبْ وليد...

رأيتُه يطأطئ رأسه... ثمَّ يمسح براحته على وجهه ثمَّ يرفع رأسه متأوِّها ويمسِّد على ذراعه... ثمَّ يستدير إليَّ...

هل أصف لكم كيف كان؟؟

يفوق الوصف...

الملابس... ممزَّقة... ملطَّخة بالدماء... العنق... مخطَّط بالخدوش الدامية... الشعر مبعثر في كل الاتجاهات... كعُشٍ هجره عصفوره قبل أن يُكمل بناءه... الوجه متورِّم شديد الاحمرار... متغيِّر الملامح... يحملق الناظر فيه بضع دقائق... ليعرف صاحبه... وشارعان متوازيان مِنَ الرواسب المالحة... يمتدّان مِنَ المقلتين شاقَّيْن الوجنتين... ينتهي أحدهما إلى غابة مِنَ الشعر الأسود... والآخر يصبُّ كنهرٍ ناضبٍ في بركة مِنَ الدماء الغزيرة... تنبع مِنْ أنفه...

وليد... قلبي!!!

مدَّ وليد يده باتجاهي... ومِنْ فرط ذهولي بفظاعة منظره... لمْ أفهم ما يعني...

هل... هل يريد أنْ... أشدَّ على يده وأربِّت عليه؟؟

أمْ... يريد أنْ... أنظِّف جراحه وأضمِّدها؟؟

أمْ... يريد إنْ يستند إليَّ... نعم... فهو في حالةٍ فظيعة... وربّما لا يستطيع السير بمفرده... ويريد منّي أنا المستندة إلى العكّاز، أنْ أسنده!!

حين أحسَّ وليد ضياعي، قال:

«الهاتف».

هنا ضرب سامر الباب وصرخ:

«افتحوا الباب... دعوني أخرج مِنْ هنا».

تناول وليد الهاتف مِنْ يدي، ثمَّ نزع المفتاح مِنْ ثقبه، ونظر إليَّ وقال:

«إياكِ يا رغد... أنْ تفتحي له... إيّاكِ».

وربّما لاحظ تيهي... وعدم استيعابي لشيء... فقال محذِّراً:

«حياته بين أيدينا... إيّاكِ وفتح الباب مهما حصل... أتفهمين؟؟».

أفهم؟؟ أفهم ماذا يا وليد؟؟!!

هززتُ رأسي كيفما اتفق... وحاولتُ أنْ أنطق بسؤال، غير أنَّ وليد كان قد باشر بالاتصال الهاتفي... وابتعد عنّي... واختفى...

بعد ذلك بأربعين دقيقة وفيما كنتُ أجلس في غرفتي في حيرتي وهلعي، أتاني وظاهرٌ عليه أنّه استحمَّ ونظّف جروحه وبدّل ملابسه، وأخبرني بأنّه سيخرج في مشاوير مهمّة وسيعيد الخادمة إلى مكتب التخديم... وسألني إنْ كنتُ قد جهّزتُ حقيبة السفر وانزعج عندما أجبتُه بالنفي...

«لا وقتَ أمامنا يا رغد... اجمعي أهمّ أشياءكِ واستعدّي للسفر الطارئ خلال يومين أو ثلاثة».

تفاقم القلق على وجهي وسألتُ:

«ألنْ توضّحَ لي ما يحصل؟؟».

فأجاب إجابة مقتضبة وهو يستدير ليغادر:

«تورّط في عمليات شغب خطيرة... السلطات ستقبض عليه... أريد أنْ أهرِّبه مِنَ البلد وبعدها نوضِّح الأمور».

توقّف وليد واستدار إليَّ ونظر إليَّ نظرة جدٍ وتحذير:

«لا تفتحي الباب يا رغد... إيّاك».

أطال النظرة إليَّ، ثمَّ غادر... تاركاً إيّاي في ذهولٍ ما مثله ذهول...

بعد ذلك بفترةٍ قصيرة... خرجتُ مِنْ غرفتي وتسلّلتُ بحذر نحو غرفة المجلس...

اقتربتُ مِنَ الباب، وألصقتُ أذني به مسترقّة السمع لأي حركة أو صوت يصدران مِنَ الداخل... كان الهدوء التام يغمر الغرفة بحيث لا تصدِّق أنها كانتْ تعجُّ بالصراخ كالبركان قبل قليل...

همستُ بصوتٍ خفيف:

«سامر».

ولمْ أجدْ جواباً، فطرقتُ على الباب طرقاً خفيفاً وأنا أنادي:

«سامر... هل تسمعني؟؟».

جاء صوتُ سامر يجيب:

«رغد».

ثمَّ أحسستُ بحركة... سمعتُ سامر بعدها يقول وقد اقترب صوته مِنَ الباب:

«أين وليد يا رغد؟؟».

أجبتُ:

«خرج مِنَ المنزل».

فسأل:

«إلى أين ذهب؟؟».

«قال أنَّ لديه مشاوير ضرورية ليقطعها».

صمتَ سامر... فقلتُ:

«كيف إصاباتكَ؟؟».

فأنا لا أستبعد أنْ يكون عظمٌ منه قد كُسِر... بعد العراك الوحشي مع وليد. لمْ يجبْ سامر فالتزمتُ الصمتَ قليلاً ثمَّ سألتُ:

«ماذا يحدث يا سامر؟؟ أخبرني».

ولكنّه لمْ يُجِب. فواصلتُ:

«أرجوكَ قُلْ لي... ما الذي فعلتَه ويعرِّض حياتكَ للخطر؟؟ ولماذا؟؟ أنا لا أصدِّق...».

قال سامر فجأةً:

«رغد افتحي الباب».

ابتعدتُ عنْ الباب، وكأنني أخشى أنْ أنصاع للأمر بمجرَّد قربي منه... ولمْ أعقِّب... فقال سامر بنبرة رجاءٍ شديد:

«أرجوكِ يا رغد... افتحي الباب... هناك مَنْ ينتظرني... الأمر مهمٌ جداً».

فتشجّعتُ وسألتُ:

«أي أمر؟؟».

فسكتَ سامر برهة ثمَّ أجاب:

«لا أستطيع إخباركِ... لكنه أمرٌ مهمٌ للغاية... افتحي الباب ودعيني أخرج قبل عودة وليد... إنّه لا يعرف شيئاً ولا يفهم الحقيقة».

أعدتُ ذات السؤال:

«أي حقيقة؟؟».

فقال بنفاذ صبر:

«لا أستطيع أنْ أشرح لكِ الآن... يجب أنْ أخرج وإلا فإنَّ كارثةً ستحلُّ بأصدقائي... أرجوكِ يا رغد... افتحيه ودعيني ألحق بالأوان قبل فواته».

تراجعتُ خطوةً للوراء وأنا أهزُّ رأسي رفضاً... وكأنني أحذِّر نفسي وأنذرها مِنْ مغبَّة الانصياع...

سمعتُ سامر يطرق الباب وهو يقول:

«أينَ أنتِ يا رغد... أرجوكِ... افتحيه».
فقلتُ:
«لا أستطيع».
«لماذا!؟؟».
«وليد...».
وقبل أنْ أتمَّ الجملة قاطعني قائلاً بحنق:
«وليد لا يعرف الحقيقة... إنّه سيندم كثيراً حينما يكتشفها... لا وقت لأوضِّح لكِ... أرجوكِ افتحيه وخلّصيني».
قلتُ:
«انتظر حتّى يأتي وليد وبيِّن له الحقيقة... ثمَّ... ثمَّ إنَّ المفتاح معه هو».
فقال:
«ستجدين مجموعة المفاتيح الاحتياطية في درج مكتبه كما يتركها عادةً... هاتي المجموعة وفتّشي عن المفتاح المناسب. بسرعة يا رغد... أرجوكِ».
قلتُ وأنا أبعد يدي خلف ظهري:
«لا أستطيع يا سامر... وليد حذَّرني».
فإذا به يقول فجأة:
«طبعاً ستطيعينه هو».
فوجئتُ مِنْ كلامه، وسحبتُ يدي نحو صدري ثمَّ قلتُ مبرّرة:
«لأنّه... قال... أنَّ هذا خطرٌ على حياتكَ».
فردّ سامر بعصبيّة:
«غير صحيح... إنّه مُخطئ... بقائي هنا خطر على حياتي وحياة أصدقائي».
وايتطرد:
«تصدِّقينه هو وتكذِّبينني أنا؟؟ ألا تعرفينني جيداً يا رغد؟؟ هل نسيتِ مَنْ أكون؟».
أثّرتْ بي لكماته، فقلتُ مترددة:
«لكن...».
فقاطعني وقال:
أنتِ تشاركين في تعريض حياتنا للخطر... هل هذا يرضيكِ؟؟».
«لا».
«إذن افتحي الباب... وأنا أضمن لكِ بأننا سنكون بخير وممتنِّين لكِ على إنقاذنا».
«أحقّاً؟؟».
«أجل يا رغد... هيّا الآن افتحيه... وأنا سأتّصل بوليد وأشرح له كل شيء... عجِّلي أرجوكِ».
احترتُ في أمري... فسامر يبدو صادقاً جداً فيما يقول... إنه لم يكذب عليَّ قط... كاد

يقنعني بأنّني أُعرِّضُ حياته للخطر بإبقائه حبيساً... لكنّ نظرات وليد المهدّدة... وهو يخاطبني قبل خروجه مباشرةً تجعلني أتردَّد... وابتعد عن الباب...

«رغد... الآن».

قال سامر... غير أنّني أجبتُ حاسمة الأمر:

«لا أستطيع يا سامر... سامحني».

وسمعتُ على إثرها ضربةً قويّةً تصدّع لها الباب...

عدتُ إلى غرفتي وبدأتُ أحاول جمع أهم حاجيّاتي في حقيبة صغيرة... وبعد نصف ساعة سمعتُ ضرباً على باب غرفة المجلس، وصوت سامر يناديني...

توجّهتُ إليه مسرعة وقلتُ:

«نعم سامر».

فقال:

«رغد هل لي ببعض الماء مِنْ فضلكِ؟؟».

ولمّا لاحظ صمتي قال بنبرة رجاء:

«أكاد أموت عطشاً... اجلبي لي قارورةً كبيرة رجاءً».

قلتُ بتردُّد:

«لكن...».

فقال بنبرة أشد رجاءً... تذوب لها الصخور الصلبة:

«لكن ماذا يا رغد؟؟ سألتُكِ بالله... حلقي تجرَّح مِنْ شدّة الجفاف... تكاد دمائي تتخثّر في عروقها... أرجوكِ ولو كأساً واحداً».

انفطر قلبي لكلامه... لمْ أتحمَّل... ألقيتُ بثقل جسدي على الباب وقلتُ بنبرة توشِك على البكاء:

«لا تخدعني يا سامر... أرجوكَ».

فقال:

«أخدعكِ؟؟ أقول لكِ أنني أكاد أموت عطشاً... تبخّرتْ سوائل جسمي في العراك مع ابن عمِّك... ألا ترحمين بحالي؟؟».

وللألم المرير الذي أحسستُه، عزمتُ على أنْ أقدِّم له الماء... ولكنّني ما كدتُ ابتعد بضع خطوات حتّى سمعتُ صوت جرس المنزل يُقرع...

كان قرعاً متواصلاً مُربِكاً... شعرتُ بالخوف، وعدتُ أدراجي إلى الباب أخاطب سامر:

«جرس الباب يُقرَع».

قال:

«أسمعه».

قلتُ:

«منْ يكون؟؟ ولماذا يُقرع بهذا الشكل؟؟».
فقال سامر:
«تجاهليه... إياكِ وأنْ تجيبيه».
وزادتْ الجملة فزعي... فقلتُ:
«مَنْ هذا؟؟ لا أشعر بالطمأنينة... أنا خائفة».
فقال:
«اسمعي رغد... اتّصلي بوليد وأخبريه عن هذا وقولي له أنْ يتوخّى الحذر».
فقلتُ وقلقي يتفاقم:
«هل تعرف مَنْ يكون؟؟».
فأجاب:
«لا، ولكن الحذر واجب».
توقّف القرع وأنا أتّصل بوليد...
أخبرتُه فحذّرني مِنَ الإجابة على أي طارق وأمرني بأنْ أبقى ساكنة لحين عودته. سألني عنْ سامر فأخبرتُه بأنّه يشعر بالعطش ويطلب الماء فنهاني عنْ تصديقه وأكّد عليّ بألاّ أقترب مِنَ الباب نهائياً، وأخبرني بأنّه سيعود بعد قليل...
وهذا القليل استمرّ قرابة الساعتين... ولمْ تكونا كأي ساعتين...
جلستُ قرب عتبات متصلةٍ بالممرّ المؤدّي إلى غرفة المجلس... في منتصف المسافة ما بين باب المدخل الرئيسي للمنزل وباب المجلس... وألصقتُ أذناً على كلا البابين...
الأذن اليمنى كانتْ تسمع سامر وهو يسأل بمرارة:
«أين الماء يا رغد؟؟ سأموت عطشاً».
والأذن اليسرى تترقّب عودة وليد...
وأخيراً التقطتْ هذه الأذن صوت باب المدخل يُفتح...
هببتُ واقفةً ويمّمتُ أنظاري شطر المدخل... متلهّفةً لرؤية وليد يدخل... فيسكن قلبي...
إنّ مجرّد الإحساس بوجوده فيما حولي... يُشعرني بالطمأنينة والأمان...
«لِمَ تقفين هنا؟؟».
سألني بقلق وهو ربّما يلحظ التعبيرات المتلهفة على وجهي، قلتُ:
«تأخّرتَ».
فقال:
«توخّيتُ المزيد مِنَ الحذر...».
فقلتُ مندفعةً:
«سامر عطشان... عجّل إليه بالماءِ أرجوكَ».
ورأيتُ عضلات فكّه تنقبض ثمّ عقّب:

«لعنَ الله الظالمين».
وسار مباشرةً إلى المطبخ، وحمل قارورة ماء وكأساً فارغاً واتَّجه بهما إلى غرفة المجلس...
«سامر... جلبتُ لكَ الماء».
قال وليد بعد أنْ طرقَ الباب واستخرج المفتاح مِنْ جيبه... ثمَّ أضاف:
«أرجوكَ... لنتصرَّف كراشدين».
وبعد تردد قصير، فتح الباب ودخل...

- وليد -

رأيتُ شقيقي جالساً على أحد المقاعد... مبعثر الشعر والملابس، وعليه أمارات الإعياء... وتصبغ ألوان الطيف وجهه المجروح...

اقتربتُ منه وأنا أحمل قارورة ماء وكأساً... ملأتَه بالماء ثمَّ قرَّبتُه إليه وقلتُ:

«تفضَّل».

رمقني أخي بنظرةٍ حادَّة... وبدا وكأنّه متردِّد... ثمَّ حرَّك يده باتجاه الكأس. تناول الكأس منِّي، وألقى عليه نظرة، ثمّ... إذا به يرش محتواه فجأةً على وجهي...

وقف بسرعة وألقى بالكأس وهرول نحو الباب. وضعتُ القارورة جانباً ركضتُ خلفه مسرعاً وأمسكتُ به وجررتُه إلى الداخل، ثمَّ دفعتُ به بقوة نحو المقعد وجريتُ نحو الباب وخرجتُ وأقفلته على الفور.

سمعتُ صوتَ أخي يصرخ:

«افتح يا وليد... أنا لستُ حيواناً لتحبسني هكذا».

فرددتُ بانفعال:

«ستبقى حبيساً هنا يا سامر إلى حين موعد السفر. لنْ أسمحَ لأي مخلوقٍ بأنْ يصل إليكَ. أتسمعني؟؟ سأخرجكَ مِنَ البلد بعد الغد».

فصرخ سامر:

«ومَنْ قال لكَ أنني أريد أنْ أخرج؟؟».

فقلتُ بعصبيّة:

«ستخرج يا سامر. ستفعل ما أطلبه منكَ حرفياً... أفهمتَ؟؟ أنا دبَّرتُ كلَّ شيء... لا فكرة لديكَ عمَّا فعلتُه وما بذلتُه لأجل ترحيلكَ... مهما صرختَ ومهما قاومتَ ومهما تعاركتَ... ستفعل ما أريده أنا... شِئتَ أمْ أبيتَ ستنفِّذ خطَّتي».

هاج سامر مِنْ جديد، وأخذ يضرب الباب حتَّى خشيتُ أنْ ينجح في اقتلاعه... التفتُّ إلى رغد فرأيتُها تنظر إليَّ نظرات ذعرٍ واتِّهام...

لا أنقصكِ الآن يا رغد... أرجوكِ...

ابتعدتُ عنْ الممرِّ وقلبي يعتصر لحالة شقيقي... ذهبتُ إلى مكتبي لأخذ بعض الأشياء

ثمَّ صعدتُ إلى الطابق العلوي لأعدَّ حقيبة سفري...

كانتْ الأشياء مبعثرةً في غرفة نومي... فقد قلبها أخي رأساً على عقب وهو يفتِّش عن السلاح...

استخرجتُ حقيبة سفر صغيرة وبدأتُ أجمع فيها أهم الحاجيات... وفي ذات الوقتُ أحاول إعادة النظام إلى الغرفة ولو قليلاً...

فجأة... انتبهتُ لشيءٍ لمْ أكنْ أتمنّى أنْ أراه آنذاك... شيءٍ أسطواني الشكل... مرمي مع مجموعة مِنَ الأشياء المبعثرة على الأرض...

صندوق أماني رغد!

وصدّقوني... لمْ أنتبهْ ليدي وهي تضعه في الحقيبة لا شعورياً... كنتُ شارد الفكر... ولمْ أكتشف ذلك إلاَّ لاحقاً...

بعد أنْ انتهيتُ مِنْ إعداد تلك الحقيبة، أقفلتُ باب غرفتي ثمَّ ذهبتُ لتفقُّد غرفة سامر... وأخذتُ منها هاتفه وحقيبته اليدوية والتي كانتْ تحوي وثائق هامَّة، وأشياء أخرى... ثمَّ أقفلتُها وبقية الغُرف، وحملتُ الحقيبتين إلى الطابق السفلي، ثمَّ ذهبتُ إلى رغد واستلمتُ منها حقيبتها، ونقلتُ الحقائب الثلاث إلى السيارة المركونة في المرآب...

عندما عدتُ للداخل وجدتُ رغد تقف في انتظاري، وطبعاً ألف علامة استفهام تدور حول رأسها... لكنَّها لمْ تسألني عنْ شيء... ربّما مِنْ هول الموقف... ألقتْ عليَّ نظرةً... وعادتْ أدراجها إلى غرفتها.

يدرك كلانا أنَّ المأزق خطير وأنّه ليس بالوقت المناسب للكلام...

اقتربتُ مِنْ باب غرفة المجلس، تحسّستُه... وداهمني ألمٌ فظيع في معدتي... فانسحبتُ إلى غرفة المعيشة وابتلعتُ قرصين مِنْ دوائي لمْ يأتِيا بمفعولٍ يُذكر، وبقيتُ أتلوّى على المقعد لوقتٍ طويل...

الساعة الرابعة فجراً يرنُّ منبِّه هاتفي المحمول، يوقظني لتأدية الصلاة...

أنهيتُ صلاتي وتلاوتي لآيات الذكر الحكيم ودعائي للرب الرحيم... ثمَّ ذهبتُ إلى المطبخ ولا شيء يشغل تفكيري غير أخي...

وضعتُ بعض الطعام والماء على صينية، وتوجّهتُ بها إلى غرفة المجلس...

كان نائماً بكل هدوء على الأرض، وقد توسَّد إحدى الوسائد التابعة للمقعد... وتلحَّف بأخرى. رقَّ قلبي له... أردتُ أنْ أُربِّتَ عليه بحنان... لكنّي ربَّتُّ بقوة أشدّ قليلاً لأوقظه للصلاة...

استيقظ سامر وأخذ ينظر إلى ما حوله بهلع... يبدو أنَّ تربيتي كان أقوى ممَّا تصوَّرتُ... قلتُ مطمئِناً إياه:

«بسم الله... لا تفزعْ... إنّه وقت الصلاة».

نظر إليَّ أخي ولمْ يكلِّمني... ثمَّ نهض وجعل يمدِّد أطرافه بإعياء... وتوجَّه إلى دورة المياه التابعة للغرفة. أسرعتُ وجلبتُ سجَّادة الصلاة وفرشتُها على الأرض... خرج أخي بعد

قليل وقال:

«أريد أنْ أستحم».

تردّدتُ قليلاً... ثمّ خرجتُ وأقفلتُ الباب وعدتُ بعد قليل أحمل إليه ملابس نظيفة... وبقيتُ في الغرفة إلى أنْ أنهى حمّامه وأدّى صلاته... وعيني ترقبه مِنْ كل الزوايا...

قلتُ:

«تقبّل الله».

فأجاب دون أنْ ينظر إليَّ:

«منّا ومنكم».

ثمّ رأيتُه يضطجع على المقعد. قلتُ:

«جلبتُ لكَ بعض الطعام... أرجوكَ تناول شيئاً».

ولمْ يلتفتْ إليَّ. قلتُ:

«سننطلق قبل طلوع فجر الغد... أخبرني إنْ كنتَ تحتاج شيئاً لنأخذه معنا».

ولمْ يتكلّم. اقتربتُ منه وتحدّثتُ إليه بكل عطف... بقلبٍ يحمل كل الحبِّ والقلق... إذ قلتُ:

«أخي... يا نور عيني... أنا لنْ أسألكَ لماذا فعلتَ هذا... ولا يهمُّني أنْ أعرفَ أي تفاصيل... إنّني فقط أريد أنْ تنجوَ بحياتكَ وتبتعد عنْ الخطر بأسرع ما يمكن».

واستطردتُ:

«إنّني عشتُ تجربة السجن... وقد كان معي في زنزانتي سجناء مجرمون مدانون في قضايا سياسة وأمن بلد... ورأيتُ كيف عاملتهم السلطات وكيف عذّبتهم أشد التعذيب وقتلتهم أمام ناظري».

قال أخي أخيراً:

«نحن لسنا مجرمين».

تفحّصتُ ردّه ثمّ عقّبتُ:

«السلطات تعتبركم مُجرمين. تصنِّف كلَّ مَنْ يعارضها علناً ويثير الشغب والفوضى بأي شكلٍ مِنَ الأشكال تحت اسم مجرمي أمن».

التفتَ إليَّ أخي وكأنّه يبدي شيئاً مِنَ الاهتمام لكلامي، فأردفتُ قائلاً:

«كانوا يعذّبوننا أشد التعذيب... حتّى أنا ورغم أنني لا أنتمي لتلك المجموعة، نلتُ نصيبي مِنَ الضرب المبرح المتوحّش... جرّاء حبسي في الزنزانة الخطأ».

وأضفتُ وأنا أكشف عن صدري وظهري:

«انظر... كلّ هذا... وأكثر...».

مشيراً إلى الندب التي خلّفتْها يد التعذيب على جسدي... ثمّ أشرتُ إلى أنفي وتابعتُ:

«حتّى أنفي كسروه كما ترى...».

وتابعتُ:

«وصديقي... والد أروى... عذّبوه شرَّ تعذيب، وهو متّهم ظلماً، حتَّى قضى نحبه وهو على ذراعي...».

وتخيّلتُ صورة نديم... في آخر لقطة له قبل أنْ يسلِّم الروح... وانتفض جسدي وامتقع وجهي وعصرتُ عينيّ لأمحو الصورة الفظيعة...

قلتُ:

«بعد هذا... كيف تظن بأنّني سأسمح لهم بأنْ يقبضوا عليكَ؟؟ أبداً... أبدا».

هنا جلس أخي وردَّ منفعلاً:

«أنا لا يهمُّني الموت ولا التعذيب...».

ارتعتُ مِنْ ردِّه... وسألتُ:

«ما الذي يهمُّك إذن؟؟».

فقال:

«لا شيء... لا شيء يهمُّني في هذه الدنيا التعيسة... لا شيء».

وصمتَ قليلاً ثمَّ أضاف:

«لا شيء... بعد كلِّ مَنْ رحلوا... انتهى كل معنى للحياة في نظري... فأهلاً بالموت...».

وجذب نفساً ثمَّ تابع:

«لكنّني لنْ أموتَ قبل أنْ أنتقم منهم».

تضاعف هلعي وسألتُ:

«ممَّنْ؟؟».

فأجاب بعصبيّة:

«مِنَ الأوغاد الخونة الغدّارين... الذين قتلوا والديَّ...».

فحملقتُ به مندهشاً، فإذا به يقول:

«هل تظنّ أنهما قُتِلا برصاص العدو؟؟».

تفاقم تحديقي به، وأضاف:

«بل هي السلطات الخائنة... التي لمْ تبذل جهداً لتحمي مواطنيها... وسمحتْ للمعركة أنْ تنشبَ عند الحدود وبالتحديد عند الشارع الذي كانتْ تعبره حوافل المدنيين الأبرياء العُزّل...».

ووقف أخي مِنْ شدّة انفعاله وهتف وهو يضغط على قبضته:

«جعلوا مِنَ الحجيج الآمنين مسرحاً لجرائمهم النكراء... لنْ أسامحهم أبداً وسأجعلهم يدفعون الثمن».

ثمَّ رأيتُه يحني رأسه ويخفي عينيه خلف يده... ويصمت برهةً... ثمَّ يبكي...

«سامر...».

ناديتُه بنبرة ضعيفة حانية... فأزاح يده عن عينيه وقال يخاطبني وسط الدموع:

«أنتَ لمْ ترَ كيف كان جسداهما... لمْ ترَ شيئاً... الجبين الذي كنتُ أعكف عليه تقبيلاً وإجلالاً... مثقوب برصاصة اخترقتْ رأس أبي... والصدر الذي لطالما احتضننا... وفيه تربَّينا ومنه تغذَّينا... صدر أُمِّي... منبع العواطف والمحبة والأمان... مُمزّق إلى أشلاء... حتّى قلبها كان يتدلّى خارجاً منه... آآآآآآآآآه... كيف لي أنْ أنسى هذا آآآآآآآآآه...».

وجثا أخي على الأرض وهوى بجبينه عليها وراح يبكي بصوتٍ عالٍ منفلت متألِّم... ويضربُ الأرض بقبضتيه منهاراً...

لمْ أقوَ على تحمّل ما سمعتُ... أطلقتُ آهة ألمْ مِن صدري وسالتْ دموعي أنا الآخر...

كان سامر يضرب الأرض وهو يهتف:

«يا أبي... يا أُمِّي».

ومع هتافه يتشقَّق قلبي وينطحن...

كنتُ ألاحظ منذ وفاتهما رحمهما الله، أنَّ سامر كان أطولنا حزناً... وأكثرنا تذكُّراً لهما وتألّماً على الذكرى... لقد كانا أقرب إليه منِّي وكان أقرب إليهما منّي... بحكم الفترة الزمنية الطويلة التي قضيتُها في السجن بعيداً عنهما ومحروماً منهما...

مددتُ يديَّ إلى كتِفَيْ أخي وشددتُ عليهما... إلى أنْ توقَّف عن البكاء والتفتَ إليَّ... ثمَّ بدأ الشرر يتطاير مِنْ عينيه وقال:

«أوَ تظنُّ أنّني سأهربُ... دون أنْ أنتقم؟؟».

قلتُ:

«تنتقم مِمَّنْ؟؟».

«مِنْ أي شيء يتعلّق بالسلطات... إنّهم هم المسؤولون عنْ مقتل والديَّ... وبهذه الطريقة البشعة».

وهبَّ واقف فشددتُ عليه أكثر فقال:

«دعني أطفئ النار المتأجِّجة في صدري».

فقلتُ:

«وهل سيعيدهما للحياة... أنْ ترتكِب أي عملٍ جنوني؟؟».

«غليلي سيُشفى قليلاً».

«وتدفع حياتكَ أو حرِّيتكَ ثمناً؟؟ سامر إنّهم لنْ يعتقوكَ».

«لا أهاب الموت.. لا يهمُّني... وليس في حياتي ما يستحقُّ العيش مِنْ أجله».

شعرتُ بالمرارة مِنْ جملته... فقلتُ مستدرّاً عطفه:

«كيف تقول هذا؟؟ سامر أنتَ لا تزال شاباً صغيراً... لديك شبابكَ وصحّتكَ... وعملكَ ومستقبلكَ... وعائلتكَ... كيف تضحّي بكل هذا؟؟».

فأجاب وهو يرمقني بنظرةٍ حادّة...

«أي عائلة؟؟ الوالدان... قُتِلا... الشقيقة الوحيدة... رحلتْ بعيداً... الخطيبة... هجرتْني... والشقيق الوحيد...».

وأمال زاوية فمه بسخرية وأضاف:

«منافق... متبلِّد... لا يشعر... لا يفهم... ولا يكترث».

وأضاف:

«مَنْ بعد؟؟».

جرحني ما قاله عنِّي... أبعدتُ يدي عنه ونظرتُ إلى الأرض برهة... ثمَّ أعدتُ بصري إليه وقلتُ:

«بل أنا أحسُّ بكَ يا سامر... أنتَ أخي... دماؤك هي دمائي... أكترثُ لكَ كثيراً... وإلاّ لما حبستُك هنا وفعلتُ المستحيل مِنْ أجل تسفيركَ».

قال سامر:

«ثمَّ ماذا؟؟».

فقلتُ:

«ثمَّ ماذا؟؟».

وأجبتُ على السؤال:

«ثمَّ تبدأ حياتكَ مِنْ جديد في الخارج... المهم أنْ تخرج مِنَ الخطر الآن... وبعدها سأفعل مِنْ أجلكَ أي شيء».

فنظر إليَّ نظرة تشكُّك وريبة... ثمَّ إذا به يسأل:

«هل ستعيد إليَّ والديَّ؟؟».

وانتظر ردّة فعلي التي لمْ تكنْ أكثر مِنَ النظرات الحائرة... ثمَّ تابع:

«أم... هل ستعيد إليَّ خطيبتي؟؟».

هنا تصلَّب جسمي... وتجمَّدتْ نظراتي وفقدتُ القدرة على تحريكها...

ظلّ أخي يحملق بي وكأنّه ينتظر جوابي... وطال الانتظار...

ابتسم أخي ابتسامة ساخرة واهية بالكاد لامستْ طرف شفتيه... ثمَّ أولاني ظهره وجلس على المقعد مُعلناً انتهاء الحوار...

انسحبتُ مِنَ الغرفة وأقفلتُ الباب... واستندتُ عليه وأغمضتُ عينيّ بمرارة... فهمتُ... أنَّ موضوع عارف المنذر... هو الشرارة التي فجَّرتْ برميل الوقود...

هي... رغد

هل هذا هو الثمن الذي تطلبه لقاء حياتكَ يا سامر...؟؟

أتريد أنْ تخطف قلبي منِّي مِنْ جديد؟؟

أتريد أنْ أتنازل لكَ عن... أوّل وأكبر وأهم وأعظم حلم في حياتي؟؟

المخلوقة التي هي جزءٌ لا يتجزّأ منِّي... التي هي أنا... بروحي بقلبي بتفكيري بمشاعري

بكياني بماضيّ بحاضري بكل معاني الأنا فيّ...

إنّها ذاتي... كيف أكون... بدون ذات؟؟!!

آه... يا رب...

عندما فتحتُ عينيّ... خُيِّل إليَّ أنني رأيتُ شبح رغد يقف في نهاية الممرِّ... هل الإضاءة ليستْ كافية... أمْ أنَّ غشاوةً علتْ عينيَّ مِنْ هول ما أنا فيه؟؟ أمْ... أمْ أنها خرجتْ مِنْ شريط أحلامي وظهرتْ أمامي كالطيف العابر...؟؟

أغمضتُ عينيّ مجدداً... محاولاً ابتلاع جرعة الشبح القويّة هذه... التي ظهرتْ لي في أتعس لحظات حياتي... وعندما فتحتُ عيني مِنْ جديد... لمْ أرَ شيئاً...

الحادية عشرة صباحاً... استيقظتُ على رنين هاتفي المحمول الموضوع على المنضدة إلى جانبي... في غرفة المعيشة...

مددتُ يدي والتقطتُ الهاتف وأجبتُ مباشرة:

«نعم؟».

فسمعتُ صوت الطرف الآخر... والذي لمْ يكنْ سوى أبي حسام، والذي كنتُ على اتصال به أولاً بأوّل أبلِغه ويبلغني بكل جديد... وكنتُ قد أبلغته عن عودة أخي وحبسي له في المنزل...

«مرحباً وليد... اسمعني جيّداً...».

وبدا مِنْ نبرة صوته أهميّة وخطورة ما سيقوله، وسرعان ما أفصح:

«الشرطة في طريقها لتفتيش منزلكم... تصرَّف بسرعة».

نهضتُ فجأة... فتبعثرتْ قصاصات صورة رغد التي كانتْ نائمة على صدري منذُ الفجر... سألتُ وقد اجتاحني الفزع والقلق فجأة:

«ماذا؟؟».

فكرّر أبو حسام:

«الآن وليد... أنا أراهم أمامي في الطريق المؤدِّي إلى منزلكم. اخفِ الأمانةَ بسرعة داخل المنزل... في الحال... في الحال».

قفزتُ بسرعة مِنْ مقعدي وركضتُ نحو غرفة المجلس... فتحتُ الباب وولجتُها باندفاع وأنا أهتفُ:

«سامر بسرعة... الشرطة قادمة».

كان أخي نائماً ولكنّه سرعان ما انتبه على صوتي... أمسكتُ بذراعه وأنا أشدّه وأقول:

«تعال... يجب أنْ تختبئ في مكانٍ آخر».

سامر سحب ذراعه مِنْ بين يدي وهو يقول:

«حُلّ عنّي».

فهتفتُ بانفعال:

«أقول لكَ الشرطة قادمة... ألا تفهم؟؟».

فأجاب ببرود:

«لا يهمّني ذلك. سأسلّم نفسي وننتهي مِنْ هذه المهزلة».

قلتُ صارخاً:

«يبدو أنّك لا تريد أنْ تفهم».

ثمّ أطبقتُ على ذراعه وجررتُه معي إلى خارج الغرفة أسير متخبّطاً لا أعرف أين أخبئه. ظهرتْ رغد في الصورة أمام باب المطبخ ورأتْ المنظر فهلعتْ وسألتْ:

«ماذا هناك؟؟».

فقلتُ وأنا أجرُّ أخي رغماً عنه نحو المطبخ:

«الشرطة... يجب أنْ نخبّئه... لنْ أسمح لهم بأخذه ولو اضطررتُ لقتلهم جميعاً».

سرتُ على غير هدى... مرسلاً نظراتي لكل ما حولي... مفتّشاً عنْ مخبأ...

خرجتُ مِن الباب الخلفي للمطبخ... وسحبتُ أخي رغم مقاومته إلى الحديقة الخلفية المهجورة...

نظرتُ يمنةً ويُسرة... ولمْ أجد أمامي سوى قطعٍ مِنَ الأثاث القديم الذي أخرجناه للفناء عندما أتينا للعيش في المنزل، أنا ورغد وأروى والخالة، رحمها الله...

وهناك... على مقربة مِنْ أدوات الشواء القديمة... التي أحرقتْ أخي ذات مرّة... كانتْ مجموعة مِنْ قطع السجّاد الملفوفة والمكوّمة على بعضها... كنا قد سحبناها إلى هذا المكان ذلك الوقت...

لمْ تخطر أي فكرةٍ في بالي... أصلاً كان دماغي مشلولاً عنْ التفكير... أريد فقط أنْ أخفي هذا الشقيق عنْ أعين الشرطة إلى أنْ أسفِّره للخارج...

دفعتُه حتّى وقع أرضاً... وجلستُ عليه لأعيقه عنْ الحركة ومددتُ يدي إلى إحدى قطع السجاد الملفوفة ودفعتُها لتنفتح...

سحبتُ أخي إلى طرف السجادة وجعلتُ ألفّه بها كما تُلف الحشوة بالورق... وهو يصرخ:

«ما الذي تفعله يا مجنون؟؟».

إلى أنْ أخفيته تماماً في جوف اللفافة. سحبتُها بعد ذلك بكل طاقات عضلات جسمي... وركنتُها إلى جانب كومة اللفائف الأخرى... ثمّ أهلتُ عليها التراب لتبدو وكأنّها مركونة هنا منذ سنين...

«إيّاكَ أنْ تُصدِرَ أيَّ صوتٍ يا سامر... لا تُضِع جهودي هباءً... إذا حاولتَ شيئاً فاستخدم سلاحكَ واقتلهم... هل تسمع؟؟ لنْ أسمحَ لهم بأنْ يصلوا إليكَ أبداً».

وعمدتُ إلى الرمال أخفي آثار أقدامنا عنها... ثمّ قرّبتُ وجهي مِنْ فتحة اللفافة وقلتُ:

«تحمّل قليلاً... سأخرجكَ فور ذهابهم... أرجوكَ اُصمدْ وأنا سأحقّق كل ما تتمنّاه... دعنا نسافر وافعل بعدها ما تريد... أرجوكَ يا سامر... أنا أرجوكَ».

وقمتُ مُهرولاً إلى الداخل...

كانتْ رغد واقفةً عند باب المطبخ الخارجي تراقبنا مفزوعةً، وكان جرس المنزل يقرع قرعاً متواصلاً.

سحبتُ الفتاة إلى الداخل وأقفلتُ باب المطبخ وقلتُ:

«إياكِ وفعل أيِّ شيءٍ يكشفنا يا رغد... أرجوكِ... حياة أخي رهن تصرُّفنا».

أسرعتُ إلى غرفة مكتبي... والتقطتُ سلاح أخي الذي كنتُ أخبِّئه هناك، وأخفيتُه في ملابسي...

جذبتُ نفساً عميقاً ثمَّ توجهتُ إلى باب المنزل الرئيسي ثمَّ إلى الفناء الخارجي ثمَّ إلى البوابة الرئيسية وفتحتُها...

– رغد –

كنتُ في المطبخ أتناول وجبة فطوري المتأخِّرة بهدوء... إلى أنْ سمعتُ صوت بابٍ يُفتح ووقع خطوات تجري بارتباك على الأرض. قفز إلى ذهني الظنُّ بأنَّ سامر قد خرج مِنَ الغرفة بطريقة ما ويحاول الفرار... وسمعتُ صوت وليد بعدها يهتف:

«سامر بسرعة... الشرطة قادمة».

انتفضتُ ذعراً ووقفتُ متَّكئةً كليًّا على عكازي كعجوز طاعنٍ في السن... ثمَّ جررتُ رجلَي جراً نحو الباب... ورأيتُ وليد يقبل باتجاهي وهو يجرُّ سامر قسراً... فسألتُ بفزع:

«ماذا هناك؟؟».

فردَّ باضطراب شديد:

«الشرطة... يجب أنْ نخبِّئه... لنْ أسمحَ لهم بأخذه ولو اضطررتُ لقتلهم جميعاً».

أخرج وليدُ سامر إلى الفناء الخلفي ودفنه في جوف قطعة سجَّاد قديمة ملفوفة... مغمورة بالرمال والغبار... في عز الظهيرة وعز الحر...

إنَّه سيختنق إنْ بقى هكذا لبضع دقائق... بدون أدنى شك...

كانتْ عيناي معلَّقتين على لفافة السجاد وفوهي مفغورٌ مِنَ الخوف والفزع... ولمْ أشعر إلا ويد وليد تسحبني إلى داخل المطبخ... ثمَّ إذا به يختفي... لبضع ثوان... ثمَّ يعود ومعه رفقة...

رأيتُ وليد يقبِل نحو فتحة باب المطبخ ويطرقه بيده، ويتحدَّث إليَّ بينما عيناه تراقبان شخصاً آخر:

«بعد إذنكِ يا ابنة عمّي... لدينا زوّار».

ثمّ يدخل إلى المطبخ ويتبعه شرطي يرتدي الزي العسكري... شعرتُ بالقشعريرة تهزُّ بدني، ولمحتُ نظرةً خاطفةً أرسلها وليد إليَّ مليئة بالتحذير...

عبر الشرطي في المطبخ وهو يدوس بحذائه على الأرضية... وسار نحو المخزن وتفقّده...

ثمَّ اتّجه نحو الباب الخارجي وأمسك بمقبضه وأداره...

كنتُ حينها أتصبَّب عرقاً وأكتم أنفاسي... وأقف مختبئة خلف وليد...

سمعتُ الشرطي يسأل:

«أين المفتاح؟؟».

فأجاب وليد:

«مفقودٌ منذ زمن».

فسأل الشرطي:

«ماذا يوجد خلف الباب؟».

فأجاب وليد:

«الفناء الخلفي للمنزل».

فسار الشرطي متراجعاً نحو باب المطبخ الداخلي... وغادره...

استدار وليد إليَّ ولمْ ينبسْ ببنت شفه... وبقينا نركِّز سمعنا على حركة رجال الشرطة وهم يفتشون في أرجاء المنزل...

أقبل أحدهم بعد ذلك إلينا وسأل:

«الغرف في الطابق العلوي مقفلة... أين المفاتيح؟؟».

فردَّ وليد:

«أجل... إننا لا نستخدم معظمها لذلك نبقيها مقفلة».

فكرَّر الشرطي:

«أينَ المفاتيح؟؟».

فقال وليد:

«سأجلبها لكم».

ثمَّ التفتَ إليَّ وقال:

«تعالي معي».

وسرنا جنباً إلى جنب إلى غرفة مكتب وليد، حيث استخرج المفاتيح وسلَّمها للشرطي، فقال الأخير:

«رافقنا للأعلى».

فقال وليد:

«الفتاةُ مصابةٌ كما ترى...».

مشيراً إلى عكَّازي. فسلَّم الشرطي المفاتيح لرفقائه وأمرهم بتفتيش جميع الغرف... وبقي هو واثنان مِنْ أتباعه معنا في المكتب.

قال الشرطي:

«إذنْ... هل تقيمان بمفردكما هنا؟؟».

فأجاب وليد:

«تقيم معنا خادمة بشكلٍ متقطّع. وزوجتي مسافرةٌ للحداد على والدتها المتوفاة مؤخراً».

سأل الشرطي:

«لِمَنْ ملكيّة هذا المنزل؟؟».

فقال وليد:

«ملكية مشتركة بيني وبين أخوتي».

فقال الشرطي:

«والسيد سامر آل شاكر... ألا يقيم هنا؟؟».

فأجابَ وليد:

«كلاّ.. إنه يقطن الشمال منذ سنين».

واستمرّ الشرطي بطرح عدّة أسئلة، أجاب عليها وليد بتماسك مُصطنع... إلى أنْ أقبل رجال الشرطة وقالوا:

«لا أحد في الطابق العلوي».

فقال الشرطي القائد:

«فتّشوا الفناء».

وهنا أحسستُ بيد وليد تنتفض... ولو لمْ يكن الشرطي ينظر نحو أتباعه لحظتها للاحظ ما لاحظتُ... واكتشف سرّنا...

أخذتُ أبتهل إلى الله في أعماقي أنْ يعميَ أبصارهم عنْ مكان سامر... دعوتُه بكل جوارحي، وأنا متأكِّدة مِنْ أنَّ وليد يلهج بالدعاء مثلي...

يا رب إننا لا نملكُ إلا قلوبنا لتتضرَّع إليكَ... لا تخيِّب رجاءنا المتعلِّق بوجهكَ الكريم...

غادر الشرطي القائد المكتب لاحقاً بأتباعه... التفتُّ إلى وليد والذعر يملأ وجهي فنظر إليَّ نظرةً حمراء مُرعبة... وقد تحوّل بياض عينيه إلى بحر مِنَ الدماء المغلية... ثمَّ رأيتُ يده تتحرّك نحو أحد جيوبه... ويُخرِج منه... مسدَّساً!!!

شهقتُ فزعاً فوضع وليد يده الأخرى على فمي يكتم شهقتي... وقال:

«سأقتلهم إنْ لمسوه يا رغد».

حاولتُ أنْ أتنفَّس ولمْ أستطع... احتقنتْ الدماء في وجهي واحتبس الهواء في صدري... كدتُ أقع مغشية مِنَ الذهول والفزع... سمعنا وقع أقدام تقترب... فخبّأ وليد المسدَّس خلف ظهره واقترب مِنْ باب المكتب... ووقف على أهبّة الاستعداد لأنْ يصوِّب المسدَّس نحو رجال الشرطة...

أقبل الشرطي القائد وخلفه بعضٌ مِنْ أتباعه، ووقف إزاء وليد ثمَّ قال:

«إذا جاء إلى هنا أو عرفتم له طريقاً فمِنْ الخير له ولكم أنْ تبلغونا. إنّه مجرّد مشتبهٍ به وليس متّهم. سنطلق صراحه بعد استجوابٍ دقيق وينتهي كل شيء».

ثمَّ أشار إلى جنوده بالانصراف، وغادروا المنزل...

- وليد -

التفتُّ إلى رغد غير مصدِّق بأنَّ الشرطة قد غادرتْ بالفعل... دون أخي...

كنتُ أريد أنْ أسمع منها تأكيداً للأمر حتَّى أصدّقه، غير أنّي رأيتُها فجأة تنحني على المقعد وتتنفَّس بقوَّة وتئنُّ...

أعدتُ المسدَّس إلى جيبي وأسرعتُ إليها وانحنيتُ إلى جانبها بقلقٍ مضاعف وسألتُ:

«أأنتِ بخير؟؟».

فقالتْ وهي تلتهم الهواء التهاماً:

«سأختنق... أكاد أختنق».

وكان جسدها يرتعش مِنَ الذعر ووجهها يسبح في بحيرة مِنَ العرق. شددتُ على يديها وأنا أقول:

«أرجوكِ تشجَّعي... بسم الله عليكِ... تماسكي صغيرتي».

وإذا بيديها تطبقان على ذراعي ووجهها يندفن في ثنايا كُمِّ قميصي وهي تصيح منهارة:

«لا أتحمَّل هذا... سأموت مِنَ الخوف...».

حاولتُ أنْ أهدّئها قليلاً ثمَّ نهضتُ واقفاً وابتعدتُ فصرختْ:

«إلى أينَ تذهب؟؟».

فأجبتُ:

«إلى سامر».

وهرولتُ مسرعاً تتبعني نداءاتها:

«لا تتركني وحدي...!».

مِنْ بين كومة قطع السجَّاد... حرَّكتُ اللفافة التي تغلِّف شقيقي... فتحتُها بسرعة واستخرجتُ أخي مِنْ جوفها... أمسكتُ بكتفيه... ثمّ جعلتُ أنفض التراب عن وجهه وشعره وأنا أخاطبه:

«نجونا يا عزيزي... لقد رحلوا».

نظر إليَّ سامر نظرةً حزينةً موجعةً... فقلتُ:

«سامحني يا شقيقي... لمْ أكنْ أريد أنْ أفعلَ هذا بكَ... سامحني!».

ثمَّ طوّقتُه بذراعيَّ وجذبتُه إلى صدري وعانقتُه عناقاً حميماً...

بعد ذلك أخذتُه إلى داخل المطبخ وقدّمتُ إليه الماء فشرب كميَّة كبيرة... لا تقل عن الكميَّة التي أفرغتُها في جوفي بسرعة...

قلتُ بعدها:

«لمْ يعدْ المنزل آمناً لكَ... سآخذكَ إلى مكانٍ آخر حتَّى يحين موعد الرحيل».

جلس أخي على أحد المقاعد الموزَّعة حول الطاولة، ووضع رأسه على الطاولة باستسلام، وتأوَّه...

قلتُ وأنا أتحرّك نحو الباب الداخلي للمطبخ:

«سأرى كيف يمكنني إخراجكَ الآن وإلى أين آخذكَ».

وقبل أنْ أخرج مِنَ المطبخ سمعتُه يناديني:

«وليد».

التفتُّ إليه فرأيتُه ينظر إليَّ وقد علتْ قسمات وجهه شتَّى التعبيرات...

«لماذا... تفعل هذا لي؟؟».

سألني وعيناه تكادان تنزفان دمعاً مِنْ فرط ما هو فيه... فقلتُ:

«كيف تسألُ يا سامر؟؟ إنّكَ أخي الوحيد... ليسَ لي في الدنيا شقيقٌ وقريبٌ غيركَ...».

فقال سامر:

«لكنّني...».

ولمْ تسعفه الكلمات... فقلتُ:

«أنا... لنْ أرى شقيقي الوحيد... ما تبقَّى لي مِنْ أبويَّ... ومِنَ الدنيا... يتعرَّض للخطر وأقف متفرِّجاً. مهما كان حجم ما اقترفتَه... أنا لنْ أسمح لمخلوقٍ بإيذائكَ يا سامر... أرجوكَ... دعني أنفِّذ خطَّتي... ثِقْ بي...».

وذهبتُ مسرعاً إلى غرفة المعيشة، حيث كنتُ قد تركتُ هاتفي المحمول...

اتَّصلتُ بأبي حسام، فأخبرني بأنّه لا يزال يحوم على مقربة مِنَ المنزل، وأنَّ الشرطة قد غادرتْ ولا شيء يثير الشبهات حول المنزل... فطلبتُ مِنْه المجيء وفور وصوله أدخلتُه إلى داخل المنزل فسألني:

«أين سامر؟؟».

فأخذتُه إلى المطبخ، حيث كان سامر يجلس، وكذلك كانتْ رغد. الدهشةُ علتْ وجهَي سامر ورغد لدى رؤية أبي حسام، والأخير توجَّه مباشرةً نحو سامر وشدَّ على كتفه وهو يقول:

«الحمد لله... إنّكَ لا تزال بخير».

سامر نظر إليَّ بحيرة، فقلتُ:

«إنّه يعرف كلَّ شيء... وهو هنا لمساعدتنا».

وأبو حسام للعلم يعمل في إحدى الدوائر العسكرية، عملاً مكتبيّاً. التفتُّ إليه وقلتُ:

«سآخذ سامر إلى مكانٍ آخر... أرجوكَ ابقَ مع رغد حتَّى أعود... ولا تفتح الباب لأيِّ طارق... سأعود بأقصى سرعة».

«ماذا؟؟».

كان هذا صوت رغد تهتف بفزع وهي تهبُّ واقفةً وأمارات الخوف جاثمةٌ على وجهها، ثمَّ تقول:

«لنْ تتركني وحدي هنا».

فقلتُ:

«أبو حسام سيكون معكِ».

فهتفتْ:

«لنْ تتركني في هذا المكان... لا يمكنني البقاء هنا أكاد أموتُ ذعراً... أرجوكَ وليد خذني معكَ».

قلتُ محاولاً طمأنتها وتهدئتها قدر الإمكان:

«يا رغد... المشوار الذي سنقطعه أكثر خطورةً... أنتِ هنا بأمان أكثر... قد يداهمنا رجال الشرطة أو قد يحصل أي شيء في طريقنا. كيف تريدين منّي أنْ أصطحبكِ؟».

تحدَّث أبو حسام موجِّها الخطاب لرغد:

«لا وقتَ لنضيِّعه في الكلام. يجب أنْ نُخرِج سامر مِنْ هنا فوراً».

ثمَّ التفتَ إليَّ وقال:

«هيَّا يا وليد... عجِّل...».

تبادلتُ النظرات مع أخي وأبي حسام ثمَّ عدتُ إلى رغد... وحال منظرها الفظيع دون نطقي بأي تعليق. فقال أبو حسام مستعجلاً:

«الآن وليد».

مسحتُ قطيرات العرق المتجمِّعة على وجهي وعنقي ثمّ قلتُ موجِّها خطابي إلى رغد:

«ابقي متماسكةً لحين عودتي... لنْ أتأخَّر».

أغمضتْ رغد عينيها ذعراً، لكنّني لمْ أستطع غير المضي قُدماً...

التفتُّ إلى شقيقي الجالس على المقعد وقلتُ:

«هيا بنا... توكَّلنا على الله».

لمْ يتحرَّك سامر بادئ ذي بدء... ظهر هادئاً مستسلماً يائساً... وكأنَّ الأمر لا يعنيه أو أنَّه فاقدٌ الأمل في النجاة...

نظر أبو حسام إلى سامر وقال مُحثّاً إيَّاه على النهوض:

«هيا يا بُنَي».

وهو يشد على كتفيه. وقف سامر وعيناه تدوران فيما بيننا وأعيننا معلَّقة عليه... ثمَّ نطق أخيراً:

«إلى أينَ؟؟».

يسأل عنْ المخبأ الذي خططتُ لنقله إليه، فأجبتُ:

«مصنع والدي».

حملق الجميع بي لبرهة... تعلوهم الدهشة.

مصنع والدي، دُمِّرَ أثناء غزو العدو على المدينة قبل سنوات... وهو الآن مهجورٌ وخرِبٌ ولا تتنازل حتى وحوش البرية للإقامة فيه. يقع المصنع عند أطراف المدينة في مكان ناءٍ، يستغرق الوصول إليه زمناً، خصوصاً وأنَّ الشوارع بقيتْ على حالها مدمَّرة ومتقطّعة...

أخيراً التفتَ أبو حسام إلى سامر وقال:

«توكّلا على الله».

وسار أخي وهو يقترب منّي... حيث كنتُ الأقرب إلى الباب. وعندما صار أمامي... مددتُ يدي إلى ذراعه وقلتُ:

«سامِر... ثِق بي... اِعتمد عليَّ... أعدكَ بأنْ تغادر البلد سالماً بإذن الله... لقد رتّبتُ لكل شيء... النقود تسهِّل كل صعب...».

نظر إليَّ أخي والهم يعشِّش على عينيه... نظرةً هزّتني مِنَ الأعماق... فشددتُ على ذراعه بقوّة وقلتُ:

«أرجوكَ... تشجَّع... وعِدني بأنّك لنْ تضيِّع جهودي عبثاً... عدني بأنْ تلتزم بما أقوله لكَ... ولا تحاول شيئاً آخر... أرجوكَ عِدني».

أحسَّ أخي الرجاء الشديد في نبرة صوتي، وأخيراً نطق:

«أعدكَ... وليد».

فابتسمتُ مشجِّعاً... وشددتُ على ذراعه أكثر، ثمَّ استخرجتُ مِنْ أحد جيوبي... السلاح الذي كنتُ أخفيه...

قدّمتُه نحو أخي، وهو ينظر إليَّ مندهشاً... فقلتُ:

«استخدمه إذا اضطررتَ...».

أخذ سامر مسدَّسه مِنْ يدي... وهو يحملق بي غير مصدِّق، ثمَّ خبّأه في أحد جيوبه، ثمَّ عانقني عناقاً أخوياً حميماً.

حملنا معنا هاتفي وهاتف سامر، والذي كنتُ قد احتفظتُ به عندي، وقبل المغادرة التفتُ إلى رغد والعمِّ أبي حسام، وقلتُ:

«أمانتكَ لحين عودتي...».

وأشحتُ بوجهي قبل أنْ يحدِثَ منظر رغد في قلبي ثقباً جديداً...

وصلنا إلى المصنع أخيراً. دخلنا أحد المباني؛ المبنى الذي كان يحوي مقصفاً للعمّال وغرفةَ استراحة. كان المبنى الأقل تضرُّراً والذي لا يزال سقفه يقف على جدرانه.

المكان كان موحشاً جداً... لا يثير في النفس إلا الذعر...

لمْ تكنْ هناك أي إنارة عدا بصيصٍ بسيطٍ يتسلَّل عبر نافذةٍ صغيرةٍ قرب السقف...

«سيكون هذا جيداً».

قلتُ ذلك وأنا أنفضُ الغبار والأتربة عن أريكةٍ مجاورة، وأدعو أخي للجلوس، فردَّ:

«ما هو الجيِّد؟؟».

وقد غمره الاستياءُ والنفور الشديدين مِنَ المكان. بقي أخي واقفاً ينظر إلى ما حوله بازدراء. جلتُ ببصري في الغرفة ولمْ أستطع إقناع نفسي بغير شعور أخي... الازدراء...

قلتُ مشجِّعاً:

«لبضع ساعات... تُحتَمل».

وأشرتُ إليه أنْ يجلس، لكنّه لمْ يفعل...

أخي منذ صغره، اعتاد العيش في النعيم. منزلنا الكبير في الجنوب... ومنزلنا الراقي في الشمال... وشقّته الفاخرة... أذكر أنّه عندما زارني في المزرعة ورأى الغرفة المتواضعة التي كنتُ أقيم فيها والمنزل البسيط، شعر بالنفور والازدراء...

قلتُ:

«هذا لا شيء... مقارنة بالزنزانة».

وأنا أتذكّر الزنزانة الفظيعة التي أضعتُ خلف قضبانها القذرة تسع سنوات مِنْ عمري...

نظر سامر إليّ باستسلام، ثمّ جلس على الأريكة كارهاً. لو لمْ يكن لديّ ما أُنجزه للضرورة القصوى، لكنتُ بقيتُ برفقته. كيف لي أنْ أترك أخي في مكان مهجورٍ ومرعبٍ وقذرٍ كهذا؟؟

قلتُ وأنا استعدُّ للمغادرة:

«سأنهي ما لديّ وأعود إليكَ...».

وأصفتُ:

«كنْ حذراً... ابقِ عينيكَ وأذنيكَ يقظتين وهاتِفْني إنْ حصل شيءٌ على الفور».

أرسل إليّ أخي نظرةً قرأتُ فيها توسُّلاً... بألاَّ أغيب عنه... فرددتُ على رسالته بنظرة تقول: («انتظرني»).

وهكذا، غادرتُ مصنع أبي المهجور... تاركاً في قلبه شقيقي الوحيد... وحيداً...

اتصلتُ بعد ذلك بالمنزل أطمئنُّ على رغد وأبي حسام وأطمئنهما علينا... وتوجّهتُ بعدها لاستلام الوثائق الضرورية التي تلزمنا للسفر... وأنجزتُ مهاماً أخرى، استغرق منّي إنجازها وقتاً وجهداً مضاعفين.

لنْ تصدّقوا ما اضطررتُ لفعله مِنْ أجل إنقاذ أخي... لمْ أكنْ لأتصوّر نفسي سألجأ إلى هذا... يوماً مِنَ الأيّام...

عدتُ بعد ساعات إلى المنزل. بمجرّد دخولي إلى الردهة، وقع بصري على رغد...

كانتْ تجلس في الممرِّ... على الأرضية الرخامية... مستندةً إلى الجدار... ومادّةً رجليها إلى الأمام... وعكازها مرمي إلى جانبها الأيسر وهاتفها إلى جانبها الأيمن... ووجهها مغمور في سحابة داكنة مِن الهلع والاضطراب...

حينما رأتْني مدّتْ يدها نحوي ونادتني بلهفة:

«و... ليد».

كان صوتها ضعيفا واهناً... سلبه الخوفُ والفزع المقدرةَ على التماسك... تقدّمتُ نحوها وجلستُ إلى جانبها... أسندتُ رأسي إلى الجدار... ومددتُ رجليّ إلى الأمام... مثل وضعها... وأغمضتُ عينيّ...

كنتُ أريد أنْ ألتقط بعض الأنفاس... أحسستُ بيدها تتشبّث بذراعي... التفتُّ إليها...

وغاصتْ عيناي في بحر خوفها...

قلتُ:

«قبل بزوغ الفجر... تبدأ رحلتنا يا رغد».

رغد تحدّثتْ ببقايا صوتها سائلة:

«إلى... أين؟».

فأجبتُ:

«براً إلى البلدة المجاورة... ثمَّ جواً إلى الخارج... إلى دانة».

وشعرتُ بيدها ترتجف... فقلتُ:

«فقط... لنعبر الحدود بسلام... ادعي يا رغد... ادعي مِنْ أعماق قلبكِ...».

أغمضتْ رغد عينيها وكأنّها تلح بدعواتها القلبية... إلى الله... فأعدتُ رأسي إلى الجدار وأغمضتُ عينيّ ولهج قلبي بالدعاء والتوسُّل...

بعد قليل تحدّثتْ رغد قائلة:

«لا أكاد أصدِّق شيئاً يا وليد... لا أستطيع أنْ أستوعب ما يجري... أهو كابوس...؟؟ أرجوك قُل لي أنَّه كابوس».

فتحتُ عينيَّ والتفتُ إليها... ثمَّ قلتُ:

«أتمنّى لو أنّه كان كابوساً... ليته كان كابوساً... آه...».

سألتْ وهي غير مصدِّقة:

«لماذا...؟ سامر!! أنا لا أصدِّق... إنّه لا يمكن أنْ يفعل شيئاً... إنّه هادئٌ ومسالمٌ جداً... ماذا فعل؟ ولماذا؟».

حملقتُ في رغد... وتأوّهتُ بمرارة... وكان صدري على وشك أنْ ينفث أدخنة كثيفة مِنَ الآهات المتألِّمة... لا بداية لها ولا نهاية، غير أنَّ أبا حسام أقبل نحونا قادماً مِنْ مجلس الضيوف... ثمَّ سألني:

«كيف سارتْ الأمور؟؟».

فالتفتُّ إليه وأجبتُه:

«كما ينبغي حتّى الآن... المهم الحدود...».

سمعتُ رغد تقول بقلق:

«ماذا إنْ أمسكتْ بنا الشرطة؟؟ ماذا سيفعلون بنا؟؟».

عضضتُ على أسناني توتّراً... ونظرتُ إليها وأنا لا أجد جواباً... إلا أنْ أقول:

«لا سمح الله... سنكون في مأزقٍ كبيرٍ جداً...».

وجوابي زاد مِنْ ارتجاف يدها حتّى انتقلتْ خلجاتها إلى ذراعي وهزّتني...

تقدّم أبو حسام، وجلس على عتبات السلّم المجاورة لنا... ثمَّ قال:

«هل يجب أنْ... تأخذها معكما؟؟».

فجأة انفلتتْ أصابع رغد وانفتحتْ قبضتها عن ذراعي... وما كدتُ ألتفت إليها حتَّى انطلقتْ قائلةً بانفعال:

«طبعاً سأذهب معكما».

وكأنها تخشى أنني سأقول غير ذلك. أبو حسام قال:

«تعرف يا وليد أنَّ في الأمر مخاطرة كبيرة... أخرِجْه أوَّلاً... ثمَّ عُد وخُذها أو افعل ما تشاء».

كنتُ لا أزال أحدِّق في رغد... والتي ما كاد أبو حسام يُنهي جملته حتَّى هتفتْ وعيناها تكادان تقفزان مِنْ محجريها مِنْ شدَّة تحديقها بي:

«سأذهب معكما».

فقلتُ مطمئناً وأنا أرى الهلع يجتاح وجه الفتاة:

«لا تقلقي. فأنا لا أفكِّر في ترككِ والسفر إلى خارج البلد».

وسمعتُ أبا حسام يقول:

«ولكن يا وليد... أليس مِنَ الآمن لها أنْ تبقى عند خالتها؟؟ فقط اضمن خروج سامر بالسلامة واطمئن على نجاته ثمَّ تعال وفكِّر فيما ستفعله».

زفرتُ زفرة طويلة ثمَّ ضغطتُ بيدي على جبيني وسحبتها على شعري وقلتُ:

«لنْ أستطيع... لنْ يرتاح لي بال...».

والتفتُ إلى رغد... فإذا ببعض الارتياح يمحو آثار الهلع الأخيرة... لكنَّه كان ارتياحاً قصيراً سرعان ما أربكه كما أربكني رنين هاتفي...

حبستُ نفساً طويلاً وحبسته في صدري، ونظرتُ إلى شاشة الهاتف بهلع... متوقِّعاً أنْ يكون هذا سامر... أو أحد الأشخاص الذين أتعامل معهم لتهريبه... أو حتَّى الشرطة... وعندما رأيتُ اسم (المزرعة) يظهر على الشاشة أطلقتُ نفَسي المحبوس بقوّة... تلحقه أنفاسٌ قصيرة متعثِّرة...

«نعم مرحباً».

«مرحبا يا وليد يا بُنيَّ... كيف حالكَ؟».

لقد كان عمّي إلياس. أجبتُ بعجل دون أنْ ألقي بالاً عليه:

«بخير».

فسألني عنْ أحوال ابنة عمِّي وأحوال العمل وحتَّى أحوال الطقس، فرددتُ مقتضباً:

«بخير، أهناك شيء؟؟».

وأحسَّ عمِّي مِن ردِّي ونبرتي أنَّ لديَّ مُشكلة. فسألني:

«ما الأمر يا بنيَّ؟؟».

فأجبتُ بضيق:

«آسف. أنا مشغولٌ الآن».

فقال:

«حسناً. هل لا اتَّصلتَ بي بعدها؟؟».

فجذبتُ نفساً ورددتُ:

«أنا مشغولٌ جداً يا عم».

امتزج القلق بنبرة عمِّي وهو يسأل:

«أأنتَ على ما يُرام؟؟».

فأجبتُ:

«أجل ولكن لدي مشاكل حرجة».

«إذن... لنْ تأتيَ اليوم أيضاً؟؟».

لقد كان يوم الخميس... وكان يُفترض بي السفر إلى المزرعة لحل مشكلتي مع أروى الأسبوع الماضي، وأجّلتُ السفر بسبب سفر أخي المفاجئ، واضطراري للبقاء مع رغد... والآن أرجئه إلى أجلٍ غير مسمى بسبب الورطة الحرجة التي نمر بها...

قلتُ:

«لا يمكن...».

وأضفتُ:

«عمِّي... سأغيب لفترةٍ غير محدَّدة».

صمتَ عمِّي برهة، لا بد وأنّه تضايق مِن ردِّي... في حين أنّه ما فتئ يتَّصل بي ويطلب حضوري مِنْ أجل أروى...

سمعتُه بعد البرهة يقول:

«ولكن أروى...».

ولمْ أسمع ما قال بعدها... إذ أنَّ هاتفي قد استقبل اتصالاً آخر... وفور إلقائي بنظرةٍ سريعة على الشاشة أجبتُ المكالمة الثانية بلهفة:

«نعم سامر هل أنتَ بخير؟؟».

وقلبي ينزلق مِنْ صدري كما تنزلق قطرات العرق مِنْ جبيني...

ردّ سامر قائلاً:

«نعم وليد... ألنْ تأتي؟ المكان موحشٌ هنا جداً».

ازدردتُ ريقي ثمَّ قلتُ:

«هل سمعتَ شيئاً؟؟ هل حدث شيءٌ؟؟».

فقال:

«رأيتُ أفعى مِنْ حولي... الشمس توشِك على المغيب ولنْ أستطيع رؤية حتَّى يدي... اجلبْ لي مصباحاً».

علّقتُ:

«تقول أفعى؟؟».

فقال:

«نعم. ومَنْ يدري؟ ربَّما يوجد عقارب أو ما شابه... والجو حارٌ وخانقٌ جداً».

«إذن الزم الطابق العلوي. ولو فوق السطح... أنا قادمٌ إليكَ الآن».

«نعم أرجوكَ».

«توخَّ الحذر... يحفظكَ الله».

وأنهيتُ المكالمة وهببتُ واقفاً فهبّتْ رغد مستندة إلى عكّازها ووقف أبو حسام تباعاً... قلتُ:

«سأعود إليه».

فهفتْ رغد:

«لا تتركني مجدداً أرجوك!».

فقلتُ مخاطباً إياها:

«سآخذ إليه بعض الطعام والماء ومصباحاً يدوياً... وأبقى لمؤانسته بعض الوقت فالمكان هناك شديد الوحشة».

قالتْ رغد:

«وأنا؟؟».

نقلتُ بصري بين رغد وأبي حسام وكدتُ أنطق بجملتي التالية إلا أنَّ أبا حسام سبقني قائلاً:

«دعني أذهب أنا هذه المرَّة، وابق أنتَ مع ابنة عمّك ونل قسطاً مِنَ الراحة. لا يزال أمامكَ الكثير».

ركّزتُ نظري عليه يعلوني التردُّد... فقال:

«هاتْ ما يحتاجه... سأبقى برفقته حتى تأتياننا فجراً».

استدركتُ:

«و... لكن... يا عم...».

ولمْ أكنْ أعرف ما أريد قوله... وتولَّى أبو حسام دفَّة الكلام وقال:

«قضاء ليلةٍ كاملة وحيداً في مكان مهجورٍ ومنقطعٍ عن العالم، فيما الشرطة تبحث عنكَ والخطر يحيط بكَ هو ليس بالأمرِ المتحمَّل... لا يجبُ أنْ نتركه بلا رفيق. سأبقى معه في انتظار مجيئكما صباحاً».

وهكذا اتفقنا على أنْ يذهب أبو حسام حاملاً الحاجيات إلى سامر ويبقى برفقته تلك الليلة...

كنتُ أعرف حتَّى الآن... أنّها لنْ تكون مجرَّد ليلة عادية... بل ستكون... ليلة رعبٍ وقلق وأرقٍ متواصل... وأنني وإنْ كنتُ سأقضيها في منزلي جسدياً، فسأقضيها مع سامر روحياً

وقلبياً... وأنَّني لنْ أعرف للنوم طعماً ولا للبال راحةً وسأبقى أترقَّب ساعةً بعد ساعة... أذان الفجر... الذي ستعقبه رحلة الفرار...

هكذا كنتُ أتوقَّع لتلك الليلة أنْ تكون... مِنْ أسوأ ليالي عمري... لكنِّي، ورغم كل توقُّعاتي وتوجّساتي... وجدتُها قد اجتاحتْ كل الحدود... وأتتْ أشدّ وأقسى مِنْ أنْ تخطر لي على بال... على الإطلاق...

ليلة الرعب الأعظم في حياتي تلك... الأفظع والأبشع والأشنع على الإطلاق... قضيتُها... مع... وفقط مع... صغيرتي البريئة... شريكة المواقف الفظيعة... والحوادث المريعة... فتاتي الحبيبة... رغد...

الحلقة الخمسون

الفرار

- وليد -

طلبتُ مِنْ رغد أنْ تأوي إلى الفراش باكراً، لأنّنا سنرحل بُعيد صلاة الفجر مباشرة. كانتْ رغد مصرَّةً على البقاء ساهرةً إلى جانبي في غرفة المعيشة، مترقّبة معي أيَّ جديد. لكنَّني ألححتُ عليها بالذهاب إلى غرفتها ونيل حصّتها مِنَ النوم... فما ينتظرنا في الصباح شاقٌ وطويلٌ...

كنتُ أشعر بالأسى لحال الصغيرة... فهي وجدتْ نفسها فجأة مضطرَّةً للسفر ومعرَّضةً للخطر والإرباك... وهي مجرَّد فتاة صغيرة لا ذنب لها فيما يحصل ولا طاقة لها بتحمُّله...

للحظة استسغتُ فكرة أبي حسام في أنْ يصطحبها معه إلى الشمال... حيث تجد الاستقرار والأمان في بيت خالتها ومع أقاربها... لكنَّني خشيتُ أنْ يحصل معي ومع سامر أي شيء... يمنع عودتي إليها أو يقطع اتصالي بها. كنتُ بين ألسنة النيران تحيط بي مِنْ كل جانب... ولمْ يكنْ لدي متَّسعٌ مِنَ الوقت لإعادة التفكير وتغيير مجرى الخطّة الطارئة... المهم الآن أنْ أضمنَ سلامة سامر، وبعدها... سأعيد النظر في كل شيء...

كنتُ جالساً على أحد المقاعد في غرفة المعيشة... أعيد إلى محفظتي القصاصات التي بعثرتُها صباح اليوم... قصاصات صورة رغد... وأرتّب النقود وخلافها في حقيبة اليد الصغيرة وأنا شارد التفكير...

فيما أنا كذلك، إذا بجرس المنزل يُقرع...

هببتُ واقفاً فجأة... متوجِّساً خيفة...

قُرِع الجرس مراراً... قرعاً فوضوياً... قرع قلبي معه... أسرعتُ إلى الهاتف الداخلي، وسألتُ عنْ الطارق.

«المباحث. لدينا أمرٌ بتفتيش المنزل. افتحْ الباب».

تلاحقتْ أنفاسي هلعاً... الشرطة مِنْ جديد؟؟

لمْ أكنْ أريد أنْ أفتح الباب... لكن... كان لا بد لي مِنْ ذلك... فتحتُ القفل الآلي للبوابة الخارجية وسرتُ نحو الباب الداخلي وما كدتُ أفتحه إلا وفوجئتُ بحشدٍ كبيرٍ مِنَ العساكر يندفعون بقوّة نحو الداخل، مصوِّبين فوّهات أسلحتهم نحوي وفي كل اتجاه...

كانوا يرتدون زيّاً مُختلفاً عمَّن فتّشوا المنزل نهاراً... مما حدا بي إلى الاستنتاج أنهم ليسوا عساكر مدنيين...

أخذني الفزع ولمْ أجسر على أي تصرُّف. وإذا بقائدهم يحدِّق بي ثمَّ يشير إلى العساكر آمراً:

«ليس الهدف، انتشروا».

أخذ الجنود يتدفَّقون إلى الداخل... فهتفتُ وأنا أراهم ينفِّذون الأمر دون اعتبارٍ لي:

«انتظروا... أنتم... كيف تقتحمون علينا المنزل... ما هذا؟؟».

والحشد يستمرُّ بالتوغُّل غير آبهٍ بكلامي. التفتُّ إلى القائد فإذا به يقول:

«لا تعترضنا. لدينا أوامر رسميَّةٌ بتفتيش المنزل واعتقال المشبوهين».

فالتفتُّ إلى العساكر ورأيتُ بعضهم يندفعون عبر الردهة إلى الممرِّ الأيمن... فلحقتُ بهم بسرعة وركضتُ أسبقهم نحو غرفة رغد ووقفتُ عند بابها.

توزَّع العساكر فِرقاً في كل الاتجاهات... إلى اليمين في اتجاه المطبخ وغرفة المائدة... إلى الشمال في اتجاه المجلس وغُرف الضيوف... إلى الدرج... إلى الطابق العلوي... انتشروا انتشار الجراد على الحقول... يدوسون بأحذيتهم العسكرية على أرضية وسجَّاد المنزل النظيف مخلِّفين آثاراً قذرةً كقذارة تصرُّفاتهم...

اقتربتْ فرقةٌ مِنْهم منِّي يريدون اقتحام الغرفة مِنْ خلفي. صرختُ بهم:

«ما هذهِ الطريقة الهمجيَّة؟؟ ألا تراعون أنَّ للبيوت حرمات؟؟».

ردَّ أحدهم بوقاحة:

«لا تكثر الكلام يا هذا. دعنا ننجز مهمَّتنا».

فقلتُ بغضب:

«هل تقبل بأنْ يقتحم أحدٌ عليكَ بيتكَ بهذا الشكل؟؟».

حينها أقبل قائدهم ووقف أمامي واستخرج مِنْ جيبه ثلاث صور لثلاثة أشخاص... لمحتُ أخي مِنْ بينهم... وكانتْ صورةً قديمة له قبل إجراء عمليَّة التجميل لعينه اليمنى. قال القائد:

«نحن نبحث عنْ هؤلاء... أتعرفهم؟؟».

أجبتُ:

«لا يوجد في هذا المنزل مَنْ تريدون... لقد فتَّشتم أرجاءه كاملة هذا الصباح فماذا تريدون بَعد؟؟».

وعِوَضاً عن الشعور بالخجل مِنْ همجيَّة عساكره، قال قائدهم:

«فتِّشوا الغرفة».

يقصد غرفة رغد التي أقف أنا عند بابها حائلاً دون تقدُّمهم. صرختُ وأنا أنشر ذراعيَّ ساداً المعبر:

«إياكم والاقتراب... هذه غرفة فتاة ولا أسمح لكم بدخولها».

فقال القائد مصراً:

«فتِّشوها».

اقترب أحد العساكر منّي فدفعتُه بيدي وأنا أهتف:

«قلتُ لكم لنْ تدخلوها... أليسَ لديكم أي اعتبار للحرمات؟؟ ابتعدوا».

فجأة... إذا بجميع العساكر مِنْ حولي يشهرون أسلحتهم في وجهي... وإذا بقائدهم يأمرهم:

«أبعِدوه».

ولمْ أرَ إلا سواعد غليظةً قاسية تنقضُّ عليَّ محاولةً جرِّي بعيداً عن الباب. حاولتُ أنْ أقاومهم... ضربتُ... ركلتُ... وصرختُ:

«رغــــــــــد».

ثلاثة منهم أطبقوا على أطرافي وجرُّوني إلى الأمام... وآخر تسلَّل مِنْ خلفي وأطبق على مقبض الباب وفتحه...

صرختُ بكل حنجرتي:

«رغــــــد... رغــــــد».

وحررتُ إحدى يديَّ وأطبقتُ على الجندي الذي فتح الباب وسحبتُه مِنْ قميصه إلى الوراء بقوة... نظرتُ إلى الداخل فرأيتُ رغد تهبُّ جالسة على سريرها وتنظر نحو الباب وتنطلق صرخاتها المفزوعة فوراً...

هتفتُ:

«رغد».

ثمَّ جررتُ بقيَّة أطرافي بكل ما أوتيتُ مِنْ قوّة مِنْ بين قبضات الثلاثة الآخرين وركضتُ مسرعاً إليها...

كانتْ رغد تطلق الصرخة تلو الصرخة مِنْ فرط الفزع... قدمتُ إليها بسرعة، وأحطتُها بلحافها، وطوَّقتُها بذراعي، وجذبتُها إليَّ وأنا أهتف:

«أنا هنا يا رغد... هنا معكِ... أنا معكِ».

وهي مستمرَّةٌ في نوبة الصراخ المفزوع لا تكاد مِنْ شدَّة فزعها أنْ تسمعني...

الغرفة كانتْ خافتة الأضواء... تستمدُّ نورها مِنْ مصباح النوم المجاور للسرير. اقتحمها جنود الأمن... بل جنود الرعب والفزع... وأخذوا يجوبون في أرجائها ويفتِّشون الدواليب... والستائر...

صرختُ فيهم بأعلى صوتي:

«أيها الأوغاد... أيها الحقيرون... أيها الهمجيّون الأراذل».

لكنَّ صراخي لمْ يكنْ يهزُّ في مشاعرهم المتبلِّدة أي شيء...

اقترب أحدهم منَّا... قاصداً تفتيش أسفل السرير فانفلتتْ أعصابي أشدّها... ونظرتُ مِنْ حولي فرأيتُ الهاتف الثابت موضوعاً على المنضدة المجاورة... أطبقتُ عليه ثمَّ رفعتُه ورميتُ به بقوّة باتجاه الجندي فأصبتُه...

التفتتْ أعين بقيّة العساكر إليَّ... ولمْ أرَ إلاّ حشداً غوغائياً متوحِّشاً يهرع باتجاهي كي يهاجمني...

تركتُ رغد مِنْ بين يدي وهببتُ نحوهم أحول دون تقدُّمهم وانتقم لانتهاك حرمة منزلي...

ضربتُ... ركلتُ... ولكمتُ... بثورة... بشراسة... بكل ما أوتيتُ مِنْ قوّة... أو ما تبقّى في جسدي مِنْ قوّة بعد كل ما ألمَّ به مؤخراً...

عددهم كان عشرة أو أكثر... كانوا مسلّحين... أجسادهم ضخمة وقويّة... تدرّبتْ على القتال العنيف... الفتّاك...

أذاقوني فنوناً لمْ أذقها أيام سَجْني... انقضُّوا عليَّ انقضاض قطيع مِنَ الذئاب الجائعة على فريسة وحيدة... قبل أنْ تنتهي الضربة تلقفني ضربةٌ أخرى... وقبل أنْ أشعر بالألم في موضع، يُصاب موضعٌ آخر... وقبل أنْ أحرِّكَ أي جزءٍ مِنْ جسمي، تجثوا عليَّ أجسادهم الثقيلة فتشلُّني تماماً...

أظنّهم كسروا جمجمتي... ربَّما سحقوا دماغي... لأنني لا أستطيع أنْ أتذكّر ما حصل... لمْ أعد أستطيع التذكُّر... لمْ أعدْ أستطيع الرؤية... لمْ أعدْ أستطيع التنفُّس... ولمْ أعدْ أستطيع سماع... صراخ رغد...

- رغد -

أمّا أنا... فقد كنتُ أسمع صوت الضرب... وصوت وليد يصرخ متألماً... وكنتُ أصرخ... وأصرخ... وأصرخ...

حسبتُ أنّني مع صرختي الأخيرة... خرجتْ روحي مفارقةً جسدي...

أبعدتُ اللحاف عنْ وجهي... هلْ لي بنظرةٍ أخيرةٍ على وليد؟؟ أين وليد؟؟ أين وليد؟؟

كان هناك... تحت كومة ضخمة مِنَ الأجساد البشرية... الوحشية... غارقاً في الدماء...

لقد رأيتُه... يمدُّ يده نحوي... يحاول أنْ يزحف باتجاهي... لمْ يكنْ ينظر إليَّ... كانتْ الدماء تُغرِق عينيه... لكنَّه يعرف أنني هنا... أنا هنا وليد... تعال إليَّ... وليد أسرِعْ إليَّ... ابتعِدوا عنه... ابتعدوا عنه... أيها الأوغاد ابتعدوا عن وليـــد...

أمسكتُ بعكّازي... ووقفتُ... لا أعرف كيف... وسرتُ خطوتين... فوليد لمْ يكنْ بأبعد مِنْ ذلك...

رفعتُ عكازي... وهويتُ به على رأس أحد الأشرار... هل أصبتُه؟؟ أمْ أخطأتُه؟؟ لا أدري... لكن العكّاز لمْ يعدْ في يدي... لمْ أعدْ أستطيع أنْ أقف... كنتُ سأقع على حافة السرير، لكنَّ شيئاً ما قد ضربني وأوقعني أرضاً...

صرختُ...

«آآآآآآه...».

وسمعتُ صوت وليد يردُّ على صرختي:

«رغـــد».

صوتُه جاء أشبه بصدى مرتدٍ عنْ بئرٍ عميق...

اقترب الوحش الذي ضربتُه منِّي... ورفع قدمه ورفسني بقوّة... رفسةً ربَّما كسرتْ العظم الذي ما كاد ينجبر في يدي اليمنى... وأنا أطلق الصرخات... فزعاً وألماً...

«وليـــد... وليـــد... وليـــد».

تحرّكتْ يد وليد مِنْ تحت كومة الوحوش... ثمَّ ظهر جسده وهو يستل مِنْ بين قيودهم بصعوبة... يقاوم هذا ويدفع هذا ويضرب ذاك... وهو يصرخ:

«ابتعدوا عنها أيها القذرون».

ويزحف على ركبتيه... حتَّى وصل إلى الوحش الذي ضربني وأطبق على ساقه وجذبها وأوقعه أرضاً... وأسرع إليَّ...

تشبَّثتُ به بقوَّة... وأنا أرتجف كالزلزال مِنَ الذعر... أبحث عنْ نقطة أمان بين يديه... كانت يداه تحاولان أنْ تحتوياني... يقرِّبني ويُبعدني وهو يهتف باسمي مكرراً:

«رغد... رغد...».

فجأة... رأيتُ عصاً تحلّق في الأعلى... ثمَّ تحطُّ بقوَّة على رأس وليد...

صرختُ... وصرخ وليد... وأفلتُّ مِنْ بين يديه... ورأيتُ رأسه يهوي أرضاً... ثمَّ إذا به يبتعد عنّي... كانوا يسحبونه بعيداً...

صرختُ... ومددتُ يدي نحوه وأمسكتُ بيده وأنا أناديه بفزعٍ ما ضاهاه فزع... ورأيتُ يده تتحرّك وتُمسك بيدي... ثمَّ تنفلتُ منها... وليد لمْ يكنْ ينظر نحوي... لمْ يكنْ يراني... لأنّهم كانوا يقلِّبونه صدراً على ظهر... ويميناً على شمال... كانوا يمسكون برأسه... يوشكون على كسر عنقه... كانوا يريدون أنْ يقطعوا نحره بحافة ذقنه... كانوا يحاولون خلع مفاصله وفصل أطرافه عن جسمه... رأيتُهم... يدوسون على ذراعه الممدودة نحوي... ويركلون رأسه كما تُركل كُرة القدم...

وعصيّهم كانتْ تنهال على ظهره وصدره بالضرب... وكأنّهم يُفتِّتون صخرةً صلبة... تسدُّ عليهم الطريق...

أولئك... لمْ يكونوا مخلوقات مِنْ هذا الكوكب... لمْ يكونوا يدركون... مَنْ هذا الذي يهمُّون بقتله... لا يعرفون أنَّ هذا... هذا هو... وليد... وليد قلبي... كل حياتي...

أردتُ أنْ أنهض وأهبَّ للذود عنه... لأفعل أي شيء... لأصد عنه ضرباتهم... بحثتُ عنْ عكّازي... الذي لطالما تحمَّل ثقلي طيلة الشهور الماضية وصار كجزءٍ منِّي... أتعرفون أين وجدتُه؟؟؟

يطير في الهواء... ثمَّ ينقضُّ على ظهر وليد... يفصم فقراته...

صرخ وليد...

صرختُ... وصرختُ... وصرختُ... وليد سمع صراخي فرفع رأسه يبحث عن الاتجاه... لمْ تعدْ أذناه تميِّزان اتجاه الأصوات... لقد زحف في الاتجاه الخاطئ... فزحفتُ نحوه أجرُّ رجلي المجبَّرة جراً...

أخيراً أمسكتُ بيده... فشدَّ عليَّ... ورفع ذراعه وحاول أنْ يطوِّقني... المجرمون كانوا مستمرِّين في ضربه بالعصي... كانوا يرفسونه بأحذيتهم... ويدوسون عليه... لوَّحتُ بيدي محاولةً إبعادهم عنه وأنا أهتف:

«كفى... أرجوكم كفى... كفى...».

لكنَّ أحدهم... ركل بطن وليد بشراسة... وليد تأوَّه بشدَّة... وخرجتْ نافورة مِنَ الدم مِنْ فمه... ثمَّ رفع رأسه وناداني... وأخيراً هوى بصدره نحو الأرض...

أحد الوحوش... أشهر مسدَّسه وصوَّب فوَّهته مباشرةً إلى رأس وليد...

فزعتُ... ذهلتُ... انتفضتُ... صرختُ بقوّة:

«لا... لا... لاااااااااا».

أطبقتُ على رأس وليد وضممتُه بين ذراعي... نظرتُ إلى صاحب المسدَّس وصرختُ:

«أرجوكَ لا... أرجوكَ لا... أرجوكَ لا».

وهو يهدِّد:

«ابتعدي».

فوضعتُ رأسي على رأس وليد... ولففتُه بذراعي أحول دون أنْ يفجّروه...

«أرجوكَ لا... لا أرجوكَ... لا تقتله... لا... لا... لا...».

وشارفتُ على الموت لحظتها... متيبِّسةً على رأس وليد...

سمعتُ صوت أحدهم يقول:

«يكفي هذا. لمْ نؤمر بالقتل. انصراف».

أبعد صاحب المسدس مسدَّسه عن وليد... وسدَّد الرفسة الأخيرة إلى ظهره... فأطلق وليد أنَّة ضعيفة شبه ميتة... وفي ثوانٍ... اختفى أنينه... واختفى صوت الجنود وصوت عصيِّهم... ولمْ أعدْ أسمع في المكان غير صوت أنفاسي...

كنتُ آنذاك متصلِّبةً على وضعي... وأنا أمسك برأس وليد وأدرِّعه بذراعي... وأضع رأسي عليه... وأغمضُ عينيَّ بقوَّة... لأضمن عدم مشاهدة ما سيفعله الأوغاد به...

مرَّ بعض الوقت... والهدوء مستمرٌ مِنْ حولي... فيما الأعاصير القوية مستمرةٌ في صدري... وفيما ذراعاي متيبِّستان حول رأس وليد... حتّى فقدتُ القدرة على تحريكهما...

وبعد أنْ طال الهدوء... تشجَّعتُ وفتحتُ عينيَّ بحذر... وجلتُ ببصري فيما حولي... ولَمْ أرَ للوحوش أثراً... رفعتُ رأسي ومسحتُ بأنظاري كل أرجاء الغرفة... ولمْ أجدْ معي فيها غير وليد...

لقد انصرفوا...

كان وليد قربي مباشرةً... مُكَباً على وجهه... وقد نُزِع قميصه ومُزّقتْ ملابسه... وتزاحمتْ الجروح والكدمات على جسمه... وكأنّها تتنافس فيما بينها للنيل مِنْه... وقد أغرقتْ الدماء ثيابه وما حوله...

كان رأسه لا يزال بين يدي... كاملاً... متماسكاً... لمْ يُفَجَّر... لكنه كان مُبلَّلا بمزيجٍ مِنَ العرق والدم... وأشعر بالبلل يتخلخل أصابعي مقطراً مِنْ شعره...

أدرتُه يميناً فيساراً... لأتأكّد مِنْ أنَّ ثقباً لا يخترقه أو أنَّ رصاصة لا تنغرس فيه... فإذا بي أرى عينيه تسبحان في شلال مِنَ الدماء المتدفّقة مِنْ جرحٍ غائرٍ في ناصيته... وكان شلاّل آخر أشدّ غزارةً يتدفّق باندفاعٍ مِنْ أنفه... وكأنّه يفرُّ هارباً مِنْ وحش الكهف الأسطوري... هذا... عدا النافورة العنيفة... التي تفجّرتْ مِنْ فمه قبل قليل...

لمْ أكنْ أرى وجه وليد... حقيقةً... لمْ أكنْ أرى غير طوفان مِنَ الدم الجارف يتدفّق مِنْ كل مكان... ويصبُّ في كلِّ مكان...

صرختُ:

«وليد... وليد...».

وأنا أهزُّه... وأملي يكاد ينقطع... مِنْ أنّه لا يزال حياً...

«وليد... وليد...».

رأيتُه يحرّك رأسه ويحاول فتح عينيه... غير أنَّ الدماء كانتْ تغمرهما...

سحبتُ لحافي المفروش على سريري بسرعة... وجعلتُ أمسح الدماء عن عينيه... وأنا أصرخ وأبكي بذعر:

«افتح عينيكَ... وليد أرجوكَ... أنظر إليَّ».

فتح وليد عينيه فتحة صغيرة، ونظر نحوي ونطق بأوّل حروف اسمي... ثمّ رفع ذراعه اليمنى وألقاها حول ظهري...

كان... لا يزال حيّاً...

بعد ذلك حاول أنْ يستند على يده الأخرى لينهض... لكنّه ما إنْ رفع رأسه عَن الأرض بضع بوصات حتى أطلق صرخة ألمْ وخرّ أرضاً مِنْ جديد...

أظنُّ... أنَّ ذراعه اليسرى قد انفصلتْ عنْ جسده... فهو لمْ يستطع الارتكاز عليها... لا بد وأنّهم خلعوا كتفه أو كسروا عظام يده... كان يتألّم بشدّة... بشدّة... وليد قلبي يصرخ متألّماً... آآآآآه... وليد... وليد...

اقتربتُ مِنْ رأسه وأحطتُه بذراعي وصرختُ:

«أنتَ حي...؟؟ وليد... كلّمني...».

وشعرتُ به يتحرّك... يحاول النهوض... ويعجز مِنْ فرط إعيائه... ثمّ حرّك رأسه ونظر باتجاه الباب وتكلّم...

«رغد... الباب».

وفهمتُ مِنه أنّه كان يريد أنْ ينهض ليقفل الباب... فتشبَّثتُ به أكثر وقلتُ بفزع:

«لا تتركني».

حرّك وليد يده اليمنى وأمسك بيدي وقال:

«الباب... اقفليه... رغد... بسرعة».

وشعرتُ به يشدُّ على يدي بضعف... فأبعدتُ رأسي عنْ رأسه وسمحتُ لعينيه بالنظر إلى عينيَّ... وما إنْ رآني حتى قال:

«الباب... بسرعة... لا أقوى على النهوض».

لمْ أكنْ أملك مِنَ الشجاعة ما يكفي لأنْ ابتعد عنه شبراً واحداً... وليس بي مِنْ قوّة تعينني على الحراك حتّى لو رغبتُ... وعوضاً عنْ ذلك... شددتُ عليه أكثر وقلتُ:

«لا أقدر... خائفة».

فحرّك وليد يده ومسح على رأسي وقال:

«أرجوكِ... أسرعي».

نظرتُ إليه فرأيتُه ينظر نحو الباب...

تلفّتُ مِنْ حولي... بحثاً عنْ عكّازي... كان ملقىً في الطرف الآخر مِنَ الغرفة أبعد عنّي مِنَ الباب... حرّرتُ رأس وليد وأومأتُ إليه بِنعم، ثمَّ... زحفتُ على يديَّ وأنا أجرُّ رجلي المجبَّرة... شبراً شِبراً... إلى أنْ وصلتُ إلى الباب فأغلقتُه ومددتُ يدي للأعلى وما إنْ أمسكتُ بالمفتاح حتّى أقفلتُه وخررتُ على الأرض ألتقط أنفاسي...

كانت أنفاسي تخرج مِنْ صدري مصحوبةً بأنينٍ قوي... كنتُ أرتجف مِنَ الذعر وجسمي ينتفض بشدّة... ويتعرّق بغزارة... وكأنّني قمتُ بمجهودٍ كبير...

سمعتُ صوت وليد يناديني:

«رغد».

التفتُ إليه فوجدتُه وقد انقلب على ظهره ورفعَ رأسه وأسنده إلى قاعدة السرير... ومدَّ يمناه نحوي... ثمَّ قال:

«تعالي».

لملمتُ فتات الطاقة المتبقية في أرجاء جسدي المشلول مِنَ الفزع... وزحفتُ عائدةً إلى وليد... كان مشواراً طويلاً... امتدَّ بين المشرق والمغرب... استهلك منِّي كل عضلاتي وكل قوّتي... وما زلتُ أزحف وأزحف... إلى أنْ صرتُ قربه... رميتُ برأسي في حضنه وغرستُ أظافري فيه...

لقد كنتُ أريد أنْ أفتح قفصه الصدري واحتمي خلف ضلوعه... أظنني اخترقتُ ضلوعه فعلاً... لا بد أنّني داخل قلبه الآن... لأنّني أسمعه ينبض بقوّة... بسرعة... بثورة...

وكأنّني أشعر بدمائه تبللني... وكأنني أشعر بأنفاسه تعصف بي... وكأنّني أشعر بذراعيه تغلّفانني...

دعوني استرد أنفاسي... وأستجمع قواي... دعوني أسترخي وأغيب عن الوعي... دعوني أستعيد الأمان والسكون... داخل صدر وليد...

بعد فترة... أحسستُ بشيءٍ يحاول إبعادي عن وليد... فتشبّثتُ به بقوّة أكبر... وصحتُ: «لا».

وسمعتُ وليد يناديني... فقلتُ:

«أرجوكَ... دعني».

وبكيتُ بحرارة... وأنا أغوص بين ضلوعه... أعمق وأعمق...

وشيئاً فشيئاً... بدأتْ خفقات قلب وليد تتباطأ... وبدأتْ أنفاسه تهدأ... وبدأتْ ذراعه ترتخي مِنْ حولي... فتحتُ عيني... ورفعتُ رأسي ونظرتُ إليه... كان يغمض عينيه ويتنفَّس بانتظام... وصوت الهواء يصفر عند عبوره في أنفه المحتقن بالدماء... كانتْ الدماء المتخثِّرة ترسم على وجهه العريض خريطةً متداخلة معقَّدة الملامح...

جلستُ ونطقتُ باسمه:

«وليد».

ولمْ يردْ... لقد نام مِنْ شدّة الإعياء... أو ربّما فقد وعيه... لكنني عندما ربّتُ على وجنته انعقد حاجباه لثوان ثمَّ استرخيا...

كان رأسه لا يزال مسنداً إلى قاعدة السرير في وضع مؤلم... مددتُ يدي وسحبتُ إحدى وسائدي ووضعتُها على الأرض... وحرّكتُ رأس وليد بحذر وأسندتُه إليها... ثمَّ سحبتُ البطانية وغطّيتُه بها...

وبقيتُ جالسةً بجواره... أراقب أنفاسه وأي حركة تصدر عنه... وأنا أدقِّق السمع حتَّى خُيِّل لي أنني سمعتُ صوتاً ما مِنْ خارج الغرفة... فنظرتُ إلى الباب بفزع... ثمَّ انحنيتُ قرب وليد وأمسكتُ بيده وشددتُها إليَّ... طالبة الأمان...

- وليد -

تنبّهتُ على صوت شيءٍ مزعجٍ... صوت يتكرّر بانتظام... مرّة بعد أخرى... كان صوت منبِّه...

أغمضتُ عيني بقوّة... فأنا أشعر بحاجة مُلحَّة لمتابعة النوم... أشعر بأنني استيقظ مِنْ أعماقِ أعماقِ نومي... ولا أريد أنْ أنهض...

لكن الرنين المتكرِّر المزعج أجبرني على فتح عيني والانتباه لما حولي...

اكتشفتُ... أنني كنتُ أنام على الأرض... في غرفة رغد... فتذكَّرتُ هجوم العساكر وانتقل دماغي فجأة مِنْ أعماق النوم إلى قمة اليقظة...

حاولتُ أنْ أهبَّ جالساً فشعرتُ بشيءٍ ما يربط يدي ويعيقني عنْ النهوض وداهمتْني آلامٌ حادة في جسدي كلّه... أعادتْني إلى وضع الاضطجاع مرغماً... التفتُّ ببصري إلى اليسار...

فوجدتُ رغد نائمة وهي في وضع الجلوس... ملاصقة لي... وقد استندتْ إلى سريرها وضمَّتْ يدي اليسرى بين يديها...

كان المنبِّه يتوقّف عن الرنين قليلاً ثمَّ يعاود... ولكن رغد لمْ تنتبهْ عليه... ومع هذا... فإنّني ما إنْ سحبتُ يدي حتّى استيقظتْ ورفعتْ رأسها مفزوعة...

التقتْ نظراتنا... أنا المُمدَّدُ على الأرض... بِخوْرٍ قِوىً... وهي الجالسة بقربي بفزع...

«وليد».

كانتْ هي أوّل مَنْ تكلَّم... بلهفة وقلق وهي تنحني نحوي وتحملق بعينيّ...

استخدمتُ يديَّ الاثنتين لأنهض عن وضعي المضطجع... بكل ضعف... كعجوز طاعنٍ في السن... مدقوق العظام مترهِّل البنية... واهن العضلات... كانتْ الآلام تقرص كل أجزاء جسمي قرصاً... وكان أنفي شبه مسدود... بقطع الدم المتخثِّر في جوفه... وكان عنقي يؤلمني بشدَّة... وأنا عاجزٌ عن تحريكه في أي اتِّجاه...

أخيراً أحسستُ بيد رغد تمسك بي... فأرغمتُ عنقي على الالتفات إليها ومددتُ يدي أشدُّ على يدها وقلتُ:

«هل أنتِ بخير؟؟ هل تأذّيتِ صغيرتي؟؟».

ورأيتُ الدموع تتجمّع في مقلتيها بمرارة... فانهرتُ أكثر ممَّا أنا منهار، وأطلقتُ صوتي كالنحيب قائلاً:

«آسف... سامحيني...».

فأي خزيٍ وأي عار... أشدّ مِنْ أنْ يُعتَدى على حرماتكَ بشكلٍ أو بآخر... وأنتَ ترى وتعجز عنْ الدفاع؟؟

طأطأتُ بصري عنها خجلاً... لكنّها اندفعتْ إليَّ كالسهم المصوَّب... إلى القلب...

رنَّ المنبِّه مِنْ جديد... وكان إلى الجانب الآخر مِنَ السرير... فقامتْ رغد وزحفتْ على سريرها إليه وأوقفتْه.

قلتُ:

«كم الساعة؟».

فأجابتْ:

«الثالثة وأربعون دقيقة».

فاضطربتْ دقّات قلبي قلقاً... وأنا أتخيّل سامر...

وقفتُ وأنا استند إلى السرير... ولكنّني سرعان ما أحسستُ بالكون يظلم مِنْ حولي فجلستُ عليه وهويتُ مكبًّا برأسي فوقه...

رغد هتفتْ بفزع وهي تنحني نحوي:

«وليد...».

فأجبتُ:

«دوار... انتظري قليلاً».

وقد كانتْ الغرفة تدور مِنْ حولي... وقلبي يخفق بقوَّة... والهواء لا يكفي لملء صدري... أما يداي فقد كانتا ترتعشان... وما كنتُ قادراً على التحكم بهما...

استمرَّ هذا الشعور بضع دقائق... ثمَّ زال تدريجياً.. ولكنّه عاودني بصورة أخفّ عندما رفعتُ رأسي مِنْ جديد...

أظن... أنني نزفتُ دماً كثيراً... ولهذا أشعر بالدوار والاختناق...

سمعتُ رغد تقول:

«أرجوك ابقَ مضطجعاً».

فالتفتُ إليها بإعياء وقلتُ:

«يجب أنْ ننهض... سامر ينتظرنا».

رغد قالتْ منفعلة:

«أنتَ جريح... لديكَ إصابات كثيرة... لا يمكنكَ التحرُّك».

فقلتُ:

«سامر...».

والتفتُ ناحية الهاتف الثابتْ ورأيتُه مرمياً على الأرض... ثمَّ التفتُ إلى رغد وقلتُ:

«هاتفك».

وكان هاتفها المحمول موضوعاً إلى جانب المنبِّه. ناولتْني إيّاه فاتصلتُ بشقيقي ملهوفاً للاطمئنان عليه...

«نعم رغد».

ردَّ أخي... فقلتُ بصوتٍ هامس:

«هذا أنا وليد... هل أنتَ والعم بخير؟؟».

«نعم. ننتظركما».

واطمأنَّ قلبي على أخي فأنهيتُ المكالمة بسرعة ووضعتُ الهاتف على السرير... ووقفتُ ببطء وحذر... محاولاً الاعتماد على رجليَّ... اللتين كانتا تستصرخان مِنَ الألم... وعندما خطوتُ خطوة واحدة... تفاقم الألم في ظهري وشعرتُ بأنّ فقراته تكاد تتفكّك وتتبعثر...

أطلقتُ أنّة ألم مِنْ أعماق حنجرتي... وتصلّبتُ في مكاني لا أقوى إلا على جذب الأنفاس...

رغد وقفتْ على رجليها... السليمة والمجبّرة... وأمسكتْ بيدي وطلبتْ منّي أنْ أجلس.

«يجب أنْ نذهب يا رغد... لا وقت لدينا».

قلتُ، فردّت معترضة:

«كيف وأنتَ بهذه الحال؟ لماذا لا تخبره بما حصل؟».

فهتفتُ بسرعة:

«كلا... لا».

«ولكن...».

«إنْ علم سامر بما حصل فسوف يأتي... أنا متأكِّد مِنْ أنّهم يراقبون المنزل الآن...».

شهقتْ رغد خوفاً... ثمَّ سألتْ:

«إذن... كيف سنخرج؟؟».

فقلتُ:

«سأتفقّد الأمر».

تلفَّتتْ رغد مِنْ حولها بحثاً عنْ عكازها... وعندما رأتْه... ذهبتْ سائرةً على جبيرتها وتناولتْه... ثمَّ قدمتْ إليَّ وسارتْ ملاصقة لي... نسير ببطء وحذر... إلى أنْ فتحنا الباب وخرجنا مِنَ الغرفة...

كان البيت يخيِّم عليه السكون... استنتجنا أنّه لا أحد في داخله على الأقل... توجّهتُ إلى باب المدخل وأوصدتُه... ثمَّ إلى مشغّل التكييف الرئيسي فأوقفتُه، وعدتُ إلى رغد وقلتُ:

«لا أحد هنا. سيُرفع الأذان الآن... سنخرج بعد الصلاة مباشرة... سأصعد للأعلى وأنظر مِنَ الشرفة».

قالتْ رغد بسرعة:

«ماذا؟؟ كيف ستصعد الدرجات وليد؟؟ أنتَ مُصاب... ولا أريد أنْ أبقى وحدي هنا أرجوك».

«تعالي... سأرافقكِ إلى غرفتكِ. الزميها حتّى آتيكِ».

كانتْ رغد تهز رأسها معترضةً، متوسِّلةً ألاَّ أتركها وحدها... لكنّني كنتُ أريد تفقُّد الشارع مِنَ الشرفة لأتأكّد مِنْ أنَّ الشرطة ليستْ في الجوار...

وعلى هذا أعدتُها كارهةً إلى غرفتها وأقفلتُ عليها الباب وحملتُ المفتاح معي، وتركتُها لتستبدل ملابسها وتصلّي... وصعدتُ الدرج خطوةً خطوةً... أكابد المشقة والألم... أقف تارة وأجلس تارةً... إلى أنْ بلغتُ الطابق العلوي...

لقد كنتُ أسيرُ مستنداً على كلّ شيء... السياج... الجدران... الأثاث... كنتُ مرهقاً جداً... وآلام جسمي تكاد تقتلني...

ذهبتُ إلى الشرفة وألقيتُ بنظرةٍ على الخارج... فرأيتُ الضباب يغمر الأجواء... ويحول دون رؤية شيء...

توجّهتُ بعدها إلى غرفتي... والتي ترك رجال الشرطة بابها مفتوحاً على مصراعيه، كما فعلوا ببقية أبواب غرف المنزل لدى تفتيشهم لها يوم أمس...

كنتُ أريد أنْ استحم وألبس ملابس نظيفة وأؤدي الصلاة... وكم هالني المنظر الفظيع المزري لوجهي حين رأيتُه في المرآة...

أنهيتُ استحمامي وضمَّدتُ ما أمكن مِنْ جروحي على عجل، واضطررتُ لارتداء قبّعة لإخفاء جرح ناصيتي... وبعد الصلاة ذهبتُ لألقي نظرةً مرَّة أخرى مِنَ الشرفة... كان الضباب

كثيفاً... لكنّني سمعتُ أو ربّما توهّمتُ سماع صوت صفّارة سيّارة شرطة يشتدُّ ويقترب...

أصبتُ بالهلع... فهرولتُ مسرعاً نحو الدرج وأنا أهتف:

«رغد».

هبطتُ السلالم بأسرع ما أمكنني... أتعثّر بخطواتي... غير آبهٍ بأوجاع رجلي... شبه متزحلق على قدميَّ... وتوجّهتُ نحو غرفة المعيشة... ومنها أخذتُ الحقيبة اليدوية الحاوية للنقود والحاجيات الأخرى... وكذلك هاتفي وهرولتُ إلى غرفة رغد...

لمْ أطرق الباب.. بل هتفتُ باسمها وأنا أدخل المفتاح في ثقبه وأقبض على المقبض ثمّ أديره وأدفع بالباب بسرعة وأندفع إلى الداخل...

كانتْ رغد تلبس رداء الصلاة... وتجلس على الكرسي في اتجاه القبلة... وفي يدها مسبحة... فهي بطبيعة الحال لمْ تكنْ تستطيع السجود على الأرض بسبب الجبيرة...

«رغد... هيّا بسرعة... أظنّهم عائدون».

قلتُ هذا وأنا أندفع نحوها بسرعة... وأمسك بيدها وأحثّها على النهوض...

وقفتْ رغد على رجليها والهلع يجتاحها... وقالتْ بفزع:

«ماذا؟؟».

«الشرطة قادمة... لنخرج بسرعة».

- رغد -

أشرتُ إلى عكّازي المرمي على الأرض وهتفتُ:

«عكّازي».

فانحنى وليد وناولني إيّاه وهو يقول:

«بسرعة... بسرعة...».

ارتديتُ خُفّي المنزلي والذي كنتُ قد خلعتُه قبل الصلاة وتركتُه بجواري، ثمّ سرتُ خطوتين في الاتجاه المعاكس... نحو عباءتي... فسأل وليد:

«إلى أين؟؟».

قلتُ مشيرة إلى الشمّاعة:

«عباءتي».

فأسرع هو إليها وجذبها والوشاح مِنْ على الشمّاعة... وأقبل نحوي وناولني إياهما... أخذتُهما على عجل ومِنْ شدّة ارتباكي أوقعتُ عكازي أرضاً... وحاولتُ ارتدائهما فوق حجابي كيفما اتّفق، وفي ذات اللحظة... سمعنا صوت صفّارة سيّارة شرطة يزعق مِنْ خارج المنزل...

هنا.. لمْ أشعر إلا برجلي تطير فجأةً عنْ الأرض... وإذا بوليد يهرول نحو المخرج الخلفي للمنزل... حيث المرآب... وهو يحملني... على كتفه...

«عكّازي!!».

هتفتُ ونحن نبتعد... لكنَّ وليد لمْ يستجِب... وسار منحني الظهر مترنّحاً يوشك على الوقوع بي، حتَّى وصلنا إلى الباب الخلفي فخرجنا وأقفله بسرعة وكاد ينزلق وهو يهبط العتبات...

أنزلني عند باب السيارة، بل كاد يرميني، ثمَّ فتح الباب ودفع بي إلى الداخل وأغلقه وجزءٌ مِنْ ذيل عباءتي وطرف وشاحي يتدلّيان إلى الخارج...

ثمَّ توجَّه بسرعة إلى الباب الآخر... وهو لا يزال محدودب الظهر مترنِّح الخطى... ففتحه ورمى بحقيبةٍ كان يحملها إلى الداخل، وقفز على المقعد وشغَّل السيارة وفتح بوابة المرآب واندفع خارجاً بالسيارة بسرعة...

كل هذا في ثوانٍ لمْ تكن كافية لأنْ أستوعب ما يجري...

وفوق ما أنا فيه فوجئتُ بأنَّ الجو كان مغطّى بضبابٍ كثيفٍ جداً... لمْ أكن معه أستطيع رؤية شيء في الشارع...

استمرَّ وليد بالقيادة بسرعةٍ لا تتناسب والضباب الكثيف... كان ينعطف يميناً ويساراً فجأة كلَّما ظهر شيء في طريقنا ولولا لطف مِنَ الله لانتهى المطاف بنا إلى حادثٍ فظيع...

عندما ابتعدنا عنْ قلب المدينة إلى الشارع البرِّي قال لي:

«اتصلي بسامر».

فقلتُ:

«هاتفي بقي في المنزل».

فأشار إلى الحقيبة التي جلبها معه وقال:

«هاتفي هنا».

فتحتُ الحقيبة فوجدتُ فيها مجموعة مِنَ الأوراق... وجوازات سفر... وتذاكر رحلات جوية... ورُزَم مِنَ الأوراق المالية...

ووجدتُ كذلك الهاتف...

كان على الشاشة ثلاث اتصالات فائتة، كلَّها كانتْ مِنْ سامر.

اتّصلتُ به وما إنْ ردَّ حتَّى سحب وليد الهاتف منِّي وخاطب سامر قائلاً:

«نحنُ في الطريق إليكَ... ابقَ مختبئاً على مقربةٍ مِنَ البوابة وسلاحكَ في يدك... سأتّصل حين نصل».

ثمَّ قال:

«لا أعرف فالضباب شديد ولا أستطيع أنْ أسرع أكثر مِنْ ذلك...».

وأنهى مكالمته ثمَّ التفتَ إليَّ وسأل:

«هل أنتِ بخير؟؟».

كنتُ أحاول أنْ أسحب عباءتي العالقة تحت الباب دون جدوى، خفَّف وليد السرعة وقال:

«افتحي الباب».

فتحتُه وسحبتُها أخيراً... ولففتُ وشاحي حول رأسي.

لمْ تكنْ الشمس قد أشرقتْ بعد... والشارع يخيِّم عليه الهدوء... ووصلنا إلى جزءٍ وعرٍ منه ارتجّتْ السيارة أيّما ارتجاج وهي تعبره...

كنتُ أحاول النظر إلى الخلف خشية أنْ تكون سيارات الشرطة في تعقّبنا، لكن الرؤية كانتْ مستحيلة ولمْ أسمع أي صفّارة...

وصلنا بعد ذلك إلى المخبأ الذي كان سامر وعمّي أبو حسام يحتميان فيه. أوقف وليد السيارة وتناول الهاتف واتصل بسامر وقال:

«السيارة أمام البوابة... تعال فوراً».

ومِنْ بين الضباب رأيتُ سامر وأبا حسام يظهران أمامنا...

سامر فتح الباب الخلفي وركب السيارة بسرعة... وأبو حسام أقبل نحو النافذة إلى جانب وليد وهو يهتف:

«انطلقوا على بركة الله».

وليد قال وهو يدوس على كابح السيّارة:

«أشكركَ يا عم... لنْ أنسى صنيعكَ هذا».

فأشار أبو حسام وهو يهتف:

«اذهبوا هيّا... عين الله ترعاكم».

وانطلق وليد بالسيارة وأبو حسام يلوّح لنا وهو يقول:

«انتبهوا لأنفسكم يا أولادي... اتّصلوا وطمئنوني عليكم... في أمان الله».

وكما ظهر مِنْ وسط الضباب، اختفى وسط الضباب...

وليد التفت إلى سامر الجالس إلى الوراء وسأل:

«هل أنتَ بخير؟؟».

فردّ سامر مندهشاً:

«ماذا جرى لوجهكَ وليد؟؟».

فاستدار وليد إلى الأمام وركّز النظر في الطريق. عندها التفتُ أنا إلى سامر ونطقتُ:

«هاجمونا وضربوه حدَّ الموت... العساكر الوحوش...».

ذُهِل سامر وحدّق بي ثمَّ بوليد بأوسع عينين...

فتابعتُ:

«ماذا كنّا سنفعل لو أنّهم قتلوه؟؟ ماذا كان سيحدث لو أنّهم أطلقوا الرصاصة على رأسه كما كانوا يعزمون؟؟».

وسمعتُ صوت وليد يناديني زاجراً:

«رغد».

فالتفتُّ إليه ورأيتُ في عينيه نظرة انزعاج... فقلتُ وأنا أمسك بطرف وشاحي في يدي وأقول:

«أَيُرضي أحداً ما أنا فيه؟؟ ما الذي فعلتُه لأمرّ بكل هذا؟؟ إلى متى سأعيش هذا التشرُّد والفزع؟؟ أنا تعبت... تعبت...!».

وطأطأتُ رأسي ودفنته بين ثنايا الوشاح وجعلتُ أبكي...

حلّ صمتٌ طويل علينا... وانشغل كلٌّ منا بأفكاره الخاصة... إلى أنْ أحسستُ بسرعة السيارة تخفُّ تدريجياً... ثمَّ تتوقّف.

نظرتُ إلى وليد فرأيتُه ملتفتاً إلى سامر يخاطبه قائلاً:

«تولَّ القيادة... أنا مرهق».

ثمّ سمعتُ صوت الباب الخلفي ينفتح وينزل سامر. التفتَ وليد إليَّ وقال:

«اذهبي للخلف».

وخرجنا جميعاً مِنَ السيارة لتبديل مقاعدنا. وقبل أنْ يركبا، منحاني فُرصةً لنزع حجاب الصلاة الأبيض وارتداء الوشاح والعباءة الأسودين. كنتُ أُلقي بنظرة عليهما... وأرى وليد يقف محني الظهر... مستنداً إلى السيارة... والتعب جليٌّ عليه. أخذتُ أراقبه عبر زجاج النافذة دون أنْ ينتبه... وعندما ركب السيارة بادرتُ بسؤاله:

«هل أنتَ بخير وليد؟؟».

فأجاب وهو يسند رأسه إلى مسند المقعد:

«سأكون كذلك».

وسمعتُ سامر يقول:

«أنا آسف يا أخي».

فيردُّ وليد:

«لا عليكَ... انطلق بسرعة... يجب أنْ نصل في الموعد المحدَّد».

سار سامر بسرعة أبطأ مِنْ سرعة وليد... وعلَّل ذلك بعدم اتضاح الرؤية أمامه. وبعد فترة بدأ الضباب ينقشع حتى زال تماماً، قبل أنْ نصل إلى الحدود.

أظنّ أنَّ وليد قد غفا لبعض الوقت مِنْ شدّة إعيائه. وعندما اقتربنا مِنْ أوّل نقاط التفتيش عند الحدود سمعتُ سامر يخاطبه قائلاً:

«وليد... وصلنا».

وكان صوت سامر مغلَّفاً بالخوف والقلق. وليد تحرّك في مقعده ثمَّ أخذ يستخرج بعض الأوراق مِنْ جيوب سيارته فيما قلوبنا تخفق بشدَّة وأعيننا مفتوحةٌ أوسعها متربِّصة بأي شخصٍ يظهر في الصورة...

تناول وليد حقيبته اليدوية واستخرج الجوازات، ووثائق أخرى، وخاطب سامر بينما كان يوقِف السيارة:

«أنا سأنزل لإتمام الإجراءات المطلوبة. وأنتَ ابقَ ملازماً رغد. إياكَ والخروج لأي سبب. وإذا ما واجهتُ مشكلةً لا قدَّر الله... فسأعطيكَ إشارة... وانطلق بالسيارة بأقصى سرعة ولا تأبه لشيء».

حملقنا في وليد بذعر ونحن نزدرد ريقنا متوجّسَيْن خيفة... قال سامر:

«ماذا؟؟».

فقال وليد:

«افعل ما قلتُه لك. إذا أحسستُ بالخطر فسأعطيكَ إشارةً للهرب... وإنْ اعترضكَ أي شيءٍ فاقتله... وأنا سأتكفَّل بالباقي».

ولمْ يتركْ لنا الموظَّف فرصةً للذهول، إذْ أنّه لوَّح بيده مشيراً إلينا، فنزل وليد مِنَ السيارة. وقبل أنْ ينصرف قرَّب وجهه مِنَ النافذة وهو يقول:

«لا تنسَ ذلك».

وألقى عليَّ نظرةً، ثمَّ ذهب إلى الموظَّف.

أخذتْ الوساوس تتلاقفني يميناً ويساراً... وأخذتُ أتضرَّع إلى الله مِنْ أعماق قلبي وبكل إلحاح... أنْ يسهِّل الأمر علينا ويخرجنا معاً مِنْ دائرة الخطر سالمين...

رأيتُ سامر يمسك بشيء بين يديه سرعان ما تبيَّن لي أنّه مسدَّس... فتفاقم الفزع في نفسي وكدتُ أخرُّ مغشيّة مِنْ شدّة الخوف...

مرّتْ الدقائق التالية كالقرون... ونحنُ ننتظر عودة وليد وأعيننا محملقةٌ عبر النوافذ في الاتجاه الذي سار فيه. وبعد هول الانتظار ظهر وليد أخيراً يقدم نحونا يحفُّه اثنان مِنْ رجال الأمن، يرتدون زياً عسكرياً. لدى رؤيتي لهم انفجر قلبي بقنبلة مِنَ النبضات الصارخة المدوية... كنتُ أشعر بها تصطدم بأسفل قدميَّ وربَّما تهزُّ السيارة...

سامر بسرعة خبَّأ مسدَّسه تحتَ مقعده وتظاهر بأنّه يستخرج أحد الأقراص المدمجة، وشغَّل المسجِّل... وأذكر أنَّ القرص كان يحوي ابتهالاً خاشِعاً... كان وليد كثيراً ما يشغِّله أثناء مشاوير ذهابي وإيابي مِنَ الجامعة برفقة مَرَح.

وصل وليد ورجلا الأمن، وأشار أحدهما إلى سامر بأنْ يفتح حقيبة السيارة الخلفية... بينما طلب الآخر مِنه أنْ يفتح النافذة... وعندما فتحها ألقى بنظرة علينا ثمَّ على جوازات السفر التي كانتْ في يده... وطلبَ مِنْ سامر أنْ يُبرز بعض الوثائق الخاصة بالسيارة... ثمَّ انصرف... وتبعه الرجل الآخر...

وليد اقترب مِنَ النافذة فتشبّثتْ به أعيننا، قال:

«سأنهي الإجراءات وأعود... تسير الأمور بشكل جيِّد».

فجذبتُ نفساً عميقاً... علَّ ذلك يهدِّئ مِنْ سرعة خفقان قلبي ولو الشيء القليل...

وانصرف وليد، ثمَّ عاد بعد قليل... وركب السيارة وقال:

«انطلق».

لمْ نصدِّق آذاننا لا أنا ولا سامر... لذا... بقينا متسمِّرين... ولمْ تتحرّك السيارة... فنظر وليد إلى سامر وقال:

«هيا».

فسأل سامر:

«انتهى كل شيء؟؟».

فأجاب وليد:

«ليس بعد... لكنّنا تخطينا أوّل العقبات...».

وجملته الأخيرة أجهضتْ بذرة الطمأنينة التي ما كادتْ تنبت في قلبي...

وتجاوزنا عقبتين أخريين، وخرجنا مِنْ حدود بلدنا... ودخلنا حدود البلدة المجاورة... وهناك طلبَ منّا رجال الأمن الخروج مِنَ السيارة لتفتيشها...

تبادل وليد وسامر نظرةً وإنْ خفيتْ عنْ رجال الأمن فهي لمْ تخفَ عنّي. سامر حاول إنْ يستخرج المسدّس متظاهراً بأنّه يعدِّل مِنْ وضعيَّة مقعده... غير أنَّ يده لمْ تطله. ربّما فهم وليد حركة سامر... وكان رجال الأمن مِنْ حولنا... فأطلَّ وليد عبر نافذته وقال:

«الفتاةُ لا تستطيع النهوض إذ أنَّ رجلها مجبّرة».

في محاولة للإفلات مِنَ التفتيش، غير أنَّ أحد رجال الأمن قال:

«فليساعدها أحدكما على ذلك».

ولمْ يجدْ وليد بُداً مِنْ أنْ يلتفتَ إليَّ ويقول:

«سأساعدكِ».

وكانتْ عيناه مضطربتين وقطرة مِنَ العرق سالتْ على جبينه نصف المخبّأ تحت قبّعته.

خرج وليد مِنَ السيارة وفتح الباب المجاور لي ومدَّ يديه... وعندما خرجتُ مِنَ السيارة ووقفتُ على رجليَّ، راح يلتفتُ يميناً وشمالاً بحثاً عنْ مقعد. ووجدنا مقاعد حجرية على بعد بضعة أمتار فقال:

«سأرفعكِ».

ثمَّ التفتَ إلى سامر وقال:

«تعال معنا».

ولكنَّ وليد وبعد أنْ سار بي خطوتين لا غير أحسَّ بالتعب وهتف:

«أخي».

وسرعان ما رأيتُ ذراعَيْ سامر تمتدُّ وتحملني...

وصلنا إلى المقاعد فأجلسني سامر على أحدها وجلس وليد قربي مباشرة... وسمعناه يتنفَّس بقوّة...

سامر سأل:

«أأنتَ على ما يُرام؟؟».

فأومأ وليد بنعم وإنْ كان مظهره يُثبِتْ عكس ذلك... وأرسل أنظاره إلى رجال الأمن وهم يفتّشون السيارة...

جلس سامر إلى الجانب الآخر منّي وإذا بوليد يسأل:

«أهو معكَ؟؟».

فيجيب سامر:

«في السيارة».

فيردُّ وليد:

«تباً! أينَ تركتَه؟؟».

فيجيب سامر:

«تحت المقعد... لنْ يصعب عليهم العثور عليه».

فيقول وليد:

«أحمق... لماذا لمْ تخبّئه جيداً أو حتّى ترمي به مِنَ النافذة قبل وصولنا إلى هنا».

فيقول سامر:

«ألستَ مَنْ طلبَ منّي إحضاره معي؟؟ لمْ يتّسع المجال للتخلّص منه».

فيعقّب وليد:

«سيورّطنا هذا المشؤوم... تباً... مِنْ أينَ حصلتَ على مصيبةٍ كهذه؟».

وما كاد ينهي جملته حتّى رأينا رجال الأمن يكتشفون وجود سلاحٍ مخبّأ في قلب السيارة...

اشرأبتْ أعناقنا وجحظتْ أعيننا وجفّتْ حلوقنا... ونحن نرى أحدَ رجال الأمن يقبل نحونا قابضاً على السلاح بمنديل... كان ابنا عمّي جالسين إلى جانبيّ وحين اقترب رجل الأمن وقفا واقتربا مِنْ بعضهما وسدّا المرأى مِنْ أمامي... وسمعتُ صوت وليد يهمس:

«دعني أتصرّف. لا تتفوّه بشيء. لازم رغد».

ثمَّ سمعتُ صوت رجل الأمن وقد صار على مقربة يسأل:

«لمَنْ هذا الشيء؟؟».

مرّتْ لحظةٌ صامتةٌ حسبتُ فيها أنّني قد فقدتُ السمع مِنْ طولها، ثمَّ إذا بي أسمع:

«إنه... لي».

أتدرون صوت مَنْ كان؟؟

صوت وليد...

أو ربّما... توهّمتُ ذلك... إذ أنني مع هوسي بوليد... وفي حالي هذه التي لا مثيل لها... أصبحتُ أتوهّم كل شيء...

عاد صوت رجل الأمن يسأل:

«هل لديكَ تصريحٌ رسمي بحمله وإدخاله إلى هنا؟؟».

«لمْ أجلبْ معي التصريح».

هذا صوت وليد... أنا واثقة مِنْ أنّه صوت وليد... لا يمكنني أنْ أخطئه... وليد قلبي!

«تعال معي لو سمحتَ».

قال ذلك رجل الأمن، ثمَّ رأيتُ وليد يبتعد عنّي خطوةً، ثمَّ يلتفتُ إلى سامر ويقول:

«ابقَ مع رغد. إيّاكَ أنْ تبتعِد عنها لأي سببٍ مهما كان».

فيردُّ سامر:

«وليد! ما الذي...».

ويقاطعه وليد قائلاً:

«لازِم الصمت. فقط ضعْ الفتاةَ نصب عينيك... أتفهمني؟».

ومال وليد بجسده قليلاً لينظر إليّ... ولمْ أستطع لحظتها حتّى أنْ أتأوّه... ورأيتُه يبتعد خطوةً بعد خطوة... إلى أنْ توارى عنْ أنظاري...

حينها فقط أطلقتُ صيحة مكبوتة:

«وليد!!».

ومددتُ يدي إلى الأمام محاولة الإمساك بظلّه... لكنّه تلاشى...

مرّتْ نحو ساعة... ونحن عند المقاعد، أنا جالسة... وسامر يجلس تارةً ويقف أخرى... في توتّر فظيع...

بعد ذلك... أقبل إلينا أحد رجال الأمن وطلب منّا مرافقته.

سأل سامر:

«أين شقيقي؟؟».

فأجاب الرجل:

«سيُحوّل إلى لجنة التحقيق».

فزعتُ وشهقتُ رغماً عنّي... نظر الاثنان إليّ ثمَّ إلى بعضهما البعض... وقال سامر:

«تحقيق؟؟».

فأجاب رجل الأمن:

«نعم. فهو يحمل سلاحاً ويعبر به الحدود دون ترخيص».

قال سامر:

«ماذا ستفعلون به؟؟».

أجاب:

«سيخضع للتحقيق... لا أعرف تحديداً. المهم... هل لا رافقتماني الآن؟؟».

سأل سامر:

«نرافقكَ إلى أين؟؟».

فأجاب:

«للتفتيش الشخصي أولاً، وبعد التفتيش، سننقلكما إلى أقرب نقطة بعد الحدود ومِنْ

هناك تابعا طريقكما إلى المدينة في سيارة أجرة إذ أنّنا سنحتجز سيارتكم عندنا لحين انتهاء التحقيق وإجراء اللازم».

التفتَ سامر إليَّ... وكان وجهه مكفهراً محتقناً بالدماء... ولمْ يقل شيئاً. أمّا أنا فقلتُ وأنا أحرّك رأسي اعتراضاً وتهديداً:

«أنا لنْ أبرحَ مكاني حتّى يعود وليد».

فهِمَ سامر قصدي، وخاطب رجل الأمن سائلاً:

«أين شقيقي الآن؟ أريد أنْ أراه».

فأشار الرجل بيده إلى المبنى الذي اختفى وليد خلف جدرانه، فقال سامر:

«هل لا أخذتَني إليهِ مِنْ فضلكَ؟...».

فقال الرجل:

«لا بأس، تفضَّل».

عندها مددتُ يدي وأمسكتُ بمعطف سامر... أذكِّره بأنني هنا. التفتَ سامر إليَّ ثمَّ إلى الرجل وسأله:

«هل لديكم كرسي متحرِّك؟ الفتاة لا تستطيع المشي».

فردّ الرجل:

«لا، للأسف».

وعندما نظر سامر إليَّ أعدتُ أقول:

«أنا لنْ أتحرَّك مِنْ مكاني قبل مجيء وليد».

فقال:

«دعيني أقابله وأعرف ما فعل...».

واستخرج هاتفه مِنْ جيبه واتّصل بوليد... فسمعنا صوت رنين هاتف على مقربة وعندما التفتْنا نحو الصوت رأينا وليد يظهر وبرفقته شرطي، يسيران متقدِّمين إلينا...

وقفتُ مِن شدَّة هلعي على رجليّ... وكنتُ أرتدي خفاً منزلياً على قدمي اليمنى، بينما الأخرى مجبّرة... وأحسستُ بحرارة الأرض تتخلخل خفِّي وتلهِب قدمي. حينما صار وليد أمامنا راح ينقل بصره بيننا ثمّ قال:

«اذهبا مع رجال الأمن. سيوصلونكما إلى أطراف المدينة. وبعد ذلك استغلاً أي سيارة أجرة واتّجها إلى المطار. التذاكر وكل ما تحتاجانه في حقيبتي اليدوية».

فقلنا معاً:

«وأنتَ؟؟».

فقال بصوتٍ خافتْ لا يتعدّى بُعدنا:

«سأسوِّي المسألة هنا وألحق بكما».

أنا قلتُ مندفعة:

«لنْ نذهبَ لأي مكانٍ مِنْ دونكَ».

فأومأ لي وليد بنظرةٍ مِن عينيه ثمَّ قال:

«لا وقتَ لنضيعه في الكلام. الطائرة ستقلع بعد ساعتين. يجب أنْ تُدركاها وترحلا بسلام».

ثمَّ أخفتَ صوته وقال:

«أي تأخيرٍ سيبقيه في دائرة الخطر... عجِّلا».

هتفتُ:

«ولكن».

فقاطعني زاجراً:

«بدون لكن... أتفهمين؟؟».

وحدَّق بي لثوانٍ... بنظرةٍ زاجرة حادّة، ثمَّ التفتَ إلى سامر وقال:

«انتبها لنفسيكما جيِّداً...».

ونطق سامر بنبرةٍ حزينةٍ توشك على البكاء:

«أخي...».

فرفع وليد يديه وحطَّ بهما على كتفي سامر... كأنّه يستند عليه، لا يسانده.. ثمَّ تنهَّد تنهيدة ألمٍ مريرة... ربَّما لأنَّ ذراعه شبه مخلوعة جريحة... أو ربَّما لشدَّة صعوبة المأزق الذي كنا فيه... قطب حاجبيه ثمَّ أرخاهما وقال:

«اهتمّ برغد... إنها أمانتكَ أنتَ الآن...».

ثمَّ نقل بصره فيما بيننا وقال أخيراً:

«في أمان الله».

لا أذكر... تفاصيل ما حدث بعد ذلك... لا أذكر... إلا وأنا في سيَّارة... أنظر عبر زجاج النافذة... ووليد في الخارج... يقف بين رجال الأمن... يلوِّح لي... والسيارة تبتعد... وتبتعد... وتبتعد... ويتلاشى وليد... كما يتلاشى السراب...

فجأةً... بين عشيَّةٍ وضحاها... بل بين لحظة واللحظة التي تليها... تحوَّلتْ حياتي إلى شيء خالٍ مِنْ وليد!

يختفي مِنْ حياتي فيما أنا أراقبه عبر زجاج النافذة... وهو يبتعد... دون أنْ أملك القدرة على فعل شيء...

ابتعدتْ السيارة كثيراً... وعيني لا تزال تحدِّق عبر النافذة... تفتِّش عنه!...

وصورته الأخيرة... وهو يلوِّح لي بيده... مودِّعاً... هي الصورة الأكثر إيلاماً... التي اختزنتُها محفورةً في ذاكرتي... كأقسى لقطةِ وداعٍ فرّقتْني عن وليد قلبي... مِنْ بين كل لحظات الفراق الأخرى في حياتي... على الإطلاق...

أصابتْني حالة تيه... أضعتُ القدرة على النطق... القدرة على التفكير... القدرة على التصرّف... وانقدتُ لما كان سامر يطلبه منِّي دون أنْ أعرف ما هو...

لمْ استفق مِنْ حالة التيه تلك... إلا عندما وجدتُ نفسي أهبط مِنَ الطائرة إلى مطار الوصول... وأفتِّش عن وليد بين المسافرين... ثمَّ لا أجده...

رأيتُ كل الناس... كل الأجناس... مِنْ كل العالم... كل البشر الذين خلقهم الله... كلّهم مِنْ حولي... إلا وليد!

لمْ أرَ منه إلا لقطةً أخيرة... وهو يلوِّح لي مودِّعاً... وعيناي تشيِّعانه... عبر زجاج النافذة...

لمْ أشعر بنفسي إلا وأنا أصرخ في المطار كالمجنونة:

«وليـــــد».

الحلقة الخمسون

الجزء الثاني

- أروى -

تلقيتُ مكالمةً مِنَ المحامي يونس المنذر الذي يعمل مع وليد في المصنع، يسألني فيه عنْ وليد، ثمَّ يبلغني بأنّه لمْ يحضرْ إلى المكتب منذ يومين، أي منذ السبت، وأنّه تعذَّر عليه الاتصال به!

وأبلغني أيضاً... بأنَّ ابنة أخيه والتي تدرس مع رغد في الجامعة أكَّدتْ أنَّ رغد كانتْ قد عاودتْ الحضور إلى الجامعة لبضعة أيام، ثمَّ تغيّبتْ أيضاً منذ السبت وفُقِدَ الاتصال بها.

وبعد يومٍ آخر عاود الاتصال بي وسألني ما إذا كنتُ أعرف رقم هاتف سامر شقيق زوجي، فأجبتُه بالنفي. لمْ يكنْ وليد قد أطلعني على خبر انضمام شقيقه للعمل معه. وأبلغني المحامي بهذا وبأنَّه منقطعٌ عن العمل منذ أيَّام، هو الآخر. كما أبلغني بأنَّهم حاولوا الاتِّصال مراراً بوليد عبر هاتفه المحمول وعبر هاتف المنزل وحتَّى هاتف رغد ودون جدوى، وأنّهم زاروا منزل وليد أكثر مِنْ مرَّة في أوقات مختلفة وما مِنْ أحد...

أشعرني ذلك بقلقٍ شديد وحاولتُ الاتصال به بنفسي ولمْ أفلحْ. كان خالي قد كلَّمه آخر مرَّة يوم الخميس... وحسب قول خالي، كان وليد متوتِّراً وقال أنَّه مشغولٌ وقطع المكالمة فجأة. تفاقم القلق في نفسي كثيراً، وبلغ ذروته حين أخبرني المحامي في اتصال لاحقٍ بأنّه لاحظ اختفاء مبالغ كبيرة مِنْ رصيد وليد الخاص، ورصيد المصنع.

وتغيَّر مجرى قلقي ومخاوفي حين علمنا بعد ذلك أنّه سافر!

كان أبو فادي صديق وليد هو مَنْ أبلغنا بهذا الخبر وأكَّدتْه عائلة أمّ حسام؛ خالة رغد. قالوا أنّهم علِموا أنّه سافر مع أخيه وابنة عمِّه إلى الخارج لأمرٍ طارئ، لكنّهم قالوا أنّهم يجهلون التفاصيل.

كنتُ أنتظر مِنْ وليد الحضور إليّ مِنْ أجل إعادة النظر في مشكلتنا الخاصة والتي هي أكبر وأهم مِنْ أنْ يماطل في حلِّها... والتي امتدَّتْ لشهور... فكيف تتوقَّعون منِّي أنْ أفكِّر لدى علمي بأنّه قد تركني فيما أنا فيه، وسافر مع عائلته؟؟ ودون أي كلمة؟؟ وكأنّني شيءٌ جانبيٌّ في حياته أو على الهامش...

تفاقم إحساسي بالغيظ وخيبة الأمل مِنْ وليد... وفاق إحساسي السابق بالقلق... فتوقّفتُ عن محاولات الاتصال به، وصمّمتُ على ألاَّ أكلِّمه حتّى أقابله وجهاً لوجه... المقابلة الحاسمة...

- سامر -

اللقاء بدانة كان حميماً ومُلتهباً جداً... امتزجتْ فيه دموع الشوق بدموع الذكريات الأليمة... بدموع القلق... لكنَّ أكثر الدموع طغياناً كانتْ تلك التي فجَّرتها رغد حزناً وخوفاً على وليد. سقتْني كؤوس القلق والندم جرعةً جرعة على مدى الفترة المفجعة التي تلتْ وصولنا إلى هذه البلد.

فقدنا الاتصال بوليد... حتّى أنّنا لمْ نطمئن عليه، ولمْ نُطمئِنْهُ إلى أنّنا وصلنا بسلام. وما فتِئنا نحاول الاتِّصال به بكل الأرقام وفي كل الأماكن الممكنة دون جدوى. لمْ نعرفْ إنْ كان لا يزال في البلدة المجاورة لوطننا أمْ أنَّهم قد رحَّلوه إلى بلدنا... أمْ إلى مكانٍ آخر... وإنْ كان في قبضة الشرطة أمْ إنّهم قد أخلوا سبيله...

اتصلنا بالمنزل والمزرعة والمصنع... بلا جدوى... وتولَّى عمِّي أبو حسام مهمَّة تقصِّي أخباره في الوطن واستخدم كل الطرق، دون نتيجة حتَّى الآن.

أخشى ما كنَّا نخشاه... هو أنْ تكون السلطات قد زجَّتْ به في السجن أو فعلتْ به شيئاً... وأنا لنْ أسامحَ نفسي أبداً على ما قد يكون شقيقي قد تعرَّض إليه بسببي.

وليد قدَّم مِنْ أجلي تضحيةً كبيرة. ضحَّى بنفسه مِنْ أجل إنقاذي وفضَّلني على نفسه، وتحمَّل وزري نيابةً عنّي...

أنا أيضاً... مستعدٌّ الآن لأنْ أضحِّي بكل شيء... مِنْ أجل ظهوره وعودته إلينا سالماً.

أقمنا في منزل دانة وعائلتها. وهو منزلٌ كبيرٌ مؤلَّفٌ مِنْ عدَّة أجنحة، كان يسكنه أميرٌ أو ما شابَهَ قبل أنْ يشتريه نوّار؛ زوج دانة... لاعب الكرة الشهير... والمليونير...

نوّار وعائلته رحَّبوا بنا وخصَّصوا لنا غُرَفتَي نوم في أحد الأجنحة وضيَّفونا بسخاء. واعتمدتُ على النقود التي تركها وليد في حقيبته لشراء الضروريات.

آه أجل...

لا بد وأنّكم تتساءلون عنْ رغد... وما حلَّ بها بعد وليد...

أوّل ليلة قضتْها في هذا المكان كانتْ أفظع مِنَ الوصف. كانتْ في حالة ذعرٍ متواصل، واضطرَّتْ دانة للمبيت إلى جانبها في الغرفة. كانتْ تصف لنا كيف هاجم رجال المباحث وليد وأوشكوا على قتله... وكانتْ تعتقد بأنّه الآن في قبضتهم وأنّهم سيقتلونه... كانتْ ستموت بهذا الاعتقاد، فاضطررتُ لأنْ أتّفق مع عمِّي أبي حسام على أنْ يخبرها بأنَّ وليد بخير ولا يزال محبوساً تحت التحقيق وأنّه سيلحق بنا فور خروجه. ارتابتْ في صدق كلام أبي حسام بادئ الأمر، غير أنها صدَّقته في النهاية حتَّى ولو مِنْ باب التعلُّق ببصيص الأمل...

صرنا نتحاشى ذكر اسمه على مسمعها خشيةَ أنْ تفلتَ الحقيقة مِنْ ألسنتنا سهواً، فتعود للهستيريا المَرَضيّة تلك. وبقينا نتظاهر بالاطمئنان والتفاؤل فيما أفئدتنا يمزِّقها القلق. والبحث والاتصالات جاريةٌ ساعةً بعد ساعة ويوماً بعد يوم...

يوم أمس ذهبنا برغد إلى المستشفى وتمَّ نزع جبيرتها، وصار بمقدورها السير على رجلها بحرية، لكن بعض العرج يرافق خطواتها. أوصاها الطبيب بممارسة تمارين معيَّنة للتغلُّب عليه.

«أُنظُر سامر... هل هكذا زاوية أنفه؟... ألا تبدو أقلّ حِدَّة؟؟».

تسألني وهي جالسةٌ على سريرها، أمام لوحةٍ جديدةٍ ترسمها لوليد في كرّاستها بقلمها الرصاصي... لوحة له وهو يلوِّح بيده... ترسمها وتقارنها بصورته...

كانتْ الساعة الثامنة مِنْ ليلة الأربعاء، خامس ليلة نقضيها خارج الوطن. هكذا قضِتْ رغد ساعات اليوم... تعيد وتكرِّر رسم وجوه أُمّي وأبي ووليد في كراستها... مِنَ الصُوَر الفوتوغرافية التي كانتْ بحوزة دانة... الصُوَر التي تمَّ التقاطها لنا ليلة زواجها... وأخرى التُقِطتْ لوالديَّ الراحلين... عندما ذهب العريسان لزيارتهما قبل هجرتهما إلى هذه البلدة...

أجبتُ:

«ألمْ تتعبي؟ أريحي نفسكِ... لا تزالين في فترة النقاهة».

قالتْ وهي محملقةٌ في اللوحة دون أنْ تعيرَ كلامي انتباهاً:

«لا...! لمْ أُتقِنْ رسم الأنف...».

وإذا بها تنْزَع الورقة التي قضتْ وقتاً في رسمها وتضعها جانباً... وتفتح صفحةً بيضاء جديدة استعداداً للرسم مِنْ جديد...

سحبتُ الكراسة ووضعتُها جانباً... ونظرتُ إلى رغد بحزم... فنظرتْ إليَّ وهي تعبس بانزعاج... قلتُ لها:

«يكفي يا رغد... إلى متى ستظلّين ترسمين هكذا؟!».

فتبدّلتْ تعبيرات وجهها ثمَّ قالتْ:

«إلى أنْ... تظهرَ الأصول... ولا أحتاج إلى صُوَر».

ثمَّ رمتْ بالقلم جانباً، وأكبّت بوجهها على وسادتها أخذتْ تبكي. التفتُّ إلى دانة والتي كانتْ تجلس على المقعد أمام المرآة تتابعنا مِنْ خلالها وهززتُ رأسي أسفاً وحزناً على حال رغد.

هممتُ بالاقتراب منها والتحدُّث إليها، غير أنَّ دانة أشارتْ إليَّ بألاَّ أفعل... فلذتُ بالصمت وبقيتُ أسمع صوت نحيبها المرير. وقامتْ دانة فاقتربتْ منها وحاولتْ تشجيعها ببعض الكلمات، فخرجتُ مِنَ الغرفة ووقفتُ قرب الباب بين رغبتين متعارضتين في البقاء إلى جوارها والابتعاد عنها.

وبعد قليل رأيتُ دانة تخرج مِنْ غرفة رغد وتغلق الباب مِنْ بَعدِها... وتنظر إليَّ والحزن يطلي وجهها بلون رمادي معتم، فسألتُها:

«ماذا قالتْ؟؟».

فأجابتْني بحزن بليغ:

«سألتْني إنْ كنتُ أملك أيضاً... صورة لوالديها الحقيقيين... عمِّي ياسر وزوجته... رحمهما الله!».

ولمْ يكنْ قد سبق لرغد وأنْ طلبتْ شيئاً كهذا، ولمْ تكنْ تبوح بحنينها لوالديها أو تعبِّر عنْ أي مشاعرٍ تكنُّها لهما... منذ كانتْ طفلةً صغيرة. على الأقل هذا ما اعتقده...

أضافتْ دانة بأسى:

«لو أنّنا فقط نعلم أينَ وليد الآن... وإنْ كان بخير... آه... إلى متى سنظل نجهل مصيره؟؟».

أشرتُ إليها أنْ تخفِض صوتها... لئلاً يصل إلى مسامع رغد وصمتُّ لبرهة ثمَّ قلتُ هامساً وأنا أعقد العزم:

«سأذهب للبحث عنه بنفسي».

عندها تلاشتْ العتمة الرمادية مِنْ وجه دانة وحلَّ التوهج الأحمر على وجنتيها وقالتْ:

«تذهبُ أنتَ؟؟ هل جننتَ؟؟ لا! مستحيل».

«لا بدَّ مِنْ ذلك يا دانة».

فإذا بها تمسِك بذراعي وتقول منفعلة:

«كلاَّ... لنْ أدعكَ تذهب يا سامر... الآن لدي أخٌ واحدٌ موجود، هل تريد أنْ أفقدكما أنتما الاثنين؟؟».

«ولكن يا دانة...».

ولمْ تدعْ لي المجالَ لإتمام الجملة بل أسندتْ رأسها إلى كتفي وقالتْ:

«لا تفكِّر يا سامر... أنا ما كدتُ أصدِّق... أنَّكَ معي الآن... ما أحوجنا... أنا ورغد إليكَ... أنتَ مَنْ تبقَّى لنا مِنَ العائلة... أرجوكَ لا تفكِّر في الذهاب».

لقد مضتْ أربعة أيَّام... لنْ أصبرَ بعد... أنا أختبئ هنا بينما أخي في الخطر؟؟ كم أنا جبانٌ ووغد...

وركلتُ الجدار غضباً مِنْ نفسي وازدراءً لها...

نظرتْ إليَّ دانة نظرة تشجيع ومؤازرة ثمَّ أعادتْ إسناد رأسها إلى كتفي.

علاقتي بدانة كانتْ منذ الصغر قويّة جداً. كنّا صديقين حميمين. وكنتُ اعتبرها أقرب الناس إليَّ. وكانتْ الوحيدة التي أبثُّ إليها بهمومي وأشكو إليها مخاوفي.

والآن... بعد اجتماعنا مِنْ جديد عقِب كلِّ ذلك الفراق، استعادتْ علاقتنا حرارتها ومتانتها، وأخبرتُها بتفاصيل ما حصل معي ومع المنظَّمة والشرطة، وبكل ما مرَّ بي منذ ليلة زواجها وحتّى الآن... بل وحتّى عنْ العملية التي أُجريتْ لجفني، وعملية الاغتيال التي شاركتُ فيها، والمؤامرات التي حكناها وكنّا على وشك تنفيذها، وحالة اليأس التي اعترتْني لدى فقد أحبَّتي، ورغبتي في الانتقام لمقتل والديَّ. تفاصيل كثيرة ومريرة... أعارتْني لسماعها الأذن الصاغية... والصدرَ الرحِب... والقلبَ الحنون... كعادتها دوماً، ما ضاعف شعوري بالندم على والخجل مِنْ أفعالي...

مسحتُ على رأسها... فنظرتْ إليَّ واستطردتْ:

«كما أنّني لا أستطيع تحمُّل مسؤولية رغد... تعرف أنَّه لا طاقةَ لي بمزاجها في الوضع الطبيعي، فكيف بها وهي في هذه الحال؟؟».

شردتُ قليلاً، وتذكَّرتُ شقيقي في يوم فرارنا... وهو يوصيني برغد ويحذِّرني مِنَ الابتعاد عنها مهما حصل. وغزتْ ابتسامةٌ ساخرة واهية زاوية فمي اليمنى... لاحظتْها دانة فسألتْ:

«ما الأمر؟؟».

فأجبتُ:

«تذكَّرتُ وليد... وهو يوصيني على رغد... كأنّه كان يعرف... أنَّه لنْ يواصل الطريق معنا».

وشردتُ برهة ثمَّ تابعتُ:

«كانتْ آخر كلماته لي: («إنها أمانتكَ أنتَ الآن»)».

وأسندتُ رأسي إلى لجدار ونظرتُ للأعلى وخاطبتُ وليد الغائب في سرِّي:

(هذه الأمانة... لا تريدني أنا يا وليد... بل تريدكَ أنتَ).

ثمَّ صفعتُ برأسي في الجدار بمرارة...

ومرَّتْ ساعاتٌ، ونحن على هذه الحال، حتَّى وردتْني مكالمةٌ هاتفيةٌ مِنْ سيف الحازم؛ صديق وليد المقرَّب، يُخبرني فيه وللعجب والدهشة... أنَّه مع وليد الآن... في البلدة المجاورة لبلدتنا... في إحدى المستشفيات...!!

- سيف -

منذُ أنْ تلقَّيتُ اتّصاله يوم الجمعة هرعتُ إلى وليد، أنا مع والدي مسافرَيْن براً إلى المدينة المجاورة. وليد كان مُعتقلاً لدى سلطات البلدة لتورّطه بقضيَّة حمل سلاح بدون ترخيص. لمْ نحصلْ منه على تفاصيل عبر الهاتف ولدى وصولنا فوجئنا بمَنْ يبلغنا بأنَّه قد نُقِل تحت الحراسة إلى إحدى المستشفيات نتيجة تدهور وضعه الصحي المفاجئ...

مفاجآت وليد هذا لا تنتهي ولمْ تكنْ لتخطر لأحدٍ على بال...

تولّى والدي - وهو محامٍ كبير كما تعرفون - أمر القضيَّة وحصلنا على إذنٍ رسمي بزيارة وليد داخل المستشفى يوم الثلاثاء. قابلنا الأطباء وسألناهم عن وضعه قبل زيارته فأخبرونا بأنّه كان لديه نزيفٌ حاد في معدته وتمزُّق في جدارها والتهابٌ شديد في أنسجة البطن، وأنهم اضطرُّوا لإدخاله إلى غرفة العمليات وإجراء عمليةٍ عاجلة له... وإعطائه كميَّة كبيرة مِنَ الدماء...

تعلمون أنَّ وليد يشكو منذ زمن مِنْ قرحةٍ في المعدة. ويظهر أنّها اشتدّتْ وتمزّقتْ ونزفتْ بغزارة. هذا تفسير معقول...

لكن الـ غير معقول والـ غير مصدَّق... هو ما قالوه أيضاً؛ أنهم وجدوا علامات على جسده تشير إلى أنّه تعرّض للضرب أو التعذيب الشديد قبل ساعات مِنْ فحصه.

أمّا الأشد غرابة؛ فهي ورطة السلاح وهذا السفر المفاجئ لوليد، والغموض الشديد الذي يغلّف القضيّة.

دخلنا غرفة وليد يسبقنا فضولنا للاطمئنان عليه ومعرفة التفاصيل. لكن ما إنْ وقعتْ أعيننا عليه حتّى أطبقتُ على فمي كي لا أطلق شهقةً قويّة تثير بلبلةً مِنْ حولي. حملقتُ فيه مذهولاً، وكذا فعل والدي.

اقتربنا مِنْ سريره بخطىً متردّدة، إذ أنّنا لمْ نتيقّنْ مِنْ كون هذا المريض هو بالفعل وليد، وأنّ القضيّة كلّها ليستْ تشابه أسماء أو سوء فهم.

ربّاه.. أهذا وليد حقاً؟؟

اللهمّ نسألك اللطفَ والرحمة...

كان مغمضَ العينين؛ إمّا نائماً وإمّا فاقداً الوعي، وإمّا أسوأ مِنْ ذلك. جسمه ملفوفٌ بالضمادات في عدّة مواضع والعديد مِنَ الأجهزة موصلة به. جهازٌ يراقب نبض القلب، جهازٌ يكشف مستوى الأوكسجين، جهازٌ يقيس ضغط الدم... وقارورة دم معلّقة قربه... تقطر دماً متدفّقاً عبر الأنابيب إلى وريده.

كان يبدو مزرياً مريعاً... وكانتْ هناك ممرّضة قابعةٌ بجواره تراقب شاشات الأجهزة، وأخرى تقف في الجانب الآخر وتعمل على تنظيف ما ظهر لنا أنّه جرح في البطن. الغرفة تعبق برائحة الأدوية والمطهِّرات، ويدوي فيها طنين الأجهزة كأنّه صفّارة إنذار بالخطر.

اهتزّ قلبانا لدى مشاهدة المنظر وتبادلنا نظرات الاستغراب والأسف...

عندما نزعتْ الممرضة الضمادات عن الجرح رأينا حركةً تصدر مِنَ الجسم الممدّد على السرير تحت اسم صديقي وليد. قفزتْ أعيننا نحو عينيه ولكنّه لمْ يفتحهما. بل حرّك يده على السرير وكأنّه يعتصر ألماً...

قالتْ الممرضة:

«اصبر قليلاً».

ثمّ نظرتْ الممرضة الأخرى إلى ساعة يدها وقالتْ:

«إنّه موعد المسكّن على أية حال».

وحقنتْ دواءً ما عبر أنبوب المصل المغروس في ذراع وليد. أثناء جريان الدواء إلى وريد وليد كانتْ تعبيرات الألم ترسم على وجهه تجاعيد عابسة حزينة، اقترنتْ بانقباض يده واعتصار عينيه. على إثر هذا لمْ أتمالك نفسي وأقبلتُ نحوه بهلع وهتفتُ:

«وليد... وليد...».

رأيتُ وليد يفتح عينيه ثمّ يحاول تحريك رأسه ببطء يميناً ويساراً يفتّش عن مصدر الصوت. مددتُ يدي إلى يده وشددتُ عليها وقلتُ:

«وليد... صديقي... أنا هنا... سيف».

التفتَ وليد إليّ، وبدا وأنّه غير مصدّق، أو مشوّش الرؤية. أحسستُ بأصابعه تحاول أنْ

تشدُّ عليَّ، إلا أنَّها سرعان ما ارتختْ وسرعان ما أسدلتْ عينيه الجفون وغطَّتْ الرؤية. وعندما ناديتُه بعدها لمْ يُجِبني. وسمعتُ الممرضة تقول:

«أعطيتُه للتو الدواء المخدِّر».

فالتفتُّ إليها وسألتُ في ذات الوقت الذي سأل والدي:

«هل هو بخير؟؟».

فأجابتْ:

«يتحسَّن. غير أنّه لا يزال بحاجة إلى المخدِّر للسيطرة على الألم».

بعدها ذهب والدي لمتابعة القضيّة وبقيتُ بجوار وليد أراقبه بتمعُّن وأعدُّ الثواني متزامنةً مع قطرات الدم المتدفّقة مِنَ القارورة، متناغمةً مع طنين الأجهزة ومؤشّر دقّات قلب وليد، فيما أنا شديد الحيرة والقلق والتشويش... إلى أنْ استفاق وليد بعد نحو ساعتين... فاقتربتُ منه وشددتُ على يده برفق وقلتُ:

«سلامتكَ... يا عزيزي... ماذا حلَّ بكَ؟؟».

نظر وليد نحوي وشدَّ بضعفٍ على يدي وأومأ متجاوباً معي... ثمّ نطق والقلق يغطي تعبيرات وجهه:

«سيف... الهاتف».

وفهمتُ منه أنّه يريد استخدام الهاتف... استخرجتُ هاتفي وفيما أنا أمدُّه نحوه سمعتُ الممرضة تقاطعنا قائلة:

«ممنوع... لا للهواتف المحمولة هنا».

تلفتُّ مِنْ حولي ولمْ أجد جهاز هاتف ثابت فسألتُ:

«إذن كيف يمكننا الاتصال؟؟».

فقالتْ:

«خارج المبنى».

عدتُ إلى وليد والذي اشتدَّ القلق على وجهه وسألتُ:

«بمَنْ تريدني أنْ أتصل؟؟ بزوجتكَ؟».

فأومأ برأسه نفياً ثمّ قال:

«سامر... رغد...».

سوّى والدي المسألة بطريقةٍ ما خلال أيام، وأُطلِق صراح وليد رسمياً بعد ثلاثة أسابع أخرى. كان لا يزال ملازماً سرير المستشفى وبحاجة للرعاية الطبيّة، وكنا أنا ووالدي نتنقّل بين البلدتين لعيادته مِنْ لآخر. كنتُ أقوم بدور المرسال بينه وبين شقيقه، غير أنّه وفور صدور أمر الإفراج عنه أصرَّ على مغادرة المستشفى مخالفاً أمر الأطبّاء، ورافقتُه بنفسي إلى مكتب الطيران حيث حجز مقعداً على متن أوّل طائرة تغادر البلدة متجهاً إلى عائلته...

وليد أخبرنا أنا ووالدي عن مشكلة تورُّط شقيقه في الشغب، وعن تعرُّضه للضرب مِنْ

قِبَل السلطات، واتّضحتْ لنا الأمور الغامضة... غير أنّه حذّرنا مِنْ تسريب أي معلومة لأيٍ كان أو لأي مكان... وبالأخص للمصنع وموظفيه...

ولذلك فإنّني لدى تلقيّ اتصال مِنْ أسامة يسأل فيه عن وليد الغائب فجأة منذ أيّام... زعمتُ أنّه اضطرَّ للسفر إلى شقيقته لظروفٍ عائليةٍ خاصّة.

للعلم فإنَّ حالة وليد الصحيّة لا تزال متدهورة ومعظم الأطعمة محظورة عليه.

وهناك شيء آخر سأخبركم به أيضاً... وليد طلب مِنْ أبي أنْ يباشر إجراءات التنازل عن الوصاية على ابنة عمّه اليتيمة القاصر لصالح شقيقه الوحيد... سامر!

- رغد -

كعادتي كل يومٍ منذ أقمتُ هنا، أقضي الساعات في الرسم... إذْ أنّه لا شيءَ أمامي غيره...

لمْ أكنْ أرغبً في مجالسة دانة وسامر أو التحدُّث معهما... لمْ أرغبْ في التواصل مع خالتي ونهلة وطمأنتهما على أحوالي... لمْ أبادر بمهاتفة مَرَح أو أي زميلةٍ في الجامعة وإعلامها بما حصل معي...

لا شيء يثير اهتمامي... ويشغل تفكيري... غير وليد...

لمْ أكنْ أرى غير عينيه... في نظرتِه الأخيرة لي... عبر زجاج نافذة السيارة... وهو يلوِّح لي مودِّعاً...

والصورة الأخيرة التي طبعتُها في مخيّلتي... ترجمتُها بفرشاتي فصارتْ نصب عيني...

كنتُ قد تعلّقتُ بأمل شبه ميِّت... بأنّه بخير... وسيظهر. هكذا كان سامر وعمِّي أبو حسام يردِّدان كلّما سألتُهما، ثمَّ اتّصل سيف؛ صديق وليد الحميم بسامر، وأكّد أنّه مع وليد في تلك البلدة وأنَّ أباه المحامي يعمل جاهداً على حل قضيّته. وصار سامر على اتصال يومي به، ينقل إلينا الأخبار أولاً بأوّل... ويطمئننا إلى أنَّ وليد بخير... وسيُطلق صراحه قريباً...

الحمد لله...

مضى شهرٌ على مقدمنا إلى هذه البلدة. الساعة العاشرة والنصف مساءً... ولا أزال واقفةً أمام لوحتي الجديدة... أدمج ألوانها بحذر... متمنّيةً أنْ أنجحَ هذه المرّة في تصوير ملامح وقسمات وجه وليد... تماماً كما هي في الحقيقة... وتماماً كما كانتْ لحظة أنْ ودَّعني ويده تلوِّح في الهواء...

لحظة فظيعة... فظيعة جداً!

أشعر بتعب... فأنا منهمكةٌ في الرسم منذ ساعات... هذا إلى أنني مصابةٌ بالزكام الحاد نتيجة الجو البارد في هذه البلدة... وتداهمني نوباتٌ متكرِّرة مِنَ السعال الشديد.

يُطرق الباب، فأجيب بتملُّل:

«مَنْ هناك؟؟».

وأنا أعرف أنَّ الطارق لنْ يكون غير واحدٍ مِنْ اثنين؛ سامر... ودانة، وهما لمْ يأتيا ويربِكا

تركيزي-كعادتهما منذ ساعات...

وعلى أثر التكلُّم تنتابني نوبة سعالٍ قويّة...

«هل تأذنين لي بالدخول؟».

سمعتُ صوت سامر يتحدَّث، فوضعتُ لوح ألواني جانباً باستياء، وتناولتُ وشاحي واتّجهتُ إلى المرآة وأنا لا أزال أسعل. هنا سمعتُ صوت مقبض الباب يُدار وفوجئتُ به يُفتح...

كيف تجرؤ!

التفتُّ بسرعةٍ إلى الباب وأنا أهتف بصوتي المبحوح:

«انتظر سامر».

فإذا بي أرى دانة تطلُّ برأسها مِنْ فتحة الباب ثمَّ تتسلَّل إلى الداخل. نظرتُ إليها باستغرابٍ... وأصابني القلق لدى رؤية سيلين مِنَ الدموع على وجنتيها وتعبيرات متداخلة قويّة منقوشة على وجهها... ثمَّ إذا بها تقول:

«الآن...؟؟».

وتلتفتُ إلى الناحية الأخرى وتقول:

«تفضَّل».

وتفتح الباب على مصراعيه...

كانَ مولياً ظهره للباب... ثمَّ تنحنح بخشونة... واستدار ليلقي نظرةً على داخل الغرفة... وتقع عيناه على عينيّ... ويتهلَّل وجهه ويبتسم ويقول:

«صغيرتي!».

لا أصدِّق...

لا أصدِّق...

لا أصدِّق... لا أصـــدِّق...

شهقتُ... رفعتُ يديَّ إلى فمي... كتمتُ سعالي... تراجعتُ إلى الوراء بخطوات مبعثرة... أهزُّ رأسي... ثمَّ أؤرجح يديَّ... ثمَّ أترنَّح على قدمي... ثمَّ أتسمَّر في موضعي... ثمَّ أطلق زفرة صارخة قويّة:

«وليـــــد!!!».

- وليد -

كانتْ تقف على قدميها الاثنتين... أجل، فالجبيرة قد نُزِعتْ عن رجلها اليسرى... وصارتْ تمشي بحريَّة...

لكنني لحظتُ العرج البسيط في مشيتها مِنْ أوَّل خطوات سارتْها أمامي... وسمعتُ بحَّةً قويَّةً في صوتها وهي تناديني...

يا لصغيرتي الحبيبة... يا رُغد...

إنني لا أكاد أصدِّق... أنني عدتُ لأراها مِنْ جديد...

لقد حسبتُ... القدر يلعب معي لعبته الجديدة... وانتهِي مرمياً في السجن محروماً مِنَ الحرية... مِنْ نور الشمس والهواء... ومِنْ أهلي وأحبابي...

ما سجدتُ لله شاكراً... لنْ أستطيع أنْ أبلغ جزءاً مِنْ ألف جزء... مِنْ واجب الشكر والامتنان للرحمن...

اللهمَّ لكَ كل الحمد والشكر... بعدد ما تشاء وما ترضى... إلى ما تشاء وما ترضى...

فيما بعد... جلستُ على أحد المقاعد... وأحاط بي شقيقاي مِنَ الجانبين، ووقفتْ الصغيرة أمامنا... فضممتُ أخويَّ إليَّ بحرارة... مردِّداً («الحمد لله») وداعياً ربِّي بأنْ يحفظ لي أخويَّ وابنة عمِّي... ويبقي لي عائلتي سالمةً وبعيدةً عنْ كل المخاطر...

المأزق الذي مررتُ به... محنة سامر هذه... شيَّبت شعري وجعلتْني أقفز إلى سنِّ الشيخوخة... وأصبح كعجوزٍ على فراش المرض يعد أواخر أيامه... ويلملم أفراد عائلته مِنْ حوله... ليودِّعهم...

ولأنَّه كان اجتماعي الأوَّل بدانة بعد فراق طويل... منذ ليلة عرسها تلك... فإنَّ مئات المشاعر لمئات الأسباب والأحداث تفجّرتْ ليلتها... وأغرقتنا في بحورٍ عميقة لا بداية لها ولا نهاية...

وطبعاً لمْ تكنْ المناسبة لتمرّ دون أنْ نذكر والديَّ رحمهما الله، ونقلِّب المواجع على فقدهما... وقد كانتْ دانة هي آخر مَنْ رآهما قبل وفاتهما... عندما زارتْهما هي وعريسها بعد زواجهما مباشرةً، وقبل انتقالهما للعيش في هذه البلد...

يا للذكريات...

هدأتْ عواصف مشاعرنا المختلفة أخيراً... وبدأ الجميع يسألني عن تفاصيل ما حصل معي خلال الأيام الماضية... فأوجزتُ لهم الأحداث وطمأنتهم إلى سير الأمور على خير... واطمأننتُ بدوري عليهم وشعرتُ لأوَّل مرَّة... بعد عناءٍ طويل وانشغالٍ كبير... براحة البال...

وأنا أرى سامر... ورغد... وكذلك دانة مِنْ حولي... لمْ أكنْ لأتمنَّى مِنْ هذه الدنيا إلا سلامتهم...

شددتُ على يد سامر ونحن نحدِّق في بعضنا البعض... وكانتْ النظرات أبلغ وأفصح مِنْ أي كلمات...

الحمد لله...

ولأنّني كنتُ مرهقاً مِنْ عناء السفر الطويل... ولا أزال في فترة النقاهة... فقد أردتُ أنْ أخلد للنوم والراحة. أخذتْني دانة إلى إحدى الغرف... في زاوية بعيدةٍ بعض الشيء عن الجناح الذي يقيم فيه سامر ورغد... وتركني الجميع هناك لاستحم ثمَّ آوي إلى الفراش...

بعدما أنهيتُ استحمامي وفيما أنا استخرج أدويتي مِنَ الحقيبة لأتناولها سمعتُ طرقاً

على الباب.

«تفضَّل».

كانتْ شقيقتي دانة، تحمل معها بطانيات وألحفة.

«تدثَّر جيِّداً... لئلا تُصاب بنزلة برد مثل رغد».

قالتْ وهي تضعهما على السرير فابتسمتُ وقلتُ:

«شكراً».

«أتحتاج أي شيء؟؟ ألا أجلبُ لكَ طعاماً؟».

سألتْ فأجبتُ:

«كلاَّ شكراً. هل لي ببعض الماء فقط؟؟».

«بالتأكيد».

وهمَّتْ بالانصراف فأضفتُ:

«ومصحف مِنْ فضلكِ».

فابتسمتْ وحانتْ منها التفاتةٌ إلى المنضدة التي وضعتُ عليها عُلب الأدوية ثمَّ نظرتْ إليَّ باستنكار وقالتْ وهي ترفع سبَّابتها:

«التدخين ممنوع!».

فضحكتُ ضحكةً خفيفةً، وقلتُ:

«هذه أدوية معدتي! أقلعتُ والحمد لله».

وفيما بعد جلستُ على السرير ملتحفاً بالبطانية... أتلو آيات مِنَ الذكر الحكيم... وأحمد الله مراراً وتكراراً في سريرتي... وما إنْ مضتْ بضع دقائق حتَّى عاد الطرق على الباب...

«نعم تفضَّل».

متوقِّعاً أنْ تكون دانة... غير أنّها كانتْ رغد...

بدا عليها التردُّد وهي تفتح الباب ببطء وتطلُّ مِنْ فتحته، ثمَّ تخطو خطوةً أو اثنتين إلى الداخل. بمجرّد أنْ وقعتْ عيناي على عينيها عرفتُ أنَّ لديها الكثير لتقوله... لكنَّ تعبيرات وجهها اضطِربتْ وقالتْ:

«اعتذر على الإزعاج... فقط أردتُ أنْ... أسألكَ إنْ كنتَ بحاجةٍ إلى شيء».

أنا؟!... أنا محتاج إلى كل شيء يا رغد!

أجبتُ:

«شكراً صغيرتي... لا شيء للآن».

فشتّتَتْ أنظارها في أرجاء الغرفة ثمَّ سألتْ بخجل:

«هل شُفِيَتْ إصاباتكَ؟؟».

تعني ولا شكَّ... الهجومَ الوحشي الذي تعرَّضنا له تلك الليلة... وهي ليلة أشعرُ بالخجل والعار كلَّما تذكّرتُها... غضضتُ بصري وأجبتُ محاولاً التظاهر بالعفوية والمرح:

«نعم... كما ترين».

ولمّا رفعتُ بصري إليها رأيتُها تبتسم ثمَّ تقول:

«حسناً... تصبح على خير».

ثمَّ سعلتْ لبضع ثوان وهي تتراجع للخلفِ... فقلتُ:

«سلامتكِ».

فاتّسعتْ ابتسامتها... وتابعتْ سيرها إلى الوراء وهي ممسكةٌ بمقبض الباب تغلقه ببطءٍ إلى أنْ بقيتْ فتحةٌ صغيرةٌ بالكاد تسمح برؤية نصف وجهها فإذا بي أسمعها تقول:

«أنا سعيدةٌ بعودتكَ سالماً... كدتُ أموت خوفاً عليكَ... سعيدةٌ جداً».

وتغلق الباب!...

في اليوم التالي اجتمعنا أنا وشقيقاي ورغد ونوّار حول مائدة الغذاء... وحتّى لو لمْ أشاركهم طعامهم، شاركتُهم الدفء العائلي والإحساس بالانتماء... والجوَّ الأسري الرائع الذي كثيراً ما افتقده...

وفي وقت القيلولة، جلستُ مع أخي سامر في غرفته أسأله عن تفاصيل ما حصل معه ومع رغد بعد افتراقنا، وأناقش معه الخطط المستقبلية...

دار بيننا حديثٌ طويل... كنتُ مِنْ خلاله... أريد جسَّ نبض وضعه النفسي... وأعرف إلى أي مدى ارتفعتْ معنوياته واستعاد رباطة جأشه...

وبالطبع، تحاشيتُ تماماً ذكر موضوع المنظمة... بل إنّي قد عاهدتُ نفسي ألا أكترث لما فعل أخي ولا لكيف فعل، لا حساب ولا عتاب ولا استجواب، إنْ هو نجا وخرج مِنَ المأزق الخطير سليماً... وما دام أخي معي الآن... وأراه أمامي بخير... فلا يهمُّني النبشُ في الماضي...

«لِمَ تحدِّق بي؟!».

سأل سامر وقد لاحظ شرودي وأنا أنظر إليه... فابتسمتُ وقلتُ:

«آسف... كنتُ أفكِّر... كيف سنعثر على منزل مناسب لنشتريه...».

فقال:

«في الحقيقة كنتُ قد استفسرتُ مِنْ نوّار مسبقاً. عمّه يقيم في هذه البلدة منذ عشرين عاماً ويستطيع مساعدتنا في تدبّر أمر المنزل».

قلتُ:

«جيِّد. إذنْ سنسعى لذلك مِنَ الآن إذ أنّه مِنَ المحرج مبيتنا هنا».

حتّى ولو كانتْ عائلة نوّار ترحّب بنا بشدة...

قال سامر:

«نشتري شقّةً مناسبة في مكانٍ قريب مِنْ هذا المنزل».

«أو منزلاً مستقلاً... صغيراً ويناسب وضعنا الراهن».

قال سامر وهو يركِّز النظر إليَّ:

«إذن... هل... ستستقرُّ هنا؟؟».

وهو أمرٌ لمْ أكنْ أريد التطرُّق إليه الآن... وأفكاري غير مرتَّبة... وجسمي منهك... وأعرف أنّه موضوع إنْ فُتِح سيجرُّ خلفه مواضيع لا طاقة لنا بها هذه الساعة، لذا تظاهرتُ بالنعاس وتثاءبتُ وقلتُ وأنا أقف:

«سأفكِّر لاحقاً... أشعر بالنعاس... سأقيل ساعة».

وغادرتُ الغرفة.

ذهبتُ إلى الغرفة التي خصَّصتْها دانة لي، واضطجعتُ على السرير... وتدثَّرتُ بكل الألحفة والبطانيات المفروشة فوقه، ناشداً الدفء... لكنَّ الدفء الذي حصلتُ عليه... في هذا الجو البارد... في هذه البلدة الغريبة... في هذه الغرفة النائية... كان مصدره...

المحفظة التي تنام تحت وسادتي...

أشلاء صورة رغد...

- رغد -

تغمرني سعادةٌ لا توصف... وأنا أواصل دمج الألوان في لوحة وليد الأخيرة... وأتذكَّر وجوده مِنْ حولي... وأطلق زفرات الارتياح...

تناولنا الفطور والغذاء معاً هذا اليوم... صحيح أنَّ وليد لمْ يشاركنا الأكل بسبب معدته، لكنَّه شاركنا الجلوس حول المائدة والأحاديث المختلفة... وعلمتُ أنّه كان راقداً في المستشفى منذ فارقنا وحتى وافانا بسبب نزيف قرحة معدته... وأنّه خضع لعملية جراحية لعلاجها وهي حقيقة أخفاها سامر عنِّي طيلة الوقت...

وليد قلبي بدا مريضاً بالفعل... شاحب اللون وفاقد الحيوية ومنطفئ البريق الذي كان يشعُّ مِنْ عينيه... وخسر عدَّة أرطال مِنْ وزنه وتعرّتْ عظامه مِنَ اللحم، لكن الأهم أنّه معنا الآن... وفي أمان...

عند العصر سمعتُ صوت دانة تناديني مِنْ خلف الباب:

«رغد تعالي لتناول الكعك معنا... نحن في الصالة».

فرددتُ بسرور ومباشرة:

«قادمة».

وتركتُ فرشاتي وانطلقتُ تسبقني سعادتي إلى الصالة، حيث كان أبناء عمي الثلاثة يجلسون... اقتربتُ منهم واتخذتُ مجلسي بجوار دانة، واخترتُ أكبر قطعة مِنَ الكعك... وبدأتُ في تناولها باستمتاع...

دانة ماهرةٌ في صنع الكعك كما تعلمون... أمّا أنا فماهرة في التهامه!

راقبتُ وليد خلسةً فلاحظتُ أنَّه يكتفي بشرب الماء مِنَ الكأس الموضوع أمامه، ولا يلمس الكعك...

قلتُ:

«إنها لذيذة وخفيفة وليد».

فأجاب وهو يبتسم:

«لا شكَّ عندي... لكن معدتي لنْ تتقبّل».

قالتْ دانة:

«جرِّب قضمةً واحدة صغيرة... هيّا وليد... مِنْ أجلي».

فكرّر وليد اعتذاره وقال:

«إنْ اشتعلتْ هذه فلا شيء يطفئها».

وهو يشير إلى معدته. أحسستُ بالألم والقلق لأجله... وأنا متأكِّدة أنَّ ما هيَّج قرحته وسبَّب نزيفها هو الضرب الوحشي الذي تلقّاه على أيدي وأرجل العساكر الوحوش... تلك الليلة...

تذكُّر تلك الليلة... جعل يدي ترتجفُ، وتُوقِعُ الشوكة مِنْ بين أصابعي...

نظرتُ إلى وليد وشعرتُ وكأنّه قرأ الذكريات التي مرَّت في مخيِّلتي... فقلتُ لا شعورياً بصوتٍ هامس:

«الحمد لله... أنّكَ هنا الآن».

وكأنَّ أحداً لمْ يسمعْ ما قلتُ، فسألتْ دانة:

«عفواً؟؟».

فانحنيتُ لالتقاط شوكتي وأنا أقول مغيِّرة الموضوع:

«ما رأيكَ في المنزل وليد...؟ أليس رائعاً؟؟ دانة تتصرَّف كجلالة الملكة هنا!».

فنظرتْ دانة إليَّ بتباهٍ وقالتْ مداعبة:

«أنا بالفعل ملكة هنا! كل هذا تحت تصرّفي!».

فقال وليد مبتسماً:

«هنيئاً لكِ».

فقالتْ دانة:

«وأنتم كذلك... اطلبوا ما تشاؤون».

فقال سامر بعد أنْ ابتلع آخر قطعة في فمه:

«لا عدمناكِ... يكفينا هذا الجناح مؤقّتاً إلى أنْ نشتري منزلاً أو شقّة».

والتفتَ إلى وليد يطلب تأكيد كلامه، فقال الأخير:

«نعم. وسنعمل على ذلك عاجلاً».

فقالتْ دانة مستاءة:

«هراء! تبحثون عن منزل ولدينا كل هذا؟؟».

فرد وليد:

«باركَ الله فيكم... ولكن لا بد مِنْ منزلٍ مستقل... إنْ عاجلاً أم آجلاً».

فقالتْ دانة مخاطبةً إيّاه بحنق:

«وكأنَّ منزلنا لا يتَّسِع لكم! سآمر الخدم بتنظيف وإعداد كل الغرف التابعة لهذا الجناح وننقل غرفة نومكَ إلى أي غرفة تختارها يا وليد... سيكون هذا الجناح منزلكم».

فقال وليد:

«أرجوكِ... لا تتكبدوا العناء... الجناح هكذا يفي بالغرض لحين شراءِ مسكنٍ مستقلٍ ينتقلان إليه... أنا هنا مؤقّتاً على أيّة حال».

الجملة أربكتْني وجعلتْني أحملق في وليد... ثمَّ أسأله:

«ماذا تعني؟؟».

وتنقَّلتُ بأنظاري إلى سامر ودانة، ورأيتُهما يحملقان في وليد أيضاً...

وليد لمْ يتكلَّم لأنَّه شعر بأنَّ الأعين تتربَّص به... بل بدا مرتبكاً وكأنَّ الجملة قد انفلتتْ مِنْ لسانه دون قصد ولمْ يستطع استدراكها... أعدتُ سؤالي:

«ماذا تعني... وليد؟؟».

فإذا به يتأتئ ويمسح على جبينه ثمَّ يرد أخيراً:

«أه... أعني... أنّني سأعود إلى الوطن عاجلاً...».

شهقتُ وتنقَّلتُ بأنظاري بين وليد وسامر ودانة ثمَّ قلتُ غير مصدِّقة:

«تمزح وليد... ألستَ تمزح؟؟!!».

فابتسم بقلَّة حيلة وقال:

«لا أمزح! أعني أنّني... أنا هنا... لأطمئنّ عليكم ثلاثتكم وها قد اطمأننتُ ولا بد مِنَ العودة».

أخذ التوتّر يتفاقم على وجهي ولاحظ الجميع ذلك... ثمَّ قلتُ والكلمة لا تكاد تخرج مِنْ ثغري:

«و... وأنا...؟؟».

فتبادل الجميع النظرات... ثمَّ تسلَّطتْ أعيننا على وليد الذي لمْ ينطق مباشرة... كان متردداً غير أنّه في النهاية قال:

«ستبقين هنا يا رغد».

لمّا لاحظ سامر الهلع يجتاح قسمات وجهي قال مخاطباً وليد ومحاولاً تلطيف وقع النبأ:

«لكن... لنْ تسافر بهذه السرعة... تعني بعد بضعة أسابيع؟...».

فالتفتَ إليه وليد وقال:

«بضعة أيّام لا أكثر... تعرفون... لدي زوجةٌ قلقةٌ في انتظاري».

عند هذا الحد... وشعرتُ برغبة مفاجئة في التقيؤ... فوقفتُ بسرعة وأنا أسدُّ فمي بيدي وهرولتُ إلى دورة المياه...

عندما خرجتُ مِنْ دورة المياه - أكرمكم الله - وجدتُ دانة تقف بالجوار في قلق... وسألتْني:

«أأنتِ بخير؟؟».

ولمْ أجبْ

فأضافتْ:

«هل كانتْ الكعكة سيِّئة أو ماذا؟؟».

التفتُ إليها وقلتُ:

«ألمْ تسمعي ما قال؟؟ يريد العودة إلى لوطن... بعد كل الذي تكبَّدنا مِنْ أجل الفرار... إنه يريد العودة إلى الخطر».

بدا على دانة تفهُّم مشاعري... ثمَّ قالتْ:

«لمْ يقرِّر... بل يفكِّر».

قلتُ بعصبية:

«كيف يفكِّر في العودة إلى الجحيم؟؟ ألمْ يكفِه ما فعلوا به؟؟ ألا يكفي هذا؟؟».

وذهبتُ منزعجة إلى غرفتي... وانعزلتُ فيها لبعض الوقت.

- وليد -

«ما كان يجب أنْ تذكر هذا الآن».

قال سامر يخاطبني بشيء مِنَ اللوم... وأنا أدرك أنّني فاجأتُ الجميع بما قلتُ... فلم أعلِّق. فتابع هو:

«تذكُر عودتكَ العاجلة إلى الوطن... وإلى زوجتكَ... وأنتَ بالكاد وصلتَ البارحة!؟ إنَّها... كانتْ قلقة عليكَ حدّ المرض».

مُشيراً إلى رغد.

صمتُّ قليلاً ثمَّ قلتُ:

«ولكن... في الحقيقة هذا ما يجب أنْ يحصل عاجلاً».

نظر إليَّ أخي نظرةً لمْ أفهم معناها، أو بالأحرى... لمْ أردْ أنْ أفهمها... ثمَّ إذا به يقول:

«إذن... إذن... لنْ تقيم هاهنا معنا؟؟».

وهذا السؤال كان يشغل بال شقيقي منذ الصباح أو ربَّما منذ زمن... وأعرف ما خلفه...

قلتُ:

«وأتركُ زوجتي... وعملي... هناكَ؟؟!».

أراد سامر قول شيء لكنَّه تراجع. أنا أعرف ما الذي تريد الوصول إليه يا سامر... لكن أرجوكَ... دعني أسترخي ليومٍ آخر... ولا تشغل بالي وتشعل النار في داخلي الآن...

أخيراً قال سامر:

«و... والمنزل؟؟ هل سنقيم فيه أنا ورغد بمفردنا؟؟».
وكأنّه يستلُّ خنجراً مِنْ صدري... آه... كمْ أتألّم...
عضضتُ على أسناني لأمتصّ بعض الألم... ثمَّ قلتُ محاولاً الهروب:
«لكلّ حدثٍ حديثٌ... ننتظر شراءَ المنزل أوّلاً».
وكانتْ محاولةً فاشلةً... إذ أنَّ سامر عاد يسأل:
«وإذا حصلنا على المنزل غداً...؟؟ فهل...».
ولمْ يتم السؤال...
مسحتُ على وجهي مضطرباً ونظرتُ يميناً ويساراً باحثاً عنْ مهرب... ثمّ عدتُ إلى أخي فرأيتُه ينظر إليَّ باهتمام وقلق... ينتظر ردِّي...
مددتُ يدي وربَّتُ على كتفيه بعطف... وقلتُ والدماء تحتقن في وجهي:
«لا تستعجل... تريَّث... دعنا نلتقط بعض الأنفاس... أنا مُرهقٌ جداً يا سامر...».
وما كان مِنْ أخي إلا أنْ أومأ تفهُّماً وأغلق الحوار...
وفي المساء... على مائدة العشاء... والتي التففنا حولها نحن الثلاثة، أنا وشقيقي وابنة عمِّي... تحرّكتْ أيدينا بالملاعق، بينما أفواهنا صامتة عنْ الكلام... كان الوجوم مخيِّماً على وجه رغد... الذي صار كتاباً متقلِّب الحروف والرموز... يشغلني فكُّ طلاسمه...
وفيما أنا أتناول حسائي البارد ببطء وأرسل النظرات إليها بين الفينة والأخرى، كانتْ هي محملقةً في طبقها تتحاشى النظر باتجاهي...
أما سامر... فكان يتظاهر بالاهتمام بالمباراة التي تُعرض على التلفاز والتي يشارك فيها نوّار...
«الحمد لله».
قالتْها رغد ووقفتْ هامَّة بالمغادرة... وأطباقها بالكاد لُمِستْ...
قلتُ:
«إلى أين؟؟ لمْ تُنهي عشاءكِ».
قالتْ دون أنْ تنظر إليَّ:
«اكتفيتُ».
فقلتُ:
«اجلسي يا رغد... وأتمِّي عشاءكَ».
هنا نظرتْ إليَّ... نظرةً حزينةً مؤلمة... فيها العتاب واللوم... والرجاء واليأس سويَّةً...
همستُ:
«رغد...».
فإذا بها تطلق الكلام الذي كانتْ تكبته في صدرها منذُ ساعات دفعةً واحدة:
«كيف تفكِّر في العودة للخطر يا وليد؟؟ نحن ما كدنا نصدِّق أننا نجونا... ما كدنا نطمئن

على سلامة بعضنا البعض... أتريد أنْ تعرِّض نفسكَ للهلاك مِنْ جديد؟؟».

ولمْ تعطِني فرصةً للإجابة بل قالتْ بصوتٍ شديد الرجاء:

«أرجوكَ وليد... لا تذهبْ... أرجوكَ».

تأوَّهتُ وقلتُ:

«لا بدَّ لي مِنَ الذهاب يا رغد... لا بد».

ورأيتُها تعضُّ على شفتها السفلى ثمَّ تقول:

«يمكنكَ إحضارها إلى هنا... ونستقر بعيداً عن الخطر والحرب».

تعني أروى...

قلتُ:

«صعب جداً... أروى لنْ يعجبها ذلكَ... ثمَّ أنَّ المنزل والمزرعة والمصنع... وكل شيء هناك...».

فأومأتْ برأسها اعتراضاً فأضفتُ:

«إنَّهم لا يلاحقونني أنا... لا تخشَيْ عليَّ... صغيرتي».

فانفجرتْ قائلة:

«كيف لا أخشى عليكَ؟؟ لقد رأيتُ ما فعلوه بكَ بأمِّ عيني... هل تريد أنْ تيتِّمني للمرَّة الثالثة بعد؟؟ أنتَ لا تعمل حساباً لي».

وانصرفتْ مسرعةً إلى غرفتها...

انتظرتُ لحظةً... في حيرة مِنْ أمري... ثمَّ وقفتُ وقلتُ مخاطباً أخي:

«سأتحدَّث معها».

ولمْ يبدِ أخي أي ردّة فعل...

لحقتُ بالصغيرة وحصلتُ على إذنها بدخول الغرفة... وما إنْ دخلتُ حتَّى وقعتْ عيناي على مجموعة مِنَ اللوحات إلى جانب بعضها البعض... عند الجدار المقابل للباب... صورة لوالدي وأخرى لوالدتي رحمهما الله... وصورة لي أنا... وأنا رافعٌ يدي... موضوعة على عمود الرسم...

لدى رؤية صورتي والديَّ لمْ أتمالك نفسي... وسرتُ باتجاههما وحملقتُ فيهما وانتابني الأسى والمرارة...

خاطبتهما سراً... ألا تخرجان مِنَ اللوحتين... وتريان ما نحن فيه... وتحلاَّن مشكلتنا؟؟

أنا وشقيقي نحبُّ فتاةً واحدةً تعني لكلينا كل شيء وعلى أحدنا أنْ يُميت قلبه ليُحيي الآخر...

أنا يا أُمِّي ويا أبي... أفضِّل اللحاق بكما على أنْ يمسَّ شقيقي أي أذى... سامحاني لأنَّني كنتُ أنانياً جداً... لمْ أتفهَّم مشاعره ولمْ أقدِّرها في البداية... حسبتُ أنَّ رغد شيءٌ يخصّني أنا وأنّه هو مَنْ سرقها منِّي...

والتفتُ نحو رغد والتي كانتْ مطأطئةً بصرها بحزنٍ نحو الأرض... فخاطبتُها في سرّي بلهفة... ألستِ شيئاً يخصني أنا يا رغد؟؟ ألستِ فتاتي أنا؟ ألستِ لي؟؟ ألنْ تكوني لي؟؟ ألا يجب أنْ تكوني لي أنا؟؟

ربّما أحسَّتْ رغد بنظراتي المسلَّطة عليها أو استبطأتْ كلامي... أو حتّى سمعتْ خطابي السرِّي في نفسي... فإذا بها تلتفتُ إليَّ وترمقني بنظرةٍ أرسلتْني إلى عالم التيه والضياع...

ثمَّ إذا بتعبيرات الرجاء الشديد بل التوسُّل تزحف إلى قسمات وجهها الحزين وتخرج مِنْ لسانها بقول:

«أرجوكَ وليد... تخلَّ عن الفكرة... ودعنا نعيش هنا معاً بسلام... أنا تعبتُ مِنَ الحرب والتشرُّد واليُتم والضياع والصراع... ألا تفعل هذا مِنْ أجلي؟؟».

تفطّر قلبي لكلامها ونزف كثيراً... إنّكِ تطلبين المستحيل يا رغد...

اقتربتُ منها وقلتُ مغدقاً عطفي وحناني ومتحجِّجاً بمسؤولياتي:

«يا رغد... يا صغيرتي العزيزة... ومَنْ يتولّى الأمور هناك في الوطن؟؟ لدي مسؤوليات جدِّيةٌ وكبيرةٌ في انتظاري».

فقالتْ:

«وأنا؟ ألستُ جزءاً جدياً مِنْ مسؤوليتك أنتَ؟؟ كيف تتركني وحدي وتذهب عني؟؟».

«كيف تقولين وحدكِ؟؟ أتركِكِ مع دانة وسامر».

فأجابتْ منفعلة:

«لكنّكَ أنتَ الوصي عليّ... المسؤول عنّي شرعياً... أبي بالوصاية... ويفترض أنْ تبقيني معكَ وتبقى معي... أليس كذلكَ؟ أليس هذا مِنْ واجبك؟؟».

لمْ أجبْ مباشرةً... ثمّ قلتُ:

«بلى... و... كذلكَ... أنا المسؤول عنْ أروى... ومِنْ واجبي العودة إليها».

وكنتُ أتوقّع أنْ يُزعجها ذكر أروى... بل كنتُ أتعمَّد أنْ أذكرها حتّى استفيق أنا مِنْ حالة التيه في بحر رغد، وأعود إلى الواقع وأقطع الحبال المتشدِّقة بسفينة رغد...

نعم كنتُ أتوقّع أنْ تنزعج رغد مِنْ ذكر أروى - كعادتها - لكنّني لمْ أتوقّع أنْ تأتي ردّة فعلها بهذا الشكل...

صرختْ منفعلة منفلتة:

«إذن عُد إليها... هيّا عُد... لا شكَّ أنّكَ متلهِّفٌ لعينيها الزرقاوين وشعرها الحريري الأشقر... أيُّ أحمق يتنازل عن الحسناء الثرية؟؟ هنيئاً لكَ بمَنْ اخترتَ... اذهب!».

وأشاحتْ بوجهها عنّي... وعندما ناديتُها هتفتْ زاجرة:

«اذهبْ الآن!».

وما كان منّي إلا أنْ غادرتُ الغرفة.

عندما عدتُ إلى حيثُ كنّا نتناول العشاء قبل قليل، لمْ أجد أخي هناك. بحثتُ عنه في

غرفته وفي الجوار ولمْ أجده. ووجدتُ هاتفه موضوعاً على سريره. سألتُ عنه دانة فأخبرتْني أنّها لمْ تره مذ كنّا نتناول الكعك عصراً...

قضيتُ الساعتين التاليتين واقفاً على أطراف أعصابي المشدودة... حتّى إذا ما ظهر أخيراً... قادماً مِنَ الخارج... قدمتُ نحوه وبادرتُ بالسؤال...

«إلى أين ذهبتَ؟؟».

ظهر الانزعاج مِنَ السؤال على وجه أخي وقال:

«عفواً؟؟».

فتراجعتُ وقلتُ مخفّفاً سؤالي:

«أعني... في هذا الطقس البارد؟؟».

فردّ سامر:

«تمشّيتُ في الجوار...».

وبعد برهة صامتة قلتُ وأنا أهمُّ بالانصراف:

«سأخلد للنوم».

استوقفني سامر بسؤاله:

«ماذا أحرزتَ مع رغد؟».

فشددتُ على قبضتي... ثمّ قلتُ:

«لا شيء...».

وتابعتُ:

«لا تقدِّر مسؤولياتي الأخرى... تتوقّع منّي أنْ... أتفرّغ لرعايتها».

رأيتُ ابتسامةً شبه ساخرة على زاوية فمه اليمنى... ثمّ حلَّ الجدُّ مكانها وإذا بأخي يقول:

«إنّها... متعلّقةٌ بكَ».

تدفّقتْ الدماء إلى وجهي... ورأيتُ أخي ينظر إلى عينيّ ينتظر تعليقاً... فأبعدتُ نظري عنه، ثمّ قلتُ:

«... أعرف...».

فقال:

«إذنْ..؟؟».

فالتفتُّ إليه وقرأتُ في عينيه جدّيّةً واهتماماً بالغين... ولمْ أعرفْ بِمَ أقابلهما... فقال أخي وقد اصطبغ صوته بالانزعاج:

«لِمَ لا ترد؟ لقد جئتَ بي مِنْ آخر العالم إلى هنا ووضعتَها نصب عيني... أعدتَني إلى ما كنتُ على وشك الخلاص منه... وها أنتَ تريد أنْ ترحل وتتركني في نفس الدوّامة... فهل لا حللتَ قضيّتي مع رغد أوّلاً؟؟».

تضاعف ضخُّ الدماءِ الحارّة إلى وجهي، واشتعلتْ النار التي لا تكاد تهدأ في معدتي، وبدأ

العرق يتصبَّب منِّي رغم برودة الجو...

قلتُ أخيراً:

«صبراً يا سامر... امنحنا فترة نقاهة ممَّا حصل مؤخَّراً... رويدكَ».

ورأيتُ أخي يمدُّ سبَّابته اليمنى نحو وجهي ويضيِّق عينيه ويضغط على أسنانه وهو يقول مهدِّداً:

«لا تتلاعب بي يا وليد».

فأفلتتْ أعصابي مِنْ سيطرتي وقلتُ حانقاً:

«وماذا تريد منِّي أنْ أفعلَ الآن؟؟ أُرغِم الفتاةَ على العودة إليكَ؟؟ أليسَ لديكَ اعتبارٌ لمشاعرها هي وإرادتها ورغبتها هي؟؟».

فردَّ مباشرة:

«أنا أكثر منكَ درايةً... بمشاعرها هي... وإرادتها هي... ورغبتها هي... وأنتَ... أنتَ... يجب عليك أنْ تتدخَّل لوضع حدٍ لهذا... يجب أنْ تُفهِمها ما لا تريد هي أنْ تفهمه... يجب أنْ تجعلها تستيقظ مِنْ أحلامها المستحيلة التي لا تسبِّب لها إلا الأذى... وتتوقَّف عنْ هذر مشاعرها على الشخص الخطأ».

فوجئتُ بكلام أخي للحدَّ الذي لزمني زمنٌ طويل حتى استفيق مِنْ طور المفاجأة... ولما استفقتُ، كان أخي قد انصرف...

ذهبتُ إلى غرفتي... وجلستُ على سريري... واستخرجتُ قصاصات صورة رغد مِنْ محفظتي المخبّأة تحت الوسادة... وجمعتُها... ونظرتُ إلى وجه رغد... وتأوّهت...

هل آن الأوان... لأنْ ينتهي كل شيء يا رغد؟؟؟

هل يُعقل... أنّني سأضطرُّ للتخلّي عنكِ... بعد كل هذا!؟

إنّه يساومني على حياته يا رغد... هل سأضحّي بكِ مِنْ أجله؟؟ هل سأفعل ذلك يا رغد؟؟ هل سأجرؤ؟؟

هل أنا أستطيع ذلك؟؟

وضممتُ الصورة إلى صدري وعصرتها بقبضتي وهتفتُ...

«آه... لا أستطيع... لا أستطيع...».

الحلقة الواحدة والخمسون

الأخيرة

النظرة الأخيرة

- رغد -

تركني وليد في حالةٍ يُرثى لها بعد خبر عزمه العودة إلى الوطن... إلى حيث الحرب والاعتداء والخوف والهلاك... إلى حيث الشقراء تنتظره. أنا يا وليد مستعدَّة للقبول بأي شيء مهما كان مقابل أنْ تُبقيني إلى جانبك وتحت رعايتكَ أنتَ...

وفيما أنا غارقة في أفكاري جاءتْني دانة تتفقّدني...

«كيف أنتِ؟ يقولون أنّكِ مُضربة عن الطعام!».

وكل ما حصل هو أنّني لمْ أتم عشائي البارحة ولمْ أتناول فطوري هذا الصباح. قلتُ:

«مَنْ يقول ذلك؟».

«وليد! فهو قلقٌ مِنْ أنْ يداهمكِ الإغماء بسبب الجوع! وأرسلني لتفقُّدكِ».

دغدغتْني العبارة، لإحساسي بأنَّ وليد يهتم بي. قلتُ:

«أين هو الآن؟».

«خرج مع نوّار قبل قليل ذاهبَين إلى مكتب الطيران».

فوجئتُ بالجملة وشهقتُ وقلتُ:

«تعنين لشراء تذكرة السفر؟؟».

فأومأتْ بنعم، فجُنَّ جنوني وصرّحتُ منفعلة:

«لنْ يغيّر موقفه... إذن سأذهب معه...».

والتفتُ نحو الهاتف وأتممتُ:

«سأتّصل بهِ وأطلب منه شراء تذكرة لي أنا أيضاً».

وخطوتُ خطوتين نحو الهاتف حين استوقفتْني دانة مادّة يدها وممسكة بذراعي. التفتُّ إليها فوجدتُ الجدَّ والحزم ينبعان مِنْ عينيها، ثمّ قالتْ:

«انتظري يا رغد... هل تظنين بأنّه سيأخذكِ معه حقاً؟».

اكفهرّتْ ملامح وجهي وقلتُ مصرّةً:

«طبعاً سيأخذني معه... أليس الوصي عليَّ؟ ألستُ تحت عهدته؟».

فقالتْ بنبرة جادَّة:

«لقد... تنازل عن الوصاية لسامر».

حملقتُ فيها غير مستوعبة للجملة الأخيرة... فسألتُ:

«عفواً... ماذا قلتِ؟؟».

فقالتْ:

«كما سمعتِ... رغد».

فررتُ برأسي يُمنةً ويسرةً... كأنني أنفضه ممَّا توهَّمتْ أذناي سماعه... ثمَّ هتفتُ:

«تكذبين!».

فنظرتْ إليَّ دانة متأثِّرة بتعبيرات الذهول الطارئة على وجهي ومِنْ ثمَّ تحوّلتْ جدِّيَّتها إلى شفقةٍ وأسىً... وقالتْ:

«أخبرني بذلك بنفسه قبل قليل. قال أنَّه وكَّل المحامي أبا سيف لإنجاز الإجراءات الرسمية أثناء مكوثه في المستشفى خلال الفترة الماضية».

رفعتُ يدي إلى صدري محاولةً السيطرة على الطوفان الهمجي المتدفِّق مِنْ قلبي إثر الصدمة... وهززتُ رأسي غير مصدِّقة أنَّ وليد قد فعلها... مستحيل... مستحيل...!

«مستحيل!!».

أطلقتُ الصيحة وتابعتُ خطاي نحو الهاتف أريد الاتصال به والتأكُّد مِنَ الخبر على لسانه، غير أنَّ دانة سحبتْ سمَّاعة الهاتف مِنْ يدي وأجبرتْني على النظر إليها والسماع إلى ما أرادتْ قوله...

«رغد! ماذا ستفعلين؟ هل ستطلبين منه إعادتكِ إلى كفالته؟ لا تصعِّبي الأمور يا رغد ودعيه يتصرَّف التصرُّف السليم والأنسب لظروفنا».

فهتفتُ منفعلة:

«الأنسب لظروف مَنْ؟ أنا لا ذنبَ لي في أنَّ سامر يهدِّده الخطر إنْ عاد إلى الوطن. لا أريد البقاء هنا... أريد العودة مع وليد والبقاء معه».

فسألتْ دانة منفعلة:

«إلى متى؟؟».

فقلتُ:

«إلى الأبد».

فإذا بدانة تمسك بيدي وتشدُّ عليها وتقول:

«وليد لا يريدكِ أنْ تذهبي معه... لِمَ لا تفهمين ذلك؟ سيعود إلى خطيبته وربَّما يتزوَّجان قريباً... لقد أعادكِ إلى سامر لتبقي مع سامر... إنَّه أكثر شخصٍ يحتاجكِ ويحبُّكِ يا رغد.. إنَّه يمرُّ بأزمةٍ حرجةٍ... لماذا لا تفكِّرين به؟».

سحبتُ يدي مِنْ بين أصابعها وابتعدتُ عنها وأنا أهتف بانهيار:

«أنا لا أريد العودة إلى سامر... لا تفعلوا هذا بي... لا تعيدوا الكرّة... سأذهب مع وليد...».

- سامر -

كان لا بدَّ مِنْ حسم الأمور وبشكل نهائي حتّى يحدِّد كلٌ منّا موقعه. كنتُ أفكِّر في الطريقة التي سأخاطب بها وليد هذا اليوم وأطلب مِنْه وضع النقط على الحروف وختم الصفحة.

كان الوقتُ ضحىً وكنتُ جالساً في غرفتي أهيِّئُ نفسي للمواجهة المرتقبة فأتتْني شقيقتي دانة.

«صباح الخير سامر! ألمْ تنهض بعد؟؟».

«صباح الخير».

«تأخّرتَ! رُفِعَتْ أطباق الفطور».

سألتُ مباشرة:

«هل استيقظ وليد؟».

أجابتْ:

«نعم... وهو مع نوّار في مكتب الطيران الآن».

اضطربتْ تعبيرات وجهي وشردتُ بعيداً... وحين لاحظتْ دانة سألتْني عما ألمَّ بي، فما كان منِّي إلا أنْ أطلعتُها على ما يدور في رأسي منذ الأمس... منذ أعلن وليد عنْ عزمه على العودة إلى الوطن. أخبرتُها وبكلِّ صراحةٍ بأنني في حال رحيل أخي فسوف لنْ أتمكَّن مِنَ العيش مع رغد في مكانٍ واحد وتولِّي المسؤولية عليها، إلا إذا عاد رباطنا الزوجي الشرعي إلى سابق عهده... وإلاَّ... فإنَّ عليه اصطحابها معه وتخليصي مِنْ هذه الدوَّامة الفارغة. كنتُ صريحاً جداً فقد اكتفيتُ مِنَ الهراء... ولنْ أستمرَّ في لعب هذا الدور الأحمق...

«فإمّا أنْ يأخذها معه للأبد... أو يتركها معي وللأبد».

قلتُ ذلك منفعلاً... ثمّ نظرتُ إلى دانة فرأيتُ على وجهها الأسى والقلق... وكأنها تفكِّر في أمرٍ ما..

«ما الخطبُ؟؟».

سألتُها قلِقاً، فأجابتْ:

«آه... لقد... كنتُ مع رغد قبل قليل».

ففهمتُ أنَّ لديها ما تقوله... فقلتُ:

«ماذا قالتْ؟؟».

فأجابتْ بتردُّد:

«تركتُها وهي تعدُّ حقيبتها... مصرَّةً العودة إلى الوطن... مع وليد».

عن نفسي كنتُ أتوقّع هذا... لمْ يفاجئني موقف رغد... لكنني أريد أنْ أحسمَ الوضع نهائياً مع وليد...

«إذنْ... سأطلب مِن وليد شراء تذكرة لها وأخذها معه، وننتهي».

وضربتُ الحائط مِنْ غيظي... وصحتُ:

«إنها لا تريده إلا هو... فليأخذها معه ويريحنا... أنا تعبتُ مِنْ هذا...».

كنتُ مجروحاً مِنْ إصرار رغد على موقفها... ولا مبالاتها بي...

قالتْ دانة:

«لا تنفعل... دعه يعود... وسأتحدَّث أنا معه أنا أوّلاً... لقد نقل الوصاية إليكَ كما أخبرني... لنْ يأخذها معه... سيُقنعها بالبقاء معنا».

فقلتُ:

«وما الجدوى إنْ كانتْ ستبقى معنا وبالها معلَّق معه؟ ألمْ ترَي حالتها قبل حضوره؟ لا أريد أنْ يوليني المسؤولية على فتاة شبه حيَّة... فليأخذها وليخلِّصني مِنْ هذا العذاب».

مدَّتْ دانة يدها وربَّتتْ على كتفي وقالتْ:

«هوِّن عليكَ أخي».

فقلتُ منفعلاً:

«أنا تعبتُ... لقد كنتُ على وشك وضع نهاية لهذا العذاب... هو مَنْ اعترض طريقي وجلبني إلى هنا... هل سيتحمَّل هو عذاباتي الآن؟».

صمتْنا برهة... ثمَّ إذا بدانة تسأل:

«هل... يعرف هو أنَّها...».

فأجبتُ مقاطعاً:

«طبعاً يعرف... وعليه هو أنْ يواجهها بحزم ويوقظها ممَّا هي فيه. إلى متى سيتركها تتعلَّق به وتجري متخبِّطة خلفه... بينما هو متزوِّج ومشغولٌ بزوجته؟؟».

قالتْ دانة متسائلةً:

«هل... يحبُّها؟؟».

فاستغربتُ السؤال الدخيل وقلتُ:

«و ما أدراني...؟! المهم أنّه متزوِّج ومشغولٌ بها... وليس شاغراً مِنْ أجل مشاعر رغد...».

قالتْ دانة موضِّحة:

«أعني... ماذا عن مشاعره هُوَ؟».

فنظرتُ إليها باستغراب... وقلتُ مُستفهِماً:

«مشاعر مَنْ؟؟».

ورأيتُ نظرة ارتياب غريبة على عينيها أوحتْ إليّ بأنها تلمِّح إلى شيء... فسألتُها:

«ماذا تعنين بمشاعره هُوَ؟؟».

فقالتْ مترددة:

«أعني... بما يشعر به هو... نحو رغد».

فحملقتُ فيها تجتاحني الحيرة والدهشة... وقابلتْني بنظرة جديَّة وكأنها تعتزم قول شيءٍ مهم... وأخيراً تكلّمتْ:

«سامر... سأخبركَ بما قالته لي أُمّي رحمها الله... عندما زرتُها بعد ليلة زفافي...».

أثار كلامها اهتمامي الشديد وسألتُها بفضول:

«ماذا... قالتْ...؟؟».

فأجابتْ بنبرةٍ جديَّة جعلتْني أصغي بكل اهتمام وتركيز:

«عندما أخبرتُها... عن قرار رغد المفاجئ بالانفصال عنكَ... وعنْ حالتها المتقلِّبة الغريبة تلك... بُعَيد سفر والديَّ للحج... وعنْ بعض التفاصيل التي حصلتْ... قالتْ أنَّ ذلك ما كانتْ تخشاه... وأنّها... كانتْ قد لاحظتْ تغيّرات على رغد... بعد عودة وليد».

صمتتْ أختي لترى مدى تأثير الكلام عليَّ حتى الآن... فحثثتُها على المتابعة بلهفة:

«وبعد؟؟».

فتابعتْ:

«أنا بالفعل... لاحظتُ عليها تغيّرات مزاجية كثيرة في تلك الفترة... لكنّني لمْ أتوقّع للحظة أنْ يكون السبب... هو وليد!».

نعم وليد! وليد الذي ظهر فجأةً... واستحوذ على قلب رغد... وأبعدها عنّي...

واسترسلتْ:

«كما لمْ أكنْ أبداً لأتوقّع... أنَّ...».

وصمتتْ مترددة وكأنها تخشى قول الجملة التالية. شجّعتُها وقلتُ:

«ماذا؟؟ أكملي؟؟».

قالتْ:

«لمّا أخبرتُها عن ارتباط وليد المفاجئ بالفتاة المزارعة... حزنتْ وتألّمتْ كثيراً... وأخبرتْني أنَّ وليد... كان أيضاً يحبُّ رغد كثيراً في صغره... كلّنا نعرف ذلك... لكن... ما لمْ نكنْ نعرفه... هو أنّه... حسب كلامها وحسبما تيقّنتْ هي منه... أنّه... حتى بعد عودته مَنْ السفر... أعني مِنَ السجن... كان لا يزال يحبُّها... ويحلم بها... وقد صُدِم بزواجكما...».

حملقتُ في دانة بذهول... بتيهٍ وضياع... غير قادر على استيعاب ما تقول... بقيتُ مطرقاً رأسي مذهول العقل منفغر الفاه... ثمَّ نطقتُ مأخوذاً بالدهشة:

«مـ... مـ... ماذا تقولين؟؟!!».

فأجابتْ والمزيد مِنَ القلق يظهر على وجهها:

«ربّما لمْ يكنْ يجدُر بي قول هذا ولكن...».

ولمْ تتم...

فنظرتُ إليها بتشتّتْ... واتسعتْ حدقتاي بدهشة بالغة... وقفزتْ إلى ذاكرتي فجأة كلمات أمّ حسام لي ذلك اليوم...

فإذا بلساني ينطق دون وعيٍ منّي:

«هذا... مُـ... مُستحيل!!».

وإذا بدانة تقول:

«هذا ما قالتْه أمّي... إنّه كان لا يزال يحبُّها... وأنها وجدتْ صورةً قديمة لرغد عنده ذات مرّة».

- وليد -

كنتُ في الصباح قد ذهبتُ مع نوّار إلى مكتب الطيران واشتريتُ تذكرةَ سفر وأكّدتُ رحلتي، والتي ستكون مباشرةً إلى شمال الوطن.

حاولتُ الاتصال بالمزرعة وبهاتف أروى دون جدوى. لكنّني اتصلتُ بالسيد أسامة واعتذرتُ له عن اختفائي المفاجئ وذكرتُ له أنني سأعود قريباً. كما اتصلتُ بسيف وطمأنتُه على أخباري...

وبعد عودتي للمنزل وفيما أنا أعبر الممرَّ المؤدي إلى غرفة نومي رأيتُ سامر يقف في منتصف الطريق...

كان جلياً عليه أنّه واقفٌ ينتظرني لأمرٍ مهم... وأنا أعرف ما هو الأمر...

«مرحباً سامر... متى استيقظتَ؟؟».

سألتُه بمرونة فردّ باقتضاب مباشرةً:

«أريد أنْ أتحدَّث معكَ».

كان يبدو منفعلاً... التوتُّر يخطُّ تجاعيد متشابكة على قسمات وجهه. قلتُ وأنا أسبقه إلى الغرفة وأفتح الباب:

«تفضَّل».

دخلنا الغرفة وتركنا الباب مفتوحاً. دعوتُ أخي للجلوس لكنّه وقف قرب الباب مُستعجِلاً على الحديث فوقفتُ أمامه وسألتُ:

«خير؟؟».

نظر إليَّ سامر بنظرة تمزج الحزن واللهفة... والغضب والقهر... ثمَّ قال:

«وليد... سأسألكَ سؤالاً... وأرجوكَ... أرجوكَ.. أنْ تجيب عليه بمنتهى الصراحة».

نبرته أصابتْني بالقلق... فقلتُ:

«ماذا هناك؟؟..».

فركّز سامر نظره إليّ وقال:

«أجبني بكل صراحة يا وليد».

فقلتُ وقد تضخَّم قلقي مِنْ جدّية نظرته:

«اسأل؟؟ لقد أقلقتَني».

فإذا بسامر يزمُّ شفتيه ثمَّ ينبس قائلاً:

«كيف تشعر... نحو رغد؟؟».

فاجأني السؤال... أذهلني... عصف بقدرتي على الاستيعاب... أو ربَّما لم أسمع جيّداً.. ماذا سأل أخي؟؟

قلتُ:

«عفواً؟؟».

فقال أخي وقد زاد توتّره واحتدّتْ نبرته:

«أقول كيف تشعر نحو رغد؟؟».

وكان يحملق بي بشدّة راصداً كل انفعالات وجهي وتغيُّرات لونه... تكاد نظراته تسلخ جلدي لتقرأ ما هو أعمق منه... وفجأة إذا به يقول:

«أحقاً... كنتَ... تحبُّها؟؟».

ولمْ أشعرْ إلا بالدماء تفور في وجهي فجأة... وتصبغه بلون شديد الاحمرار... حتى أنّني خشيتُ أن تتصبَّب قطرات الدم مِنْ جبيني ممزوجة بزخَّات العرق...

لساني ألجمتْه المفاجأة... وعيناي قيَّدتهما عينا أخي وهما تتربَّصان بردِّي... كان أخي يكاد يلتهمني بنظراته ورأيتُه يعضُّ على شفته السفلى توتراً... ويكاد يصرخ منفعلاً...

عصرتُ لساني حتَّى خرجتْ الكلمات التالية مِنْه عنوةً:

«ما... ماذا تعني يا سامر! ما هذا السؤال؟؟».

وما كان مِنْ أخي إلا أنْ ركل الباب الذي نقف قربه بعنف وكرَّر سؤاله بعصبيّة:

«فهمتَني يا وليد... وسؤالي واضحٌ جداً... قل لي هل فعلاً كنتَ تحبُّ رغد؟؟ هل أنتَ تحبُّها الآن؟؟ أخبرني قبل أنْ أُجنَّ...».

وللحالة الرهيبة التي اعترتْ أخي... خشيتُ أنْ يحصل أي شيء... فقلتُ محاولاً كبت مشاعري والتظاهر بالمرح:

«نعم أحبُّها!».

فرمقني أخي بنظرة حادّة قاطعتُها بقولي:

«أحبُّها مثل ابنتي تماماً! أنا مَنْ تولَّى تربيتها مع والدينا... وصرتُ أباها بالوصاية بعدهما».

محاولاً أنْ يظهر ردّي مَرِحاً ومُقنِعاً قدر الإمكان... أخي... نظر إليَّ بارتياب... ثمَّ قال:

«هل هذا كل شيء؟؟ أجبني بصراحة».

فتظاهرتُ بالابتسام وقلتُ:

«طبعاً هذا كل شيء!! سامر... ما بالكَ تطرح سؤالاً مُضحِكاً كهذا!؟».

فأخذ يحملق بي... ثمَّ يشتِّت أنظاره مِنْ حولي... ثمَّ يقول:

«لكن... دانة تقول... أنَّ أمِّي أخبرتْها قبل وفاتها... أنّكَ... كنتَ تحبُّ رغد منذ الصغر... وتتمنّى الزواج منها».

فكّرتُ بسرعة... بسرعة... في تعبير يطمس الحقيقة في الحال... ولمْ أجدْ إلا الضحك... أخفي خلفه الألم المرير...

أطلقتُ ضحكةً قويةً... بل كانتْ قهقهةً مجلجلة... ربّما وصلتْ إلى أعماق الذكريات النائمة في قلبي وأيقظتها...

ضحكتُ وأنا أواري الدموع خلف طبقات مِنَ المشاعر الزائفة...

ولمّا انتهيتُ مِن نوبة الضحك المفتعلة قلتُ بسخرية مفتعلة:

«أضحكتَني يا سامر! ماذا دهاكَ!؟ أنا أفكِّر في رغد هكذا!!؟ هل سمعتَ عنْ أبٍ يتمنّى الزواج مِنْ ابنته!! أي سخافة هذه!!».

وقهقهتُ مِنْ جديد... لأنفض عنْ أخي أي غبار متبقٍ مِنَ الحقيقة... حتّى أنّني مِنْ شدّة ضحكي بلّلتُ رموشي...

نظرتُ إلى أخي مُفتعِلاً المرح... فرأيتُ الارتياب يتسرَّب خارجاً مِنْ عينيه ويتسلّل الارتياح إليهما... يبدو أنني أدّيتُ دوري بمهارة... وأقنعتُه بما قلتُ... أحسنتَ يا وليد! كيف أطاعكَ لسانكَ على ذلكَ!؟!

نظر أخي إلى الأرض، ثمَّ إليَّ... وقال:

«هل هذه هي الحقيقة البحتة؟؟».

فقلتُ مباشرة مؤكِّداً:

«بربِّكَ سامر! لقد ساهمتُ في تربيتها وتربية دانة... ألا تذكر؟؟ كلاهما مثل ابنتيّ تماماً».

ظهرتْ الحيرة والتردُّد على وجه أخي... ثمَّ قال مُستسلماً:

«آسف... دانة أربكتْني...».

وسكت برهة ثمَّ أضاف:

«أنا أيضاً بدا لي كلامها غير معقول... لا بد وأنّه... سوء فهم...».

وعاد يكرر:

«آسف وليد».

فابتسمتُ وقلتُ:

«لا عليكَ».

لا عليكَ! فأنا معتادٌ على تلقِّي طعنات مِنْ شتَّى الأنواع والمصادر... إلى قلبي... أصبحتْ لديه مناعة ضد الخناجر... لا عليكَ!

صمتنا قليلاً ثمَّ إذا به يقول:

«الآن... يجب أنْ تتحدَّث إليها بشكلٍ حاسم... وتُفهِمها بأنّك تحبُّها وتقدِّم لها الرعاية والنصيحة كأب... وأنْ تُقنِعها بأنَّ بقاءها هنا... معي ومع دانة... هو خيرٌ لها مِنَ العودة معكَ...

فهي تحزم أمتعتها للحاق بكَ».

شددتُ على قبضتي... وقلتُ:

«أحقّاً؟؟ ومَنْ قال لها أنني سآخذها معي أصلاً؟؟».

فقال أخي:

«هِيَ تفكّر هكذا... تريد أنْ تلحقَ بكَ أينما ذهبتَ».

ابتلعتُ المرارة في حلقي وقلتُ:

«أنا لمْ أعدْ وصياً عليها... إنّها تحتَ مسؤوليّتكَ أنتَ الآن».

فقال راجياً:

«أرجوكَ... افهِمها هذا... اخبرها بأنْ تتوقّف عن عنادها وصدِّها لي... إنّها ليستْ بحاجة لمَنْ يؤكّد لها مقدار حبّي لها... أنا سأضعها في عينيّ... قُلْ لها ذلكَ يا وليد أرجوكَ».

كنتُ أشدُّ على قبضتي... أكاد أقطع أوتار يدي بأظافري لشدّة ما ضغطتُ...

حاضر يا سامر... سأفعل ما تطلبه... أرجوك أنتَ... يكفي هذا... انصرف الآن...

قلتُ بصوتٍ لمْ يخرج مِنْ حنجرتي:

«حاضر... سأفعل...».

ثمَّ جذبتُ نفساً طويلاً أجدِّد به الهواء المخنوق في صدري وأضفتَ بنبرة راجية:

«سأتحدَّث معها... لكن... سامر.. أرجوكَ أنتَ... دعْها تأخذ وقتها مهما طال... في التأقلم مع الوضع الجديد... لا تستعجلها ولا تلح عليها... خصوصاً الآن...».

فنظر سامر إليَّ نظرةً عميقة وأومأ بالموافقة.

خرجتُ بعدها مِنْ غرفتي راغباً في الابتعاد عنْ أنظار وكلام سامر متظاهراً بعزمي الذهاب إلى رغد والتحدُّث معها... بينما كنتُ في الحقيقة أفتّش عن صحراء شاسعة أطلق فيها صرخاتي، أو جبال شامخة أدكُّها بقبضتي... وللمفاجأة... لأسخف مفاجأة في أسوأ توقيت... رأيتُها هي رغد ذاتها... تقف في الخارج على مقربة...

«رغد!!..».

رمقتْني رغد بنظرةٍ مخيفة... ورأيتُ وجهها يكفهرُّ ويصفرُّ... ورأسها يفترُّ يميناً وشمالاً... ثمَّ إذا بها تولّي هاربة إلى الجناح الآخر...

- رغد -

كنتُ ذاهبةً لأتحدَّث معه وأطلب منه بل أتوسّل إليه... أنْ يصطحبني معه إلى الوطن...

كنتُ سأبوح له بمشاعري... ورغبتي في البقاء معها هو... أينما كان... لمْ أكن لآبه للشقراء... لنْ يهمّني وجودها ما دمْتُ مع وليد... لنْ أكترثَ للخطر... لنْ أكترثَ للحرب... لنْ أكترثَ للرعب... كنتُ مستعدّة للتنازل عن أي شيء... والرضا بأي شيء... وفعل أي شيء... مقابل أنْ أظلَّ برفقة وليد... أنعم برعايته وأحظى برؤيته... واستسقي مِنْ فيض حنانه وعطفه

اللذين لطالما غمرني بهما منذ الطفولة...

ولمّا اقتربتُ مِنْ غرفته... سمعتُه يتحدَّث ويضحك... كان الباب مفتوحاً... وكان في الداخل يتكلّم مع شخصٍ ما... توقَّفتُ وهممتُ بالانصراف... فإذا بي أسمع صوته يقول:

(«أضحكتَني يا سامر! ماذا دهاكَ!؟ أنا أفكّر في رغد هكذا!؟ هل سمعتَ عنْ أبٍ يتمنّى الزواج مِنْ ابنته!! أي سخافةٍ هذه!!»).

كان يسخر مِنْ مشاعري... يستخفُّ بحبِّي...

سمعتُه يضحك... ويذكر اسمي... ويقول إنني كابنته تماماً...

وليد قلبي... يسخر منِّي...!

بعد كل ذلك الحبِّ الكبير... المشاعر الصادقة الخالصة... التي أكننتُها له طيلة الوقت.. بعد كل أحلامي وآمالي المتعلِّقة به هو... هو وهو فقط... ألقاه يضحك ساخراً مِنِّي!

أنا يا وليد تفعل بي هذا...؟؟

أحسستُ بإهانة كبيرة... وحرجٍ شديدٍ غائر... وخذلان هائل... مِنْ أقرب وأحب الناس إليَّ...

جرحني ما سمعتُ الجرح الأكبر والأعمق والأشد عنفاً وإيلاماً في حياتي...

لمْ أستطع بعد سماع ذلك مقاومة فضولي... وبقيتُ أنصتُ إلى ضحكات وليد قلبي... الساخرة منّي... وقلبي ينصفع... ويتزلزل... وينهار... والدهشة تسلبني المقدرة على الانسحاب...

كمْ كنتُ ملهوفةً عليه... لكن... بعد موقفه الساخر منِّي... وبعد تنازله عنِّي بهذه البساطة وكأنّني قطعة أثاثٍ بالية... لمْ أعدْ أرغب في رؤية وجهه... وسوف لنْ أتحدَّث معه ثانيةً... ولنْ أسمحَ له بالدخول مهما طرق...

لنْ أذهب معه... لنْ أودِّعه... لنْ أكترثَ به... ولنْ أفكِّر فيه بعد الآن...

لنْ أسامحكَ يا وليد... أبداً... أبدا...

أخيراً توقَّف الطرق انصرف وليد... ولمْ أعد أشعر بوجوده خلف الباب. أشحتُ بوجهي إلى الناحية الأخرى...

لمحتُ اللوحة التي قضيتُ الساعات الطويلة... في الأيام الماضية... أُودِعُها كلَّ طاقاتي ومواهبي لأرسمها مطابقةً للواقع... لوجه وليد... حبيبي وليد... وهو ينظر إليَّ ويلوِّح بيده...

لم أطق رؤيتها والنظر إلى عينيه... ضحكاته لا تزال ترنُّ في رأسي... قمتُ إلى اللوحة... ولطّختُها باللون الأسود... حتّى جعلتُها قطعةً مِنَ الليل الذي لا ينتهي... وأوقعتُها أرضاً...

وبعثرتُ كل اللوحات التي رسمتُها لوليد ولأبي ولأمّي... ورميتُ بالصور الفوتوغرافية بعيداً وصفعتُ لوح الألوان بالجدار... ثمّ ارتميتُ على سريري أخلط بكائي بسعالي... وأنفاسي بآهاتي... وكلماتي بصرخاتي...

أنا... مِنَ اليوم فصاعداً...

«أكرهكَ يا وليد!».

حين يئِستُ مِنْ فتحها الباب، ابتعدتُ عن غرفة رغد وفتّشتُ عن دانة. وصلتُ إليها عبر الهاتف المحمول، كانتْ في جناحها الخاص فطلبتُ أنْ نتقابل بمنأى عن الآخرين فدعتْني إلى غرفة خاصة في جناحها.

كنتُ مشوّشاً إثر ما قاله أخي أولاً... ثمّ هروب رغد منّي وتلك النظرة القاتلة التي رمتْني بها ثانياً...

أحسّتْ شقيقتي باضطرابي فسألتْني مباشرة:

«هل تحدَّث سامر معكَ؟».

ممّا جعلني أيقن أنها تدرك ما جئتُ لأجله، فاختصر الطريق وأقول مباشرة:

«ما ذلك الجنون الذي قلتِه لسامر يا دانة؟؟».

دانة نظرتْ إليَّ مطوّلاً ولمْ تبادر بالإجابة... لكنّها فهمتْ ما أعني، فقلتُ بصوتٍ جاد:

«اسمعيني يا دانة... ما كان يجدر بكِ نقل كلامٍ كهذا إلى سامر... إنّه يمر بظروف نفسيّة صعبة... أنتِ لا تعرفين شيئاً عن الصعوبات التي واجهتُها مِنْ أجل ترحيله عن الوطن... ليستْ لديكِ أدنى فكرة عن الأمور الفظيعة التي اضطررتُ للقيام بها كي أنقذه...».

أخذتْ دانة تُصغي إليَّ بجل الاهتمام، فتابعتُ:

«لا أريد أنْ يضيع كل ذلك هباءً... أنا لا تهمُّني تلك الأمور... إنّما تهمُّني سلامةُ أخي وأمانُه... ولستُ مستعداً لفقده... أو خوض مغامرةٍ مشابهة... تتعرّض حياته فيها للخطر... هل تفهمين؟».

وبدا عليها الارتياب والحيرة فقلتُ بتفصيل أدق:

«سامر ارتكب حماقةً كبيرة بانضمامه إلى المنظّمة المشاغبة في الوطن... كان قاب قوسين أو أدنى مِنَ الهلاك الحتمي... لو يعود للوطن وتطاله أيدي السلطات أو الأيدي الخفيّة للمنظّمة... فسيُعدم فوراً... أنا أريده أنْ يستقرّ هنا معكِ... وينسى الماضي... ويبدأ حياته مِنْ جديد».

فتفوّهتْ دانة أخيراً بين سؤال وإقرار:

«ومع رغد؟!».

عضضتُ على أسناني وشددتُ قبضتي... ثمّ قلتُ:

«إنّه لن يجرؤ... على المجازفة بحياته... وهي تحت مسؤوليّته... سيحافظ على نفسه جيّداً... كي يحافظ عليها».

فنظرتْ إليَّ دانة نظرةً مريرة ثمّ قالتْ:

«لكنّها... أعدّتْ حقيبتها... للسفر معكَ أنتَ».

أطلتُ النظر في عينيها ثمّ قلتُ:

«لنْ آخذها معي... مهما حاولتْ هذا أمرٌ مفروغٌ منه».
ثمَّ وقفتُ وقلتُ:
«أريدكِ أنْ تأتيَ معي الآن وتخبريها بأنّني أرغب في حديثٍ مهمٍ معها».
فوقفتْ وهي تقول:
«وسامر؟؟».
فقلتُ محذّراً:
«سامر اتركيه وشأنه... ولا تحشي رأسه بأشياء خطيرة كهذه... مِنْ شأنها أنْ تعيدنا إلى الصفر».
واستدرتُ لأنصرف فإذا بي أسمعها تقول:
«إذنْ ما أخبرتْني به أُمّي صحيح؟؟».
تسمّرتُ في مكاني برهة... ثمَّ قلتُ:
«لا أعرف بماذا أخبرتكِ بالضبط ولا يهمُّني أنْ أعرف. فقط احتفظي بكلامها بعيداً عن سامر تماماً».
وإذا بي أحس بشيءٍ يمسك بذراعي... ثمَّ إذا بدانة تظهر أمام مرآي وتحدِّق في عيني بحرارة وتقول:
«أخبرني أنا... أعدكَ بألاَّ أُطلِع سامر على شيء... أدركتُ فداحة خطئي بإخباره...
هل حقاً كنتَ تحبُّ رغد وترغب في الزواج منها منذ صغركَ؟؟».
تملّكني الحنق مِنْ طرح السؤال الأشد إيلاماً في حياتي... وإجبار لساني على خيانة قلبي... فقلتُ غاضباً:
«سخافة... أحذّركِ... إيّاكِ أنْ تكرِّري قول شيءٍ كهذا على مسامع سامر أو رغد...».
حملقتْ دانة بي كأنّها تحاول قراءة ما يدور بخلدي... عيناها كانتا شبيهتين بعيني أمّي... ما جعلني أشعر بحنين شديد إلى الغالية الفقيدة... خصوصاً هذه اللحظة... وأنا اكتشف أنّها كانتْ تفهمني وتفهم حقيقة مشاعري... في الوقت الذي كنتُ أشعر فيه... بأنَّ الدنيا كلّها قد تخلّتْ عنّي... ولمْ يعدْ أحد يكترث لي...
«وليد... لماذا أنتَ غامض؟ لماذا لا أستطيع فهمكَ... لماذا لا تصارحني... مثل سامر؟ أنتَ أخي أيضاً... وأحبُّكَ كما أحبُّه... وأتمنّى أنْ تبقى معنا... وأنْ تعيش سعيداً ومرتاحاً».
لمستُ عطفاً وحناناً فائقين في كلمات شقيقتي... مشاعر صادقة دافئة... لطالما استمتُّ لأحظى بمثلها منذ سنين... لمْ أجدْ مَنْ يمدّني بعوضٍ عنها غير أروى... التي تجمّدتْ علاقتي بها منذ شهور... مُذ عرفتْ أنّني قتلتُ عمّار...
مددتُ يدي وشددتُ على يدي شقيقتي ممتنّاً... على لحظة العطف هذه... وقلتُ:
«سعادتي وراحتي... في أنْ تكونوا أنتم الثلاثة... بخيرٍ وفي أمان».
وعبثاً حاولتْ دانة إقناع رغد بالسماح لي بالحديث معها... وانتهى ذلك اليوم... واليومان

التاليان، ورغد منزويةٌ على نفسها في غرفتها... ترفض مقابلتي نهائياً...

وحلَّ يوم الرحيل...

أنا الآن... أعدُّ حقيبة سفري الصغيرة، التي جلبتُها معي مِنَ الوطن... موشِكاً على المغادرة...

سأرحل... وأترك عائلتي هنا.. قلبي هنا... كل المشاعر... وبقايا الأحلام المستحيلة...

سأحمل جروحي بعيداً... إلى مكانٍ أبرد مِنَ الثلج... وأدفنها تحت الجليد...

أخيراً... آن الأوان... لكلمة الوداع...

أخيراً... يا وليد...

كل لعبة قدر... وأنتَ بخير!

فيما أنا أدخل يدي في جوف الحقيبة، أمسكتُ بشيءٍ ما... كان يتربّع في قعرها... شيءٍ ذُهِلتُ حالما استخرجتُه ورأيتُه أمام عيني...

أتعرفون ما كان؟؟

صندوق أماني رغد!!!

يا للمفاجأة!!

أخذتُ أقلِّب في الصندوق محاولاً التأكُّد منه... إنّه هو... وهل أتوه عنه!؟

ضحكتُ مِنْ نفسي!... بل أطلقتُ ضحكات لا أضمن لكم أنّها لمْ تصل إلى مسامع أحد..

يا للمسكين! كيف لا يزال هذا الصندوق حيّاً...؟! هل لحق بي كل هذه المسافة... مِنْ شرق الأرض إلى غربها...؟؟ هل حملتُه معي دون أنْ انتبه؟؟ أما زال هذا الصندوق مصرّاً على تذكيري بالأماني الخرافيّة الوهمية المستحيلة... التي حلمتُ بها ذات يوم؟؟

لقد عرفتُ...

شاءتْ الأقدار أنْ أجلبكَ معي... ولو بدون قصد... حتّى أعيدكَ لصاحبتكَ.. قبل الوداع... الذي لنْ يكون هناك لقاءٌ بعده...

أبداً... لنْ تتحمَّل هذه المضغّة التي تنبض في صدري منذ تخلّقي في رحم أُمِّي... أنْ تستمرَّ في العمل لحظةً واحدةً... بعد أنْ تختفي رغد والأمل الواهم الذي تعلّقتُ به منذ صغري... بأنْ تصبح لي...

أبقيتُ الصندوق بين يديَّ... أمام عيني... وأخذتُ استرجع شريط الذكريات القديمة... عندما جاءتْ طفلةٌ صغيرةٌ تحمل كتابها المدرسي وتطلب منِّي أنْ أصنع لها صندوقاً مماثلاً لذلك المصوَّر في الكتاب... ثمَّ إذا بتلك الطفلة... تكتب أمنيتها الأولى... وتدسُّها بكتمان... في جوف الصندوق...

أنا مستعدٌّ... لأنْ تُستلَّ روحي بعد دقيقة وأنتقل إلى العالم الآخر فوراً... مقابل أنْ تظهر تلك الطفلة أمامي مجدداً... لدقيقة واحدة... واحدة فقط... أضمُّها إلى صدري... وأمسح على شعرها الحريري... وأقبِّل جبينها الناعم...

يا حبيبتي.. يا رغد...

دقيقة واحدة فقط...

الشوق المنجرف إليها جعلني أستخرج قصاصات صورتها القديمة... وألملمها على سريري... وأُحدِّق فيها... كدتُ أغرق في الوقت الضائع... في الوقت الذي يجب فيه أنْ أستفيق... أنْ أَثبتَ وأحسمَ الأمر... أنْ أتماسك لئلاً أُغرِق السفينة بانهياري...

وداعاً... يا رغد...

لمْ أشعر إلا وأصابعي تطبق على القصاصات... تضمُّها إلى صدري قصاصةً قصاصة... ثمَّ تطويها... وتدفنها داخل الصندوق... هناك... حيث مقبرة الأماني الميتة... التي لنْ تعود للحياة...

ولمْ أعِ... إلا وصورة رغد... الصورة التي نامتْ تحت وسائدي أو فوق صدري... لأكثر مِنْ عشر سنين... مئات الليالي وآلاف الساعات... قد اختفتْ مِنْ أمامي... نهائياً...

وحانتْ لحظة المواجهة الأخيرة...

كنتُ سأذهب إلى المطار مع نوّار بعد قليل... وكان سامر ودانة سيرافقاننا... أما رغد.. حبيبتي رغد... ودعوني أقول (حبيبتي) قدر ما أشاء... لأنَّني لنْ ألفظها بلساني يوماً... ولنْ أقولها في سرِّي بعد هذا اليوم...

أقول أنَّ حبيبتي رغد قد رفضتْ حتّى أنْ تخرج مِنْ غرفتها لحظةً... لتودِّعني...

كانتْ آخر مرَّة رأيتُها فيها صباح ذلك اليوم... عندما صادفتُها قرب غرفتي... تنظر إليَّ النظرة الصفراء... وتولِّي هاربة...

أظنُّها كانتْ قادمةً إليَّ تريد التحدُّث معي وأظنُّها سمعتْني أتحدَّث إلى سامر وأوصيه بها... فتراجعتْ... ثمَّ رفضتْ أنْ تقابلني...

لمْ أستطع الخروج دون أنْ ألقي النظرة الأخيرة... لا يمكنني ذلك... إنَّني لنْ أراها ولنْ أرى حتَّى صورتها بعد الآن... دعوني أقابلها ولو للحظة... للحظة ختاميّة... نهائية...

لا أصعبَ مِنْ هذه الكلمة... لا أصعبَ مِنْ هذه اللحظة... لا أصعبَ مِنْ أنْ تحاول وصف ما لا يمكن وصفه... بأي شكل...

أنا وليد... وبعد سبعة عشر عاماً مِنَ الحبِّ المنجرف إلى رغد... وبعد آلاف وآلاف السطور الذي ملأتُها بأحرف حبِّي... أحكي وأشكي... وأضحك وأبكي...

بعد ملحمة المشاعر العظيمة... وأسطورة العشق الخرافي...

بعد كل الأحداث والمواقف... والأقوال والأفعال...

بعد كل ذلك الصراع والضياع... كل ما عشتُه وما عاصرتموه معي منذ اقتحمتْ حياتي حتى هذه اللحظة...

أنا وليد... أخيراً... أتخلَّى عن حبِّ رغد... وابتعد عنها... إلى حيث لا رجعة...

إنْ بقيتُ أصف حالي... فسنبدأ حكايةً لنْ تنتهي... فيما حكايتنا قد شارفتْ على الانتهاء...

طلبتُ مِنْ شقيقيَّ انتظاري في الصالة... وحملتُ صندوق الأماني وذهبتُ إلى غرفة رغد. طرقتُ الباب وسألتُها الإذن بالدخول فلمْ تأذن لي. رجوتُها وألححتُ عليها مراراً حتّى أنّي... أقسمتُ عليها وسألتُها بالله أنْ تسمح لي بحديثٍ أخير... وما كادتْ تسمح...

وأخيراً... فتحتُ الباب...

كانتْ تجلس على سريرها موليةً ظهرها إليَّ... لمْ تلتفتْ نحوي لتمنحني نظرة الوداع...

ناديتُها فلمْ ترد عليَّ... فتوغّلتُ داخل الغرفة مقترباً منها أكثر...

عند ذلك انتبهتُ على اللوحات المصفوفة على الجدار... صورة أُمّي... صورة أبي... وصورة تخفي معالمها تحت سحابة مِنَ السواد... لمْ يكن مِنَ الصعب أنْ أعرف أنها صورتي أنا...

نظرتُ إلى رغد ولمْ أعرف ما أقول... مِنْ أين أبدأ... وكيف أتكلّم...

وهل بقيتْ أي كلمات... تصلح للتعبير؟؟

لطالما كانتْ رغد تعبِّر عن مشاعرها بالرسم... أمّا أنا فبأي شيءٍ سأعبِّر عن مشاعري الآن يا رغد...؟؟

أخيراً استجمعتُ رذاذ شجاعتي ونطقتُ:

«هل هذا السواد... هو ما يحمله قلبكِ نحوي يا رغد؟؟».

لمْ ترد. قلتُ:

«لا أريدكِ أنْ تكرهيني يا رغد... صدِّقيني.. أنا مضطرٌ جداً... لفعل هذا».

لمْ تتجاوب. اقتربتُ منها أكثر وسألتُ:

«ألا تصدِّقينني يا رغد؟؟».

وأيضاً لمْ تتجاوب...

شعرتُ بالألم الشديد لتجاهلها لي... في آخر اللحظات التي تجمعنا... على الإطلاق...

انصهر صوتي وأنا أقول بخيبة شديدة:

«ألنْ تودِّعيني يا رغد؟؟... سأذهب الآن... وقد... لا نلتقي ثانيةً...».

عندئذٍ... سمعتُ آهةً تصدر مِنْ حنجرتها بمرارة... تلاها سعال مكبوت... ثمَّ شهقات وزفرات شجيّة... كانتْ صغيرتي تبكي... وتخفي عنّي وجهها ودموعها... وكأنّها لا تعلم بأنّني أحسُّ بها تقطر مِنْ قلبي قبل أنْ تسيل على خديها...

قلتُ متألّماً:

«رغد... صغيرتي... يتمنّى المرء منّا أشياءً كثيرةً ولكن... ظروف الحياة لا تسمح بتحقيق كل أمانينا...».

وراقبتُها فلمْ أرَ منها أيَّ تفاعل...

واصلتُ:

«أنا... حاولتُ بكل جهودي... أنْ أوفِّرَ لكِ أفضل حياة... أردتُ أنْ... تكوني سعيدةً ومرتاحة... ومطمئنةً إلى حاضركِ ومستقبلكِ... حاولتُ أنْ أكون... وصياً وأباً جيِّداً... لمْ أبخلْ

عليكِ بشيء وإنْ كنتُ فعلتُ... فأرجوكِ أنْ تسامحيني...».

فأطلقتْ رغد آهة بكاء قويّة تذوب لها الحجارة... كيف لي أنْ أتحمَّل..؟؟

كانتْ لا تزال موشحةً بوجهها عنِّي... مصرَّةً على حرماني مِنَ النظرة الأخيرة...

توسّلتُ إليها:

«رغد... انظري إليَّ».

لكنّها لمْ تفعل...

«أنظري إليَّ أرجوكِ».

لمْ تستجب، بل على العكس... رفعتْ كفَّيها وأخفتْ وجهها خلفهما... لمْ يعد لدي أملٌ في أنْ أراها... تنهّدتُ ورجعتُ خطوةً للوراء... وتأمّلتُها برهة... ثمَّ قلتُ:

«سامر ودانة سيواصلان رعايتكِ... وربَّما أفضل منِّي... وأفضل مِنْ خالتكِ أو أي شخصٍ كنتِ تتمنين أنْ... يهتمَّ بكِ».

هنا نطقتْ رغد فجأة قائلة:

«أنا لا أريد لأحد أنْ يهتمَّ بي... أنا لستُ طفلة كما تظنّون... ومِنَ الآن فصاعداً سأتولّى أنا الاهتمام بنفسي... واتخاذ قراراتي... وإذا حاول أحدٌ التدخُّل بشؤوني... أو فرض نفسه عليَّ.. فسوف أوقفه عند حدِّه...».

وكان صوتها متألّماً... وكلامها مهدّداً... تتخلّله شهقات وزفرات البكاء...

قلتُ:

«لا أحد يفرض نفسه عليكِ يا رغد... لا أحد يجبركِ على شيء...».

وأضفتُ:

«لكن... أحياناً... نجد أنفسنا نقدِّم التضحيات طوعاً مِنْ أجل الأشخاص الذين نعزُّهم كثيراً... والذين يستحقُّون التضحية... وكم كنَّا لنشعر بأشد الندم... لو بخلنا عليهم...».

ولمْ تعلّق... فقلتُ:

«أتفهمينني يا رغد؟؟».

انتظرتُ منها أنْ تردَّ عليَّ... أنْ تلتفتَ إليّ... لكنَّها كانتْ أقسى مِنْ أنْ تمنحني الفرصة الأخيرة...

تراجعتُ إلى الوراء... خطوةً تلو خطوة... وقفتُ عند الباب... وعيناي متشبِّثتان بها... تكادان تقتلعان مِنْ مكانيهما... وتبقيان هناك...

«وداعاً... صغيرتي».

أخيراً نطقتُ... وأغلقتُ فمي... وأغمضتُ عينيَّ... أبتلع المرارة الشديدة التي خلّفتْها الجملة الأخيرة... وأمتصُّ الدموع الحارقة التي كانتْ تغلي تحت جفوني...

فتحتُ عينيَّ... ونظرتُ إلى صندوق الأماني الذي كان في يدي... وانعصر قلبي ألماً...

وداعاً أيُّها الصندوق...

كنتَ لي رفيقاً شديد الغموض والكتمان... طوال السنين...

لقد حافظتُ على أسراركَ منذ صنعتُك بيدي... فهل ستكتم أمانيَّ وأحلامي... وحبيبتي... في جوفكَ... إلى الأبد؟؟

وضعتُ الصندوق بهدوء على المنضدة المجاورة للباب...

وأخيراً... أغلقتُ الباب... ببطء... ببطءٍ شديد... إلى أنْ اختنقتْ الفتحة... وانقطع حبل الرؤية الممتد مِنْ عيني... إلى رغد...

وفيما نحنُ نهبط السلالم أنا وسامر ودانة... خارجين مِنْ هذا الجناح في طريقنا إلى البوابة... وأنا مستمرٌ في ترديد وتأكيد وصاياي لأخي... ولأختي... إذا بصوتٍ ينادي بانفعال فيوقفنا:

«وليـــــد».

التفتْنا إلى الوراء... إلى الأعلى... إلى حيث كانتْ رغد تقف... وتنظر إليَّ...

لم تصدِّق عيناي أنّهما تريانها... ما أسرع ما حلَّقتا إليها والتصقتا بعينيها...

أهَذهِ أنتِ رغد... أجئتِ لوداعي؟؟ هل رأفتِ بحالي؟؟...

«خُــذْ!!».

هتفتْ رغد... وهي ترمي باتجاهي بشيءٍ ما... يرتطم بصدري... ثمَّ يقع أمام رجليَّ...

أردتُ أنْ أنظر إلى ذلك الشيء... لكنَّ عيناي رفضتا الانفكاك عن رغد...

وإذا بها تهتف:

«احتفظ به أنتَ... فأنا لمْ أعدْ طفلةً لأحتفظ بشيءٍ تافهٍ وغبيٍ كهذا».

وبسرعة البرق اختفتْ رغد...

لكن عينيَّ ظلّتا تحملقان في المكان الذي كانتْ تقف فيه... تفتّشان عنها... أين اختفتْ فجأة؟؟ أين ذهبت؟؟...

ألمْ تكنْ رغد هنا قبل ثانية؟؟ هل كنتُ أتوهَّم؟؟ هل أصابني الهوس والجنون؟؟

انتبهتُ مِنْ ذهولي وحملقتي على صوت دانة تقول:

«ما هذا؟».

التفتُ إليها فإذا بها تنظر باتجاه قدمي... طأطأتُ رأسي ونظرتُ... فهل تعلمون ماذا رأيتُ؟؟

نعم... لقد حزرتم...

صندوق الأماني!!

- أروى -

«وليد!!».

اندهشتُ بشدَّة عندما رأيتُه يقف أمامي، بعد كل تلك المدة الطويلة التي غابها عنِّي...

عجباً! ألا يزال يذكرني؟؟

مدّ يده ليصافحني، فلمْ أمد يدي إليه. تصافحني يا وليد؟؟ بعد كل هذا الغياب... هذا التجاهل والهروب منّي... تعود وتصافحني؟؟

«أروى!... ألنْ تسلّمي عليّ؟؟».

سألني ويده لا تزال معلّقةً تنتظر مصافحتي، وخالي يقف جوارنا وعلى وجهه التوسُّل. لكنّني لمْ أقبل...

أشحتُ بوجهي عنه وقلتُ:

«ما الذي أعادكَ؟؟».

سمعتُ خالي يهتف رادعاً:

«أروى!».

فالتفتُّ إليه وإلى وليد وقلتُ:

«وصلتَ متأخّراً جداً...».

وليد طأطأ برأسه ليريني اعتذاره ومدى ندمه... وتكلّم قائلاً:

«مررتُ بأزمةٍ حرجةٍ جداً يا أروى... سأشرح لكِ».

فقلتُ:

«لستَ مضطراً...».

فعاد خالي يردعني، فقلتُ وقد أفلتتْ أعصابي:

«كل هذه المدّة يا خالي وهو غير موجود... يسافر ويرحل... ويغيب كل هذا الزمن... دون خبر... دون كلمة... متجاهلاً لي... متناسياً وجود زوجةٍ في حياته... وتريد منّي أنْ استقبله بترحيب؟؟».

قال خالي:

«يهديكِ الله يا ابنتي دعينا نسمع منه ما حصل أوّلاً».

فما كان منّي إلا أنْ انسحبتُ مِنَ المكان وخرجتُ إلى قلب المزرعة.

بعد مرور فترة، جاء خالي إليّ وطلب منّي الذهاب معه للتحدُّث مع وليد فأبيتُ. أخبرني بأنّ وليد شرح له الظروف الحرجة التي مرَّ بها وأنها كانتْ بالفعل خطيرة، ورجاني أنْ أصغي إلى وليد وأسمع منه مبرِّراته. وافقتُ مِنْ أجل خالي الذي كان قلقاً بشأن علاقتي مع وليد، والتي اعتبرها أنا... انتهتْ منذ زمن...

في المنزل... تركَنا خالي بمفردنا وذهب ليصنع القهوة. وليد بدأ الحديث بالسؤال:

«كيف أنتِ أروى».

وحقيقة استفزّني ذلك السؤال كثيراً. كيف تتوقّع أنْ أكون وزوجي قد هجرني منذ فترة طويلة وأنا في أوج حزني على أُمّي الراحلة؟؟

لذا قلتُ بجفاء:

«أرجوكَ وليد...! لا داعي لأي كلام جانبي... أخبرني فقط بما أخبرتَ به خالي واختصر ما أمكن».

نظر وليد إليَّ نظرةً حزينةً جداً تفطر القلب.

انتبهتُ الآن فقط... إلى أنَّ شكله قد تغيَّر... كأنّه كبر عشرين عاماً... كان شاحباً ذابلاً هزيلاً نحيلاً... مُنحني القامة... يبدو مريضاً ومرهقاً جداً... وكان شعر رأسه وذقنه طويل وغير مرتّب... عيناه كانتا غائرتين وجفونه مسودَّة... شكله كان مُقلقاً...

قال:

«حسناً يا أروى... أنا لنْ أضغطَ عليكِ في شيء. لقد أخذتِ كفايتكِ مِنَ الوقت للنظر وإعادة النظر والتفكير والتقرير... سأكون تحت أمركِ فيما ستقرِّرين مهما كان... فقط اسمعي منِّي مبرراتي... وموقفي...».

قلتُ والاهتمام يغزوني:

«تفضَّل».

وبدأ وليد يقصُّ عليَّ ما حصل مع شقيقه ومعه... ما اضطر لفعله وكيف تصرّف وإلى مَنْ لجأ وكيف سارتْ الأمور معه منذ اللحظة التي فارقني بها تلك الليلة، ليلة أنْ حضَّرتُ له عشاء مصالحة فتركني وذهب إلى أخيه... وإلى أنْ عاد إليَّ هذه اللحظة...

أحداثٌ بدتْ أقرب إلى الأفلام مِنْها إلى الواقع... عنف... ذعر... شرطة... مطاردة... هروب... مداهمة... هجوم... ضرب... مرض... مستشفى...

أحداثٌ رهيبةٌ اقشعرَّ لها بدني... وذاب لها قلبي وانصهرتْ مشاعري... أمورٌ فاقتْ أبعد توقُّعاتي واستصعب عقلي استيعابها دفعةً واحدة...

كان وليد يتوقَّف مِنْ حين لآخر... يلتقط أنفاسه... ويشرب جرعة مِنْ كأس الماء البارد الذي طلبه مِنْ خالي... ورغم أنّني طلبتُ مِنه الاختصار منذ البداية، إلا أنَّه ذكر الكثير مِنَ التفاصيل بل وحتَّى بعض الأيام والتواريخ والساعات... وتفاصيل المبالغ المالية التي سحبها مِنَ المصرف وكيف وأين صرفها... وأسماء بعض الأطبّاء الذين أشرفوا على علاجه وأسماء بعض الأدوية...

كنتُ أصغي إلى كل ذلك دون أنْ أقاطعه... كنتُ أتجاوب معه عبر الانفعالات التي تطرأ على وجهي كلَّما ذكر شيئاً مثيراً... وحقيقةً كان كل ما ذكره مثيراً ومُربِكاً...

«ثمَّ ماذا؟».

سألتُه بتشوّق عندما رأيتُه يتوقّف عن الكلام أخيراً وقد انتهى مِنْ سرد كل الأحداث... فأجاب:

«ثمَّ استغللت سيارة أجرة وجئتُ مباشرة مِنَ المطار إلى هنا...».

سألتُ راغبةً في المزِيد مِنَ التأكُّد... فقد يكون قد أغفل عن ذكر شيءٍ هو لديَّ أهم مِنَ التفاصيل التي ذكرها:

«جئتَ بمفردكَ؟».

فأشار مِنْ حولي وقال:

«كما ترين...».

فصمتُّ برهة أفكِّر وأتأمّل... ثمَّ سألتُ:

«ثمَّ ماذا؟؟».

فنظر إليَّ وقال:

«يعتمد عليكِ».

أتصدِّقون هذا؟؟

وليد الآن معي... بمفرده...! ترك محبوبته المدلَّلة في آخر العالم وعاد إليَّ...! هل هذا صحيح؟؟ هل تخلَّى عنها مِنْ أجلي؟؟ هل تركها هناك... وعاد ليبقَى معي أنا؟؟

أخذ وليد ينظر إليَّ وكأنّه يريد معرفة ردَّة فعلي. لمْ أكنْ واثقةً مما أريد أنْ أقول أو أفعل، لكن هناك شيءٌ كان السبب في افتراقنا... فهل زال ذلك الشيء حقاً؟؟ هل انتهى؟؟

سألتُه مِنْ جديد:

«و... ماذا عنْ... ابنة عمِّكَ؟؟».

فهو أهم أمر فرَّقنا... ولاحظتُ الحزن الذي اعترى وجهه لسماعه السؤال... واستغراقه في التفكير قبل أنْ يجيب:

«لمْ تعدْ موجودةً معي».

وأشار إلى ما حوله ليؤكِّد أنّها ليستْ معه... لكن... أنا لا يهمُّني أنْ تكون فيما حوله ما دامتْ ليستْ في داخله...

أشرتُ بسبّابتي إلى صدره وقلتُ:

«ولا هنا؟؟».

ففهم وليد المغزى مِنْ إشارتي... وأبعد بصره عنِّي بقلَّة حيلة... ثمَّ عاد ينظر إليَّ وقال:

«ساعديني... في إزالتها...».

ظهرتْ المرارة الشديدة على وجه وليد... وأسند رأسه إلى المقعد وأغمض عينيه... وقال بألم:

«فأنا تعبتُ... وأريد أنْ أرتاح... آه... كم أنا مرهق... مرهقٌ جداً...».

حينها اهتزّتْ مشاعري وساحتْ منسابةً نجو وليد...

أحبُّه... أحبُّه ولا أدري إنْ كان قلبي يستطيع أنْ يغفر له خطيئة حبِّ فتاةٍ أخرى. هل أستطيع أنْ أستعيده؟؟ هل يمكنني المحاولة؟؟ هل سأنجح في اقتلاع حبِّه القديم... وزرع حبِّي أنا... داخل قلبه؟؟

أُمّاه... أخبريني... هل سأستطيع؟؟

كنتُ أجلس بعيدةً عنه، وحين رأيتُه على هذه الحال، اقتربتُ منه وجلستُ بجواره

وطوّقتُه بذراعي. وليد ودون أنْ يفتح عينيه ألقى بثقل رأسه على كتفي وتنهّد وهمس:
«أريد أنْ أرتاح...».

لمْ يشربْ وليد القهوة، ولمْ يتناول العشاء إذ أنّه قال أنَّ معدته تؤلمه واكتفى بطبق المهلبية الباردة، وبعدها ذهب للاستحمام.

كان وليد قد ذكر على العشاء أنَّه يرغب في قضاء عدَّة أيام هنا في المزرعة إلى أنْ تتحسَّن صحَّة معدته وينال قسطاً وافراً مِنَ الراحة. لذا حملتُ حقيبة سفره إلى غرفة نومه وبدأتُ أُفرغ ملابسه وأصفُّها في الخزانة.

لمستُ شيئاً كان محشوراً بين الملابس، وكأنّه قد دُسَّ بينها بعد ترتيبها. ولمّا استخرجتُه... أدهشني وفاجأني أنْ أكتشف أنّه... تلك العلبة!!

هل تذكرون العلبة الورقية الأسطوانية الشكل، التي رأيتُها في غرفة وليد في منزله في المدينة الساحلية، ورميتُ بها في سلَّة المهملات...؟؟

هل تذكرون كيف انفعل وغضب منِّي، ثمَّ استخرجها مِنْ قعر السلَّة وحذَّرني مِنْ لمسها ثانيةً؟؟

هذه العلبة الطفولية المجعَّدة هنا الآن!

هل يُعقل أنَّ وليد... يسافر مِنْ بلدٍ إلى بلد... حاملاً معه شيئاً كهذا!!؟؟

أخذتُ أتأمّل العلبة والطوابع والملصقات الطفوليّة التي تغطِّيها، وكلمة (صندوق الأماني) المكتوبة عليها...

وكان للعلبة فتحةٌ صغيرةٌ في إحدى قاعدتيها يمكن مِنْ خلالها إدخال عملةٍ معدنية أو ما شابه. ليس لديَّ أدنى شكٍ... بأنَّ هذا الشيء يتعلَّق برغد...

حسنا يا رغد... سأساعد وليد على انتزاعكِ... نهائياً...

بحثتُ عن طرف الشريط اللاصق الذي يربط قاعدتي الأسطوانة بجسمها... ونزعتُه...

فتحتُ العلبة... ونظرتُ إلى ما في الداخل... كانتْ مجموعةُ قصاصات ورقية مطويّة...

أفرغتُ محتوى العلبة على سرير وليد فإذا بي أجد بينها قصاصات لصورة فوتوغرافية ممزّقة، سرعان ما اكتشفتُ أنّها صورة رغد!. نفس الصورة التي قبضتُ عليها مختبئةً تحت وسائد وليد... في غرفة نومه... في منزله في الجنوب. ترى... هل خبّأها هنا... بعيداً عنّي؟؟

أزحتُ أجزاء الصورة الممزّقة جانباً ونظرتُ لبقيّة القصاصات. تُرى... ماذا تحوي هذه الأخرى؟؟

تردَّدتُ قليلاً ثمَّ قرّرتُ أنْ أفتحَ القصاصات واطّلع على ما تحتويه.

كنتُ أسمع صوت خرير الماء وحركة وليد في الحمام المجاور.

قرّرتُ في سريرتي... (سأخلّصكَ يا وليد مِنْ كل شيء... يتعلَّق برغد... سأريحكَ منها... تماماً...).

كان هناك خمسُ قصاصات. تناولتُ إحداها... وكُلِّي فضولٌ لمعرفة ما عساه يكون مخبأً

فيها...

[أتمنّى أنْ أصبح رجلَ أعمالٍ ضخم].

لا بد أنَّ هذا خط وليد! لطالما أخبرني بأنّه كان يحلم بأنْ يصبح رجلَ أعمالٍ ناجحاً... مثلما كان والده!

[يا رب اشفِ عين سامر].

وهذا خط طفولي والحروف كبيرة وغير مرتّبة!

هل يُعقل أنّه خط وليد؟؟ كم كان عمره آنذاك؟؟!!

تابعتُ فتح القصاصات بفضول أكبر... لا بد أنّها كانتْ أمنيات وليد منذ أنْ كان صغيراً!!

القصاصة التالية:

[أريد أنْ تصبح ابنة عمِّي رغد زوجةً لي].

تسمَّرتُ على وضعي عندما قرأتُ هذه القصاصة... كان خطاً واضحاً ومرتَّبا... شعرتُ بنبضات قلبي تتسارع بشدَّة، وبقيتُ محملقةً في الورقة لبرهة أعيد قراءتها مرَّة بعد مرَّة... لكن اسم رغد لمْ يتغيّر ولمْ يختفِ...

نظرتُ إلى القصاصتين المتبقيتين... وشعرتُ بأنني فقدتُ الجرأة على فتحهما...

كان خرير الماء لا يزال مستمرّاً... ووليد مشغول باستحمامه... ولا يعرف ما الذي أفعله وعلى أي أسراره أطَّلِع. أنّبني ضميري وهممتُ بإعادة كلِّ شيء إلى مكانه... لكنَّ فضولي تغلَّب على ضميري وتشوّقي لأنْ أقرأ القصاصتين الأخيرتين فاق خشيتي مِمّا قد يكون مكتوباً عليهما...

وتشجّعتُ وتناولتُ إحداهما وفتحتُها...

[يا رب رد إليَّ وليد أرجوكَ فأنا يتيمة وعمّار يخيفني].

كان ذلك مكتوب بخطٍ طفولي... لا يمكن أنْ يكون لوليد... هذه بالتأكيد... لرغد...

أحسستُ بانقباضٍ مفاجئ في صدري... وأعدتُ قراءة المكتوب ثانيةً وثالثةً... وشعور غريب يجتاحني وصورة رغد تظهر أمام عيني كأنّها تنظر إليَّ...

أخذتُ أقارن بين خط القصاصة التي كُتِب عليها [يا رب اشفِ عين سامر] وبين هذه الأخيرة... هناك تشابه وأظن أنّهما للطفل نفسه... لرغد...

يا رب... رد إليَّ وليد... أرجوك... فأنا يتيمة... وعمّار يخيفني...

يا إلهي...

كانتْ الجملة مؤثرة جداً... جداً...

تذكّرتُ منظر رغد عندما انتابها ذعرٌ غريب لدى مشاهدة صورة ابن عمِّي عمّار معلَّقةً على الجدار في مكتب إدارة المصنع... والشتائم التي رمتْه بها... وإصرار وليد على كتم دواعي قتله إيّاه...

قرأتُ الجملة للمرّة الرابعة أو الخامسة أو العاشرة... [يا رب... رُد إليَّ وليد أرجوكَ فأنا

يتيمة... وعمّار يخيفني]...

وتصدّع قلبي... لمْ أشعر إلا ونهرٌ مِنَ الدموع ينسابُ مِنْ عينيَّ...

هل يُعقل أنّني أبكي الآن... على شيء كهذا...؟؟

هل يُعقل أنّ وجداني يهتز... على كلمات كتبتْها رغد وأخفتْها داخل علبة ورقية؟؟

ما الذي يمكن أنْ يكون عمّار قد فعله... ليرعب رغد..؟؟

التفتُ إلى آخر ورقة... ولمْ يطعني قلبي على فتحها...

أخذتُ أعيد قراءة القصاصة التي في يدي... («يا رب رد إليّ وليد»)... وأتخيّل صورة رغد... وأتذكّر لقائي الأخير بها في المزرعة... حين طلبتُ مِنْها أنْ تنسحب مِنْ حياتنا أنا ووليد... والدموع التي فاضتْ في عينيها... وقولها أنَّ وليد هو كلُّ مَنْ لديها...

ثمّ أنظر إلى أجزاء صورتها الفوتوغرافية الممزقة... وأشعر بشيء يتمزّق في داخلي...

يا إلهي...

لماذا أشعر بتأنيب الضمير... وكأنني ارتكبتُ جريمةً في حقِّ هذه الفتاة..؟؟!!

لماذا قلبي مقبوض هكذا؟؟ لماذا صورتها تراقبني هكذا..؟؟

لماذا كانْ تسأل الله أنْ يعيد إليها وليد؟؟ ولماذا كانتْ خائفة مِنْ عمّار؟ لقد ماتَ عمّار ابن عمّي قبل عشر سنين وأكثر... ما الذي جعلكِ تخافين منه يا رغد وكنتِ بالكاد طفلة صغيرة...؟؟

تأمّلتُ صورتها... ثمّ نظرتُ مرّة أخرى إلى القصاصة الأخيرة وجرفني الفضول إليها... فجذبتُ نفساً... وقررتُ أنْ أفتحها...

مددتُ يدي ببطء وتردُّد... كنتُ خائفة مِنْ أنْ أجد فيها شيئاً مؤلماً... لكن... ألا يُحتمل أنْ أجد فيها شيئاً مُبهجاً...؟؟ حسمتُ الأمر وفتحتُها أخيراً... وقرأتُ ببساطة ما كُتِب عليها...

عندئذٍ تجمّدتُ تماماً عن الحركة... وإذا بالدموع الغزيرة تنسكب متواصلة مِنْ عينيَّ... وأنا أحملق مذهولةً في الكلمات المهولة... المكتوبة عليها... بخطٍ طفولي بريء ومُبعثر...

في ذات اللحظة... ظهر وليد فيها قادماً مِنَ الحمّام...

وليد رآني... ورأى العلبة الأسطوانية موضوعة إلى جانبي على السرير... وأجزاء الصورة الفوتوغرافية... والقصاصات الورقية مبعثرة قربي... وقصاصة أخيرة... معلّقة أمام عيني الدامعتين...

وليد ذُهِل... شهق... ثمّ هتف صارخاً:

«ما الذي فعلتِه!؟؟».

وجاء مُسرعاً وتناول العلبة مِنْ على السرير وراح ينظر إليها وإلى الصورة والقصاصات وإليّ... ثمّ يصرخ:

«كيف فعلتِ هذا؟؟ كيف تجرّأتِ؟؟؟ كيف سمحتِ لنفسكِ؟؟».

عند ذلك... طأطأتُ رأسي وأخفيتُ عينيَّ خلف يدي اليسرى... فيما يدي اليمنى لا تزال

ممسكةً بالقصاصة الأخيرة...

لمْ أشعر إلا والقصاصة تطير فجأةً مِنْ بينٰ أصابعي...

ثمَّ لمْ أسمع... إلا آهةً قويّة أقرب إلى الصراخ... انطلقتْ بغتةً مُندفعة مِنْ أعماق أعماقِ... صدر وليد.. تردَّد صداها حتّى وصل إلى آخر آخر العالم...

الخاتمة

أنتَ لي!

- سيف -

انتهينا مِنَ التسوُّق، وعُدنا نحمل حاجيّاتنا إلى الشقة. اليوم هو الثلاثون مِنْ شعبان وغداً هو أوَّل أيَّام رمضان المبارك. نحنُ فيَ موسم الشتاء، وصديقي العزيز يقيم في هذه الشقَّة الدافئة نسبياً وحيداً، ولا يجد أمامه غير الأطعمة المعلَّبة يتناولها على الفطور.

وبالرغم مِنْ أنني ألحُّ عليه كي يشارك عائلتي موائد الشهر الكريم غير إنَّه يرفض. صديقي وأعرفه عزّ المعرفة!

«أين أضع هذه؟؟ في المخزن أم في الثلاجة؟».

سألتُه وأنا أمسك بعلبة الزيتون الأسود فتناولها منِّي وقال:

«هاتْ».

وفتحها وسكب بعض محتوياتها في طبق وقال:

«تفضَّل... لِمَ لا تشاركني العشاء الليلة؟».

ابتسمتُ وقلتُ:

«شكراً يا صديقي... أمُّ فادي في انتظاري الآن...».

وتناولتُ بعض حبَّات الزيتون على عجل ثمَّ قلتُ:

«إذنْ، سأذهب الآن. هل تحتاج أي شيء؟؟».

فأجاب:

«ألف شكر».

«العفو، لكن تناول سحوراً جيِّداً في الليل!».

وتصافحنا وغادرتُ شقَّته.

وليد حالياً يعمل موظفاً في إحدى الشركات ويقيم في هذه الشقَّة منذ بضعة أشهر، بعد أنْ هجر المنزل الكبير الذي كان يقيم فيه وحيداً، واتَّفق مع عائلته على عرضه للبيع. كانتْ تلك خطوةً مهمَّةً في حياته وأنا مَنْ أوحى له بها وشجَّعه عليها وسهَّل له العثور على هذه الشقَّة، إذ أنَّ وليد كان ليُصاب بالجنون لو استمرَّ في العيش وحيداً هناك؛ تحيط به أطياف أفراد عائلته... وذكرياتهم المؤلمة...

كان وليد بحاجةٍ إلى مبالغ ماديةٍ يسدُّ بها القروض الكبيرة التي كان قد استدانها مِنْ مؤسسة البحري ليغطِّي بها مصاريف سفر شقيقه وإقامته في الخارج...

باع سيَّارته الجديدة الفخمة، وسيَّارته القديمة الأولى التي علقتْ في شمال البلد، وسيارة ثالثة كان شقيقه قد أهداها له في السابق. وكذلك باع سيَّارة وشقَّة أخيه، ومنزل عائلته في الشمال بالاتفاق والتنسيق مع ذويه. واشترى هذه الشقَّة الصغيرة وسيَّارةً متواضعة... وهو في انتظار وصول عرضٍ جيِّد ليبيع المنزل الكبير ليحصل على نصيبه الشرعي منه، فيسدِّد ما بقي مِنْ ديونه ويتحسَّن وضعه المادي.

هل تتساءلون... عن السيِّدة أروى البحري؟؟

انفصل عنها بعد عودته مِنَ الخارج.

مرَّ وليد بفترةٍ عصيبةٍ للغاية عند عودته للوطن، انفصاله عن خطيبته السابقة، انقطاعه عن العمل، تدهور وضعه المادي، والصحي والنفسي، واستدعائه مِنْ قبل السلطات مرَّات ومرَّات مِنْ أجل التحقيق في قضيَّة اختفاء شقيقه سامر، المطلوب أمنياً...

كل ذلك أرداه محطَّماً يائساً في قعر التعاسة والكآبة...

لقد عاصرتُه في تلك الفترة... ما كان أسوأها وأشدّها... بذلنا أنا ووالدي كل الجهود لدعمه وبأقصى ما كان لدينا.

كنتُ كلَّما زرتُه في ذلك المنزل الكئيب، رأيتُ الوجوم يخيِّم على وجهه والهموم تجثو على صدره. وكلَّما حاولتُ مواساته وتشجيعه انهار وبثَّني همومه وانخرط يحكي لي ويصف... ما مرَّ به مِنْ أحداث في المنزل... قبل أنْ يفارقه ساكنوه...

كيف حَبَسَ شقيقه في هذهِ الغرفة، أو كيف لفَّه كالجثَّة في تلك السجادة... وكيف هاجمه رجال المباحث وأوسعوه ضرباً في تلك الغرفة، وكيف امتدَّتْ أيديهم الخسيسة لتطال ابنه عمِّه...

وكان كلَّما ذكر ابنه عمّه تقلّبتْ تعبيرات وجهه وغرق في مرارةٍ عميقة... وكان لا يزال يحتفظ بعكَّازها وهاتفها المحمول وأشياء كثيرة تخصُّها رفض التخلُّص منها.

لمْ تهدأ الأمور وتتحسَّن بعض الشيء إلا مؤخراً، بعد أنْ التحق بالعمل الجديد، والشقة الجديدة... وها هو وليد الآن يحاول جاهداً أنْ يُشفى ويعود للعيش الطبيعي... يحاول أنْ يملأ حياته ويسدُّ الفراغ الكبير الذي خلَّفه فراق كلٍ مِنْ خطيبته السابقة، وشقيقه، وبالطبع... ابنة عمِّه.

يقضي أوقاته بين العمل نهاراً والدراسة في المعهد ليلاً، ونتبادل الزيارات أو نمرُّ ببعض المعارف أو بالنادي الرياضي أو نتنزَّه عند الشاطئ في بعض أيَّام العطل. كنتُ أحاول أنْ أساعده ما أمكنني... حتّى يجتاز الفترة الحرجة مِنْ حياته وينسى الماضي والآلام ويبدأ مِنْ جديد. ولذا عندما اتَّصل بي سامر يوم أمس وسألني عنْ عنوان شقَّة وليد... توجَّستُ خيفة.

أخبرني سامر بأنَّهم سيحضرون لقضاء شهر رمضان في الوطن، وأنَّهم يريدون مفاجأة وليد. وليد كان يتحاشى الاتصال بأهله إلا قليلاً لأنَّ ذلك يقلِّب عليه المواجع حسبما يقول. لمْ أشأ أنْ أوتِّره ولا أنْ أفسِد المفاجأة فكتمتُ النبأ عنه... لكنَّني في خشيةٍ مِنْ أنْ تعيده هذه

الزيارة أدراجه إلى الوراء...

الحرب لمْ تضعْ أوزارها بعد لكنَّ الحكومة تبدّلتْ ووَضْعُ البلد الأمني يسير للأفضل وبعض الأُسر المهاجرة عادتْ إلى الوطن.

حالما وصلتُ إلى منزلي أخبرتْنيَ أمُّ فادي بأنَّ أحدهم قد اتّصل قبل قليل يسأل عنّي وأنّه ترك رقم هاتفه لأتّصل به في أقرب وقت.

اتصلتُ بالرقم، فإذا بذلك الشخص هو لاعب كرة القدم الشهير... نوّار!

- وليد -

طبقٌ مِنَ الفاصوليا الساخنة... وشريحة لحم مقلية... مع أصابع البطاطا المقلية... وبعض الخبز والزيتون والتمر!

آه وماذا بعد؟؟

نعم... العصير!

انتهيتُ مِنْ توزيع الأطباق على المائدة المربّعة الشكل والصغيرة الحجم، المتربِّعة في آخر الصالة أمام المطبخ مباشرة، وجلستُ على أحد المقاعد الأربعة التي تحيط بجوانبها. هذا جيِّدٌ للإفطار في غرَّة الشهر الكريم... لكَ الحمد يا رب والشكر...

كنتُ أشعر بجوعٍ شديد... فسحوري البارحة كان بسيطاً. أعددتُ وجبتي هذه على عجل بعد عودتي مِنَ المسجد... وما كدتُ انطق بالبسملة حتّى سمعتُ قرع الجرس...

«ومَنْ يكون هذا الآن!؟».

استغربتُ... فأنا لا أتوقّع زيارةً مِنْ أحد وخصوصاً في هذه اللحظة... كما وأنَّ الأشخاصَ الذين يزورونني في شقّتي معدودون... ولا أظنُّ أحدَهم يهتمُّ لتناول فطورٍ كهذا معي!

قمتُ عن المائدة وذهبتُ إلى الباب وسألتُ:

«مَنْ هناك؟؟».

فجاء صوتٌ رجولي يقول:

«هل أنتَ وليد؟؟ افتح مِنْ فضلكَ»!

لمْ يكن الصوت غريباً... لا ليس غريباً... لكنه صوتٌ لمْ أسمعه منذ زمن... أنا مشتبهٌ... لا لستُ أكيداً... مَنْ هذا؟؟

«مَنْ هناك؟؟».

وجاءني الآن صوتٌ نسائي حاد:

«افتح يا أخي!!».

صوت... دانة!... صوت دانة؟؟!!

مستحيل!!!

للوهلة الأولى وجمتُ... تسمَّرتُ على موضعي... فأنا لا أريد لحالة الجنون تلك أنْ

تعتريني مجدَّداً... لا أريد أنْ أعود إلى التهيُّؤات والتخيُّلات... لا... أبداً...

عاد الصوت النسائي يقول:

«هل أنتَ وليد شاكر أم ماذا؟؟».

نعم إنّه صوت دانة!

فتحتُ الباب بسرعة غير مصدِّق... وإذا بي أرى دانة.. شقيقتي الوحيدة... تقف بالفعل أمام عيني!!!

«وليد! أخي الحبيب!».

قالتْ ذلك وارتمتْ في حضني بقوَّة وأطبقتْ عليَّ بذراعيها... اندفعتُ خطوةً إلى الوراء وأنا أحملق فيها غير مصدِّق أنها بالفعل شقيقتي...

«يا شقيقي يا عزيزي كم اشتقتُ إليكَ! كلُّ عام وأنتَ بخير عزيزي».

تقول ذلك وهي لا تزال تطوقني بذراعيها بقوَّةً وتمرِّغ وجهها في صدري... ابتعدتْ بعد ذلك لتنظر إليَّ... فتيقَّنتُ بالفعل مِنْ أنّها... أنّها شقيقتي دانة!

«أوه! دانة!! أي مفاجأة!! لا أكاد أصدِّق... لا أصدِّق...!!».

قلتُ ذلك وضممتُها إليَّ وقبّلتُ جبينها بحنان... عند ذلك سمعتُ صوتاً يقول:

«ألنْ تدعونا للدخول؟؟».

فالتفتُّ إلى صاحب الصوت فإذا به نوّار... وكان يبتسم، ويحمل في يديه الاثنتين مجموعة مِنَ الأكياس... وعلى كتفه حقيبة قماشية كبيرة...

تراجعتُ للوراء وأنا أقول:

«يا للمفاجأة... أنا مذهولٌ!.. تفضَّلا... أهلاً...».

فدخل نوّار ووضع الأكياس والحقيبة جانباً ثمَّ أقبل نحوي فاقتربتُ مِنْه كي أصافحه وأعانقه. رحَّبتُ به بحرارة... كانتْ دانة تقف إلى جانبي فمددتُ ذراعيَّ إلى كل منهما وحثثتُهما على الدخول مرحِّباً...

«أهلاً وسهلاً ومرحباً... كل عام وأنتما بخير... تفضَّلا... حقاً... مفاجأة مذهلة».

فسارا للأمام واستدرتُ للوراء لأغلق الباب... وإذا بي أرى شيئاً مهولاً... مهولاً جداً... أخرس لساني... وجعلني أتجمَّد في موضعي كالتمثال...

كفى يا وليد... أرجوك توقَّف... لا... أنتَ لمْ تكد تصدِّق أنَّكَ شُفيتَ مِنْ حالة الأوهام الفظيعة تلك... أرجوك توقَّفْ... لا تعدْ للصفر مِنْ جديد... كلاَّ...

أغمضتُ عينيَّ... بقوَّة... حتّى كدتُ أعصرهما بجفوني... رغبةً منّي في محو الوهم الذي رأيتُه يقف أمامي قبل ثوان...

«رغد... تعالي!».

فتحتُ عيني... بعد الذي سمعتُ... نظرتُ مِنْ جديد... حملقتُ جيِّداً... وكان الوهم... لا يزال واقفاً... يحمل شيئاً ما على ذراعيه... وينظر إليَّ!!

أحسستُ بحركةٍ مِنْ خلفي... ثمَّ رأيتُ دانة تظهر أمامي... متَّجهةً إلى الوهم... وسمعتُها تقول:

«مفاجأة! أليسَ كذلك؟؟!».

ثمَّ تمدُّ يدها نحو الوهم... وتأخذ منه ذلك الشيء... وتقرِّبه منِّي...

نظرتُ إلى ذلك الشيء... حملقتُ فيه... فإذا به ينظر إليَّ... ويتثاءب!

كان طفلاً في المهد...!!

أخذتْ عيني تدور بين الطفل... ودانة... والوهم... تدور... وتدور... وتدور... حتَّى أصابني الارتجاج في دماغي واستندتُ إلى الجدار المجاور خشية أنْ أقع...

«وليد».

كان... صوت شقيقتي دانة... يهتف بقلق...

«هل أنتَ بخير؟؟».

أقبل نوّار... تناول الطفل مِنْ يد دانة... واقتربت دانة منِّي وأمسكتْ بذراعي وسألتْ:

«ماذا أصابكَ؟؟ هل أنتَ بخير؟؟».

جذبتُ أنفاساً عميقة متتالية ثمَّ قلتُ:

«إنَّه... الصيام».

ثمَّ عدتُ أنظر إلى الطفل... ثمَّ إلى الوهم... بل هي رغد... لأنَّ ما حولي الآن ليس وهماً... أنا أحسُّ به وأبصره جيِّداً... إنها رغد... نعم رغد...

أقول لكم رغد...

هل تسمعون؟؟

هل تفهمون ذلك؟؟

رغد... فتاتي رغد... هي رغد... آه...

أنا... أنا لا أعرف ماذا أقول... لا أعرف ماذا أقول...

«تعالْ... هل أكلتَ شيئاً؟؟».

كانتْ دانة... تمسك بي وتحثُّني على السير إلى الداخل... ثمَّ تقول موجهةً خطابها إلى رغد:

«أغلقي الباب وهلمِّي إلى الداخل».

فتنفِّذ الأخيرة ذلك... وتتبعنا إلى المقاعد... أنا أجلس على المقعد... ويجلس نوار إلى يساري واضعاً الطفل في حضنه... وأختي ورغد... تجلسان في الجانب الآخر...

«أأنتَ على ما يرام أخي؟؟».

تسألني دانة، فأجيب:

«لا تقلقي... أنا بخير».

يقول نوّار:

«إذنْ لمْ تبدأ الفطور بعد؟؟ هذا جيِّد... أحضرنا معنا بعض الأطعمة كي نشاركك».

التفتُ إليه فأراه يبتسم... وحقيقةً هذا الرجل دائماً مبتسمٌ... أسمع صوتاً يُصدِره الطفل الصغير... فيداعبه نوّار بلطف...

لحظة!

لكن... لكن...

أين سامر؟؟؟

انتبهتُ للتوِّ على عدم وجوده فالتفتُّ نحو الباب أتأكَّد مِنْ كونه غير موجود... ثمَّ سألتُ:

«ماذا عن سامر؟؟».

فأجابتْ دانة:

«يبعث إليكَ بأحرّ القبلات... كان يتمنَّى أنْ يحضر معنا ولكن تعرف... خشينا عليه مِنَ السلطات».

وأضاف نوّار وهو يضحك:

«إنَّه مشغول البال الآن!».

انتفض جسمي... التفتُّ إلى رغد بسرعة... اصطدمتُ بعينيها بقوَّة... فارتدَّتْ إلى الوراء وقد ظهر الفزع على وجهها...

سمعتُ دانة تقول:

«نوّار! أسكُتْ!».

فيطلق نوّار الضحكات المرحة ثمَّ يقول مداعباً:

«لكنّني لمْ أفشِ الخبر بعدا!».

تمدُّ دانة يدها وتمرُّ مِنْ أمامي... وتقرص رجل نوَّار بلطف، فيستمر بالضحك ثمَّ يوجِّه سؤاله إليَّ:

«ماذا عنكَ أنتَ وليد؟؟ هل تزوَّجتَ أمْ ليسَ بعد؟؟».

كانتْ برهةً سريعة... لكنني لمحتُ فيها كل شيء...

يد دانة وهي تقرص رِجْل نوّار... حاجبي نوّار وهما يرتفعان للأعلى ثمَّ ينخفضان بخجل... ويد رغد... وهي تنقبض وتضطرب...

جاريتُ نوّار مفتعِلاً المرح وقلتُ:

«ليس بعد!... كما ترى».

وأشرتُ بيدي إلى ما حولي...

وفي الحقيقة... أنا انفصلتُ عن خطيبتي السابقة... بعد عودتي للوطن قبل عام وبضعة أشهر... ولمْ أُطلِع شقيقتي دانة على الخبر إلاّ لاحقاً... وقد حذَّرتها مِنْ إفشائه على مسامع

أحد... خصوصاً رغد وسامر...

فبعد الذي حصل لمْ يكنْ هناك ما هو أفضلَ مِنْ أنْ أختفي وتختفي أخباري عنهم... وأخبارهم عنّي...

لمْ أكنْ أتّصل بهم إلا قليلاً للاطمئنان عليهم. كنتُ أهاتف دانة أغلب المرّات وأتجنّب التحدُّث إلى سامر... أما رغد... فأصلاً لمْ أكنْ لأجرؤ حتّى على السؤال عنها...

كما أنني الآن... لمْ أجرؤ على إلقاء التحية عليها ولا الترحيب بها... بل... لا أجرؤ على رفع عيني إلى عينيها...

أصدر الطفل صوتاً مِنْ جديد... ربّما كان مُنقذاً لي مِنْ نسمة الذكريات التي كادتْ تلفحني... والتي أبذل قصارى جهدي كي أتناساها...

التفتُّ إلى الطفل... ثمّ إلى دانة وسألتُ وأنا أكاد أغصُّ بسؤالي:

«هذا... ابنكِ؟؟».

فابتسمتْ وقالتْ:

«لا!».

فجُنَّ جنوني... وابتلعتُ الغصّة مرغماً وكدتُ أختنق بها... وإذا بها تتابع:

«بل هذه ابنتي!».

حملقتُ فيها... ثمّ نظرتُ إلى الطفل... أعني الطفلة... نعم الطفلة... لأنَّ ملامحها ناعمةٌ جدّاً... وجميلةٌ جدّاً...

ومددتُ أصابعي إليها ألمس خدّها الناعم...

لكن انتظروا!

أنا لمْ أفهم...!!

عدتُ أنظر إلى دانة وفي فمي عدّة أسئلة... فإذا بها تحملق في ابنتها بنظرةٍ عطوفة... ثمّ تقول:

«أليستْ جميلة وليد؟؟ سمّيتها ندى... تيمُّناً بوالدتنا رحمها الله».

مدَّ نوّار الطفلة إليَّ وهو يقول:

«سلّمي على خالكِ يا ندى...».

تناولتُ الطفلة وتأمّلتُها برهة... فشعرتُ بسرور غريب يجتاح عواطفي... ضممتُها إليَّ وطبعتُ قبلة خفيفة على رأسها... وشممتُ رائحتها الطفولية البريئة...

«ما أرقّها وأنعمها!... آه... كيف لمْ تخبروني عنْ ولادتها؟؟».

قلتُ معاتباً دانة فأجابتْ وهي ترفع حاجباً وتخفض الآخر:

«الاتصال بكَ ليس مهمّة سهلة!».

وأنا أعرف ذلك وأتعمّده...

«لِمَ لا نُتِمُّ حديثنا على المائدة؟؟ إننا نتضوَّر جوعاً!».
كان نوّار...
وقفنا كلُّنا قاصدين التوجُّه إلى المائدة... وهذه المائدة صغيرة... وقد لا تتَّسع لنا...
أخذتْ دانة طفلتها وجالتْ ببصرها في أرجاء الشقة وسألتْ:
«أينَ يمكنني وضع الطفلة؟؟ شقَّتك تبدو صغيرة!».
فقلتُ:
«نعم... معذرة فكل شيءٍ صغيرٌ هنا... في غرفة النوم... مِنْ هنا... تفضَّلي».
وقدتُها إلى غرفة نومي، فوضعتْ الطفلة على السرير وهمَّتْ بالمغادرة. هنا قلتُ بصوت منخفض:
«انتظري».
وألقيتُ نظرةً نحو الباب استوثق مِنْ أنَّ أحداً لمْ يتبعنا. فهمتْ دانة أنني أرغب في قول شيء بسريَّة، فنظرت إليَّ متسائلة... عندها سألتُ:
«ماذا... عنْ سامر...؟ أنا لمْ أفهمْ».
ابتسمتْ دانة ابتسامة طفيفة ثمَّ قالتْ:
«عقد قرانهِ على لمياء... شقيقة نوّار.. قبل أسابيع».
الخبر أربكني وأرسلني إلى قعر الحيرة والتيه... ثمَّ خرجتْ الكلمة مِنْ بين شفتيَّ مِنْ دون أنْ أشعر:
«و... رغد؟؟».
ارتسم القلق والألم على وجه دانة ثمَّ قالتْ:
«مررنا بفترات عصيبةٍ... عصيبة جداً جداً...».
ثمَّ تنهَّدتْ وتابعتْ:
«قرَّرتْ... الاستقرار عند خالتها... سنفضي هنا أسبوعين ثمَّ نذهب بها إلى الشمال... تستلم إرث والديها وتقيم مع أسرتها هناك... هذا قرارها النهائي...».
جمَّدني الذهول... وبقيتُ محملقاً في عيني شقيقتي... أحاول ترتيب ما عرفتُه مِنْ مفاجآت... هذه الساعة...
رأيتُها تسير مغادرةً الغرفة... فتبعتُها وذهني واقفٌ في الغرفة في موضعه. توجَّهتْ دانة إلى المائدة وأخذتْ توزِّع محتويات الأكياس عليها... ثمَّ دعتْنا للجلوس... جلستُ على أقرب كرسي رأيتُه أمامي... وجلستْ هي إلى اليسار... ونوار إلى اليمين... والمقعد الأخير... المقابل لي مباشرةً... كان مِنْ نصيب رغد...
أنا لستُ بحاجة لأنْ أصف لكم... أنا أصلاً لا أستطيع أنْ أصف لكم... سأترككم تتخيّلون حالي... كما تشاءون...

انتهينا مِنَ العشاء وأنا لمْ أشعر بطعمه... ربَّما لمْ آكل شيئاً... لكنَّ الأطباق أمامي صارتْ فارغةً...!. كنتُ أراقب أصابع البطاطا وهي تختفي واحداً بعد الآخر... لكنّي متأكِّد مِنْ أنّني لمْ أذق منها شيئاً...

مَنْ الذي يوجد معنا... ويحب البطاطا المقلية لهذا الحد؟؟

مَنْ الذي يوجد معنا... ولا يتحدَّث؟؟

مَنْ الذي هنا... ولا أستطيع أنْ أرفع عيني لأنظر إليه؟؟

يتحرَّك أمامي... بهدوء... بصمتٍ تام... كأنّه غير موجود... لكنَّ وجوده طغى على كل وجود... وعلا فوق كل وجود... ولمْ يضاهيه أي وجود...

آه...

رغد... صغيرتي...

أهذه أنتِ حقاً...؟؟!!

بعد الفطور، قامتْ الفتاتان ترفعان الأطباق... وفيما هما كذلك سمعنا صوت بكاء الطفلة... فتركتْ رغد ما بيدها وهي تقول:

«أنا سأتفقدُّها».

وذهبتْ إلى غرفة النوم، حيث كانتْ الطفلة موضوعة على السرير...

أتدرون ماذا خطر ببالي؟؟

أنْ ألحقَ بها...

ذهبتُ خلفها مباشرةً... ووقفتُ عند الباب... وهي لمْ تنتبهْ إليَّ بادئ الأمر... جلستْ على السرير ورفعتْ الطفلة وهزّتْها قليلاً... فسكتتْ وهدأتْ.

أعادتْها رغد إلى السرير... ثمَّ هبَّتْ واقفةً... واستدارتْ فانتبهتْ لوجودي...

التقتْ نظراتنا... التي كانتْ تتحاشى بعضها البعض طيلة الوقت... هذه المرَّة لمْ تتهرَّب أعيننا... بل تعانقتْ عناقاً طويلاً... ملتهِباً... عميقاً...

كانتْ آخر مرَّةٍ رأتْ عيناي عينيها... قبل عام وبضعة أشهر... في تلك اللحظة الأخيرة... وهي واقفةٌ أعلى عتبات الدرج في منزل نوَّار... ترمي بصندوق أمانيها عليَّ...

كم اشتقتُ إليها... كم تلهَّفتُ عليها... كم تعذَّبتُ بدونها...

مرَّ عليَّ الزمان... وأنا لستُ أنا... وأنا بلا ذات ولا كيان... مجرَّد جسدٍ بلا روح ولا قلب ولا حياة... لوحة مبهمة الملامح... لكائنٍ ليس بكائن... ظِل أضاع جسده... تشرق الشمس دون أنْ يرسمني وهجها ويطلع القمر دون أنْ يلمحني نوره...

كنت سراباً لا يُدرك...

كنتُ زورقاً ضئيلاً... تعبث بي أمواج البحر ذات اليمين وذات الشمال... طلوعاً ونزولاً... يبلعني قلب البحر تارةً ويقذفني إلى السطح تارة... ثمَّ لا شاطئ ليحتضنني ولا برَّ ليؤمنّني...

آه... يا رغد...

بعد حصّة النظرات الطويلة تلك... التي كانتْ لتمتد إلى الأفق البعيد... رفعتُ قدمي وخطوتُ باتجاهها وأنا ألهث مُضطرب الكيان والجوارح...

كذلك كان الاضطراب مجتاحاً لرغد... فأصابع يديها النحيلة كانتْ تتشابك وتنفصل مراراً...

حين صرتُ أمامها مباشرة... لا تفصلني عنها غير بضع بوصات بتقدير المسافات، وآلاف الدهور بتقدير الأزمنة، كتمتُ أنفاسي... ثمّ أطلقتُ زفرةً حارّة قلبت الشتاء صيفاً... ثمّ سمعتُ لساني يتكلّم دون إذني ودون علمي قائلاً:

«... اشتقتُ إليكِ... كثيراً... صغيرتي!».

لا أعرف مِنْ أين خرجتْ هذه الكلمات... لكنّها خرجتْ... ووصلتْ إلى مسامع رغد... فإذا بوجهها يضطرب أكثر... وإذا بأصابعها ترتجف أكثر... وإذا بوجنتيها تتوهّجان حمرةً...

أطلتُ التحديق بها... مفتّشاً عن رد... عنْ أي رد... أي قطرة تبلّل جفاف قلبي وتعطّشه المهول إليها، فإذا بي أرى حاجبيها ينعقدان ووجهها يعبُس وإذا بها تشيح به عنّي وتتنحّى جانباً وتسير متّجهةً إلى الباب...

استدرتُ إليها ومددتُ يدي في الهواء وناديتُها بصوتٍ هامسٍ راجٍ متلهّفٍ متوسّل مستميت:

«صغيرتي...».

فإذا بها تلتفتْ إليّ وتصوّب أسهماً نارية إلى عينيّ وتقول:

«إيّاكَ أنْ تناديني هكذا ثانيةً...».

وتستدير وتتابع طريقها مبتعدةً...

في ذات اللحظة ظهرتْ شقيقتي دانة مُقبلةً إلى الغرفة وفي يدها زجاجة حليب أطفال. نقلتْ دانة بصرها بيننا وأحسّتْ بشيءٍ يوتّر جو الغرفة، فتظاهرتْ بالمرح وقالتْ وهي تشير للطفلة:

«هل نامتْ؟ إنّه موعد الحليب!».

كنتُ واقفاً هناك... ولمْ أكنْ...

كنتُ أسمع صوت دانة تناغي طفلتها، ولمْ أكنْ أسمع...

كنتُ ألمحها ترميني بنظرة بين لحظة وأخرى، ولمْ أكنْ ألمحها...

لمْ أنتبه مِنْ حالة اللاوعي إلا عندما أحسستُ بشيءٍ يربّت على كتفي... فإذا بها شقيقتي تمدُّ إليّ بطفلتها وتقول:

«احملها إلى أنْ أحضّر لها رضعةً أخرى، لا تزال جائعة هذه النهمة!».

**في نفس الليلة أصرّتْ دانة على أنْ نقوم بزيارة للمنزل الكبير والذي شعرتْ بحنين شديد إليه. كنتُ قد هجرتُ المنزل قبل عدّة أشهر، ولمْ أرغب في دخوله الآن واسترجاع

الذكريات التعيسة فيه، غير أنّني لمْ أجدْ بداً مِنْ تنفيذ رغبتها.

ذهبنا إلى المنزل نحن الأربعة، مع الطفلة الصغيرة. ومِنْ أوّل لحظة وطأتْ قدماي فيها أرض المنزل داهمتْني آلام حادة في كامل جسدي...

بقي نوّار مع ابنته في المجلس، وذهبنا نحن الثلاثة وأقصد بالثلاثة أنا ودانة... ورغد... نجوب أنحاء المنزل...

لمّا اقتربنا مِنْ غرفة رغد السفلية توتَّرتْ وتوقَّفتْ عن السير وتحاشتْ دخولها... ولمَّا صعدنا الدرجات رأيتُها تتكئ على السياج وكأنَّها تتذكَّر لحظات الوقوع والكسر والجبيرة...

ولما دخلنا غرفتها العلوية... علِقتْ هناك...

تابعنا أنا ودانة جولتنا تاركين إياها في غرفتها ربَّما تتفقَّد حاجياتها أو تسترجع ذكرياتها...

هذه الغرفة كنتُ أدخلها كل يوم... اطمئن على طيف صغيرتي بجنون... عندما كنتُ أقيم هنا وحيداً منفرداً مهجوراً... بعد رحيلها...

بعد ذلك سمعنا بكاء الطفلة فنزلتْ دانة إلى الطابق السفلي وكنتُ سأتبعها غير أنَّ رجليَّ غيَّرتا وجهتهما وقادتاني إلى... غرفة رغد...

كانتْ رغد تقف بجانب السرير وعيناها تحملقان في الورقة الملصقة على الجدار فوق السرير... تذكرونها؟؟ إنَّها أوَّل صورةٍ رسمتْها صغيرتي لي... قبل سنين طويلة... وهي ما تزال طفلةً بالكاد تتعلَّم كيف تُمسِك بالقلم...

كيف لي أنْ أكتشف يومها... ما لمْ أكتشفه إلا بعد كل تلك السنين...؟؟

أحسَّتْ رغد بحركتي فالتفتتْ نحوي فجأة... وإذا بالهلع يجتاحها ويحوِّل وجهها إلى صحراء مِنَ الصفار... وأصابعها تضطرب وأنفاسها تتلاحق...

«هل أفزعتُكِ؟ أنا آسف صغيرتي».

قلتُ ذلك محاولاً تهدئة روعها غير أنَّ يدها انقبضتْ بشدّة ثمَّ أبعدتْ عينيها عنِّي وخطتْ نحوي قاصدةً الخروج مِنَ الغرفة...

لمْ أستطع التحمُّل وأنا أراها تتجاهلني وتهرب منِّي... وقفتُ عند فتحة الباب وسددتُ الطريق أمامها فوقفتْ أمامي في قلقٍ انفعال ثمَّ رفعتْ بصرها إليَّ وأخيراً نطقتْ:

«تنحَّ بعيداً لو سمحتَ».

وكانتْ نظرتها أقسى مِنْ جملتها... لكنِّي لمْ أتزحزحْ ونظرتُ إليها برجاء فقابلتْ نظراتي بغضب... همستُ متوسِّلاً:

«صغيرتي... أرجوكِ...».

فإذا بها تهتف:

«قلتُ لكَ لا تنادني هكذا ثانيةً... لا أسمح لكَ... وابتعد عنْ طريقي فوراً».

تسمَّرتُ مذهولاً في مكاني فإذا بها ترفع صوتها آمرةً بعصبية:

«ابتعد هيّا».

فما كان منّي إلا أنْ تنحّيتُ جانباً وسط الذهول... وتركتُها ببساطة تختفي..!

- رغد -

أقنعتْ دانة زوجها بأنْ ننتقل للإقامة في المنزل الكبير عوضاً عنْ الفندق، ولذلك ليتسنّى لها تحضير الموائد الرمضانية المميَّزة وبحريَّة كما تقول... وطلبتْ مِنْ أخيها المكوث معنا أيضاً... فوافق الأخير إكراماً لها.

طبعاً أنا لمْ يعجبني الوضع ولكنني لمْ أملكْ إلا الانصياع للظرف المؤقّت، قبل رحيلي إلى بيت خالتي. وبعد انتقالنا إلى المنزل، إذا بدانة تقترح على زوجها أنْ يشتري حصّة أخيها مِنَ المنزل ويسجِّلها باسمها... وتخبرنا بأنّها تنوي التنازل عن الحصّة لصالح وليد بعد ذلك...

نوّار رجلٌ ثري كما تعرفون، وهو يحبُّ دانة وينفِّذ رغباتها. وبهذا تمَّ توكيل المحامي أبي سيف للقيام بالإجراءات اللازمة بأسرع ما يمكن.

أنا لا دخل لي بكل هذا إذ أنّني لمْ أرثْ شيئاً مِنْ هذا المنزل بطبيعة الحال، لكنّني استلمتُ الحصّة التي كان ابن عمّي وليد قد تنازل لي عنها مِنْ إرث المنزل المحروق في الشمال، وسأستلم الإرث الذي تركه والداي الحقيقيان لي، والذي كان عمّي شاكر قدْ حوَّله إلى وديعةٍ ماليةٍ في أحد المصارف، وحان وقت استلامها. سأستغل جزءاً مِنْ هذه الأموال في العودة إلى الدراسة مِنْ جديد.

في أوّل ليلةٍ لي في هذا المنزل اتصلتُ بصديقتي مَرَح أسامة والتي كنتُ قد انقطعتُ عن الاتصال بها منذ رحيلي عن الوطن... فألحّتْ عليَّ لزيارتها في منزلها في الليلة التالية.

كانتْ تلك الليلة شديدة البرودة، وكانتْ دانة ترغب بالذهاب إلى أحد المتاجر لشراء بعض الحاجيات للمطبخ، لذا اصطحبنا شقيقها إلى منزل آل المنذر قبل أنْ يذهب معها إلى المتجر. ورغم برودة الجو، لقينا آل المنذر في استقبالنا عند الباب ورحّب أبو عارف وابنه الفنان عارف بابن عمّي ترحيباً حميماً عند الباب، لا يقلُّ عن ترحيب مَرَح الملتهب بي داخل المنزل.

فيما بعد وأنا ومرح نتبادل الأحاديث والأخبار سألتْني:

«ماذا عنْ الجامعة؟؟».

فقد أرغمتْني الظروف على الانقطاع عن دراستي وللمرّة الثانية... وتأخّرتْ فرصتي في الحصول على شهادة جامعية، كما كنتُ أحلم...

قلتُ:

«سأعود إلى الجامعة في الشمال».

فقالتْ:

«لا تقولي! أبليتِ بلاءً حسناً هنا... كنتِ أخطر منافسةٍ لي والدراسة بدونك مُملّة!».

فضحكتُ وقلتُ:

«إذنْ تخلَّصتِ منِّي وضمنتِ المركز الأوّل!».

فقالتْ بأسلوبها المرح ممزوجاً برجاء:

«أرجوكِ رغد... عودي إلينا... ثمَّ أنَّ جامعتنا أرقى مستوى مِنْ تلك الشمالية».

فقلتُ:

«وأعلى تكلفة!».

وابتسمتُ بقلَّة حيلة وقلتُ:

«ولا طاقة لي بها!».

قالتْ مَرَح:

«آه صحيح تذكَّرت... لمْ يعدْ السيِّد وليد شاكر مديراً للمصنع والشركة!».

أحقاً؟؟ أنا لمْ أعرفْ ذلك! أصلاً لمْ أكنْ أريد أنْ أعرف أي أخبار عنه... وكلَّما جيء بذكره ونحن هناك في منزل دانة، انسحب فوراً مِنَ المجلس.

تابعتْ مَرَح:

«والدي وعمِّي حزنا كثيراً لمغادرته. كانا معجبَين به ويكنَّان له احتراماً وثقةً كبيرين! كلّنا أسِفنا على انفصاله عن السيّدة أروى وعنْ المؤسسة...».

ماذا...؟؟ ماذا قالتْ مَرَح؟؟ انـ... ـــفصاله عنْ... أروى؟؟!!

فاجأني الخبر... صحيح أنَّني استغربتُ عيشه في تلك الشقَّة غير أنَّني لمْ أكنْ لآبه بأي شيءٍ يتعلَّق به.. أصلاً لمْ أكنْ موافقةً على حضوري للمدينة الساحلية لكنَّ دانة ألحَّتْ عليَّ...

غير أنَّ هذا الخبر... فاجأني وأدهشني...

قلتُ طالبةً التأكيد:

«أ... أعيدي ما قلتِ مَرَح؟؟».

نظرتْ إليَّ مَرَح باستغراب... فكرَّرتُ:

«ماذا قلتِ الآن مَرَح؟؟؟ انفصاله عنْ ماذا؟؟».

تقوَّس حاجبا مَرَح دهشةً وقالتْ مستغربة:

«عنْ السيِّدة أروى البحري، وعنْ المؤسسة!».

رفعتُ يدي مِنَ الدهشة ووضعتُها على فمي... وحملقتُ في مَرَح بعينين واسعتين... مَرَح تأمّلتْ انفعالاتي وهي في حيرةٍ مِنْ أمرها... ثمَّ بدا عليها وكأنها استنتجتْ شيئاً، فقالتْ:

«لا تقولي... أنّكِ لمْ تكوني تعلمين!؟؟».

سامحوني...

أعرف أنَّ هذه أمورٌ على المرء أنْ يبدى الأسف حيالها... ويراعي مشاعر الآخرين...

أنا آسفة... لكن...

أنا الآن...

في هذه اللحظة...

أشعر برغبةٍ مفاجئةٍ في الضحك!

لمْ أنتبهْ لنفسي إلا وأنا أطلق ضحكةً ساخرةً... رداً على سُخرية القدر منّي...

الشقراء... الدخيلة... التي بذلتُ كل جهودي كي أطردها بعيداً عنْ وليد في الماضي... لاستحوذ عليه... والتي كنتُ أتمنّى أنْ أمحوها كما أمحو رسمةً واهيةً بقلم الرصاص... قد انفصلتْ للسخرية عنْه... دون تدخُّلي!

يا للأيام...!!

التفتُ بعد أنْ فرغتُ مِنَ الضحك إلى مَرَح وسألتُ ساخرة:

«ولماذا انفصلا؟؟».

فنظرتْ إليّ مُستغربةً مِنْ ردّة فعلي... وقالتْ:

«تسألينني أنا!؟».

أخيراً طردتُ السؤال والموضوع وصورة الشقراء وصورة وليد مِنْ رأسي، وغيّرتُ اتجاه الحديث بعيداً...

وبعد نحو ساعة أُعلِمتُ أنَّ أهلي قد جاءوا فشكرتُ مَرَح على حسن ضيافتها وودَّعتُها توديعاً حاراً... وخرجتُ مِنَ المنزل.

- وليد -

خرجتُ مِنَ المنزل وأغلقتُ البوابة الخارجية، ثمّ خطتُ خطوتين نحو السيارة، ثمّ توقّفتُ وتراجعتُ للوراء.

ربّما لمْ تستوثق مِنَ السيارة، فهي ليستْ السيارة السابقة التي اعتادتْ عليها. فتحتُ النافذة ونظرتُ إليها وقلتُ:

«تفضّلي».

وربّما لمْ تسمع صوتي لأنّها لمْ تتحرّك... فأطللتُ برأسي مِنَ النافذة مستغرباً وأومأتُ إليها أنْ تعالي.. لكن رغد نظرتْ إليّ نظرةً غريبةً ثمّ سألتني:

«أين دانة؟».

فقلتُ:

«ذهبتْ مع زوجها وطفلتها في مشوار».

وإذا بي أرى رغد تتراجع نحو بوابة منزل آل المنذر... وتهمُّ بقرع الجرس!

خرجتُ مِنَ السيارة مُستغرباً مِنْ تصرُّف رغد وأقبلتُ إليها وقلتُ:

«ماذا ستفعلين؟؟».

فقالتْ دون أنْ تنظر إليّ:

«سأتّصل بدانة وأطلب منها الحضور مع نوّار لاصطحابي».

عندها شعرتُ بطعنةٍ قويّةٍ تخترق صدري. اقتربتُ مِنْ رغد وقلتُ متألماً:

«لماذا تفعلين ذلك؟؟».

فالتفتتْ إليَّ وأجابتْ حانقة:

«وهل تنتظر منّي أنْ أركبَ السيارة معكَ أنتَ بمفردي؟».

وكانتْ هذه الطعنة أشدّ مِنْ سابقتها... وهمَّتْ رغد بأنْ تقرع الجرس فتداركتُها مسرعاً:

«أرجوكِ لا تفعلي... لا تحرجينا مع آل المنذر».

ففهمتْ رغد حرج الموقف سحبتْ يدها... قلتُ:

«تعالي لنعود إلى المنزل الآن... أرجوكِ».

فوقفتْ بُرهة متردِّدةً... ومرَّ تيَّارٌ قوي مِنَ الهواء ارتعدتْ له فرائضنا... فقلتُ:

«هيَّا فالريح تشتدُّ».

وما كان منها إلا أنْ سارتْ على مضض وركبتْ السيارة كارهةً ومُشيحةً بوجهها للعالم الآخر... فسلكنا طريق العودة بصمت الموتى... ووحشة المقابر...

عندما وصلنا إلى البيتُ، أردتُ أنْ أتحدَّث معها فهي لمْ تكلِّمني منذ حضورها للوطن، بل منذ تركتُها في منزل دانة... ذاك الزمان... لكنَّها وفور دخولها المنزل أسرعتْ مهرولةً إلى الطابق العلوي...

لحقتُ بها وأنا أسير منكسر الخاطر... حتّى إذا ما اقتربتُ مِنْ غرفتها وجدتُ الباب مغلقاً وصوتها يتخلَّله وهي تتكلَّم بغضب قائلة:

«كيف تخرجين وتتركيني مع رجلٍ غريبٍ بمفردي؟؟».

«... أخوكِ أنتِ وليس أنا...».

«... عودي فوراً».

وأسمع صوت اصطفاق السماعة بالهاتف.

هبطتُ للطابق السفلي... وانزويتُ على نفسي في غرفة المعيشة والتي عدتُ أستغلها كغرفة نومٍ لي... وجعلتُ أعضُّ أصابعي حسرةً على صغيرتي رغد...

قدمتْ دانة مع طفلتها وزوجها بعد نحو ساعة... وسألتْني عمَّا حصل فأخبرتُها بموقف رغد منّي... وبأنَّ ذلك جرح شعوري كثيراً... وبأنّني سأعود إلى شقّتي إنْ كان وجودي مِنْ حولها يزعجها لهذه الدرجة...

ربّما كان الأسى صارخاً بأعلى صوته على وجهي للحدِّ الذي جعل شقيقتي تمدُّ يديها وتمسك بيديَّ بحنانٍ بالغ وتربِّت عليَّ وتقول:

«لا تبتئسْ هكذا يا أخي الحبيب.. إنَّها... لا تزال تحبُّكَ... لكنَّها أيضاً لا تزال تعتقد أنَّكَ... كنتَ تسخر مِنْ عواطفها تجاهكَ».

رفعتُ بصري إلى شقيقتي وحملقتُ بها مُندهشاً... فأغدقتْ عليَّ نظرات التفهُّم والحبِّ والتعاطف، وكأنّها كانتْ تقرأ كلَّ ما يدور برأسي وترى ما يختبئ في صدري...

وإذا بها تقول:

«لسنين طويلة... كانتْ تضع ساعة يدكَ الرجالية حول معصمها... كنَّا نسخر منها... لكنَّها لمْ تأبه بنا... أظنُّ أنّها كانتْ مولعةً بكَ منذ الطفولة... وكانتْ تنتظركَ... ارتباطها بسامر كان استسلاماً لرغبتنا نحن... لكنها لمْ تعد تستسلم لشيء... آه... لو تعلم... مدى العذاب الذي عشناه هناك... بعد رحيلكَ...».

واستطردتْ:

«لو كنتَ اعترفتَ في ذلك اليوم بحقيقة شعورك أنتَ أيضاً... قبل رحيلكَ عنَّا... ربَّما كنَّا حللنا الموضوع بشكل أقل إيذاءً...

أخي سامر لمْ يكنْ أبداً ليتزوَّج مِنْ فتاةٍ لا تحبُّه... بل تحبُّ شقيقه... واكتشف أيضاً أنَّ أخاه كان يحلم بالزواج منها منذ سنين...».

وتوقَّفتْ قليلاً تتأمَّل ذهولي مِنْ كلامها... قلتُ في دهشتي مِنْ صراحتها، محاولاً إنكار الحقيقة:

«ما... ما الذي... تهذين به!؟».

لكنّ دانة أدارتْ وجهها يميناً ويساراً وقالتْ:

«لا تحاولْ يا وليد! لا جدوى مِنَ الإنكار...».

وأخذتْ تنظر إليَّ بنظرات عميقة... كأنها تكشف كل أفكاري... ثمَّ واصلتْ:

«سامر علِمَ مِنْ رغد بتفاصيل ما حصل قبل سنين مع ذلك الفتى الذي قتلتَه... وسببِ قتلكَ له... وكتمكَ الحقيقة وتحمّلك السجن... ربط بين الأمور واستنتج وتيقَّن مِنْ كل شيء... لذا... قطع عهداً على نفسه بألاَّ يتزوَّج منها... وقرَّر الارتباط بفتاة أخرى... ليثبت لكَ أنتَ بالذات... بعد كل تضحياتك... بأنَّه يستحيل أنْ يتزوَّج بفتاةٍ كنتَ تحلم بها أنتَ يا وليد...».

أرخيتُ رأسي للأسفل مِنْ فرط ذهولي وأسندتُه إلى راحة يدي... فمدّتْ دانة يدها وراحتْ تربِّت على كتفي ثمَّ قالتْ:

«لمْ تكنْ ترغبْ في القدوم ورؤيتكَ ثانيةً... لا تتوقَّع منها أنْ تعاملكَ بلطف... لكن لا تؤاخذها ولا تتضايق مِنْ موقفها... لقد تغيَّرتْ كثيراً... ولا أحد يجرؤ على التدخُّل في قراراتها الآن...».

**في اليوم التالي... كنَّا نتناول طبق التحلية، ونحن جلوسٌ في غرفة المعيشة نشاهد التلفاز... أنا أتظاهر بالبرود واللامبالاة، بينما داخلي يغلي ويتّقد ناراً... وأنا ألقي بنظرةٍ خاطفةٍ على رغد... وهي تتناول المهلبية الباردة بهدوء ولا اكتراث...

كانتْ دانة تداعب طفلتها، والتفتتْ إلى رغد وطلبتْ:

«رغد مِنْ فضلكِ، هل لا أحضرتِ بعض الماء لندى؟».

تركتْ رغد طبقها وغادرتْ الغرفة متجهةً إلى المطبخ، فإذا برغبة شديدة تجبرني على النهوض واللحاق بها.

قبل أنْ أصل إلى الباب سمعتُ شقيقتي تناديني:

«وليد».

وحين التفتُّ إليها رأيتها تومئ لي بألا أفعل، وكأنّها قرأتْ نيتي... لكنني لمْ أستطع المقاومة... وذهبتُ خلف رغد.

«رغد».

ناديتُها وأنا أقف عند باب المطبخ وأراقبها وهي تسكب بعض الماء في الزجاجة، فنظرتْ إليّ نظرة لا مبالاة سريعة، وتابعتْ عملها. حملتْ الزجاجة وأقبلتْ نحو الباب، وتجاوزتْني وواصلتْ طريقها إلى غرفة المعيشة.

لمْ أستطع تحمُّل ذلك... ذهبتُ إلى غرفة مكتبي وجلستُ على كرسي المكتب وأخذتُ أضرب أخماساً بأسداسٍ... أخذ قلبي يتلوّى ويعتصر... رغماً عنّي...

كيفِ لي أنْ أتحمَّل وجودها ولا وجودها...

يجب أنْ أتحدَّث معها... أريد أنْ أتحدَّث معها... سأجنُّ إنْ بقينا على هذه الحال...

لمحتُ أدراج مكتبي فتذكَّرتُ شيئاً سرعان ما استخرجتُه منْ أحدها. كانتْ مجموعة الصور التي رسمتْها لي رغد قبل تعرُّضها لحادث الانزلاق على الدَّرَج... والتي تركتْها رغد في غرفتها السفلية، واستخرجتُها بعد عودتي للوطن واحتفظتُ بها في مكتبي...

هل تذكرونها؟؟

حملتُ الأوراق وذهبتُ إلى غرفة المعيشة وأقبلتُ نحو رغد وأنا أقول:

«رغد هل تذكرين هذه؟».

محاولاً الظهور بالمرح والعفوية، علَّها تتجاوب معي... علَّنا نبدأ صفحةً جديدةً وإنْ بقيتْ بيضاء... علَّها تمنح قلبي لحظة اطمئنان واحدة... علَّ الحرارة في أحشائي تنخفض ولو درجة واحدة...

رغد تناولتْ الأوراق وراحتْ تقلِّبها وتتأمَّلها... كنتُ مُفتعِلاً الابتسامة ومنتظراً تعليقاً يجبر بخاطري بعد موقف البارحة واليوم...

لكنني فوجئتُ برغد تمزِّق الأوراق وترمي بها نحوي وتقول:

«أنا لا أذكر شيئاً كهذا ولا يهمُّني أنْ أذكر... ولا تناديني باسمي المجرَّد ثانيةً... هل فهمتَ يا سيِّد وليد؟؟».

وقامتْ مِنْ مقعدها وجرتْ مسرعةً مغادرةً الغرفة.

حدث كل هذا أمام مرأى دانة ونوّار... اللذين ظلاَّ يحملقان بي... ومنتظرين ردَّة فعلي...

جُنَّ جنوني... لمْ أتمالكْ نفسي... لمْ أستطع الصبر بعد ذلك... خرجتُ مُسرعاً، ودانة تناديني وتنهاني، غير أنني لم آبهْ بها ولحقتُ برغد.

أدركتُها وهي توشك على دخول غرفتها العلوية وإغلاق الباب فحلتُ دون ذلك...

«انتظري».

هتفتُ مكسور الخاطر خائر القوى... فصرختْ غاضبة:
«ابتعد عنْ طريقي».
فقلتُ وأنا أمسك بذراعها وأعيقها عن دخول غرفتها:
«توقَّفي يا رغد... أرجوكِ... أعطيني فرصةً لأتحدَّث معكِ».
فهتفتْ وهي تحاول الفكاك عنِّي:
«أتركني... لا تلمسني... لا أريد سماعك... ابتعد».
هتفتُ بجنون:
«أرجوكِ يا رغد... لا تعامليني هكذا بربِّكِ... قولي لي ماذا أفعل حتَّى تصفحين عنِّي..؟ أخبريني ماذا أفعل فأنا تعذَّبتُ ما يكفي ويزيد... أريد أنْ أستعيدكِ لي».
هنا أمطرتني رغد بوابل مِنَ الضربات على صدري مصحوبة بسيل مِنَ الشتائم الهائجة...
«أنا لستُ دميةً عندكَ... تتنازل عنها وقت تشاء... وتستعيدها وقت تشاء... أيُّها المتوحِّش الكذَّاب الغدَّار المنافق... البليد المتحجِّر الغشَّاش... لا أريد أنْ أرى وجهكَ ثانيةً... كيف تجرؤ على الحديث معي بعدما فعلتَ بي؟؟ كيف تجرؤ على الإمساك بيدي؟؟ أنتَ لمْ تعدْ كأبي... وأنا لمْ أعدْ تحت وصايتكَ... أنتَ رجلٌ غريبٌ وبغيض... وأنا أفضِّل الموت على رؤية وجهكَ... أكرهكَ... أكرهكَ... لقد حطَّمتَني... أنتَ دمَّرتَني... ابتعدْ عنِّي... اختفِ مِنْ حياتي يا بليـــد...».
وتملَّصتْ منِّي بسرعة، ودخلتْ الغرفة وأغلقتْ الباب...
التفتُ يميناً وشمالاً باحثاً عن كلمة تعبِّر عن حالتي آنذاك ولمْ أجدْ غير شقيقتي ونوَّار يقفان هناك... يراقبان ما يحصل...
ضربتُ على الباب بعنف وصرختُ مُنفلتاً مجنوناً:
«افتحي يا رغد... رغـــد... لقد فعلتُ ذلك مِنْ أجل أخي... كيف أتركه يهلك أمام عيني؟؟ كنتُ سأتنازل عن أيِّ شيءٍ لإنقاذه... لماذا تلومينني؟؟ رغد... لماذا لا تسامحينني؟ أنا لا أطلب منكِ أكثر مِنَ السماح الآن... أنا مَنْ كان ولا يزال يتعذَّب أكثر منكِ أنتِ... أكثر منكم جميعاً... أنا مَنْ نال النصيب الأفظع مِنَ العذاب والتحطُّم... لكنَّكم لا تشعرون بي... لا أحد يشعر بي أنا...».
وركلتُ الباب ركلةً أخيرة... ثمَّ خرجتُ مسرعاً مغادراً المنزل...

- رغد -

ولمْ يعد إليه ثانيةً... وكان هذا أفضل ما فعلَ... وصار نوَّار يحمل أطباق الفطور إلى شقَّته ويتناولها معه كل ليلة... وصرتُ أَعِدُّ الليالي والأيام إلى أنْ حان وقت السفر إلى الشمال... أخيراً...
كان قراري الأخير، بعدما لعبتْ بي الدنيا وأقدارها كل ذلك اللعب، أنْ استقل بذاتي

وأستقر في بيت خالتي، أنْ أعود للالتحاق بالجامعة وأبني مستقبلي بيدي، وألاّ أدع الفرصة لأحد لأنْ يفرض عليَّ ما لا أريده.

مررنا بشقّته... وذهبتْ دانة مع ابنتها ونوّار لتوديعه، ولازمتُ أنا السيَّارة - وهي سيَّارة استأجرها نوّار مِنَ المطار لدى وصولنا - وانتظرتُ عودتهما.

لمْ أحمل معي أي شيء مِنْ حاجياتي الكثيرة في المنزل الكبير، والتي كان وليد هو مَنْ اشتراها لي في السابق... ولا حتّى هاتفي... والذي كنتُ قد تركتُه هو والعكاز في غرفتي لدى فرارنا مِنَ المنزل مسرعَيْن... ذلك الصباح الضبابي... أتذكرون؟؟ بعد الليلة الوحشيَّة تلك... حتّى أنّني تخلّصتُ مِنَ الأشياء التي بعثها لي في منزل دانة... لأنّني لمْ أشأ أنْ يذكّرني أي شيء... بالحبيب الساحر...

غاب نوّار ودانة نحو نصف ساعة وأنا أنتظر على الجمر المتّقد... في عزِّ الشتاء... والريح تعبث بالأشياء مِنْ حولي... وترسل سيل الذكريات إليَّ فأقاومه لئلاّ يجتاحني...

وأخيراً رأيتُهما يظهران عند مدخل مبنى الشقَّة... ويظهر وليد معهما أيضاً...

كانتْ الريح تهبُّ شمالية، فتقرصهم، فيسرع نوار ودانة إلى السيرة، بابنتهما. ويظل هو واقفاً في وجه التيار...

التقتْ نظراتي بنظراته، فأشحتُ بوجهي سريعاً لأتفاداه وأتفادى الألم الذي يخلّفه مجرَّد مرور طيفه على مرآي...

ركب الاثنان السيارة وبدأتْ تسير على بركة الله مبتعدة عن شقَّة وليد. كنتُ أجلس في الخلف وبدون أنْ أشعر وجدتُني التفتُ إلى الوراء وأنظر إلى الناحية التي ظهر فيها وليد قبل قليل... مدخل المبنى...

وللعجب... رأيتُه لا يزال واقفاً هناك في وجه الريح... ينظر إليَّ أنا... ويبتسم... ثمَّ يرفع يده ويلوِّح لي...

أشحتُ بوجهي عنه ونظرتُ إلى الأمام... وأنا أشعر بأنَّ عينيه ملتصقتان بزجاج النافذة... خلفي مباشرة... فملتُ برأسي للأمام لابتعد عنهما...

كانتْ السيارة تقترب مِنْ إشارة مرور لذا خفَّف نوّار السرعة ثمَّ توقّف عند الإضاءة الحمراء. نظرتُ إليه وإلى دانة... ثمَّ إلى اليمين وإلى الشمال... كل مَنْ حولي في شغلٍ عنّي... أنظارهم وأفكارهم كانتْ تسير في اتجاهٍ آخر... لكنِّي أشعر بأنَّ عينين تحدِّقان بي...

التفتُّ إلى الخلف... وأمعنتُ النظر إلى النافذة وعبرها إلى ما خلفها... فإذا بي أرى يداً لا تزال تلوِّح لي مِنْ بعيد... كانتْ لا تزال تتمايل يميناً وشمالاً... تتمايل لي!

حضرتْني فجأة تلك اللحظة المريرة... لحظة أنْ ركبنا أنا وسامر سيَّارة الشرطة... وسرنا مبتعدين... ووليد واقفٌ هناك في حرِّ الشمس... يلوِّح لي بيده... يلوِّح ويلوِّح... وصورته تعشي بصري فلا أرى غيرها... إلى أنْ اختفى فجأة... وتلاشى مِنْ حياتي مثل السراب...

إنّها نفس اليد... تلوِّح لي... بنفس الطريقة...

إنّني بذلتُ كل طاقاتي... لأرسمها بيدي... في تلك اللوحة... [لوحة الوداع]... آخر لوحة رسمتُها لوليد... وليد قلبي... ثمّ غطّيتُها بطبقة مِنَ الضباب الأسود...

أضاءتْ الإشارة الخضراء... السيّارة بدأتْ تتحرّك... السرعة أخذتْ تتسارع... اليد الملوّحة أخذتْ تبتعد... وتصغر... وتصغر... وتصغر... وأخيراً... تختفي!

لمْ يعدْ وليد موجوداً خلف النافذة... لمْ يعدْ وليد موجوداً في حياتي... أنا لمْ أعدْ أملك وليد... ولا صورة لوليد... ولا تذكاراً أخيراً... مِنْ وليد...

«توقّـــف».

هتفتُ باندفاع أربك نوّار وجعله ينحرف في السير، ثمّ يخفّف السرعة فيما تلتفتُ دانة إليّ متسائلة:

«ماذا دهاكِ رغد؟».

فقلتُ بلهفة:

«عُدْ إلى وليد... أرجوكَ الآن».

تبادل نوّار ودانة النظرات ثمّ انعطف نوّار بالسيارة يميناً ودار حول المنطقة إلى أنْ وصلنا إلى مبنى شقّة وليد مِنْ جديد.

وليد لمْ يكن يقف هناك... فقد اختفى هو ويده... وخشيتُ أنّني كنتُ أصلاً أتوهّم وجوده... وسط هذه الرياح الباردة العنيفة...

هبطتُ مِنَ السيارة ودانة تناديني مندهشةً، ثمّ تترك طفلتها في حضن أبيها وتلحق بي...

ركضتُ بسرعة حتّى وصلتُ إلى شقّة وليد وقرعتُ الجرس بشكل فوضوي... سمعتُ صوت وليد يسأل منزعجاً وقلِقاً:

«مَنْ هناك؟».

فهتفتُ مندفعةً:

«وليد افتح لي».

وسرعان ما رأيتُ الباب يُفتح ويطلُّ وليد منه يملأ الفضول والدهشة زوايا وجهه وقسماته...

«رغد!!!!».

ولمْ أشعر بنفسي إلا وأنا أطير وأحطُّ على صدره... فيفتح ذراعيه ويغلّفني بقوّة...

لأي عمقٍ غضتُ بين ضلوعه... لا أعرف... لكنّني شعرتُ بالدموع تغمرني عن آخري... كان لساني يريد التكلُّم...

غير أنّه عجز عن النطق بغير (وليد... وليد...)...

رفعتُ بصري إليه وذبتُ في عينيه... كنتُ أرسل الكلام عبر النظرات... واستقبل إيماءاته بقلبي قبل عيني...

«لماذا فعلتَ هذا بي؟ لماذا وليد؟؟».

قلتُها مقرونةً بنافورةٍ مِنَ الدموع... فمدَّ وليد يده ومسح دموعي... ثمَّ توسَّلتْ تقاسيم وجهه إليَّ:

«آه... صغيرتي... حبيبتي... سامحيني... سامحيني... يا أغلى مِنْ حياتي كلِّها... كنتُ أحمقاً... أحمقاً جداً... أنا لا شيء مِنْ بعدكِ يا رغد... لا شيء... يا حبيبتي...».

ثمَّ يجذبني إلى صدره ويطوِّقني بذراعيه بقوَّة وهو يكرِّر...

«رغد... صغيرتي... حبيبتي... آه...».

ثمَّ أبعدني لينظر إلى عينيَّ... ثمَّ أمسك بوجهي بلطفٍ براحتيه... وأخذ يلهث بأنفاس قويَّة... تلفح وجهي... ويُشتِّتْ نظراته بين عينيَّ يمنةً ويسرةً... ويعضض على شفته تارةً ويزدرد ريقه أخرى... وأخيراً نطق قائلاً:

«أحبُّكِ يا رغد... أريدكِ لي... هل تتزوَّجينني؟؟».

* * *

أُقيمَ حفل الزفاف في أحد الفنادق في عيد الحج التالي، ودَّع العريسان فيه الأهل والأصدقاء... وذهبا لقضاء شهر العسل في إحدى البلدان السياحية. وبعد عودتهما، أقاما في نفس المنزل الكبير...

واتَّخذا مِنْ غرفة وليد عُشّاً لهما، بعد أنْ تمَّ هدم الجدار الذي كان يفصل بينها وبين غرفة رغد... وإعادة طلي الجدران وتغيير الأثاث.

في ليلة عودتهما إلى المنزل... استخرج وليد مِنْ أحد الأدراج الصورة التي رسمتْها رغد له عندما كانتْ طفلة (وليد ذو الشارب الطويل)، وكذلك استخرج مِنْ محفظته صورة رغد الممزَّقة التي احتفظ بها طول تلك السنين، فألصق أجزاءها بشريطٍ لاصق، وألصقها مع صورته جنباً إلى جنب على الجدار فوق السرير وأخذ يتأمَّلهما ويبتسم مع رغد بسرور ويقول:

«معاً إلى الأبد».

ثمَّ أخذ العروسان الحبيبان يرتِّبان ملابسهما في الخزانات، واتَّجه وليد نحو إحدى الخزائن واستخرج شيئاً منها وقال مخاطباً رغد:

حبيبتي... تعالي... سأريكِ شيئاً مهماً جداً!».

أقبلتْ رغد بفضول لترى ما في يد وليد، فإذا به... شيء أسطواني الشكل... مصنوع مِنَ الورق... ومُغطّى بالطوابع اللاصقة!

[صندوق الأماني!].

«أوه! يا إلهي! ألا زلتَ تحتفظ به؟؟!».

تقول رغد وهي تتناول الصندوق مِنْ بين يديه بمرحٍ وتتأمَّله ببهجة، فيضحك وليد ويقول:

«وسأخبِّئه حتى يضع أطفالنا أمانيهم فيه! وسنجعلها تتحقَّق!».

تضحك رغد ثمَّ تنظر إلى وليد مِنْ طرف عينيها نظرة ارتياب مرحة وتقول:

«هل فتحتَه؟ اعترِف!».

فيضحك وليد ويقول:

«أنا؟؟ أبداً...».

ويستدرك:

«لكنني عرفتُ ما الذي يحتويه!».

تقول رغد متحدّية:

«وماذا يحتوي؟؟».

فيجيب وليد:

«افتحيه لنرى!».

رغد تنظر إلى وليد برضا... وتقولُ:

«نعم. الآن... لا بأس!... بل وبكل سرور!».

وفتحتْ الصندوق... وألقتْ نظرة على القصاصات... ثمَّ أخذتْ تستخرج القصاصة بعد الأخرى... ووليد معها يقرأ المكتوب عليها...

عندما وصلتْ إلى هذه القصاصة... نظرتْ إلى وليد ومشاعرٌ شتّى تملأ قلبها...

[أتمنى أنْ أتزوّج مِنْ ابنة عمّي رغد].

«وليد...».

هتفتْ بلهفةٍ وعطفٍ ومحبّة... فطبع وليد قبلةً دافئةً على يدها وربّتَ بلطفٍ على نُدبة ذراعها الأيسر القديمة، وقال:

«أمنيتي الأولى... التي كنتُ أعيش على أمل تحقيقها... آه يا رغد... لو تعلمين...!!».

وأحاطها بذراعيه بكل الحب والحنان... ومسح على شعرها الأملس برفقٍ... ثمّ قال:

«تابعي».

وتتابع رغد استخراج الأماني... وكانتْ الأمنية التالية... أهم أمنية... قضى وليد كل تلك السنين... يفكّر فيها...

يبتسم العريسان لدى قراءتها ويقول وليد:

«دوَّختِني! جعلتِني مجنوناً يا رغد... فقدتُ عقلي وأنا أحزر... مَنْ كنتِ تقصدين!».

تضحك رغد ثمّ تقول:

«كان يجب أنْ تعرف! أنا لا أرى في حياتي إلا وليد! أُحبّكَ منذُ لا أعرف متى... وإلى لا أعرف متى!... آه... وليد... وليد قلبي... حبيبي... لقد كنتَ كلَّ شيءٍ بالنسبة لي! كل كلّ شيء... كنتُ أشعر... بأنّكَ شيءٌ يخصُّني أنا... إنَّكَ موجودٌ مِنْ أجلي أنا... ويجب أنْ تكون لي أنا!... وليد لرغد... أنتَ لي!...».

وليد يسكُن برهة، ثم يُطلِق ضحكةً خفيفةً، ثمَّ يضمُّ رغد إلى صدره بحرارة ويقبِّل جبينها، ثمَّ يقول:

«أعرف... حبيبتي! قلتِ لي ذلك مُسبقاً...».
تبعد رغد رأسها عن صدره ثمّ تنظر إليه باستغراب وتقول:
«أنا قلتُ ذلك؟».
فيجيب:
«نعم... منذُ زمنٍ طويل... طويل جداً...».
تقول رغد:
«لا أذكر!».
فيلتفتُ وليد إلينا وينظر باتجاهنا ويقول:
«لكنّكم تذكرون حتماً... أليس كذلك؟؟».

تمّتْ بحمد الله والصلاة على نبيّه وآله

اللهمَّ صلِّ على محمَّد وآل محمَّد

9 ديسمبر 2006م

19 ذو القعدة 1427هـ

للكاتبة الدكتورة: منى المرشود

طبيبة أطفال

Tumrhenna@yahoo.com

DrMJM@hotmail.com

PO. Box: 1449

Saihat: 31972

Eastern Province

KSA

أَنْتَ لي

رواية

د. منى المرشود

ظلّتْ رغد تنام في غرفتي لحين إشعار آخر.

في الواقع لمْ يزعجني الأمر، فهي لمْ تعدْ تنهض مفزوعةً وتصرخ في الليل إلا نادراً...

كنتُ أقرأ إحدى المجلات وأنا مضطجعٌ على سريري، وكانتْ الساعة العاشرة ليلاً، وكانتْ رغد تغط في نوم هادئ.

ويبدو أنها رأتْ حلماً مزعجاً لأنها نهضتْ فجأة وأخذتْ تبكي بفزع...

أسرعتُ إليها وانتشلتُها مِنْ على السرير وأخذتُ أهدّئ مِنْ روعها. كان بكاؤها غريباً... وحزيناً...

«اهدئي يا صغيرتي... هيا عودي للنوم!».

وبين أناتها وبكاؤها قالتْ:

«ماما».

نظرتُ إلى الصغيرة وشعرتُ بالحزن... ربما تكون قد رأتْ والدتها في الحلم.

«أتريدين الـ ماما أيتها الصغيرة؟».

«ماما».

ضممتُها إلى صدري بعطف، فهذه اليتيمة فقدتْ أغلى مَنْ في الكون قبل أنْ تفهم معناهما...

جعلتُ أطبطب عليها، وأهزُّها في حجري وأغنّي لها إلى أنْ استسلمتْ للنوم.

تأمّلتُ وجهها البريء الجميل... وشعرتُ بالأسى مِنْ أجلها. تمنيتُ لحظتها لو كان باستطاعتي أنْ أتحوّل إلى أمّها أو أبيها لأعوّضها عما فقدتْ.

صممتُ في قرارة نفسي أنْ أرعى هذه اليتيمة وأفعل كل ما يمكن مِنْ أجلها...

وقد فعلتُ الكثير...

والأيام... ستثبتُ ذلك.







أطياف للنشر والتوزيع
هاتف/فاكس: ٨٥٤٩٥٤٥ (٣) ٩٦٦+
القطيف - شارع القدس
ص.ب. ٦١٢١٥ القطيف ٣١٩١١
المملكة العربية السعودية
E-mail atyaf-pd@hotmail.com